

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عضو اللجنة العلمية لمراجعة مصحف المدينة النبوية
ولجنة الإشراف على التسجيلات القرآنية
بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

قدم له: معالي الدكتور / عبد الله بن عبد المحسن التركي
والأستاذ الدكتور / صالح بن غانم السدلان
ونخبة من العلماء المتخصصين

المجلد التاسع

من أول الأنبياء إلى آخر الفرقان


بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ سُورَةِ الأَنْبِيَاءِ (٢١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الأنبياء هي السورة الحادية والعشرون في ترتيب المصحف، والحادية والسبعون في ترتيب النزول، وهي سورة مكية نزلت بعد سورة السجدة، وقبل سورة النحل.

وعدد آياتها في المصحف الكوفي الذي هو على رواية حفص، اثنتا عشرة ومئة آية، وإحدى عشرة ومئة آية في بقية المصاحف.

وهي ألف ومئة وثمانٍ وستون كلمة، وأربعة آلاف وثمان مئة وتسعون حرفًا.

وقد سماها الصحابة سورة الأنبياء، ولم يُعرف لها اسم آخر، كما جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هُنَّ من العتاق الأُول، وهُنَّ من تِلَادِي[1].

وبنو إسرائيل: يعني سورة الإسراء، والعتاق الأُوَل، أي: من السور العتيقة التي نزلت بمكة، وهُنَّ من تِلَادي، أي: من أوائل ما نزل من القرآن.

وهي من أواخر السور النازلة بمكة قبل الهجرة.

وسُميت سورة الأنبياء؛ لأنه ذُكِر فيها ستة عشر نبيًّا، بالإضافة إلى مريم، وهم: موسى وهارون، وإبراهيم، ولوط، وإسحاق، ويعقوب، ونوح، وأيوب، وداود، وسليمان، وإسماعيل، وإدريس، ويونس، وزكريا، ويحيى، وذو الكفل.

ولم يُذكَر في سورة من القرآن مثل هذا العدد من الأنبياء عدا سورة الأنعام، فقد جاء فيها ذكر ثمانية عشر نبيًّا في أربع آيات متوالية، وهي مجرد سرد للأسماء في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٧٠٨، ٤٧٣٩).

ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام]

ونظرًا لطول سورة الأنعام، وتفصيل أحكام الأنعام فيها، بما لم يذكر في غيرها، ولأن أسماء الأنبياء الذين ذُكروا فيها لم يصاحبهم قصة لكل منهم؛ لذلك سميت سورة الأنعام، كما أن عدد الأنبياء في سورتي: هود، والشعراء، أقل بكثير مما جاء في هذه السورة، لذا كانت هي الأجدر بتسميتها: سورة الأنبياء.

ولم تَتَّبع السورة في ذكر هؤلاء الأنبياء ترتيبًا زمانيًا، ولا تحديدًا مكانيًا، فقد بدأت بذكر موسى وهارون، وثنَّت بالكلام عن إبراهيم، وهما من ذريته، وهذا عكس ما جاء في سورة مريم؛ حيث ذَكرتْ إبراهيم أولًا، وأتبعتْه بموسى وإسماعيل وإدريس ﷺ.

والجانب الذي فصَّلت فيه هذه السورة القول من قصة إبراهيم، هو ما يتعلق بتحطيم الأصنام، وهي أطول قصة في السورة من غيرها، وجاء ذكر لوط بعد إبراهيم؛ لأنه ابن أخيه، وشريك له في الهجرة من العراق إلى أرض الشام، ثم عاد الكلام إلى نوح، وتبعه الكلام عن داود، وسليمان، وهما من أنبياء بني إسرائيل، ثم ذَكَرتْ السورة ابتلاء أيوب، وتلاه إسماعيل، وإدريس، وذو الكفل، ويونس، وزكريا، ويحيى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وإلى جوار هؤلاء الرسل الكرام جاء ذكر مريم، كما ذُكِرتْ أم موسى في سورة القصص.

وبيَّنت سورة الأنبياء أن الله تعالى لم يرسل رسولًا إلا من الرجال؛ لأنهم أقدر على تحمل أعباء الرسالة، ومُقارعة صناديد الكفر، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [٧].

«وأغلب الأنبياء الذين ذُكروا في القرآن الكريم، ظهروا في شرق البحر المتوسط وجنوبه، في مناطق قامت بها أهم الحضارات القديمة، ويمكن وصفهم بأنهم أعضاء هيئة تدريس في معهد، عميده محمد بن عبد الله، وطلابه أهل الأرض كلهم»[١].

ويلاحظ أن الحديث عن الأنبياء في السورة، سبقه حديث عن اليوم الآخر ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ

---

(١) يُنظَر: الشيخ محمد الغزالي في كتابه: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ٢٥٦ .

ﵟٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖﵞ [٤٧] وأعقبه حديث مستفيض عن اليوم الآخر، كذلك بُدئ بقوله تعالى: ﵟوَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣ﵞ.

والحديث عن هؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا يُمَثِّل **أحد جوانب ثلاثة** هي موضوع السور المكية، بالإضافة إلى الشبهات التي يثيرها الكفار حول الرسالة والرسول، والتي تصدَّرت السورة؛ لتنفيدها وإبطالها.

وبيَّنت السورة أن أمة الإسلام أمة واحدة، وربها واحد؛ فكل الأنبياء دَعْوَتُهم هي التوحيد ﵟوَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥ﵞ ﵟقُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖﵞ.

أما **الجانب الثاني** للسور المكية: فهو أصل الشرائع، وأساس الرسالات، وهو جانب العقيدة، وتوحيد الله تبارك وتعالى، وقد أقامت السورة أدلة متعددة على ذلك، منها قول الله تعالى: ﵟأَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ﵞ.

وقوله: ﵟأَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖﵞ [٢٤].

وذكرت السورة عددًا من النعم والأدلة الكونية على وحدانية الخالق سبحانه، كالسموات، والأرض، والجبال، والماء، والطرقات.

أما **الجانب الثالث** للسور المكية: فهو الحديث عن القيامة، والبعث والنشور، والحساب والجزاء، وهو الذي بدأت به السورة ﵟٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡﵞ [١] ﵟوَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّﵞ [٩٧] ﵟيَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚﵞ [١٠٤].

وأرض الجنة يرثها عباد الله الصالحون، وهم أيضًا الذين يعمرون الأرض في الدنيا، وذَكرت السورة من مقدمات يوم القيامة ظهور يأجوج ومأجوج.

وهذه **العناصر الثلاثة** للسورة جاءت على النحو التالي:

١- من أول السورة إلى نهاية الآية الثالثة والثلاثين، يتناول عنصر العقيدة، وردّ شبهات الملحدين، وذكر مصارع المكذبين.

٢- ومن الآية الرابعة والثلاثين إلى الآية الثانية والتسعين، يتناول عنصر الوحي والنبوة والرسالة.

٣- ومن الآية الثالثة والتسعين إلى نهاية السورة، يتناول عنصر البعث والنشور والحساب والجزاء.

وتُختَم السورة ببيان أن رسالة النبي محمد ﷺ هي رسالة رحمة للعالمين جميعًا: الإنس، والجن، والملائكة، والحيوانات، والهوام، والطيور. . .إلخ.

وجاء بيان الحكم العدل، والقضاء الفصل في نهاية السورة: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [١١٢] وهذا الحكم يكون في الحساب الذي اقترب مجيئه وافتتحت به السورة.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

غَفْلَةُ النَّاسِ وَإِعْرَاضُهُمْ عَنِ الدَّارِ الْآخِرَةِ

١ - ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾

افتتح الله سبحانه السورة بما يقطع الأطماع في الحياة، ويحدد الاتجاه الأخروي، ويبيِّن قرب الوقت الذي يحاسب الله فيه العباد على أعمالهم، والحال أنهم في شغل ولهو، وإعراض عما فيه خيرهم وسعادتهم في الدارين؛ فقد دنا وقت حساب الناس على ما قدَّموا من أقوال وأفعال في هذه الدنيا، واقتربت مجازاتهم عليه، وهم مستغرقون في الشهوات، غافلون عن العمل المنجِّي من أهوال هذا اليوم، غير مستعدين للقاء ربهم إلا من رحم الله ممن آمن وعمل صالحًا.

عن عامر بن ربيعة أنه نزل عليه ضيف من العرب، فأكرمه وأحسن مثواه، وذكره لرسول الله ﷺ، ثم جاءه مرة أخرى، فقال الرجل (الضيف): إني استقْطَعْتُ رسول الله ﷺ واديًا مًّا في العرب، وادٍ أفضل منه - أي: أن النبي عليه الصلاة والسلام منَحه أرضًا واسعة طيبة - قال: وقد أردت أن أقطع لك من هذا الوادي قطعة تكون لك ولذريتك من بعدك، فردَّ عامر على الرجل قائلًا: لا حاجة لي في قطعتك، لقد نزلت علينا اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا وما فيها ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾[(١)].

وورد أن رجلًا كان يبني جدارًا، فمرَّ به رجل آخر في يوم نزول هذه الآية، فقال الرجل الذي يبني الجدار: ما نزل اليوم من القرآن؟ فقال الآخر: نزل اليوم: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ فنفَّض الرجل يده من البنيان، وقال: والله لا بنيْتُ أبدًا وقد اقترب الحساب[(٢)]

فالله ﷻ يبيِّن في مطلع سورة الأنبياء أن الحساب قد اقترب، وهذا القرب يعني أحد أمرين:

---

(١) يُنظَر: أبو نعيم في «الحلية» ١/ ١٧٩ وابن عساكر ٢٥/ ٣٢٧ و«تفسير الألوسي» وابن كثير، وغيرهم.
(٢) تفسير ابن عطية (٥/ ٧٣).

المعنى الأول: أن أمة محمد ﷺ هي آخر الأمم، ورسولها آخر الرسل، وعلى أمته تقوم الساعة، فقد قرُب الحساب منها بالنسبة لما قبلها من الأمم، كما قال ﷺ فيما يرويه أنس بن مالك ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[١].

والقيامه تقوم على هذه الأمة، فمعنى ذلك: أن هذه الأمة أقرب أمة إلى قيام الساعة، بالنسبة إلى من سبقها من الأمم، وبالنسبة إلى ما بقي من عمر الدنيا وما مضى منها، وفي هذا يقول الله ﷻ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: ١].

وقال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾ [القمر] وغير ذلك من آيات القرآن الكريم.

والمعنى الآخر لقرب قيام الساعة: هو الموت؛ فكل إنسان يموت، تقوم قيامته، فقد اقتربت الساعة لكل من يموت، بمعنى: أنه إذا مات الإنسان دخل في دار الجزاء والحساب وابتداء السؤال، ومقدمات النعيم أو العذاب في البرزخ، وكل آتٍ قريب.

وموقف عامر بن ربيعة والرجل الذي يبني الجدار، يفيد التأثر بالآية، ويقظة الضمير من الغفلة عن الدار الآخرة، ولا يعني ترك عمارة الدنيا؛ فقد جاء في الحديث عن أنس ﷺ: «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة -أي: شتلة- فإن استطاع ألَّا يقوم حتى يغرسها فليغرسها**»[٢].

فالعمل للدنيا بما لا يلهي عن الآخرة مطلوب، وهذا يصور حال المسلم بالنسبة لقيام الساعة، فهو يُحَاسِب نفسه قبل أن يُحَاسَب، ويزن أعماله قبل أن توزن، ولا يركن إلى الدنيا ويجعلها أكبر همه، ولا يبيع الآخرة بالدنيا، فيشتغل بأمور دنياه عن آخرته، إنما يعمل لدنياه بالقدْر الذي يتطلب معيشته فيها، ولا ينسى نصيبه منها، ويرغب فيما عند ربه، فيكثر من العمل الصالح للقاء ربه.

وفي الآية تعجُّب من حال كل غافل مُعْرِض عن اليوم الآخر؛ فقد اقترب للناس

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٥١).

(٢) مسند أحمد (١٢٩٨١، ١٢٩٠٢) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم، كما قال محققوه، وأخرجه الطيالسي (٢٠٦٨) والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩) والبزار (١٢٥١) كشف الأستار.

حسابهم باقتراب موعد قيام الساعة، وهم عن هذا اليوم في غفلة غير مستعدين، فهم لا يتأهبون، ولا يتزود كثير منهم بالعمل الصالح للقاء ربهم.

٢- ﴿مَا يَأْتِيهِم[1] مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾

والقرآن يُتلَى صباحَ مساءَ، ولكنه لا يجد آذانًا صاغية، مع كثرة سماعه وكثرة ترداده، فهم غافلون عن تدبر معانيه، وغافلون عن العمل بما فيه، ومعرضون عن امتثال أمره واجتناب نهيه، فحظُّهم منه سماع ألفاظه.

وقد وصف الله تعالى قومًا بقوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾ [الشعراء].

وفي بدء الرسالة كان القرآن ينزل كل يوم، وآيات اليوم تختلف عن آيات الأمس، والسورة تنزل بعد السورة، والآية بعد الآية، والقرآن ينزل من عند الله ﴿مُّحْدَثٍ﴾ أي: متجدد في تنزيله، وفي حلاله وحرامه، وأوامره ونواهيه، وآياته وسوره، ثم يصور القرآن حالهم بأنهم لا يستمعون إليه إلا وهم يلعبون.

لقد كان القرآن ينزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ، وفق الحوادث والأحوال، وينزل ابتداء؛ لإصلاح حال البشر، ثم يُتلَى على مرِّ الأزمان، يعظهم ويذكِّرهم وهم -عن سماعه وعن العمل به- في لهو ولعب وهزْل واستهتار، وكان ينبغي عليهم أن يُقبلوا بقلوبهم وجوارحهم على أمر الله تعالى ونهيه، ويجعلون القيامة والحساب والجزاء نصب أعينهم.

فمعنى أن القرآن مُحْدَث، أي: متجدد في النزول؛ فقد نزل القرآن تباعًا على مدى ثلاثة وعشرين عامًا، فالحدوث يتعلق بالنزول ولا يتعلق بالقرآن نفسه.

والقرآن كلام الله القديم، وهو صفة قائمة بذات الله تعالى.

وليس معنى ﴿مُّحْدَثٍ﴾ أن القرآن حادث أو مخلوق، كما قال بعض المبتدعة في

---

(١) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (ما يأتيهم) ألفاً في الحالين، وكذا حمزة عند الوقف، وقرأ يعقوب بضم الهاء، والباقون بكسرها.

عصور: المأمون، والمعتصم، والواثق، وضُرب بسببها عنق محمد بن نصر الخزاعي، وصارت فتنة عظيمة ابتُلي بسببها الإمام أحمد فضُرب وحُبس طويلًا[1].

بَعْضُ شُبَهِ الْمُكَذِّبِينَ بِالرِّسَالَةِ وَالرَّدُّ عَلَيْهَا

٣- ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾

وصف الله تعالى المعرضين عن القرآن بقوله: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أن قلوبهم غافلة عن تدبر القرآن والعمل بما فيه، مشغولة بأباطيل الدنيا وشهواتها، فهم لا يعقلون ما فيه، إنهم في لهو عن الآخرة، وإعراض عنها، لا يتدبرون ولا يتأملون، وكم من مسلم يفتح المصحف ليقرأ فيه، أو يستمع إليه من المذياع أو من غيره، ولكنه لا يتدبر، ولا يتأمل، ولا يعمل بما فيه؛ لأنه في لهو وإعراض، لا يلتزم بأمر القرآن، ولا ينتهي بنهيه، فضلًا عمن يحفظ القرآن ولا يعمل به، نسأل الله السلامة، وهذا لا ينفي وجود الخير الكثير في هذه الأمة.

من شُبَهِ المكذبين:

ثم تذكُر سورة الأنبياء **شُبهتين**، أو اعتراضين للمشركين، كثيرًا ما يَذْكُرهُمَا الله تعالى عن الكفار والمشركين في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، ويردُّ القرآن على هذين الاعتراضين، ويدْحَضُهما:

الشبهة الأولى: كون الرسول بشرًا: وهي شبهة من المعادين للإسلام، الذين ينكرون أن يكون الرسول بشرًا، ويزعمون أنه ينبغي أن يكون الرسول ملَكًا من الملائكة؛ إذ كيف يكون الرسول بشرًا، واحدًا منهم، لا يتميز عنهم في شيء؟! إنهم يتناجوْن فيما بينهم، فيقولون: إن الرسول ينبغي أن يكون ملَكًا، لا يأكل ولا يشرب، ولا يمشي في الأسواق، ولا ينكح، ولا يكون له ولد، وينبغي في زعمهم أن يكون الرسول مخلَّدًا لا يمرض ولا يموت.

فإذا جاء أحد من البشر مدَّعيًا أنه رسول من عند الله كذَّبوه، وقالوا: إنه ساحر، أو شاعر، أو كاهن، ونحو ذلك، فإذا جاء لهم بمعجزة من عند الله تعالى تدل على صدق

---

(١) يُنظَر: «تفسير فتح القدير» للشوكاني (٣/ ٣٩٨).

رسالته، قالوا عن هذه المعجزة: إنها سحر، أو شعر، أو كهانة، أو أنه افتراها واختلقها من عند نفسه، أو أنها منامات وأضغاث أحلام، وأوهام رآها في منامه، ثم توهَّم أنها وحي من الله تعالى أُوحِي إليه بها، هذه هي الشبهة الأولى، جاءت في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

أما الرد على هذه الشبهة: فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٧، ويوسف: ١٠٩].

وقد كان المشركون يبالغون في السر والتناجي بينهم فيما يتعلق بالمسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: أن الكافرين اجتمعوا فيما بينهم على أمر خفي، وهو إشاعة أن محمدًا بشر، لا يختلف عنهم في شيء، وأن ما جاء به من القرآن سحر، وذلك بقصد صدِّ الناس عن اتباعه.

والنجوى لا تكون إلا سرًّا، ولكنهم يبالغون فيها، ويُجْمِعون على إخفائها، ولا يختلف منهم أحد في صد الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ وإشاعة أن ما جاء به سحر.

وبعد أن تحدث القرآن إلى الناس جميعًا في مطلع سورة الأنبياء يخص المشركين بالذكر في هذه الآية، وهم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، وقالوا: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؟! محمد هذا بشر، لا يتميز عليكم بشيء، كيف تؤمنون به؟ وكيف تصدقونه وهو ساحر؟ وكل ما يَظْهَر على يَدِ مُدَّعي النبوة سحر ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟ أي: وأنتم ترون بأعينكم أنه بشر مثلكم، فما تصديقكم لنبوته إلا من أثر سِحْرٍ سَحَرَكُم به، فكيف تتبعونه وهو بشر مثلكم لا يختلف عنكم في شيء، والتصديق به تصديق بالسحر وإتيان له؟، وسيأتي هذا الرد بأكثر من هذا عند تفسير الآية السابعة.

والشبهة الثانية: طلبهم لخوارق العادات: وذلك أنهم كانوا يطعنون في القرآن ويطلبون من النبي ﷺ أن يؤيَّد بآيات حسية، أو خوارق للعادات يَرَوْنها بأعينهم، كما كانت للأنبياء السابقين، مثل: الناقة، معجزة صالح، أو العصا واليد وغيرهما، معجزة موسى، أو إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله، معجزة عيسى، وغير ذلك، فكثيرًا ما كانوا يطلبون مثل ذلك من النبي ﷺ، فيقولون: هلَّا كان جبل الصفا لنا ذهبًا؟

وقد حكى الله تعالى بعض اقتراحاتهم في قوله: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء].

وإلى هذه الشبهة الثانية يشير قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥] بعد أن قالوا عن القرآن: أضغاث أحلام.

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾؟ [الإسراء].

وقد جاء الرد على هذه الشبهة في قوله تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ فالأمم الذين أجاب الله مطالبهم كذبوا، فأهلكهم الله، فهل ستؤمنون أنتم؟ وسيأتي هذا الردّ بأكثر من هذا عند تفسير الآية السادسة.

وما دام الأمر كذلك، فسأمضي في طريقي مبلِّغًا رسالة ربي، وسترون عاقبة تكذيبكم.

٤- ﴿قَالَ(١) رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾

ثم إن النبي ﷺ رد الأمر إلى ربه؛ فهو الذي يعلم ما أسروه في أنفسهم، وما تناجوا به فيما بينهم، وهو سبحانه الذي أرسلني إلى الناس كافة لإخراجهم من الظلمات إلى النور، وفي القراءة الأخرى: ﴿قُل رَّبِّي﴾ أي: قل لهم يا محمد، والقراءة التي في رسم المصحف برواية حفص: ﴿قَالَ رَبِّي﴾ أي: قال لهم محمد: ربي يعلم القول: السر والجهر، أي: يعلم ما تجهرون به، وما تخفونه في صدوركم ولا تتحدثون به، ويعلم جميع ما في هذا الكون ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بألف بعد القاف في (قال) مع فتح القاف واللام، فعل ماضٍ مسند إلى ضمير الرسول ﷺ، وهو إخبار من الله تعالى عما أجاب به الرسول الكفار، وقرأ الباقون بدون ألف (قُلْ) وضم القاف وسكون اللام، فعل أمر من الله تعالى؛ ليجيب الطاعنين في رسالته بذلك.

ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾ [آل عمران]. ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [إبراهيم]. وهو سبحانه السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم.

جُحُودُ الْقُرآنِ، وَعِقَابُ الْجَاحِدِينَ:

٥- ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾

إن الكفار لم يكتفوا بإنكار أن يكون الرسول بشرًا، بل جحدوا القرآن، وتخبطوا في هذا الجحود بأقاويل باطلة، انحصرت في هذه الآية في **ثلاثة أقوال**، أَطْلَعَ الله نبيه عليها:

القول الأول: أنه أضغاث أحلام، أي: أن هذا القرآن الذي أتى به محمد ﷺ منامات تخيَّلَها ورآها في نومه، وأخلاط، وأوهام لا حقيقة لها.

القول الثاني: أن هذا القرآن اختلاق وكذب وادعاء، أتى به محمد ﷺ وليس وحيًا، بل إنه افتراه وأتى به من عند نفسه.

القول الثالث: أن محمدًا شاعر، وما أتى به شعر.

والقرآن يرد على هذه الادعاءات الثلاثة في مواطن كثيرة، منها:

١- قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات].

٢- وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الحاقة].

٣- وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس].

٤- وقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦].

٥- وقوله: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧].

إذ لا يمكن لمحمد ﷺ أن يفتريه أو يختلقه، فإن كان قد اختلقه فَأْتُوا أنتم بمثل أقصر سورة منه، وأنتم أرباب الفصاحة والبلاغة، واختلِقوا كما اختلق، وافتروا كما افترى ﴿أَمْ

يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور].

وهم ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر]

أي: أنهم اقتسموا القول فيه، فقال بعضهم: شعر. وقال بعضهم: سحر. وقال بعضهم: إنه كهانة، وقال آخرون: أضغاث أحلام، وقال آخرون: إن الذي أتى به مجنون.

وهكذا يتخبَّط المكذبون بنبي الإسلام ﷺ في حكمهم عليه، فتختلف أقوالهم وتتعدد، وتضطرب كثيرًا في وصفه ﷺ، شأن الحائر الذي لا يستطيع الثبات على قرار؛ لعدم وجود حجة صحيحة يَحتجُّ بها، كما قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الإسراء]، و[الفرقان: ٩] والأمثال هي تعدد الأقوال فيه

قال تعالى في الرد عليهم وعلى أمثالهم: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء].

ثم يذكر القرآن الكريم الشبهة الثانية في هذه السورة التي يعترض بها المشركون على رسول الله ﷺ بعد هذا التخبط في وصف القرآن، فيقولون: إن كان محمد رسولًا حقًّا ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: فليأتنا بآية ومعجزة حسية نراها، كناقة صالح، وعصا موسى، مثل الرسل السابقين.

يقول سبحانه في الرد على هذا الاعتراض، أنه قد أيد الرسل قبل محمد ﷺ بالآيات والخوارق التي طلبها القوم، ومع هذا فَهُمْ لم يؤمنوا، ولما أجابهم الله تعالى إلى مطلبهم كذَّبوا ولم يُصدقوا؛ فأهلكهم الله وأبادهم.

قال تعالى في الردِّ على هذه الشبهة:

٦- ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

أخرج ابن جرير بسنده إلى قتادة قال: قال أهل مكة للنبي ﷺ: إن كان ما تقوله حقًّا، ويسرُّك أن نؤمن، فحوِّل لنا الصفا ذهبًا، فأتاه جبريل ﵇، فقال: إن شئت كان الذي سألك قومك، - أي أجبتُك إلى ما طلبوا- ولكنه إن كان -أي إنْ أُجيبوا- ثُمَّ لم يؤمنوا، لم يُنظروا، وإن شئت استأنيت بقومك، -أي إنْ انتظرت

وتمهلت عليهم- فأنزل الله هذه الآية[١].

وقد ذكر الله تعالى جانبًا من مطالبهم واعتراضهم عليه في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان].

وهكذا فإن جبريل ﷺ أتى النبي ﷺ وخيَّره بين أن يجيب الله تعالى مطالب قريش ويؤيده بآية حسية كما يطلبون، فإن لم يؤمنوا أهلكهم الله وأبادهم، كالأمم السابقة، وإن شاء انتظر وتمهل عليهم، فاختار النبي ﷺ الأمر الثاني[٢].

يقول سبحانه ردًّا على من يطلبون خوارق العادات: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم﴾ أي: ما صدَّق قبلهم مَنْ طلبوا الآيات الخارقة من الأمم السابقة الذين أرسل الله فيهم رسلًا، وقد أيد الله هؤلاء الرسل بالخوارق والمعجزات التي طلبوها ولكنهم لم يؤمنوا، فكانت النتيجة أن الله سبحانه أهلكهم وأبادهم عن آخرهم، فهل هؤلاء سيؤمنون؟ أي: إنهم لن يؤمنوا.

يقول سبحانه مقررًا ذلك: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]. ويقول سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]. أي: أن الله سبحانه يعلم حقيقة أمرهم، وأنه جلَّ شأنه لو أنزل عليهم الملائكة، وأخرج لهم الموتى من قبورهم أحياء، فكلموهم، ورأوُا الله عيانًا، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس] والقرية في القرآن هي المدينة العظمى.

والمعنى: إن الأمم الذين أرسل الله لهم رسلًا قبلك يا محمد، وطلب أهلُها المعجزات من رسلهم، قد تحققت لهم هذه المعجزات وأجابهم الله إليها، ولكن هذه الأمم لم تؤمن بل كذبوا؛ فأبادهم الله تعالى، ولذلك فإن الله تعالى يقول: إنَّ مَنْ كذبك

(١) «تفسير الطبري» ١٧/ ٤ .

(٢) يُنظَر هذا المعنى في: النسائي في التفسير برقم (٣٥١) عن قتادة.

من أمتك يا محمد، وطلب منك مثل هذه المعجزات الحسية لو أُجيب إليها فإنه لن يؤمن، ولو أعطيناه جميع ما طلب من اقتراحات.

وقد جاء هذا المعنى في صورة الاستفهام على وجه الإنكار والاستبعاد: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾؟ **الجواب**: كلَّا، لا يؤمنون، ولكن سَيَخْرُجُ من أصلابهم قوم مؤمنون، ولذا فإن الله تعالى أمهلهم ولم يستأصلهم.

٧- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ[١] فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

هذا هو الرد على الشبهة الأولى، أو الاعتراض الأول: بأن الرسول لا يكون بشرًا.

لقد كانت عقولهم القاصرة تُنكِرُ خصائص الإنسانية، وعوارض البشرية، على الرسول ﷺ، ولا يتصورون أن يكون الرسول بشرًا يأكل ويشرب، وينام ويتزوج، ويطوف في الأسواق، واستبعدوا أن يكون الرسول بشرًا يوحى إليه، مع أن إبراهيم عليه السلام بشر، وقد أقرت جميع الطوائف برسالته، فلماذا تقام هذه الشبهة الباطلة على محمد ﷺ، وهي موجودة في إخوانه من المرسلين، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أننا لم نرسل ملَكًا من الملائكة فيما سبق من تاريخ الأمم والشعوب؛ لأن البشر لا يطيقون رؤية الملَك، ولا يمكنهم فَهْم الخطاب أو التلقِّي عنه.

ولابد أن يكون الرسول بشرًا؛ كي تكون لهم قدرة على رؤيته والتفاهم معه، ويمكنه أن يُطَبِّق شرع الله فيهم، بطبيعة البشر الذي يأكل ويشرب، ويمرض ويموت، ويتزوج وتكون له ذرية.

فالرسول لا يكون إلا رجلًا؛ لأننا لم نرسل نساء، ولم نرسل ملائكة، ولا جنًّا، إنما أرسلنا رجالًا من البشر، فإن كنتم في شك من ذلك ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ ممن لهم خبرة بالرسالات السابقة ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أننا لا نُرسل إلا رجالًا في تاريخ الأمم كلها، اسألوا مَنْ لهم علم ممن سبق أن أُنزلت عليهم الكُتب، وأُرسلت فيهم الرسل، كأحبار اليهود،

---

(١) قرأ حفص (نوحِي إليهم) بنون العظمة، وكسر الحاء، مبنيًّا للفاعل؛ لمناسبة أول الآية، والفاعل ضمير تقديره: نحن، و(إليهم) متعلق بـ(نوحي)، والباقون (يُوحَى إليهم) بالياء وفتح الحاء، مبنيًّا للمفعول و (إليهم) نائب فاعل.

ورهبان النصارى، وكان المشركون يسألونهم ويصدقونهم؛ لأن لهم علمًا بالكتب المنزلة.

وسُمُّوا أهل ذكر؛ لأنهم يَذْكُرون خبر الأنبياء ويعرفونهم، ولم تكن العرب تعرفهم، والقرآن يسمى ذِكْرًا.

وليس المراد بالآية حقيقة السؤال، وإنما المراد تقرير وتأكيد المعنى المقصود من السؤال، وهو أن الرسول -أيَّ رسول- لا يكون إلا بشرا من الرجال، في جميع الأمم السابقة، فلا وجه لاعتراض المكذبين.

وأهل الذكر، كلمة تطلق على كل صاحب علم، فالمريض يسأل الطبيب، والطالب يسأل المدرس، ومن يرد إصلاح آلة يسأل من له خبرة وعلم بها.

والآية عامة تشمل كل شيء، فليسأل الجاهل العالم فيما لا يعلم، وأهل القرآن والعلم: من أهل الذكر، وفي الآية نهى عن سؤال من لا علم لهم، وأمر بسؤال أهل العلم في أصول الدين وفروعه.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٠٩]. وشأن النبي ﷺ شأن غيره من الرسل ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] فهو رجل من الرجال، وبشر من البشر.

٨- ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾

هذه الآية من تتمة الرد على القائلين بأن الرسول لا يكون بشرًا، أي: إننا لم نجعل المرسلين قبلك -يا محمد- أجسادًا بلا أرواح، تنتفي عنهم صفات البشرية .

ولم نجعلهم أجسادًا كالملائكة، أو أنواعًا من الآدميين خارجين عن طباع البشر، لا يأكلون، ولا يشربون، ولا يتناكحون، ولا يتناسلون، ولا يعتريهم ما يعتري البشر، من: العواطف، والانفعالات، والآلام، والآمال.

وما جعلناهم خالدين في الدنيا، وإنما هم بشر يموتون كغيرهم، ولا يُخلَّدون في الدنيا، فقد جعلنا لأعمارهم أوقاتًا محددة تنتهي عندها آجالهم، شأن كل محدَث مخلوق.

١- كما قال تعالى لنبيه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ۝٣١﴾ [الزمر].

٢- وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء].

٣- وقال جل شأنه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

٤- وقال أيضًا: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمن].

٥- وقال سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]. قال تعالى:

٩- ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾

لقد وعد الله رسله بالنصر والغلبة، ووعدهم جلَّ شأنه أن ينجِّيهم ويُهلك أعداءهم، وقد أنجز الله لهم ما وعد، فأهلك المسرفين من المكذبين المشركين.

وكما صَدَق الله وعده مع رسله السابقين، يَصْدق وعده كذلك مع خاتم المرسلين بعلو شأنه وظهور دعوته، وإعلاء كلمته ولو كره المشركون والكافرون،
ويَصْدُق وعد الله لرسوله بعذاب المكذبين به، كما أهلك من كذَّبوا رسل الله في الأمم السابقة.

والمسرفون: هم المفرِّطون، المجاوزون الحد في التكذيب، المستمرون عليه.

شَرَفُ الأُمَّةِ فِي كِتَابِ رَبِّهَا

١٠- ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية أن القرآن هو أعظم المعجزات التي أنزلها الله على البشر، وأن المعجزات التي يطلبها المكذبون المعاندون لا تدانيه في الشرف والعزة والمكانة، فقد أنزلنا إليكم يا معشر المسلمين -والعرب خصوصًا- قرآنًا فيه شرفكم وعزكم، إن عملتم بما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدتموها، وامتثلْتُم ما فيه من الأوامر واجتنبتم مافيه من النواهي، فإن فعلتم ذلك ارتفع قدركم، وعظم شأنكم.

وهذا الكتاب بلسان عربي مبين، فهو الآية الدالة على رسالة محمد ﷺ، وهو معجزة قائمة صالحة إلى قيام الساعة، بخلاف المعجزات التي يطلبها المكذبون، فإنه يراها جيل دون جيل، فهذه ناقة صالح رآها قوم صالح ثم ماتوا، ومن جاء بعدهم لم يرها، وهكذا عصا موسى، ومعجزات عيسى وغيرهم.

أما القرآن فهو معجزة ماثلة قائمة بين أيديكم، وهو كتاب فيه هدايتكم وصلاحكم وشرفكم وَمجْدكم وعزَّتكم ونَصْركم إن أنتم تمسكتم به وعملتم بما فيه، قال تعالى عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] يُذَكِّركُم أمر دينكم ودنياكم، ويُذَكِّركُم أحكام شرعكم، وجزاء أعمالكم وأقوالكم، فكلمة (ذكر) يُقصَد بها معنيان:

الأول: القرآن المشتمل على الهدى والعظة والتذكير.

الثاني: الشرف والعزة والمكانة حتى آخر الدنيا، وكلاهما مراد في الآية.

وقد فرَّع الله تعالى على المعنيين معًا قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ لأن مَنْ جاءه هذا القرآن ولم يهتدِ به يُنْكَر عليه سوء عقله، ومن جاءه ما فيه مجده وسمعته ولم يعبأ به، ينكَر عليه سوء تقديره للأمور.

وأيضًا فإن القرآن معجزة تفوق كل الآيات التي يطلبها المكذبون، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت].

ولم يكن للعرب ذكرٌ في العالمين، ولا شرفٌ، ولا مجدٌ يُذكر، قبل نزول هذا القرآن.

ومصداق هذه الآية أن من اهتدى بالقرآن من السلف الصالح، ومن سار على منهجهم حصل له من الفخر، والرفعة، والشرف ما زاد على ملوك الدنيا، ومن لم يَرفع بالقرآن رأسًا فلا سبيل إلى سعادته في الدنيا والآخرة، إلا بالاتعاظ والاهتداء بهذا الكتاب.

هَلَاكُ الْأُمَمِ الَّتِي كَذَّبَتْ رُسُلَ اللَّهِ

١١- ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾

ولما ذكر سبحانه صِدْقَ وعده لرسله ومن تبعهم بنصر المؤمنين ونجاتهم، أعقب ذلك ببيان إهلاك أمم كثيرة من الظالمين لأنفسهم بالكفر والشرك، وَوَصْفِ ما حلَّ بهم من العذاب؛ ليكون فيه العبرة والعظة لمن تجاوز حدود الله تعالى، وفي هذا تهديد ووعيد للمكذبين الكافرين بإهلاكهم، وإنشاء أمة مؤمنة بعدَهم، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم].

وقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء].

والقرية المشار إليها في الآية ليست قرية بعينها، إنما هو مثل مضروب؛ لبيان مصير الأمم التي كذبت رسلها.

ويقال: إنها مدينة في اليمن، يقال لها: حَضُوراء، أو حَضُور، من أعمال زَبيد.

هذه القرية أرسل الله فيها نبيًّا اسمه شعيب بن ذي مهدم في زمن أرمياء، نبي بني إسرائيل، فكذبوه وقتلوه، وقبْره في جبل من جبال اليمن، يقال له: حنين، وهو غير شعيب نبي مدين، فسلط الله على أهل حضوراء بختنصر فهزموا جيشه مرتين، فسار إليهم بنفسه فسباهم وقتلهم، ولما استمر فيهم القتل تركوا قريتهم وفروا هاربين منها، وأهل هذه القرية ممن شملتهم الآية[1].

وفي هذه الآية يبيِّن سبحانه أنه كم من قرية كذبت رسولها، فأتينا عليها واستأصلناها، وأنشأنا على أنقاضها قومًا آخرين.

والمعنى: إن كثيرًا من القرى التي تجاوز أهلها حدود الحق، ومردوا على الضلال والكفر، أهلكهم الله بعذاب أبادهم جميعًا، وأوجد الله بعدهم قومًا آخرين سواهم.

والقصم: هو أشد حركات القطع؛ فالدمار يحل بالديار القائمة، والإنشاء يبدأ بالديار اللاحقة.

١- كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ﴾ [الإسراء: ١٧].

٢- وقال عز وجل: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج].

٣- وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٦].

٤- وقال جل شأنه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ [ق: ٣٦].

٥- وقال أيضًا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يس].

---

(١) يُنظَر: «فتح القدير» للشوكاني (٣، ٤)، و«فتح الباري» (٨/٤٣٦)، وقد أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس، وأخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد كما في «الدر المنثور» (١٠/ ٢٧٤).

٦- والقرية التي أهلكها الله لا تعود إلى الوجود مرة أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥﴾ الأنبياء] قال تعالى:

١٢- ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢﴾

يصور القرآن حال هؤلاء الظالمين عندما أدركتهم مقدمة العذاب، وشاهدوا بوادره، ورأوا بأعينهم هلاك غيرهم، وتيقَّنوا نزول العذاب الشديد بهم، عندئذ أسرعوا هاربين ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ ورأوْا بأعينهم العذاب النازل بهم، والقتل المستمر فيهم ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يفرون من القرية مسرعين هاربين.

وهذا شأن كل قوم كذبوا رسولهم، وقاوموا شرع الله تعالى وأحكامه، يقول سبحانه:

١٣، ١٤- ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾

أي: ويقال لهؤلاء المكذبين المترفين، بعد أن حلَّ بهم الهلاك والدمار: الركض والندم لا يفيدكم ، ولكن إن كان لكم قدرة على العودة، فارجعوا إلى ما أترفتم فيه من الشهوات والملذات، ارجعوا إلى دنياكم وآلهتكم، فاستمتعوا بها، حتى يأتي أمر الله، ولعلكم تسئلون، لماذا فررتم وما الذي دهاكم؟ والقائل هم الملائكة، استهزاء وسخرية، أو هم المؤمنون الناجون من الهلاك، وهيهات أن يعود بهم الحال، فإن الوقت قد فات، والعقاب قد حل، وذهب العز والشرف وما كانوا فيه من النعيم والشهوات والمساكن الفخمة.

وعلى أن الآية نزلت في أهل قرية حَضوراء، فالمعنى أن رجال بختنصر قالوا لأهل القرية الهاربين منها على وجه التَّهكُّم: لا تَفِرُّوا وارْجِعوا إلى ما كنتم فيه من النعيم، وعودوا إلى لذائذكم، ومساكنكم المشيدة، وقصوركم العالية، ومعيشتكم السعيدة ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ شيئًا من دنياكم، وذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية أو لعلكم تسألون عما جرى لكم من الأهوال.

أي: ارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعيم؛ لتروا حال البلاد التي تركتموها في غنًى ورخاء، لعل سائلًا يسألكم شيئًا من هذا النعيم فتُعطوه، ولعل سائلًا يسألكم عما أصابكم فتُجيبوه، يقال لهم ذلك على وجه التهكم.

والترف المذموم: هو الخالي من الإيمان والعمل الصالح؛ لأنه يؤدي بأصحابه إلى هذه النتيجة.

فلم يكن لهم من جواب حين رأوا العذاب إلا أن اعترفوا وأقروا بذنوبهم، فقالوا: يا هلاكنا لقد ظلمنا أنفسنا بالكفر، وعدم الشكر والغفلة عن الذكر، فندموا واعترفوا في وقت لا ينفع فيه الندم. قال تعالى:

١٥- ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾

أي: فما زالت تلك المقالة، وهي دعاؤهم على أنفسهم بالهلاك والويل والثبور، حين قالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ حتى جعلناهم كالزرع الذي تم حصْده بالمناجل ولم يبق له أثر، أي: ما زالوا يكررون مقالتهم بالدعاء على أنفسهم حتى هلكوا عن آخرهم، وأصبحوا كالنار الخامدة التي انطفأ لهيبها بعد اشتعالها، وهذا بيان لما صار إليه مآلهم، فقد خمدت أنفاسهم، وسكتت أصواتهم، وسكنت حركاتهم.

فاحذروا -أيها المخاطبون- أن تستمروا على تكذيب محمد ﷺ وعدم الإيمان بدعوته، فيحل بكم ما حلَّ بمن قبلكم، فهذه هي عاقبة الظالمين، وما ظلمهم الله شيئًا، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، قال تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك].

الْهَدَفُ وَالْغَايَةُ مِنْ خَلْقِ الْعِبَادِ

١٦- ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾

المقصود من هذه الآية: هو إيقاظ العقول إلى أن هذه الحياة ليست هي نهاية المطاف بالنسبة للخلق، حتى لا يستوي المحسن والمسيء، بل إن مقتضى العدل، أن يأتي يوم آخر يجازَى فيه العباد بأعمالهم، ولذلك يكثُر في القرآن ذكر البعث والنشور بعد ذكر خلق السموات والأرض ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] وذلك لأن خلق السموات والأرض يُستدل به على وجود الخالق المدبر، وأنه سبحانه مستحق للعبادة دون سواه، ولهذا فإن لفظ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ جاء مطَّردًا في القرآن بعد ذِكْر خلْق السموات والأرض؛ للتنصيص على أشرف مخلوق بينهما وهو الإنسان المقصود بالحكمة التي خلقه الله من أجلها؛ إذ كيف يكفر العباد بربهم، وهو خالق هذا الكون بما فيه ومن فيه، وقد خلقه سبحانه لحكمة سامية، وغاية عظيمة هي معرفته سبحانه، من خلال استدلال الخلق بآيات الله الكونية، على أنه الخالق الرازق المدبر، القادر على

إعادة الأجساد بعد موتها، ومن ثم إلى عبادة الله تعالى، وهي الوظيفة الأولى التي خلق الخلق من أجلها، وبعدها يكون الثواب والعقاب في الآخرة، فهذا الكون لم يخلقه الله عبثًا لغير هدف، وإنما خلقه؛ ليعرف العباد ربهم ويعبدوه، ثم لا يستوي المحسن والمسيء يوم لقائه.

والقرآن الكريم يخاطب الناس كافة في شرق الأرض وغربها، وشمالها وجنوبها، يخاطب أمة التوحيد التي اهتدت، وأجابت دعوة رسول الله ﷺ فآمنت وحَسُن إسلامها، ويخاطب أيضًا أمة الدعوة في أرجاء المعمورة من: الوثنيين، واليهود، والنصارى وغيرهم للدخول في الإسلام.

وهكذا، يبيِّن سبحانه في هذه الآية، أنه لم يخلُق هذا الكون بسمائه، وأرضه، وما فيهما، وما بينهما من مخلوقات وكائنات لعبًا ولا باطلاً، ولا لهوًا ولا عبثًا، وإنما خلقه لحكمة عظيمة، وفائدة كبيرة هي أن يتعرف الخلق على ربهم، فإذا عرفوه عبدوه وذكروه وشكروه، كما أمرهم ربهم ونهاهم، فإذا جاء يوم الحساب والجزاء فإنهم يُحاسبون على ما قدَّمت أيديهم، فمن أطاع الله ورسوله فله جنة عرضها السموات والأرض، ومن لم يجب دعوة محمد ﷺ ولم يدخل الإسلام، فهو من أهل النار المخلَّدين فيها، وكذا كل من مات على الكفر.

ومن ذلك أن الله سبحانه خلقهما لحكمة جليلة وغاية نبيلة، هي إقامة الحجة على العباد يوم القيامة على ما صدر منهم في الدنيا، وفق علم الله تعالى عنهم، لكي يعلموا أن الله تعالى لا ليس له شريك في ملكه، ولا تصلح العبادة إلا له.

١- وفى القرآن الكريم آيات كثيرة بهذا المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان].

٢- وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ أي: عبثًا ولهوًا، وليس بالحق ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

٣- وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ [الحجر: ٨٥].

٤- وقوله: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣].

هذا الحق، هو الحكمة والهدف والغاية التي من أجلها خلق الله البشر؛ ليتعرفوا على ربهم، فيعبدوه ويشكروه، ثم يحاسبهم ويجازيهم يوم القيامة وفق أعمالهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون]

وهذا الحق أيضًا هو المبيَّن في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

اتِّخَاذُ الْوَلَدِ مُسْتَحِيلٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى

١٧- ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

ولأن اللعب واللهو ليس من شأن الله تعالى، فلو فُرِض أن الله تعالى أراد أن يتخذ لهوًا من الزوجة والولد، لاتخذَهما من العوالم العليا التي لا ترونها، والله سبحانه يقول هذا على سبيل الفرض، وإلا فإن اللهو والباطل أمر مستحيل بالنسبة لله ﷻ، ولهذا فإن أهل اللغة يقولون: إنَّ (لو) حرف امتناع لامتناع، أي: أن الله تعالى علَّق أمرًا محالًا على أمر محال.

فيكون المعنى على سبيل الفرض والتقدير، أي: أنا لو أردنا أن نتخذ لهوًا لاتخذناه بعيدًا عن أعين الخلق بحيث لا يروننا، كالإنسان حين يفعل الشيء الذي يستحي منه بعيدًا عن أبصار الناس.

وفي التفسير المأثور: أن المراد باللهو: الزوجة والولد، كما قال بعض مشركي العرب: إن الله ﷻ تزوج من الجن فأنجب منهم الملائكة، فالملائكة بنات الله في زعمهم، وكما قال بعض اليهود: عزير ابن الله، فنسبوا له الولد، وكما قال فريق من النصارى: المسيح ابن الله.

واللهو: هو الولد بلغة أهل اليمن، والآية تردُّ عليهم جميعًا، كما قال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤]

واتخاذ الولد يستلزم اتخاذ الزوجة، ولهذا جاء تفسير اللهو: بالزوجة والولد.

ولو أراد الله اتخاذ الزوجة والولد من الأرض فإنه لن يتخذ مريم زوجة فى الأرض، وإنما يتخذ الزوجة من الحور العين، ويتخذ من الملائكة ما يشاء من الأبناء، والرجل عادة يجعل ولده وزوجه عنده، ولا يجعلهما في مكان آخر بعيدًا عنه، فكيف يتفق هذا؟ ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ولكننا لم نفعل ذلك لاستحالته على رب العالمين.

وهكذا: خلْقُ السموات والأرض، لا يمكن أن يراد بهما العبث واللهو، ولو أردنا العبث لما أطلعناكم عليه، وكل هذا من باب التنزل مع العقول البشرية وإقناعها بجميع الوجوه. قال تعالى:

١٨- ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

وما يصف به المشركون رب العالمين من اتخاذ الصاحبة والولد، كَذِب وباطل، والله ﷻ يعمد إلى باطلهم فيُزيله ويَدْحضه، كأن الحق قذيفةٌ تُلْقَى على الباطل فتشدخ رأسه، أي: أن حجج القرآن وأدلته القوية الواضحة تُبطل ما يقوله المشركون والكفار الكاذبون في دعواهم نسبة الولد والزوجة إلى الله ﷻ، وتمحق هذه الفرية التي يقول بها النصارى واليهود والوثنيون وغيرهم.

بل نقذف بالحق ونُبيِّنه، فيدحض الباطل فإذا هو ذاهب مضمحل، ويبقى الحق ثابتًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الرعد: ١٧].

ثم توعد الله المشركين على افترائهم، فقال: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ اللهَ به من: الزوجة، والولد، والشريك، وما تصفون به رسول الله ﷺ من: السحر، والشعر، والكهانة.

وهذه الآية عامة في قهر الحق للباطل في جميع المسائل الدينية والدنيوية، ويدخل فيها دخولًا أوَّليًا الذين يصفون الله تعالى بما لا يليق بجلاله، والذين يصفون رسول الله ﷺ بما يتنافى مع مقام النبوة.

الْمَلَائِكَةُ عِبَادٌ مُمَحَّضُونَ لِلطَّاعَةِ

١٩- ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

ثم بيَّن ﷻ أن اتخاذ الولد، والزوجة، والشريك، هو من شأن الخلق الفقراء إلى الله سبحانه، والله تعالى هو الغني عن خلقه جميعًا، فهو خالقهم، ومالكهم، ورازقهم، والكل مربوب لله ﷻ، فكيف يتخذ ولدًا وزوجة، وهذا الكون كله ملك له سبحانه، وهو صاحب الكلمة الحاسمة في الأرض والسماء، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، والكل خاضع لجلاله؟!

وجاء مثل هذه الآية بلفظ (ما) في قوله تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[البقرة: ١١٦]، وآيات أخر.

وهنا جاء قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومَنْ للعاقل، وما لغير العاقل، أي: أن جميع ما في هذا الكون سواء مَن يعقل ومَن لا يعقل، الكل ملكٌ لله سبحانه، خلقه وعبيده وملكه، يتصرف فيهم كيف يشاء.

ثم خصص الله هذا العموم بمن أراد تشريفه من الملائكة، فقال: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ أي: أن مَنْ عند الله ﷻ من المخلوقات، وهم الملائكة المقربون، يسبِّحون الله تعالى ويَحْمَدونه ويكبرونه طوال ليلهم ونهارهم، وهم لا يملُّون من العبادة، ولا يتْعبون ولا يأنفون منها، ولا يحدُث منهم فتور، ولا تراخٍ، ولا تقصير، وهم في عبادة دائمة مستمرة لا يشق عليهم ذلك، فكيف يجوز أن يشركوا بالله أحدًا من خلقه وعبيده؟

والاستحسار: هو الإعياء والتعب الشديد، جاء في الحديث عن حكيم بن حزام، أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «**هل تسمعون ما أسمع؟**» قالوا: ما نسمع من شيء، فقال ﷺ: «**إني لأسمع أطيط السماء، وما تُلام أن تئط، وما فيها موضع شبر، إلا وعليه ملك ساجد أو قائم**»[1] فهم:

٢٠- ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

وصف ﷻ الملائكة الكرام وعباده الطائعين بأنهم يُصَلُّون ويذكرون الله دائمًا ويُنزهونه،

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣/ ٢٠) عن حكيم بن حزام، وأخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» برقم: (١١٣٤) وله شاهد من حديث أبي ذر الغفاري أخرجه الترمذي في «السنن» برقم: (٢٣١٢) وقال: هذا حديث حسن غريب.

لا يضعُفون ولا يملُّون، ولا تنقطع عبادتهم، فهم في تسبيح الله وطاعته بصفة مستمرة، وراحتهم النفسية في ذلك.

سأل فتى من بني عبد المطلب، كعب الأحبار: كيف أن الملائكة تسبح لله بصفة دائمة لا يشغلها شاغل؟ فقال للسائل: ألستَ تأكل وتشرب، وتقوم وتجلس، وتتكلم وتنام، وتركب وتجيء، وتتحرك وتعمل، وأنت في جميع أحوالك تتنفس؟ قال: فكذلك جُعِل لهم التسبيح(١).

فالتسبيح من الملائكة كالنفَس من بني آدم، فكما أن الإنسان لا ينقطع نفَسُه إلا إذا مات، فهو يقوم ويجلس، وينام ويستيقظ، ويتحرك ويسكن، وهو يتنفس، فكذلك الملائكة نفَسُهم هو التسبيح، فهو مستمر لا ينقطع؛ ذلك لأن تسبيح الملائكة يكون بأصوات مخلوقة فيهم، لا يعطِّلها تبليغ الوحي ولا غيره من الأقوال، فهو يجري فيهم مجرى النفَس

وفي مقدور البشر أن يكونوا كالملائكة في مواصلة الطاعة المستمرة لله ﷻ، ويتحقق هذا بالنية في جميع أقوالهم وأفعالهم، بحيث يجعل المسلم حركاته وسكناته، وعمله ونومه ويقظته، حتى قضاء شهوته لأهله، يجعل ذلك كله لله، فهو ينام، ونومُه يكون عبادة، ويأتي أهله، ويكون ذلك عبادة، ويعمل، ويكون عمله عبادة، ويذهب ويجيء ويكون مشيه عبادة، ويتنظف ويغتسل، ويكون ذلك عبادة، وهكذا يتحول كل شيء في حياة الإنسان إلى طاعة، وذلك بالتوجه بالنية إلى الله ﷻ، فيكون كالملائكة.

والنية هي التي تفرِّق بين العادة والعبادة، فإذا أكل الإنسان ليُشبع حاجته من الطعام، فإن أكله قد يكون عادة، وقد يكون عبادة، وذلك أنه إذا نوى بأكله هذا التقوِّي على الطاعة وعلى طلب المعيشة، كان أكله عبادة يؤجر عليها، وإلا كان أكله عادة، وهكذا سائر الأقوال والأفعال.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام] أي: أن جميع حركاتي وسكناتي، حتى موتي وحياتي كلها

---

(١) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٣٥).

طاعة وعبادة لله تعالى، وبهذه الطريقة يكون العبد ربَّانيًّا، دائم الطاعة لله تعالى كالملائكة.

أَرْبَعَةُ أَدِلَّةٍ عَقْلِيَّةٍ وَنَقْلِيَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ

وبعد أن بيَّن سبحانه أن من مخلوقاته من يُسبِّحون الله تعالى ليلهم ونهارهم دون فتور، فإنه ﷻ يوبِّخ المشركين على شِرْكهم بالله تعالى، وعدِم توحيدهم له سبحانه، وعدِم صرْفهم العبادة له وحده دون سواه، فيقيم ثلاثة أدلة عقلية، ودليلًا رابعًا نقليًّا على توحيده سبحانه.

وهؤلاء الذين أشركوا بالله تعالى ليسوا في وقت النبي ﷺ فحسب، بل هم في كل زمان ومكان، والقرآن لا يخاطب أهل الجزيرة فقط، ولا يخاطب العرب وحدهم، ولا يخاطب أهل التوحيد فحسب، إنما يخاطب البشر جميعًا: أمة الدعوة، وأمة الإجابة، ومنهم من يعبد الوثن، والبقر، وغيرها، فيخاطبهم الله جميعًا بهذه الأدلة:

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: دَلِيلُ الْقُدْرَةِ

٢١- ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

أي: كيف يصحُّ للمشركين أن يعبدوا آلهة عاجزة، لا تَقْدِر على إحياء الموتى؟! فهذه الآلهة التي اتخذوها من الأرض، وأشركوها مع الله ﷻ في عبادته، هي من الذهب، أو من الفضة، أو من الحجارة، أو من الخشب، أو من البشر، أو من الكواكب، وغيرها، وكلها لا تُحيي الموتى، ولا تُدبِّر الأمر، ولا تَرزُق الخلق.

ولا يكون إلهًا يستحق العبادة إلا من يقدر على الإحياء والإيجاد من العدم، ولا يقدر على الإعادة إلا الذي بدأ الحياة، وهذا معنى ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي: يُحْيُون الخلق بعد مماتهم.

ثم لماذا يخصُّ الله ﷻ البعث بالذكر في الاستدلال على نَفْيِ الألوهية؟

الجواب: لأن إحياء الموتى من خصائص الإله الحق، بل هو من أبرز وأخص الخصائص، والذى لايحيي الموتى كيف يكون إلهًا؟!

فاستدلوا بعقولكم -أيها الكافرون- على وحدانية الله سبحانه، وهذا تهكم بالمشركين، كما قال إبراهيم لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات]. ومن كان مخلوقًا لا يكون معبودًا، وقد وصفهم الله بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا

يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل].

والاستفهام الذي في الآية، بمعنى النفي، أي أن هذه الآلهة لا تقدر على حشر العباد ونشرهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥] وقال سبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣] فكيف يعبد الإنسان مخلوقًا لا ينفع ولا يضر، ويترك من بيده النفع والضر؟

الدَّلِيلُ الثَّانِي: دَلِيلُ التَّمَانُعِ

٢٢- ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يبيِّن جلَّ شأنه أنه لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله تعالى لفسدتا في ذاتهما، وفسد من فيهما من المخلوقات، إذ لو كان لهذا الكون إلهين لتقوضت أركانه، لما بينهما من تعارض في تدبير الأمور إذا أراد أحدهما شيئًا وأراد الآخر شيئًا غيره، واتفاقهما في جميع الأمور غير ممكن، فلا بد لهذا الكون من إله قاهر بلا ممانع ولا مدافع، فسبحانه الواحد القهار.

وقال عبد الملك بن مروان حين قُتِل عمرو بن سعيد الأشدق: كان والله أعزَّ عليَّ من ناظري، ولكن لا يجتمع فَحْلان في شوْل -أي: في عدد من النياق- [1].

إذ لابد للإله الواحد من الإرادة المطلقة، والقدرة التامة على التصرف، وتعدد الآلهة يقتضي الاختلاف كما يقال: إن المرْكِب التي فيها قائدان تَغرق.

فهذا الكون لو كان فيه آلهة غير الله تعالى لأراد كل منهم أمرًا غير الآخر، هذا يطلب شيئًا، وذاك يطلب شيئًا آخر، هذا يريد أن يحرك هذا الجِرْم وهذا يريد تسكينه، هذا يرى رأيًا وذاك يريد رأيًا آخر، فيحصل التنازع، ويحصل الاختلاف، ويفسد الكون ولا يستقيم، ومن المحال أن يتم الاتفاق بينهم، وإذا تمت إرادة أحدهم كان الآخرون

---

(١) «تفسير الكشاف» (٣/ ١١١).

عاجزين، فلا يكونون آلهة، وهكذا.

وأهل علم الكلام يسُمُّون هذا: دليل التمانع، بمعنى: أن بعض الآلهة يمنع البعض الآخر من تنفيذ مراده، وهو دليل عقلي مقنع، والحكمة ضالة المؤمن، وقد تنزه الله وتقدّس عما يصفه الجاحدون الكافرون من الكذب والافتراء وكل نقص، كما نزَّه الله نفسه؛ ليعلِّمنا كيف ننزهه سبحانه عن وجود إلهين في هذا الكون، فهو أمر محال؛ لأنه يُفضي إلى المحال، وهو وجود إلهين في الكون: أحدهما قادر، والآخر عاجز، أو يُفضي إلى وجود إلهين قادرين، كل منهما مستقل بالإيجاد.

وهذا الدليل وأمثاله مسوق لإثبات وحدانية الله تعالى، لا لإثبات وجوده، ولا لإثبات انفراده بالخلق؛ إذ لا نزاع لدى المشركين المخاطبين في الآية على وجود الله تعالى، وأنه الخالق الرازق، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

وفي آية أخرى: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]. وغير ذلك من الآيات.

ويزعم بعض المشركين أن الله تعالى بعد أن خلق السموات والأرض، أقام في الأرض شركاء معه لتدبير شؤون الخلق، ولذلك فإنهم كانوا يقولون في التلبية في الحج: (لبيك لا شريك لك لبيك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك) وهذا كلام مضطرب، فيه ضلال وتناقض، فما دام لا يملك شيئًا، وهو مملوك لله تعالى -كما يُقِرُّون- فكيف يكون شريكا لله؟!

١- يقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل].

٢- ويقول سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء].

٣- ويقول تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وفي نهاية الآية، وَصَفَ الله نفسه بأنه رب العرش، إشارة إلى أن المشركين لا ينازعون في أن الله تعالى منفرد بخلق السموات والأرض.

وفي هذا الختام للآية، بيان أن الله تعالى خالقُ ما هو أعظم منهما، وهو العرش، وإذا لزم انفراد الله تعالى بخلق الكون، يلزم انتفاء الشركاء له سبحانه.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ

٢٣- ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

من دلائل وحدانيته سبحانه، ووجوب تفرده بالعبادة، أنه سبحانه لا يُسأل عن قضائه في خلقه، وجميع الخلق يُسألون عن أفعالهم وأقوالهم، وهذا من خصائص الإله الحق، أنه لا يسألُه سائل عما يفعل، ولا يعترض عليه معترض، فهو سبحانه يجعل هذا صحيحًا وهذا مريضًا، هذا غنيًّا وهذا فقيرًا، هذا عزيزًا وهذا ذليلًا، هذا مغلوبًا وهذا منتصرًا، هذا سعيدًا وهذا شقيًّا، هذا على هدى وهذا على ضلال ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ فهو سبحانه القاهر، الذي ليس في وسع أحد أن يسأله عن تصرفاته وحكمته سؤال محاسبة وبيان لسبب الفعل، والخلق جميعًا يسألون.

ويصح أن يكون المعنى: أنه سبحانه حكيم في أفعاله وتصرفاته، يضع كل شيء في موضعه، فليس في أفعاله ما هو محل سؤال ولا اعتراض، وهذا المعنى جيد، وهو لا يتعارض مع المعنى السابق؛ إذ لا يوجد في الوجود من يعترض على أفعال الخالق سبحانه.

فهذه الآية أيضًا من الأدلة العقلية التي يؤمن بها الكافر والمؤمن؛ لأنها منطق وعقل.

وبعض من يدَّعون الشريك لله تعالى من البشر، يزعمون تعدد الآلهة بتعدد القبائل، وكذا ما تُثْبِتُه فرقة المانَوية، من وجود إلهين: أحدهما للخير والآخر للشر، أو أحدهما للنور والآخر للظلمة، وما يشبه ذلك، فهم يقولون: لا يمكن أن يصدُر هذا من إله واحد؛ إذ يُسأل إله الخير: لم فعلت الشر وأنت إله الخير؟ فكان هذا الرد من الله تعالى: أن لهذا الكون إلهًا واحدًا يصدر عنه كل شيء في الوجود، وهو لا يُسأل أبدًا عن فعله، لِمَ فعلته؟ والخلائق جميعًا مسؤولون يوم القيامة عن أعمالهم، ومحاسبون ومجزيُّون عليها ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر].

والذي يُسأل هو المخلوق، فهو مظنة المؤاخذة؛ لأنه يتعرض للخطأ في بعض ما يفعل، فمن اتبع الرسول فقد فاز وسعد، ومن أعرض عنه فقد شقي وهلَك.

وإذا كان الطبيب وهو يصف العلاج للمريض، لا يُسأل لِمَ وصفت هذا؟ ورئيس الجهة، وحاكم الدولة، لا يُسأل عن تصرفاته في إدارته أو دَوْلَتِه، ولو ذَبح الحاكم أبناء شعبه، فالآخرون يقولون: هذه مسائل داخلية، لا دخْلَ لنا فيها، وإذا كان هذا يحدث بالنسبة للمخلوق الضعيف، فكيف بالخالق سبحانه؟!

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: أَنَّ الْكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ كُلَّهَا لَا يُوجَدُ فِيهَا غَيْرُ التَّوْحِيدِ

٢٤- ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ[1] وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾

وبعد أن ساقت الآيات السابقة، ثلاثة أدلة عقلية منطقية على استحالة تعدد الآلهة في هذا الكون، أتت بدليل نقلي مبني على شهادة الشرائع السابقة، وهو دليل يعمُّ جميع الأمم، وجميع الكتب السابقة المعروفة: التوراة، والزبور، والإنجيل، وجميع الصحف والألواح المنزلة من عند الله تعالى، وكلها تنطق وتشهد بوحدانية الله تعالى، فجميع الكتب المنزلة من عند الله تعالى، قديمها وحديثها ليس فيها برهان على اتخاذ آلهة تُعبَد من دون الله، كما قال سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران].

ومعنى الآية: هل اتخذ المشركون من غير الله آلهة تنفع وتضر، وتحيي وتميت؟ وتصلح للعبادة والتعظيم قل لهم -يا محمد- هاتوا ما لديكم من الحجة والبرهان على ما اتخذتموه آلهة.

أما من جهة العقل فلن تجدوا دليلًا، كما سبق بيانه.

وأما من جهة النقل فهذا هو القرآن الذي جئتُ به، المنزل على مَنْ معي مِنْ هذه الأمة إلى قيام الساعة، وهذا ذكر مَن قبلي من الكتب المنزلة على أنبياء الأمم السابقة؛ كالتوراة والإنجيل، كلها ناطقة بتوحيد الله سبحانه، وليس فيها دليل على ما ذهبتم إليه من الشرك، فمن أين أتيتم بهؤلاء الشركاء دون برهان من جهة العقل، ولا برهان من جهة النقل؟!

فكأن الله سبحانه يقول لرسوله: هذا هو القرآن الذي بين يديك، وفيه أخبار الأولين

---

(١) قرأ حفص بفتح ياء الإضافة وصلًا من (من معيَ)، والباقون بإسكانها.

والآخرين، وهذه هي التوراة، والإنجيل، وغيرهما من الكتب الإلهية، وهي تحتوي على أخبار الأمم والشرائع، فهل في هذا القرآن، أو في جميع الكتب والصحف السابقة، من دعا إلى غير إله واحد؟ ابحثوا في الكتب السماوية كلها فلن تجدوا فيها غير التوحيد.

وفي نهاية الآية يبيّن الله ﷻ السبب في شركهم بالله تعالى، وأنه من الجهل والتقليد، فإنكارهم للحق ليس عن دليل ولا برهان ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ وإنما قلدوا من سبقهم في الباطل، وليس عن علم ولا دليل ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾، ولو أنهم التفتوا إليه لتبيّن لهم الحق من الباطل واضحًا جليًّا.

التَّوْحِيدُ دَعْوَةُ جَمِيعِ الرُّسُلِ

٢٥- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ(١) إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ(٢)﴾

بيَّن ﷻ خلاصة الرسالات الإلهية من لدن آدم إلى محمد، وأنها جميعًا تقوم على قاعدة التوحيد، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف].

وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ ما مهمته؟ ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وكذا في الآية التي معنا وغيرها، فلم يرسل الله رسولًا قطُّ إلا أوْحَى إليه أنه سبحانه واحد أحد، فرد صمد، هذه هي مهمة كل الرسل: إفراد الله تعالى بالعبادة، والأنبياء جميعًا دعاة توحيد، فكل رسول جاء يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هود: ٥٠] فمن أين أتيتم بهذا الشرك يا من أشركتم مع الله غيره؟ إذ ليس هناك دليل نقلي فى الكتب السماوية، ولا دليل من العقل الصحيح، ولا من الفطرة السليمة على أن مع الله آلهة أخرى.

والتوحيد أمر عام في جميع الشرائع السماوية، وهو قاعدة العقيدة التي لا تبديل فيها،

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بنون العظمة وكسر الحاء، على البناء للفاعل في (نوحِي إليه) والفاعل ضمير مستتر تقديره: نحن، بمعنى: إلا نوحي إليه كونه لا إله إلا أنا، وقرأ الباقون بالياء المضمومة وفتح الحاء، مبنيًّا للمفعول، بمعنى: إلا يوحى إليه كونه لا إله إلا أنا.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء من (فاعبدون) وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

ولا تحويل عنها، جاء بها جميع الرسل مَنْ أُنزل عليه كتاب منهم، ومن لم يُنزَل عليه كتاب، ليس في هذا خلاف بين النبوات، وإنما الخلاف جاء في الأحكام والتشريع، فلا معبود بحق إلا الله، فأخلصوا له العبادة.

رَدُّ شُبُهَاتِ مَنْ نَسَبَ الْوَلَدَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

٢٦، ٢٧- ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

ولما أبطل سبحانه وجود الشريك معه، أعقب ذلك ببطلان اتخاذه ولدًا، والولد يطلق على الذكر والأنثى، والنصارى في المشرق والمغرب يجعلون عيسى إلهًا، أو ابنًا للإله، ويجعلون جبريل إلهًا، ولا يزال التثليث شعارهم إلى هذا اليوم.

ودعوى اتخاذ الله الولد، وُجدت عند اليهود والنصارى، وَوُجدت أيضًا في حي من أحياء العرب لدى قبيلة خزاعة في ضواحي مكة؛ حيث قالوا: الملائكة بنات الله من سرَوَات الجن، وشاركهم في هذا الزعْم بعض من قريش.

والقرآن الكريم يردُّ على هذه الشبهة القائمة عند النصارى فى قولهم: إن عيسى ابن الله، أو إن جبريل (روح القدس) هو الله، وهي أيضًا الشبهة القائمة عند اليهود فى قولهم: عزير ابن الله، وغيرهم.

واتخاذ الولد نقص في جانب خالق الوجود، تنزَّه الله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ عما لا يليق بجلاله.

وَصْفُ الْمَلَائِكَةِ بِسِتَّةِ أَوْصَافٍ

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ

فالملائكة عباد مقربون مخصصون بالفضائل، والله سبحانه أفرد الملائكة بالذكر في قوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: أكرمهم الله تعالى برضاه عنهم، وقُرْبهم إليه، وفضَّلهم على كثير مِنْ خَلقه، فهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وهم في مقامات سامية، ومنازل عالية، وهم في غاية الخضوع والطاعة لله ﷻ.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال: قالت اليهود: إن الله ﷻ صاهَر الجن،

فكان منهم الملائكة، فقال الله تكذيبًا لهم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: أن الملائكة ليسوا كما قالوا، بل هم عباد أكرمهم الله بعبادته فهم في غاية الطاعة وهم مكرمون عند الله في منازل عالية ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ ثناء عليهم ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ قال: لا تشفع الملائكة يوم القيامة ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ قال: لأهل التوحيد[1].

ويرى ابن عطية أن قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ عبارة تشمل: الملائكة، وعزيرًا، وعيسى، وأن الأوصاف التي بعدها تشمل الجميع، ولا تخص الملائكة[2] **قلت**: وهو قول حسن، يشمل الملائكة وغيرهم.

والملائكة ليسوا بنات الله كما يزعم المشركون، بل هم عباد مَرْبُوبون مُدَبَّرون، ليس لهم من الأمر شيء، قد ميزهم الله وفضّلهم وكرمهم، وطهرهم من الرذائل، وهم في غاية الأدب مع الله تعالى، يمتثلون أمره ويجتنبون نهيه، ولا يتقدمون عليه بقول أو فعل، ولا يعصون الله طرفة عين، وعلم الله تعالى محيط بهم، لا يندّ عليه شيء منه لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل.

الْوَصْفُ الثَّانِي لِلْمَلَائِكَةِ: أَنَّهُمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا بِمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ رَبُّهُمْ

والملائكة -في حسن طاعتهم لله تعالى- لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم، ولا يتقدمون ربهم بقول أو فعل، فهم ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ فهم لا يقولون قولا حتى يقول الله.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ لَا يَعْمَلُونَ عَمَلًا حَتَّى يُؤْذَنَ لَهُمْ

ولا يعملون عملًا حتى يؤذن لهم، وهم يمتثلون أمر الله تعالى، ويجتنبون نهيه، ويقفون عند حدوده، ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ إذ ليس في وُسعهم مخالفة أمره أو نهْيه سبحانه. قال تعالى:

٢٨- ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾

وهو جلّ شأنه يعلم ما هو أمامهم في المستقبل، وما تركوه خلفهم في الماضي، أي: يعلم الماضي والحاضر والمستقبل، يعلم أخبار الأمم السابقة، والأمم اللاحقة، وما من عمل من أعمال الملائكة وغيرهم، إلا يعلمه الله سبحانه، ويحصيه عليهم.

---

(١) «الدر المنثور» (١٠/ ٢٨٣).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٥/ ٧٩).

الْوَصْفُ الرَّابِعُ لِلْمَلَائِكَةِ: أَنَّهُمْ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وكما أن الملائكة لا يتقدمون على الله تعالى بقول أو فعل، فهم لا يتقدمون عليه بالشفاعة إلا لمن ارتضى الله شفاعتهم لهم، فالملائكة تشفع يوم القيامة، ولكن هذه الشفاعة مشروطة **بأمرين** هما: **الرضى** من الله ﷻ عن المشفوع له من المؤمنين **والإذن** للشافع بالشفاعة فيه ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾.

الْوَصْفُ الخَامِسُ: أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيُشْفِقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ

ومع أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فهم من خوف الله تعالى حذرون، لا يأمنون مكره؛ لأنهم يعرفون عظمة ربهم، ويقدرونه حق قدره. ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾.

الْوَصْفُ السَّادِسُ لِلْمَلَائِكَةِ: أَنَّهُمْ لَا يَنْسِبُونَ لِأَنْفُسِهِمْ شَيْئًا مِنْ خَصَائِصِ الْأُلُوهِيَّةِ

٢٩- ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ[١] إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

والملائكة مع علوّ منزلتهم، وكرمهم على الله ﷻ، وعلو شرف مكانتهم، لو أن واحدًا منهم ادَّعى منزلة فوق منزلته، أو نسب لنفسه شيئًا من خصائص الألوهية، فادَّعى لنفسه - على سبيل الفرض- أنه إله مع الله، فإن عقابه يكون شديدًا، حيث يخلَّد في نار جهنم؛ لأنه ادَّعى ما يستوجب هذا العقاب.

كما قال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر] وبمثل هذا الجزاء نجزي كل ظالم مشرك.

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة أن هذه الآية خاصة بعدوّ الله إبليس، لمَّا قال ما قال لعنه الله وجعله رجيمًا[٢].

ولم يحدث أن أحدًا من الملائكة ادَّعى لنفسه شيئًا من خصائص الألوهية، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إني إله)، والباقون بإسكانها.

(٢) وبمثله أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك.

مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران].

وفي الآيات دليل قاطع على أن العبادات حق خالص لله تعالى، لا تُصرف لنبي مرسل، ولا لملك مقرب، فضلًا عن أن تُصرف لأحد من خلق الله تعالى ميتًا أو حيًا، فما بالكم بالجمادات، والكواكب، والجن، ونحوها؟!

عَشْرَةُ أَدِلَّةٍ حِسِّيَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ

٣٠- ﴿أَوَلَمْ[1] يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾

وبعد إقامة الأدلة العقلية والنقلية على وحدانية الله تعالى، وبيان وجوب التوجه بالعبادة إليه وحده، وإبطال مزاعم المشركين في تعدد الآلهة، وفي نسبة الشريك والولد إلى الله سبحانه.

بعد ذلك أقامت سورة الأنبياء عشرة أدلة مادية محسوسة -من هذا الكون الفسيح- كلها شاهدة وناطقة بوحدانية الله تعالى وفيها توبيخ لمن لا ينتفعون بالأدلة الكونية:

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: فَصْلُ السَّمَاءِ عَنِ الْأَرْضِ

إنه تعالى خلَق السموات والأرض في أول الأمر شيئًا واحدًا، ثم فصلهما عن بعضهما، والاستدلال بذلك على البعث والنشور، وهذا معنى ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾.

والرتق: هو الاتصال والتلاصق بين أجزاء الشيء.

---

(١) قرأ ابن كثير بحذف الواو من (أو لم ير) كلام مستأنف، والهمزة للاستفهام التوبيخي على تقصيرهم في عدم عبادتهم الله تعالى وحده، بعد قيام الأدلة الواضحة على وحدانية الله تعالى، وقرأ الباقون بإثبات الواو، على أنها عاطفة، والمعطوف عليه مقدر بعد همزة الاستفهام الإنكاري، يدل عليه الكلام السابق، وتقديره: أأشركوا بالله ولم يتدبروا في خلق السموات والأرض؛ ليستدلوا بهما على وحدانية الله تعالى.

والفتق: هو الانفصال والتباعد بين الأجزاء.

وقد نتج عن هذا الفتق أن السماء أمطرت، وأن الأرض أنبتت، وقبل هذا الفتق لم يكن هناك مطر ولا نبات، فالفتق يعني نزول الماء من السماء وخروج النبات من الأرض.

والآية تشير إلى أن العالميْن العلوي والسفلي، كانا كتلة واحدة، أي: قطعة واحدة، وجسمًا واحدًا متلاصقًا بلا فاصل بينهما، فلا مطر من السماء، ولا نبات من الأرض، ففصل الله بينهما بقدرته على هذا النحو المشاهد، فرفع السماء إلى مكانها، وأنزل منها المطر، وأبقى الأرض في مقرها وأخرج منها النبات، وفصل بين السماء والأرض بالهواء، جاء هذا المعنى عن الحسن وقتادة، كما أخرجه الطبري بإسناد حسن.

ثم إن السماء صارت سبع سموات، بعضها فوق بعض، وزين الله السماء الأولى منها بالنجوم والكواكب، وجعلها رجومًا للشياطين الذين يسترقون السمع، وجعل الأرض طبقات، بعضها دون بعض، وقد كانت السماء صماء لا تُمطر، فأَمْطرت بعد الفصل بينها وبين الأرض، وكانت الأرض هامدة يابسة لا تُنبت، فأخرج الله منها النبات.

روى ابن أبي حاتم أن رجلًا سأل ابن عمر ﷺ عن هذه الآية، فقال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله -يعني: ابن عباس- فذهب إليه فسأله، فقال ابن عباس: نعم، كانت السموات رتقًا لا تمطر، وكانت الأرض رتقًا لا تنبت، فلما خلق الله تعالى للأرض أهلًا، فتَق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن علمتُ أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علمًا[١].

ويحتمل أن يراد بالرتق والفتق: كلٌّ من السموات والأرض، أي: أن كلًّا منهما كان كُتلة واحدة، ثم فتَق الله السموات وفتق الأرض، كلًّا منهما على حدة.

ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فبيَّن سبحانه أنه خلق الأرض في يومين، وخلق أقواتها في يومين، وبعد ذلك خلق السماء؛ حيث قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾.

---

(١) من «تفسير ابن كثير» للآية (٥/ ٣٣٩) ورواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٢٠).

ثم قال سبحانه ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾.

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ﴾[فصلت: ٩-١٢]. وقد نتج عن هذا الفتق الظُّلمة والنور، والليل والنهار، بعد أن كانتا رتقًا لا نور بينهما، أو يتخلَّلَهُما.

وهناك آيات أَجْملتْ هذا التفصيل كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]

وقد أوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾ [الطارق] أي: المطر الذي ينزل منها ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ [الطارق] أي: أنها تتشقق؛ لإخراج النبات منها.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس].

والنظرية العلمية تقول: إن المجموعة الشمسية المؤلفة من الشمس وتوابعها، ومنها الأرض والقمر، كانت سديمًا، ثم انفصلت، وأخذت أشكالها الكروية، وأن الأرض كانت قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها وبرَدت، وهذه النظرية الفلكية لا تتعارض مع المفهوم الإجمالي للنص القرآني.

والمعنى: هل عمي الكفار فلم يشاهدوا ذلك بأبصارهم ويدركوه بعقولهم فيؤمنوا؟

الدَّلِيلُ الثَّانِي: نِعْمَةُ الْمَاءِ

وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۚ﴾ أي: جعلنا من الماء النازل من السماء بعد فتقها، كل شيء حي من: الإنسان، والحيوان، والنبات، والشجر؛ لأنه يتغذى به ويحيا عليه، فالماء ضروري لحفظ كل كائن حي.

وجاء هذا في حديث أبي هريرة ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسي، وقَرت عيني، أنبئني عن كل شيء، قال: «**كل شيء خُلق من الماء**» فقلت: أخبرني بشيء إذا عملتُ به دخلتُ الجنة، قال: «**أطعم الطعام، وأفشِ السلام، وصِلِ**

الأرحام، وقمِ الليل والناس نيام؛ تدخل الجنة بسلام»[(١)].

وقد يفسَّر الماء بالنطفة؛ لأن الله تعالى يخلق منها الكائنات الحية، وعليه يُحمَل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ [النور].

وعلى القول بأن المراد بالماء: النطفة، فإن هذا لا يشمل أنواعًا من الخلق؛ حيث:

١- يخرج منه آدم عليه السلام فهو لم يُخلق من نطفة، وإنما خُلق من تراب.

٢- ويخرج منه عيسى عليه السلام؛ فإنه قد خُلق بكلمة الله: (كن) فكان.

٣- ويخرج منه الملائكة؛ فإنهم قد خُلقوا من نور، كما صح في الحديث.

٤- ويخرج منه الجن؛ فإنهم خُلقوا من مارج من نار، كما نطق به القرآن ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر].

جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: **«خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارج من نار، وخُلق آدم مما وُصِف لكم»**[(٢)].

والقول بأن المراد بالماء: هو الماء المعروف لا يحتاج لهذه الاستثناءات.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أفلا يصدق هؤلاء الجاحدون بما يشاهدونه، فيخلصوا العبادة لله وحده.

والقرآن بهذا يوجه أنظار الكفار في كل زمان ومكان إلى عجائب صنع الله تعالى في الكون، ويقودهم إلى التأمل وإعمال الفكر، ويستنكر عليهم عدم الإيمان، مع كثرة آيات

---

(١) «صحيح ابن حبان» برقم (٢٥٥٩) الإحسان، قال محققه: رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي ميمونة، وأخرجه أحمد في «المسند» عن جابر برقم (٧٩٣٢، ٨٢٩٥) عن يزيد عن همام بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين غير أبي ميمونة فقد روى له أصحاب السنن الأربعة، وهو ثقة، كما قال محققوه، والحاكم وصححه بموافقة الذهبي، «المستدرك» (٤/ ١٦٠) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح خلا أبا ميمونة وهو ثقة، «مجمع الزوائد» (٥/ ١٦) وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٣/ ٣٣٨).

(٢) من حديث عائشة في صحيح مسلم برقم (٢٩٩٦).

الله المبثوثة في الكون.

أليس الذي أوجد السحاب في السماء و أودع فيه الماء، ثم ساقه إلى الأرض الجافة اليابسة، فاهتزت وتحركت وأنبتت من كل زوج بهيج، مختلف الألوان، متعدد المنافع، أليس في هذا دليل على وحدانية الخالق، مما يوجب الإيمان به، وصرف العبادة له وحده.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: خَلْقُ الْجِبَالِ

٣١- ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾

أي: وخلقنا في الأرض جبالًا شوامخ تثبِّتها؛ حتى لا تضطرب وتتحرك بهم، فلا يمكنهم السكنى فيها، ولا حرثها، ولا الاستقرار عليها، فأرساها بالجبال، ليحصل منها المنافع والمصالح، وهي تدور حول نفسها وحول الأرض؛ لحفظ التوازن بين الضغط الخارجي والضغط الداخلي في جوفها، وهو يختلف من بقعة إلى بقعة، حيث يكون بروز الجبال في موضع معادل لانخفاض الأرض في موضع آخر، وهذا من آثار فتق الأرض في حد ذاتها؛ إذ أخرج الله منها الجبال، وجعل في الأرض الطرق السهلة التي يمكن المشي عليها بخلاف الجبال.

والغريب أن باطن الأرض ملتهب، وأن القشرة الأرضية التي نعيش عليها، هي الإطار لذلك اللهب؛ هذه القشرة الأرضية، مليئة بالماء الذي يحيا به كل شيء.

ولما خلق الله الأرض كانت فوق الماء، فمادت الأرض، أي: اضطربت وتحركت فوق الماء، كما تضطرب السفينة في البحر، فثبَّتها الله تعالى بالجبال الرواسي؛ لئلَّا تميد بالخلق، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر].

ويقرر العلماء أن نسبة المحيطات والبحار والأنهار ثلاثة أضعاف نسبة اليابسة من الأرض، فالأرض مغمورة بالماء، إلا نحو الثُّلُث منها، فإنه ظاهر للهواء والشمس؛ ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات.

ألا يشاهد الجاحدون لتوحيد الله تعالى هذه الجبال بأعينهم فيؤمنوا ويوحدوا؟

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: خَلْقُ الطُّرُقِ الْوَاسِعَةِ وَالْأَرْضِ السَّهْلَةِ

وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: جعلنا في الأرض طُرقًا واسعة، وأودية، ومنافذ متعددة؛ رجاء اهتداء الخلق إلى معايشهم، وتوحيد خالقهم الذي وهبهم هذه النعم.

والفجاج: جمع فج، وهو الطريق الواسع، وهذه الفجاج قد تكون ثغرات في سلاسل الجبال، يسلكها الناس من قُطْرٍ إلى قُطْر، ومن إقليم إلى إقليم، وهذه الجبال، وكذا الطرقات السهلة، من آثار فتق الأرض.

ومن حكمة الله تعالى ورحمته، أنه لم يجعل الجبال متصلة متلاصقة، حتى يمكن للناس والدواب والمراكب، التنقل بين البلاد والأماكن القريبة والبعيدة.

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: حِفْظُ السَّمَاءِ أَنْ تَقَعَ بَعْضُ أَجْرَامِهَا عَلَى الْأَرْضِ

٣٢- ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢)﴾

وهذا الدليل من الأدلة العظيمة على وحدانية الله ﷻ، فلولا حِفْظُ الله للسماء أن تقع على الأرض، لَهلَك الناس، وفسدت الأرض، فتعطلت منافعها...

وقد جعل الله السماء سقفًا للأرض، وهي مرفوعة بغير عمد، ومحفوظة عن السقوط على الأرض، ولا تخترقها الشياطين.

وكل ما علاك فهو سماء، ونحن نرى فوْقنا ما يشبه السقْف، وسقف الأرض كسقف البيت، والسماء كالقبة فوق الأرض.

وقد حفظ الله السماء من التصدع والتشقق، فقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾ [الملك].

وقد حفظها الله تعالى في علوها، وارتفاعها بدون عمد ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وحَفِظَ الله السماء من كل شيطان رجيم، كما قال تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ [الصافات].

وهي في عناية الله تعالى ورعايته، لا يغفل عنها طَرْفة عين: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ۝١٧﴾ [المؤمنون].

ومع هذا فإن الناس لاهون غافلون عن الاعتبار والتفكير في آيات الله الكونية، ومنها: الشمس، والقمر، والنجوم.

والقرآن يوبِّخهم على عدم التدبر والاعتبار: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق].

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥﴾ [يوسف].

ويدعوهم إلى النظر في آيات السماء على وجه الخصوص، وما فيها من كواكب ثابتة وسيارة، في ليلها ونهارها، وارتفاعها بغير عمد، واتساعها، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات].

والقرآن يدعو أهل الغفلة إلى إعمال الفكر في الكون كله في كثير من آياته؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١﴾ [يونس].

والتفكر في ملكوت الله عبادة أفضل من صلاة النافلة؛ لأنه يُقَوِّي الإيمان، ويثبِّت العقيدة.

ذكر ابن أبي الدنيا في كتابه «التفكر والاعتبار» أن بعض عُبَّاد بني إسرائيل تعبَّد لله تعالى ثلاثين سنة، وكان الرجل منهم إذا تعبَّد ثلاثين سنة أظلَّته غمامة، فلم ير ذلك الرجل شيئًا مما يراه غيره، فشكا ذلك إلى أمه، فقالت له: يا بني، لعلك أذنبت في مدة عبادتك هذه، فقال: لا، والله ما أعلم، قالت: فلعلك هممت، قال: لا، ولا هممت، قالت: فلعلك رفعت بصرك إلى السماء، ثم رددته بغير فكر؟ فقال: نعم، كثيرًا، قالت: فمن ها هنا أُتيت[1].

---

(١) من «تفسير ابن كثير» للآية (٥/ ٣٤١).

أي: أن هذا هو السبب في أن الغمامة لم تُظلَّك بعد عبادتك لله ثلاثين سنة، كما أظلَّت غيرك.

ولما نزلت الآيات العشر الأواخر من سورة آل عمران، وفيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران] قال عليه الصلاة والسلام: «**ويل لمن قرأها ولم يتدبر**»(١).

وجملة ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ تشتمل على ما في السماء من آيات: كالشمس والقمر، وما يتولد عنهما من الليل والنهار، والفصول الأربعة، والكواكب الثوابت والسيارات، والشهب، وسير الشمس، وشروقها وغروبها، وظهورها وغيبتها، وكلها سابحة في فلكها، واشتمال كل ذلك على حساب بديع وترتيب عجيب، وكذلك ما يبدو لنا من جهة السماء من: السحاب، والرعد، والبرق، وكلها دلائل على الحكمة البالغة، فلذا سماها الله سبحانه آيات، ودعا خلقه إلى التأمل فيها؛ ليعلموا أن لهذا الكون إلهًا يجب التوجه إليه وحده بالعبادة، ومن المستحيل أن يكون له شريك في ملكه.

وقد تضمنت هذه الآية **ثلاث مسائل**:

الأولى: أن الله تعالى جعل السماء سقفًا للأرض كالسقف للبيت.

الثانية: أنه سبحانه جعل هذا السقف محفوظًا.

الثالثة: أن الكفار مُعرِضون عما في السماء من آيات، لا يتعظون ولا يعتبرون.

بَقِيَّةُ الْأَدِلَّةِ الْعَشَرَةِ

٣٣- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وهذه خمسة أدلة من الأدلة الحسية على وحدانية الله سبحانه، من الدليل السادس إلى

(١) الترغيب والترهيب برقم (٦٦٦) وأخرجه ابن حبان في موارد الظمآن (١٣٩) والإحسان (٦٢٠) قال محققه: إسناده قوي على شرط مسلم، وصححه الشيخ مقبل الوادعي في تحقيقه لتفسير ابن كثير عند الآية، وأخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ بإسناد رجاله ثقات، ص ١٦٠.

الدليل العاشر، وهي: الليل، والنهار، والشمس، والقمر، والفَلَكُ الذي يضمها ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: والله تعالى خلق الليل؛ ليسكن الناس فيه بظلامه وهدوئه، وخلق النهار؛ ليطلبوا فيه المعايش، مع ما فيه من ضوء وأُنس، وكل من الليل والنهار يطول ويقصُر.

وخلق الشمس آية للنهار بضوْئها وفَلَكها وحرَكة سيْرها؛ وذلك لأن خلْق النهار يتبع خلق الشمس حين تتوجه بأشعتها إلى النصف المقابل للأشعة من الكرة الأرضية.

كما أن خلْق الليل يتبع خلْق الظلمة؛ لأن وجود الظلمة سابق على وجود الأجرام النيِّرة، وخلْق القمر آية الليل بنوره الخاص، وفلكه الخاص، وحركة سيره.

سئل ابن عباس: أيهما كان أوَّلًا: الظلمة أم النور؟ الليل أم النهار؟ فاستدل بهذه الآيات على أن الليل سابق في خلقه على النهار؛ لأن السموات والأرض كانتا رتقًا، ففتق الله الليل والنهار، والعدم يسبق الوجود.

وكلٌّ من الليل والنهار، والشمس والقمر يدور في فلك خاص به، كما يدور المغزل في الفلكة، ولا يحيد عن مجراه الذي يدور ويَسْبَح فيه ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فلا يتخلف عن الظهور في وقته المعلوم، ولا يصطدم مع غيره، وكل منها يَسْبَحُ في فضاء لا يعلم حدوده إلا الله، ومع ذلك فإنه لا يلتقي مع فضاء غيره ومداره الخاص به ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام].

فكلٌّ من الشمس والقمر يسير في فلكه وطريقه المقدَّر له بسرعة وانتظام، كالسابح في الماء.

وقد جُمع الفعل (يسبح) جمع العقلاء ﴿يَسْبَحُونَ﴾ ولم يقل: (يَسْبَح)؛ لأنه يتضمن فعل العقلاء، وهو الجرْي والسير بسرعة، ويتضمن السباحة في الماء وهو من فعل العقلاء.

فَنَاءُ الْعَالَم

٣٤- ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ[1] فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾

---

(١) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر الميم من (مِت) فهو من مات يمات، كخاف يخاف، وقرأ الباقون بضمها، وهو من مات يموت، كقام يقوم.

والياء في (أفَإيْن) زائدة للرسم العثماني، ولا تُنطق، وعلامة إهمالها في النطق، السكون الذي فوقها.

وكل هذه الكائنات والمخلوقات لها وقت معلوم، وأجل محتوم؛ كي يَقْضِيَ الله بين العباد بعد انتقال الناس من دار الدنيا إلى الدار الآخرة؛ ليجدوا جزاء أعمالهم كاملًا موفورًا، وبهذا يُعْلَم أن هذه الدنيا مزرعة لدار القرار، وليست محل إقامة، فكل حادث فانٍ، وكل ما له بدء له نهاية.

فما جعلنا لأحد قبلك -يا محمد-كائنًا من كان، دوام البقاء في هذه الدنيا، وأنت إن مت، فهم أيضًا سيموتون في الوقت الذي حدده الله لهم؛ لانقضاء عمرك وأعمارهم، فلا ينبغي لأحد أن يؤمِّل الخلود بعدك؛ فإن هذا لا يكون، فذرهم في جهالتهم يتخبطون، ولا تلتفت إلى شماتتهم فيك، ولا إلى تَرَبُّصهم بك؛ فإنك ميت وإنهم ميتون، وكل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون.

وقد كان المشركون يتمنون موت النبي ﷺ ويُمنُّون أنفسهم بذلك، وينتظرون موته، كما مات الشاعر الفلاني والفلاني؛ حتى يستريحوا منه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور].

وجميع الأنبياء والمرسلين قبلك -يا محمد- قد ماتوا، وكل مخلوق سيموت

فقل للشَّامِتين بنا أَفِيقُوا ... سيَلْقَىٰ الشامتون كما لَقِينا

فلابد لكل حادث من الفناء:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يومًا على آلة حدباء محمول
وما المرء والأهلون إلا ودائع ... ولابد يومًا أن تُرد الودائع

وهكذا: قال الله تعالى لمن كانوا ينتظرون موت النبي ﷺ: هذا طريق مسلوك، ومعبد منهوك، فلم نجعل لبشر من قبلك الخلد، فهل إذا متّ خلّدوا بعدك؟

وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الخضر قد مات؛ لأنه بشر، سواء أكان نبيًّا أم وليًّا. قال تعالى:

٣٥- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ[١] ﴿٣٥﴾﴾

ثم أكد ﷻ عدم خلود البشر في هذه الحياة، فعمَّم بعد أن خصَّص، وبيَّن سبحانه أن الموت مكتوب على كل نفس إنسانية، والرسول ﷺ منهم ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾.

وقد عرض لبعض المسلمين توهُّمُ أن محمدًا ﷺ لا يموت، منهم عمر بن الخطاب ﷺ، فقد قال يوم انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى: لَيَرْجِعَنَّ رسول الله، فَيَقُطِّع أيدي قوم وأرجلهم، حتى حضر أبو بكر ﷺ، فكشف عن وجه النبي ﷺ وقبَّله، وقال: طِبتَ حيًّا وميتًا، والله لا يجمع الله عليك مَوْتتين.

أخرج ابن أبي شيبة وغيره عن ابن عمر ﷺ قال: لمَّا قُبض رسول الله ﷺ كان أبو بكر في ناحية المدينة، فجاء، فدخل على رسول الله ﷺ وهو مُسَجًّى، فوضع فاه على جبين رسول الله ﷺ فجعل يقبِّلُه ويبكي، ويقول: بأبي وأمي، طبتَ حيًّا وطبتَ ميِّتًا، فلما خرج مرَّ بعمر بن الخطاب وهو يقول: ما مات رسول الله ﷺ، ولا يموت حتى يَقْتُل المنافقين، وحتى يُخزي الله المنافقين، قال: وكانوا قد استبشروا بموت رسول الله ﷺ فرفعوا رؤوسهم، فقال أبوبكر: أيها الرجل - يَقْصِد عُمر ﷺ - أربِعْ على نفسك، فإن رسول الله ﷺ قد مات، ألم تسمع الله يقول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر].

وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ قال: ثم أتى المنبر، فصعده، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إن كان محمد ﷺ إلٰهكم الذي تعبدون، فإن محمدًا قد مات، وإن كان إلهكم الذي في السماء فإن إلٰهكم لم يمت، ثم تلا ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾ [آل عمران: ١٤٤] حتى ختم الآية، ثم نزل، وقد استبشر المسلمون بذلك، واشتد فرحُهم، وأخذت المنافقين الكآبة، قال عبد الله بن عمر: فوالذي نفسي بيده، لكأنما كانت على وجوهنا أغطية فكُشفت[٢].

فكلُّ نفس ستذوق مرارة الموت، وتفارق الروح الجسد، مهما عمَّر العبد في الدنيا

---

(١) قرأ يعقوب بالبناء للفاعل في (ترجعون)، والباقون بالبناء للمفعول.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ٥٥٢) والبيهقي مطولًا (٧/ ٢١٣).

فالموت نهاية كل حي، ولا يبقى إلا الحي القيوم الباقي بعد فناء خلقه.

ثم بيَّن ﷻ أن وجود الإنسان في هذه الحياة، ما هو إلا ابتلاء بالتكليف من الأوامر والنواهي، وتقلُّب الأحوال، فالحياة مشتملة على الخير والشر، والشدة والرخاء، والصحة والمرض، والنصر والهزيمة، والغنى والفقر، والعز والذل، والحياة والموت، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال.

وكل هذا من الشر والخير ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي: نختبركم في هذه الدنيا بألوان من النعم يجب الشكر عليها، وألوان من المحن يجب الصبر عليها؛ لينكشف حالكم، ويظهر شُكْرُكُم وصَبْرُكم، وكُفركم وجَزعكم، فتسجله الملائكة عليكم، ثم ترجعون إلينا في النهاية فنحاسبكم ونجازيكم على أقوالكم وأفعالكم ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. فالموت كأس لا بد من شربه وإن طال بالعبد المدى، وبعده يكون البعث والحساب والجزاء.

والابتلاء بالشر أهون بكثير من الابتلاء بالخير؛ لأنه أشد وطأة، فكثير من الناس يصمدون أمام الابتلاء بالشر، ولكنهم لا يصمدون أمام الابتلاء بالخير، فترى الإنسان يصبر على الفقر والجوع والحرمان، ولكنه إذا اغتنى وجاءته الدنيا انْزلق في الشهوات والملذات، واقترف المحرمات، وطغى وتجبر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق] فهو لا يحفظ نعمة الله عليه، ولا يستثمرها في طاعته، بل يستعملها في نزواته وشهواته، ولا يصبر على الغنى كما صبر على الفقر.

وهكذا.. يصبر الإنسان على المرض، ولكنه لا يصبر على الصحة، فيبدد طاقاته ويستعملها في المعاصي، ويصبر على العمى، ولكنه لا يصبر على ترك النظرة المحرمة.

ويصبر على الهزائم، ولكن نَشْوَة النصر تحدوه إلى الغرور والتعالي.

ويصبر على تدنِّي الوضع الاجتماعي والمستوى الهابط، ولكنه لا يصبر على الإغراء بالمنصب والجاه والثراء، فيتحول إلى إنسان آخر ناسيًا ما كان فيه.

إن الابتلاء بالشر، يثير الكبرياء غالبًا، ويستحثُّ المقاومة، ويجنِّد الأعصاب لاستقبال الشدة.

أما الابتلاء بالخير فهو يُرخي الأعصاب، ويُفقِدُها المقاومة إلا من عصم الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوْلَآ إِذْ

جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام].

وبيَّن جلَّ شأنه أن العبد يُبتلى بالخير كما يبتلى بالشر: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

والحديث يبيِّن أن كِلَا الابتلاءيْن خير للمؤمن إن هو أحسن استقبال كل منهما: **«عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له»**[1].

كُفْرُ مَنْ يُنْكِرُ رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ أَوْ يَسْخَرُ بِهِ

٣٦- ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا[2] أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

ذكر ﷻ في هذه الآية جانبًا من سفاهات المشركين، بما يشمل كُفْرَ كُلِّ من يسخر برسالة محمد ﷺ ولم يؤمن به، فقد قيل: إن النبي ﷺ مرَّ على أبي جهل فضحك، وقال: هذا نبي بني عبد مناف، وهو الذي يعيب آلهتكم، ويذكُرها بسوء، فغضب أبو سفيان وقال: أتنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي؟ فسمعها النبي ﷺ فرجع إلى أبي جهل وخوَّفه، وقال: **«ما أراك منتهيًا حتى يصيبك ما أصاب عَمَّك»**، وقال لأبي سفيان: **«لم تقل ما قلت إلا حميَّة»**، فنزلت هذه الآية[3].

والآية عامة في كل من ينكر رسالة الإسلام، أو يهزأ ويسخر برسول الإسلام.

---

(١) من حديث صهيب في صحيح مسلم برقم (٢٩٩٩).

(٢) قرأ حفص بإبدال همزة (هزءًا) واوًا مع ضم الزاي وصلًا ووقفًا، وقرأ حمزة بالهمز مع إسكان الزاي وصلًا فقط، وقرأ خلف العاشر بالهمز مع إسكان الزاي وصلًا ووقفًا، وقرأ إدريس بالسكت على الساكن قبل الهمز وعدمه، وقرأ الباقون بالهمز مع ضم الزاي وصلًا ووقفًا، ويقف عليها حمزة بالنقل والإبدال.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن السُّدِّي، كما في «الدر المنثور» (١٠/ ٢٩٤) و«زاد المسير» (٥/ ٣٥٠) و«تفسير ابن عطية» مختصرًا (٤/ ٨١) و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٤٢).

ومراد الآية: أنه إذا أبصرك الكفار -يا محمد- أشارُوا إليك ساخرين منك ومستخفين بك، وقال بعضهم لبعض على سبيل التهوين والتنقيص من شأنك: أهذا الرجل هو الذي يَسُبُّ آلهتكم، ويَذْكُرها بسوء، وينفي شفاعتها لنا، وأنها تقربنا إلى الله زلفى، وأنها لا تنفع ولا تضر؟

ومثل ذلك من يهزؤ أو يسخر بالنبي ﷺ بعد موته، أو يسخر بكتابه، أو شريعته، أو يبغض شيئًا مما جاء به، ونحو ذلك.

ثم بيَّن الله سبحانه أن الكفار عاكفون على ذكر آلهتهم، ويسوؤهم أن يذكرها أحد بسوء، ولكنهم لم يعيبوا أنفسهم على كفرهم بخالقهم، فهم يذكرون آلهتهم بخير، وأما ذكر الله الواجب عليهم توحيده فهم به كافرون، وهذا معنى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فهم أحق أن يُتخذوا هزوًا منك -أيها الرسول- لأنهم جاحدون للرحمن ونعمه وما أنزله على رسوله من القرآن والهدى.

فإيمانهم بالأوثان وكفرهم بالرحمن، مفارقة عجيبة، تكشف عن مدى الفساد الذي أصاب فطرتهم؛ حيث تأدَّبوا مع الأوثان، وأساؤوا الأدب مع الرحمٰن، إنهم يعيبون من يجحد أصنامهم، ويجحدون أن يكون الرحمٰن إلهًا، فما أعجب حالهم!

وهكذا كان المشركون ينكرون على النبي ﷺ إذا سمعوه يذكر الرحمٰن في عبادته، وافتتاح الصلاة بالبسملة جهرًا، يقولون: لا نعرف إلا رحمٰن اليمامة، يعنون: مسيلمة الكذاب ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان].

ويقولون: إن محمدًا يدعونا إلى الإيمان بإله واحد وهو يعبد إلهيْن: الرحمن، الرحيم، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

الْعَجَلَةُ طَبْعٌ فِي الْإِنْسَانِ

٣٧- ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ(١) ﴿٣٧﴾﴾

هذه الآية توطئة للردِّ على كل من يستعجل أمرًا من الأمور؛ لأن العجلة في طبعه وجزءٌ

---

(١) قرأ يعقوب بإثبات الياء من (تستعجلون) وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

من أخلاقه، وفي هذا تعجُّب من حال الإنسان.

وذلك أنه لما استهزأ المشركون برسول الله ﷺ اغتاظ المسلمون، وتمنَّوا لو أن العذاب الذي أعده الله للمكذبين نزل بهم، فاستبطؤوه واستعجلوا وقوعه بهم.

كما أن الكفار كانوا يمعنون في تكذيب النبي ﷺ، ويطلبون منه سرعة نزول العذاب الذي يتوعَّدهم ويهدِّدهم به، كما حدث ذلك من النضر بن الحارث وغيره.

وقد أنزل الله تعالى في هذه الآية يبيِّن ما جُبِل عليه الإنسان من تسرُّع وعجلة، حتى كأنه خُلق من عجل، أي: خُلِق جنس الإنسان مجبولًا على العجلة والتسرع، يبادر إلى الأشياء ويستعجل وقوعها، فالعجلة في طبيعته كأنه خُلق منها، وذلك ناتج عن ضعف صفة الصبر في الإنسان.

فإذا فكَّر الإنسان في شيء محبوب لديه استعجل وقوعه بدافع المحبة، وإذا فكَّر في شيء مكروه لديه استعجل إزالته بدافع الكراهية، ولا يخلو حال الإنسان من هذين، فلا جَرَم أن كان الإنسان عجولًا، مع تفاوت أفراد بني آدم في هذا الاستعجال حسب تفاوتهم في إعمال النظر والفكر، ولكنهم لا يخلو حالهم منه، وقد استعجل المسلمون سرعة الانتقام من المستهزئين برسول الله ﷺ، كما استعجلت قريش نزول العذاب بهم واستبطأته.

ومن أجل هذا فإن الله تعالى خاطب الناس جميعًا بالتريُّث، وحثهم على عدم استعجال الأمور؛ لأنه سبحانه أعلم بمصالح العباد، ومقتضى الحكمة في توقيت حلول الوعيد بهم، ومن ذلك أن الله تعالى يملي للظالم ويمهله حتى إذا أخذه لم يفلته.

ولذا أنذر الله خلْقه بأنه سيحل بهم ما استعجلوه إن عاجلًا أو آجلًا، فلا تسألوا الله تعجيله وسرعته؛ فإن الحلول والنتائج تأتي قريبًا، وقد ردَّ الله تعالى على من يستعجلون انتصار الإسلام وخذلان الجاحدين له بقوله: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾ أي: بنصر ديني، وحلول نقمتي بالمخالفين ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾. وقوع العذاب، ولا حصول النصر أو الصحة أو الثراء، فكل شيء عند الله بمقدار.

وقد وردت روايات تفيد أن العجلة ظهرت على آدم عليه السلام عند نفخ الروح فيه:

قال مجاهد: خلق الله آدم بعد خلق كل شيء من آخر النهار يوم خلق الخلائق، فلما

أجرى الروح في عينيه ولسانه ورأسه، ولم يبلغ أسفله، قال: يارب، استعجل بخلْقي قبل غروب الشمس(١).

وقيل: إن الروح لمَّا تخلَّلت رأس آدم وعينيه، نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخلت الروح في جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلُغ الروح إلى رجليه -تعجلًا إلى ثمار الجنة- فوقع(٢).

وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة قال: لما نُفخ في آدم الروح مارَ -أي: دار وتردَّد- في رأسه، فعطس، فقال: الحمد الله، فقالت الملائكة: يرحمك الله، فذهب لينهض، قبل أن تمور في رجليه، فوقع، فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾(٣).

وقد أشار الله سبحانه إلى أن العجلة خُلِقتْ في الإنسان في آيات أخر منها قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ [الإسراء: ١١] وقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ [المعارج]. قال تعالى:

٣٨- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾

أكد ﷻ استعجال المشركين لنزول العذاب بهم في هذه الآية، أي: ويقول الكفار مستعجلين نزول العذاب بهم حال كونهم مستهزئين به، ويقولون: متى يحصل ما تعدنا به يا محمد، إن كنت من الصادقين فيما تقول؟ وهذا منتهى الجهل والطغيان؛ إذ كيف يتوعدهم الله تعالى على استمرارهم في الكفر، ثم يطلبون سرعة نزول هذا الوعيد بهم على سبيل التهكم والاستهزاء، بدلًا من أن يطلبوا الهداية من الله تعالى، ويبادروا إلى الدخول في الإسلام؟!

ومن الوعيد الذي توعَّد الله به المكذبين، ما تحقق وقوعه يوم بدر، بمصرع كبار كفار قريش، حين وقف النبي ﷺ على القَلِيب الذي دُفنت فيه جُثَث المشركين، وناداهم بأسمائهم قائلًا: **«هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا»**(٤).

(١) «تفسير ابن كثير» للآية (٥/ ٣٤٢) والطبري (١٦/ ٢٧٢) وابن أبي شيبة (١٤/ ١١٥) وأبو الشيخ (١٠٢٦).
(٢) «تفسير الخازن» (٣/ ٢٦٠) وبنحوه في «الدر المنثور» (١٠/ ٢٩٥) عن ابن المنذر عن جريج.
(٣) «الدر المنثور» (١٠/ ٢٩٤).
(٤) يُنظر الحديث عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه في صحيح البخاري برقم (٣٩٨٠،٣٩٨١) وصحيح مسلم (٩٣٢) وفي صحيح سنن النسائي برقم (٢٠٧٦).

وكان الله سبحانه قد وعد المؤمنين بالنصر، ووعد الكافرين بالهلاك وعذاب النار.

وقد بيَّن سبحانه أن استعجال قيام الساعة من شأن غير المؤمنين، فقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨].

واستعجال الساعة بما فيها من عذاب وعقاب شأن الجاهل الأحمق، أما العاقل فإنه يستعجل الثواب والنعيم. وبين سبحانه أن لكل أجل وقت محدد ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

النَّار تُحِيطُ بِالْكَافِرِ إِحَاطَةَ السُّوَارِ بِالْمِعْصَم

٣٩- ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

ها هو القرآن يذكُر مشهدًا من مشاهد العذاب الذي يستعجله المشركون؛ ليستيقظوا من غفلتهم وسوء تفكيرهم، ويقفوا على حقيقة ما استعجلوه من العذاب؛ حتى يثوبوا ويثوبوا إلى رشدهم، فلو عرف الكفار ما يلاقونه من العذاب، عندما لا يمكنهم أن يدفعوا النار عن وجوههم، ولا عن ظهورهم، ولا يجدون لهم ناصرًا ينصرهم ويمنع نزول العذاب بهم، لو يعلمون ذلك ما استمروا على كفرهم، ولما استعجلوا نزول العذاب بهم.

١- والضمير في ﴿لَا يَكُفُّونَ﴾ يرجع إلى الكفار المذكورين في الآية، وهو يفيد أن النار في الآخرة تحيط بالكفار إحاطة السِّوار بالمعصم.

والمعنى: أنهم لا يستطيعون أن يدفعوا النار عن وجوههم بأيديهم، ولا عن ظهورهم؛ إذ النار تحيط بهم من كل جانب، مُدْبرة ومقبلة، وهذه الإحاطة من كل جهة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر].

وقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم].

وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ لَا يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج].

فالعذاب يحيط بالكفار يوم القيامة من جميع الجهات، بحيث لا يستطيعون دفعه ولا ردَّه.

في صحيح مسلم وغيره عن عدي بن حاتم ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»**[1].

٢- وقد يرجع الضمير إلى ملائكة العذاب، وهم لا يكفون اللفح بالنارعن وجوه المشركين ولا عن ظهورهم، ويكون هذا عند خروج الروح من الكافر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال].

وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ [محمد].

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ لهم بالعذاب ويقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ مما أنتم فيه ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]

وذِكْرُ الوجوه والأدبار؛ للتنكيل والتخويف.

قِيَامُ السَّاعَةِ فَجْأَةً

٤٠- ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه سرعة قيام الساعة، وأنها تفاجئ الناس بمجيئها من غير شعور منهم، أي: أنها تدهشهم وتحيِّرهم وتخوِّفهم، فلا تكون لهم حيلة في دفع العذاب عن أنفسهم، ولا يملكون ردَّ الساعة ودفعها.

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٠١٦) وصحيح البخاري برقم (٦٥٣٩، ٧٤٤٣) والترمذي برقم (٢٤١٥) وابن ماجه (١٨٥، ١٨٤٣) و«المسند» (٣٠/ ١٨٠) برقم (١٨٢٤٦، ١٩٣٧٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

وليست هناك من وسيلة للعودة إلى الدنيا أو الإمهال، أو استدراك ما مضى، فلا يُنظَرون ولا يؤخَّرون لتوبة أو معذرة، ولو علموا ذلك حق العلم، لما استعجلوا نزول العذاب بهم، وخافوا الله أشد الخوف.

عِقَابُ المُسْتَهْزِئِينَ بِالإِسْلَامِ

٤١- ﴿وَلَقَدِ[1] ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

وبعد أن ذكر سبحانه مشهدًا من العذاب الأخروي الذي يستعجله المكذبون بالقرآن ورسول الإسلام، حذَّر المستهزئين بالإسلام وبالرسول الخاتم، أن يصيبهم مثل ما أصاب من كذبوا رسل الله قبلهم من العذاب الدنيوي، فبيَّن تعالى مواسيًا رسوله ﷺ ومسلِّيًا له: أنَّ ما جرى له من السخرية والاستهزاء - في مثل قولهم ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦] وما جرى في بعض دول العالم، قد جرى لسائر الأنبياء قبله، فحل بهم من العذاب ما كان مثار سخريتهم واستهزائهم.

ولا شك أن من المستهزئين في العصر النبوي أمثال: أبي جهل، وشيبة وعتبة ابني ربيعة، وأمية بن خلف، من نزل بهم من سوء العاقبة يوم بدر ما هو معلوم، وهكذا كل من يسخر بنبي الإسلام، أو يكذب شيئًا مما جاء به، فإنه يجني ثمرة جحوده واستهزائه عذابًا وعقابًا في الدنيا والآخرة وهكذا يقسم سبحانه أن المكذبين من الأمم الماضية قد سخروا بالمرسلين قبل محمد فنزل بهم العقاب بسبب استهزائهم.

عِقَابُ اللهِ فِي الدُّنْيَا، لَا يَمْنَعُهُ إِلَّا مَنْ حَفِظَ عِبَادَهُ مِنْ جَمِيعِ المَضَارِّ

٤٢- ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾

أي أن كل مخلوق، مسلم أو كافر، مضطر إلى رحمة ربه في ليله ونهاره، فقد شملت رحمته سبحانه، البر والفاجر، فهم بحاجة إلى من يحرسهم ويحفظهم بالليل وهم نائمون، وقد ذهبت حواسهم، وبالنهار وهم في حال انتشار وغفلة، فكيف يعرض عنه المعرضون،

---

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب بكسر الدال وصلًا من (ولقد استهزئ)، والباقون بضمها، وكلاهما للتخلص من التقاء الساكنين، وقرأ أبو جعفر بإبدال الهمزة من (استهزئ) ياء مفتوحة وصلًا، ووقف عليها حمزة وهشام بِخُلْفٍ عنه بإبدال الهمزة ياء ساكنة للوقف.

ويكفر به المشركون؟

وبعد أن خفف الله عن رسوله ﷺ فيما يتعلق باستهزاء المشركين وإيذائهم له بيَّن سبحانه أن إمهال المستهزئين بالإسلام المستعجلين لنزول العذاب بهم، إنما هو رحمة من الله تعالى لهم، وأن هذه الرحمة تحيط بهم من كل جانب وفي كل وقت، فمن يرعاهم ويحفظهم بالليل والنهار غير الرحمن؟ ومن يمنعهم من نزول العذاب بهم في الدنيا والآخرة غير الله سبحانه؟

والمعنى: قل -يا محمد- لهؤلاء الساخرين بك وبما جئت به: من يحرسكم بعينه التي لا تنام في ليلكم إذا نمتم، وفي نهاركم إذا استيقظتم وتقلبتم في أمور الدنيا، وهذا يستغرق جميع الأوقات، ويستوعب جميع الأزمنة.

والله تعالى قد وكَّل بكل إنسان ملائكة تحفظه من الهوام والسباع والوحوش، والإنس والجن، وتحفظ الناس من جميع المضار وهم نيام في فُرُشِهم، وحواسهم غافلة، في الموتة الصغرى، لا يسمعون ولا يبصرون، ووكَّل بهم من يحفظهم في يَقَظتهم وهم يسعَون على معاشهم، ويتقلَّبون في أسفارهم وأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١] أي: يحفظون العبد بأمر الله جل شأنه إن نزل به ما يسوؤه في الدنيا.

فمن يمنعكم من بأس الرحمن وعذابه إذا نزل بكم؟ **الجواب**: لا أحد غير الله سبحانه، فهو القائم على كل نفس بما كسبت، الحارس لها من الغوائل والنوازل والعوادي، وهذا سؤال إنكار وتوبيخ؛ إذ لا راعي لهم سوى الله سبحانه، ولا حافظ لهم غير الله.

وذكر ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أليق صفة بحفظ المخلوقات، فهو رحمة من الله بهم.

وجاء تقديم الليل على النهار؛ لأن الدواهي في الليل أكثر وأشد.

ثم أضرب ﷻ عن خطاب المشركين، وانتقل إلى ضمير الغيبة، فقال: ﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ أي: وهم عن القرآن ومواعظ ربهم لاهون غافلون، فلا يرجى منهم الانتفاع بالقوارع، وهذا هو سبب عذابهم، ولو أقبلوا على ذكر ربهم وتلقَّوا نصائحه، لهُدُوا إلى رُشدهم، وَوُفِّقوا في أمرهم.

عَذَابُ اللَّهِ فِي الآخِرَةِ لَا يَمْنَعُهُ مَانِعٌ

٤٣- ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾

وبعد أن بيَّن سبحانه أنه لا يرعاهم ولا يمنعهم من بأس الله في الدنيا غير الله، بيَّن جلَّ شأنه أنه لا يدفع عنهم عذاب الله يوم لقائه غير الله، وأن الآلهة التي يتقربون بها إلى الله سبحانه لا تُغني عنهم شيئًا، ولأن المشركين يعتقدون أن الأصنام تنفعهم وتشفع لهم، فإن الله سبحانه قد أنكر عليهم مرة ثانية، أنَّ بإمكانهم نَصْرَ أنفسهم ومَنْعَها من عذاب الله، فأَضْرَبَ عن كلامهم مرة أخرى بلفظ ﴿أَمْ﴾ المنقطعة التي هي أخت ﴿بَلْ﴾ في الآية السابقة، وعدَل عنه إلى إثبات عجز آلهتهم - المزعومة - من كل وجه.

والمعنى: ألهؤلاء الجاحدين، آلهة أخرى تستطيع أن تحرسهم وترعاهم في الدنيا، أو تمنع عنهم العذاب في الآخرة؟ كلا، إن هذه الآلهة التي يزعمونها لا تَقْدِر على دفع الغوائل والعذاب عن نفسها، فكيف بغيرها؟

وليس هناك من يُجيرهم، ولا يمنعهم من نزول الضر بهم غير الله تعالى؛ إذ كيف ينصرون غيرهم وهم لا يستطيعون نصر أنفسهم، ولا نصْرَ غيرهم، لأنهم غير مؤيدين من الله بالقبول، وهذا معنى ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي: يُجارون ويمنعون؛ لسخط الله عليهم، تقول العرب: أنا لك صاحب وجار، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٣٨] إنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم فكيف يستطيعون نصر من عبدوهم؟

وفي الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: ٢٢]. ولهذه الآية نظائر كثيرة، منها:

١- قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف].

٢- وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ

بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر].

٣- وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان]. وغير ذلك.

الْكُفَّارُ لَا يُحْسِنُونَ شُكْرَ النِّعْمَةِ

٤٤- ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه الباعث الذي حمل المكذبين لرسول الله على العناد والإصرار، فكشف سبحانه عن سبب غرورهم -في إضرابٍ ثالث بلفظ ﴿بَلْ﴾ في هذه الآية- حيث حسبوا أنهم آمنون من عذاب الله، فجرَّأهم هذا الظن على الاستهزاء بالوعد والوعيد، والرسالة والرسول، وظنوا أن ما متعهم الله به من مال ونعيم لا يَبيد ولا يَفنى، فنسوا عقاب الله لهم.

لقد اغتر الكفار الجاحدون وآباؤهم، بإمهال الله إياهم نظرًا لما هم فيه من الرخاء والنعمة، وكثرة الأموال والمتاع والبنين، مع طول العمر، فحملهم هذا على ما هم فيه من الضلال والطغيان.

فلا يغرنَّكم -أيها المسلمون- تقلب الذين كفروا في النعيم، فإن ما هم فيه من ثراء وجاه متاع زائل: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران].

وما أعطاهم الله من نِعمَ إنما هو على سبيل الاستدراج، واستيفاء الجزاء في الدنيا على ما قدَّموا فيها من خيرات، وسيأخذهم أخذ عزيز مقتدر في الوقت الذي يريده، ثم يحاسبهم ويجازيهم بما يستحقون.

لقد متّعهم الله بالنعم، وأمدهم بالمال والبنين؛ حتى تطول أعمارهم، وتقسو قلوبهم، وتسوء أعمالهم، ويكون حسابهم عند الله شديدًا، وجزاؤهم نارًا وحميمًا.

فترْكُ عقابهم في الدنيا ليس عن عجز أو تقصير، بل لما سبق في علم الله تعالى أنهم أهل ضلال وانحراف عن الفطرة، فأعطاهم الله الدنيا وأمهلهم فيها، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وبيَّن لهم الهدى والضلال؛ لإقامة الحجة عليهم يوم لقاء

الله ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]

ولئلَّا يقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩].

وقد أقام الكفار السابقون على كفرهم ولم يَبْرحُوه حتى طالت أعمارهم في الرخاء والنعم، وظنوا أنهم لا يعذبون، وتحقق فيهم ما توعَّدهم الله به، فلم تُفدْهم هداية الرسل، ولا تعاليم الكتب، وظلوا على كفرهم وطغيانهم، ويتحقق هذا في كل كافر إلى قيام الساعة.

والإشارة بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في الآية؛ لعموم الكفار المكذبين برسالة محمد ﷺ، وهي إشارة حاضرة في الذهن، يراد بها وقت التنزيل: المخاطبون بالقرآن، وهم كفار قريش وأمثالهم، وهي تعمُّ مَنْ بعدهم إلى قيام الساعة.

وإمهال الكفار بإغداق النعم عليهم جاء في آيات كثيرة، منها:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران].

٢- وقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٨٣﴾﴾ [القلم].

٣- وقوله سبحانه: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان].

٤- وقوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزخرف].

نقصان الأرض من أطرافها:

ثم لفت ﷻ أنظار الخلق إلى الواقع المشاهد في هذه الحياة، بعد وعيد من طالت أعمارهم في الترف، فبيَّن لهم أنهم ليسوا بأقوى من الذين أبادهم الله من الأمم السابقة، ولا من الذين هداهم الله فدخلوا في الإسلام، ونقصت بهم أرض الكفر، وزادت بهم أرض الإسلام، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ﴾.

١- ونقص الأرض يكون بالفتوحات الإسلامية، ويكون بتخريب المعمور من الأرض، أو بالموجات البحرية التي تغرق مساحات واسعة من الأرض.

أي: أَغَفَلُوا عن سُنَّة الله الماضية في هذا الكون، وغاب عنهم ما ينزله الله من بأس وانتقام بمن كذَّب رسل الله، كقوم نوح، وعاد، وثمود، ولوط، وشعيب، وهم يمرون على ديارهم، ويرون آثارهم وهي خاوية على عروشها؛ بسبب ظلمهم وكفرهم بالله ورسله.

أفلا يرون ما حلَّ بأمثالهم، وكيف طوينا الأرض بهم، وجعلناهم أثرًا من الآثار؟! فيعتبرون بنصر الله لأوليائه المصدقين لرسله، ويعتبرون بإهلاك الأمم المكذبة والقرى الظالمة ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ هل في وُسع الكفار إلى يوم القيامة، ومنهم المخاطبون بهذا القرآن وقت نزوله، وهم كفار مكة، هل في وسعهم الخروج عن قدر الله تعالى، وأن تكون الغلبة لهم؟ وهل في وسعهم الامتناع عن الموت؟ وهل كفار اليوم والأمس والغد أشد وأقوى من عاد وثمود وسائر الأمم التي أبيدت؟ ممن قال الله فيهم:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾ [الفجر].

وقال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَـٰهُمْ ۖ﴾ [الدخان: ٣٧].

وقال أيضًا: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩].

وفي إهلاك هؤلاء الأقوام وغيرهم يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٧ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٢٨﴾ [الأحقاف].

وإهلاك المكذبين بالرسل يتضمن بالضرورة نقص الأرض التي هم عليها بموت أهلها وفنائهم.

ولو أن غير المتبعين لرسول الإسلام محمد ﷺ عقلوا ذلك ما استمروا على ما هم فيه من ضلال، ولما اغتروا بطول البقاء، وكَثْرة المتاع والمال.

فكما لم تكن الغلبة والعاقبة في يوم من الأيام لمن كذبوا الرسل، فإن الغلبة والظفر وحُسْن العاقبة لن تكون لهم أبدًا في يوم من الأيام، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وإذا كانت ديار المكذبين لرسل الله في الأمم الماضية قد انتقصت من أرضهم، وانتقص مَنْ عليها من تعداد الناس، فإن أرض الإسلام قد اتّسعت وكثُر أهلها، وانتقصت أرض الكفر وأهله، بمجيء الإسلام عن طريق الغزوات والسرايا والفتوحات الإسلامية.

٢- ومع أن الآية مكية فإن صلاحية القرآن لا تقتصر على وقت دون وقت، ولا على مكان دون مكان، ولا على زمان دون زمان، ولا يمنع أن يراد بالآية: اعتبار ما سيكون.

٣- ولا يمنع أيضًا أن يخاطَب المسلمون جميعا بالمعنى نفسه، فبعد أن كانت دولة الإسلام واحدة، وكانت دولة غالبة، إذ بها تصير دويلات موزعة مغلوبة على أمرها، والعبرة تحصل بالمعنيين الأول والثاني.

وحمْل الآية على ظاهرها أولى، بمعنى النقص الحقيقي لمساحة الأرض اليابسة، بنقصان أطرافها في الشمال والجنوب.

فالعلماء يقولون: إن الأرض ليست تامة التكوير والاستدارة، بل هي منبعجة الوسط، مفرطحة من جهة القطبين الشمالي والجنوبي، وهذه آية كونية يفسرها العلم الحديث.

٤- ومن أهل العلم من يرى أن النقصان يكون بموت أهلها وفنائهم شيئًا فشيئًا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الْإِنْذَارُ الْحَاسِمُ مِنْ خَاتَمِ الرُّسُلِ إِلَى الْبَشَرِ جَمِيعًا

٤٥- ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ[1] ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يوجه إنذارًا حاسمًا لمن أُرسل إليهم في كل زمان ومكان، بما يشمل البشرية قاطبة من لدن بعثته ﷺ إلى قيام الساعة، فيبيِّن لهم أن ما يخوفهم به من عذاب الله تعالى، ليس إلا وحيًا من عند الله؛لمن كفر بالله وخاتم رسله، إنما أنا مبلغ عن ربي، ولا آتي بشيء من عندي، فأنا أنذركم بالقرآن المنزل عليَّ عن طريق الوحي، وأبيِّن لكم طريق الهدى والرشاد ولكن الكفار لا يسمعون البلاغ والإنذار ولا يستجيبون له.

---

(١) قرأ ابن عامر (ولا تُسمِع) بتاء مضمومة وميم مكسورة، ونصب (الصمَّ) على أنه فعل مضارع من أسمع، مسند على ضمير المخاطب وهو النبي ﷺ، و(الصمَّ) مفعول أول، و(الدعاءَ) مفعول ثان، وقرأ الباقون (يَسْمَع) بياء مفتوحة، وفتح الميم، مع رفع (الصمُّ) على أنه فعل مضارع من سمع، و(الصمُّ) فاعل، و(الدعاء) مفعول به. وسهَّل الهمزة الثانية من (الدعاء إذا) نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس، والباقون بالتحقيق.

فإن استجبتم فَسَيُثِيبُكُمُ الله على ذلك، وإن أعرضتم، فليس بيدي من الأمر شيء.

ولكن الكافر الذي ختم الله على قلبه وسمعه، وجعل على بصره غشاوة، كالأصم الذي لا يسمع دعاء من يدعوه، ولا يستجيب لندائه، ولا يقتنع بما جاء في القرآن من الهدى والإصلاح، فهو لا يستمع إلى ما ينفعه، ولا يلتفت إلى إنذار من ينذره؛ وذلك لشدة عناده وطمْس بصيرته.

فهذا الوحي لا يُجْدِي عمن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه، وهذا معنى: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

والقراءة الأخرى تخاطب النبي ﷺ (وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ).

فلْيحذر غير المسلمين أن يكونوا من الصم الذين لا يسمعون سماع تدبر إذا أُنذِروا وحُذِّروا؛ حتى لا تُطْوَى رقعة الأرض تحت أقدامهم، ولا تأتي يد الله على أطرافهم، ولا على ما هم فيه من متاع ونعيم، ويوم القيامة سيُجازَى كل إنسان بما قدم من خير أو شر.

مَسَّةٌ خَفِيفَةٌ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ تُنْسِي الْعَبْدَ نِعَمَ الدُّنْيَا

٤٦- ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

ذكرت هذه الآية شيئًا يسيرًا مما أنذر به النبي ﷺ أهل الدنيا من العذاب الأخروي، فبيَّنت أن الكفار يوم القيامة يندَمون في وقت لا ينفع فيه الندم، ويعترفون بظلمهم لأنفسهم بعد فوات الأوان، حين يمسهم شيء خفيف جدًّا من عذاب الله تعالى يوم القيامة.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ أي: صدمة عذاب، أو مسة خفيفة، أو نفحة واحدة من النار، وهي أدنى شيء من العذاب، وأهون وأيسر ما يكون من لفح جهنم، تمسُّهم مجرد مسٍّ، فإن هذه النفحة من عذاب الله تعالى تنسيهم كل نعيم رَأوْه في الدنيا:

١- وقد بيَّن النبي ﷺ كما في حديث النعمان بن بشير ﷺ أن: **«أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المِرْجل، ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا، وإنه لأهونهم عذابًا»**[1].

(١) من حديث النعمان بن بشير في صحيح مسلم برقم (٢١٣).

٢- وفي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أدنى أهل النار عذابًا من ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه**»[١].

٣- وقال النعمان بن بشير ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لَرَجُلٌ توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه**»[٢].

٤- ويوم القيامة يؤتى بأكثر أهل الدنيا نعيمًا، فيُغمس غمسة في النار، ثم يقال له: هل ذقتَ نعيمًا قَطُّ، فيقول: لا يارب، ما ذقتُ نعيمًا قَطُّ، ثم يؤتى بأشد أهل الدنيا بؤسًا وفقرًا، فيُغمس غمسة في الجنة، ثم يقال له: هل ذقتَ بؤسًا قَطُّ، فيقول: لا يا رب، ما ذقتُ بؤسًا قَطُّ.

إن غمسة واحدة في نار جهنم تُنسي العبد نعيم الدنيا وكأنه لم يذق نعيمًا أبدًا، وغمسة واحدة في نعيم الجنة تُنسي العبد فقر الدنيا وهمومها، كأنه لم ير بؤسًا في حياته، فأين العقلاء؟ وأين المشمِّرون؟ وأين الباحثون عن السعادة الحقة والنعيم الذي لا يزول؟

وحين يصيب الكفار نصيب من عذاب الله تعالى يعلمون عاقبة تكذيبهم، ويقابلون ذلك بالدعاء على أنفسهم بالهلاك؛ بسبب ظلمهم لأنفسهم بعبادتهم غير الله تعالى، وحينئذ يعترفون بشركهم وجُرمهم.

وهذا الاعتراف وهذا الندم قد فات أوانه، وجاء في وقت لا ينفع فيه الندم، وقد كان من الخير لهم أن يسمعوا نذير الوحي في الوقت المتسع، فإنه قد ذهب مع هذه النفحة اليسيرة كل نعيم تنعَّمُوا به في الدنيا.

وَزْنُ الأَعْمَالِ فِي سَاحَةِ الْعَدْلِ الإِلَهِيَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٤٧- ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ[٣] حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢١١).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢١٣) و«صحيح البخاري» برقم: (٦٥٦١، ٦٥٦٢).

(٣) قرأ نافع وأبو جعفر برفع لام (مثقالُ) على أن (كان) تامة بمعنى: وجد، و(مثقال) فاعل، والباقون بنصبها على أنها خبر كان، واسمها ضمير يعود على العمل المفهوم من الآية؛ لأنه يدل على وزن الأعمال.

وفي ساحة العدل الإلهية، يوم لقاء رب العالمين، تُنصب الموازين لحساب العباد وهذا إخبار عن عدل الله تعالى وحكمه بين الناس بالقسط يوم لقائه، وأنه يضع لهم الموازين العادلة التي يُبيّن فيها مثاقيل الذر.

وجمهور أهل العلم على أنه ميزان حقيقي، له لسان وكفتان، توزن فيه أعمال العباد يوم القيامة.

وهو ميزان واحد لجميع العباد بيد جبريل عليه السلام، وقيل: لكل واحد ميزان خاص به:

١- والذي يوزن، هو الأعمال ذاتها: الحسنات والسيئات؛ حيث تُجَسَّد الحسنات في صورة مشرقة نورانية، وتُجَسَّد السيئات في صورة مُظْلمة.

وقد بيَّن الله ﷻ أن الكفار يحملون أوزارهم على ظهورهم، أي: أن ذنوبهم تُجسد لهم، ويحملونها فوق ظهورهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

قال أبو بكر بن العربي[١]: وانفرد القرآن بذكر الميزان، وانفردت السُّنَّة بذكر الصراط والحوض، فلما كان الأمر هكذا اختلف الناس في ذلك، فمنهم من قال: إن الأعمال توزن حقيقة في ميزان له كِفتان وشاهد، وتُجعل في الكِفتين صحائف الحسنات والسيئات، ويخلق الله الاعتماد فيها على حسب عِلْمِه بها.

ومنهم من قال: إنما يرجع الخبر عن الوزن، إلى تعريف الله العباد بمقادير أعمالهم.

فبعض أهل العلم يرى أن الميزان ليس ميزانًا حسيًّا على وجه الحقيقة.

ولكن إذا كان الله تعالى قد علَّم الإنسان في الدنيا أن يزن نفسه، أو سلعته، أو يقيس الضغط أو الحرارة في جسده، وعلَّمه أن يقيس نبضات القلب وحركاته، وغيرها من الأمور العارضة، فإنه سبحانه قادر على وزن أعمال العباد دون ميزان حسي، ولكن العبد لا يقنع إلا بالمحسوسات.

وحَمْلُ الميزان على ظاهره أولى؛ فالله ﷻ يعلم نتيجة الموازين ومقاديرها سلفًا، ولكنه سبحانه يقيم الحجة على العباد بصورة محسوسة، فيأمر بتجسيد الحسنات والسيئات التي توزن.

---

(١) في كتابه: «العواصم من القواصم».

٢- وقيل: إن صحف الأعمال هي التي توزن، ويرجِّح هذا حديثُ البطاقةُ الذي بيَّن أن رجلًا من أمة محمد ﷺ يُنشر له تسعة وتسعون سجلًّا، كل سجل منها مدَّ البصر، ثم يُقرُّ بذنوبه فيعترف بسيئاته، ثم يؤتَىٰ له بسجل فيه بطاقة التوحيد: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله) فتوضع هذه البطاقة في كفة الحسنات، وتوضع السجلات الأخرى في كفة السيئات، فترجَّح كفة الحسنات؛ لأنه لا يَثْقُل مع اسم الله شيء، أي: أن الصحيفة تطيش بـ(أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ) فتثقلُ حسناته على سيئاته[١].

وبالميزان يتحقق العدل وعدم الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٤٠﴾ [النساء].

وعدم الظلم معناه: أن العبد لا يُزاد في سيئاته ولا يُنقص من حسناته:

أ- جاء رجل إلى النبي ﷺ يخبره: أن عبدين مملوكين، يخُونُونَه ويكَذِّبُونه ويَعْصُونه، وأنه يضربهم ويشتمهم، قال: فكيف أنا منهم؟ فقال النبي ﷺ: «**إن كنت تسيءُ إليهم بمقدار ما يسيئون إليك، فهذا كفاف، لا لك ولا عليك، وهو جزاء عادل، وإن كنت تسيء إليهم أقل مما يسيئون إليك فأنت صاحب فضل عليهم، وإن كنت تسيء إليهم أكثر مما يسيئون إليك فإنه يُقتصُّ منك يوم القيامة**»، فأخذ الرجل يبكي بين يدي النبي ﷺ، فقال الرسول ﷺ: «**أما قرأت قول الله ﷻ**: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾؟» فقال الرجل: يا رسول الله، ما أجد شيئًا خيرًا من فراق هؤلاء، إني أشهدك أنهم أحرار كلهم[٢].

---

(١) يُنظَر: نص الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص في «المسند» (٢/ ٢١٣) و«سنن الترمذي» برقم (٢٦٣٩) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٣٠٠) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٦٩) ومشكاة المصابيح (٥٥٥٩) والسلسلة الصحيحة (١٣٥) والتعليق الرغيب (٢/ ٢٤٠) وأوله في ابن ماجه (يصاح برجل من أمتي).

(٢) يُنظَر: الحديث عن عائشة بنحوه في «المسند» (٦/ ٢٨٠) برقم (٢٦٤٠١) وهو حديث ضعيف كما قال محققوه والترمذي (٣١٦٥) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن غزوان، والبيهقي في «الشعب» (٨٥٨٦) وصحح إسناده الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٣١)، ونسبه الهيثمي في المجتمع (١٠/ ٣٥٠) إلى أحمد وقال: رجاله رجال الصحيح ولم يقف على علته.

ب- وأخرج الحكيم الترمذي عن زياد بن أبي زياد قال: قال رجل: يا رسول الله، إن لي مالًا وإن لي خدمًا، وإني أغضب فأعزم وأشتم وأضرب، فقال رسول الله ﷺ: **«توزن ذنوبهم بعقوبتك، فإن كانت سواء، فلا لك ولا عليك، وإن كانت العقوبة أكثر، فإنما هو شيء يؤخذ من حسناتك يوم القيامة»**، فقال الرجل: أوَّاه أوَّاه، تؤخذ من حسناتي! أشهدك يا رسول الله، أن مماليكي أحرار، أنا لا أمسِكُ شيئًا يؤخذ من حسناتي له، قال ﷺ: **«أفحسبتَ ماذا؟ ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾؟»**[1].

جـ- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»**[2].

وزن الذرة: وقد بيَّن القرآن الكريم أن الله ﷻ لا يغيب عنه ما هو أصغر من الذرة؛ فحبَّة الخردل أصغر وأخف حبة عرفها العرب، وهي تُشبه حبة السمسم في دقتها، وبُذُور شجر الخردل، تَنْبت في الهند، ومصر، وأوربا، وهي ذات ساق دقيقة، ترتفع قدر متر، وأوراقها كبيرة[3]، وهي تُضرَب مثلًا لمنتهى صغر الحجم، وعبَّر سبحانه عن الذرة بحبة الخردل؛ لأنها كانت أصغر شيء عند العرب، ولو قال الله لهم: إن حبة الخردل فيها آلاف الذرَّات، ما استوعبت عقولهم ذلك، فخاطبهم القرآن بما يعرفون.

والمعنى: أن الله تعالى يضع الميزان العادل للحساب في يوم القيامة، ولا يظلم الكفار ولا غيرهم شيئًا، وإن كان عملهم في نهاية القلَّة -قدْرَ ذرة من الخير أو الشر- فإنه معتبر في حساب صاحبه وميزان عمله، وهو تصوير لدقة الحساب مهما قل العمل أو كثر.

والله ﷻ لا يغيب عنه ما هو أصغر من الذرة، وما هو أكبر منها، كما قال تعالى: ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

وقال: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ من أي مكان في العالم سواء أكانت في صخرة، أو في السموات، أو في الأرض، فإن الله تعالى يأتي بها.

---

(١) الحكيم الترمذي (١/ ١١٤).

(٢) صحيح البخاري برقم: (٧٥٦٣) و«صحيح مسلم» برقم: (٢٦٩٤) واللفظ له.

(٣) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٦/ ٨٦).

فإذا أذنب الإنسان ذنبًا صغيرًا أو كبيرًا، أو فعل فعلًا حسنًا أو سيئًا مهما قل أو كَثُر؛ فإنه يؤتى به يوم القيامة، قال سبحانه: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ وكفى بالله مُحْصيًا أعمال العباد ومُجازيًا عليها.

١- ومن الموازين ما يثْقل، وما يخف ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ [الأعراف].

٢- وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [المؤمنون].

٣- وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ [القارعة].

٤- وقال جلَّ شأنه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة].

٥- وقال سبحانه على لسان لقمان: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦] أي: يأتِ بها يوم القيامة ويحاسب عليها، ويجازي بها.

٦- وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]

أقبل سائل على عائشة ﵂، ولم تجد شيئًا تعطيه إياه، إلا حبة واحدة من عنب كانت بيدها، فأعطته إياها، فأمسك الرجل حبة العنب وأخذ يقلبها بين أصابعه محتقرًا إياها، فقالت له عائشة: يا هذا، إن الله ﷻ يقبل منا أعمال الخير، بدءًا من وزن الذرة -انظروا إلى هذا الفقه - فكم في حبة العنب من ذرات؟

«لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق».[1]

---

(١) يُنظر الحديث عن أبي ذر في صحيح مسلم برقم (٢٦٢٦).

قَصَصُ الْأَنْبِيَاءِ فِي السُّورَةِ

أَوَّلًا: الْإِشَارَةُ إِلَى مُوسَى وَهَارُونَ - عَلَيْهِمَا السَّلَام - وَكِتَابِهِمَا

٤٨- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً[١] وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

وبعد أن أقامت السورة الحجة على المشركين في كل زمان ومكان بالدلائل العقلية المقنعة الزاجرة، الدالة على وحدانية الله تعالى، أتت بشواهد من التاريخ ومن أحوال الأمم السابقة، فيها من الدلائل على وحدانية الله تعالى ما يُقنع الكافرين المكذبين لرسل الله، وفي هذا التاريخ من قصص الأنبياء تفصيل لما أُجمل في قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [٧].

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ [٤٥].

وأعقب الإشارة الأولى ببيان أن القرآن ذكرٌ مباركٌ أنزله الله تعالى هداية للخلق أجمعين، أفأنتم أيها الكفار له منكرون مع كل هذا البيان والأدلة؟

وابتدأت السورة بذكر موسى وأخيه هارون عليهما السلام؛ لأن أخبارهما كانت تصل إلى العرب عن طريق يهود المدينة، ولأن التوراة كانت أهم كتاب قبل القرآن؛ حيث اعتمد الإنجيل عليها في التشريع والأحكام.

وسورة الأنبياء سميت كذلك؛ لأنها تحدَّثَتْ عن عدد من أنبياء الله ورسله.

وقد بدأت الحديث عن هذا العدد من الأنبياء بموسى وهارون، والتوراة التي نزلت عليهما، ووصفها ربنا بثلاثة أوصاف، هي: الفرقان، والضياء، والذكر.

فهي الفارقة بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والهدى والضلال، الجامعة لكل خير.

وهي ضياء، فيها الهدى ليستنار بهداه، وليُستضاء به، ويأتمَّ به السالكون، وتُعرف به الأحكام، ويميز به بين الحلال والحرام، ويُدفع به الجهل والبدع والغواية، وهي ذِكْر،

---

(١) قرأ قنبل بهمزة مفتوحة بدل الياء في (وضياء)، والباقون بياء مفتوحة بدل الهمزة.

تُذكِّرهم بأوامر الله ونواهيه؛ وتُذكِّرهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتذكرهم الخير والشر.

فالتوراة كتاب جامع لصفات الخير، والكتب السماوية وِحدة واحدة حتى في الاسم، فهذه الأوصاف الثلاثة للتوراة هي أيضًا من صفات القرآن، فالقرآن: هو الفرقان، وهو النور، وهو الذكر.

وكُتُبُ الله كلها تفريق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وهي نور لأنها تُضيء ظلمات القلب والعقل، وتُبدد ظلمات الضلال والباطل، وتُنوِّره بشعاع الإيمان والهدى، وكلها تُذكِّر بالله تعالى، وتعظ القلب وتُثبته وتُقويه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقد كانت التوراة فارقة بين الحق والباطل قبل أن تمتد إليها أيدي اليهود بالتحريف والتغيير والتبديل.

ويصح أن يراد بالفرقان: المعجزات التي أيد الله بها موسى عليه السلام، فكانت فارقة بين المعجزة والسحر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة] فجاء عطف الفرقان على الكتاب بما يقتضي التغاير بينهما.

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ [غافر].

والمتقون هم الذين ينتفعون بالذكرى، كما وصفهم الله ﷻ في أول سورة البقرة، فبيَّن سبحانه أن هذا القرآن ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: ينتفع به التقي، وهو يبث الهداية لجميع الناس، ولكن المؤمن التقى هو الذي يتعظ ويعتبر، وأما الكافر؛ فمهما أنذرته لا ينتفع بالهدْي القرآني، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

مِنْ أَوْصَافِ الْمُتَّقِينَ

٤٩- ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

والمتقون هم الذين يخافون ربهم في السر والعلن، وهم لم يروْه، ولم يروْا حسابه وعقابه، وهم من عذاب يوم القيامة خائفون مشفقون، وجملة ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ تحتمل ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: أنهم يخافون ربهم في خلَواتهم وجلَواتهم، وسرهم وعلانيتهم، سِيَّمَا عندما لا يطَّلع عليهم أحد من الناس، وقد عرفوا ربهم بالنظر والاستدلال ولم يروْه سبحانه.

المعنى الثاني: أنهم يخافون أوامر الله تعالى ونواهيه، وقد عَلِمُوها بطريق البلاغ والاستدلال، وليس عن مشاهدة.

المعنى الثالث: أنهم يخشون ربهم فيما أعلمهم به من أمور الدنيا والآخرة، مما غاب عنهم ولم يروْه، وهذا كقوله تعالى في وصف أهل الجنة: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق].

وقد بيَّن تعالى ما أعدَّه لهم من الأجر العظيم في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك].

وخَصَّت الآية ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ بالذكر، وهي من الغيب؛ لمزيد الاهتمام بها، ولأنها تشتمل على كثير من أمور الغيب.

ثَانِيًا: الْإِشَارَةُ إِلَى خَاتَمِ الرُّسُلِ ﷺ وَكِتَابِهِ

٥٠- ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

وكما أنزل الله التوراة على موسى وهارون عليهما السلام، أنزل الفرقان على محمد ﷺ، وهو ذِكْر لمن تذكَّر به، وعَمِل بأوامره واجتنب نواهيه، وهو كتاب كثير الخيرات والبركات، عظيم النفع لمن اتبع توجيهاته، وقد أنزلناه عليك -يا محمد- لتنذر به الناس، ولسْتَ بدعًا من الرسل؛ فالأنبياء قبلك كانت لهم كتب.

وهكذا وصفت الآية القرآن بوصفين:

كونه ذِكْرًا، يُذَكِّر بما ركز في الفطَر والعقول الصحيحة، من التوحيد، وأحكام الشرع، والثواب والعقاب، والحلال والحرام، ونحو ذلك.

وكونه مباركًا، فيه خيري الدنيا والآخرة، وهذا يوجب تلقِّيه بالقبول والانقياد، والتسليم له، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والعمل بكل ما فيه.

وفي هذا القرآن هدى وعلم ونور، وسعادة في الدنيا والآخرة، وعلاج لكل داء، ودواء لكل مرض.

أفأنتم لهذا القرآن منكرون بعد كل ما سبق، وهو في غاية الجلاء والظهور، وأنتم

تعترفون بنزول التوراة، إن هذا لأمر عجيب؟!

واسم الإشارة في أول الآية ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ يعود على القرآن الحاضر في الذهن وفي التلاوة، فكأنه حاضر بذاته أمام الناس، وهو استفهام للتوبيخ والتعجب.

ثَالِثًا: قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ مَعَ الْأَصْنَامِ

٥١- ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾

وبعد هذه الإشارة الإجمالية إلى رسالة موسى وهارون ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، أعقب ذلك بقصة إبراهيم عليه السلام من زاوية مقاومة عبادة الأصنام بالحجة والقوة؛ لأن إبراهيم قبل مجيء الإسلام، كان هو المثل الأول لأهل مكة في إبطال الشرك، وإعلان التوحيد الخالص (الحنيفية السمحة) وهو الذي بنى الكعبة، وبنى بيت المقدس؛ لِقطْع دابر الشرك وعبادة غير الله تعالى، وكانت شريعة إبراهيم ﷺ أشهر شريعة بعد شريعة موسى عليه السلام.

وكان إبراهيم يسكُن بلدًا يقال لها: (كوثَى) بألف مقصورة، تسمى في التوراة (الكلدان)، ثم سكن هو وأبوه وأهله بلدة (حرَّان) ومات أبوه فيها، وابتدأت دعوته منها، وقد اشتهرت هذه البلدة بأنها بلد الصابئة، وكان فيها هيكل عظيم لهم.

وقد خرج إبراهيم من (حرَّان) إلى أرض كنعان مهاجرًا، وكان قومه يعبدون الكواكب ويجعلون لها صورًا مجسَّمة، ومن أكبر أصنامهم صنم (بعل) الذي يرمز إلى الشمس، وكان مصوغًا من ذهب، وصنم (نسروخ) وهو (نَسْر) من أصنام قوم نوح، وكانوا يعبدون أصنامًا أخرى منها: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر.

ولفظ: الوثن أعم من لفظ: الصنم؛ حيث إن كل ما عُبد من دون الله فهو وثن من إنسان، أو حيوان، أو جماد، أو جن، أو كوكب، أو غير ذلك.

والصنم ما كان مصنوعًا من معدن، أو خشب أو حجر، أو غيرها. أما التمثال فهو كل ما أشبه الإنسان أو الحيوان.

والأوثان لم تكن فقط في عهد نوح، وإبراهيم، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم

وعلى رسل الله أجمعين، وإنما هي موجودة إلى وقتنا هذا في بعض من بلاد العالم، وهي تُعبد كما كانت تُعبد في عهد إبراهيم، وفي عهد نبينا محمد، وفي عهد نوح ﷺ.

وإبراهيم ﷺ كان أبوه نجارًا، يصنع الأصنام بيده ويعطيها لإبراهيم، يسوِّقها ويبيعها للناس، وأخذ إبراهيم ﷺ ينكر على أبيه عبادة الأصنام، وهو فتى صغير، ويحاوره بالحسنى قائلًا له: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا لَا يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم].

وأخذ إبراهيم ﷺ يحاور الملك الذي كان في وقته وهو النمروذ، ويحاور المجتمع كله في عبادة الأصنام، فلما لم يفد إنكار المنكَر باللسان وبالقول، انتقل إلى إنكار المنكَر بالفعل والقوة، فكسَّر الأصنام كما ذكرت ذلك سورة الأنبياء، وسورة الصافات.

وفي هذه الآيات يقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ أي: آتيناه تمام العقل والعلم والهدى والصلاح والاتِّزان، آتيناه هداه ووفقناه للنظر والاستدلال على الحق ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي من قبل أن يُبعَث نبيًا، وهو فتى يافع.

وتحطيمه للأصنام كان قبل أن يُبعث نبيًا، وكانت سِنُّه إذ ذاك ستة عشر أو ستة وعشرين عامًا، وآتيناه رشده قبل أن يؤتى موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرًا؛ لأن إبراهيم كان قبلهما، فقد أراه الله ملكوت السموات والأرض، وأعطاه من الرشد ما كملت به نفسه، وما أهَّلَه لدعوة الناس إلى دين ربهم، فهو أبو الأنبياء، وكُنَّا بأهليته، وصلاحيته للرسالة واصطفائه، وجعْله خليلًا للرحمن عالمين باستحقاقه لِمَا هو له أهل، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، وقد شمل رُشْد إبراهيم رَفْضُه لعبادة الأصنام، ورفْضُه لعبادة الكواكب والشمس والقمر، وتوفيقه للخير في صغره وكبره.

حِوَارُ إِبْرَاهِيمَ مَعَ قَوْمِهِ

٥٢ ، ٥٣- ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾

أي: وكان الله عالمًا بإبراهيم وقت أن قال لأبيه مرشدًا ومحذرًا له: ما هذه الأصنام التي صنعتموها، ثم أقدمتم على عبادتها، ولازمتم ذلك دون انقطاع؟! فأين عقولكم،

حيث أفنيتم أوقاتكم في عبادتها، مع أنكم قد نحتموها بأيديكم؟ إن هذا من أعظم العجائب، تعبدون ما تنحتون.

عن ميسرة النهدي قال: مر علي بن أبي طالب ﷺ على قوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون[1].

فكان جواب قوم إبراهيم له يدل على تحجُّر العقول وانطماس البصيرة؛ حيث لا حجة لهم إلا أنهم قلَّدوا مَن سبقوهم من الآباء والأجداد دون تدبر ولا تفكر، قالوا: فاقتدينا بهم وعبدناهم.

ومشكلة التقليد مشكلة قائمة، يترتب عليها كثير من ارتكاب الأخطاء في العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق، فإن أقمتَ لهم الدليل، قالوا: هكذا وجدنا آباءنا، وهذا فلان وفلان من الناس يفعل كذا وكذا، فكل ما لديهم من حجة أنهم وجدوا آباءهم يعبدونها، وما دام ذلك من عمل الآباء والأجداد فكيف يحيدون عنه؟!

وهذه شبهة أعداء الرسل جميعًا، وهم بهذه الشبهة يصدُّون الناس عن الحق، ويُبعدونهم عن الرشد، ويعطِّلون عقولهم، ويعتمدون على عقول الآباء والأجداد، ويعوِّلون على ما سمعوه عن السابقين المتقدمين، ومن المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل، ليس بحجة، ولا تجوز به القدوة، خصوصًا فيما يتعلق بالتوحيد وأصول الدين، وكأن الله تعالى قد خلق لهم عقولًا وأسماعًا وأبصارًا ليعطِّلوها عن وظائفها، ويحُولون بينها وبين أداء واجبها، وهي منن يمتنُّ الله بها عليهم، فقد أخرجهم الله من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، والذين يعطلون هذه الحواس عن أداء وظائفها هم أهل جهنم، ويوم القيامة يتحسرون ويندمون قائلين: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

ولهذه الآية نظائر في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة].

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ

(١) أخرجه الضياء المقدسي في «المختارة» برقم (٧٤٤) وصححه محققه.

أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة].

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان].

والناس بحاجة إلى منهج دراسي يطبق في مراحل التعليم الأولى، يتعلمون منه كيف يستقلون بفكرهم وعقولهم في إطار الشرع وحدود النظر والدليل، ولذا فإن إبراهيم عليه السلام حكم على جميع المقلدين بالضلال:

٥٤، ٥٥- ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾

قال إبراهيم مجيبًا لهم، ومتعجبًا من حالهم: إنكم لا تعتمدون على دليل، بل على هوى متبع، وتقليد أعمى ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ﴾ في عبادتكم لهذه الأصنام ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ كنتم في فساد ظاهر، وباطل بيِّن، وإلغاء لعقولكم، وعدول واضح عن طريق الحق؛ فكل عاقل يعلم أن الأصنام لا تستحق العبادة، والباطل لا يصير حقًّا بفعل الآباء، وأي ضلال أبلغ من ضلالهم في عبادة الأوثان وترك التوحيد.

عجب قوم إبراهيم من صنيعه معهم، وظنوا أنه قال ما قال في آلهتهم على وجه المزاح والمداعبة لا على سبيل الجد، وذلك أنهم عندما واجههم إبراهيم بهذا البيان الواضح شكُّوا في حاله: هل هو جاد في اعتقاده هذا أم مازح؟ فسألوه: أهذا القول الذي جئتنا به حق وصدق، أم أن كلامك لنا كلام لاعب مستهزئ لا يدري ما يقول؟ فإننا لم نسمع به من قبل، فقد أنكروا ما قال واستبعدوه! وهذا يدل على تزعزع عقيدتهم وشكهم فيما هم فيه، إلا أن التقليد عطَّل عقولهم فاستحبوا العمى على الهدى.

٥٦- ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

ردَّ عليهم إبراهيم عليه السلام؛ ليبطل قولهم: ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ بإقامة الحجة والدليل على أن ما جاءهم به هو الحق الذي يجب عليهم اتباعه، فأجابهم في حسم وقوة يقين وثقة: أنا لست هازلًا فيما أقوله لكم، وإنما أنا جاد كل الجد في إخباركم أن الله وحده هو الذي خلق هذا الكون، وأنشأه بما فيه من مخلوقات عجيبة بقدرة فائقة لا يعجزها شيء.

﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم ﷺ ﴿بَل رَّبُّكُمْ﴾ الذي أدعو لعبادته هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي: خلقهن وأبدعهن، وليست أصنامكم المزعومة ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وفي هذا إعلام لهم بأنه مرسل من الله تعالى لإقامة دين التوحيد؛ لأن رسول كل أمة شاهد عليها، ولما لم يوجد في قومه من يشهد ببطلان عبادة الأصنام تعيَّن أن يكون هو الذي يشهد بتوحيد الله تعالى، فكأنه يقول: وأنا شاهد على أن الله تعالى هو ربكم ورب كل شيء، وهذا العالم العلوي والسفلي برهان قاطع على وحدانيته سبحانه. وفي ردِّ إبراهيم عليهم، تسفيه لعقولهم وعقول آبائهم في عبادتهم غير الله تعالى، وفيه دليل عقليّ ودليل سمعيّ على وحدانية الخالق سبحانه.

أما الدليل العقلي فيتمثل في قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ فهو سبحانه رب الإنس والجن والملائكة والبهائم والحشرات والسموات والأرض، خالقها ومدبر أمرها، وغيره سبحانه لا يملك نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

وأما الدليل السمعي، فهو في قول إبراهيم عليه السلام ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ فإبراهيم أبو الأنبياء، وما يشهد به منقول عن الرسل أجمعين، وهم لا يخبرون إلا بالحق، وكلهم يشهدون أن الله وحده هو المعبود، وعبادة ما سواه باطل.

تَحْطِيمُ الأَصْنَامِ

أراد إبراهيم أن يُبيّن لقومه عجز الأصنام، بطريقة يحملهم فيها على الإقرار بأن عبادتها باطلة، فهي لا تحمى نفسها من العدوان فضلًا عن حماية غيرها، فأقسم على تحطيم أصنامهم قائلا:

٥٧، ٥٨- ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا[1] إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

أضاف إبراهيم عليه السلام إلى التأكيد القولي السابق، التأكيد الفعلي في هذه الآية، فأتبع القول العمل، وانتقل من تغيير المنكر بالقول إلى تغييره باليد، فأقسم أن يمكر بأصنامهم ويكسِّرها بعد أن يذهبوا عنها.

---

(١) قرأ الكسائي بكسر الجيم من (جذاذًا)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

وكان لقوم إبراهيم يوم في العام يحتفلون به، ويخرجون فيه لعيدهم، ولا يبقى منهم أحد في المدينة، وكانوا إذا خرجوا تركوا الطعام عند الآلهة لتُباركها، فإذا قضوْا يوم العيد، ورجعوا إلى أصنامهم، أكلوا من الطعام بعد أن باركتْه الآلهة، ثم سجدوا عندها ورجعوا إلى منازلهم.

وقد أضمر إبراهيم في نفسه أن يُكسِّر هذه الأصنام التي بلغ تعدادها اثنين وسبعين صنمًا، أكبر، فكبير، فأصغر، فأصغر منه، بعضها من ذهب، وبعضها من فضة، وبعضها من نحاس أو حديد، وبعضها من خشب أو حجارة، وغير ذلك.

قال آزر لإبراهيم: لو خرجتَ معنا في يوم عيدنا، فإن ديننا سيعجبك، وقال له قومه مثل ذلك، وخرج إبراهيم معهم يومًا طمعًا منه في أن يتعرف على أحوالهم، ومشى معهم وهو يضمر حيلة لتكسير الأصنام، فلما كان في بعض الطريق قال لقومه: إني سقيم، وألقى بنفسه على الأرض، فتركوه وانصرفوا إلى عيدهم، ورجع إبراهيم وهو يشتكي رجله، وأقسم وهو في مؤخرة القوم أن يكسر أصنامهم بعد انصرافهم عنها، وسمعه أحدهم فأفشى ذلك في الناس، وهو الذي قال: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾(١).

ونفَّذ إبراهيم ما توعَّد به الأصنام؛ ليثْبت لهم أن هذه الأصنام ليست آلهة، وأنها لا تملك الدفاع عن نفسها، وذلك أنه لمّا رجع إلى الأصنام دخل عليها وفى يده فأس، وأخذ يكسرها ويحطمها واحدًا تلو الآخر، فأضحت الآلهة المعبودة قِطَعًا صغيرة من الحجارة والأخشاب المهشّمة، ثم علَّق الفأس فى عنُق الصنم الأكبر، وأبقاه من غير تحطيم؛ كي يرجعوا إليه ويسألوه: من الذي كسَّر هذه الأصنام؟ لكي يقيم عليهم الحجة، ويُظهر عجز آلهتهم التي يزعمونها، فجعلهم جذاذًا وقطَّعهم إربًا إربًا.

والضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ يعود على إبراهيم، وقال الكلبي: يعود على الصنم الكبير.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود ﷺ قال: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مَرُّوا عليه، فقالوا: يا إبراهيم، ألا تخرج معنا؟ قال: إني سقيم، وقد كان بالأمس قد قال:

---

(١) أخرجه الطبري عن مجاهد بسند صحيح.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ فسمعه ناس منهم، فلما خرجوا انطلق إلى أهله فأخذ طعامًا، ثم انطلق إلى آلهتهم فقرَّبه إليهم، فقال: ألا تأكلون؟ فكسَّرها إلا كبيرهم، ثم ربط في يده ما كسَّر به آلهتهم، فلما رجع القوم من عيدهم دخلوا عليها، فإذا بآلهتهم قد كُسِّرت، وإذا كبيرُهم في يده ما كُسِّرت به الأصنام، قالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا﴾ فقال الذين سمعوا إبراهيم يقول: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ فجادلهم عند ذلك إبراهيم[1].

٥٩، ٦٠- ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾

فلما رجعوا من عيدهم، ورأوا أصنامهم مُهانة محطمة، سأل بعضهم بعضًا: مَن كسَّر الأصنام؟ إنه لظالم في جُرْأته عليها وتكسيرها، وهي تستحق التعظيم والتوقير.

فقال الرجل الذي سمع إبراهيم وهو يقول: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ قال: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾، أي: يعيبهم ويسبهم، ويعزم على أن يحتال في أذاها وتكسيرها.

مُحَاكَمَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْمَلَأِ

٦١، ٦٢- ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾

عقدوا لإبراهيم محاكمة علنية، وجاء النمروذ وحاشيته، وأتوا بإبراهيم على مرأى من الناس؛ كي يشهدوا على اعترافه بما قال؛ ليكون ذلك حجة عليه في إيقاع العقوبة به، بعد التشهير به وإعلان فعلته على رؤوس الأشهاد.

وجيء بإبراهيم، وسألوه على وجه التهديد والاستنكار، قالوا له: أنت الذي كسرت آلهتنا يا إبراهيم؟ وهذا استفهام تقريري، أي فما الذي جرّأك على هذا؟

هَلْ كَذَبَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام؟

٦٣- ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ[١] إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

وبعد أن تم لإبراهيم ما أراد من إظهار سفههم على مرأى منهم، قال محتجًا عليهم، ومتهكّمًا بهم، ومعرِّضًا بغباوتهم: بل فعله هذا الصنم الكبير، فاسألوه إن كان يجيب.

وليس هذا الكلام من باب الكذب، وإنما هو في صورة الكذب، وليس كذبًا على الحقيقة، وتسميتُه كذبًا في الحديث باعتبار الظاهر، والكذب مذموم منهي عنه، ولكنه يرخص فيه للضرورة بارتكاب أخف الضررين، فقد جاء الترخيص به في ثلاث حالات هي: حالة الحرب مع العدو؛ فإن الحرب خدعة، وحالة الصلح بين اثنين أو فريقين، بأن يقول المصلح كلامًا من شأنه إزالة أو تخفيف حدة التوتر وسوء العلاقة بين المتخاصمين، وإن كان كلامه مخالفًا للواقع.

والحالة الثالثة هي تطييب خاطر الزوجة بما يُديم العلاقة وحسن العشرة بين الزوجين، بكلام حسن جميل، وإن كان هذا في الظاهر فقط، كأن يقول لها: أنت أجمل النساء، وليست كذلك، ولا يتعدى الكذب بينهما أكثر من تطييب المشاعر وحسن المودة والمعاشرة، وهكذا الحديث الذي جاء فيه أن إبراهيم عليه السلام كَذِب ثلاث كذبات من هذا القبيل:

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لَمْ يكذب إبراهيم النبيُّ عليه السلام قطُّ، إلا ثلاث كذبات: اثنتيْن في ذات الله، قوله:** ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وواحدة في شأن سارة، فإنه قدِمَ أرضَ جَبَّار ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إنْ يعلم أنكِ امرأتي يغلبْني عليك، فإن سألك فأخبريه أنكِ أختي؛ أى أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلمًا غيري وغيركِ، فلما دخل أَرْضَهُ ورآها بعض أهل الجبار، أتاه فقال له: لقد قدم أَرْضَكَ امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسلَ إليها فأُتي بها، فقام إبراهيم إلى الصلاة، فلما دخلتْ على هذا

(١) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف العاشر بنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها من (فَسَئَلُوهُمْ) وصلًا ووقفًا، ومعهم حمزة عند الوقف، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزة، ورسْم الهمزة على كرسي، وعدم وجود ألف بعد الفاء، من خصائص الرسم العثماني.

الطاغية، لم يتمالك أن يبسط يده إليها، فقُبضت يده قبضة شديدة، فقال لها: ادْعِي الله أن يُطلق يدي ولا أضرّكِ، ففعلتْ، فعاد، فقُبضتْ أشدَّ من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك، ففعلتْ، فعاد، فقُبضتْ أشدَّ من القبضتيْن الأولَيَيْن، فقال: ادْعِي الله أن يُطْلِق يدي، فلكِ الله ألّا أضرّكِ، ففعلتْ وأُطلقت يدُه، ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان، فأخرِجْها من أرضي، وأعطها هاجر»[1].

والكذبات الثلاث كما جاءت في الحديث هي:

الأولى: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فإن المقصود بذلك هو تعليل سبب التخلف عن المسير مع القوم؛ ليرجع إلى تكسير الأصنام، أو أراد أنه سقيم القلب من ضلالهم، وهذه حيلة لخدمة الدين، وليس له فيها مصلحة أخرى.

والثانية: حين هاجر إلى مصر، وكان بها طاغية جبار لا يترك امرأة حسناء تصل إلى بلاده دون أن يمسَّها، فلما أُخبَر عن سارة، وسأل إبراهيم عنها، قال: هي أختي، وكانت زوجته كما هو معلوم، وقد فسَّر إبراهيم قوله هذا كما جاء في الحديث بأنها أخته في الإسلام، حيث قال لها: إنك أختي في الإسلام، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك.

ولما دخلَتْ على الملك أخذ إبراهيم يصلي ويدعو ربه أن ينجيها من كيده، ولما رآها الملك مدَّ يده إليها، فشُلَّت وحبسها الله عنه، وكرر المحاولة ثلاث مرات، ومُنع بقدرة الله تعالى، فطلب منها أن تدعو له أن يفك الله يده ولا يَقْربها بسوء، فدعت له، وفُكَّت يده، فطلب حاجبه وقال له: إنك لم تأتني بإنسانة بل أتيتني بشيطانة، أخرجها، وأعطها هاجر، فخرجت ووهبها هاجر، فلما أحسَّ بها إبراهيم أنهى صلاته ودعاءه، فقالت له: كفاني الله كيد الكافر الفاجر، وأخْدمني هاجر.

والثالثة: هي قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾

وهو كلام في صورة الكذب، يراد به: التهكم والتبكيت، وقد أشفق النبي ﷺ على

---

(١) هذا لفظ مسلم برقم (٢٣٧١) وهو في «البخاري» بأرقام منها: (٢٢١٧، ٣٣٥٨، ٥٠٨٤، ٦٩٥٠) وفي «سنن أبي داود» برقم (٢٢١٢) من طريق عبد الوهاب الثقفي عن هشام بن حسان، و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٨٣٧٤) من طريق أبي أسامة عن هشام بن حسان، وغيرهم.

إبراهيم بمؤاخذته عليها من ظاهر هذه الكلمات الثلاث، كما جاء في حديث الشفاعة.

قال البغوي: ويجوز أن الله تعالى قد أذن له في ذلك؛ لقصد إصلاحهم، وتوبيخهم وإقامة الحجة عليهم، كما أمر يوسف مناديه أن يقول: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠].

وقال الفخر الرازي والزمخشري: الحديث محمول على المعاريض؛ فإن فيها مندوحة عن الكذب.

قلت: وهو قول وجيه، فمقصد إبراهيم هو إلزام الخصم، وإقامة الحجة عليه.

ولذا: طلب منهم سؤال الصنم الأكبر إن كان ينطق حقيقة، فإبراهيم يقول لهم:

﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ أي: اسألوا آلهتكم المزعومة إن كانت تتكلم، وهكذا فإن إبراهيم ﷺ يقول لهم: لا يوجد في المكان إلا أنا والأصنام، فإن كانت هذه الأصنام تنطق فهي التي فعلتْ، بمعنى: أن هذا الصنم الكبير قد غضب؛ لأن الأصنام الصغيرة تُعبد معه، فكسَّرها، فاسألوه إن كان ينطق فهو يقدر على الفعل.

وإبراهيم يريد التوصل إلى أن هذه الأصنام جماد لا تنفع ولا تضر، فكيف يعبدونها؟ وإن لم يكن الصنم الكبير ينطق فهو لا يقدر على شيء، فتكون النتيجة أنا الفاعل، فكأن إبراهيم يُقرُّ على نفسه أنه الفاعل، ويقول لهم تهكمًا: إنه ما دامت الأصنام لا تنطق، فالنتيجة أنني أنا الذي كسرتها.

ومعلوم أن إبراهيم لم يقصد بقوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ أن يخبر أن كبير الأصنام هو الذي حطَّمها، أو أنهم يسألون الأصنام عمَّن حطَّمها، وإنما الذي يقصده هو الاستهزاء بهم، والسخرية بأفكارهم، فكأنه يقول: إن التماثيل التي تعبدونها من دون الله لا تدري إن كنتُ أنا الذي حطمتها أم هذا الصنم الكبير، وأنتم تعرفون أني تخلَّيتُ عن المضيِّ معكم ورجعتُ إليها متوعدًا، فانظروا من الذي حطمها إن كانت لكم عقول تفكر! فهو يريد أن يُثْبت تكسيرها لنفسه بأسلوب التعريض. قال تعالى:

٦٤، ٦٥- ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه الأثر الذي أحدثه ردُّ إبراهيم ﷺ من أنهم أخذوا يفكرون ويتأملون، ويسأل بعضهم بعضًا، ويلومون أنفسهم: كيف يعبدون ما لا يستطيع الدفاع عن نفسه، ولا يجيب سائلًا؟! فأُسقط في أيديهم وظهر لهم ضلالهم، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: أعمَلوا عقولهم وفكَّروا، وقالوا: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كيف تعبدون آلهة لا تنطق، ولا تملك أن تدفع الأذى عن نفسها؟ لقد ظلمتم أنفسكم بعبادتها.

وسرعان ما تبدد هذا اللوم وعاد إليهم عنادهم، فرجعوا إلى باطلهم، واحتجوا على إبراهيم بما هو حجة له عليهم؛ حيث نُكسوا على رؤوسهم، ورجعوا إلى الكفر مرة ثانية، وارتدوا على أعقابهم، وقالوا: لقد علمت يا إبراهيم أنهم لا ينطقون، فكيف نسألها؟

والنكس: هو قلب الشيء من حال إلى حال، وأصله أن يصير أعلى الشيء أسفله، أي: أن حالهم قد تغيَّر، فبعد أن لاموا أنفسهم على كفرهم وضلالهم، وكادوا يعترفون بحجة إبراهيم، رجعوا إلى المكابرة والانتصار للأصنام، فقالوا لإبراهيم على سبيل التهديد: لقد علمتَ أن آلهتنا لا تنطق، فكيف تأمرنا بسؤالها؟ إنك تسخر بنا، وتهزأ بعقولنا، وسوف نُنزل بك العقاب الذي تستحقه.

إِبْرَاهِيمُ ﷺ يَدْعُو عَبَدَةَ الأَصْنَامِ إِلَى التَّوْحِيدِ

٦٦ ، ٦٧- ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ[(١)] ﴿٦٦﴾ أُفّٖ[(٢)] لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

انتهز إبراهيم فرصة اعترافهم بأن هذه الآلهة المزعومة لا تحير جوابًا، فأخذها حجة عليهم، وأخذ يُعنِّفهم على عبادتهم للأصنام، ويُحقِّر من شأنها، ويفضحهم على رؤوس الأشهاد، ويبيِّن أنها لا تنفع إذا عُبِدت، ولا تضر إذا تُرِكت، فأنتم تعبدون جمادات لا تضر ولا تنفع، ووجد إبراهيم أن هذا هو الظرف المناسب لدعوتهم إلى الله تعالى،

---

(١) عدّ هذه الآية (ولا يضركم) الكوفي وحده، وتركها الباقون فلم يعدوها آية.

(٢) قرأ نافع وحفص وأبو جعفر بكسر الفاء منونة من (أف) فالكسر لغة أهل الحجاز واليمن، والتنوين للتنكير، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بفتح الفاء بلا تنوين فالفتح لغة قيس، وترك التنوين، لقصد عدم التنكير، وقرأ الباقون بكسر الفاء بلا تنوين.

وتعريفهم بالإله الحق وإبطال ما هم عليه من ضلال.

واستطرد إبراهيم يوبخهم، ويقبِّح آلهتهم المزعومة؛ إذ كيف يتركون عبادة الذي خلقهم، ويعبدون جمادات لا قيمة لها، فسحقًا وقبحًا لكم ولآلهتكم التي تعبدونها من دون الله، فقد بلغ السخف والجهل غايته ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتدركون ما أنتم فيه من ضلال واضح، وترجعون إلى عبادة الواحد الأحد.

خَلِيلُ الرَّحْمَنِ يُلْقَى فِي النَّارِ بِسَبَبِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

٦٨، ٦٩- ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾

ولما أفحمهم إبراهيم عليه السلام وغلَبهم بالحجة القاهرة، وعجز باطلهم عن مقارعة الحق، عدلوا عن أسلوب النقاش إلى استعمال العنف والقوة، كما فعل كفار قريش مع النبي ﷺ حين عجزوا عن معارضته، فلجؤوا إلى قتله ﷺ حرقًا بالنار، وهكذا لجأ قوم إبراهيم إلى أسلوب آخر غير أسلوب الحوار، وهو أسلوب القوة والبطش الذي يلجأ إليه عادة ضعيف الحجة، حينما يكون شديد البأس، بيده السلطة وإمكانية البطش، فأمر النمروذ بأن يُحبَس إبراهيم في قرية (كوثَى) قيل: إن الذي أشار بحرقه رجل كُردي من أعراب فارس، وقد خسف الله به الأرض، واستحسن القوم ذلك.

أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: تلوْتُ هذه الآية على عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقال: أتدري يا مجاهد من الذي أشار بتحريق إبراهيم بالنار؟ قلت: لا، قال: رجل من أعراب فارس، يعني: الأكراد[١].

وعن شعيب الجَبائي قال: الذي قال: حرقوه (هيْزُن) فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة[٢].

والذي أمر بحرقه هو النمروذ، وهو من نسل كوش بن حام بن نوح بن كنعان، وأمر أن يُجمع له الحطب لمدة شهر كامل؛ لإحراقه.

فكانت المرأة الحامل تنذُر إذا ولدت مولودها أن تجمع الحطب لإحراق إبراهيم، وكان

---

(١)، (٢) «تفسير ابن جرير» (١٦/ ٣٠٥).

المريض ينذُر إذا هو شُفي أن يجمع الحطب لإبراهيم.

وهكذا كانت المرأة تغزل وتشتري الحطب بغزلها، والرجل يوصي بشراء الحطب من ماله بعد موته، وكأن حرق إبراهيم قربى إلى الله تعالى! وهكذا.

ثم أوقدوا النار على الحطب سبعة أيام، فلما أرادوا أن يلقوا بإبراهيم فيها تحيروا، كيف يلقونه في وسطها وهي ذات أبعاد واسعة مترامية، فصنعوا منجنيقًا ووضعوه فيه مقيدًا مغلولًا، ورفعوه على رأس البنيان وقذفوه به، وتركوه فيها سبعة أيام. قيل: إن إبليس جاءهم في صورة شيخ فعلَّمهم صنعة المنجنيق.

قال كعب: ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه، وبلغ من شدة وهج النار أن الطيور التي كانت تمر من فوقها تحترق.

ولما أُلقي إبراهيم في النار قال الله تعالى لها: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾

قالوا: إن نيران الدنيا قد أُطفئت في هذه اللحظة، أي: أنه لم يُنتَفع بها.

والله ﷻ قال للنار: كوني بردًا وسلامًا؛ لأنها لو كانت بردًا فقط لَقُتل إبراهيم من شدة البرد، ولكنها كانت بردًا وسلامًا؛ حيث سلب الله منها خاصية الإحراق، كما سلب من السكِّين خاصية القطع حين وُضعت على عنق إسماعيل عليه السلام، فلم ينلْه مكروه، ولم يُصَب بأذى.

قيل: تلقاه جبريل عليه السلام حين أُلقي به في النار وألبسه قميصًا، أي: درعًا واقيًا من النار، وهو القميص الذي أُلبسه يوسف عليه السلام فنجاه الله من الجب.

قال إبراهيم ﷺ: لم تكن أيامًا قَطُّ أنعم عليَّ من هذه الأيام التي قضيتها في النار. وبقي إبراهيم فيها سبعة أيام، وقيل: أربعين، أو خمسين يومًا.

قيل: إن الملك بنى بناء واطَّلع منه على النار، وأنه رأى جبريل، وهو يجاور إبراهيم في النار، ولما خرج منها دون إحراق، قال له النمروذ: نِعْمَ الرب ربك يا إبراهيم، أريد أن أُقرب لكم أربعة آلاف بقرة أذبحها قربانًا إلى إلهك، قال له إبراهيم: لا يقبل الله منك ما دمت على الكفر حتى تفارقه وتؤمن بالله.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في

النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ لَا فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾[1].

وهكذا يفعل الله بكل مؤمن.

ورد أن جبريل عرض لإبراهيم عليهما السلام وهو في الهواء فقال: ألك حاجة يا إبراهيم؟ قال: أما إليك فلا، وأما من الله فبلى.

وفي بعض الروايات أنه قال: عِلْمُه بحالي يُغني عن سؤالي. وقالوا: إن كثرة السؤال والإلحاح، لم يكن مشروعًا في عهد إبراهيم، ولكنه شُرع في ملة محمد ﷺ

وقيل: إنهم لما ربطوه وشدوا وثاقه قال: لا إله إلا أنت سبحانك، لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك[2].

وعن مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي أنها قالت: دخلتُ على عائشة فرأيت في بيتها رُمْحًا، فقلت: يا أم المؤمنين، ما تصنعين بهذا الرمح؟ فقالت: نقتل به هذه الأوزاغ، إن رسول الله ﷺ قال: «**إن إبراهيم حين ألقي في النار لم يكن في الأرض دابة لا تطفئ النار غير الوزغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم، فأمرنا رسول الله بقتله**»[3].

وقد عذَّب الله النمروذ في الدنيا على ما فعله بإبراهيم، قيل: إن الله تعالى سلَّط على هذا الجبار الطاغية أضعف المخلوقات وهو (البعوض) فدخلت البعوضة من أنفه إلى دماغه حتى مات. قال تعالى:

٧٠- ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٥٦٣).

(٢) رواه الطبراني في تفسيره كما في «الدر المنثور» عن أرقم (٥/ ٦٤٢).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٦/ ٨٣، ١٠٩) برقم (٢٤٥٣٤، ٢٤٧٨٠، ٢٥٨٢٧) وفي «المحقق» (٤١/ ٨٠) بإسناد رجاله ثقات، وابن ماجه في السنن برقم (٣٢٣١) من طريق نافع عن سائبة مولاة الفاكه، وابن حبان (٥٦٣١) وأبو يعلى (٤٣٥٧) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٦١٦) والطبراني في «الأوسط» (٦٩٧٣) وهو في «البخاري» عن أم شريك برقم (٣٣٥٩)، وابن أبي شيبة (٥/ ٤٠٢) ومصنف عبدالرزاق (٨٣٩٢) عن معمر عن الزهري، وهو في مسلم (٢٢٣٧) بدون ذكر إبراهيم.

وأراد القوم بإبراهيم الهلاك، حين عزموا على إحراقه، فأبطل الله كيدهم، وجعلهم الخاسرين في الدنيا والآخرة، فقد أهلك الله النمروذ وقومه بعذاب من عنده، تختلف الروايات في تفصيله، ويبدو أن الله تعالى سلَّط عليهم الآشوريين فأخذوا بلادهم، وانقرض مُلْكهم، وصاروا خلفاء من بعدهم.

وقد أثبت التاريخ شيئًا من ذلك في حدود سنة ٢٢٨٦ قبل الميلاد، وإلى هذا العذاب يشير قول الله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤]

فقد جاءت هذه الآية بعد ذكر قوم إبراهيم ضمن أقوام آخرين هم: قوم نوح، وعاد، وثمود، وأصحاب مدين، وقوم موسى، في الآيتين الثانية والأربعين والثالثة والأربعين، من سورة الحج.

وتلك سُنَّة الله مع الرسل جميعًا إذا حزبهم أمر وبلغت الشدة منتهاها؛ خذَل الله المستكبرين المعاندين ونجَّى المتقين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف].

وهكذا جعل الله تعالى إبراهيم عليه السلام من الرابحين المفلحين، وأهلك النمروذ وحزبه.

هِجْرَةُ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى فِلَسْطِينَ

٧١، ٧٢- ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾

أمر الله إبراهيم أن يهاجر من العراق فرارًا بدينه، بعد أن نجَّاه الله من الإحراق بالنار؛ لِيخْرُج من دار الشرك إلى أرض النبوات، فخرج من العراق هو وابن أخيه لوط الذي آمن به وبدعوته، كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦] وهي أول هجرة على وجه الأرض لأجل الدين، ونزل إبراهيم بفلسطين، ونزل لوط بالأردن، وهي الأرض التي بارك الله فيها بالشام: أرض النبوات، وأرض الرسالات، التي بارك الله فيها بالأشجار والثمار وغير ذلك، ومن بركة الشام أن كثيرا من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها مهاجَرًا لخليله، وفيها أحد بيوته الثلاثة المقدسة.

قال ابن عطية: ورُوِي أن إبراهيم ولوطًا هاجرا مِن (كُوثى) ومرَّا بمصر، ولم تكن طريقًا لهما، ولكنهما غيَّرا الاتجاه، مخافة أن يتَّبعوهما، ثم جاءا إلى الشام فنزل إبراهيم بالسبع

من أرض فلسطين، وهي بريَّة الشام، ونزل لوط بالمؤتفكة[١].

هذا: وكان مع إبراهيم، سارة زوجته، وابنة عمه، وفي تلك السَّفْرة كان لقاؤه بالملك الطاغية في مصر، وحدثت القصة السابق ذكرها بخصوص زوجته.

قال قتادة في ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا﴾: كانا بأرض العراق، فأُنْجِيا إلى أرض الشام، وكان يقال: الشام عماد دار الهجرة، وما نُقص من الأرض زِيدَ في الشام، وما نُقص من الشام زِيدَ في فلسطين، وكان يقال: أرض المحشر والمنشر، وبها ينزل عيسى ابن مريم، وبها يُهلك اللهُ مسيخ الضلالة الدجَّال[٢].

وقد عوَّض الله إبراهيم وطنًا خيرًا من وطنه، وكان ذلك بعد أن نجَّاه الله من النار، وعزم على الهجرة، وكان قد دعا ربه: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات] وعوَّضه الله أهلًا خيرًا من أهله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ﴾ لما دعا ربه قائلًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات].

كما قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. حفيدًا له، نافلة من غير سؤال، ﴿وَكُلًّا﴾ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ﴿جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ﴾ أي: جعله الله صالحًا مطيعًا؛ حيث وفقهم الله لطاعته، وشرَّفهم بنبوَّته. قال تعالى:

٧٣- ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

وجعلنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب قدوة للناس، يدعونهم إلى عبادة الله وطاعته، ويهدون الناس بأمر الله وإذنه.

وأمرُ الله تعالى: هو الوحي الذي أنزله على رسله، ومن نصَّبه الله هاديًا للبشر فهو مأمور ألا يتهاون بأوامر الله أو يتثاقل عنها، ولابد أن يكون مهتديًا في نفسه، قدوة لغيره.

وقد أوحى الله سبحانه إلى الرسل جميعًا أن يقيموا شرائع الدين بين الناس، من

(١) «تفسير ابن عطية» بتصرف (٤/ ٩٠).

(٢) أخرجه عبدُ بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عساكر عن قتادة كما في «الدر المنثور» (١٠/ ٣١٥).

العبادات والأخلاق والأحكام والمعاملات، ويأمروا الناس بفعلها، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: من العمل بشرائع الأنبياء، وأوحينا إليهم أيضًا أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وهذا تخصيص بعد تعميم؛ فالصلاة والزكاة من الخيرات، ولكنهما أفضل العبادات البدنية والمالية،فمن ضيّعهما كان لما سواهما أضيع، فامتثل هؤلاء الرسل مَا أُمروا به، وكانوا مطيعين لله وحده دون سواه، فهم من المصطفين الأخيار.

رَابِعًا: نَبِيُّ اللَّهِ لُوطٌ عليه السلام

٧٤- ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾

سورة الأنبياء، سُميت كذلك لذكر ستة عشر نبيًّا ورسولًا فيها. ذُكر منهم خمسة بالاسم دون قصة لهم، وهم: موسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس، وذو الكفل. وذكرت قصة إبراهيم في تكسيره للأصنام على وجه التفصيل، وذُكر عشرة منهم بمعدَّل آيتين اثنتين لكل نبي ورسول؛ وذلك لأخذ العبرة والفائدة منها على وجه الإجمال والإيجاز.

وأول هؤلاء الرسل الذين تحدثت عنهم السورة في آيتين اثنتين لكل منهم، نبي الله لوط عليه السلام، فقد جاء ذكره في الآية الرابعة والسبعين والخامسة والسبعين من سورة الأنبياء؛ حيث تحدثتا عن نبي الله لوط عليه السلام استقلالًا بعد أن سبق ذكره في هجرته مع عمه إبراهيم من العراق إلى الشام، تنبيهًا على أنه ﷺ بُعث بشريعة خاصة إلى قوم غير قوم إبراهيم، في موطن غير الذي حلَّ فيه إبراهيم، بخلاف إسحاق ويعقوب عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

وقد أثنى الله تعالى على لوط عليه السلام بالعلم الشرعي، والحكم بالصواب بين الناس في قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وأرسله إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وترك الفاحشة.

وكان لوط قد هاجر مع عمه إبراهيم خليل الرحمن من العراق إلى الشام؛ حيث نزل إبراهيم بفلسطين، ونزل لوط بالمؤتفكة. وقد نزل كل منهما في مكان قريب من الآخر بفلسطين والأردن؛ لتتسع الأرض لأغنام كل منهما. وكان لوط عليه السلام قد آمن بعمه نبيًّا ورسولًا قبل هجرته معه ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦] فأوحى الله إلى لوط، وأعطاه النبوة وفصْل القضاء بين الخصوم، وعلَّمه أوامره ونواهيه.

وكانت قرى المؤتفكة، وهي قُرى سدوم وعامورة، أهل منكرات، يأتون فاحشة اللواط، ويأتون المنكر في مجالسهم العامة، ويقطعون الطريق على المارة، كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] ذكر ابن عساكر وغيره عن الحسن أن قوم لوط كان فيهم عشر خصال هي:

١- إتيان الرجال بعضهم بعضًا.
٢- والرمي بالمقلاع والحصى.
٣- واللعب بالحمَام.
٤- والضرب بالدفوف.
٥- وشرب الخمور.
٦- وقصُّ اللحية.
٧- وطول الشارب.
٨- والصفير.
٩- والتصفيق.
١٠- ولباس الحرير.

وتزيد هذه الأمة: إتيان النساء بعضهن بعضًا[١].

فأرسل الله تعالى لهم نبيه لوطًا ﷺ يأمرهم أولًا بعبادة الله وتوحيده، ويأمرهم ثانيًا بأن يتركوا هذه الفاحشة، ويُقلعوا عنها.

ولما لم يستجيبوا له وكذّبوه وخالفوه؛ أهلكهم الله تعالى، فأمره أن يسرى بأهله ليلا ليبعُدوا عن القرية، حيث أرسل لهم جبريل فاقتلع قُراهم ورفعها إلى أعلى، وجعل عاليها سافلها، وأنجى الله لوطًا وأهله إلا امرأته، إنهم كانوا بسبب الخبائث والمنكرات التي يأتونها أهل سوء وقُبح، خارجين عن طاعة الله تعالى، وعلى رأسها الإشراك بالله سبحانه، وفاحشة اللواط التي لم يسبقهم إليها أحد، واشتهروا بها في العالمين. قال تعالى:

٧٥- ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥﴾

أي وأتمَّ الله على لوط النعمة، فأدخله في رحمته في دنياه حين نجَّاه مما حلَّ بقومه، ويدخله جنته في آخرته؛ لأنه كان من عباد الله المخلصين العاملين بطاعته، والصلاح هو سبب دخول العباد في رحمة الله، والفساد سبب حرمانهم من الخير والرحمة، قال تعالى عن نبيه سليمان ﷺ ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]

(١) يُنظَر: ابن عساكر (٥٠/ ٣٢٢).

خَامِسًا: نَبِيُّ اللَّهِ نُوحٌ عليه السلام

٧٦- ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾

والنبي الذي جاء ذكره بعد لوط في سورة الأنبياء، هو أبو البشر الثاني نبي الله نوح عليه السلام، وكانت رسالته قبل إبراهيم ولوط عليهما السلام.

ومدة الرسالة التي مكثها نوح في قومه، كانت ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم خلالها إلى توحيد الله عز وجل، سرًّا وجهرًا، وليلًا ونهارًا، فلم يزدهم دعاءه لهم إلا فرارًا، والذين آمنوا بنوح في هذه المدة الطويلة كانوا على أوسع الأقوال: ثمانين رجلًا وامرأة، ولمَّا أخبره الله تعالى بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، دعا ربه عليهم فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح].

ثم نادى ربه قائلًا: رَبِّ ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ﴾ فكان جواب الله تعالى بالانتصار له قائلًا: ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]. أو أن نوحًا سأل ربه أن ينتصر له من قومه.

وهذا النداء هو الذي جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الصافات].

والكرب العظيم: هو الطوفان، أى ونصرنا نوحا بنجاته من كيد الكافرين الأشرار ونجاته من الغرق بالطوفان، فقد أجاب الله سؤاله على كل ما سبق بيانه، بأن أمره عز وجل أن يصنع السفينة، وأن يركب فيها هو ومن آمن معه، وجاء الطوفان فنجَّى الله نوحًا والذين آمنوا معه، وأغرق الذين كفروا، ومنهم ابنه الكافر الذي لم يؤمن به، وقيل: بعدًا للقوم الظالمين، وجعل ذريته هم الباقين. قال تعالى:

٧٧- ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

أي: ونصرنا نوحًا من قومه الذين كذبوا بآياتنا الدالة على صدقه، فخلَّصناه منهم منتصرًا، ونجَّيناه من شرِّهم، إنهم كانوا أهل قُبح فأغرقناهم وأهلكناهم بالطوفان أجمعين، ولم نُبقِ منهم أحدًا على وجه الأرض عدا من آمن منهم وهم قليل.

سَادِسًا: نَبِيُّ اللَّهِ دَاوُدُ عليه السلام

٧٨- ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾

في هذه الآيات التي نحن بصددها ذِكْرُ نبي الله داود وابنه سليمان عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وداود وسليمان من نسل يعقوب عليه السلام، آتاهما الله النبوة والملك والحكْم، وقد مات كل من داود وسليمان قبل ميلاد عيسى عليه السلام بنحو ألف عام، وهما من أنبياء بني إسرائيل.

ولم يكن بعد موسى في بني إسرائيل، عصر له ميزة خاصة مثل عصر داود وسليمان عليهما السلام؛ فداود أول من جُمعت له النبوة والملك من أنبياء بني إسرائيل، وبلغ شأنهم في عهده حدًّا عظيمًا من البأس والقوة.

وأعطى الله داود الزبور، فيه حكمة وعظة تكمِّل التوراة التي جاءت بالشريعة، فاستكمل الله له الحكمة ورقيق الكلام مع النبوة والملك.

ونكتفي بذكر قصة القضية التي نَبَّهت على أصل الاجتهاد، ودلت على فقه القضاء عند داود وسليمان عليهما السلام.

فقد حدث أن رجلًا كان له زرع، وهذا الزرع أو الحرث عبارة عن عنب تتدلَّى عناقيده، ورجلًا آخر له غنم، وهذه الغنم نفشت في هذا الزرع ليلًا فأكلتْه، فاحتكم صاحباهما إلى داود عليه السلام، فحكم بأن يأخذ صاحب الحرث الغنم، نظرا لتفريط أصحابها، مقابل أنها أكلتْ حرثه؛ لأنها تُساويها في القيمة في نظره عليه السلام.

وكان سليمان شابًّا يافعًا يجلس خارج باب القضاء، فلما خرج الخصمان ذكرا قصتهما له، فقال: لو كنتُ قاضيًا لحكمتُ بغير هذا، فبلغ داود ذلك فأحضره، وقال له: بماذا كنت تقضي؟ فقال: إني رأيت ما هو أرفق من ذلك للجميع، قال: ماذا؟ قال: يأخذ صاحب الغنم الأرض فيزرعها ويُصلحها، ويَسقيها ويتعهدها، حتى يعود الزرع كما كان.

ويأخذ صاحب الأرض الغنم، فينتفع بألبانها وسَمْنِها ونسلها وأصوافها، وغير ذلك،

فإذا عاد الزرع كما كان، رُدَّ كل مال إلى صاحبه، فقال داود: القضاء ما قضيت[١].

والمعنى: اذكر -يا محمد- نبي الله داود وابنَه سليمان، إذ يحكمان في قضية، فعرض لهما خصْمان، أحدهما: راعي غنم، وثانيهما: عامل حرث، حيث تعدَّت غنم أحدهما على زرع الآخر، وانتشرت فيه ليلًا، فأتلفت الزرع، فحكم داود بأن تكون الغنم لصاحب الزرع مِلْكًا له بما أتلَفَتْه، وحكم سليمان بأن ينتفع صاحب الغنم بالأرض، وينتفع صاحب الأرض بالغنم، حتى يعود الزرع كما كان، ثم يرد كل مال لصاحبه، وكان حكم داود يتجه إلى تعويض صاحب الحرث، وحكم سليمان يتجه إلى البناء والتعمير، والعدل حاصل على كلا الحكمين، وكان الله لحكمهم شاهدًا ومطلعًا، لم يغب عنه شيء منه.

والضمير في ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ يعود على داود وسليمان، على أساس أن المثَنَّى أقل الجمع، وكان هذا الحكم -على ما عليه جمهور الفقهاء- باجتهاد من سليمان وداود، ولم يكن بوحي من الله تعالى.

وقد أعطى الله سليمان الحكمة، وعلم الصناعات والإبداع، وسخر له الإنس والجن، والشياطين، والريح، والطيور، والدواب، فاستكملت بنو إسرائيل في عهده النظام والصناعة والتجارة والثروة والحكمة.

ولذا: كانت قصة داود وسليمان مثلًا يُضرب.

وقد جرى عُرْفُ الناس على أن أهل الزرع يحفظون زرعهم بالنهار، فلا ضمان على أصحاب الماشية إذا أكلته نهارًا؛ لأن هذا هو وقت رعْيها وسَراحها، أما إذا رعتْه ليلًا فإن صاحبها يضمن؛ لأنه مطالب بحفظ غنمه ليلًا.

ويدل على هذه المسألة ما رواه حرام بن سعد بن مُحَيِّصَة أن ناقة للبراء بن عازب ﷺ دخلت حائط رجل من الأنصار فأفسدتْه، فقضى النبي ﷺ أن: «**على أهل الأموال حفظها بالنهار، وعلى أهل المواشي حفظها بالليل**»[٢].

---

(١) تُنظَر القصة في «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٢٠) والحاكم (٢/ ٥٨٨) والبيهقي (١٠/ ١١٨) وعبد الرزاق (٢/ ٢٦) برقم (١٨٤٣٥).

(٢) الحديث عن حرام بن مُحَيِّصة عن أبيه في صحيح سنن أبي داود برقم (٣٠٤٨) وهو في السنن (٣٥٧٠).

زاد في رواية: «**وأن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل**»[١].

وذهب أصحاب الرأي إلى أن المالك إذا لم يكن مع ماشيته، فلا ضمان عليه فيما أتلفت ليلًا كان أو نهارًا.

قلت: وهذا كله في الأنعام السائمة وهي ترعى في الأرض الموات، أما الأنعام التي يقوم على غذائها ذَوُوها، وهي تغدو وتروح برفقتهم، ولها حظائر خاصة بها، أو أماكن تُربط فيها، فلا تدخل في هذا، فإن رعت زرْع الجار فعلى صاحبها الضمان ليلًا أو نهارًا.

وحُكْم داود وسليمان في هذه القضية ليس عن وحي من الله تعالى على الصحيح، إنما هو عن اجتهاد وعلم وحكمة، وكلاهما كان على حق في قضائه، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

وفي الآية قرينتان تدلان على أن هذا القضاء كان باجتهاد منهما، ولم يكن بوحي من الله تعالى إليهما:

إحداهما: لفظ ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ فهو يدل على أن الحكم في القضية كان من وراء داود وسليمان معًا، ولو كان وحيًا ما ساغ الخلاف بين الحَكَمَيْن.

وثانيتهما: أن الضمير في ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ يدل على فهم سليمان للقضية، من نصوص ممَّا كان عندهم في الشرع، ولو كان الحكم بوحي من الله إليه لفهمه داود أيضًا، ولكن سليمان أصاب في اجتهاده، فاستحق الثناء باجتهاده وإصابته، وداود استحق الثناء باجتهاده، ولم يستوجب لومًا ولا ذمًّا لعدم إصابته.

وهذا تفاضل في مراتب الاجتهاد، فقد كان قضاء داود حقًّا؛ لأنه مستند إلى تحمل غُرم الإضرار على المتسببين في إهمال الغنم، وأصل الغرم أن يكون تعويضًا ناجزًا، فكان قضاؤه حقًّا.

---

(١) يُنظَر: أبو داود في صحيح سننه برقم: (٣٠٤٧) وعبد الرزاق في «المصنف» (١٨٤٣٧) و«المسند» (٣٩/ ٩٧) برقم (٢٣٦٩١) وسنن ابن ماجه (٢٣٣٢) والطبري (٦/ ٣٢٧). قال محققو المسند: إسناده مرسل صحيح، رجال ثقات، وهو في الموطأ (٢/ ٧٤٧) والحديث في مسند البراء (١٨٦٠٦).

وكان قضاء سليمان حقًّا؛ لأنه مستند إلى إعطاء الحق لذويه، مع استيفاء الآخرين مالهم بعد حين، فهو يشبه الصلح.

وقد كان الخَصْمان من أهل الإنصاف لا من أهل الاعتساف، فرضِيَا بحكم سليمان.

وهذه الآية أصل في اختلاف الاجتهاد، وفي العمل بالراجح، وفي عذر المجتهد إذا أخطأ اجتهاده، ورجوع القاضي عن حكمه جائز إذا ظهر له الأرجح.

وفي الحديث عن بريدة أن رسول الله ﷺ قال: **«القضاة ثلاثة: قاض في الجنة وقاضيان في النار: رجُل عَلِم الحق وقَضى به فهو في الجنة، ورجُل حكَم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار»**[1].

قال الحسن: لولا هذه الآية لهلك الحكام -أي: القضاة- فإن الله تعالى قد حمد هذا بصوابه، وأثنى على هذا باجتهاده.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ، فله أجر»**[2].

ومن أحكام داود وسليمان عليهما السلام ما رواه أبو هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«كانت امرأتان معهما ابناهُما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان، فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها، فقضى به للصغرى»**[3].

---

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» برقم (٣٥٧٣) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٥٩٢٢) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٣١٥) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٧٣) وإرواء الغليل (٢٦١٤) والمشكاة (٣٧٣٥).

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٣٥٢) و«صحيح مسلم» برقم (١٧١٦).

(٣) في «البخاري» برقم (٦٧٦٩) و«مسلم» برقم (١٧٢٠) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٥٩٥٨) و«المسند» (٢/ ٣٢٢).

سَابِعًا: نَبِيُّ اللَّهِ سُلَيْمَانُ عليه السلام

٧٩- ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾

قال ﷻ مُثْنيًا على حُكْمِ سليمان: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾ أي: فهَّمنا سليمان الحُكْم بمراعاة مصلحة الطرفين مع العدل، فحكَم على صاحب الغنم بإصلاح الزرع التالف، في فترة يستفيد فيها صاحب الزرع بمنافع الغنم من لبن وصوف ونحوهما، ثم تعود الغنم إلى صاحبها، والزرع إلى صاحبه، وذلك نظرًا لمساواة قيمة ما تَلف من الزرع لمنفعة الغنم، وأعطينا كُلًّا من داود وسليمان حكمًا وعلمًا.

ومن أحكام داود وسليمان، ما ورد أن أربعة من رؤساء بني إسرائيل، قد رَاوَدُوا امرأة حسناء عن نفسها، فأبت وتعفَّفت، فلما امتنعتْ شهدوا عليها عند داود أنها قد مكَّنت كَلْبها من نفسها وعوَّدتْه على ذلك، فحكم عليها داود بالرجم.

فلما علم سليمان بذلك طلب الأربعة، وسأل كل واحد منهم من وراء الآخر: ماذا كان لون الكلب؟

فقال الأول: إنه أسود. وقال الثاني: إنه أحمر. وقال الثالث: إنه أغبش. وقال الرابع: إنه أبيض. فلما علم داود بذلك أرسل في طلبهم من فَوْره، وسألهم متفرقين، فاختلفوا في لون الكلب، فأمر بقتلهم جميعًا[١].

ومعنى ذلك: أنهم كذَبة، وأنهم مدَّعُون، وأنه لابد من القرينة التي تؤيد الشاهد، ولابد للقاضي أن يكون متفرسًا متحريًا.

ثم ذكر الله سبحانه ما خصَّ به كُلًّا من داود وسليمان، فقال في شأن داود: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ﴾ أي: منَنَّا على داود بتطويع الجبال والطيور، تُسَبِّح معه إذا سبَّح، فقد كانت تُسَبِّح بتسبيحه إذا سمعتْه يُسَبِّح، ومن ذلك تسبيح الجبال والطير معه

---

(١) ابن عساكر بإسناده عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس (٢٢/ ٢٣٢) ويُنظَر مخطوط «مختصر تاريخ دمشق» (٧/ ٥٦٥).

بقدرتنا التي لا يُعجزها شيء، كما قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]

أي: رجِّعي التسبيح مع داود.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص].

وقدَّم سبحانه تسبيح الجبال على الطيور؛ لأنها أغرب وأعجب، وهو تسبيح حقيقي، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وثبت أن النبي ﷺ أخبر أن حجرًا في مكة كان إذا مر عليه الرسول ﷺ يُسَلِّم عليه، يقول: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، حين يمر به.

وثبت أن الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ قد حنَّ وتألَّم حين خطب النبي عليه الصلاة والسلام على المنبر، بعد أن صُنع له ووقف عليه، فسُمِع للجذع حنين، وسمعه أصحاب رسول الله ﷺ.

وثبت أن الحصى كان يسبح في كف رسول الله ﷺ.

ومن ذلك تسبيح الجبال والطير معه بقدرتنا التي لا يُعجزها شيء، وكان داود حسن الصوت كما قال النبي ﷺ حين سمع قراءة أبي موسى الأشعري ﵁: **«لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود»** قال أبو موسى: يا رسول الله، لو علمتُ أنك تسمع لحبَّرتُه لك تحبيرًا[(١)].

وكان داود ﵇ حسَن الصوت، يترنَّم وهو يرسل المزامير، ويُسَبِّح بحمد الله تعالى.

هذا: وفي الآية التالية بعض ما خصَّ الله به داود ﵇، وفي الآيتين بعدها بعض ما خصَّ الله به سليمان ﵇.

دَاوُدُ يَصْنَعُ الدُّرُوعَ الْحَدِيدِيَّةَ

٨٠- ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم[(٢)] مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

(١) الحديث أخرجه الشيخان كما في «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» برقم (٤٥٦).

(٢) قرأ ابن عامر وحفص وأبو جعفر بتاء التأنيث في (لتحصنكم)؛ لأن (لبوس) مؤنث مجازي، وقرأ شعبة ورويس بالنون؛ لمناسبة (وعلمناه) وهو إسناد حقيقي إلى ضمير العظمة، وقرأ الباقون بالياء، مسند إلى ضمير اللبوس، من إسناد الفعل إلى سببه.

امتنَّ الله على داود ﷺ واختصه بأن علَّمه صناعة الدروع، يعمَلُها حِلَقًا متشابكة، تُسهِّل حركة الجسم؛ لينتفع بها الناس، وتحمي المحاربين من وقْع السلاح عليهم، وقد ألان الله لداود الحديد من غير نار تُذيبه، وكانت الدروع قبل ذلك صفائح من حديد جامدة، يثقُل استعمالها، فكان داود أول من سردَها حِلَقًا بإتقان وإحكام، بحيث لا تكون الحلقة واسعة فتلقلق المسمار، ولايكون المسمار غليظا فيقدّ الحلقة، كما قال تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١] أي: اعمل دروعًا سابغاتٍ، وتقدير السرد: إحكامه وإتقانه.

وقد علَّم الله داود هذه الصناعة، لتجعل المحاربين في حرز ومأمن من الإصابة بآلة الحرب، وتقي بعضهم بأس بعض؛ لأن الدرع تقي صاحبها من ضربات السيوف، وطعن الرماح.

وصناعة الدروع نعمة من الله تعالى على خلقه لاستعمالها في طاعة الله تعالى ونشر كلمته، قال تعالى ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ ١٠]

وهذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب، وأنه لا حياة لأمة الإسلام ما لم تكن لها قوة حربية تحميها وتدافع عنها ويَهابُها عدُوّها، ونحن في عالَم تُسيطر عليه وتحْكُمه القوى العسكرية والاقتصادية بما لديها من قوة مادية وعلمية.

وإلانة الحديد لداود كالطين، والعجين، يحتمل أن يكون أمرا خارقًا للعادة، ويحتمل أن يكون تعليم الله له صناعة الحديد، أمر تجري به بالعادة، وهو الأظهر، وقد امتن الله على عباده بذلك وحثهم على شكره.

هذا: وقد كان داود إلى جوار ذلك يصنع الخوص، ويأكل من عمل يده، وكان آدم حرَّاثا، ونوح نجارًا، ولقمان خياطًا، وطالوت دباغًا، وما من نبي إلا رعى الغنم، وبالصنعة يكفُّ الإنسان نفسه، ويدفع عنها الحاجة وذلَّ السؤال.

وفي الحديث عن الزبير بن العوام ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره، فيبيعها فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس**

أعطوه أو منعوه»[١].

وقال عمر ﷺ: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقني؛ فإن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة.

وجاء في الأثر: إن الله يحب المؤمن المحترف المتعفِّف، ويبغض السائل الملحف.

وفي الحديث عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألَّا يقوم حتى يغرسها فليغرسها»**[٢].

وفي الحديث عنه أيضًا: **«ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة إلا كان له به صدقة»**[٣].

تَسْخِيرُ الرِّيحِ لِسُلَيْمَانَ ﷺ

٨١- ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ[٤] عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾

وسخَّر الله لسليمان الريح، وهو جسم لطيف متحرك، يمتنع بلطفه من القبض عليه، ويظهر للحسِّ بحركته، ويخفى عن البصر بلطفه، سخرها الله لسليمان لمنافع كثيرة، ومنها سيْر المراكب في البحر لمصالح مُلكه، من غزْوٍ، أو تجارة، ونحوها، فتحمل الجنود، والبضائع، ومواد الصناعة، وأسلحة الجند، وتحمل سليمان وجنوده وحاشيته.

وهي ريح قوية شديدة الهبوب، تجري بأمر سليمان، وهي عائدة من الأقطار التي خرجت إليها، إلى بيت المقدس في أرض الشام التي بارك الله فيها، وبارك حولها بالخيرات الكثيرة، وهي تجري إلى غير الشام ذاهبة وآيبة إلى حيث أراد سليمان من أرض الله.

وقد صنع سليمان سريرًا يُحمَل عليه عسكُره وقواتُه، يُقلُّه في الهواء، ويحمله حيث أراد.

ومن الآثار الواردة عن بساط الريح: ما رواه وهب، ومقاتل، والحسن، أن سليمان ﷺ،

---

(١) من حديث الزبير بن العوام في «البخاري» برقم (١٤٧١).

(٢) «المسند» برقم (١٢٩٨١).

(٣) من حديث أنس في «البخاري» برقم (٢٣٢٠) و«مسلم» برقم (١٥٥٣).

(٤) قرأ أبو جعفر (الرياح) بالجمع؛ لاختلاف أنواعها في هبوبها وأوصافها، وقرأ الباقون (الريح) على الإفراد.

كان لا يسمع عن مَلِك في ناحية من الأرض إلا غزاه، فكانت الريح تحمله، والطيور تحلّق عليه وتظله من الشمس بأجنحتها، والإنس والجن حوله، قالوا: وكان البساط فرسخًا في فرسخ.

قال الحسن: إن الله تعالى عوَّضه عن الخيل التي شَغَلَتْه عن صلاة العصر بالريح التي هي أسرع منها، فكان يخرج من إيلياء، وَيقِيل بإصطخر، ثم يروح إلى بابل.

وقال وهب: ذُكر له أنه قد وُجد في دجلة؛ كتابة خَطَّها بعض صحابة سليمان، قال فيها: نحن نزلنا هذا المكان، وما بنيناه، وغدونا من إصطخر، ونحن رائحون منه إن شاء الله إلى الشام.

وكان مستقر سليمان في مدينة (تدْمُر)، وكانت الريح إذا أقلَّته بأمره تكون رخاء في غُدُوِّه ورواحه، وكانت تَقْطَع مسافة السير على الإبل لمدة شهر كامل في لحظات يسيرة، كما قال تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

وهذا معنى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي: شديدة الهبوب قوية.

وأنها رخاء في قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص] إلى أيِّ مكان أراد من أقطار العالم.

فهذه الريح تكون شديدة إذا أراد ذلك، وتكون رخاءً ليِّنة إذا أراد ذلك، ثم ترجع به إلى الأرض التي بارك الله فيها.

كما سخر الله السليمان النحاس المذاب، وقد جاء ذلك في قوله تعالى ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ [سبأ ١٢]

وقد أعطى الله سليمان مُلْكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فسخَّر له الريح والشياطين والطيور وغيرها، وكان سليمان مع ذلك إذا حملته الريح يطأطئ رأسه، ولا يلتفت يمينًا ولا شمالًا، تعظيمًا لله وشكرًا لأنعمه عليه، وكان يأكل خشن العيش، ويُطعم أبناءه أنْعمَ منه، ويُطْعِم الضيوف الدقيق الفاخر شكرًا لله تعالى.

وقد ختم الله الآية بقوله: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ قد أحاط علمنا بكل ما يجري في هذا الكون وفق مقتضى الحكمة الإلهية.

تَسْخِيرُ الشَّيَاطِينِ لِسُلَيْمَانَ

٨٢- ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾

ومن معجزات سليمان أن سخَّر الله له من الشياطين من يغوصون له، فيدخلون تحت الماء في قاع البحر، ويستخرجون منه الجواهر والمعادن، واللؤلؤ والمرجان، وغير ذلك، ويعملون أعمالًا هي دون الغوْص في البحر، كما قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ﴾ [سبأ: ١٣]

وكما ألان الله لداود الحديد، فإن الشياطين تقوم لسليمان ببناء المدن والقصور، الشاهقة التي يعجز عنها البشر، والصناعات الثقيلة والخفيفة، وتقوم بصُنْع التماثيل والمحاريب، وقد سخر سليمان طائفة منهم لبناء بيت المقدس، كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢].

لقد سخَّر الله الجن والشياطين لسليمان، وعلَّمه كيف يحكمهم، ويستخدمهم ويطوِّعهم، ويجعلهم منقادين له قائمين بخدمته، دون أن يكون في ذلك عناء له، كما حال بينهم وبين الناس؛ لئلا يؤذوهم.

ولما مات سليمان لم يسخِّر الله الجن لغيره، استجابة لدعوته ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ﴾ [ص: ٣٥].

ومات سليمان وهم يعملون في خدمته، وظلوا سنة كاملة مسخرين له بعد موته وهم لا يعلمون بموته، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ].

وقد ختم الله الآية بقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي: وكنا للشياطين حافظين أن يتعدوا حدود الله فيبدلوا أو يغيروا، أو يَخْرجُوا عن طاعته سبحانه، ويُفسدوا ما عملوا، وذلك أنهم كانوا إذا عملوا عملًا بالنهار أفسدوه بالليل، فكان سليمان إذا فرغوا من عمل قبل

الليل يكلفهم بعمل آخر، وليس في قدرتهم الامتناع عما يريده منهم، وقد حرس الله سليمان من أن يناله أحد منهم بسوء، أو يتجاسر على الاقتراب منه، فكان يُطْلِق من يشاء ويحبس من يشاء، ويتصرف فيهم كيف يشاء.

ثَامِنًا: نَبِيُّ اللَّهِ أَيُّوبُ عليه السلام

٨٣- ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ[1] ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾

أيوب ﷺ من أنبياء بني إسرائيل، وهو من نسل إسحاق، كان أغنى القوم، رزقه الله أموالًا كثيرة، ورزقه أرضًا واسعة، ورزقه بنين وبنات، قيل: سبعة من البنين، وسبعًا من البنات[2].

وقد ابتلاه الله ﷻ ابتلاء شديدًا، وسلط هذا البلاء على ماله، فأذهب الله أمواله كلها فصبر، وابتلاه بفقد أبنائه وبناته فصبر، ثم ابتلاه في جسده بأن مرض مرضًا شديدًا غير منفِّر للناس منه فصبر، والأنبياء ﷺ منزهون عن الأمراض المعدية والمنفرة.

ولما ابتلاه الله بمرض في جسده حفظ عليه عقله وقلبه وسمعه وبصره، فصبر على كل ذلك، وهو يبتهل إلى الله تعالى بالتمجيد والدعاء، ويسأله كشف الضر عنه، وأوحى الله إليه بمواعظ تزيد ثقته به تعالى، ثم أعاد الله عليه صحته، وعوَّضه بأموال وبنين بعدد ما فُقدا منه، وكانت زوجته إلى جواره تحنو عليه وتؤازره وتواسيه.

ومن الحكايات ما يسمى بصبر أيوب، من نسج أهل القصص والروايات، وهي خرافات لا تليق بنبي من أنبياء الله تعالى.

والقرآن الكريم يشير إلى أن الله ﷻ قد ابتلاه، وأنه دعا ربه بقوله: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ أي: مسني الضر في أهلي ومالي وولدي، ولم يشتكِ أيوب، ولم يجزع، ولم يطلب تغيير الحال، ولم يقترح شيئًا، وإنما يقول في أدب جم: يارب، أنت أهل لأن ترحم عبادك، وأنا عبد أستحق الرحمة، فارحمني بفضلك، فأنت أرحم الراحمين، فاستجاب الله له، وقال له ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فضرب الأرض برجله، فنبعت عين ماء باردة،

---

(١) قرأ حمزة بإسكان ياء الإضافة وصلًا ووقفًا من (مسني الضر)، والباقون بفتحها وصلًا وإسكانها وقفًا.

(٢) في السِّفْرالخاص بأيوب من أسفار اليهود أن عدد بناته كان ثلاثًا.

فاغتسل منها وشرب، فأذهب الله ما به من أذى.

ومن المتفق عليه أن أيوب كان في غاية الصبر، وبه يُضرب المثل في الصبر، وقد ابتُلي في ماله وولده وجسده فصبر واحتسب، ولجأ إلى الله تعالى يسأله كَشْفَ ما به من ضر.

والله تعالى يخاطب خاتم الرسل ﷺ في هذه الآية، فيقول: واذكر -يا محمد- عبدنا أيوب، فقد ابتليناه بضر وسقم عظيم في جسده، وفقْد أهله وماله وولده، فصبر واحتسب، ونادى ربه قائلًا: إني قد أصابني الضر، وأنت أرحم الراحمين، فاكشفه عني، فكشف الله عنه البلاء وأجزل له العطاء.

وفي الحديث عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«يُبتلَى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وأشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل»**[1].

وأخرج أحمد والترمذي وغيرهما بسند صحيح إلى مصعب بن سعد عن أبيه ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: **«الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فَيُبتلَى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتُلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»**[2].

قيل: إن إبليس -وهو يسترق السمع- سمع تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب، وهو يذكر الله تعالى ويُثني عليه، فحسده، وسأل الله تعالى أن يبتليه؛ ليظهر صبره من عدمه.

وقيل: إن امرأته قالت له: يا أيوب، لو دعوت ربك يفرج عنك؟ فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحًا، فعليَّ أن أصبر سبعين سنة مثلها، فجزعَتْ من ذلك، فقال: لئن

---

(١) «سنن الترمذي» برقم (٢٣٩٨) وقال: حديث حسن صحيح، وصحيح ابن ماجه برقم (٣٢٤٩) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ و«سنن الدارمي» (٢/ ٣٢٠) والحاكم (١/ ٤١) وابن حبان في الإحسان برقم (٢٩١) والضياء المقدسي في «المختارة» برقم (١٠٥٦) قال محققه: إسناده صحيح، وصححه العراقي في «تخريج الإحياء» برقم (٣٣١٠)، وهو في السلسلة الصحيحة برقم (١٤٣) ومشكاة المصابيح (١٥٦٢).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١/ ١٧٢) برقم (١٤٨١، ١٥٥٥، ١٦٠٧) قال محققوه: وإسناده حسن من أجل عاصم بن أبي النجود وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه عبد بن حميد (١٤٦) والدارمي (٢٧٨٣) والطيالسي (٢١٥) وابن حبان (٢٩٠٠).

شفاني الله لأجلدنك مئة جلدة.

وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة**»[(١)].

ولما سأل أيوب ربه أن يكشف ما به من ضر، أجاب دعاءه:

٨٤- ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾

دعا أيوب ربه، فاستجاب الله دعاءه، ورفع عنه البلاء الذي أصابه، وردَّ عليه ما فقده من أهل ومال وولد مضاعفًا، وقد أكرمه الله بذلك رحمة منه بعبده أيوب؛ ليكون عبرة وعظة وقدوة للصابرين على البلاء، الراجين رحمة ربهم، العابدين له، فقد كشف الله ما به من ضر، وأزال عنه ما به من مرض، وجعل لذلك سببًا حين قال له: اضرب الأرض برجلك فتنبع عين ماء تحت قدميك، فاغتسل من هذا الماء، فاغتسَلَ منه، فذهب عنه كل ضرٍّ، وكل ألم في ظاهر بدنه.

ثم ضرب الأرض مرة ثانية، فنبعت عين ماء فشرب منها، فزال كل ألم في باطنه كما قال تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص] أي: اغتسل وتطهر واشرب، وقد طهَّر الله ظاهره وباطنه من المرض الذي ألَمَّ به، ثم ردَّ عليه زوجته كما كانت، وزاد في شبابها، ورد عليه أبناءه وبناته في الدنيا.

وظاهر القرآن الكريم يفيد أن الله تعالى آتاه أهله وأولاده بذواتهم، ورزَقه ذرية أخرى، أي: أن الله تعالى قد عوضه أهله وأبناءه وبناته بشكل مضاعف، وقد فعل الله ذلك رحمة منه بعبده أيوب، وجعل ذلك تذكرة وموعظة للمؤمنين.

---

(١) يُنظَر الحديث في: «صحيح ابن حبان» برقم (٢٠٩١) في «موارد الظمآن» من طريق حرملة ابن يحيى عن ابن وهب، وصححه الحاكم على شرط الشيخين (٢/ ٥٨١).

تَاسِعًا وَعَاشِرًا وَحَادِي عَشَرَ:
أَنْبِيَاءُ اللَّهِ: إِسْمَاعِيلُ وَإِدْرِيسُ وَذُو الْكِفْلِ

٨٥، ٨٦- ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)﴾

ذكر الله تعالى في هذه الآية ثلاثة من رسل الله، اشتركوا جميعًا في خاصية الصبر بعد أيوب عليه السلام، فكلهم كانوا من الصابرين، وهؤلاء الثلاثة هم:

١- نبي الله إسماعيل بن إبراهيم الخليل، أبو العرب، وهو الذبيح، والابن الأكبر لإبراهيم وهو من زوجه هاجر، وقد صبر إسماعيل على أمر الذبح، وامتثل أمر ربه لَمَّا قال له أبوه: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ فأجابه: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)﴾[الصافات].

فإسماعيل بن إبراهيم، أكبر أبنائه، وقد صبر على أمر الذبح، وكان صادق الوعد، ورسولًا نبيًّا.

٢- وإدريس أول الرسل، وهو أخنوع، بُعث بعد آدم وبعد ابنه شيث، وهو جد نوح، وإدريس كان خياطًا، وهو أول من عَلِم فنون الصناعة وغيرها، وقد أنزل الله عليه صحفًا، وكان إدريس صدِّيقًا نبيًّا، وقد صبر على تتبع الحكمة والعلوم، وما لقي في رحلاته من المتاعب. قيل: إنه كان يترك الطعام والنوم مدة طويلة؛ لتصفُوَ نفسه ويهتديَ إلى الحكمة والعلم، وعُدَّ من الصابرين على ذلك.

٣- وذو الكفل أحد أنبياء الله، ذُكر أكثر من مرة في سلسلة الأنبياء، وهو خليفة اليسع في النبوة، وله كتاب من كتب أنبياء اليهود؛ وسمي كذلك لأنه تكفل بثلاثة أشياء: أن يصوم النهار فلا يفطُر، وأن يقوم الليل فلا يفتُر، وأن يقضي بين الناس فلا يغضب.

قيل: إن اليسع لما كبرت سنه قال: من يتكفل لي بثلاثة أستخلفه: أن يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب، فلم يتكفل له بذلك إلا هذا النبي(١).

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٥٩).

وقد ثبت على ما تكفل به، فكان من أفضل الصابرين، واسمه عند اليهود (عويديا)[١]

وقال مجاهد في ذي الكفل: رجل صالح غير نبي، تكفَّل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه، ويقيمه لهم، ويقضي بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فسمي ذا الكفل[٢].

وقال بعدم نبوته أيضًا أبو موسى الأشعري ﷺ، وعلى هذا فأمر نبوته مُخْتَلَفٌ فيه، والأرجح أنه نبي؛ لذكره في سلسلة الأنبياء في القرآن الكريم.

والأرجح أيضًا أن ذا الكفل غير إلياس؛ لأن الله تعالى غاير بينهما في التسمية، واسمه «بشر» بن أيوب.

ومما ورد أن رجلًا من بني إسرائيل كان يسمى (الكفل)؛ وكان لا يتورع من ذنب عَمِلَه، فأتته امرأة، فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة، ارتعدت وبكت، فقال: ما يُبكيكِ؟ أكْرهتُك؟ قالت: لا، لكني لم أعمل ذلك قَطُّ، وما حملني عليه إلا الحاجة، فقال لها: اذهبي فهي لك، والله لا أعصي الله أبدًا، فمات من ليلته، فأصبح مكتوبًا على بابه: إن الله قد غفر للكفل[٣].

والظاهر: أن المراد شخص آخر يقال له: (الكفل)؛ من غير إضافة، وليس (ذو الكفل) النبي.

وقد صبر هؤلاء الثلاثة على طاعة الله وعن معاصيه، وعلى أقداره، فاستحقوا الذكر الحسن والثناء الجميل، ووصفهم ربنا بالصلاح، وهو يشمل صلاح القلوب، بمعرفة الله تعالى ومحبته، وصلاح اللسان، بأن يكون رطبًا بذكر الله، وصلاح الجوارح، باشتغالها في طاعة الله والكف عن معاصيه.

---

(١) كما في «سفر الملوك» الإصحاح ١٨ ص ٨٩١ من الكتاب المقدس.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح عنه (١٦/ ٣٧١).

(٣) أخرجه أحمد عن ابن عمر بلفظ (كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع..) في «المسند» (٢/ ٣٢) برقم (٤٧٤٧) بإسناد ضعيف والترمذي في صفة القيامة برقم (٢٤٩٦) وقال حديث حسن، وابن حبان برقم (٣٨٨) والحاكم (٤/ ٢٥٤) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الشعب» (٧١٠٨) وقال ابن كثير في تفسيره للآية: هذا حديث غريب، وقد ضعَّفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» برقم (٤٤٨) و«السلسلة الضعيفة» برقم (٤٠٨٣).

وقد حمل هؤلاء الرسل رسالة ربهم وبلَّغوها إلى أقوامهم بصدق وصبر وأمانة، فأدخلهم الله في رحمته وكانوا من عباده الصالحين؛ لأنهم ممن صلح باطنه وظاهره، فأطاع الله وعمل بما أمره به.

أخرج ابن سعد عن الكلبي قال: أول نبي بُعِثَ: إدريس، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم إسماعيل وإسحاق، ثم يعقوب، ثم يوسف، ثم لوط، ثم هود، ثم صالح، ثم موسى وهارون، ثم إلياس، ثم اليسع، ثم يونس، ثم أيوب[1].

ثَانِي عَشَرَ: نَبِيُّ اللَّهِ يُونُسُ عليه السلام

٨٧- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

أما ذو النون، فهو يونس بن متَّى عليه السلام، وقد ذُكرت قصتُه مع الحوت هنا، وفي سورة الصافات [١٣٩-١٤٨]، وفي سورة القلم [٤٨-٥٠]، وذُكرت قصته مع قومه في السورة التي سميت باسمه سورة يونس[٩٨].

ونون اسم من أسماء الحوت، وأضيف يونس للحوت الذي ابتلعه، ووصف بأنه صاحب النون أى الحوت.

وقد أرسله الله في قرية نِينَوى بأرض الموصل بالعراق، في القرن الثامن قبل الميلاد، أرسله الله إلى مئة ألف أو يزيدون، دعاهم إلى توحيد الله سبحانه، فلما لم يستجيبوا له خرج من بينهم غاضبًا منهم؛ ليذهب إلى غيرهم، فوصل إلى شاطئ البحر وركب السفينة، ولما ثقلت بمن فيها قالوا: لئن يغرق واحد منا ويُلْقِي نفسه في البحر أولى من أن يغرق الجميع، وأرادوا أن تتخفف السفينة بإنزال واحد منهم، فاقترعوا: من الذي يُلْقي نفسه في البحر؟ فخرج السهم ثلاث مرات على يونس عليه السلام، فألقى بنفسه في البحر، وإذ بالبحر حوت، قد أعده الله عز وجل إليه فاغرًا فاه ليلتقمه، وأوحى الله إلى هذا الحوت الذي التقم يونس: ألَّا تُهشِّم له عظمًا، ولا تنهش له لحمًا؛ فإن يونس ليس لك رزقًا، وإنما بطنُك له سجن.

---

(١) «طبقات ابن سعد» (١/ ٥٤).

ثم نبذه الحوت إلى الساحل بعد وقت، وأرسله الله إلى قومه مرة أخرى فآمنوا، والمغاضبة التي في الآية: مفاعلة من الجانبين، أي: خرج وهو غضبان من قومه، وهم غاضبون منه، وقد ظنَّ يونس أن الله تعالى لن يُضَيِّقَ عليه في بطن الحوت؛ ليعيده إلى قومه مرة أخرى، ويُحَتِّم عليه الإقامة بينهم، فقد كان يظن أنه مخير إن شاء أقام بينهم وإن شاء خرج، وهذا معنى ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: لن نضيّق عليه، فضيَّق الله عليه اختياره، وأعاده إلى قومه.

ولما كان يونس في أسفل البحر وهو في بطن الحوت، سمع تسبيح دواب البحر فسبَّح، فسمعتْه الملائكة، فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة، قال: ذلك عبدي يونس[1].

وفي حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾** فإنه لم يدعُ بها مسلمٌ ربَّه في شيء قَطُّ إلا استجاب له»[2].

والظلمات هي: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، وهذا التسبيح في بطن الحوت كان سببًا في إنجاء الله له، ولو لم يسبِّح ربه لمكث في بطنه إلى يوم البعث، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات].

وكان يونس قد توعَّد قومه أن عذاب الله تعالى نازل بهم بعد ثلاثة أيام، فلما أشرفت المدة على الانقضاء ولم يؤمنوا، خرج من بينهم، ولَمَّا تحققوا أن العذاب نازل بهم لا محالة؛ خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم ونسائهم ومواشيهم، وتضرعوا إلى الله تعالى، وتابوا وأنابوا إليه، فرفع الله عنهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس].

---

(١) يُنظَر هذا المعنى في: حديث ابن مسعود، وأبي هريرة، وابن عباس في «البخاري» برقم (٣٣٩٥) و«مسلم» برقم (٢٣٧٧) و«مسند البزار» برقم (٢٢٥٤) من كشف الأستار، والطبري في التفسير (١٧/ ٢٥).

(٢) «المسند» (١/ ١٧٠) برقم (١٤٦٢) من حديث طويل بإسناد حسن، والترمذي برقم (٣٥٠٥) والنسائي في «الكبرى» برقم (١٠٤٩١، ١٠٤٩٢) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٧٨٥) والحاكم (١/ ٥٠٥، ٢/ ٣٨٢) والبزار (١١٦٣) والبيهقي (٦٢٠، ١٠٢٢٤) وابن جرير (١٦/ ٣٨٦) وأبو يعلى (٧٧٢).

ولم يسقُط تبليغ الدعوة عن يونس عليه السلام؛ لأنه خرج من بين قومه، ولكنه عوتب على ذلك، وحلَّ به ما حلَّ، ورجع إليهم يدعوهم إلى توحيد الله، كما قال سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝١٤٨﴾ [الصافات].

والله سبحانه يقول لرسوله محمد ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨﴾ [القلم].

وبيَّن سبحانه أن الله تعالى قد تدارك يونس برحمته ولطفه فقال: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ [القلم].

قال تعالى ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝١٤١ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات]

صحَّ عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى أصاب ذنبًا، ثم اجتباه ربه»**[1].

وقد اختلف أهل العلم: هل كانت رسالة يونس بعد أن خرج من بطن الحوت أم كانت قبله؟

١- فقال ابن عباس رضي الله عنه: كانت رسالته بعد أن أخرجه الله من بطن الحوت، بدليل قوله تعالى بعد ذكر خروجه منه: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧﴾ [الصافات]. فثبت بهذا أن خروج يونس من بين قومه مغاضبًا لهم كان قبل النبوة.

٢- وقيل: إن رسالته كانت قبل هذه الواقعة بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠﴾[2] [الصافات].

ولعل الأرجح أن قصة الحوت كانت بعد رسالة يونس؛ لأنه خرج من بينهم لمَّا لم

---

(١) البخاري (٣٣٩٥) ومسلم (٢٣٧٧) وأبو داود (٤٦٦٩) عبد الرزاق (١/ ٢٩٩).

(٢) من «تفسير الخازن» للآية (٣/ ٢٧٥).

يستجيبوا له، ولما نجَّاه الله من الحوت، رجع إليهم يدعوهم إلى الله من جديد، وعلى هذا يُحمل القول المنسوب إلى ابن عباس، فيُجمع بينهما بأن ما بعد قصة الحوت، كانت في فترة الرسالة الثانية، ومجموع الآيات يشير إلى هذا.

ورد أن ابن عباس دخل على معاوية، فقال له معاوية: لقد ضربتْني أمواج القرآن البارحة، فغرقْت، فلم أجد لنفسي خلاصًا إلا بك، قال: وما هي؟ فقرأ معاوية هذه الآية، وقال: أوَ يظن نبي الله، أن الله لا يقدر عليه؟! قال ابن عباس: هذا من القدَر، لا من القُدرة[1] يعني: التضييق عليه، قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]. قال تعالى:

٨٨- ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى[2] ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

استجاب الله دعاء يونس ﷺ، ونجّاه من الغمِّ الذي كان فيه، وخلَّصه من هذه الشدة؛ حيث نبذه الحوت، وألقاه على ساحل البحر، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، أي: من شجرالقرع،تُظِلُّه وينتفع بها،وكما نجينا يونس من بطن الحوتننجيالمصدقين الصالحين، وننجي كل من يقع منهم في همٍّ وغمٍّ وكرب وضيق، ويدعو الله بهذا الدعاء فإنه يُستجاب له إن شاء الله.

قيل: إن في دعاء يونس ربه، الاسم الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، كما جاء عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متَّى**» قال: قلت: يا رسول الله، هي ليونس خاصة، أم لجماعة المسلمين؟ قال: «**هي ليونس بن متَّى خاصة، وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله ﷻ**: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ

---

(١) من «تفسير الكشاف» والنسفي للآية، وقد أخرجه الزبير بن بكار في «الموفقيات» من طريق الكلبي عن أبي صالح كما في «الدر المنثور» (١٠/ ٣٦١)، وقد ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم (٨٥٤) وهو في تفسير الطبري للآية.

(٢) قرأ ابن عامر وشعبة بحذف إحدى النونين من (ننجي) وتشديد الجيم، مضارع نجَّى، والباقون بنونين وتخفيف الجيم، مضارع أنجى.

أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ **فهو شرط من الله لمن دعاه به»**[1]، وهكذا ورد عن الحسن وغيره.

ثَالِثَ عَشَرَ: نَبِيُّ اللَّهِ زَكَرِيا عليه السلام

٨٩- ﴿وَزَكَرِيَّآ[2] إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾

أما زكريا عليه السلام فهو ابن آزن بن بركيا، يتصل نسبه بسليمان عليه السلام، وكان قريب العهد بعيسى عليه السلام؛ لأنه كفل مريم أم عيسى، وكان قد بلغ المئة من العمر، وامرأته تقل عنه بعام واحد، وكانت امرأته عقيمًا، فدعا ربه أن يرزقه الولد في هذه الآية، وقد فُهم من قوله ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ أنه لمّا تقارب أجله، خاف أن لا يقوم أحد من بعده بالدعوة إلى الله تعالى، وأن لا يخلُفه أحد في ميراث النبوة، فسأل الله الولد، فأجاب الله دعاءه.

المعنى: واذكر -يا رسولنا- قصة زكريا وقت أن دعا ربه وناداه نداء خفيًّا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم].

يقول: لقد كَبُرت سني، ورَقَّ عظمي، وقد عوَّدتني يا رب إجابة الدعاء، فلا تتركني وحيدًا دون أن ترزقني عقبًا لي، وهب لي وارثًا يقوم في الناس بأمر الدين بعدي، فأنت الباقي بعد فناء خلقك، وخير من يخلفني بخير، وأنت حسبي ونعم الوكيل.

رَابِعَ عَشَرَ: نَبِيُّ اللَّهِ يَحْيَى عليه السلام

٩٠- ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

استجاب الله ﷻ دعاء زكريا، وأصلح له زوجه، فولدتْ له بعد أن كانت عقيمًا، ووهبنا له على الكبر ابنه يحيى، ولم يتسمَّ أحد قبله بهذ الاسم، وجعلنا زوجته صالحة

(١) «تفسير الطبري» (١٧/ ٦٥).

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بدون همز في (زكريا)، والباقون بالهمز.

للحمل والولادة بعد أن كانت عاقرًا، ولا عجب في هذا؛ فإن زكريا ويحيى وزوجة زكريا كانوا يبادرون إلى كل خير، مثل جميع الأنبياء والمرسلين السابقين فقد كانوا ممن قال الله فيهم: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]. وقوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦] أي: أنهم يدعوننا راغبين فيما عندنا من عظيم الثواب، ويدعوننا في الرخاء والشدة، والمَنشط والمكره، فكانوا لنا خاضعين متواضعين، خاشعين متضرعين، فاستحقوا أن ينالوا خيْرنا وعطاءنا ورضانا، وكانوا خائفين من عذابنا ونقمتنا، لم يفارق الخوف قلوبهم، إن نزلت بهم رغبة، خافوا أن يكون ذلك استدراجًا من الله لهم، وإن نزلت بهم رهبة، خافوا أن يكون الله ﷻ قد أمر بأخذِهم لبعض ما سلف منهم(١).

وعن عبد الله بن عُكَيْم قال: خطبنا أبو بكر الصديق ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله، وأن تُثْنوا عليه بما هو له أهل، وأن تخلِطوا الرغبة بالرهبة؛ فإن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾(٢).

وقد وصف الله تعالى رسله وأنبياءه في هذه الآية بثلاثة أوصاف، هي:

١- أنهم يسارعون في الخيرات.

٢- وأنهم يدعون ربهم خوفًا وطمعًا.

٣- وأنهم خاشعون خاضعون لله تعالى.

خَامِسَ عَشَرَ: نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأُمُّهُ مَرْيَمُ

٩١- ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

ختم الله سبحانه هذه السلسلة من الأنبياء والمرسلين بالإشارة إلى عيسى ﷺ وأمه مريم بنت عمران، ولم يصرح القرآن باسمها هنا، وإنما قال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي

---

(١) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن، «الدر المنثور» (١٠/٣٦٨).

(٢) ابن أبي شيبة (١٣/٢٥٨) وأبو نُعيم في «الحلية» (١/٣٥) والحاكم (٢/٣٨٣) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٥٩٣، ١٠٥٩٤) وابن أبي حاتم.

حفظته من الحرام وقربانه، بل وحفظته من الحلال، فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة، واستغراق الوقت في خدمة البيت، وحين جاء إليها جبريل في صورة بشر، استعاذت بالله منه ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨] وهذا من ورعها وتقواها وخوفها من الحرام، وقد كافأها الله تعالى بأن رزقها ولدا من غير أب.

وفي ذكر اسم مريم في القرآن ردٌّ على اليهود الذين يقولون: إنها زنت مع يوسف النجار، وردٌّ على النصارى الذين يقولون: عيسى ابن الله؛ لأن من عادة العظماء ألا تُذْكر نساؤهم بأسمائهم المجردة، وكان هذا شائعًا عند العرب.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ كأنه سبحانه قال: والتي نفخنا فيها من روحنا، فعبر عنها باسم الموصول؛ لأنها اشتهرت بين الناس.

وحقيقة النفخ: إخراج هواء الفم بتضييق الشفتين، والمراد هنا: إلقاء روح التكوين للنسل في الرحم دفعة واحدة، بدون الوسيلة المعتادة، تشبيهًا لهيئة التكوين بهيئة النفخ، أي: فنفخنا في بطنها.

والروح: هي القوة التي تحيا بها الأجسام وتوجد بها الحياة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢] أي: جعلتُ في آدم روحًا فصار حيًّا، وإضافة الروح إلى الله تعالى تشريف لها، ومريم البتول قد أحصنت فرجها وصانته من المباشرة، كما أن الزواج يُحصِّن من الزنى، ويعفّ صاحبه.

وفي هذا ردٌّ على اليهود مما رموها به إفكًا وكذبًا، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

والمعنى: واذكر -أيها الرسول- قصة مريم بنت عمران التي حفظت فرجها من الحرام، فأحصنتْهُ وصانتْه، ولم تأتِ فاحشة في حياتها، فأرسل الله إليها جبريل ﷺ فنفخ في جيب قميصها، فوصلت النفخة إلى رحمها، فخلق الله بهذه النفخة، عيسى ﷺ، فحملت به أمه من غير زوج، فكانت هي وابنها آية واضحة، وعلامة دالة على كمال قدرة الله تعالى، وعبرة قائمة للخلق أجمعين إلى قيام الساعة: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فمولد عيسى ﷺ، آية من آيات الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ

خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] وحمْلُ مريم بعيسى آية، وأعجوبة من آيات الله ﷻ الدالة على كمال قدرته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]. يتحدث بها الناس جيلًا بعد جيل، ويعتبر بها المعتبرون.

دِينُ الرُّسُلِ جَمِيعًا هُوَ الْإِسْلَامُ بِمَعْنَاهُ الْعَامّ

٩٢- ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ(١) ﴿٩٢﴾﴾

وبعد أن تحدثتْ سورة الأنبياء عن ستة عشر نبيًّا من أنبياء الله ورسله، ووصفتْهم في نهاية الآيات بأنهم كانوا يسارعون في الخيرات، ويدعون ربهم رغبًا ورهبًا، وكانوا له خاشعين، وبيّن سبحانه أن هؤلاء الرسل، هم أئمتكم، بهم تأتمُّون، وبهديهم تقتدون، ثم بيَّن الله ﷻ أن ملة الرسل جميعًا من أولهم إلى خاتمهم، ملة واحدة، ودين الرسل جميعًا دين واحد، يتفق في العقائد والأصول، ويقوم على توحيد الله سبحانه، وتحريم المحرمات، وتحليل الحلال، وامتثال الأوامر، واجتناب النواهي.

جاء هذا على ألسنة الرسل جميعًا: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ رب واحد، ومعبود واحد، ودين واحد هو الإسلام الذي قال الله ﷻ عنه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] وهو الذي قال عنه خليل الرحمن، أبو الأنبياء: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾ أي: في هذا القرآن ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

والمراد بالإسلام في الآية: التوحيد، الذي جاءت به الرسالات السماوية جميعًا ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران].

ونظير هذه الآية في سورة (المؤمنون)، بعد أن ذكر الله سبحانه عددًا من الرسل والأنبياء، قال في نهايتهم أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون].

---

(١) قرأ يعقوب بإثبات ياء (فاعبدون) وصلًا ووقفًا، وحذفها غيره في الحالين.

وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ﷺ: **«الأنبياء إخوة من عَلَّات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»**[1].

أي: أن عقيدتنا واحدة هي توحيد الله سبحانه، وإن تنوعت الشرائع بما يناسب حال الأمة.

كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] حسْب نموِّ مدارك البشر، ونموِّ تجاربهم، واستعدادهم لأنماط من التكاليف والتشريعات بقدر حاجاتهم التي تأهلوا لها، ولا يخرج عن هذا التوحيد إلا الكَفَرة والمشركون، فدين الأنبياء جميعًا هو الإسلام بمعنى: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، وإفراده تعالى بالعبادة، فهو وحده لا شريك له، رب الخلق جميعًا، وهم يتفقون في العقيدة ويختلفون في الشريعة.

ولفظ الأمة له أربعة معانٍ:

١- فالمراد بالأمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ هو الدين والملة، كما قال تعالى حكاية عن بعض المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٣] أي: على دين وملة معينة.

٢- وقد يُراد بالأمة: الجماعة من الناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣] أي: جماعة من الناس.

٣- ويُطلق لفظ الأمة على الرجل الجامع لخصال الخير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

٤- ويُطلق لفظ الأمة على الوقت والزمن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] أي: تذكر بعد حين من الزمان.

الاختلاف في الشرائع بدءًا من عصر نوح عليه السلام

٩٣- ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾

ومع أن دين الله واحد، ومن الواجب الاجتماع على هذا الدين وعدم التفرق فيه، ومع

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٥) وابن حبان (٦١٩٤) والبغوي (٣٦١٩) و«المسند» (٨٢٤٨، ١٠٢٥٨).

هذا فقد اختلف الناس فيه فرقًا متعددة، اختلفوا على رسلهم، وتفرق كثير منهم في دين الله شيعًا وأحزابًا، فعبدوا المخلوقين والأهواء، وكل يدّعي أنه على الحق، والباطل مع الفريق الآخر، وكلهم راجعون إلى الله، ومحاسبون على ما فعلوا حسابًا دقيقًا، وسيَظْهر الحق واضحًا إذا انكشف الغطاء وحُشر الناس لفصل القضاء، وبسبب ذلك التفرق في الدين، فإن الأمم في مختلف الأجيال، ومع جميع الرسل اختلفوا، فكان منهم المصدق، ومنهم المكذب.

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أي: اختلفوا على الرسل، فكان منهم من صدَّق بهم وبدعْوتهم، ومنهم من كذَّبهم وكذَّب دعوتهم، واختلفوا أيضًا في الرسالة الواحدة، فكانوا أحزابًا وفرقًا، كما اختلفت النصارى على فرق وأحزاب، واختلف اليهود والمسلمون كذلك.

وفي حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن بني إسرائيل افترقت على ثنتين وسبعين فرقة وأنتم تفترقون على مثلها، كلها في النار إلا فرقة»**[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام].

وقال: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون].

فالدين واحد، والإسلام واحد، والإخلاص لله ﷻ لا يتجزأ ولا يتحزب ولا يوزع، وبهذا يتبين أن الناس اختلفوا في الدين الواحد العام، وهو الإسلام والتوحيد، فكان منهم اليهودي، والنصراني، وعابد الوثن، ومن لا دين له، ثم اختلفت كل أمة شيعًا وأحزابًا، واتبع الناس دين آبائهم، وخرجوا عن معالم الرسالة ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [غافر: ٨٣].

---

(١) مسند أحمد (١٢٢٠٨) قال محققوه: حديث صحيح بشواهده، وهذا إسناد ضعيف لضعف النُّمَيْري، وأخرجه ابن ماجه (٣٩٩٣) وابن أبي عاصم في السنة (٦٤) عن هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عن الأوزاعي عن قتادة عن أنس بلفظ (كلها في النار إلا واحدة) وهذا إسناد حسن في الشواهد، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٢٧) وفي السلسلة الصحيحة (٢٠٤) و(١٤٩٢) وظلال الجنة (٦٤) وقد جاء هذا الحديث عن أبي هريرة ﷺ وعن عوف بن مالك بإسناد صحيح قال الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٢٥،٣٢٢٦) ولعله كما قال.

وقد كان في الكعبة عدة أصنام وتماثيل؛ لأن الكعبة مقصودة لجميع قبائل العرب، وكان عمرو بن لحيٍّ، الملقب بالخزاعى، هو الذي نقل الأصنام إلى بلاد العرب.

وكان حصين بن عبيد الخزاعي، والد عمران بن حصين، قد لقي رسول الله ﷺ فقال له النبي ﷺ: «**يا حصين، ما تعبُد**»؟ قال: عَشْرة آلهة! قال: «**فمن لحاجتك**»؟ قال: الذي في السماء، قال: «**فمن لطلبتك**»؟ قال: الذي في السماء، قال: «**فمن لكذا؟ فمن لكذا؟**» كل ذلك يقول: الذي في السماء، قال رسول الله ﷺ: «**فألْغِ التسعة**»[1].

وقد كان الناس جميعًا على التوحيد إلى عهد نوح ؑ، ثم جاء الشرك والتفرق في الدين من عصر نوح لَمَّا عبد الناس ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: على دين واحد فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وبعد أن طرأ الشرك على البشر، جاء الاختلاف والتفرق في الشريعة الواحدة، فصاروا شيعًا وأحزابًا، كما تشير الآية التي معنا، ومثلها آية (المؤمنون) وآية (الأنعام) السابق ذكرهما، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود].

قَاعِدَةُ الْجَزَاءِ الْأُخْرَوِيِّ وَالدُّنْيَوِيِّ

٩٤- ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾

ثم فصَّل ﷻ الجزاء الأخروي لعباد الله جميعًا، في منطوق هذه الآية ومفهومها، وبيَّن أن قاعدة قبول العمل الصالح هي الإيمان، فالإيمان هو الأساس الذي لا يتقبل الله تعالى العمل إلا به، فمن التزم الإيمان، وعمل ما استطاع من الأعمال الصالحة فلا جحود لعمله ولا نُكران له، وهو مثاب عليه، وهذا معنى: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي: أن الله تعالى لا يُضيع له ثواب عمله، ولا يبخسه ولا ينقصه شيئًا، بل يضاعفه له أضعافًا كثيرة، كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ﴾ [آل عمران: ١١٥]

---

(١) من «جمهرة الأنساب» لابن حزم، وضعفه الألباني بلفظ : (يا حصين كم تعبد) قال: سبعة.

أي: أنّ مَن يعمل الطاعات وأعمال الخير والبر، بشرط أن يكون مؤمنًا، فلا بطلان لثواب عمله، ولا يضيع شيء من جزائه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف].

بل إن الملائكة تسجل له الأعمال الصالحة وتكتبها، ويجدُها بين يديه في صحيفة عمله يوم لقاء رب العالمين، وهذا معنى ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي: أنه سيجد ما عمله مكتوبًا يوم يُبعث بعد موته، كما أن هذا العمل مثبت في اللوح المحفوظ، وفي صحف الحفظة. أما من لم يعمل الصالحات، أو عملها وهو ليس بمؤمن، فإنه محروم خاسر في دينه ودنياه، قال تعالى:

٩٥- ﴿وَحَرَٰمٌ[(١)] عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾

والكلام موصول عن الجزاء الأخروي يوم لقاء الله، فكل من مات أو هلَك بالعذاب الدنيوي، ولقي الله تعالى، لا يمكنه أن يرجع إلى الدنيا مرة أخرى؛ ليستدرك ما فاته فيها من التفريط في جنب الله، فيتوب ويرجع عما كان فيه.

وهذا معنى: ﴿وَحَرَٰمٌ﴾ أي: ممتنع منعًا باتًّا ﴿عَلَىٰ﴾ أهل ﴿قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ أي: استأصلنا شأفتهم، وأبدْناهم في هذه الدنيا؛ بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسل الله؛ كأقوام: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، يمتنع عليهم العودة إلى الدنيا مرة ثانية بعد استئصالهم، وهذا معنى ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الدنيا مرة ثانية بل إنهم سيستمرون على هلاكهم حتى تقوم الساعة، ثم يرجعون إلينا للحساب والجزاء، فهم سيرجعون حتمًا إلى الله تعالى؛ ليلْقوْا جزاءهم، وهلاكهم في الدنيا كان جُزْءًا من عقابهم، وليس نهاية لأمرهم، وقد كان معتقدهم في الدنيا أنهم لا يُحشرون ولا يرجعون إلى ربهم ولا يحاسبون على أعمالهم.

وللعلماء في تفسير هذه الآية **قولان:**

القول الأول: إن من أهلكهم الله بعذاب في الدنيا، سيرجعون إليه سبحانه ولابدَّ في الدار الآخرة؛ ليحاسبهم ويجازيهم.

---

(١) قرأ شعبة وحمزة والكسائي بكسر الحاء وسكون الراء وحذف الألف من (وحرام) فتقرأ هكذا (وحِرْم)، وأثبت الباقون الألف مع فتح الحاء والراء.

فـ (لا) نافية، والمراد بالرجوع: البعث بعد الموت، وليس كما زعموا أنهم لا يبعثون، فهلاكهم في الدنيا لا ينجيهم من الحساب يوم القيامة.

القول الآخر: إن المراد: امتناع رجوعهم إلى الدنيا بعد الموت مرة أخرى للتوبة والإنابة، فالرجوع إلى الدنيا يستلزم التوبة والعودة إلى الله تعالى، ولا سبيل لرجوع من هلك وعُذّب، أي إنه يستحيل على من أهلكهم الله أن يعودوا إلى الدنيا قبل يوم القيامة ليتوبوا ويندموا على ما فعلوا.

فـ (لا) زائدة مؤكدة للنفي المفهوم من لفظ: ﴿وَحَرَامٌ﴾ فهي بمعنى النفي، ونفي النفي إثبات.

والآية تشمل المعنيين معًا، فهم لن يعودوا إلى الدنيا، وهم عائدون حتمًا إلى الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

فليحذر - المخاطبون - أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك، فيقع العذاب بهم، ولا يمكن رفعه بعد وقوعه، فليقلعوا عما هم فيه من الشرك والكفر والبدع والمعاصي، وهم في وقت المهلة، وسيظل الأمر كذلك حتى ظهور يأجوج ومأجوج.

يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ

٩٦- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ[1] يَأْجُوجُ[2] وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

إن امتناع عودة مَنْ أهلكهم الله في الدنيا سيظل قائمًا، فلن يعودوا إلى ممارسة الحياة مرة ثانية، ولن يزول هلاكُهم حتى اقتراب قيام الساعة، ومن علامات اقتراب يوم القيامة فتح السد الذي يحول دون انتشار يأجوج ومأجوج في الأرض، وقد عدَّه بعضهم من الأشراط الصغرى لقيام الساعة، حتى إذا فُتح سد يأجوج ومأجوج، فانطلقوا من مرتفعات الأرض، وانتشروا في جنباتها مسرعين، يفسدون في الأرض، ويأتون على الأخضر واليابس، عندئذ يقترب قيام الساعة وتظهر أهوالها.

---

(١) قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بتشديد التاء من (فتّحت) للتكثير، وقرأ الباقون بالتخفيف.

(٢) قرأ عاصم بهمزة ساكنة في (يأجوج ومأجوج)، والباقون بإبدال الهمزة ألفًا.

وفي الآية تحذير للناس من الإقامة على الكفر والمعاصي، حتى ظهور علاقات الساعة، ومنها ظهور يأجوج وماجوج:

في صحيح مسلم وغيره: عن حذيفة بن أُسَيْد الغفاري ﷺ قال: اطَّلع علينا النبي ﷺ ونحن نتذاكر، فقال: **«ما تذاكرون»**؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: **«إنها لن تقوم حتى ترون فيها عشر آيات»** فذكر **«الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»**[١].

ويأجوج ومأجوج: قبيلتان من بني آدم، من أولاد يافث بن نوح أبي الترك، والترك جماعة منهم، تُركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين في الجهة الشرقية من الأرض، ووردت بشأنهم أحاديث كثيرة في الصحاح والمسانيد والسنن.

ومن ذلك ما صحَّ عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ لقي إبراهيم وموسى وعيسى، ليلة الإسراء، فتذاكروا الساعة، فذكر عيسى خروج الدجال، قال: فأنزِل، فَأَقْتُلَه، فيرجع الناس إلى بلادهم، فيستقبلهم يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فلا يمرون بماء إلا شربوه، ولا بشيء إلا أفسدوه، فيجأرون إلى الله، فأدعو الله أن يميتهم، فَتَنْتنُ الأرض من ريحهم، فيجأرون إلى الله، فأدعو الله، فيرسل السماء بالماء، فيحملهم فيُلقيهم في البحر، ثم تُنسف الجبال، وتُمدُّ الأرض مدَّ الأديم، ومتى كان ذلك كانت الساعة من الناس، كالحامل التي لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادتها[٢].

وفي الحديث الآخر: أنهم يملؤون الأرض، ويمرون بالنهر فيشربونه حتى لا يبقى منه شيء، ويمدُّ أحدهم حرْبته إلى السماء فترجع مخضَّبة بالدم، فيقولون: قتلْنا أهل السماء،

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٠١) و«المسند» برقم (١٦١٤١)، بإسناد صحيح ورجال ثقات، (محققوه) وأخرجه الحميدي (٨٢٧) والطبراني في الكبير (٣٠٣٣) والبغوي في شرح السنة (٤٢٥٠) وأبوداود (٤٣١١) والترمذي (٢١٨٣) والنسائي في الكبرى (١١٣٨٠) والطيالسي (١٠٦٧).

(٢) يُنظَر: «سنن ابن ماجه» برقم (٤٠٨١) و«المسند» برقم (٣٥٥٦) بإسناد ضعيف لأن فيه مؤثر بن عَفَازَة من المجاهيل، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه) بنحوه، وأخرجه أبو يعلى (٥٢٩٤) وابن أبي شيبة (١٥/ ١٥٧). والطبري (١٦/ ٢٧) و«المستدرك» (٤/ ٤٨٨) وقد صححه الحاكم والذهبي والبوصيري.

فيبعث الله دوابًّا كنغف الجراد، وهو دود يكون في أنوف الإبل والغنم فتأخذ بأعناقهم، فيموتون موت الجراد، يركب بعضهم بعضًا، فلا يسمع المسلمون لهم حسًّا[1].

ومن **أوصافهم** في بعض هذه الأحاديث:

١- أنهم يشربون أنهار الأرض حتى يتركوها يبسًا، ولا يمرُّون على ماء إلا شربوه.

٢- وأن الله تعالى يبعث عليهم دودًا يَخْرج في أعناقهم فيصبحون موتى.

٣- وأن الله تعالى يرسل عليهم طيرًا كأعناق البُخْت فتحملُهم، فتطرحُهم حيث شاء الله.

٤- وأنهم عراض الوجوه، صغار العيون، وأنهم لا يأتون على شيء إلا أهلكوه.

٥- وأن رائحتهم بعد هلاكهم تفوح في الأرض، فيرسل الله عليهم مطرًا يجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر[2].

وفي البخاري وغيره: عن أبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لَيُحَجَّنَّ البيت، ولَيُعْتَمَرَنَّ بعد خروج يأجوج ومأجوج»**[3].

وفي حديث زينب بنت جحش ﷺ أن النبي ﷺ دخل عليها يومًا فزعًا وهو يقول: **«لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فُتِح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا»**[4] وحلَّق بالإبهام والتي تليها.

---

(١) يُنظَر الحديث في: «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٣٨٨) و«سنن ابن ماجه» برقم: (٤٠٧٩) و«المسند» (٣/ ٧٧) برقم: (١١٧٣١) بإسناد حسن، من أجل ابن إسحاق، وقد صرح بالتحديث، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه) وابن حبان برقم: (٢٦٨٣) الإحسان و«مصباح الزجاجة» (٢/ ٣١١) وصححه البوصيري والألباني والحاكم (٢/ ٢٤٥).

(٢) يُنظَر بعض الأحاديث الواردة في ذلك في: «صحيح مسلم» برقم: (٢١٣٧) و«المسند» (١/ ٣٧٥، ٣/ ٧٧، ٤/ ١٨١) وابن ماجه برقم: (٤٠٧٥، ٤٠٧٩، ٤٠٨١) والبوصيري في «الزوائد» (٣/ ٢٦٠) وأبو داود برقم: (٤٣٢١) والترمذي برقم: (٢٢٤٠) والنسائي برقم: (١٠٧٨٣) وابن حبان (٦٨٣٠) الإحسان، و«صحيح ابن ماجه» (٢/ ٣٨٨).

(٣) البخاري برقم: (١٥٩٣) و«المسند» (٣/ ٢٧) برقم: (١١٢١٩، ١١٤٥٥، ١١٦١٧)، حديث صحيح وأخرجه أبو يعلى (١٠٣٠) وابن خزيمة (٢٥٠٧) وابن حبان (٦٨٣٢).

(٤) صحيح البخاري برقم: (٣٥٩٨، ٣٣٤٦) و«صحيح مسلم» برقم: (٢٨٨٠).

وهذا الاقتراب بالنسبة لما بقي من عمر الدنيا بالنظر إلى ما مضى منها، كما قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] وقال سبحانه: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [١].

وكأن الآية تصف انتشار المغول والتتار في الأرض قبل خروجهم بخمسة قرون، وهو من معجزات القرآن الغيبية والعلمية، ولعلَّ في تخصيص هذا الحادث بالتوقيت دون غيره من علامات الساعة، أن فيه إنذارًا للعرب المخاطبين بالقرآن في بدء نزوله؛ ليكون ذلك نصب أعينهم تحذيرًا لذرياتهم من كوارث ظهور يأجوج ومأجوج، فقد كان زوال مُلْك العرب العتيد، وتدهْور حضارتهم وقوَّتهم على أيدي المغول والتتار، كما بيَّنه الحديث سالف الذكر(١) ومن ذلك حديث أبي سعيد الخدرى في صحيح ابن ماجه٢/٣٨٨.

والظاهر أن خروج يأجوج ومأجوج يكون أكثر من مرة، حيث صحَّ في الحديث أن خروجهما يكون بعد نزول عيسى وقتله للمسيح الدجال.

ففي الحديث: عن النواس بن سمعان ﷺ: «**إن الله تعالى يوحي إلى عيسى بعد أن يقتل الدجال، أني قد أخرجت عبادًا من عبادي، لا يَدَانِ لك بقتالهم، فحوِّز عبادي إلى الطور، فيبعث الله يأجوج ومأجوج، كما قال سبحانه:** ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، ثم يرسل الله عليهم نغفًا في رقابهم، فيُصبحون موتى كموت نفْس واحدة»(٢)

والنغف: دود يكون في أنوف الإبل والغنم.

والحدب: هو المرتفع من الأرض كالجبل.

وينسلون: أي يسرعون في المشْي مع تقارب الخُطا، وهو تصوير لحال خروجهم وانسياحهم في أرجاء الأرض.

ويأجوج ومأجوج من الكثرة بحيث قال فيهم النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ في الحديث القدسي برواية أبي سعيد ﷺ: «**يقول الله تعالى يوم القيامة لآدم: أخرج بعْث النار**

---

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٨/١٤٨).

(٢) جزء من حديث طويل عن النواس بن سمعان في «المسند» (٤/ ١٨١) برقم (١٧٦٢٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم و«سنن أبي داود» برقم (٤٣٢١) و«سنن الترمذي» برقم (٢٢٤٠) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١٠٧٨٣) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٠٧٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٣٧).

من ذريتك، فيُخرج من كل ألف، تسع مئة وتسعة وتسعين ، قال: ففزع الناس، فقال رسول الله ﷺ: إن منكم رجلًا ومن يأجوج ومأجوج ألف رجل»(١).

وعن دكِّ السد الذي يحجزهم يقول تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف].

وفي الآية والأحاديث دلالة على كثرتهم، وانتشارهم في الأرض، وأنهم يقهرون الناس، وأنه لا قبل لأحد بقتالهم. قال تعالى:

٩٧- ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

وفَتْحُ سد يأجوج ومأجوج، ودنُوُّ يوم القيامة، هو الوعد الحق الذي وعد الله به عباده، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [١٠٤] وعند إعادة الخلق تظهر أهوال ذلك اليوم، فإذا أبصار الكفار من شدة الفزع مفتوحة لا تكاد تطرف، وهم يَدْعُون على أنفسهم بالويل والثبور في حسرة وندامة قائلين: يا ويلنا قد كنا لاهين غافلين عن ذلك اليوم وعن الإعداد له.

وقد تحقق ما أخبر الله به من قرب قيام الساعة، ومجيء أماراتها، ومنهابعثة النبي ﷺ ويتحقق عودة الخلق للحساب والجزاء،فكل ذلك حق وصدق، لقد أخبرتنا الرسل بذلك،ولكننا كنا في لهو وغفلة عن ذلك اليوم،وكنا ظالمين لأنفسنا؛ بالاستمرار في لهو الدنيا، حيث عرَّضْناها لهذا العذاب الأليم، بعد أن أتانا اليقين ووردنا القيامة.

قال ابن مسعود ﷺ: الساعة من الناس بعد يأجوج ومأجوج كالحامل المتمِّم، لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولدها ليلًا أو نهارًا(٢).

---

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٤٧٤١، ٧٤٨٣، ٦٥٣٩٠) صحيح مسلم برقم (٢٢٢) و«المسند» برقم (١١٢٨٤). بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه النسائي في الكبرى (١١٣٣٩) والبيهقي في الشعب (٣٦١) وغيرهم.

(٢) «البحر المحيط» (٦/٣٣٨).

الْكَفَرَةُ مَعَ مَعْبُودَاتِهِمْ وَقُودُ جَهَنَّمَ

٩٨- ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾

ويوم القيامة في ساحة العرض والحساب، يقال لمن ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، وهم يروْن بأعينهم أن وعد الله بالبعث والجزاء حق، ويعترفون بأنهم كانوا في غفلة عما جاءت به الرسل، حينئذ يقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: إنكم -أيها الكفار- وما كنتم تعبدون من دون الله من الأصنام، وكل من رضي بعبادتكم إياهم من الجن والإنس، وقود جهنم وحطبها، أنتم وهم خالدون فيها.

إنه حكم قاطع لا مردَّ له من الله، يَصدُر عليهم، ويُلْقَى على مسامعهم، وهم في ذهول المفاجأة لحظة الاعتراف والندم، حيث يرِدُون جهنم هم وآلهتهم المزعومة.

والحصب: هو ما يُلْقَى في النار؛ لتزداد به اشتعالًا، كالحطب، والخشب، والأصنام؛ حيث تُلْقَى معهم في النار، مع أنها لا تعقل، وذلك زيادة في حسرتهم وتبكيتهم؛ حتى يروا بأعينهم مصير ما كانوا يتوهمون المنفعة من ورائه، ويروْا كذب من اتخذها آلهة ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩]

ولفظ (ما) الموصولة هو في الأصل لما لا يعقل، ولكنه يطلق هنا على العاقل وغير العاقل من باب التغليب، أي: من الأصنام، أو الجن، أو الإنس، الذين عُبدوا من دون الله ورضوا بعبادتهم لهم؛ حيث يكون العابد والمعبود حطب جهنم ووقودها، وهم فيها خالدون، لا يخرجون منها ولا يتنقلون عنها. قال تعالى:

٩٩- ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ[1] ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾

ثم ذكر سبحانه في هذه الآية الدليل على بطلان عبادة المشركين لكل ما عُبد من دون الله، بأنه لو كان هؤلاء الذين عبدتموهم من دون الله آلهة تستحق العبادة، فتنفع وتضر، وتحيي وتميت، لو كانوا كذلك ما دخلوا معكم النار أيها المشركون، وما قُذفوا فيها كما يُقذف الحطب.

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية ياء مفتوحة من (هؤلاء آلهة)، وللأزرق فيها ثلاثة أوجه مد البدل، والباقون بتحقيقها.

فثبت بهذا أنها آلهة مزعومة لا تملك الدفاع عن نفسها فضلًا عن غيرها.

ثم إن كلًّا من العابدين والمعبودين باقون في هذه النار على سبيل التأبيد والخلود. قال تعالى:

١٠٠- ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية حال الكافرين في نار جهنم، بأنهم يكونون في كرب وهمٍّ وغمٍّ وعذاب شديد، لهم أنين وضيقُ تنفس: زفير وشهيق.

والزفير: هو النفَس الذي يخرج من أقصى الرئتين بضغط الهواء، من التأثر بالغمِّ وشدة الهول.

والشهيق: هو النفَس الذي يدخل إلى أقصى الرئتين بضغط الهواء، أي: أن لهؤلاء المعذبين في النار آلامًا ينبئ عنها زفيرهم وشهيقهم الذي يتردد في أنفاسهم.

وهم مع ذلك يفقدون حاسة السمع من شدة الهول، فقد بيَّن الله سبحانه أنهم في النار لا يسمعون شيئًا من هول العذاب، فقال تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾. فهم لا يسمعون إلا صوت غليان جهنم وشدة زفيرها وتغيُّظها.

ومن شأن الزفير أنه لا يمنع من السمع، ولكن الله تعالى أخبر أنهم من شدة العذاب لا يسمعون.

كما أخبر سبحانه أن أهل النار يحشرون يوم القيامة على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًّا، فقال جلَّ شأنه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

جاء في الأثر عن ابن مسعود ﷺ: أن أهل النار يُخَلَّدون في توابيت من حديد داخل توابيت أخرى، عليها مسامير من حديد، ويُقذَف بهم في أسفل جهنم، فلا يسمعون شيئًا، ولا يرى أحدهم أن أحدًا يُعذب في النار غيره[1]. **وهذه التوابيت تجعلهم لا يسمعون شيئًا**.

مَنْ لَمْ يَدْعُ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَلَمْ يَرْضَ لَهَا ذَلِكَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ

١٠١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في صفة النار، وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في البعث، يُنظَر: ابن أبي الدنيا (١٠٣) وابن جرير (١٦/ ٤١٥) والطبراني (٩٠٨٧) والبيهقي (٦٥٦).

وعادة القرآن الكريم أن يذكر الفريق المقابل لمن سبق الحديث عنهم، وقد تحدثت الآيات السابقة عن أهل الشقاء من المشركين الضالين، أهل جهنم، وهم أهل القرى الذين حرَّم الله عليهم العودة إلى الدنيا؛ لتدارك ما فاتهم من تفريط في جنب الله، وهم ملاقو ربهم حتمًا، ومُوَفَّوْن جزاءهم العادل، وأُتْبِعَتْ ذلك ببيان أن المشركين ومعبوداتهم من الأصنام، وكل من عُبد من دون الله وهو راض بعبادته، العابد والمعبود كلاهما حطب جهنم ووقودها.

ثم تحدثت هذه الآية وما بعدها عن المؤمنين الصالحين الموفَّقين لِتَسْتَثْنِيهِمْ من وقود جهنم، فهم الذين حسنت أعمالهم في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح، فحسُن جزاؤهم يوم لقاء رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] لقد أحسن الله مآلهم وثوابهم في الآخرة؛ لأنهم أحسنوا القول والعمل في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الرعد: ١٨] وهذا حكم عام، وقاعدة مطردة في القرآن الكريم.

وهذه الآية عامة في كل من سبقت له السعادة في علم الله تعالى، ومن عبدهم المشركون من دون الله وهم من عباد الله الصالحين الذين لا يقبلون هذه العبادة: كالمسيح، وعزير، والملائكة، فهم ممن سبقت لهم السعادة في علم الله تعالى:

١- ويوضح ذلك ما جاء في أسباب النزول، من أن النبي ﷺ دخل المسجد، وصناديد قريش في الحَطِيم، وحول الكعبة ثلاث مئة وستون صنمًا، فكلمهم النبي ﷺ فعرض له النضر بن الحارث، فكلَّمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه الآيات الثلاث: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

ثم قام النبي ﷺ، فأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرَى السهمي، فأخبره الوليد بن المغيرة بما قال رسول الله ﷺ، فقال ابن الزِّبَعْرَى: أما والله لو وجدته لَخَصَمْتُه -أي: لجادلْتُه- فَدعَوْا رسول الله ﷺ، فقال ابن الزِّبَعْرَى: أأنت قلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾؟ قال: **«نعم»**، قال: أليست اليهود تعبد عزيرًا، والنصارى يعبدون المسيح، وبنو مدلج يعبدون الملائكة؟ فقال النبي ﷺ: **«بل هم يعبدون الشيطان»**، فأنزل

الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

والذين سبقت لهم الحسنى هم: عزير، والمسيح، والملائكة.

ونزل في ابن الزبعرى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزخرف].

وقد ورد أن أهل مكة عجبوا من جدال ابن الزِّبَعْرَى للنبي ﷺ، وقالوا: إن محمدًا قد غُلب.

فقال له النبي ﷺ: «**ما أجهلك بلغة قومك، إني قلت**: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾».

وفي رواية ابن عباس ﷺ أن ابن الزِّبَعْرَى قال: قد عُبدت الشمس والقمر، والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم، كل هؤلاء في النار مع آلهتنا؟

وفي رواية ابن إسحاق أن النبي ﷺ قال: «**كل من أحبَّ أن يُعبد من دون الله فهو مع من عَبده**»[1].

وقد أسلم ابن الزبعْرَى بعد ذلك، واعتذر عما هاجم به المسلمين أوَّلًا.

٢- ووَرَد أن عليًّا ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ فقال: أنا منهم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن[2].

وقيل: إن ﴿إِنَّ﴾ في الآية بمعنى: إلَّا.

٣- وقال ابن كثير: إن الآية نزلت خطابًا لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جمادات لا تعقل؛ ليكون ذلك تقريعًا وتوبيخًا لعابديها، فكيف يُورَدُ على هذا المسيح والعزير ونحوهما ممن له عمل صالح، ولم يرضَ بعبادة من عبده؟!

ومعنى الآية: إن المؤمنين الصادقين الذين سبقت لهم السعادة في علم الله، والدرجة

---

(١) يُنظَر حديث ابن الزِّبَعْرَى هذا: في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٥٨) و«تفسير الطبري» (١٧/ ٧٦) و«الدر المنثور» (٤/ ٣٣٨) و«أسباب النزول» للواحدي (١٧٥) والحاكم (٢/ ٣٨٤) و«المعجم الكبير» للطبراني برقم: (١٢٧٣٩) والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» برقم (٩٨٦).

(٢) رواه ابن أبي حاتم وغيره عن النعمان بن بشير، وأخرجه ابن ابي حاتم وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (١٠/ ٣٩١) وابن عدي (٣/ ٩٨٦).

الحسنة العالية، يكونون من أهل الجنة مستقرين فيها بأمن واطمئنان، ولا يشعرون بحركة النار، ولا يرون لهيبَها ووهجَها، ولا يكونون قريبين منها. قال تعالى:

١٠٢- ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

أي: أن أهل الجنة لا يسمعون صوت لهب النار، ولا يرون احتراق الأجساد فيها، فهم لا يقربون من النار، ولا تبلغ أسماعهم أصواتها، ولا يلفحهم حرُّها، ولا يُروِّعهم منظرها، وهم في لذة ونعيم يتمتعون بكل ما تتمناه أنفسهم، وتشتهيه أفئدتهم، وتنشرح له صدورهم، من المآكل والمشارب والملابس والمناظر والحور العين، والنعيم المقيم، وهم في هذا النعيم مخلدون دائمًا وأبدًا، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]، وهم لا يفزعون إذا فزع الناس، وتتلقاهم الملائكة عند البعث بالبشر والترحاب؛ قال تعالى:

١٠٣- ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ[(١)] الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾

وأهل السعادة لا يُخيفهم الهول العظيم يوم القيامة، ولا يُحزنهم ما يُحزِن غيرهم، فهم سالمون من الفزع المروِّع حين يُذْبح الموت بين الجنة والنار، وحين يقال لأهل الجنة: خلود بلا موت، ولا يفزعون قبل ذلك من النفخة الأخيرة، حين يقوم الناس لرب العالمين ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ من كل هول يكون يوم القيامة، بل إن الملائكة تحييهم وتبشرهم بالنعيم المقيم وهم يستقبلونهم عند خروجهم من القبور، وعند دخولهم الجنة مهنئين مبشرين لهم بتحقيق ما وعدهم الله به من الكرامة وجزيل الثواب.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت].

---

(١) قرأ أبو جعفر بضم الياء وكسر الزاي من (لا يُحزِنهم) من أحزن الرباعي، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الزاي، من حزن الثلاثي.

طَيُّ الصُّحُفِ يَوْمَ بَعْثِ الْخَلَائِقِ

١٠٤- ﴿يَوْمَ نَطْوِى[١] ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ[٢] كَمَا بَدَأْنَآ[٣] أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

يحدث الفزع للكافر وتحدث البشرى للمؤمن، يوم يُقضى الأمر، وتُطوى صفحة هذا الكون الذي يألفه الإنسان، ويؤتى بعالم جديد، والسماء تُطوى كما تُطوى الصحيفة على ما كُتب فيها، وكما يَطوي الرجل صحائفه على ما كُتب فيها، إنه مشهد رهيب، يصور حال الكون الذي آل إليه في يوم القيامة، والهول آخذ بزمام القلوب في ذلك اليوم العصيب.

وحين نزلت هذه الآية لم تكن هناك صحف تُطوى، بل كانت الكتب تُلَفُّ لفًّا، فلفت القرآن أنظار الناس إلى ما سيكون في المستقبل من طيِّ الصحف.

وفي هذا اليوم تُبعث الخلائق على هيئة خلْق الله لهم أول مرة، كما ولدتْهم أمهاتهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: **«إنكم محشورون إلى الله ﷻ حفاة عراة غرلًا، كما بدأنا أول خلق نعيده وعدًا علينا إنا كنا فاعلين»** الحديث[٤].

وفي الصحيحين: من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يُحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلًا»**، قلت: يا رسول الله، النساء والرجال جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال ﷺ: **«يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض»**[٥].

---

(١) قرأ أبو جعفر بضم التاء على التأنيث، مع فتح الواو من (تُطوَى) مبني للمجهول و(السماء) نائب فاعل، وقرأ الباقون بنون مفتوحة وكسر الواو (نَطوِي) مبني للمعلوم، و(السماء) مفعول به.

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بضم الكاف والتاء في (للكُتُب) مع حذف الألف، جمع كتاب، بمعنى: الصحف، وقرأ الباقون بكسر الكاف وفتح التاء وإثبات الألف (للكِتَاب) على الإفراد.

(٣) قرأ الأصبهاني عن ورش، وأبو جعفر، وأبو عمرو، بخلْف عنه، بإبدال الهمزة ألفًا وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف، وقرأ الباقون بتحقيقها في الحالين.

(٤) أخرجه البخاري برقم (٣٣٤٩، ٤٦٢٥) ومسلم (٢٨٦٠) وأحمد في «المسند» (١/ ٢٣٥) برقم (٢٠٩٦، ٢٢٨١).

(٥) البخاري برقم (٦٥٢٧) ومسلم برقم (٢٨٥٩).

ويوم تُطوى الصحف نعيد خلقهم كما بدأناه من العدم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وهذا معنى ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾.

وإعادة الخلق يوم البعث وعْد قطعه الله على نفسه، ووعْده لا يتخلف ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: قادرين على تحقيق وإنجاز ما نعد به، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

وعن نافع عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يقبض يوم القيامة الأرض، وتكون السموات بيمينه ثم يقول: أنا الملك»**[١].

وفي الصحيحين: عن ابن عباس ﷺ قال: خطب النبي ﷺ فقال: **«إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غُرْلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ثم إن أول من يُكسى يوم القيامة إبراهيم، إلا إنه يُجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يارب أصحابي، فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿شَهِيدٌ﴾، فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»**[٢].

وِرَاثَةُ أَرْضِ الْجَنَّةِ وَأَرْضِ الدُّنْيَا لِلصَّالِحِينَ بِإِيمَانِهِمْ وَخِبْرَتِهِمْ

١٠٥- ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ[٣] مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ[٤] ٱلصَّٰلِحُونَ﴾

وفي سياق الحديث عن الدار الآخرة ونعيمها، يبيِّن ﷻ أن أرض الجنة يرثها عباد الله الصالحون، الذين قاموا بما أُمروا به، واجتنبوا ما نُهوا عنه من أمة محمد ﷺ، وهذا الإرث يشمل أرض الجنة وأرض الدنيا.

١- ومعنى وراثة أرض الجنة: أن يأخذ المؤمنون أماكنهم التي أعدها الله لهم في الجنة، ويأخذوا إلى جوارها أماكن الكفار في الجنة التي كانت مُعَدة لهم لو أنهم آمنوا،

---

(١) صحيح البخاري برقم (٧٤١٢).

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٣٤٩، ٤٧٤٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٦٠).

(٣) قرأ حمزة وخلف العاشر بضم الزاي من (الزُّبور)، والباقون بفتحها، وهما لغتان.

(٤) قرأ حمزة بإسكان ياء الإضافة من (عبادي الصالحون) وصلًا ووقفًا، وقرأ الباقون بفتحها وصلًا وإسكانها وقفًا.

فالمؤمنون يرثون أماكنهم وأماكن أهل النار.

وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف].

وقوله: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم].

وقوله تعالى على لسان أهل الجنة بعد أن يدخلوها: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤].

فالمتقون يرثون أرض الجنة بتقواهم، ويأخذون أرض أهل النار الخاصة بهم في الجنة فيما لو كانوا من المتقين، كما يرث الوارث مال الْمُتَوَفَّى، وهذا هو معنى الغبن الذي جاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]

أي: اليوم الذي يغبُن فيه بعضكم بعضًا، فكل منكم يأخذ مكان الآخر ويرثه، أي: أن الكافر يرث نصيب المؤمن في النار فيما لو كان كافرًا، والعكس صحيح، فالمؤمن يرث نصيب الكافر في الجنة لو كان مؤمنًا.

وقد جاء في الحديث أن الإنسان يرى عند موته مقعده من الجنة ومقعده من النار.

٢-ومعنى وراثة المؤمنين لأرض الدنيا الصلاح لعمارة الأرض، وإصلاحها وتنميتها واستغلال ثرواتها، واستخراج كنوزها وطاقاتها، إن عباد الله الصالحين، هم أهل السعادة في الدنيا والآخرة، وهم ورثة الأرض في الدنيا والآخرة، فكما أنهم يرثون أرض الجنة، فإن الله تعالى قد وعدهم أن السعادة في الدنيا تكون لهم إذا تحقق فيهم شرط الصلاح.

فالصلاح شرط لوراثة أرض الجنة، وشرط لوراثة أرض الدنيا، والصلاح لوراثة أرض الجنة، يجمعه الإيمان والعمل الصالح، والصلاح لوراثة أرض الدنيا يجمعه أيضًا الإيمان والعمل الصالح.

فإطلاق اسم الأرض يصلح لأن يراد به: أن سلطان العالم سيكون بيد المسلمين ما استقاموا على الإيمان والصلاح.

فالمراد بالأرض في الآية: ما يشمل أرض الدنيا وأرض الآخرة، ووراثة غير المسلمين

لأرض الدنيا يقع على خلاف الأصل.

فقد يتغلب على أجزاء من الأرض في بعض الفترات من التاريخ، كفارًا فجارًا، أو جبارين ظلمة،وتكون لهم الغلبة،المادية عسكريًّا واقتصاديًّا في حقبة من الأحقاب؛ ويكون ذلك بسبب نقص في صلاح المؤمنين وخلَل في صفوفهم،فإذا عاد التوازن إليهم بتحقيق منهج الله تعالى في القيام بالتكاليف الشرعية،والعمل على عمارة الأرض وإصلاحها،كانوا أهلًا لتملّكها، ونفوذ سلطانهم فيها.

ويؤخذ من الآية: أن الأرض خلقها الله أصلًا لعباده المتقين، وأن غيرهم تبع لهم، كما أن الطيبات من الرزق خلقها الله أصلًا لعباده المؤمنين، وأن غيرهم تبع لهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وفي الآية بشرى للمؤمنين بوراثتهم أرض الدنيا في النهاية، وفي هذا يقول ﷺ فيما يرويه ثوبان ﷺ: **«إن الله تعالى زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها، وأُعطيتُ الكنزيْن: الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي ألَّا يهلكها بسنة عامة، وألَّا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرد، وإني أعطيتك لأمتك ألَّا أهلكهم بسنة عامَّة، وأن لا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها-أو قال: من بين أقطارها- حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا»**[١].

وفي وجوب تحقيق شرط الصلاح لعمارة الأرض بالقيام بالأوامر والنواهي الإلهية يقول سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور: ٥٥].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٨٨٩) وأبو داود (٤٢٥٢) وصحيح أبي داود (٣٥٧٧) وصحيح ابن ماجه (٣٩٥٢) والترمذي (٢٢٨١) وصحيح الترمذي (١٧٦٨) عن ثوبان ﷺ.

والآية تشير إلى استخلاف المؤمنين في الأرض، وتمكينهم منها وولايتهم عليها، إذا هم حققوا الإيمان والعمل الصالح

فقد بيَّنت الآية مَنْ هم أهل للاستخلاف في الأرض، والتمكين فيها، وتحقيق الأمن لهم، وأنهم: المؤمنون العاملون للصالحات، المحققون للتوحيد الخالص.

وفي الآية الأخرى يقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج]

فإقامة الصلاة، وإخراج الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، هي شروط أربعة، لمن يولِّيه الله الحكم ويورثه الأرض، فإذا لم تتحقق هذه الشروط التي في الآيتين فليسوا أهلًا لوراثتها، وهم غير صالحين للغلبة عليها، وهذا مقتضى ما أوحاه الله إلى رسله في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ويدل على عموم الآية التي نحن بصددها لوراثة أرض الدنيا والآخرة قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

ذلكم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ **والزبور**: هو المزبور، أي: المكتوب، **والذكر**: هو اللوح المحفوظ، فالمراد بالمزبور إذن: جميع الكتب السماوية، أي: أن الله تعالى سجَّل في كل الكتب - التوراة والإنجيل والزبور والقرآن - أن الأرض في الدنيا والآخرة، يرثها عباد الله الصالحون لسكناها ولعمارتها، بتحقيقهم لمنهج الله في الأرض، وامتثالهم للأوامر واجتنابهم للنواهي، والعمل على استغلال ثرواتها وخيراتها.

ويُحتمل أن يراد بالزبور: كتاب داود ﷺ، وبالذكر: التوراة التي نزلت قبله.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: **الزبور**: الكتب التي نزلت على الأنبياء.

والذكر: أمُّ الكتاب، الذي يُكتب فيه الأشياء قبل ذلك.

والمراد بالأرض: أرض الجنة، أو أرض الدنيا والآخرة.

والقوم الصالحون ليسوا إلا المسلمين من أمة محمد ﷺ، وهذا غير الوعد الذي وعد الله به بني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام، وغير الإرث الذي أورثه الله بني إسرائيل في قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص].

فالمراد فيهما: أرض خاصة، ومكان معين هو الأرض المقدسة، وذلك قبل أن يحرمها الله تعالى عليهم إلى الأبد، عقوبة لهم على تخاذلهم، ومخالفة نبيهم في قتال الجبارين.

ثَنَاءُ اللهِ تَعَالَى عَلَى كِتَابِهِ

١٠٦- ﴿إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

بيَّن الله سبحانه أن ما سبق ذكره في هذه السورة وغيرها من القرآن المتلوّ، فيه من الموعظة عبرة كافية لمن يعبدون الله تعالى، فالعابدون الخاشعون هم المنتفعون بما في القرآن، وهم الجديرون بوعد الله تعالى، وبشارته لهم بميراث أرض الجنة، وأرض الكفر في الدنيا.

﴿إِنَّ فِى هَـٰذَا﴾ إشارة إلى القرآن كله، سيَّما ما ذُكر منه في الآية الأخيرة ﴿لَبَلَـٰغًا﴾ أي: لكفاية من الأخبار التي فيها الوعد والوعيد، وفيها الموعظة البالغة ﴿لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ﴾ مؤمنين بالله حق الإيمان، قائمين بالتكاليف الشرعية، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، مؤثرين طاعة الله تعالى على طاعة الهوى والشيطان.

وفي هذه الآية ثناء من الله تعالى على كتابه العزيز (القرآن) وبيان كفايته التامة عن كل شيء، فهو يُبلِّغ العباد ويوصلهم إلى ربهم وإلى دار كرامته، وهوالكفيل بمعرفة ربهم بأسمائه وصفاته وأفعاله، وإخباره بالغيب، وفيه المأمورات والمنهيات، والتحذير من الشيطان وكيده، فمن لم يُغنه القرآن، فلا غَناء له، ومن لم يكفه القرآن فلا كفاية له.

رَحْمَةُ اللهِ لِلْعَالَمِينَ

١٠٧- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

تقوم سورة الأنبياء على إثبات الرسالة لمحمد ﷺ، وتَرُدُّ على المنكرين لها القائلين: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [٣] وتذكر مناقب عدد من الرسل.

وفي ختام مناقب الأنبياء يأتي وصف جامع شامل لبعثة محمد ﷺ؛ لبيان مزية شريعته على سائر الشرائع في عمومها ويُسْرها ودوامها، فقد أرسله الله تعالى رحمة لجميع الخلق، فمن آمن به سَعِد ونجا، ومن لم يؤمن به خاب وخسر.

والعالمين: كل ما عدا الله تعالى فهو عالَم، فرسالة النبي ﷺ رحمة للإنس والجن وغيرهم، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]

وفي الآية مدح للرسول ﷺ، وثناء، عليه ومدح للرسالة وثناء عليها، فهو ﷺ رحمة الله المهداة لعباده، فالمؤمنون قبلوا هذه الرحمة وشكروها، وقاموا بواجبها، وغيرهم أبى هذه الرحمة، وبدّل نعمة الله كفرا.

إنما أنا رحمة مهداة:

أما وصف النبي ﷺ بالرحمة فهو وصف خاص به ﷺ، ولم يوصف به غيره من رسل الله جميعًا، ورحمة الرسول ﷺ منها ما يتعلق بشخصه الكريم، ومنها ما يتعلق برسالته وشريعته، وقد فُطر النبي ﷺ على خُلُق الرحمة في جميع أحواله، كما قالت عائشة ﵂: كان خلقه القرآن، كان قرآنًا يمشي بين الناس، وصورة عملية لما جاء فيه.

وقال ﷺ: «**إنما أنا رحمة مهداة**»(١). وقد أعطاه الله تعالى صفتين من صفاته، فقال تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وبيَّن سبحانه أن النبي ﷺ جُبل على خُلُق الرحمة، فكان ﷺ ليِّن الجانب، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ولما شُجَّ وجهه ﷺ يوم أُحُد قيل له: لو دعوت عليهم؟ فقال: «**إني لم أُبعث لعَّانًا، وإنما بُعثتُ رحمة**»(٢).

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» عن أبي هريرة (١/ ١٥٨) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٤٩٠).

(٢) يُنظَر: صحيح مسلم برقم (٢٥١٩) عن أبي هريرة.

وقد كان الناس قبل الإسلام، أهل كفر وضلال، وكان أهل الكتاب في حيرة من أمرهم، فبعث الله محمدًا ﷺ؛ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى.

ومن رحمته ﷺ أنه نصَر الضعيف، وأعان المظلوم، وساوى بين الخصمين، وأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهى عن الفحشاء والمنكر.

الحنيفية السمحة:

أما كون الرسالة رحمة، فلأنها تقوم على السماحة والرفق واليسر، وهي أوسع الشرائع رحمة بالناس، فهي تقوم على التيسير ورفع الحرج، وهي رحمة عامة، ملازمة للناس جميعًا في سائر أحوالهم، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال جلَّ شأنه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال ﷺ: «**بُعثتُ بالحنيفية السمحة**»[١].

وقد شملت هذه الرحمة مَنْ هُم تحت سلطان الإسلام من أهل الذمة، فلم يُرْغِمهم الإسلام على ترك دينهم، وأجرى العدل بينهم، وجعل لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات كالمسلمين سواء بسواء، فدماؤهم وأموالهم وأعراضهم معصومة.

وهذه الرحمة شملت الكافر الذي استفاد ببعثة النبي ﷺ بدفع عذاب الاستئصال عنه بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٤] وليست بعثة النبي رحمة على الكفار في الآخرة.

قال ابن عباس ﷺ في الآية: من آمن تمَّت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن عُوفي مما كان يصيب الأمم في عاجل الدنيا من العذاب، من الخسْف والمسْخ والقذْف[٢].

أما من سمع برسالة محمد ﷺ ولم يؤمن به، من جميع الملل والنحل، فهو من أهل النار؛ لأنه مات كافرًا بخاتم الرسل ﷺ.

ولأن هذه الرسالة رحمة الله للعالمين جميعًا، فقد حرَّم الإسلام تعذيب الحيوان، وشرع

---

(١) الحديث بتمامة في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (٢٩٢٤).

(٢) أخرجه الطبراني برقم (١٢٣٥٨) وابن جرير (١٦/ ٤٤٠) والبيهقي (٥/ ٤٨٦).

الإحسان في ذبحه، ورغَّب في الرحمة والرفق بالحيوان عمومًا، فقد عُذيت امرأة بالنار في هِرَّة حبستها، لم تطعمها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض.

وغفر الله لرجل وجد كلبًا يلهث من العطش، فنزل في بئر فملأ خفه ماء، وأمسكه بفمه حتى رقي، فسقى الكلب؛ فغفر الله له.

وقد شملت هذه الرحمة كل من شكر نعمة الله عليه؛ وقام بما وجب عليه تجاه هذه الرسالة، وكان ممن استجاب لله والرسول، فأطاع واستجاب، لأنه من أمة محمد ﷺ، أما من خالف ولم يؤمن بخاتم المرسلين، فقد ضيَّع نفسه، وخسر دنياه وأخراه، واستبدل نعمة الله كفرًا، كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم].

وقد وصف الله تعالى القرآن بقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الاسراء].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس].

التَّوحِيدُ هُوَ أَصْلُ الرِّسَالَةِ

١٠٨- ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ[(١)] أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

بعد أن وَصفت الآيات السابقةُ القرآن، بأنه غاية البلاغ للعابدين، ووصفت الرسول ﷺ بأنه رحمة الله للعالمين.

وصفت دعوة الرسول ﷺ في هذه الآية بأنها الأصل الجامع للتوحيد، وإبطال إلهية ما سواه.

فكلُّ متّبعٍ للدعوة الإسلامية، عليه أن يؤمن بوحدانية الله تعالى، ويكفر بالشرك والطاغوت، ويعبُد الله كما شرع.

(١) وقف يعقوب بهاء السكت على (إليَّ) بخلف عنه.

فالتوحيد هو أصل الشريعة، وكل ما تشتمل عليه من أحكام وتكاليف متفرعة عليه.

قل يا رسولنا: إن الذي أُوحي إليَّ، وبُعثتُ به إليكم أنَّ إلهكم الذي يستحق العبادة هو الله وحده، وفي هذا قصْر للصفة على الموصوف، أي: قصْرُ الوحي على الوحدانية.

وفيه أيضًا قصْر الموصوف على الصفة، أي: قصْرُ الله تعالى على الوحدانية، أي: ما يوحى إليَّ إلا اختصاص الله تعالى بالوحدانية.

وكل التكاليف، والعبادات، والتشريعات، والهِدايات، تدور حول وحدانية الله تعالى، فوجب عليكم -أيها المخاطبون- أن تُسْلِموا وتنقادوا لله تعالى ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟ الاستفهام بمعنى الأمر، أي: أسلموا وانقادوا لما يوحى إليَّ من إخلاص العبادة لله وحده، فإن فعلوا ذلك فليحمدوا الله على نعمة الإسلام، وإن أعرضوا عن الانقياد لعبودية ربهم، فحذرهم - أيها الرسول - من نزول العقاب بهم.

وقصر الدعوة على التوحيد يُبطل ما كان يلتبس على المشركين من أن محمدًا ﷺ يذكر إلهين هما: الله، والرحمن.

ويُبطل ما يصفون به النبي ﷺ من أنه ساحر يدعو لما لا يُعقل.

ويحسم الخلاف بين دعوة الإسلام، ودعاوى الشرك والوثنية التي أثارت عجب المشركين، في مثل قوله تعالى عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص].

وقوله تعالى عنهم أيضًا: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس].

والرسول ﷺ لم يكن بدعًا من الرسل، بل إن الرسل جميعًا كانت دعوتهم مقصورة على التوحيد، كما قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ۝٤٥﴾ [الزخرف].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء].

مَوْقِفُ الدَّاعِيَةِ مِنْ إِعْرَاضِ الْمَدْعُوِّينَ

١٠٩- ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

بلِّغهم دعوة التوحيد -أيها الرسول- فإن أعرضوا عن الإسلام ولم يتبعوك، فقل لهم: لقد أبلغتكم جميعًا ما أمرني به ربي، وما أُوحي به إليَّ، ولم أُخُص أحدًا منكم بالدعوة دون أحد، فأنتم جميعًا على حد سواء في العلم والمعرفة بهذا التوحيد، وهذا كقوله تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ [هود: ٥٧].

وبعد أن أبلغتكم ما أرسلت به إليكم، فقد انتهتْ مهمتي بذلك، وأنا وأنتم على حد سواء فيما يحدُث لكم من العقاب في المستقبل القريب أو البعيد، فلا تقولوا إذا نزل بكم العذاب ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]

والإيذان الذي في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ يكون عادة لإنهاء فترة السلم، وإعلان الطرف الآخر بالحرب، ويكون إعذارًا لهم، وتسجيلًا عليهم، كما قال ﷺ: **«ألا هل بلغت، اللهم فاشهد»**، فقد استوى علمي وعلمكم بمآل الكفر والكافرين، ولم أكتم عنكم شيئا.

قال أبو مسلم: الإيذان على السواء: الدعاء إلى الحرب مجاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨].

فيكون **المعنى**: وما أنذرتكم به من نزول العذاب، لستُ أعلم متى يحلّ بكم في الدنيا أوالآخرة، إن عشتم أو متم، فلا أدري أقريب أم بعيد ما توعدون به من العذاب؟! لأن علمه عند الله، وليس لي من الأمر شيء.

و(إِنْ) بمعنى: (ما)، أي: وما أعرف أقريب أم بعيد ما توعدون به من حلول العذاب بكم؟ فهو غيب في علم الله تعالى، ولا أعلم متى قيام الساعة؟ ولا متى هزيمتكم وغلبة المسلمين عليكم؟ فما أنا إلا مبلغ عن ربي، وقد أعلمتكم ببراءتكم مني، وبراءتي منكم، قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس]. قال تعالى:

١١٠، ١١١- ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾

أي: وعدَمُ عِلْم النبي ﷺ بموعد حلول العذاب بالمكذبين؛ لأن الله تعالى هو الذي يعلم السر والجهر من الأقوال والأفعال، ويعلم ما تُخفونه وما تكتمونه في صدوركم، لا يغيب عنه شيء مما خفي عنكم ولا ما ظهر لكم، وهو الذي يحاسبكم ويؤاخذكم عليه، أما النبي ﷺ فلا علم له بما خفي عن العباد إلا ما يطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن].

وهذه الآية معترضة بين الآية التي قبلها والتي بعدها.

ثم عطف سبحانه على عدم عِلْم النبي ﷺ بموعد حلول العذاب بالمشركين المكذبين، بأنه ﷺ لا يعلم أيضًا الحكمة في تأخير عقابهم بعد إعراضهم عن الدعوة، فلعله يكون من باب الاختبار والابتلاء، أو من باب الاستدراج لهم؛ ليزدادوا في التكذيب والإعراض.

فالمعنى: وما أدري لعل تأخير نزول العذاب فتنة لكم، أي: استدراج وابتلاء؛ كي تتمتعوا في الدنيا إلى وقت معين، تزدادون فيه كفرًا، ثم تكون عقوبتكم أعظم.

وبهذا التجهيل، يترك القرآن نفوسهم في توجُّس وترقُّب وتخوُّف تنتظر ما ينزل بها في ظل هذا المتاع الخادع، ولا يكشف عن هذا الغيب المجهول إلا علَّام الغيوب.

قال الشعبي: لَمَّا سلَّم الحسن بن عليٍّ الأمر إلى معاوية، قال له معاوية: قُم فتكلم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن هذا الأمر تركتُه لمعاوية إرادةَ إصلاح المسلمين، وحَقْنِ دمائهم ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ ثم استغفر ونزل[١].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (١١/ ١٤٢، ١٥/ ١٠٠) والطبراني (٢٥٥٩) والبيهقي في (الدلائل) (٦/ ٤٤٤).

مِسْكُ الْخِتَام

١١٢- ﴿قَٰلَ(١) رَبِّ(٢) ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ(٣) ﴿١١٢﴾﴾

أي: وبعد أن بلَّغ الرسول رسالة ربه، فأدى الأمانة، وآذنهم على سواء، وحذَّرهم فتنة الابتلاء، تضرع النبي ﷺ إلى ربه يطلب منه القضاء الفصل، والحُكم العدل، بينه وبين المكذبين المستهزئين.

﴿قَٰلَ﴾ أي: النبي ﷺ ممتثلًا أمر الله له: ربِّ افصل بيني وبين المكذبين بما يُظهر الحق للجميع، من نصر الحق وإزهاق الباطل وفي قراءة ﴿قُل رَّبِّ ٱحْكُم﴾ فعل أمر للنبي ﷺ أي يارب افصل بيني وبينهم بالقضاء العدل.

ولم يسأل النبي ﷺ ربه أن يُشدِّد عليهم، إنما سأله بصفة الرحمٰن، فهو سبحانه كثير الرحمة، وهو الذي يُطلب منه العون على ما يصفونه بألسنتهم، من أنواع الكذب والزور والبهتان، ويُطلب منه الصبر على أذاهم، فالعبد لا يتكل على حوله وقوته، إنما يستعين بالرحمن في جميع أموره.

وختمت السورة بتفويض الأمر إلى الله تعالى، وتوقُّع الفرج منه سبحانه، فهو نعم الناصر، ونعم المعين.

تم تفسير (سورة الأنبياء) ولله الحمد والمنة



---

(١) قرأ حفص بلفظ الماضي في (قال) أي: بفتح القاف واللام بينهما ألف، مسندًا إلى ضمير الرسول ﷺ، وهو إخبار من الله تعالى عما قاله الرسول ﷺ للمعرضين عن دعوته، وقرأ الباقون بضم القاف وسكون اللام بدون ألف (قل) فعل أمر من الله تعالى لنبيه؛ ليجيب به المعرضين عن دعوته.

(٢) قرأ أبو جعفر بضم الباء من (رب) إحدى اللغات الجائزة في المنادى المضاف لياء المتكلم فهو مبني على الضم على نية الإضافة، وقرأ الباقون بالكسرة، منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة للتخفيف.

(٣) قرأ ابن ذكوان بياء الغيبة في (تصفون) على الالتفات، والباقون بتاء الخطاب؛ لمناسبة (آذنتكم) وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَجِّ (٢٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الحج هي السورة الثانية والعشرون في ترتيب المصحف، والخامسة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النور، وقبل سورة (المنافقون)، وعدد آياتها ثمان وتسعون آية في المصحف الكوفي[1].

وهي ألف ومئتان وإحدى وتسعون كلمة، وخمسة آلاف ومئة وخمسة وسبعون حرفًا.

وسمِّيت سورة الحج؛ لأن الله تعالى أمر إبراهيم فيها بالدعوة إلى الحج، بالإضافة إلى ذكر بعض المناسك والفضائل والمنافع وذبح الهدْي، وتقريع من يصدون المسلمين عن المسجد الحرام.

ونزول السورة كان قبل فرضية الحج بالاتفاق؛ فقد فُرِض الحج بآيات سورتي البقرة [١٩٦-٢٠٣] وآل عمران [٩٦، ٩٧].

وتسميتها بهذا الاسم توقيفي، فقد جاء في الحديث والآثار أن سورة (الحج) حَظِيت عن سائر سور القرآن الكريم بما فيها من سَجْدتين: السجدة الأولى في الآية الأخيرة من الربع الأول، والسجدة الثانية في الآية قبل الأخيرة من السورة.

سأل عقبة بن عامر رسول الله ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أَفُضِّلتْ سورة (الحج) على سائر القرآن بسجْدتين؟ قال: **«نعم، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما»**[2].

وسورة (الحج) سورة مختلطة: مكية ومدنية، فالآيات التي تتحدث عن الحج والهدْي والجهاد والتشريع، آيات مدنية، والآيات التي تتحدث عن التوحيد والبعث والجزاء

---

(١) وسبع وسبعون آية في العدد المكي، وأربع وسبعون آية عند أهل الشام، وخمس وسبعون آية عند أهل البصرة، وست وسبعون آية عند أهل المدينة.

(٢) رواه الترمذي (٥٧٨) وأبو داود (١٤٠٢) والحاكم (٢/ ٣٩٠) والبيهقي (٢/٣١٧) وأحمد (٤/ ١٥١) قال الشيخ أحمد شاكر: الحديث صحيح، يُنظَر تحقيقه للدكتور عبد الرحمن عميرة، على «فتح القدير» للشوكاني (٣/ ٤٣٣).

ومشاهد القيامة، مكية.

ومن أعاجيب هذه السورة أن منها ما نزل ليلًا، ومنها ما نزل نهارًا، ومنها ما نزل في الحضَر، ومنها ما نزل في السفر، ومنها ما نزل في الحرب، ومنها ما نزل في السِّلْم، ومنها ما نزل في مكة، ومنها ما نزل في المدينة، ومنها ما نزل في غيرهما، ومنها الناسخ والمنسوخ، ومنها المحكم والمتشابه.

فالآيات الخمس الأُوَل نزلت ليلًا، والأربع التي تليها نزلت نهارًا، والثلاث التي بعدها نزلت في السفر، ومن الآية الثالثة عشرة إلى الآية العشرين، نزلت في الحضَر[1].

ولأن السورة منها ما نزل قبل الهجرة، ومنها ما نزل بعدها، فقد تعددت موضوعاتها وتنوعت وفق خصائص القرآن المكي والمدني فمع أنها تتناول جوانب التشريع، كأنها سورة مدنية، إلا أن مشاهد القيامة وأهوالها عنصر بارز فيها، كأنها سورة مكية وقد اشتملت السورة على **أربعة أشواط**:

الشوط الأول منها: يتعلق بالبعث والنشور في مشاهد مُرْعبة رهيبة، ترتجف لها القلوب، وتطيش لهوْلها العقول: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [١].

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [١٩].

فالله تعالى يحيي الأرض بعد موتها، والساعة آتية لاريب فيها، ومن الناس المجادل المكابر، ومنهم من يعبد الله على حرف ومنهم من يتبع كل شيطان مريد.

وبيَّنت السورة مصير المؤمنين والكافرين، وقرَّرت أن الْهُدَى والضلال بيد الله تعالى، وأن الجدال والانحراف عن منهج الله طريق أهل الضلال، وينتهي هذا الشوط بالآية (٢٤) وهو أشبه ما يكون بالقرآن المكي.

والشوط الثاني من السورة: يتناول الحديث عن المسجد الحرام، وبناء البيت العتيق، وتعظيم حرمات الله وشعائره، وتطهير البيت من رجْس الشرك.

وفصَّلت السورة القول في الهدْي والأضاحي، وينتهي هذا الشوط بالإذن للمؤمنين

(١) «زاد المسير» لابن الجوزي (٥/ ٤٠٢).

الذين أُخرجوا من ديارهم في القتال، وهي أول آية تأذن بالقتال بعد قيام دولة الإسلام في المدينة، وينتهي هذا الشوط بالآية (٤١) وهو أشبه ما يكون بالقرآن المدني.

أما الشوط الثالث من السورة: فيعرض أمثلة من مصارع المكذبين، ومشاهد القرى المدمرة ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ وهو درس للمكذبين برسالة الإسلام في كل زمان ومكان، وفيه بيان لسنة الله في خلقه، وفيه أيضًا تسرية عن الرسول ﷺ، وهذا القسم أشبه ما يكون بالقرآن المكي وينتهي بنهاية الربع الثالث من السورة.

أما الربع الأخير: فهو يمثل الشوط الرابع في السورة، وهو يتناول جانب التوحيد وبطلان ما يُعبَد من دون الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [٧٢]، إلى جوار دلائل القدرة في صفحات الكون، وفي بداية هذا الربع بيان وعد الله تعالى بنصر من يقع عليه البغي، ويدفع العدوان عن نفسه.

أبرز موضوعات السورة:

١- ومن أبرز ما تناولته السورة أنها أمرت الناس في بدايتها بتقوى الله تعالى، وخشية يوم الحساب والجزاء، ثم بيَّنت أنواع الناس في هذه الحياة وعاقبة كل نوع: فمنهم من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد، ومنهم من يشك في البعث ويرتاب، ومنهم من يكابر ويجحد على غير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ومنهم من يعبد الله على حرف، وفي خلال ذلك تنطق الآيات بدلائل التوحيد، والبعث، والنشور.

٢- ثم يعقُب هذا التنويع من اختلاف أحوال الناس، بشارة للمؤمنين بجنات تجري من تحتها الأنهار، وأن على غير المؤمن الذي يظن أن الله تعالى لن ينصر دينه وكتابه، أن ينتحر ويخْنق نفسه بحبل، فإن الله تعالى مُعْلٍ كلمته، وناصرٌ نبيَّه لا محالة، وليذهب هو إلى دار الجحيم.

٣- وبعد أن بيَّنت السورة انقياد جميع المخلوقات لله تعالى عقَدتْ مقارنة بين خصوم الإسلام وأوليائه، وبيان ما أعده الله للفريقين من جزاء عادل، وذلك في قوله تعالى:

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْۖ﴾ إلى نهاية الآية الثالثة؛ فقد جاء في الصحيح: أنها نزلت في غزوة بدر في مبارزة حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، لشيبة وعتبة ابني ربيعة، والوليد بن عقبة، وكان أبو ذر يقسم على ذلك.

٤- ثم تحدثت السورة عن بناء البيت وفريضة الحج وأحكام البُدْن، وذلك من الآية الخامسة والعشرين إلى الآية السابعة والثلاثين. والآيات الأربع بعد ذلك تحدثت عن مشروعية القتال في الإسلام، وأسباب التمكين للأمم الصالحة في الأرض. وفي عشر آيات بعد هذه الآيات الأربع بيان لمصير الأمم التي كذَّبت رُسل الله تعالى في وعيد صريح لكل من يكفر بخاتم المرسلين.

٥- وأعقب ذلك حديث عن قصة الغرانيق التي جاء ذكرها في سورة النجم، وهي هنا من الآية الثانية والخمسين إلى الآية السادسة والخمسين.

٦- وقبل الحديث عن الشرك بالله تعالى وضرْب المثل له، تذكر السورة في مطلع الربع الأخير منها عَشْرٌ من دلائل التوحيد وخصائص الإلهية، ومنها إيلاج كل من الليل والنهار في الآخر، وإمساك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذن الله، وأن الإحياء والإماتة بيد الله تعالى إلخ.

٧- وختمت السورة بتذكير الناس بنعم الله عليهم، وبيان أن الله تعالى اصطفى من الملائكة رسلًا ومن الناس، وأنه سبحانه قد ارتضى لنا الإسلام دينًا، وأن إبراهيم ﷺ سمَّانا المسلمين في هذا القرآن وقبله، وأن الرسول سيشهد على هذه الأمة بالبلاغ، وقد اختار الله هذه الأمة لتشهد على سائر الأمم أن رسلهم قد بلَّغتهم، فوجب عليها أن تُوثِّق الصلة بالله، وأن تستمسك بحبله، وتستعين به في كل أمورها.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

فِي أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

١ - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾

ابتدأت السورة بنداء من الخالق إلى عموم الخلق، وهو نداء رهيب ترتجف له القلوب، مثير للذعر، يحمل في ثناياه بعض أهوال يوم القيامة، وقد بيَّنت السُّنَّة أن الزلازل تهيج قبيل قيام الساعة، ومعها براكين تَلْفِظُ ما في الأرض من معادن يلتقطها الناس وهم زاهدون فيها، كأن هذه الزلزلة صحوة الموت، أو انتفاضة الوداع الأخير، ويومئذ تتفطر السماء، ويتكور الشمس والقمر، وتنتثر النجوم، ويحدث من الأهوال والفزع ما تتصدع له القلوب، وتطير له الأفئدة، وتشيب منه الولدان، وتذوب منه الصِّلاب.

والآيات الخمس الأولى من سورة (الحج) نزلت على رسول الله ﷺ في السفر ليلًا في (غزوة بني المصطلق) سنة أربع أو خمس من الهجرة؛ حيث تَقدَّم بعض أصحابه على بعض في السيْر، فناداهم وجمعهم حوله، وقرأ عليهم الآيات الخمس الأُوَل، فلم يُر أكثر بكاء من هذه الليلة، فلما أصبح أصحاب النبي ﷺ لم يحُطُّوا الرحال، ولم يضربوا الخيام، ولم ينصبوا القدور، ورآهم النبي ﷺ على هذه الحال حتى وقت الصباح، بين باكٍ وحزين متفكر، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أتدرون أي يوم هذا**»؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هذا يوم القيامة**»، وذكر النبي عليه الصلاة والسلام الحديث الذي جاء بطرق وألفاظ متعددة:

١ - منها رواية الصحيحين: عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله ﷻ يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تُخرج من ذريتك بعثًا إلى النار، قال: يارب، وما بعْثُ النار؟ قال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد** ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فشقَّ ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، فقال النبي ﷺ: «**مِن يأجوج ومأجوج تسع مئة وتسعة وتسعين، ومنكم واحد، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة**

البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: ثلث أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: شطر أهل الجنة، فكبرنا»[١].

٢- وفي حديث أنس بن مالك ﷺ قال: نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١﴾ على النبي ﷺ وهو في مسير له، فرفع صوته حتى ثاب إليه أصحابه، ثم قال: **«أتدرون أي يوم هذا؟ يوم يقول الله جل وعلا لآدم: يا آدم، قم فابعث بعث النار، مِن كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين»**، فكبُر ذلك على المسلمين، فقال النبي ﷺ: **«سدِّدوا وقاربوا وأبشروا، فوالذي نفسي بيده، ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير، أو كالرقمة في ذراع الدابة، وإن معكم لخليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثَّرتاه: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من كَفَرةِ الجن والإنس»**[٢].

٣- وفي الحديث عن ثوبان ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ويدخل الجنة سبعون ألفًا بدون حساب»** قال عمر: يا رسول الله، سبعون ألفًا؟ قال عليه الصلاة والسلام: **«ومع كل واحد منهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب»**[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هذا خطاب للناس كافة، المؤمن والكافر، العربي والعجمي، اليهودي والنصراني وغيرهم من سائر الملل والنحل، من وُجد منهم بالأمس في الأحقاب الماضية، ومَن هم في هذا الزمن، ومَن يوجد منهم إلى يوم القيامة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ الذي ربَّاكم بنعمه الظاهرة والباطنة، اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية، بامتثال أمره واجتناب نهيه، خافوا من الجليل، واعملوا بالتنزيل، واستعدوا ليوم الرحيل، واحذر - أيها العبد - أن يراك الله حيث نهاك، وأن يفتقدك حيث أمرك،

---

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» (٣٣٤٨، ٤٧٤١، ٧٤٨٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٢) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٣٩) والبزار في «كشف الأستار» برقم (٢٢٣٥) و«المسند» (٤/ ٤٣٢، ٤٣٥) برقم (١١٢٨٤).

(٢) «صحيح ابن حبان»، الإحسان برقم (٧٣٥٤) قال محققه: صحيح على شرط الشيخين، و«المستدرك» (٤/ ٥٦٦) قال الحاكم: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وعزاه الهيثمي لأبي يعلى وقال: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن مهدي وهو ثقة، «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٩٤).

(٣) ينظر الحديث بنحوه عن ثوبان في صحيح الجامع الصغير برقم (٥٣٦٦).

وسارعْ إلى فعل الخير، وصُنْ نفسك عن كل ما يغضب الله تعالى، واعمل بطاعة الله واحذر عقابه، واترك الشرك والفسوق والعصيان.

ثم ذكر سبحانه ما يعينهم على التقوى ويحذرهم من تركها، وهو الإخبار بأهوال القيامة.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ إن ما يحدث عند قيام الساعة من أهوال وحركة شديدة للأرض تتصدع منها كل جوانبها فترجُف، وتُزلزل، وتتصَدّع، وتندك، وتكون كثيبًا مَهيلًا، ثم هباءً منثورًا، وعندئذ تنفطر السماء، وتُكور الشمس والقمر، وتنتثر النجوم، ويحدث من الأهوال ما تنصدع له القلوب، وتشيب منه الولدان، وهذا شيء عظيم، لا يقدر قدره ولا يبلغ كنهه إلا الله سبحانه.

١- قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ [الزلزلة] أي: حملها الذي في جوفها.

٢- وقال أيضًا: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ [النازعات].

٣- وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾ [المزمل].

٤- وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾ [الحاقة].

٥- وقال سبحانه: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ [الواقعة].

هذه الرجفة شيء عظيم، تشيب منها رؤوس الأطفال، وفي هذا اليوم يحدث الانقلاب الكوني الهائل، فترى الأرض غير الأرض والسموات.

وهل هذه الزلزلة تكون قبل قيام الساعة، أو عند القيام من القبور؟ الله أعلم، والأصح أنها تكون مصاحبة لقيام الساعة، حين تُشْرف الدنيا على الفناء، حيث يحدث هذا التغيير في الكون، عند النفخ في الصور للمرة الثانية، فتُبدَّل الأرض غير الأرض والسموات، وتُرَجُّ الأرض رجًّا، وتُبَسُّ الجبال بسًّا. قال تعالى:

٢- ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا

وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ[1] وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾

ويمضي تفصيل هذا الهول بما يزيد شدة الرهبة، فتذكُر هذه الآية **ثلاث حالات** من مظاهر الفزع والرعب:

الحالة الأولى: أن كل أُمٍّ تغفل عن وليدها الذي أرضعتْه، فتنسى الوالدة رضيعها الذي ألْقَمَتْه ثديها؛ لِمَا نزل بها من كرب، فهي تنظر إلى ولدها ولا تراه، كأنها لا تحس به ولا تعرفه، إنها تتحرك ولكنها لا تعي، مع أن الأم مجبولة على حب ولدها، خاصة وهو طفل رضيع، إن رهبة الموقف أذهلَتْها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس] وذلك من الدهشة والحيرة والاضطراب.

الحالة الثانية: أن المرأة الحامل عند قيام الساعة تضع ما في بطنها قبل تمام مدة الحمل، وتُسقطه من شدة الخوف والفزع والهول.

الحالة الثالثة: أنك ترى الناس كأنهم سكارى من الحال الذي هم فيه وكأن عقولهم غائبة، فهم كالسكران الذي يترنّح كأن عقله قد ذهب، وفكْرَه قد سُلِب.

ويقرب من هذه الحالة، أنك إذا ذهبْت إلى جهة قضائية، مَحْكَمةٍ أو نحوها، والناس في انتظار الدخول على القاضي، فإنك تجد الخصوم في حالة ذهول، الوجوه مكْفهرة، الجميع غارق في التفكير، ماذا يقول؟ بماذا يجيب؟ ينتظر ماذا سيصير في قضيته؟ وماذا سيقول للقاضي؟ وما حجة الخصم؟

إنه في هذه اللحظة لا يذكُر أهله ولا ماله ولا ولده، وقضيته قد لا تكون لها أهمية كبيرة، وقد تكون القضية زُورًا، ولكن الهمَّ يُشغله ويستولي على فكره.

وقُل مثلَ ذلك قبيل دخول الطلاب صالة الامتحان، ونحو ذلك من أمور الحياة، وإذا كان الأمر كذلك في الدنيا، فما بالكم بهذا الموقف العظيم، حيث ترى الناس فيه سكارى من شدة الفزع والخوف والهلع، وليسوا بسكارى من الخمر أو السكر ونحوه، ولكن شدة العذاب أفقدتْهُم عقولهم وإدراكهم؟! فقد بلغت القلوب الحناجر، وشخصت

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بفتح السين وإسكان الكاف وحذف الألف من (سكارى)، فتقرأ (سَكْرَى) والباقون (سُكَارى) بضم السين وفتح الكاف وألف بعدها، وكلاهما جمع سكران.

الأبصار، وخشعت الأصوات، وذلة الوجوه، ونُصبت الموازين، ونشرت الصحف، ونُصب الصراط على متن جهنم، وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين.

وعندئذ يندم الظالم، لأنه لم يسلك طريق النجاة، وسار في ركب الشيطان وحزبه، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان] ويومئذ تسودّ وجوه وتبيض وجوه، ويُسمع لجهنم تغيظ وزفير ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان] ويومئذ يقال لأهل الشقاء: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] والمتقون في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم.

عن عائشة ﵂ قالت: قلت: يا رسول الله، هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟ قال: **«يا عائشة، أما عند ثلاث فلا: أما عند الميزان حتى يثقُل أو يخف فلا، وأما عند تطايُر الكتُب، فإما أن يعطى بيمينه وإما أن يعطى بشماله فلا، وحين يخرج عُنُق من النار فينطوي عليهم، ويتغيظ عليهم، ويقول ذلك العُنق: وُكِّلْت بثلاثة، وُكِّلْت بثلاثة، وُكِّلْت بثلاثة، وُكِّلْت بمن ادَّعى مع الله إلهًا آخر، ووُكِّلْت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووُكِّلْت بكل جبار عنيد، قال: فينطوي عليهم، ويرميهم في غمرات، ولجهنم جسر أدق من الشعر، وأحدُّ من السيف، عليه كلاليب وحسَك، يأخذْن من شاء الله، والناس عليه كالطَّرْف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل، والرِّكاب، والملائكة يقولون: ربِّ سلِّم سلِّم، فناجٍ مُسَلَّم، ومخدُوشٌ مُسَلَّم، ومُكَوَّرٌ في النار على وَجهه»**[١].

ومعنى (فينطوى) أي يحبط بهم، ومعنى (كالطرف) أي كردِّ الطرف، أي العين.

و (مسلّم) أي سَلِم من السقوط في النار.

---

(١) «المسند» (٦/ ١١٠) برقم (٢٤٧٩٣) بإسناد ضعيف وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٥٨) وقال: فيه ابن لهيعة وهو ضعيف، وقد وُثق، وبقية رجاله رجال الصحيح.

أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ مِنَ النَّاسِ: الصِّنْفُ الأَوَّلُ: جَاهِلٌ مُقَلِّدٌ

٣- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣﴾

ذكرت سورة (الحج) أربعة أصناف من الناس: صنفان من أهل الكفر - والعياذ بالله - وصنف منافق، وصنف من أهل الإيمان. وهذه الأصناف الأربعة ترجع إلى فريقين: فريق يؤمن بالله واليوم الآخر، وليس عنده ريب في البعث والنشور، وفريق كافر يجادل في أدلة البعث والنشور مكابرة وعنادًا.

وقد ذكرت السورة أن هذا الفريق الكافر ثلاثة أصناف، الصنف الأول جاء ذكره في هذه الآية، والصنف الثاني جاء في الآية الثامنة، والصنف الثالث جاء في الآية الحادية عشرة، وهو فريق منافق. أما الفريق المؤمن فقد جاء في الآية الرابعة عشرة، وهو الصنف الرابع من أصناف الناس:

والمعنى: أن الناس تجاه الأمر بتقوى الله تعالى فريقان: فريق امتثل أمر الله سبحانه فخافه وخشي عذابه، وفريق عارض وجادل في وحدانية الله تعالى، وفي صِدْق رسالة محمد ﷺ، وهؤلاء هم أئمة الشرك وزعماء الكفر الذين ضلُّوا وأضلوا، فهم يُخاصِمون ويُشكِّكون في قدرة الله تعالى على البعث والنشور، جهلًا منهم بحقيقة هذه القدرة، واتباعًا لأئمة الضلال، من كل شيطان متمرد على الله ورسله.

والصِّنف الأول من أهل الكفر: ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾: وهم الذين يُقلِّدون غيرهم من قادة الكفر والبدع ويتبعونهم في الضلال، من شياطين الإنس والجن من غير نظَر، ولا إعمال فكر، ولا بصيرة، فهم ينكرون البعث والدار الآخرة، ويَطْعَنون في القرآن الكريم، ويقولون: إنه أساطير الأولين، وينسبون إلى الله سبحانه الشريك والولد، وهم الذين وصفهم الله سبحانه في هذه الآية بأنهم يجادلون في الله بغير علم، ويتبعون كل شيطان مريد من كل مقلد تابع لغيره في الكفر والضلال، فهم يجادلون بالباطل، لإحقاق الباطل وإبطال الحق، والحال أنهم في غاية الجهل، يقلدون أئمة الضلال، وكل شيطان متمرد على الله وعلى رسله.

وهكذا كل من أشرك بالله، أو كذَّب رسول الله، أو طَعن في القرآن وصحيح السُّنَّة،

أو أنكر قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، والبعث والنشور. سواء أكان ذلك في وقت نزول القرآن، أو في سائر الأزمنة والأمكنة.

ففي وقت النبي ﷺ كان منهم: النضر بن الحارث، والعاص بن وائل، وأبو جهل، وغيرهم، فقد كانوا يكذِّبون الرسول والقرآن، ويستبعدون إحياء الناس بعد مماتهم، وينكرون البعث والنشور، وينسبون لله البنات، ويقولون: القرآن أساطير الأولين، والأمثلة أكثر من أن تحصى.

وهذا أول صنف من الناس في هذه الآية: وهم من يجادل في الله بغير علم، سواء أكان هذا الجدال في وجود الله تعالى، أم في وحدانيته، أم في صفة من صفاته تعالى، أم في قدرته، أم في علمه، أم كان جدالًا في القرآن، أم في صاحب الرسالة ﷺ، فكله جدال بدون مستند شرعي، ولا دليل عقلي، وصاحبه مقلد، متبع لغيره، ومتبع لهواه وشيطانه، فهو متبع لكل شيطان مريد، قد شاق الله ورسوله.

والذي يتّبع الهوى والشيطان كأنه اتخذ الهوى إلهه، واتخذه معبودًا له من دون الله، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]. فهو متبع لهواه، ومقلد لأهل الضلال، يتبع شياطين الإنس والجن.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان].

ويدخل في هذا الوعيد والذم جميع أهل البدع والضلال، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، ولأقوال وأفعال من سبقهم من أهل الضلال والبدع والأهواء:

١- ومن الآيات الدالة على ذلك، قوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

٢- وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ [الشورى].

٣- وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ

﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

٤- وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس].

٥- وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾ [النحل].

ومفهوم المخالفة في الآية، أنَّ مَنْ جادل بعلم على ضوء هذي الكتاب والسُّنَّة ليحق الحق أو يبطل الباطل، فهو جدال محمود، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

والجدال: هو المنازعة، والمخاصمة، والمغالبة. وكل من الطرفين يحاول أن يقوِّي رأيه، ويُضْعِف حجة الآخر، والجدال بغير علم هو الذي يغلب عليه العناد والجهل.

قال تعالى في وصف هذا الجاهل المجادل:

٤- ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾

بيَّن سبحانه سوء عاقبة المجادل بالباطل، المتبع لشياطين الإنس والجن، فقد قضى الله وقدَّر على هذا الشيطان أنه يُضل كل من اتبعه، ولا يهديه إلى الحق، بل يسوقه إلى عذاب جهنم الموقدة.

وهذه الآية فيها **ضمائر ستة**: **الأول**: في ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ **والثاني في**: ﴿أَنَّهُۥ﴾ **والثالث**: في ﴿فَأَنَّهُۥ﴾ وهذه الضمائر الثلاثة تعود على الشيطان المذكور في نهاية الآية السابقة، أي: أن الله تعالى كتب وقدَّر على الشيطان إغواء بني آدم وإضلالهم.

والضمير الرابع: في ﴿مَن تَوَلَّاهُ﴾، **والضميران الخامس، والسادس في**: ﴿يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ﴾ وهذه الضمائر الثلاثة تعود على الاسم الموصول ﴿مَن﴾ في الآية، وهو الذي يتخذ الشيطان وليًّا، ممّن جمع بين ضلاله لنفسه، وتصدِّيه لإضلال غيره، وهو متبع ومقلد لكل شيطان متمرد، فهي ظلمات بعضها فوق بعض.

وقد رتب سبحانه استحقاق عذاب السعير على من تولى الشيطان واتبع خطاه ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: قدَّر الله على هذا الشيطان المتبوع ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: أن الذي اتبع الشيطان واتخذه وليًّا وقدوة له ﴿فَأَنَّهُۥ﴾ أي: أنّ الشيطان ﴿يُضِلُّهُۥ﴾ أي: يُضل من اتّبعه

﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: ويقود من اتبعه إلى طريق النار المستعرة، فيبعده عن الحق، ويجنبه الصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]

وقضاء الله وقدرُه في الهدى والضلال معناه: حصول ووقوع علم الله السابق في الأزل، وانكشافه للخلق، وظهور أن هذا العبد سيختار بنفسه طريق الهدى، عندما يكون مكلفا وذاك العبد سيختار طريق الضلال، وأن علم الله تعالى بما كان وما سيكون قد سجل ذلك في أم الكتاب؛ لإقامة الحجة على العباد في يوم التناد.

دَلِيلُ إِمْكَانِيَّةِ الْبَعْثِ: فِي أَطْوَارِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَإِخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ

٥- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ[1] وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾

يقيم سبحانه في هذه الآية، الأدلة على أهم القضايا التي يجادل فيها المكذبون بغير علم، متبعين خطوات الشيطان، ممن أنذرهم الله بالزلزلة، وهي **قضية البعث**.

وللدين الإسلامي ركنان أساسيان، وعليهما تُبنى الفروع:

فالأساس الأول: هو توحيد الله تعالى.

والأساس الآخر: هو الإيمان باليوم الآخر.

ولأن قضية البعث هي الركن الثاني من أركان الإيمان، فالقرآن الكريم كثيرًا ما يركِّز عليها ويذكُر عليها الأدلة، ويَضْرِب لها الأمثلة، ويقيم القرآن دائمًا في كثير من آياته دليلين عقْليَّيْن على إمكانية البعث، يُصَدِّق بهما المؤمن والكافر:

---

(١) قرأ أبو جعفر (وربأت) بهمزة مفتوحة بعد الباء، يقال: فلان يربأ بنفسه، أي: يرتفع، وقرأ الباقون بدونها، من ربا يربو بمعنى: زاد.

أحدهما: الاستدلال بابتداء خلق الإنسان على إعادته **وثانيهما**: إحياء الأرض بعد موتها:

فقد يخاطب الداعية شخصًا لا يعترف بالقرآن ولا بالرسالة، وهذا الشخص يريد دليلًا منطقيًّا عقليًّا على إمكانية البعث؛ لأنه لا يؤمن بكتاب ولا سُنَّة، ولذا فإن القرآن الكريم يأتي بالأدلة العقلية المنطقية، فيبيِّن أن المنكِر للبعث، عليه أن ينظر في أمرين، كي يستدل بهما على أن البعث أمر ممكن عقلًا:

ينظر أولًا: في نفسه، كيف خلق الله تعالى هذه الأجنة، التي تتكون في الأرحام في كل لحظة؟ مَن الذي خلقها؟ من الذي أوجدها من العدم، ثم طَوَّرها؟ وكيف تتحول من حال إلى حال، إلى أن يصير الإنسان بشرًا سويًّا؟ عليه أن ينظر في نفسه، كيف خُلِق؟ فيهتدي بهذا إلى معرفة الخالق سبحانه، ويهتدي أيضًا إلى الإيمان بالبعث والنشور، وأن الذي خلقه أولًا قادر على أن يعيده ثانية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

والأمر الآخر: الذي يُستدل به على البعث والنشور، أن ينظر الإنسان في الأرض التي يقف عليها، ويأكل منها، ومنها طعامه وغذاؤه وشرابه، كيف يحيي الله الأرض بالماء بعد موتها فتُخرج الزرع والثمر؟ وكيف أن هذه الأرض حملت البذور، وجذور النبات والزرع والشجر في جوفها، كما حَملَت المرأة بالجنين؟ وكيف أنها تَلقَّحتْ بالماء كما تَلقَّح رَحِم المرأة بنطفة الرجل؟ وكيف أن النبات خرج من الأرض كما خرج الجنين من فرْج المرأة؟ وأن القادر على إخراج النبات من الأرض قادر على إحياء الناس بعد موتهم.

فهذان مثَلان يُقرِّب بهما القرآن قضية البعث إلى أذهان البشر، ويذكُرُهما في كثير من مواطنه، **وهما**:

أولًا: الاستدلال بالخلق الأول على الإعادة؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق].

ثانيًا: الاستدلال بإحياء الأرض بعد موتها، وقد اشتملت الآية التي نحن بصددها على الأمرين معًا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: يا معاشر الجاحدين المنكرين للبعث، إن كنتم شاكِّين في قدرتنا على

البعث، فتأملوا وانظروا في أصل خَلْقكم ليزول شكُّكم، ويذهب عن قلوبكم الريب.

والشك في البعث أو جحوده، أساسه الغفلة الشديدة، والانغماس في لهو الدنيا، وسيطرة الماديات على حياة الناس، وانقطاع الصلة بين هذا الفريق من الناس وبين علاقتهم بربهم.

إنه نداء يوقظ العقل الخامل، ويقتل الريبة التي تخامر العقل، فيقول تعالى لمنكري البعث: لا تذهبوا بعيدًا، بل انظروا في أنفسكم فإنا خلقناكم من أطوار سبعة هي: التراب، والنطفة، والعلَقة، والمضغة، والإخراج طفلًا، وبلوغ الأشُد، والتَّوفِّي، أو الردُّ إلى أرذل العمر.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًاۚ﴾ [غافر: ٦٧]. وهو ما بعد الأشد ودون أرذل العمر؛ إذ يكون الإنسان شيخًا في الستين أو السبعين من العمر، وهو بكامل قوته العقلية، وقوته البدنية لا بأس بها، وها هي **الأطوار السبعة**:

الطور الأول: هو التراب: فأبوكم آدم خلقه الله من تراب، وخلق منه زوجه حواء، وخلق الذرية من التناسل بينهما، إلا عيسى عليه السلام، فقد خُلق كما خلق آدم، بكلمة (كن) والنفخ فيه من روح الله تعالى.

ومرجع خلْق ذرية آدم إلى التراب؛ فقد خلقهم الله من النطفة، والنطفة من الغذاء، والغذاء من الأرض والتراب، فالنتيجة واحدة، وهذا معنى ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ أي: خلقنا أباكم آدم ﴿مِّن تُرَابٍ﴾. فكيف تحوَّل التراب إلى غذاء؟ وكيف تحوَّل الغذاء إلى دمٍ، وإلى ماء فيه حيوانات منوية؟!

الطور الثاني: هو النطفة: فقد خلق الله ذرية آدم من نطفة منيٍّ قذرة تشمئز النفس منها ومن رائحتها.

والنطفة: اسم لماء الرجل، وسميت كذلك لقلتها، كقطرة الماء، والمراد به هنا: الماء المختلط بين الرجل والمرأة عند الجماع، وهو ما يعبر عنه بالمني والبويضة، وهذا الاختلاط يحدث من التقاء ماء الرجل بماء المرأة بعد انتهاء مدة الحيض عند المرأة، فتمتزج النطفة بالبويضة، وتأخذ طريقها إلى رحم المرأة، حيث يتكون الجنين، وتستمر هذه النطفة، لمدة أربعين يومًا، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود الآتي ذكره.

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة].

وقال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المرسلات].

الطور الثالث: هو العلَقة: حيث تتحول هذه النطفة إلى علَقة، وهي قطعة دم جامدة حمراء، كالدودة تلتصق بجدار رحم المرأة، وتعلَق به، وتستمر العلقة لمدة أربعين يومًا أيضًا.

الطور الرابع: هو المضغة: حيث تتحول هذه العلَقة في طورها التالي إلى مضغة، أي: قطعة من اللحم قدر ما يمضغه الإنسان، وهذه المضغة منها ما يُخلَّق، يُنفخ فيه الروح، ويصير بشرًا سويًّا، قد تشكَّلَ وجهه وأطرافه، ومنها ما لا يُخلَّق، فلا يكتمل نموه، وهذا معنى ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ كمال قوتنا وقدرتنا وحكمتنا في هذا التدرج، ولنبيِّن لكم أصل نشأتكم، مع قدرتنا على تمام هذه الأطوار في لحظة واحدة، والقادر على ذلك قادر من باب أولى على إعادة ما بدأه.

والله تعالى يُثبِّت في أرحام الأمهات، من هذه النطفة والعلَقة والمضغة ما يشاء، فمنها الذي يبقى، فلا يسقط من رحم المرأة، إلى أجل مسمى، هو وقت الولادة، بعد حَمْله تسعة أشهر غالبًا، ومنها الذي يسقط قبل الولادة، وقبل أن تظهر صورته الإنسانية.

الطور الخامس: هو الطفل: حيث يأتي الملَك الموكل بالأرحام إلى المضغة المخلَّقة، فينفُخ فيها الروح، وَيَكْتُب رزقه وأجله وعمله، وشقيًّا أو سعيدًا، فنخرجكم من بطون أمهاتكم طفلًا سويًّا كامل الخَلْق، بيديْن ورجليْن، وسمْع وبصَر، وعقل، وغير ذلك، وقد سخرنا لكم الأمهات وأجرينا الغذاء في ثدييها، وملأْنا قلبها بالحب والحنان.

الطور السادس: بلوغ الأشُد: وكمال النموِّ البدني والعقلي، حيث تنتقلون طورًا، بعد طور حتى تبلغوا أشدكم، وهو كمال العقل والقوة، بعد أن كنتم ضعافًا صغارًا لا تعلمون شيئًا.

الطور السابع: الوفاة: قد يكون ذلك في سن الصِّبا أو الشباب قبل بلوغ الأشُد، ومنكم من يهرم وتتقدم به السن حتى يصل إلى أرذل العمر وأخسِّه، فيعود كما بدأ في طفولته؛ لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا، فتضعف قواه العقلية، ويضعف بدنه، وتضعف ذاكرته، فيعتريه النسيان والخلْط بين المعلومات، ولا يقبل الجديد من المعارف والعلوم بيسر وسهولة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

نسأل الله أن يحفظ علينا أسماعنا وأبصارنا وقواتنا، وألا نُرَدَّ إلى أرذل العمر؛ لكيلا نعلم بعد علم شيئًا، وألا نكون ممن قال تعالى فيهم: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [يس: ٦٨].

١- وأطوار الجنين في بطن أمه قد جاءت في حديث ابن مسعود ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «**إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرسَل الملَك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتْب رزقه وأجله وعمله وشقي وسعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»(١).

ومعنى «**فيسبق عليه الكتاب**» أي: ينكشف للخلائق علم الله تعالى السابق في الأزل، بالنسبة لخاتمة هذا الإنسان.

ولذا أَسْنَدَ الحديث العمل إلى العبد، فقال: «**فيعمل بعمل أهل الجنة**»، أو «**يعمل بعمل أهل النار**».

٢- وفي حديث حذيفة بن أَسِيد الغفاري ﷺ يبلغ به النبي ﷺ قال: «**يدخُل الملَك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة، فيقول: أي رب، أَشَقِيٌّ أم سعيد؟ فيقول الله، ويُكْتَبان، فيقول: أذكر أم أنثى؟ فيقول الله، ويُكْتَبان، ويُكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تُطوَى الصحف، فلا يُزاد على ما فيها ولا يُنقص**»(٢).

٣- وأخرج الطبري بسند صحيح إلى عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «**إذا وقعت النطفة في الرحم، بعث الله ملَكًا فقال: يا رب مخلَّقة أو غير مخلَّقة؟ فإن قال: غير مخلَّقة؛ مجَّتها**

---

(١) يُنظَر: «صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٣) والبخاري برقم (٣٢٠٨، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤) وأبو داود (٤٧٠٨) والترمذي (٢١٣٧) والنسائي في الكبرى (١١٢٤٦) وابن ماجه (٧٦) والبيهقي (١٨٧) و«المسند» (٦/ ١٢٥) برقم (٣٦٢٤، ٤٠٩١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما قال ابن كثير (٥/ ٣٩٦) وهو في «المسند» برقم (١٦١٤٢) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه) ورواه مسلم عن الطفيل بنحوه كما في «صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٤) وأخرجه الحميدي (٨٢٦) والطبراني في الكبير (٣٠٣٩) وابن أبي عاصم في السنة (١٨٠).

الأرحام دمًا، وإن قال: مخلَّقة؛ قال: يارب، فما صفة هذه النطفة: أذَكَر أم أنثى؟ ما رزقها؟ ما أجلها؟ أشقي أم سعيد؟ قال: فيقال له: انطلق إلى أم الكتاب، فاستنسخ منه صفة هذه النطفة، قال: فينطلق الملَك، فينسخها، فلا تزال معه حتى يأتي على آخر صفتها»[1].

ومن الآيات الجامعة لأطوار خلْق الإنسان، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون].

وجاء بعض هذه الأطوار في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر].

وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ﴾ [الزمر: ٦]. هي: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة.

والله ﷻ يدعونا إلى التأمل في خلْق الإنسان، مَن خالق الحيوان المنوي؟ ومَن الذي يحوِّله في أطواره المتتابعة حتى يكون جنينًا مكتمل الحواس؟ ومن الذي يخرجه من بطن أمه بعد ذلك؛ لتتعامل رئتاه مع هواء الدنيا، ولتتعامل عيناه مع الأشعة والأضواء؟ ومَن الذي زوَّده بالخصائص الوراثية المؤهلة؟ وهذا حال الألوف من الأجنة التي تأتي إلى الدنيا في كل ساعة من ليل أو نهار، لتبقى الحياة البشرية قائمة إلى أجلٍ لا يعلمه إلا الله.

ثم يأتي **الدليل الثاني** على إمكانية البعث، وهو الاستدلال بهذه الأرض، كيف تنتقل من حال إلى حال؟ فانظر أيها المنكِر للبعث في هذه الأرض، كما نظرتَ في نفسك، وتأمل، فأنت ترى الأرض يابسة قبل بذر النبات فيها، كرحم المرأة قبل وضع النطفة فيه، تراها جامدة ليس فيها شيء، بل هي خاوية هامدة ميتة، فإذا أنزل الله عليها الماء -كما نزلَتْ نطفة الرجل في رحم المرأة- اهتزت الأرض، فتحركت وارتفعت وزادت وأنبتت

(١) «تفسير الطبري» (١٧/ ١١٧) والحديث له حكم الرفع؛ إذ لا مدخل للرأي فيه، ويشهد له حديث ابن مسعود السابق في الصحيحين.

من كل زوج بهيج، حيث خرجت منها أصناف الزروع والخضراوات، والشجر، والنبات، ما يسر الناظرين ببهائه ورونقه، كما يخرج الأطفال من رحم المرأة.

واهتزاز الأرض تحرُّكُها إلى أعلى، وربت، أي: انتفخت من تفتُّق النبات والشجر.

فإحياء الأرض بعد موتها دليل على إحياء الناس بعد موتهم.

ولهذه الآية نظائر كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الروم: ٥٠].

أخرج الإمام أحمد عن أبي رُزين العُقَيْلي قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: «**أَمَرَرْتَ بأرض من أرضك مُجْدبة، ثم مَرَرْتَ بها مُخصبة**»؟ قال: نعم، قال: «**كذلك النشور**» الحديث[1].

إذ كيف ينشق الثرى عن الحبوب والفواكه؟ فلماذا نصدق هذا البعث بخروج النبات من الأرض، ونستبعد البعث الآخر؟ بخروج الإنسان من البرزخ فمِن هذا التراب الذي ندوسه بأقدامنا تخرج سنابل البرِّ والأرز حاملة للأغذية التي نعيش بها، وهي تحمل عناصر الحياة المختلفة للبدن.

هذا واقع لا يمكن إنكاره، كما لا يمكن إنكار الأجنَّة التي تقذف بها الأرحام في كل لحظة، والأجنَّة بعث، والنبات بعث، وكلاهما لا أثر فيه لقدرة بشر! فلِمَ نؤمن بهما، ولا نؤمن ببعث الناس بعد الموت؟! وكثيرًا ما استبعد بعض الخلق هذا البعث، فقالوا:

١- ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧].

٢- وقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

٣- وحكى الله تعالى قولهم في البعث: ﴿فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَا﴾ [الإسراء: ٥١].

(١) «المسند» (٤/ ١١). برقم (١٦١٩٤) من حديث طويل، قال محققوه: إسناده ضعيف، لأن الأشدق (سليمان بن موسى) لم يدرك أحدا من الصحابة، وبقية رجاله ثقات، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٥٣): رواه أحمد، وفي إسناده سليمان بن موسى، وثقه ابن معين وأبو حاتم، وضعفه آخرون.

٤- ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۝٤٩﴾ [الإسراء].

٥- وقالوا: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨].

٦- وهم ينفون ذلك تمامًا قائلين: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

٧- ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥].

فهذان الدليلان وهما: قياس الإعادة على البدء، وإحياء النبات بالماء، دليلان قطعيان على خمسة مطالب جاء ذكرها في الآيتين التاليتين، وهي:

١- أن الله هو الإله الحق، وعبادة غيره باطلة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾.

٢- وأنه كما ابتدأ الخلق، وأحيا الأرض، فإنه يحي الموتى ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾.

٣- وأنه قادر على كل شيء ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

٤- وأن قيام الساعة أمر مؤكد لا وجه لاستبعاده ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾.

٥- وأن الله يُخرِج من في القبور، ليحاسبهم ويجازيهم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾.

ومجمل معنى الآية: يأيها الناس إن كنتم في شك من أن الله يحيي الموتى، فإنا خلقنا أباكم آدم من تراب، ثم تناسلت ذريته من نطفة، وهي المني، يقذفه الرجل في رحم المرأة، فيتحول بقدرة الله تعالى إلى علقة، وهي الدم الأحمر الغليظ، ثم إلى مضغة، وهي قطعة لحم صغيرة قدْر ما يُمضغ، فتكون تارة مخلَّقة، أي: تامة الخَلق تنتهي إلى خروج الجنين حيًّا، وغير تامة الخلق تارة أخرى، فتسقط لغير تمام؛ لنبيِّن لكم تمام قدرتنا بتصرف أطوار الخلق.

ونُبقي في الأرحام ما نشاء، وهو المخلَّق إلى وقت ولادته، وتكتمل الأطوار بولادة الأجنة أطفالًا صغارًا تكبر حتى تبلغ الأشُد، وهو وقت الشباب والقوة واكتمال العقل، وبعض الأطفال قد يموت قبل ذلك، وبعضهم يكبر حتى يبلغ سن الهرم وضعف العقل، فلا يعلم هذا المعمَّر شيئًا مما كان يعلمه قبل ذلك.

وترى الأرض يابسة ميتة لا نبات فيها، فإذا أنزلنا عليها الماء تحركت بالنبات، تتفتح عنه،

وارتفعت وزادت لارتوائها، وأنبتت من كل نوع من أنواع النبات الحسن ما يَسُرُّ الناظرين[١].

خَمْسُ خَصَائِصَ لِلَّهِ تَعَالَى

٦- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾

وبعد النداء العاطفي في بدء السورة للعمل بطاعة الله تعالى، واجتناب معاصيه، وبعد النداء العقلي بقيام الأدلة على البعث بعد الموت في الآية الخامسة، تأتي ثلاث خصائص لله تعالى في هذه الآية، ويأتي بعدها في الآية التي تليها نتيجتان حتميتان لما سبق ذكره، لابد من التسليم بهما. وهذه **الخصائص الخمس** هي:

أولًا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: هو الموجود الثابت الذي لا مراء فيه، فهو سبحانه لا يحول ولا يزول، وهو صاحب الوجود المطلق، والغنى المطلق، فالله وحده هو الخالق لكل شيء، فهو المعبود بحق، وعبادة غيره باطلة ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]

إن خلْق الإنسان من تراب، ومراحل تكوين الجنين في بطن أمه، ومراحل تطور حياة الطفل بعد ذلك... كلها تشير إلى قدرة الله تبارك وتعالى، وتدل دلالة قاطعة على أن الله تعالى هو الذي يجب أن يتوجه إليه الخلقُ بالعبادة دون سواه.

وهذا الذي سبق بيانه من خَلْق الإنسان وفنائه، وإحياء الأرض بعد موتها بخروج النبات منها، هذا وغيره يحصل بسبب أن الله تعالى هو الإله الحق دون غيره، وهو الخالق المدبِّر، الفعَّال لما يريد، وفي هذا دليل واضح، وبرهان ساطع على وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة.

ثانيًا: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فهو وحده سبحانه الذي يعيد الحياة إلى الأموات، كما خلقهم أول مرة من العدم، وكما أحيا الأرض اليابسة فأنزل عليها الماء، وأخرج منها النبات والشجر، يُحْى من قُبر ومن يُقبر، ممن تقطَّعت أوصاله، أو أُحرق وذُرِّيَ في الهواء، أو صار ترابًا أو فحمًا، أو أُغرق في البحر، أو أكلته السباع، أو تفجّر في عبوة ناسفة.. الخ.

---

(١) «التفسير الميسر» ص ٣٣٢، نخبة من العلماء.

ثالثًا: ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فهو القادر الذي لا يعجزه شيء، لا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، وقدرته تعالى مطلقة، ومنها إعادة الحياة إلى الناس بعد موتهم، وإثابة المطيع منهم وعقاب العاصي. قال تعالى:

٧- ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾

رابعًا: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ هذه نتيجة حتمية لابد من الإقرار بها، وقد وعد الله بها، وهو سبحانه لا يُخلف وعده، فساعة البعث آتية، لاشك ولا مرية في هذا، وإن خفي علينا وقت قيامها لحكمة يعلمها الله تعالى.

خامسًا: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ أي: أن الله تعالى يبعث الموتى من قبورهم للحساب والجزاء، ويُحييهم من غير القبور كذلك، ممن هلك منهم بأية وسيلة من وسائل الفناء.

عن معاذ بن جبل ﷺ قال: من عَلِم أن الله تعالى هو الحق المبين، وأن الساعة آتية لاريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، دخل الجنة [١].

وجاء عن أنس ﷺ قال: من قال في كل يوم أربع مرات: أشهد أن الله هو الحق المبين، وأنه يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير، وأن الساعة آتية لاريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، صُرف عنه السوء[٢].

وكثير من الناس يؤمن بالبعث والنشور، ولكنَّ فريقًا من الناس يروْن أنهم جاؤوا إلى الحياة مصادفة، وأن مصيرهم مجهول، فلا آخرة عندهم ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب، وهذا الكفر بالله تعالى جهل فاضح، ولا يستند إلى أساس علمي أبدًا.

الصِّنْفُ الثَّانِي مِنَ النَّاسِ: كَافِرٌ مُكَابِرٌ مُعَانِدٌ

٨- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨﴾

جاء ذكر الكافر الجاهل المجادل في هذه الآية، ممن لا يكتفون بأنهم كفرة، بل إنهم يَدْعُون غيرهم إلى الضلال والإلحاد والكفر، وعن هذا الصنف من أهل الكفر يقول الله

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» ص ١٨٠ .

(٢) أخرجه الحاكم في تاريخه عن أنس يرفعه، كما في «الدر المنثور» (١٠/ ٤٢٥).

سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨﴾ إذ ليس عندهم دليل عقلي صحيح، ولا مستند شرعي من كتاب ولا سُنَّة على ما يزعمون من عدم البعث والنشور.

والكتاب المنير: هو كتب الشرائع: التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن.

ومن هذا الصنف المنصِّرون الذين ينسبون إلى الله سبحانه الشريك والولد، ويدْعُون الناس إلى ذلك، فهم قادة وأئمة في الشرك والكفر.

وكذلك المبتدع الذي يدْعو الناس لبدعته، ومنهم فرعون الذي يدَّعي الألوهية والربوبية ويدعو الناس إلى عبادته، والله ﷻ يبيِّن أن فرعون يَقْدم قومه يوم القيامة ويؤمهم؛ لأنه كان إمامًا وقائدًا لهم في الدنيا، ولذا فهو يتقدمهم إلى النار يوم القيامة ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ۝٩٨﴾ [هود].

وعلى رأس هذين الصنفين مشركو أهل الجاهلية المعاصرون للنبي ﷺ أمثال: النضر بن الحارث، والعاص بن وائل، وأبي جهل، وأُبَيّ بن خلف، والأخنس بن شريق.

والآية وصف للكافر المجادل بالباطل في توحيد الله تعالى وتصديق رسوله، والإيمان بكتابه، وهو يجادل بغير علم ولا بيان ولا حجة ولا برهان.

فهذه الآية تتحدث عن الكافر المجادل المتكبر، الذي يدعو غيره إلى الضلال، فهو ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ أما الكافر الذي سبق ذكره في الآية الثالثة من هذه السورة، فهو الكافر المجادل المقلِّد لأئمة الضلال، هذا هو الفرق بينهما، وكلاهما في وصف الكافر.

مِنْ صِفَاتِ الْجَاهِلِ الْمَغْرُورِ

٩- ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ[1] عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾

ولأن المجادل الجاهل لا يستند إلى حقيقة عقلية أو نقلية في جداله، فقد أثبت الله له الجهالة من جميع الجهات، فهو يلجأ إلى مظهر الكِبْر والصلَف والإعجاب، وهذه صورة

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بفتح الياء من (ليَضل) مضارع ضل اللازم، أي: ليضل هو نفسه، والباقون بضمها مضارع أضل المتعدي، والمفعول محذوف، أي: ليضل غيره.

الجاهل المغرور، يَلْوي عنقه كبرًا وإعراضًا عن الحق، وهذا معنى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ أي: لاوِيًا عنقه في تكبر ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليمنع الناس من الدخول في الإسلام، ويمنعهم من قبول الهدى.

وقد وصف الله المعرض عن آياته بقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [لقمان].

ووصف فرعون حين أعرض عن رسالة ربه بقوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الذاريات].

ومن وصايا لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨].

وتصعير الخد: هو الإشاحة بالوجه، والميل عن الناس تكبرًا.

ثم بيَّن سبحانه أن هذا المعاند المتكبر له عقاب في الدنيا وعقاب في الآخرة.

أما عقاب الدنيا فهو الخزي والهوان والصَّغَار والذلة والإهانة، وقد تحقق هذا لرؤساء الكفر في يوم بدر، فكان مصرع أبي جهل على يد غلاميْن من الأنصار، هما ابنا عفراء، وعَلا عبد الله بن مسعود على صدره وذبحه، ولم يكن يخطر على بال هؤلاء الثلاثة الاقتراب منه.

وهكذا أصاب الخزي النضر بن الحارث، فأُسر، ثم قُتل هو وعقبة بن أبي معيط، وسقط كل منهم صريعًا في المكان الذي حدده النبي ﷺ قبل المعركة، وخاطبهم ﷺ بعد أن تم وضعهم في القليب الذي دُفنوا فيه، وهو يقول: هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا، فقد وجدتُ ما وعدني ربي حقًّا ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ أي: إن لكل من أنكر البعث، ولم يؤمن بالله ورسوله، ذلًّا وهوانًا يلحق به في الدنيا، كما حدث لهؤلاء من الاندحار والفضيحة بين الخلائق، أما عقاب الآخرة فهو الإحراق في نار جهنم والعياذ بالله ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾. قال تعالى:

١٠ - ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾

أي ويقال للمجادل في الحق كبرًا وعنادًا: هذا الخزي في الدنيا، وهذا العذاب في

الآخرة؛ بسبب ما فعلتَ من المعاصي، واكتسبت من الآثام، وبسبب إصرارك على الجهل والعناد، والله تعالى لا يعذب أحدًا بغير ذنب، ولا يعاقب بغير جرم، بل هو سبحانه عادل في حكمه، رحيم بخلقه، ومن مظاهر عدله ورحمته: أنه يضاعف الحسنات، ويعاقب على السيئات، ويعفو عن كثير من ذنوب عباده.

والقرآن الكريم يَسْنِدُ جميع الأعمال إلى اليد؛ لأنها الجارحة التي يُزَاول بها أكثر الأعمال، فغلَبتْ على غيرها، ويدخل في هذا عمل القلب واللسان وغيرهما، والكفر من عمل القلب وليس من عمل اليد. ويقال عن الكافر يوم القيامة:

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان].

الصِّنْفُ الثَّالِثُ مِنَ النَّاسِ: مُنَافِقٌ مُذَبْذَبٌ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ

١١- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ[١] بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾

هذا نوع من الناس منافق، يربط إيمانه بما يصيبه من نفع وخير، فإن تحسنتْ أحواله المادية ولم يحصل له شيء من المكاره فهو مؤمن، وإلا أعلن تمرُّدَه وعصيانه، وهذا الصنف ربما يعاقبه الله، ولا يقيض له من الفتن ما يصرفه عن دينه.

ومعلوم أن حياة الإنسان في هذه الدنيا هي فترة اختبار وتمحيص، يتقلَّب فيما يحب ويكره، فإن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر.

ومن هذا الصنف هؤلاء الأعراب الذين كانوا يُقْدِمون إلى المدينة مهاجرين من ديارهم، فكان الواحد منهم يربط إيمانه بما يصيبه من أحوال.

وهكذا شأن أهل النفاق الذين يتظاهرون بالإيمان، وليسوا على عقيدة راسخة، ولا على إيمان ثابت، وإنما هم على حافَّة الهاوية، في شك وحيرة، ولا يوجد عندهم يقين في دينهم، كالذي يجلس على طرف الجبل، يوشك أن ينحدر أو يقع في أسفله، وهؤلاء

(١) قرأ الأصبهاني بتسهيل الهمزة الثانية من (اطمأن) وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة عند الوقف.

يعبدون الله سبحانه، وكأنهم في سوق تجاري أو في صفقة تجارية، إن أصابهم ربح ورزق واسع وخير كثير، فإنهم يتبعون هذا الدين ويستمرون فيه؛ نظرًا لما فيه من الخير الدنيوي الذي عاد عليهم، وإن أصابهم غير ذلك فإنهم يرتدون على أعقابهم، كالذي ينقلب على قفاه، فهو بهذا خسر دنياه، لأن الردة لا تكشف كربته، ولا تفرج شدته، وخسر آخرته فهو يتقلَّب في نار جهنم.

وهذا يصور حال قوم كانوا يُقْبلون على دعوة الإسلام ويدخلون فيه، ثم يترقَّبون ما يحدث لهم بعد الدخول فيه، ويربطونه بالإسلام، فإن صح جسم الواحد منهم، ورُزق مالًا وولدًا؛ رضي واطمأن، وأثنى على الإسلام، وإن أصابه ضِيق واختبار في دينه؛ رجع إلى الكفر وترك دينه، وهذه طائفة من **أسباب النزول**:

١- أخرج البخاري عن ابن عباس ﷺ أن الرجل كان يَقْدُم إلى المدينة، فإن وَلَدت امرأته غلامًا، ونتجتْ خيله، قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته، ولم تُنْتِجْ خيْله، قال: هذا دين سوء[1].

٢- ومن هذا الفريق (العُرنِيُّون) الذين أسلموا وهاجروا إلى المدينة، فاعتلَّت صحتهم، فأمرهم النبي ﷺ أن يَلْحقُوا بالبادية فيشربوا من ألبان إبل الصدقة وأبوالها حتى يصحُّوا، فلما صحُّوا قَتلوا الراعي، واستاقُوا الإبل وفَرُّوا هاربين، فأمر النبي ﷺ بالإتيان بهم، ثم أمر بقتلهم، وأن يُفعل بهم كما فَعلُوا بالراعي.

٣- وعن ابن عباس ﷺ قال في الآية: كان أحدهم إذا قدم المدينة، فإن صحَّ بها جسمُه، ونُتجت فرسُه مُهْرًا حَسنًا، وولدت امرأته غلامًا رضي به واطمأن إليه، وقال: ما أصبتُ منذ كنت على ديني هذا إلا خيرًا، وإن أصابه وجعُ المدينة، وولدت امرأته جارية، وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبتَ منذ كنت على دينك هذا إلا شرًّا، وتلك الفتنة[2].

٤- وعن الضحاك أن الآية نزلت في المؤلفة قلوبهم، منهم: عُيَيْنة بن حِصْن، والأقرع

(١) يُنظَر: البخاري برقم (٤٧٤٢).

(٢) «تفسير ابن جرير» (١٦/ ٤٧٢).

بن حابس، والعباس بن مرداس، قالوا: نَدخُل دين محمد، فإن أصبْنا خيرًا عرفْنا أنه حق، وإن أصبْنا غير ذلك عرفنا أنه باطل.

٥- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: أسلم رجل من اليهود، فذهب بصره وماله وولده، وتشاءم بالإسلام، فأتى النبيَّ ﷺ فقال: أقِلْني، فقال: **«إن الإسلام لا يُقال»** فقال: إني لم أُصِبْ في ديني هذا خيرًا، أَذْهَبَ بصري ومالي وولدي، فقال: **«يا يهودي، إن الإسلام يَسْبك الرجال كما تَسْبك النار خبث الحديد والفضة والذهب»**، ونزلت ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾[1].

ومن المفروض أن يرضى العبد ويسلم بقضاء الله وقدره، فلا يجزع ولا يسخط على أقدار الله تعالى، فإن هذا مما ينافي الإيمان؛ فالإسلام انقياد لله تعالى، ورضى بحكمه فيما يسوء المرء أو يسُرُّه.

قال الحسن في معنى الآية: هذا هو المنافق، يعبد الله بلسانه دون قلبه. وهذا هو حال بعض الناس عندما يتفاءل أو يتشاءم؛ بسبب التزامه بصلاة الفجر مثلًا، أو بصدَقته على فلان، فيمضي في ذلك أو يترك حسبما يصيبه من أحوال بعد ذلك.

يقول ﷻ عن هذا الصنف المنافق: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ أي: على ضعف وشك وتردد، كمن يقف على طرف جبل، وهو غير ثابت في وقْفته، فحاله كحال مزعزع الإيمان والعقيدة، ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾ إن عاش في سعادة من رزق ومال وصحة ونحو ذلك، رغب في هذا الدين، وبقي فيه، ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾ مصيبة وابتلاء، أو هزيمة أو فقر ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ وارتدَّ عن دينه كمن ينقلب على وجهه بعد استقامته.

وهذا الإنسان قد خسر دنياه؛ لأن كُفْره لا يغير ما قُدِّر له، ولن يحصل على ما يريد، وخسر آخرته بدخوله النار؛ لأنه ارتد إلى الكفر، وهذا خسران بيِّن واضح؛ إذ لا خسران أشد وأظهر ممن ضيَّع أولاه وأخراه، قال تعالى يصف هذا الخاسر:

١٢- ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾

---

(١) ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (١٠/٤٢٨) وتخريج أحاديث «الكشاف» (٢/٣٧٩).

لقد ارتدَّ الكافر عن الإسلام؛ ليعبد أصنامًا لا تضره ولا تنفعه، فهو يدعو حجارة وأوثانًا أو آلهة لا تنفعه إن عبدها، ولا تضره إن لم يعبدها، وعبادة ما لا يضر ولا ينفع ضلالٌ عن الصواب، وبُعْد عن الحق والرشد، وعبادة الأصنام والأوثان ضلال بعيد، وهذا وصف لكل معبود من دون الله.

وقد عبَّرت الآية عن المعبود بلفظ (ما) الذي هو لغير العاقل؛ لأن المراد بهذه الآية، عبادة الجمادات وهي لا تسمع ولا تعقل ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء].

وقال سبحانه: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

ومن يدعو غير الله تعالى يحصل له ضد مقصوده فهو:

١٣- ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

أما هذه الآية فإن فيها ذِكْر النصير؛ لأن المعبود فيها جاء بلفظ (مَنْ) مِنْ ﴿لَمَن﴾ إشارة إلى أن المقصود هم الطغاة من البشر الذين يدعون الناس لعبادتهم، كفرعون الذي قال لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. وكذلك كل من عُبد من دون الله وهو راضٍ.

وكلُّ من يُذبح له، أو يُنذر له، أو يُطاف حول قبره، أو يُسأل دفع الضر أو جلْب النفع، فهو يُعبد من دون الله.

وهؤلاء الذين يُتقرَّب بهم إلى الله تعالى قد يُغدِقون على من عبدوهم شيئًا من حطام الدنيا، فهو نفع دنيوي زائل، ولكن عبادتَه لهم، ودعاءَه إياهم، والاستغاثة بهم، ضرر محض، وخروج على الإسلام، وليس بإمكانهم أن يدفعوا عنه عذاب الله، فينصروه مما ألم به، وقد قُبِّح هذا المعبود نصيرًا، وقُبِّح عشيرًا.

والمراد بالمولى والعشير: كل ما يُعبَد من دون الله؛ لأن من شأن المولى جلب النفع لمولاه، وشأن العشير جلب الخير لعشيره، فإذا تخلف ذلك منهما كان أمرًا قبيحًا مذمومًا.

وفي الآية تبكيت وتقريع لمن انقلب على وجهه فخسر دنياه وأُخراه، وكانت عبادته لغير

الله سببًا في دخوله النار يوم القيامة، ولم يرَ منها نفعًا أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ ترقٍّ في الأسلوب، وترفيع في الكلام كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]. فالمؤمنون ليسوا على شيء من الضلال أصلًا، وقد جيء به تدرُّجًا وتنزُّلًا لمجاراة الخصم.

وفي هذا ارتقاء في تضليل من عَبَد غير الله، فبعد أن بيَّن سبحانه في الآية السابقة أن عبادة غير الله تعالى لا تجلب لهم ضرًّا ولا نفعًا زاد سبحانه في هذه الآية، فبيَّن أنهم يعبدون ما فيه ضرر محض، فهي تَضُرُّه في الدنيا؛ لأنه ضيَّع وقته في طلب ما لا يُحصِّل، وتضره في آخرته بإلقائه في نار جهنم.

الصِّنْفُ الرَّابِعُ مِنَ النَّاسِ: مُؤْمِنٌ ثَابِتٌ عَلَى الْحَقِّ رَاسِخٌ فِي إِيمَانِهِ:

١٤- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾

والله ﷻ يبيِّن ما أعدَّه لهذا الصنف المختار من الناس جميعًا، وهم الذين آمنوا بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وثَبتوا على ذلك، وقدَّموا جميع أنواع القربات، فعملوا الصالحات وتركوا المنكرات، هؤلاء أعدَّ الله لهم جنات تجري من تحتها أنهار: اللبن، والعسل، والخمر، والماء الذي لا يتغير طعمه.

وقد جاء بيان الثواب الذي أعده الله للمؤمنين في الجنة في مقابل عقاب الكافرين الذي جاء في الآيات السابقة في قوله تعالى: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ وقوله: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾.

ودخول المؤمنين الجنة يكون بفضل الله تعالى ورحمته، ودخول الكفار النار يكون بعدل الله وحكمته، والله تعالى يفعل ما يريد وفق حكمته ومشيئته دون منازع ولا معارض، فيخلق الأسباب والمسببات، ويبيِّن الخير والشر، ويُكْرِم مَن أطاعه ويُهين من عصاه، فمن مسَّه الضر والفتن فلْيثبُت، ولْيثق في عون الله ورحمته، وقُدْرته على كشف الضرِّ عنه، وإثابته على صبره واحتسابه.

وهكذا ذكر الله تعالى من الآية الثالثة في السورة إلى هنا: المجادل بالباطل، وبيّنتْ أنه

على قسمين: مقلِّد، وداعٍ غيره إلى ضلال، ومنتسبٍ إلى الإيمان، وهو على قسمين: منافق لم يثبت الإيمان في قلبه، ومؤمن على الحقيقة، قد صدّق إيمانه بالعمل الصالح.

قَضَاءُ اللَّهِ نَافِذٌ لَا مَحَالَةَ

١٥- ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ[1] فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾

هذه الآية فيها وعيد وتسفيه لمن خسر دنياه وآخرته، فعَبَدَ الله على حرف، وظن أن الله تعالى لن ينصر دينه وكتابه، وكذا كل من يفقد ثقته في نصر الله له، ويقنط من رحمة الله به، حين يقع في محنة، أو يمسُّه ضُرٌّ، فيشك في عون الله له، ورفع ما به من فتنة وابتلاء.

ومن كان يظن أن الله لن ينصر نبيّه ودينه، ويتوقع أن هذا الدين سيضمحل: فليفعل بنفسه ما يشاء، وليستفرغ جهده في إزالة ما يغيظه، فإن ذلك لن يبدل حاله، ولن يغيِّر ما به من ضر، وهذا استفهام بمعنى النفي، والضمير في ﴿يَنصُرَهُ﴾:

١- إما أن يعود على الذين يعبدون الله على حرف -السابق ذكرهم- فهم قد ظنوا أن الإسلام لن يفي بأغراضهم الدنيوية، فضاقت صدورهم، وكثُر غمهم، وفقدوا الإيمان بالبعث والنشور، وهم بهذا قد خسروا دنياهم وأخراهم، وهذا مقتضى سياق الآيات، ويرشحه نهاية الآية السابقة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

ويؤيد هذا المعنى ما جاء عن ابن عباس ومجاهد في الآية: من كان يظن أن لن يرزقه الله فليأخذ حبلًا فلْيَربطه في سماء بيته فليختنق، فلينظر هل ينفعه ذلك، أو يأتيه برزق؟[2].

٢- وإما أن يعود الضمير في ﴿يَنصُرَهُ﴾ على الرسول ﷺ على معنى:

من كان يعتقد من الكفار أن الله تعالى لن يؤيد رسوله محمدًا ﷺ بالنصر في الدنيا بإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء كلمته ودرجته، وعذاب من كذّبه؛ فلْيختنق وليقتل نفسه غيظًا، وقد جاءت روايات ترشح هذا المعنى:

---

(١) قرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر ورويس بكسر اللام من (ثم لِيقطع) وصلًا وبدءًا؛ لأن الأصل في لام الأمر هو الكسر، والباقون بإسكانها للتخفيف، وكسرها حالة البدء.

(٢) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٤٨٢).

من ذلك ما أخرجه الطبري بسنده إلى أبي إسحاق، عن التميمي قال: قلت لابن عباس ﷺ: أرأيت قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾؟ قال: من كان يظن أن لن ينصر الله محمدًا فليربط حبلًا في سقف، ثم ليختنق به حتى يموت(١).

وأخرج الطبري وعبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة قال: من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه محمدًا ﷺ ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ يقول: بحبل إلى سماء البيت ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ يقول: ثم ليختنق، فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ؟(٢).

٣- وقيل: إن الضمير في ﴿يَنصُرَهُ﴾ يعود على قوم من المسلمين استبطؤوا نصر الله لهم، بإنزاله العذاب بالمشركين.

ويُذْكَر أن قبيلتي أسد وغطفان كان بينهما تحالف مع اليهود، فلما دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام قالوا: نحن لا نعلم هل سينصر الله هذا الدين؟ وهل سترتفع كلمة محمد ﷺ ويكون له شأن حتى نتبعه؟ فنحن نخشى إن تبعناه ألَّا يظهر دينه، فنخسر تحالفنا مع اليهود، ولا ندري العاقبة لمن(٣).

وكان بعض المسلمين يستعجل النصر للإسلام، ويستعجل نزول العذاب بالكفار.
وبعض الناس لا يعتقد أن الله ﷻ سينصر محمدًا ﷺ ويرفع شريعته على جميع الشرائع.

كما أن بعض الناس قد يصاب بيأس أو قنوط لسبب من الأسباب، وهذا اليأس يجعله يعتقد أنه لن يزول عنه الضيق أو الكرب.

والله ﷻ يقول عن هؤلاء وأولئك جميعًا، مبيِّنًا هذه المعاني ونحوها في هذه الآية: إن من كان يظن أن الله لن ينصر دين محمد ﷺ ويرفع شأنه وشرعه فوق الشرائع.
أو يظن أن لن يفرِّج الله كَرْبه وغمَّه، ويرفع عنه الضيق الذي نزل به لسبب من الأسباب.
أو يظن أن لن يرزقه الله رزقًا حسنًا، ويُخْرِجه من الفقر الذي هو فيه.

---

(١) «تفسير الطبري» (٧/ ١٢٦) والحاكم وصححه بموافقة الذهبي (٢/ ٣٨٦) عن أبي إسحاق مختصرًا، وأخرجه عبد بن حميد كما في «فتح الباري» (٨/ ٤٤١) وابن أبي حاتم.
(٢) الطبري (١٦/ ٤٧٩) وعبد الرزاق (٢/ ٣٣).
(٣) يُنظَر هذا المعنى في: «الطبري» (١٧/ ١٢٨) بدون سند، وفي «تفسير ابن عطية» (٤/ ١١١).

وهكذا كلُّ من استولى عليه اليأس والقنوط، فليفعل بنفسه ما يشاء، فإن الله ﷻ أمره نافذ لا محالة.

وفي الآية وعد بنصر الله لدينه ولرسوله ولعباده المؤمنين، وفيها تيئيس للكافرين الذين يريدون إطفاء نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره المشركون الكافرون.

والسبب المذكور في قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ يفسَّر بأحد معنيين:

المعنى الأول: أنه الحبل المصنوع من ليف أو تيل او سلك أو نحو ذلك، والسماء، بمعنى: كل ما علاك فهو سماء، فيكون سقف البيت سماء، وهذا هو المعنى الذي يذكره أكثر المفسرين، فيكون المراد: فعليه أن يعقد حبلًا أو يربطه في سقف بيته، ثم يدلِّيه ويضَعه في عنقه، ثم يقطع الحبل ويشنق نفسه، ولْيمتْ كمدًا وغيظًا، فإن ذلك لن يزيل ما بنفسه من الكرب والضيق، ولن يتغير هذا الأمر الذي يغيظه.

والمعنى الثاني: أن المراد بالسبب: هو ما يتوصل به إلى السموات، أي: فليأتِ بسبب يرفعه إلى السماء، وليصعد به إلى الفضاء. كما قال فرعون لهامان: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

ولْيمنع هذا الوحي بحيث لا ينزل إلى الأرض:

فمن كان لا يعتقد أن دين الإسلام حق، فعليه أن يأتي بسبب يوصِّله إلى السماء، كالمعراج او سفينة فضاء، أو صرحًا عاليًا، ثم يرفع هذا الوحي المنزل على محمد ﷺ، فهل بالإمكان أن يفعل ذلك، ويمنع الوحي من النزول عن رسول الله ﷺ؛ حتى يذهب ما به من غيظ.

إن من يفقد الثقة بنصر الله تعالى وعونه لكل مهموم مكروب، يفقد كل نافذة مضيئة، ويفقد كل رجاء في الفرج، ويستبد به الضيق والهم، ولا سبيل لتحمُّل البلاء والشدائد إلا بالرجاء في نصر الله، ولا سبيل إلى الفرج إلا بالتوجُّه إلى الله تعالى. قال سبحانه:

١٦ - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

ولما بيَّنت الآيات السابقة أحوال الناس تجاه دعوة الإسلام، نوَّهت هذه الآية بشأن القرآن الكريم، فبيَّنت أنه قد بلغ الغاية في الوضوح والدلالة على أنه الطريق الأوحد لهداية البشر، فكما أقام الله الأدلة على قدرته على البعث، فقد أنزل هذا القرآن، وجعل آياته واضحة في لفظها ومعناها، يهدي بها الله من أراد هدايته؛ إذ لا هادي سواه سبحانه،

ولم ينزل هذا القرآن لمن يقترح الآيات، ويستعجل القدر، فمن أراد الله هدايته بهذا القرآن اهتدى، ومن لم يرِ الله هدايته، فلو جاءته كل آية ما آمن، والقرآن يكون حجة عليه.

الشَّرِيعَةُ الْقَائِمَةُ والشَّرَائِعُ الْبَاطِلَةُ

١٧- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ[1] وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

ذكر الله سبحانه في هذه الآية ستة أصناف من عقائد البشر المختلفة لمن يسألون عن الدين الحق؛ لأن كل أمة تدَّعي أنها على حق وغيرها على الباطل.

قال قتادة: الأديان ستة: واحد للرحمٰن، وخمسة للشيطان.

والله سبحانه سيجمع الكل يوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العادل، ويجازيهم بأعمالهم وأقوالهم وعقائدهم.

أما الآية التي في سورة البقرة [٦٢]، والتي في سورة المائدة [٦٩] فليس فيهما ذكر للمجوس والمشركين؛ لأن سياقهما عن الإيمان بالله واليوم الآخر، وزيد في آية سورة الحج: المجوس والمشركون؛ لأن الآية هنا مسوقة في الفصل والحكم بين أهل الملل يوم القيامة، وتفويض الأمر إليه سبحانه في ذلك، والمجوس والمشركون ليسوا من أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، ولذا ذكروا هنا، ولم يذكروا هناك، وآية سورة البقرة تشير إلى المرحلة الأولى من مراحل الدعوة في مكة، فترغب من يدخل في الإسلام بالأجر المضاعف، وتشير آية سورة المائدة إلى المرحلة الأخيرة من مراحل الدعوة، وأن مات على شريعته منهم قبل نسخها فلا يخاف من المستقبل ولا يحزن على الماضي.

وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية **ستًّا من الديانات:**

الفرقة الأولى: أهل الدّينِ الْحَق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهم أهل الدين الحق، دين الإيمان بالله تعالى، وبرسوله محمد ﷺ، وبالقرآن كتابًا، وبالكعبة قبلة، وبالإسلام دينًا، وآمنوا باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، ولا فضل لأمة على أمة إلا بالإيمان

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بحذف الهمزة من (والصابئين)، والباقون بإثباتها، ولحمزة وقفًا: التسهيل والحذف.

والعمل الصالح، هذه هي الفرقة الأولى المؤمنة بالله وبرسوله محمد ﷺ:

الفرقة الثانية اليهود: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم اليهود أتباع موسى عليه السلام الذين نزلت عليهم التوراة فحرفوها وغيروها بعد موسى عليه السلام، ويُقصد بهم في الآية: الذين آمنوا بموسى وعملوا بالتوراة الحقيقية، وماتُوا قبل أن تُنسخ اليهودية، برسالة عيسى ورسالة محمد عليهما السلام.

وسُمُّوا كذلك نسبة إلى أبيهم (يهوذا) من ذرية يعقوب، وخُفِّفت الذال إلى دال، فقيل: اليهودية، بدلًا من اليهوذية، أو أنهم سُمُّوا يهودًا: من قولهم بعد عبادتهم العجل وتوبتهم منها: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي: تبنا، ورجعنا إليك.

وهذه الشريعة نسختها النصرانية، فمن ظل على يهوديته بعد بعثة عيسى عليه السلام فهو كافر بعيسى، ومن بقي عليها بعد بعثة محمد ﷺ فهو كافر برسولين، عيسى ومحمد عليهما السلام.

الفرقة الثالثة الصائبة ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾: وهم في الأصل الخارجون من دين إلى آخر، وهذا وصف عام لكل من خرج من دين إلى غيره، **فالصابئ لغة**: هو المارق الخارج على الدين.

والصابئون في الآية: فرقة ينتسبون إلى صابئ بن شيث بن آدم، وكانوا على حق، ثم خرجوا علي دينهم وعبدوا الكواكب والملائكة، فقد جاء عن قتادة بسند صحيح قال: الصابئون قوم يعبدون الملائكة، ويصلُّون إلى القبلة، ويقرؤون الزبور.

وهذه الديانة موجودة ومعروفة في العراق إلى وقتنا الحالي[١].

وقيل في الصابئة: هم قوم باقون على فطرتهم، ولا يتبعون نبيًا من الأنبياء، وليس لهم دين مقرر.

والصواب: أنهم في الأصل حنفاء موحدون، سبقوا اليهود والنصارى، يعبدون الله وحده، ويؤمنون بأن الله محدث لهذا العالم، ويقرّون بمعاد الأبدان، ثم ارتبطت عقيدتهم بالكواكب والنجوم، حتى نُسبوا إلى الوثنية.

والصابئة طائفة كانت ومازال تعيش في شمال العراق، حاضرتها (حَرَّان) ومنها انتقلت إلى بغداد وغيرها منذ العصر العباسي، ومنهم من أسلم، وهم اليوم قلة تعيش في شمال العراق، تحيط عقيدتها بشيء من السريّة، خشية أن تتحور وتتغير بمرور الزمن[٢].

---

(١) يُنظَر: تفسير آية سورة البقرة (٦٢)، والمائدة (٦٩).

(٢) أطلس القرآن د. شوقي أبو خليل ص١٤٠ دار الفكر، طبعة سابعة.

وعن عكرمة قال: قالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت الصابئة: نحن نعبد الشمس والقمر من دون الله، وقال المشركون: نحن نعبد الأوثان من دون الله، فأوحى الله إلى نبيه ليُكذِّب قولهم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ إلى آخر السورة، وأنزل: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١]. وأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾[1].

الفرقة الرابعة: النصارى: ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ وهم أتباع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذين أنزل الله عليهم الإنجيل فحرَّفوه وجعلوه أناجيل متعددة.

وسُمُّوا نصارى؛ لأنهم ناصروا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو نسبة إلى بلدة الناصرة التي وُلد فيها عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد نسخت هذه الشريعة ببعثة محمد ﷺ فمن بقى عليها بعد مجيء خاتم النبيين ولم يؤمن به فهو كافر بمحمد.

الفرقة الخامسة: المجوس: ﴿وَٱلْمَجُوسَ﴾ وهم الذين عبدوا النار، وعبدوا الشمس والقمر، وعبدوا الكواكب، ويعتقدون أن في هذا الكون إلهين: إله للخير وإله للشر، إله للنور وإله للظلام.

وأصل المجوسية: ديانة تسمى (الزروانية) أسسها أحد ملوك فارس قبل زمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان يلقب (جهان شاه) أي: ملك الأرض.

وأشهر نِحَل المجوسية (الزَرَادُشْتِيَّة) نسبة إلى (زرادُشت) الذي وُلد في ميدية بمدينة الرّي، وتجعله بعض المصادر نبيًّا، أصله من آذر بيجان، وقد ظهرت هذه الديانة في القرن السادس قبل الميلاد، وبه اشتهرت المجوسية، وقد وسَّع (زَرَادُشْت) شريعة المجوسية ووضع لها كتابًا سماه (الزِّند أفستا) تنبأ فيه بظهور محمد ﷺ.

ومن أصول شريعته تجنب عبادة التماثيل، وكانت هذه الديانة هي الدين الرسمي للدولة الساسانية منذ منتصف القرن الثالث قبل الميلاد.

ثم ظهرت في المجوسية (المانوية) بين سنة ٢٣٨ وسنة ٢٧١م نسبة إلى (ماني).

ثم ظهرت فيها أيضًا (المزْدَكِيَّة) نسبة إلى (مَزْدك) بين سنة ٤٨٧ وسنة ٥٢٣م وهي آخر ملة ظهرت للمجوسية قبل الفتح الإسلامي لبلاد الفرس.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٨٢) برقم (١٠٠٤٦).

وفي المجوسية قُدِّست النار التي كانوا يوقدونها تكريمًا (لأهور مزدا) ومازالت بعض بيوت النيران قائمة حتى اليوم، أشهرها وأهمها في باكوا عاصمة آذربيجان، ومعبد النار الذي على قمة تل بجوار أصفهان، وترك الفرس معبد نار في اليمن ومازال بناؤه قائمًا، وللزرادُشتيّة بقايا في بومباي بالهند، و (يزد) و (كرمان) في وسط إيران.[١]

وقد قال النبي ﷺ في المجوس: «**سُنُّوا بهم سُنَّة أهل الكتاب**»[٢].

أي: في الاكتفاء بالجزية، دون الإكراه على الإسلام؛ لأنهم يخالفون المشركين في أن لهم كتابًا، ويمنعون عبادة الحجارة[٣].

والمجوس يعبدون الشمس والقمر والنيران، والذين أشركوا يعبدون الأوثان.

الفرقة السادسة: عبَدة الأوثان: ﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ وهم عبدة الأوثان: الحجارة والأصنام، وكل من اتخذ مع الله إلهًا آخر فهو مشرك بالله تعالى، يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: بين أهل هذه الديانات جميعًا فيظهر الدين الحق وأهله والديانات الباطلة وأهلها ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ فيُدخل المؤمنين الجنة، ويُدخل الكافرين النار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ وهو وحده عالم بما يستحقه كل منهم من جزاء، وفق أعمالهم التي حفظها وشهدها عليهم بحكمه العادل وعلمه الشامل.

جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ تَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى

١٨- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾

ولأن الآيات السابقة فيها إبطال لكل ما يُعبد من دون الله، سواء أكان عاقلًا أم غير عاقل، كما جاء في الآيتين [١٢، ١٣]، فإن هذه الآية بيَّنت أن جميع المخلوقات -عاقلها

---

(١) أطلس القرآن ص١٤٤.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٢٦١) : وهذا منقطع مع ثقة رجاله، وقال الألباني في إرواء الغليل ج٥ برقم (١٢٤٨): ضعيف.

(٣) يُنظَر في هذا: «تفسير التحرير والتنوير» (١٧/ ٢٢٣). وأطلس القرآن ص١٤٤.

وجمادها- شاهدة بتفرد الله تعالى بالإلهية، وكلها تعبد الله تعالى ولا تعصاه، فقد بيَّن سبحانه أن هذا الكون -بسمائه وأرضه، وشمسه وقمره ونجومه، وجباله وأنهاره وبحاره ووِدْيانه، وأشجاره، وإنسه وجنه وملائكته- كله يخضع لسلطان الله تعالى، ويسبِّح بحمده، ويسجد له طوعًا وكرهًا

وأهل السُّنَّة على أن السجود: سجود حقيقي بالنسبة للإنسان، كسجود الصلاة.

والسجود في اللغة: هو التذلل والخضوع مع الانحناء ونحوه.

وهو في الشرع بالنسبة للإنسان: وضْع الجبهة على الأرض بقصد العبادة، ولكن سجود الجبال والشجر ونحوهما يكون بكيفية يعلمها رب العالمين.

١- قيل: إن ظلالها هو السجود لله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل].
فسجود الجبال والشجر يكون بفيء ظلالهما عن اليمين والشمال كما تشير الآية.

وفي الحديث: عن ابن عباس ﷺ قال: كنت عند النبي ﷺ فأتاه رجل فقال: يا رسول الله، إني رأيتُني الليلة وأنا نائم، كأني أُصلِّي خلْف شجرة، فسجدتُ، فسَجدتِ الشجرة لسجودي، فسمعتُها وهي تقول: **اللهم اكتب لي بها عندك اجرًا، وضع عني بها وزرا، واجعلها لي ذُخرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود**، قال ابن عباس: فقرأ النبي ﷺ سجدة، ثم سجد، فسمعتُه وهو يقول بمثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة[١].

وفي الحديث عن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تتخذوا الدواب كراسي، فرُبَّ مركوبة عليها هي أكثرُ ذكرًا لله تعالى من راكبها**»[٢].

٢- أو أن سجود الشجر بمعنى: أن تميل أغصانها جهة الكعبة في بعض الأوقات، وهذا شيء مرئي وظاهر للعيان، ونحو ذلك من كيفيات لا يعلمها إلا رب العالمين.

---

(١) «سنن ابن ماجه» برقم (١٠٥٣) و«سنن الترمذي» برقم (٥٧٩) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقد حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٨٦٥) ومشكاة المصابيح (١٠٣٦) والسلسلة الصحيحة (٢٧١٠) وصحيح الترمذي (٤٧٣).

(٢) مسند أحمد (١٥٦٥٠) حديث حسن، دون قوله (فرب مركوبة..) وفيه ابن لهيعة وقد توبع.

هذه الكائنات جميعًا تسجد وتسبح بحمد الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

والتسبيح يكون في السجود، وهو أخص أركان الصلاة بالنسبة للإنسان، ويعبر عن الصلاة بالسجود، وهو حاصل من جميع الكائنات التي خلقها الله سبحانه في العالم العلوي والسفلي.

فالآية تشمل جميع المخلوقات في السموات وفي الأرض، ولكن الله سبحانه بعد أن عمَّم، خصَّص مخلوقات معينة، فبعدما ذَكر سبحانه أن ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة يسجدون لله جميعًا، خَصَّص هذه الثلاثة: الشمس والقمر والنجوم بالذكر؛ لأن من البشر من عبَدها من دون الله، فبيَّن ﷺ على وجه الخصوص أن هذه المخلوقات التي عبدتموها هي نفسها تَعْبُد الله سبحانه، وتسجد له، وهي منقادة وخاضعة لله جلَّ شأنه، فكيف تعبدونها من دون الله؟ ولذلك خصصها الله سبحانه بالذكر بعد التعميم، وذِكْرُ السموات والأرض يستلزم ما بينهما، كالهواء والرياح، فهي تسجد لله تعالى بكيفية لا نعلمها.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت].

وعن أبي ذر ﵁ قال: دخلتُ المسجد ورسول الله ﷺ جالس، فلما غابت الشمس قال: **«يا أبا ذر، هل تدري أين تذهب هذه؟»** قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإنها تذهب فتستأذن في السجود، فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها»**[١].

وفي الحديث عن النعمان بن بشير وقبيصة البجَلي ﵄: **«إن الشمس والقمر خلْقان من خلْق الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله ﷻ إذا تجلَّى لشيء من خلْقه خشع له»**[٢].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٨٠٣) ومسلم برقم (١٥٩).

(٢) جاء نحوه في «المسند» (٤/ ٢٦٧) برقم (١٨٣٥١) عن النعمان بن بشير بسند ضعيف، وعن عائشة في أبي داود برقم (١١٩٣) وصحيح أبي داود (١٠٤٤) وعن جابر (١٠٤٥) والنسائي (١٤١١٣) وفي ط مؤسسة الرسالة (١٤٢٢)هـ برقم (١٨٨٣، ١٨٨٥) وابن ماجه (١٢٦٢). عن عائشة بتصحيح الألباني (١٠٤٤) في صحيح ابن ماجه.

وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر، إلا يقع لله ساجدًا حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه(١).

وقال ابن أبي مليكة: مرَّ رجل على عبد الله بن عمرو ﷺ وهو ساجد في الحجْر يبكي، فقال: أتعجب أن أبكي من خشية الله وهذا القمر يبكي من خشية الله.

وهكذا رأى عمرو بن دينار طاوس يطوف بالبيت ويبكي، فقال: أعجبتَ من بكائي؟ قال: نعم، فأقسم بالله إن القمر يبكي من خشية الله ولا ذنب له(٢).

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ شاملة لجميع المخلوقات في الأرض، ولكن الله سبحانه ذكر على وجه الخصوص الجبال والشجر والدواب ومنها البقر وهي تُعبَد من دون الله، والديك الذي يعبده بعضهم.

وقد ذكر القرآن هذه المخلوقات؛ لأنها عُبدت من دون الله، أو عُبد ما يُصنع منها على هيئة الأصنام والأوثان وغير ذلك، فبيَّن سبحانه أن هذه الكائنات التي عُبدت من دون الله هي نفسها تسجد لله وتخضع له، وهي مسخرة مذللة لله سبحانه.

وهذه الكائنات كلها تُطيع ربها وتسجد له بلا استثناء، لا يخرج منها واحد عن طاعته لله ﷻ، أما الإنسان فمنه من يسجد لله تعالى، ومنه من لا يسجد، منه من هو مطيع ومنقاد لله تعالى، ومنه العاصي المتمرد، ولذا قال تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل: والناس، كما قال: ﴿وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ والكثير من الناس هم المؤمنون الذين يسجدون لله طاعة واختيارًا ﴿وَكَثِيرٌ﴾ من الناس ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ لعدم طاعته لله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ أي: أن مَن يُهِنْه الله بالعذاب فليس له ناصر ولا شفيع؛ إذ ليس بعد عذاب الله إكرام، وقد ذلَّ وهان من دان لغير الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: إن الله يفعل في خلقه ما يشاء وفق حكمته، فلا راد لقضاء الله، ولا معقب لحكمه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

---

(١) من «تفسير ابن كثير» للآية (٥/ ٤٠٣) وهو في «تفسير الطبري» (١٦/ ٤٨٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد»، وأخرج الثاني ابن أبي حاتم، وكلاهما في «الدر المنثور» (١٠/ ٤٣٥).

قيل لعليٍّ ﷺ: إن ها هنا رجلًا يتكلم في المشيئة، فقال له عليٌّ: يا عبد الله، الله سبحانه خلقك كما تشاء، أم خلقك كما يشاء؟ قال: بل كما شاء. قال: هل يمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيدخلك الجنة حيث شئت أو حيث يشاء؟ قال: بل حيث يشاء، قال: والله لو قلت غير هذا لضربت الذي فيه عيناك بالسيف[١].

هذا: وفي هذه الآية سجدة من سجدات القرآن الكريم الخمس عشرة، كما جاء عن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها: ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان[٢].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله، أُمِر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت، فلي النار**»[٣].

والسجود المثْبَت لكثير من الناس هو السجود الحقيقي، ولذا أثبته الله لكثير من الناس لا لجميعهم، وقد حقَّت النار على من ترك السجود لله تعالى فأشرك معه غيره، وأعرض عن إفراده تعالى بالعبادة.

جَزَاءُ أَهْلِ الْكُفْرِ وَثَوَابُ أَهْلِ الْإِيمَانِ

١٩-٢١- ﴿۞ هَٰذَانِ[٤] خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ[٥] ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾

ولما قسَّم الله سبحانه الناس إلى فريقين في الآية السابقة، هما: أهل التوحيد، وأهل الشرك، فريق يسجد لله تعالى، وفريق يسجد لغير الله، كما يفيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾.

---

(١) أورد هذا المعنى الإمام ابن كثير (٥/ ٤٠٤) عن ابن أبي حاتم بسنده، وهو في «الدر المنثور» (١٠/ ٤٣٥).

(٢) «سنن أبي داود» برقم (١٤٠١) وابن ماجه برقم (١٠٥٧).

(٣) رواه مسلم برقم (٨١).

(٤) قرأ ابن كثير بتشديد النون من (هذان) فتكون من قبيل المد اللازم، والباقون بتخفيفها.

(٥) انفرد الكوفي بعدّ لفظ (الحميم) ولفظ (الجلود) آية، وتركهما غيره.

وكأنَّ سائلًا سأل عن تفصيل صفة العذاب الذي حقَّ على كثير من الناس.

فكان من المناسب أن يذكر الله سبحانه مشهدًا من مشاهد القيامة يتجلى فيه إهانة المشركين، وإكرام الموحدين؛ لبيان قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ فالمهان من أهانه الله، والمكرَم من أكرمه الله، فقال تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ وقد نزلت هذه الآية في أول قتال بين فُرسان الحق وفُرسان الباطل، وهو قتال وقع بعد خمسة عشر عامًا من الملاينة، والمحاسنة، وتحمل المسلمين للأذى والضر.

أي: هذان فريقان اختلفوا في دين الله، فاعتقد كل فريق منهم أنه على حق، وخصمه على باطل، وهم أهل الإيمان وأهل الكفر، فأنواع الديانات الست: الصابئون، والنصارى، واليهود، والمجوس، والمشركون، خِصْم، يجمعهم لفظ ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ والمؤمنون بالإسلام خِصْم آخر، وقد جاء ذكرهم في أول الآية ١٧ والآية التالية ١٩ وهم المؤمنون، وهذا معلوم من مفهوم المخالفة، وكذلك أهل الإيمان وأهل الملل والنحل المختلفة، في كل زمان ومكان، وفي مقدمة هؤلاء: أصحاب رسول الله ﷺ، وكفار قريش.

سبب النزول:

١- جاء في الصحيحين وغيرهما، عن أبي ذر ﵁: أن هذه الآية نزلت في الذين تبارزوا يوم بدر، حيث خرج عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، هؤلاء الثلاثة خرجوا للنبي ﷺ وطلبوا منه أن يُخرج لهم من يبارزهم، فانتدب النبي ﷺ لهم حمزة، وعليًّا، وعبيدة ابن الحارث[1] هذا خصم الإيمان، والذي قبله خصم الكفر.

٢- وأخرج ابن مردَويْه عن ابن عباس ﵄ قال: لما بارز عليٌّ وحمزةُ وعُبيدةُ، عُتْبَةَ وشيبةَ والوليدَ، قالوا لهم: تكلَّموا نعْرفكم. قال: أنا عليٌّ، وهذا حمزة، وهذا عبيدة، فقالوا: أكْفاءٌ كرامٌ، فقال عليٌّ: أدعوكم إلى الله وإلى رسوله، قال عتبة: هلُمَّ للمبارزة، فبارَز عليٌّ شيْبَةَ فلم يلبثْ أن قتله، وبارز حمزةُ عُتبةَ فقتله، وبارز عبيدةُ الوليدَ، فضعُف عليه، فأتى عليٌّ فقتله، فأنزل الله ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ الآية[2].

---

(١) يُنظَر: البخاري برقم (٤٧٤٣، ٤٧٤٤) ومسلم برقم (٣٠٣٣) وابن أبي شيبة (١٤/ ٤٦٥) وابن ماجه (٢٨٣٥) وغيرهم.

(٢) «الدر المنثور» (١٠/ ٤٣٧).

وفي هذا يقول عليٌّ ﷺ: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمٰن للخصومة يوم القيامة[١].

والآية لم تنزل في يوم بدر، وإنما أشارت إليه؛ لاستحضار حالهم للمخاطبين.

٣- وعن قتادة قال: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: كتابنا يقضي على الكتب كلها، ونبينا خاتم الأنبياء، فنحن أولى بالله منكم[٢].

٤- وقال مجاهد في الآية: إنها مَثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث.

واسم الخَصْم يطلق على الواحد وعلى الجماعة، كما قال تعالى: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص].

والمعنى: هذان جمعان من الناس اختصموا في ربهم: المؤمنون والكفار، كلٌّ يدَّعي أنه على حق، ثم بيَّن سبحانه جزاء الكفار يوم لقاء رب العالمين ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي: أن النار فُصِّلت على قدْر أجسادهم، في هيئة ثياب نارية يلبسونها فتَشْوِي أجسادهم، وأحاطت بهم النار وأحدقت من كل جانب، كما قال تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم]. فهي ثياب من قطران تشتعل فيه النار، ليعمهم العذاب من كل جانب، ويُصَبُّ على رؤوسهم الماء متناهي الحرارة، ينزل إلى أجوافهم فيذيب ما فيها، وينفُذ إلى جلودهم فتتقلص وتنكمش، وهذا معنى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ وهو الماء الحار المغلي الذي يَشْوِي الوجه ويُقَطِّع الأمعاء، نسأل الله العفو والعافية.

وهذا الماء البالغ الحرارة يُصهر ويذاب به ما في بطونهم من الأمعاء واللحم والأحشاء، من شدة حره وعظيم أمره كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]. وتُقَطَّع به الجلود والبطون، وعذاب النار يحيط بهم من كل جانب ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]. ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٤٤) و«صحيح مسلم» برقم (٣٠٣٣).

(٢) أورده ابن كثير في تفسيره للآية (٥/٤٠٦) وهو في «تفسير الطبري» (١٧/٩٩) وعند النيسابوري ص ٢٥٨، والسيوطي ص ١٨٦ .

﴿ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الحميم لَيُصَبُّ على رؤوسهم فينفذ إلى الجُمْجمةَ، حتى يخلُص إلى جوفه، فيسلِت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان**»[١].

والمعنى: أن الحميم إذا صُبَّ على رؤوسهم، كان تأثيره في الباطن مثل تأثيره في الظاهر، فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم وشحومهم ويحرق جلودهم فتنقبض، وهو أبلغ من قوله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[٢] [محمد: ١٥]. وعن هذا الماء الحار يقول ابن عباس ﷺ: لو سقَطتْ منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتْها.

وهذه المقامع هي السياط والمطارق من حديد، تضْرِبُهم بها الملائكة على رؤوسهم، جاء في الحديث عن أبي سعيد: لو أن مقمعًا من حديد وضُع في الأرض فاجتمع له الثقلان ما أقلُّوه من الأرض[٣]. وهذه المقامع بأيدي ملائكة العذاب الغلاظ الشداد، وهذا العذاب مستمر لا ينقطع.

٢٢- ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾

أي: وكلما حاولوا الخروج من النار؛ لشدة غمهم وكربهم، أعيدوا للعذاب فيها، ويقال لهم: ذوقوا عذاب النار المحرِقة، وذلك أن لهب النار يرفعهم حتى يكاد يرميهم خارجها، فتضربهم الخزنة بمقامع الحديد فتردَّهم، ثم إنهم يذهبون إلى خزنة النار ويطلبون منهم تخفيف العذاب عنهم دون جدوى، وكلما أرادوا أن يخرجوا من النار، ويصِلُوا إلى بابها، تضربهم خزنة النار بمطارق من حديد، فتعيدهم إليها مرة ثانية وثالثة ورابعة، وتقول لهم: ذوقوا عذاب النار الحارقة: ثياب من نار، وماء يغلي فوق الرؤوس ، وسياط من حديد، وعنف وتأنيب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾

---

(١) قال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح، «سنن الترمذي» برقم (٢٥٨٢) و«تفسير الطبري» (١٧/ ١٠٠) وصححه الحاكم (٢/ ٣٨٧) ووافقه الذهبي وهو في «المسند» (٢/ ٣٧٤) وحسنه الشيخ أحمد شاكر في حاشية «المسند» برقم (٨٨٥١).

(٢) «تفسير الفخر الرازي» (٢٣/ ٢٢) بتصرف.

(٣) «المسند» (٣/ ٢٩) عن أبي سعيد يرفعه وهو برقم (١١٢٣٣).

كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان].

وكما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر].

ولمَّا لم يجدوا عند خزنة النار نتيجة، يذهبون إلى مالك، كبير الخزنة، يطلبون منه القضاء عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾.

أي: يميتنا مرة واحدة، فيجيبهم مالك بعد سنين طويلة ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]. في عذاب مستمر متجدد ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

إنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى].

٢٣- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ(١) مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

هذه الآية عن المؤمنين في مقابلة أهل الكفر، فإذا كان أهل النار قُطِّعت لهم ثياب من النار، فإن أهل الجنة لباسهم فيها الحرير والذهب، كما قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١].

قال كعب الأحبار: إن في الجنة ملَكًا لو شئتُ أن أسميه لسميتُه، يصوغ لأهل الجنة الحليَّ منذ خلقه الله إلى يوم القيامة، لو أُبرز منها سوار، لردَّ شعاع الشمس كما تَردُّ الشمس نور القمر(٢).

ويحرم لبس الحرير والذهب في الجنة على من لَبِسه في الدنيا إن كان من أهل الجنة، وذلك بالنسبة لمن مات مصرًّا على لبسها:

---

(١) قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر ويعقوب بنصب الهمزة الثانية من (ولؤلؤًا) على أنه معطوف على محل (أساور)، أي: يحلَّوْن أساورَ ولؤلؤًا، ويجوز أن يكون مفعولًا لفعل محذوف يدل عليه المقام، أي: ويؤتون لؤلؤًا. وقرأ الباقون بخفضها، عطفًا على ذهب، أي: يحلون أساور من ذهب وأساور من لؤلؤ، وأبدل الهمزة الأولى واوًا: شعبة وأبو جعفر وأبو عمرو بِخُلْفٍ عنه.

(٢) من «تفسير ابن كثير» للآية (٥/٤٠٨).

وهذه جملة من الأحاديث في معنى الآية:

١- جاء عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه**»[١].

٢- وفي الصحيحين: عن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**»[٢].

٣- وفيهما أيضًا: عن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم، إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»[٣].

٤- وعن أبي سعيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن عليهم التيجان، أدنى لؤلؤة منها تضيء ما بين المشرق والمغرب**»[٤].

٥- وفي الصحيحين: من حديث حذيفة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة**»[٥].

٦- وعن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**حُرِّم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي وأحل لإناثهم**»[٦] أما في الجنة فيلبسهما الرجال والنساء.

---

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٩٦١١، ٩٦٠٧) وأحمد في المسند (١١١٧٩) حديث صحيح وفي سنده (داود السرّاج) متكلم فيه، (محققوه) وابن حبان (٥٤٣٧) قال محققه: رجال إسناده ثقات، وأخرجه الحاكم (٤/ ١٩١) والطحاوي (٤/ ٢٤٦). والطيالسي (٢٢١٧) وله شاهد في الصحيحين.

(٢) البخاري برقم (٥٨٣٤) ومسلم برقم (٢٠٦٩) وأحمد (١/ ٢٠) برقم (١٨١، ٢٥١) والبيهقي في «السنن» (٢/ ٤٢٢).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٧٤٤٤) وانظر: (٤٨٧٨) و«صحيح مسلم» (١٨٠).

(٤) أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب.

(٥) البخاري برقم (٥٤٢٦) وانظر: (٥٦٣٢، ٥٨٣١، ٥٨٣٧) ومسلم برقم (٢٠٦٧) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٦) أخرجه الترمذي وقال: حديث صحيح، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٠٧٨) وفي «مشكاة المصابيح» برقم (٥٦٥٠).

٧- وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت خليلي ﷺ يقول: **«تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»**[١].

قال تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان].

وفي الحديث: عن معاوية ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد»**[٢].

هذا: واللؤلؤ هو العقد من الدر ونحوه، ويسمى: الجوهر والجمان، وهو: حبوب بيضاء وصفراء، ذات بريق رقراق، تستخرج من أجواف حيوان مائي حلزوني، في غلاف مُغْلَق يسمى: صدَفًا، وهذه الحبوب تتفاوت في الكبر والصغر، وصفاء اللون وبياضه.

ويوجد اللؤلؤ في عدة بحار، منها: بحر العرب، وبحر الجابون، وأجوده عند مصب نهريْ دجلة والفرات يستخرجه الغواصون المدربون على استخراجه من قاع البحر.

أما الحرير: فهو اسم لخيوط تفرزها دودة القز، قبل أن تتحول إلى فَراشة ذات جناحين، ويؤخذ منها الخيوط التي نسجتْها فتوضع في ماء حار؛ لتزول المادة الصمْغية عنها، ومن هذا الخيط تنسج ثياب الحرير، وأكثر ما تكون في الصين، حيث يكثر شجر التوت.

ومن أنواع الحرير: السندس وهو الرقيق منه، والإستبرق وهو الديباج الغليظ[٣]. قال تعالى:

٢٤- ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

لقد هدى الله أهل الجنة في الدنيا إلى القول الطيب من كلمة التوحيد، وحمْد الله تعالى والثناء عليه، وسائر الأقوال الطيبة التي فيها ذكر الله تعالى والإحسان إلى عباده، وهداهم إلى طريق الإسلام المحمود الموصِّل إلى الجنة.

كما هداهم في الآخرة إلى الكلام الطيب الذي يحمدون الله به على حُسْن العاقبة.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٠).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (١٧٢٠) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٤٠٤) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٥٩٥).

(٣) «تفسير التحرير والتنوير» (١٧/ ٢٣٣).

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤].
ويقول أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر].

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]

وحين يطلب أحدهم شيئًا من الملائكة يقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ فإذا فرغ من حاجته قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾.

وتحيتهم في الجنة فيما بينهم هي السلام ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠]. ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥]. وهي تحية الملائكة لهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤].

وأهل الجنة ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة] لقد أرشدهم الله إلى الطيب من القول وعلى رأسه كلمة التوحيد، وذِكْر الله تعالى وتسبيحه وتقديسه، وهداهم إلى صراط الحميد، أي: الطريق المحمود، وهو طريق الرب الحميد في الدنيا، وهو طريق محمود في أفعاله وأقواله، إنه طريق الإسلام.

عُقُوبَةُ الْإِلْحَادِ فِي الْحَرَمِ وَكُفْرُ الصَّادِّينَ عَنْهُ

٢٥- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً(١) ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ(٢) وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

وكما استحق المؤمنون نعيم الجنة لاتباعهم صراط الله المستقيم، فإن المشركين الكافرين المكذبين استحقوا العذاب لكفرهم بالله، وصدهم عن سبيله، فالمؤمنون هدوا إلى الطيب من القول، والمشركون كفروا بالله وصدوا الناس عن سبيله، والصد عن الوصول إلى المسجد الحرام، يدخل في الصد عن سبيل الله تعالى، فهم قد جمعوا بين

---

(١) قرأ حفص بنصب الهمزة من (سواء) على أنها مفعول ثانٍ لجعلنا، أي: صيَّرنا. والعاكف فاعل، أي: جعلناه مستويًا فيه العاكف والباد، وقرأ الباقون بالرفع، على أنها خبر مقدم، والعاكف مبتدأ مؤخر، والجملة في محل نصب مفعول ثان لجعل.

(٢) قرأ ورش وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا وحذفها وقفًا من (والباد) وابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

الكفر بالله ورسوله، وبين الصد عن سبيل الله، ومنه الصد عن المسجد الحرام؛ ومنع الناس من الإيمان.

والمسلمون في مكة كانوا ضعفاء مضطهدين، وقد خرج النبي ﷺ من مكة إلى المدينة مهاجرًا بعد أن تآمر المشركون على قتله، صلوات الله وسلامه عليه، وبعد سنوات ست من هذه الهجرة، قَوِي الإسلام، وتكونت دولته، وأصبح المسلمون في عزة ومنَعة، فجاء النبي ﷺ من المدينة ومعه جمع من الصحابة قاصدًا بيت الله الحرام لأداء مناسك العمرة، فصده المشركون، ومنعوه وأصحابه من الوصول إلى البيت الحرام.

وعند الحديبية على مشارف مكة، كانت مفاوضات بين النبي ﷺ ومشركي مكة، انتهت بما عُرف بشروط صلح الحديبية، وكان منها: أن يرجع النبي ﷺمن عامه هذا على أن يؤدي عُمرة القضاء في العام المقبل، ورجع النبي ﷺ بعد أن تحلل ونحر الهدي،وكان هذا الصلح مقدمة للفتح الأكبر الذي تم بمكة بعد عامين اثنين من صلح الحديبية.

وإلى هذا المعنى تشير هذه الآية،وهي آية عامة، تتناول كل كافر وكل صاد عن سبيل الله، من المنصِّرين، والملحدين، والعلمانيين، وغيرهم ممن يشككون المسلمين في عقيدتهم، ويحاولون إخراجهم منها.

وكذا كل من يعمل على منع الناس من الدخول في الإسلام، وكل من يحول بين المسلمين وبين وصولهم إلى المسجد الحرام، أو أداء المناسك من الطواف والسعي والوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة ورمي الجمار، ولذا جاء الصدُّ بلفظ المضارع؛ ليشمل الحاضر والمستقبل، ويأخذ صفة الاستمرار.

وقد جمع الله في هذه الآية أوصافًا ثلاثة هي: الكفر، والصد عن دين الله، ومنع الناس من الوصول إلى المسجد الحرام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هذه واحدة، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذه الثانية، ويصدون الناس بصفة خاصة عن ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ هذه هي الثالثة، ومثال هذا الترتيب في الآية قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

وقد جعل الله سبحانه المسجد الحرام قبلة للخلائق جميعًا، يتجهون إليها في صلاتهم، وجعلَه منسكًا متعبدًا للطائفين والعاكفين، وجميع الناس في هذا سواء، لا يُمنع من دخول الحرم إلا مَنْ منعتْه الشريعة، كالحائض والنفساء وغير المسلم، يستوي في ذلك من أتى من أقصى الغرب كأهل الأندلس، ومن أتى من أقصى الشرق كأهل أندونيسيا، يستوي فيه الخلق جميعًا، فلا يُمنع أحد من الوصول إلى البيت الحرام وأداء المناسك، سواء أكان من أهْل مكة والجزيرة والحجاز، أم من سائر أقطار العالم، يستوي فيه العاكف وهو المقيم فيه، والباد، أي: من جاء من البادية، أو من مكان بعيد وهو المسافر إليه.

عن جبير بن مطعم ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«يا بني عبد مناف، لا تمنعوا أحدًا طاف بهذا البيت وصلَّى، أيَّ ساعة شاء من ليل أو نهار»**[1].

حكم بيع واستئجار بيوت مكة:

ولهذا فإن للفقهاء في هذا المقام أحكامًا تتناول بيوت أهل مكة أيام الحج والعمرة، وأنه لا ينبغي لأحد من ساكني مكة أن يمنع أحدًا من دخولها لأداء النسك.

ولا يجوز لأصحاب البيوت أن يمنعوا الحجاج والمعتمرين من الإقامة في ديارهم لأداء المناسك، سِيَّمَا ممن لا يملك الإقامة في الفنادق أو الشقق المفروشة، ونحوها.

وكانت مكة تدعى (السوائب) في زمن الرسول ﷺ، وأبي بكر، وعمر ﷺ، وقد كان عمر ﷺ يمنع وضع الأبواب على دور مكة؛ لكي تكون مكانًا وملجأ يأوي إليها كل من جاء إلى بيت الله الحرام، غير أنه لا يُطْرَدُ أحد من بيته.

وأول من وَضع بابًا على داره: سهيل بن عمرو، فأرسل إليه عمر في ذلك، فقال: إني تاجر، وأريد أن أحمي بضاعتي، قال عمر: فذلك إذًا.

كما تحدث الفقهاء عن مِلْكية دور مكة واستئجارها وتوريثها:

١- فأجاز ذلك مطلقًا مالك والشافعي أخذًا من أن عمر بن الخطاب اشترى بيتًا من

---

(١) أخرجه الترمذي (٨٦٨) وأبو داود (١٨٩٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٥٧٤) وابن ماجه (١٢٥٤) و«المسند» (١٦٧٤٣) حديث صحيح، وابن حبان (١٥٥٢-١٥٥٤) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٠٣٦) وفي الإرواء (٤٨١) والروض النضير (٤٧٢).

صفوان بن أمية بأربعة آلاف درهم، فجعلها سِجْنًا، وكان صفوان مشركًا، من أهل مكة.

٢- وأجاز بعض الفقهاء كإسحاق و الإمام أحمد أن تورَّث دور مكة ولا تؤجَّر.

ولكل من هذه الأقوال الفقهية آثار وأدلة.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾ [محمد].

والمعنى: إن الذين كفروا بالله، وكذبوا بما جاءهم به محمد ﷺ، ويَمنعون غيرهم من الدخول في دين الله، وكذلك الذين صدوا رسول الله ﷺ والمؤمنين عام الحديبية عن المسجد الحرام الذي جعلناه لجميع المؤمنين، سواء، المقيم فيه والقادم إليه.

ومن بلاغة القرآن الكريم حذف خبر إن؛ للتهويل والترهيب، فليس في الآية بيان لعقوبة هؤلاء، كأن مجرد ذكر أوصافهم يُغني عن بيان عقوبتهم، ويتضح منه مصيرهم.

والتقدير: لهم عذاب أليم موجع، ويدل عليه نهاية الآية ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ وذلك لأن الصدَّ عن المسجد الحرام إلحاد في الحرم بظلم، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ أي: في الحرم كله، ومنه المسجد الحرام.

معنى الإلحاد في الحرم وعقوبته:

والإلحاد في الأصل: هو الظلم، والميل عن العدل، وهو المعصية، وهو الشرك، وعبادة غير الله تعالى، والوقوع في محظور من محظورات الإحرام، وارتكاب أي قول أو فعل منهي عنه، فإن تاب من ذلك تاب الله عليه.

والإلحاد بالحرم يشمل جميع المعاصي والذنوب، بدءًا من الإشراك بالله سبحانه، ومرورًا بالقتل والسرقة، ووصولًا إلى احتكار الطعام في مكة، وإيذاء الناس في الطواف والسعي ورمي الجمار، ونحو ذلك، بحيث يشمل الإلحاد كل صغيرة وكبيرة من المعاصي والذنوب.

ومن الآثار الواردة في حكم الإلحاد بالحرم:

١- ما ورد أن عبد الله بن عمر ﷺ كان له فسطاط خارج الحرم، وفسطاط آخر داخل الحرم، فكان إذا أراد أن يؤدب أهله أو خادمه يؤدبه في الفسطاط الذي هو خارج الحرم[١].

٢- وقال مجاهد، وهو من كبار التابعين: إن السيئات في الحرم المكي تضاعف فيه كمضاعفة الحسنات.

٣- وسئل أحمد: هل تُكتب السيئة أكثر من واحدة؟ قال: لا، إلا بمكة لتعظيم البلد[٢].

٤- ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ أرسل عبد الله بن أُنَيْس مع رجل من المهاجرين وآخر من الأنصار، فافتخر الرجلان بالأنساب، فغضب ابن أُنَيْس وقتل الأنصاري، ثم ارتدَّ عن الإسلام، وهرب إلى مكة، فأنزل الله فيه هذه الآية[٣] يبين أن الحرم لا يجير ظالمًا، ولا يجير قاتلًا، ولا يجير مرتدًّا ولا مشركًا، وأن مجرد قصد الظلم فيه يفضي إلى العقاب الشديد.

٥- ولما أراد أصحاب الفيل أن يهدموا البيت أذاقهم الله العذاب الأليم، وأرسل عليهم طيرًا أبابيل.

وجاء عن رسول الله ﷺ أن جيشًا يغزو الكعبة، حتى إذا كانوا في بيداء من الأرض، خُسف بأولهم وآخرهم[٤].

٦- في صحيح مسلم: أن حفصة ﷺ سمعت النبي ﷺ يقول: **«ليؤمَنَّ هذا البيت جيش يغزونه، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض يُخسف بأوسطهم، وينادي أوَّلهم آخرهم، ثم يُخسف بهم، فلا يبقى إلا الشريد الذي يُخبِر عنهم»**[٥].

٧- وعن أم سلمة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يعوذ عائذ بالبيت، فيُبعثُ إليه بعث،**

---

(١) ابن أبي شيبة (٤/ ٢٨٥) و«المطالب العالية» (٤٠٤٧) والطبري (١٦/ ٥١٠).

(٢) «زاد المسير» (٥/ ٤٢٣).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤١١) و«الدر المنثور» (١٠/ ٤٥٣).

(٤) الحديث رواه البخاري برقم (٢١٨٨) عن عائشة رضي الله عنها.

(٥) الروايتان في «صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٢) وانظر حديث عائشة في: «البخاري» (٢١١٨).

فإذا كانوا ببيداء من الأرض خُسف بهم» فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارهًا؟ قال: **«يُخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيَّته»** [٤].

وهذا كله من الإلحاد في الحرم، والهمُّ بالمعصية وعقد النية على ارتكاب محظور والتصميم عليه، يدخُل في الإلحاد.

٨- وعن ابن مسعود، وغيره ﷺ: لو أن رجلًا في الحرم همَّ بقتل رجل في عدن لأذاقه الله من العذاب الأليم[١].

٩- ومن ذلك حديث أبي بكرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»**، قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: **«لأنه كان حريصًا على قتل صاحبه»**[٢].

١٠- وعن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«أبغض الناس إلى الله ثلاثة: مُلْحِدٌ في الحرم، ومُبتغٍ في الإسلام سُنَّة الجاهلية، ومُطَّلِبُ دمِ امرئ بغير حق لِيُهْرِيق دمَه»**[٣].

١١- أتى عبدُ الله بن عمر، عبدَ الله بن الزبير، فقال: يا بن الزبير، إياك والإلحاد في الحرم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنه سيُلْحد فيه رجل من قريش، لو توزن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت»**، فانظر، لا تكن هو[٤].

ويدخل في ذلك - دخولًا أوَّليًّا- من يأتي إلى الحرم في موسم الحج أو العمرة يقصد سرقة الناس، وهم يطوفون في بيت الله الحرام، ومثل ذلك السرقة في منى أثناء رمي

---

(١) إسناده صحيح على شرط البخاري، كما قال ابن كثير في تفسير الآية، وأخرجه البزار (٢٢٣٦) زوائد، وأبو يعلى (٥٣٨٤) والحاكم (٢/ ٣٨٨) يُنظَر: «المسند» (١/ ٤٢٨) برقم (٤٠٧١، ٤٣١٦) إسناده حسن، وقد روى مرفوعاً وموقوفًا، والموقوف أصح، وأورد الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٧٠) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) البخاري في الإيمان برقم (٣١، ٧٠٨٣، ٦٨٧٥) ومسلم (٢٨٨٨) و«المستدرك» (٢/ ٣٨٨) و«المسند» (١/ ٤٢٨) وصححه أحمد شاكر ومحققوه برقم (٢٠٤٩٣).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٨٨٢).

(٤) يُنظَر: «المسند» (٢/ ١٣٦) ومثله عن عبد الله بن عمرو في «المسند» برقم (٦٢٠٠)، رجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن كناسة فقد روى له النسائي، (محققوه) وانظر حديث عبد الله بن عمر في المسند (٦٨٤٧).

الجمار، فكل ذلك من أعظم الإلحاد في الحرم، فالحرم مكان آمن، يأمن فيه الإنسان والحيوان والشجر والنبات على نفسه من كل عدوان.

ولقد سبق الإسلام النظم الحديثة في إيجاد مكان أعزل من السلاح، يأمن فيه المتخاصمون، فجعل البيت الحرام مكانًا آمنًا، يأمن فيه كل مخلوق على نفسه، من إنسان وحيوان وطير وشجر... فلا يخشى شيئًا وهو في رحابه.

وهذه الآية تخصيص لعموم قول النبي ﷺ: **«من همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة»**[١] أي: إلا المسجد الحرام، فإن من همَّ بسيئة في المسجد الحرام يُذِقْه الله من العذاب الأليم.، ومجرد إرادة الإلحاد في الحرم موجب لعذاب الله تعالى، فكيف بمن ظلم فيه، أو أشرك فيه مع الله غيره.

تَارِيخُ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ

٢٦- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ[٢] لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾

تتحدث هذه الآية عن بناء البيت، أي: واذكر -يا محمد- وقت أن بيَّنَّا لإبراهيم عليه السلام مكان البيت الحرام وهيَّأناه له، وكان مندثرًا غير معروف، فأرشدناه وأعلمناه موضع وجوده؛ ليكون مأوى للدين، ومعهدًا لإقامة الشعائر.

جاء في الآثار: أرسل الله سبحانه ريحًا فكنست -أي: نظَّفت- ما فوق أساس البيت، حتى أظهرت موضع الأساس الذي بنى إبراهيم عليه البيت[٣].

وقيل: أرسل الله سحابة فأظلت فوق البيت على قدر مساحة البناء، حتى ظهر الأساس

---

(١) من حديث ابن عباس في المسند (٢٥١٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، وأخرجه مسلم (١٣١، ٢٠٨) والطبراني (١٢٧٦٠) والبيهقي في الشعب (٣٣٤).

(٢) قرأ نافع وهشام وحفص وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (بيتي للطائفين)، والباقون بإسكانها.

(٣) هذه الريح يقال لها: ريح الخَجُوج، وقد جاء ذلك عند الطبري (٢/ ٥٥٧) وابن أبي حاتم (١/ ٢٣٢) والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٥٣).

لإبراهيم، فرفع قواعد البيت.

أخرج الحاكم بسند صحيح عن عليٍّ ﷺ قال: لمَّا أُمر إبراهيم ﷺ ببناء البيت، خرج معه إسماعيل وهاجر، فلما قدم مكة رأى على رأسه في موضع البيت مثل الغمامة، فيه مِثلُ الرأس، فكلَّمه فقال: يا إبراهيم، ابنِ على ظلِّي -أو على قدري- ولا تزد ولا تنقص، فلما بنى خرج، وخلَّف إسماعيل وهاجر، وذلك حيث يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾[1].

ففي هذا السياق أنه بنى البيت قبل أن يفارقهما، ويحتمل أن يكون قد حوَّط المكان وحجَّر حوله، ولم يرتفع بالبنيان، حتى كبر إسماعيل فبنياه معًا[2].

فإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قد رفعا القواعد من البيت، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وفي هذا إشارة إلى أن هناك قواعد كانت موجودة قبل رفع إبراهيم لهذه القواعد.

ذكريات من البيت الحرام:

وهكذا: فإن إبراهيم ﷺ حين جاء مكة لأول مرة قبل رفع القواعد بأعوام، ومعه ابنه الرضيع إسماعيل وأمه هاجر فوضعهما عند البيت وودَّعهما قائلًا: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾. ولم يكن إبراهيم قد رفع بناء البيت آنذاك، ثم قال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] أي: في هذا المكان، ولعل إبراهيم قد أحاط مكان البيت بسور بعد أن حدَّده الله له في ذلك اليوم كما سيأتي.

١- وكانت هذه الذكرى تدور في خاطر إبراهيم ﷺ فيما بعد، حين أُمِر ببناء البيت، حيث أودع ولده وزوجه هذا المكان لأول مرة، وكان مكان البيت مربَض غنَم لرجل من جُرهم، وقتما أظهر الله مكان البيت لإبراهيم.

٢- ويدور بخاطره أيضًا حينما ترددت هاجر بين الصفا والمروة، وهي تسعى سعيًا

---

(١) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، «المستدرك» (٢/ ٥٥١) وكتاب «التاريخ» للطبري (٢/ ٥٦٠).

(٢) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٨٥).

حثيثًا بحثًا عن الماء؛ لتنقذ ولدها الذي كاد يموت ظمأ، وفجَّر الله لها عين زمزم في هذا المكان المبارك.

٣- ويدور بخاطر إبراهيم حينما أمره الله سبحانه في المنام أن يذبح ابنه إسماعيل، وكان قد تركه في مكة هو وأمه ويتردد عليهما بين الحين والآخر على البراق من فلسطين، ثم جاء إليه يقول له: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ وكانت سن إسماعيل آنذاك ثلاثة عشر عامًا، فيقول الابن: سمعًا وطاعة ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

٤- وتدور الذكريات بهذا البيت العظيم، حينما أمر الله سبحانه عبد المطلب جدَّ النبي ﷺ وكان قد نذر إن رزقه الله عشرة من الأولاد أن يذبح أحدهم، وبعد أن رزقه الله عشرة أولاد، أراد أن يفي بنذره، فأقرع بين أبنائه، فخرجت القرعة على أصغرهم عبد الله والد النبي ﷺ ثم إنه أُمر أن يفديه من الذبح بمئة من الإبل، فنحر هذه المئة، وافتدى بها عبد الله من الذبح.

٥- وتمر الذكرى أيضًا بالنبي ﷺ مع هذه الآية لمَّا كان شابًّا في الخامسة والثلاثين من عمره، حين اختلفت قريش قبل البعثة وقت تجديد بناء البيت، وكادوا يتقاتلون على رفع الحجر الأسود، مَنْ مِنَ القبائل يرفعه ويضعه في مكانه؟ فرفعه النبي ﷺ بيده الشريفة ووضعه في مكانه، بعد أن جعل جميع القبائل تشترك في رفعه، وهو يتوسط الرداء الذي وُضِع فيه الحجر.

من الذي بنى البيت؟

١- والقرآن الكريم يتحدث عن بناء البيت من عهد إبراهيم عليه السلام، أما قبل ذلك فهو تاريخ وروايات وآثار، وظاهر القرآن يشهد لها كما سبق بيانه.

٢- من ذلك ما ورد أن آدم عليه السلام رأى البيت المعمور من السماء السابعة يطوف حوله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة لا يرجعون إليه مرة ثانية، فسأل ربه أن يجعل لذريته بيتًا في الأرض يطوفون حوله في محاذاة البيت المعمور، أو كالبيت المعمور الذي في

السماء، فأمر الله آدم ببناء البيت، فبناه آدم[١].

٣- وقيل: إن الملائكة بنته قبل آدم في محاذاة البيت المعمور فوق السماء السابعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران].

والآية بيَّنتْ أن الكعبة هي أول متعبَّد للناس في الأرض، وليس فيها إشارة إلى من بناها، بل إن لفظ: ﴿وُضِعَ﴾ جاء مبنيًّا للمجهول.

وفي الصحيحين: أن أبا ذر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أي المساجد وضع في الأرض أوَّلًا؟ قال: **«المسجد الحرام»**، قال: ثم أي؟ قال: **«المسجد الأقصى»**، قال: كم بينهما؟ قال: **«أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعدُ فصلِّ، فإن الفضل فيه»**[٢].

وهذا الحديث يبيِّن أن إبراهيم ﷺ بنى البيت، وهذا يشمل بدء البناء، ويشمل رفع القواعد، ويشير إلى أن إبراهيم هو الذي بنى المسجد الحرام، وبنى أيضًا المسجد الأقصى، وبينهما أربعون عامًا، وبعد أن بناه قال الله تعالى له: لا تشرك بي شيئًا وطهِّر بيتي لجميع الناس من الشرك والوثنية، أي: أقم بناء هذا البيت على التوحيد.

وكان المشركون يعبدون الأوثان من دون الله، وكانت الأصنام توجد داخل الكعبة، فأمره الله أن يقيم بيته من أول لحظة على توحيد الله ﷻ، وأن يُطَهِّره من الأرجاس والأدناس، والأنجاس، ومن الكفر والبدع، طهارة حسية وطهارة معنوية، أي: طهِّره من الأقذار ومن الدماء، والنجاسات والأصنام، وطهِّره من الإشراك بالله سبحانه، ومن الأصوات اللاغية والمرتفعة التي تشوش على المتعبدين.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية أنه لا يجوز أن يُترك عند البيت الحرام قذارة، ولا نجاسة معنوية ولا حسية، وكان أهل الجاهلية يطوفون حول أصنامهم كما يطوفون بالكعبة.

والمراد بالقائمين: الداعين الله تجاه الكعبة والمصلين عندها، وكان ولا يزال باب الملْتزم موضعًا للدعاء.

---

(١) يُنظَر: «مصنف عبد الرزاق» برقم (٩٠٩٠) وعبد بن حميد، والطبري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) الحديث في «البخاري» برقم (٣٣٦٦) واللفظ له، وانظر: (٣٢٢٥)، ومسلم برقم (٥٢٠).

ثم ذكر الله تعالى المصلين في البيت الحرام في قوله: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ وعبَّر عن الصلاة بأخص أركانها وهو الركوع والسجود.

والطواف عبادة قديمة، عرفه الأنبياء وغيرهم، فهما أكثر ما يتعلق بالبيت، أي: الطواف به والاتجاه إليه في الصلاة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وجاءت الصلاة مقرونة بالطواف؛ لاشتراكهما في البيت: قبلة، وطوافًا.

خَلِيلُ الرَّحمَنِ يَدْعُو النَّاسَ لِحَجِّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ

٢٧- ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾

ولما بنى إبراهيم البيت أمره ربه أن يؤذِّن في الناس بالحج، ويدعوهم إلى زيارة هذا البيت، قال إبراهيم: يارب، وماذا عسى أن يبلغ صوتي؟! قال الله تعالى: أذِّن وعليَّ البلاغ. قالوا: فوقف إبراهيم فوق الحجَر الذي كان يقف عليه ليبني البيت، أو فوق جبل أبي قبيس، أو وقف فوق الصفا، ونادى: أيها الناس، إن الله كتب عليكم الحجَّ فحُجُّوا، فتطامنت له الجبال وتواضعت -أي: انخفضت- حتى وصل صوته إلى أرجاء الأرض، فعمَّ الدنيا، وسَمِعَه كل شجر وحجر ومدر، وأجابه كل من كتب الله له أن يحج وهو في رحم أمه وصُلْب أبيه: لبيك اللهم لبيك[1].

وكان إبراهيم رجلًا رحَّالة، ينادي بالحج في كل مكان استجابة لأمر ربه: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي: مشاة لمن كان قريبًا واستطاع المشي، ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ﴾ بعير ﴿ضَامِرٍ﴾ خفيف اللحم، متعب من العمل، مجهد من السفر، لمن كان أبعد قليلًا، ويأتوك بالطائرات لمن جاءك من بلاد بعيدة، وبالسفن والبواخر، ويأتوك بالسيارات الفارهة وعلى الدواب وغير ذلك ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

وقد فعل إبراهيم فدعا الناس إلى الحج، وهكذا فعل محمد ﷺ، وقد حصل ما وعد الله به، فأتاه الناس ركبانًا ومشاة من مشارق الأرض ومغاربها.

---

(١) جاءت الروايات بهذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم.

والفج: هو الطريق المتسع، وأصله: الفجوة بين جبلين، والأذان هو الإعلام مع رفع الصوت.

وقد أجاب الله سبحانه دعاء إبراهيم حين قال: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. فالناس يقصدون الحرم من جميع الأقطار والجهات، وما من مسلم -ولو كان ضعيف الإيمان- إلا وهو يحنُّ إلى رؤية الكعبة، والطواف حولها، والعودة إليها مرة بعد مرة.

أخرج ابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير قال: لما أُمر إبراهيم بدعاء الناس إلى الله، استقبل المشرق فدعا، ثم استقبل المغرب فدعا، ثم استقبل الشام فدعا، ثم استقبل اليمن فدعا، فأُجيب: لبيك لبيك.

ومن هنا شُرعت التلبية في الحج والعمرة.

وعن ابن عباس ﷺ قال: لما أُمر إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج تواضعت له الجبال، ورُفعت له الأرض، فقام فقال: يأيها الناس، أجيبوا ربكم[1].

ومعنى الآية: وأَعْلِم يا إبراهيم الناس بوجوب الحج على المستطيع منهم، يأتوك مسرعين على مختلف أحوالهم: مشاة على أقدامهم، وركبانًا على وسائل النقل المختلفة، من كل مكان بعيد وقريب، وتلبية هذا النداء من إبراهيم لا تزال تتحقق، وإلى أن تقوم الساعة.

وقد فُرض الحج بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

ويقول النبي ﷺ من حديث أبي هريرة ﷺ: «**أيها الناس: إن الله قد فرض عليكم الحجَّ فحُجُّوا...**»[2]

وهو أحد الأركان الخمسة كما في الحديث: «**بُني الإسلام على خمس**»[3].

وقد رغَّب الإسلام في الحج، وبيَّن فضله في مثل قوله ﷺ: «**الحج المبرور ليس له**

---

(١) الطبري (١٦/٥١٦) والطبراني (١٠٦٢٨) والبيهقي (٤٠٧٧) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/٢٥٩): ورجاله ثقات.

(٢) من حديث أبي هريرة في صحيح مسلم برقم (١٣٣٧).

(٣) حديث ابن عمر في البخاري برقم (٨، ٤٥١٤) ومسلم برقم (١٦).

جزاء إلا الجنة»[١].

وقوله: «**من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**»[٢].

ويجب الحج على المسلم البالغ العاقل المستطيع، وهو أفضل الأعمال بعد الإيمان والجهاد.

مِنْ فَوَائِدِ الْحَجِّ

٢٨- ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾

ثم علَّل سبحانه الأمر بإعلام الناس بفريضة الحج، بأنه كي يحصِّل كل واحد منهم ما ينفعه في دينه ودنياه، فقال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾.

وفي الحج منافع دينية: بغفران الذنوب، والثواب الأخروي، على أداء النسك، ورضوان الله تعالى، والعتق من النار، وإجابة الدعاء.

وفيه منافع دنيوية: بالتجارة، والتعاون، واللقاء بين الناس من مختلف الأجناس والألوان واللغات، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

عشر ذي الحجة: وخص من هذه المنافع ذكر الله تعالى على ذبح الهدْي في مواسم الحج، فقال: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ أي: يذكروا اسمه وفضله ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ هي عشر ذي الحجة وثلاثة أيام التشريق على ما تفضَّل الله به عليهم، وأنعم عليهم به من الصلاة والذكر والدعاء، فيقول الحاج: (باسم الله، الله أكبر) حين يَذبح الهدْي والأضحية والفدية والنذر وغير ذلك مما يتقرب به إلى الله تعالى في الحج وغيره، والأيام المعلومات هي التي أقسم الله بها في قوله: ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ [الفجر].

---

(١) من حديث أبي هريرة في صحيح مسلم (١٣٤٩) والمسند (٧٣٥٤، ٩٩٤١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وهو في صحيح الترغيب والترهيب (١١٠٤) وابن خزيمة (٢٥١٣) وعند الحميدي (١٠٠٢) والطيالسي (٢٤٢٣) وعبدالرزاق (٨٧٩٩).

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (١٥٢١، ١٨٢٠) ومسلم برقم (١٣٥٠).

وقيل: هي المرادة في قوله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وهي تشتمل على يوم عرفة، وقد سئل النبي ﷺ عن صيامه، فقال: **«أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية»**[١].

وتشتمل أيضًا على يوم النحر، وقد ورد فيه أنه أفضل الأيام عند الله[٢].

وهذه العشر أفضل أيام السنة؛ لحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال **«ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله تعالى من هذه الأيام»** -يعني: العشر- قالوا: يا رسول، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: **«ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء»**[٣].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«ما من أيام أعظم عند الله، ولا أحب إليه العمل فيهن، من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد»**[٤].

وكان ابن عمر وأبو هريرة رضي الله عنهما يخرُجان إلى السوق في أيام العشر، فيكبِّران ويكبِّر الناس بتكبيرهما[٥].

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يعدُّ أيام التشريق من الأيام المعلومات.

والجمهور على أن الأيام المعدودات هي أيام التشريق الثلاثة التي قال الله فيها: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]. والأيام المعلومات هي عشر ذي الحجة.

الهدْي: ويتعيَّن ذكر اسم الله تعالى على كل ما يذبحه المسلم؛ لورود النهي عن الأكل مما لم يذكر عليه اسم الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ

---

(١) رواه مسلم عن قتادة برقم (١١٦٢) و«المسند» (٢٢٦٥٠، ٢٢٥٣٧) وفيهما أنه يكفر السنة الماضية والباقية، وهو عند أبي داود (٢٤٢٦) وابن ماجه (١٧١٣) والترمذي (٧٤٩) وإسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) من حديث عبد الله بن فرط، أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٣٥٠) وأبو داود برقم (١٧٦٥).

(٣) «المسند» (٢/ ٧٥) برقم (١٩٦٨، ١٩٦٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين والبخاري برقم (٩٦٩).

(٤) رواه أبو عوانة كما في «إرواء الغليل» (٣٩٨١٣)، وهو في مسند أحمد (٥٤٤٦، ٦١٥٤) وهو حديث صحيح وفيه يزيد الهاشمي وباقي رجال إسناده ثقات رجال الشيخين (محققوه) وأخرجه البيهقي في الشعب (٣٧٥٠) وعبد بن حميد (٨٠٧) والطحاوي في شرح المشكل (٢٩٧١).

(٥) يُنظَر الحديث في: «البخاري» برقم (٩٦٩) وأبي داود برقم (٢٨٣٨) واللفظ له، والترمذي برقم (٧٥٧) وابن ماجه برقم (١٧٢٧).

لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

فلابد من ذكر اسم الله تعالى على كل ما يذبح ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ وهي الإبل، والبقر، والغنم.

ثم أمر سبحانه بالأكل منها، فقال: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ وهذا الأمر للإباحة أو الاستحسان وليس للوجوب؛ لأن الأمر بعد النهي يقتضي الإباحة، وكان أهل الجاهلية لا يأكلون من لحوم هداياهم فأُمِرْنا بمخالفتهم.

وفي حديث جابر ﷺ: أن النبي ﷺ قال عن لحوم الأضاحي: «**كلوا وتزوَّدُوا وادَّخروا**»[1].

وكان النبي ﷺ قد نهى عن الأكل منها أكثر من ثلاثة أيام، ثم نُسِخ هذا.

واتفق أهل العلم على أن الهدْي إذا كان تطوعًا فإنه يجوز للمُهدِي الأكل منه، وكذلك الأضحية؛ لما رُوِي عن جابر ﷺ في حجة الوداع قال: وقدِم عليٌّ بِبُدْنٍ من اليمن، وساق رسول الله ﷺ مئة بدنة، فنحر منها رسول الله ﷺ بيده ثلاثًا وستين بدنة، ونحر عليٌّ ما بقي، ثم أمر من كل بدنة بِبُضْعَة، فجُعِلَتْ في قِدْرٍ وطُبخت، فأكل من لحمها وشَرِب من مرقها[2].

واختلفوا في دم التمتع والقران فأجاز الأكل منهما أبو حنيفة، وأحمد، ومالك، ومنعه الشافعي.

أما دم الفدية فلا يجوز الأكل منه عند جميعهم.

ثم أمر سبحانه بإطعام البائس الذي لا يجد شيئًا من شدة الحاجة وهو المسكين، فقال: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ وهذا الأمر للوجوب لإطعام البائس الذي أصابه البؤس، فظهر في وجهه وفي ثيابه من ضيق المال، والفقير شديد الفقر والحاجة، وقد لا يظهر الفقر عليه، ويحسبه من يجهل حاله غنيًا.

---

(١) مسلم برقم (١٩٧٢)، وفي البخاري عن سلمة بن الأكوع برقم (١٧١٩، ٢٩٨٠، ٥٤٢٤، ٥٥٦٧، ٥٥٦٩).

(٢) من حديث طويل أخرجه مسلم برقم (١٢١٨).

مِنْ مَنَاسِكِ الْحَجِّ

٢٩- ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ[١] تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ[٢] نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

اشتملت هذه الآية على ثلاثة مناسك، هي: قضاء التفث، والوفاء بالنذر، وطواف الإفاضة، وذلك أن من جملة ما خاطب الله به إبراهيم ﷺ **ثلاثة أشياء**:

الأول: إزالة التفث:

وهو الحلق أو التقصير، بأن يكمل الحجاج ما بقي عليهم من النسك لخروجهم من إحرامهم ويزيلوا ما لحق بهم من وسخ وأذى كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ أي: لِيُزيلوا ما تراكم من وسخ في أبدانهم، والتفث من مناسك الحج وأفعاله.

قال الحريري في المقامة المكية: فلما قضيت بعون الله التفث: واستبحتُ الطيب والرفث.

والنظافة وإزالة الأوساخ من مقدِّمات الإحرام أيضًا مثل: إزالة الشعر، وقص الشارب، وتقليم الأظافر، وكذلك الشأن في نهاية الإحرام؛ لإزالة الأوساخ بعد مدة الإحرام.

والمراد: الخروج من الإحرام بالحلق، أو التقصير، وتمام النظافة.

أخرج آدم بن أبي إياس بسند صحيح عن مجاهد قال في **التفث**: هو حلق الرأس، وحلق العانة، وقص الأظفار، وقص الشارب، ورمي الجمار.

وقال ابن عباس ﷺ: **التفث** وضع إحرامهم من حلق الرأس، ولُبس الثياب، وقص الأظفار، ونحو ذلك.

الثاني: الوفاء بالنذر:

فإن كان الحاج قد نذر عملًا زائدًا على أعمال الحج المفروضة، بأن نذر طوافًا زائدًا،

---

(١) قرأ ورش وقنبل وأبو عمرو وابن عامر ورويس بكسر لام (لِيقضوا) وصلًا وبدءًا؛ لأن الأصل في لام الأمر هو الكسر، وقرأ الباقون بإسكانها وصلًا للتخفيف، وكسرها بدءًا.

(٢) قرأ ابن ذكوان بكسر لام (ولِيوفوا ولِيطوفوا) وصلًا وبدءًا، والباقون بإسكانها وصلًا وكسرها بدءًا. وقرأ شعبة بفتح الواو وتشديد الفاء من (وليوَفُّوا) مضارع وفَّى، والباقون بإسكان الواو وتخفيف الفاء مضارع أوفى، وهو لغة في وفَّى.

أو اعتكافًا في المسجد الحرام، أو يذبح ذبيحة لله تعالى، أو يطعم فقيرًا، ونحو ذلك، فعليه أن يفي بما نذر، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾.

والنذر: التزام قربة إلى الله تعالى غير واجبة على من التزمها.

وهذا يفيد أن النذر كان معروفًا في شريعة إبراهيم، وصيغة النذر أن يقول العبد: لله تعالى عليَّ كذا. والنذر لغير الله معصية لا يوفَّى به، ولا يُذبَح بمكان يُذبح فيه لغير الله، وصناديق النذور التي عند أضرحة بعض الأولياء وآل البيت في بعض بلاد المسلمين، أموالها ليست مشروعة؛ لأنها نذر لغير الله تعالى، وُقد وضعت هذه الأموال في مكان يُنذَر فيه لغير الله، والنذر إن كان فيه طاعة أو أمر مباح يلزم الوفاء به، وإن كان نذرًا في معصية فلا يجوز الوفاء به.

في حديث عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه**»(١).

ولا ينذُر الإنسان ما لا يملك، ولا ينذر ما وجب عليه، كأن ينذر صيام شهر رمضان، إذ لا أثر لنذره هذا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وقال سبحانه: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان].

وفي الحديث عن عمر ابن حصين ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**لا وفاء لنذر في معصية، ولا فيما لا يملك العبد**»(٢).

والنذر يوفَّى إذا ألزم الإنسان نفسه به، وقبل النذر لم يكن ملزمًا بشيء.

الثالث: الطواف بالبيت:

وفي ختام خطاب الله تعالى إلى إبراهيم ﵇، يأتي الأمر بالطواف بالبيت، تنبيهًا على أنه آخر أعمال الحج، وهو طواف الإفاضة الذي يأتي بعد الوقوف بعرفة، وبعد رمي

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٩٦، ٦٧٠٠).

(٢) يُنظَر: «صحيح مسلم» برقم (١٦٤١) في آخر حديث طويل عن عمران بن حصين.

جمرة العقبة، قال تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وسمِّي البيت عتيقًا؛ لأن الله أعتقه من تسلط الجبابرة عليه، وهو بمعنى القديم؛ لأنه أول بيت وُضع للناس متعبدًا في الأرض، وهو عتيق لأن مكانه غير مملوك لأحد، وعتيق، لأن الله تعالى يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب، وعتيق، لأنه أقدم بيوت العبادة لله تعالى، وهو أفضل المساجد الإطلاق.

عن ابن عباس ﷺ أنه قال: أُمِر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض[١].

وحِجْرُ إسماعيل من البيت، فيلزم الطواف من ورائه.

قال ابن عباس: الحِجْر من البيت؛ لأن رسول الله ﷺ طاف بالبيت من ورائه[٢].

وأنواع الطواف ثلاثة

١- **طواف القدوم**: وهو سُنَّة، ويُجزئ عنه طواف العمرة لمن كان متمتعًا، ويرمل المحرم في الأشواط الثلاثة الأولى منه.

٢- **طواف الإفاضة**: ويسمَّى طواف الحج والزيارة، ويكون يوم النحر وأيام التشريق.

٣- **طواف الوداع**: ويسقط عن الحائض والنفساء.

والرَّمَل مختص بطواف القدوم أو العمرة، والعمرة ليس لها طواف وداع، إلا إذا أقام بمكة يومًا فأكثر بعد أداء العمرة.

تَعْظِيمُ حُرُمَاتِ اللهِ وَشَعَائِرِهِ

٣٠- ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾

ذلك الذي أمر الله به من قضاء التفث، والوفاء بالنذور، والطواف بالبيت، هو ما أوجبه الله عليكم فعظِّموه، فإنَّ ذِكْرَ الله تعالى في مناسك الحج، وإقامة الشعائر، ولُبس

---

(١) البخاري برقم (٣٢٩) وانظر: (١٧١٠، ١٧٥٥) ومسلم برقم (١٣٢٨).

(٢) «صحيح ابن خزيمة» برقم (٢٧٤٠) وصححه المحقق، وصححه الحاكم بموافقة الذهبي (١/ ٤٦٠) وسنن البيهقي (٥/ ٩٠).

الثياب بعد خلْع ملابس الإحرام، وإزالة الشعر والأوساخ والأدران، وامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وأداء مناسك الحج والعمرة من الطواف والسعي، والوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة، ورمي الجمار، والذبح، والحلق أوالتقصير، وغيره، كل ذلك يطلق عليه حُرُمات الله، أي: كل ما حرم الله، وأمر بتعظيمه، وكل ماله حُرمة وأمر باحترامه، بعبادة أو غيرها.

﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في مناسك الحج سِيَّمَا الدماء التي يَتقربُ بها الحاج إلى ربه: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ إذا أداها كاملة خالصة لوجه الله تعالى فهي خير له في الدنيا والآخرة، وله الأجر العظيم عند الله سبحانه، فإذا تركتم تعظيم حرمات الله للحصول على منفعة دُنيويَّة، أو متاع زائل، أو شهوة عارضة، فإن التمسك بهذا التعظيم أفضل بكثير عند ربكم، فلا تستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتعظيم الحرمات يكون: بإجلالها واحترامها ومحبتها، وتكميلها، وعدم التهاون فيها أو التكاسل عنها، أو التثاقل لها.

ولما كان المشركون يُحَرِّمون ما ليس من حرمات الله في أمر الذبائح، قال جلَّ شأنه: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إلا ما حرمه الله عليكم في كتابه، وقد كان أهل الجاهلية لا يأكلون من الهدْي، فأمر الإسلام بمخالفتهم، وكانوا يُحرِّمون البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، فأمر الإسلام بمخالفة ذلك، ولم يحرِّم الإسلام إلا ما جاء النص بتحريمه.

وقد أحلَّ الله لكم الأنعام أن تأكلوها، وتستخدموها، وتشربوا ألبانها، إلا ما تُلِيَ عليكم في القرآن، ومنه عَشْرُ محرمات حرمها الله سبحانه في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٨].

هذه عَشْرٌ من الذبائح حرمها الله في هذه الآية، وفي سورة الأنعام، وهي قبل سورة المائدة في النزول، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

فالمعنى: وأُحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم في القرآن في مثل هذه الآيات.

والقرآن قال: ﴿يُتْلَىٰ﴾ بالفعل المضارع؛ ليشمل المحرمات السابق نزولها على نزول (سورة الحج)، ويشمل ما ينزل بعدها؛ ليعم اللفظ كل ما في القرآن، فإن سورة (المائدة) نزلت بعد (سورة الحج) بكثير، فالإحالة تكون أولًا على سورة الأنعام، ثم المائدة، ثم الحج.

ولما كان المشركون يذْبحون على الأوثان، فقد نبَّه سبحانه على أن ذلك رجس وشرك يجب تركه، فقال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ أي: ابتعدوا عن القذارة التي هي الأوثان، وابتعدوا عن الذبح عندها، واجتنبوا عبادة الأوثان فهي رجس، واجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، ولأن الشرك افتراء على الله تعالى، وقول الزور افتراء على الناس، فابتعدوا عن الكذب المفترى على الله، والكذب المفترى على الناس.

قال تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ أي: اتركوا الكذب على الله، واتركوا نسبة الولد والشريك إلى الله، واجتنبوا وصف الله تعالى بما لا يليق به، وابتعدوا عن شهادة الزور، والكذب على الناس.

صلَّى النبي ﷺ صلاة الصبح يومًا، ثم توجَّه إلى الناس ووقف قائمًا، فقال: «**عدلَتْ شهادة الزور الإشراك بالله ﷻ**»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[1].

وفي الحديث: عن أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**»؟ ثلاثًا، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**» -مقرونًا بالإشراك بالله- وكان متكئًا فجلس - للاهتمام وتعظيم الأمر الذي بعده - فقال: «**ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور**»، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[2].

ولما نهى الله سبحانه عباده عن الشرك والرجس وقول الزور، أمرهم أن يكونوا:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده عن خُريم بن فاتك الأسدي: وله صُحْبة (٤/ ٣٢١) برقم (١٨٨٩٨) بسند ضعيف (محققوه) ويُنظَر: «تفسير الطبري» (١٧/ ١١٢) و«سنن الترمذي» برقم (٢٢٩٩)، وأبو داود (٣٥٩٩) وابن ماجه (٢٣٧٢) والطبراني في الكبير (٤١٦٢) وابن أبي شيبة (٨/ ٢٥٧).

(٢) أخرجه البخاري عن أبي بكرة برقم (٦٩١٩) و(٢٦٥٤) ومسلم برقم (٨٧) و«المسند» بإسناد صحيح على شرط الشيخين (٣٤/ ٢٢) برقم (٢٠٣٨٥، ٢٠٣٩٤) والترمذي (١٩٠١)، والبزار في مسند (٣٦٢٩٥).

٣١- ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ[١] ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ[٢] فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾

فإن اجتنبتم عبادة الأوثان - أيها الناس - كنتم مخلصين لله العبادة، وكنتم على ملة إبراهيم حقًّا ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مستقيمين على الحق، موحدين لله سبحانه، مائلين عن الشرك وعن كل دين باطل إلى التوحيد ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾.

ثم ضرب القرآن الكريم المثل للمشرك بالله تعالى، بأنه يشبه شخصًا سقط على الأرض من مكان مرتفع جدًّا،

ولما سقط قطَّعت الطير أوصاله ومزَّقته إربًا إربًا، وهذا الأخير مثَل للمشرك المذبذب المتشكك في شركه.

أما مثَل المشرك المصمم على شركه المتمسك به، فكأن الريح أهوت به إلى مكان بعيد جدًّا، حيث لا يُعثَر له على جُثة.

هذا هو مثل صاحب القدم الراسخة في الشرك فجاء في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ هذه صفته في الدنيا، أما جزاؤه في الآخرة فهو كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وهما صورتان تنخلع لهما القلوب. والأول يرجى توبته، بخلاف الآخر، فإن توبته بعيدة المنال، هذا معنى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ وتقطِّع جسده أشْلاء، هذا حال المشرك المذبذب في شركه.

فالآية تدعو إلى الاستقامة على منهج الله تعالى، وإخلاص العمل له سبحانه، وإفراده بالطاعة، والإقبال عليه بالعبادة، وترك الشرك وأهله، فإن مات العبد على الشرك من غير توبة، فقد وقع في هلاك محقق لا نجاة له منه بحال، ومثَلُه في البعد عن الهدَى والتردِّي إلى حضيض الكفر كشخص سقط من السماء إلى الأرض فتمزَّقت أوصاله، وقطَّعت الطير أعضاءه، وفرَّقتْه في حواصلها، أو مثله كمثل شخص حملتْه عاصفة شديدة من الريح،

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح الخاء والطاء مشددة من (فتخَطَّفه) مضارع تخطَّف، حذفت منه إحدى التاءين، والباقون بسكون الخاء وفتح الطاء مخففة، مضارع خطِف بالكسر.

(٢) قرأ أبو جعفر بخلف عنه (الرياح) بالجمع، والباقون (الريح) بالإفراد.

وألقت به في مكان بعيد لا خلاص له منه بوجه من الوجوه، وهذا هو الهلاك المحقق، نسأل الله السلامة والعافية.

قال عليٌّ ﷺ: إذا حدَّثتكم عن رسول الله، فلئن أَخِرَّ من السماء إلى الأرض ،أهون عليَّ من أن أكذب عليه[1].

وقد ضرب الله سبحانه للمشرك مثلًا آخر في سورة الأنعام فقال: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام].

وهكذا: فإن الإيمان بمنزلة السماء، محفوظة مرفوعة، والمشرك بمنزلة الساقط من السماء، عرضة للآفات والقاذورات، فتخطفه الطير فتقطع أعضاءه، وتخطفه الشياطين وتمزقه، وتذهب عنه دينه ودنياه.

وعن تحريم الشرك، وقول الزور، وافتراء الكذب على الله تعالى، يقول سبحانه:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف]. قال تعالى:

٣٢- ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾

وبعد أن بيَّن سبحانه أن تعظيم حرمات الله بوجه عام خير للمؤمن في الدنيا والآخرة، خصص جلَّ شأنه في هذه الآية من هذه المحرمات شعائر الله في الحج، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

وقال: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وشعائر الله هي معالم الحج: الكعبة، والصفا والمروة، وعرفة، والمشعر الحرام، ومنى، والجمرات، والمزدلفة.

وتطلق الشعيرة أيضًا على: (بدنة الهدْي)، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/ ١٢٠).

شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ [٣٦]. وهذا هو المراد هنا، وكانوا يَطْعَنُونها في جنبها الأيمن، ويكون هذا علامة على أنها خُصِّصت للهدْي.

والمعنى: ذلك الذي أمركم الله به من توحيده وإخلاص العبادة له، ومن يمتثل أمر الله ويجتنب نهيه، ومن يعظِّم مناسك الحج وشعائره، ومنها الذبائح التي تُنحر فيه، وذلك بحسن اختيارها وتعظيم شأنها، فإن هذا التعظيم من أفعال أصحاب القلوب المتصفة بتقوى الله وخشيته.

وقد ورد أن النبي ﷺ أهدى مئة بدنة، فيها جمل في أنفه حلقة من ذهب، لأبي جهل، وأهدى عمر نجيبة -والناقة النجيبة: هي القوية الخفيفة السريعة- فطُلبت منه بثلاث مئة دينار، فسأل النبي ﷺ أن يبيعها ويشتري بثمنها بُدْنًا، فنهاه النبي ﷺ وقال له: «**بل انحرها**»[1].

فإذا كان هذا هو هدْي الإسلام في الهدية، فما بالكم بما يُهدَى إلى الحرم في النسك.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أوامره ونواهيه، ومعالم الدين الظاهرة، وتعاليم الإسلام كلها بشكل عام، ومنها مناسك الحج.

والمراد بالشعائر في هذه الآية: الهدْي والذبائح المعلَّمة بعلامة يُفهم منها أنها من ذبائح الحرم، وتعظيمها حُسن اختيارها وعدم التعرض لها بأذى، وقد كانوا يُشْعِرون الهدْي التي تذهب إلى مكة من المدينة أو من غيرها، وكانوا يضعون فيها قلادة، فتسرح وتمرح، ولا يتعرض لها أحد، حتى تصل إلى البيت المعمور؛ فالناس تَعرِف بهذه العلامة أنها مُشْعَرة، وأنها في طريقها إلى المسجد الحرام.

ومن تعظيم شعائر الله في ذبح الأضحية، أو الهدْي، أو الفدية، أو النذر، أن يستسمنها المضحِّي، ويختارها من أجود الذبائح؛ فإن هذا يدل على قوة الإيمان، ويدل على التقوى.

وفي حديث البراء بن عازب ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**أربع لا تجوز في الأضاحي**:

(١) «تفسير الألوسي» (١٧/ ١٥٠) و«المسند» (٢/ ١٤٥) عن ابن عباس برقم (٢٤٢٨) حديث حسن (محققوه)، وانظر (٢٨٨٠، ٢٠٧٩) وعن ابن عمر (٦٣٢٥) بإسناد ضعيف و«سنن أبي داود» برقم (١٧٥٦) عن ابن عمر والبيهقي في السنن (٥/ ٢٤١) والبخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٢٣٠).

العوراء البيِّن عوَرها، والمريضة البيِّن مرضها، والعرجاء البيِّن عرجها، والكسيرة التي لا تُنقِي»[١] فهذه العيوب لا تجعلها جائزة.

وعن محمد بن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: الوقوف بعرفة من شعائر الله، وبجمْع من شعائر الله، والبدْن من شعائر الله، ورمْي الجمار من شعائر الله، والحلق من شعائر الله، فمن يعظمها فإنها من تقوى القلوب، لكم في كل منها منافع حتى تخرجوا منه إلى غيره، ومحل هذه الشعائر كلها الطواف بالبيت العتيق[٢] قال تعالى عن الهدايا:

٣٣- ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾

أي لكم - أيها الناس - في هذه البدن والهدْي منافع بالتجارة وطلب الرزق، ومنافع بكسب الأجر والمغفرة، ومنافع بأكل لحومها وشرب ألبانها، وركوبها، والانتفاع بصوفها، وغير ذلك، حتى تصل هذه البدن إلى البيت العتيق، وهو محل الذبح، ولا يكون ذبح الهدي ولا الفدية في غير مكة.

والنبي ﷺ حين حجَّ أتى معه بمئة ناقة، ذبح منها بيده الشريفة ثلاثًا وستين ناقة، وأمر عليًّا ﷺ أن يذبح البقية، وكان ذلك عند البيت العتيق، ووقت نحر الهدْي يوم العيد وأيام التشريق، ومكان نحرها في البيت، أي: في مكة كلها.

وفي هذا تشريع لإباحة الانتفاع بالهدْي انتفاعًا لا يتلفه، وفيه ردٌّ على المشركين الذين حرَّموا على أنفسهم ركوب الهدْي، والحمل عليه، وشرب لبنه.

في الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ رأى رجلًا يسوق بَدَنة، فقال: **«اركبها»**، قال: إنها بدَنة، فقال: **«اركبها»**، قال: إنها بدنة، فقال: **«اركبها، ويحك»** في الثانية أو الثالثة[٣].

رأى عليٌّ رجلًا يسوق بدَنة ومعها ولدها، فقال: لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن

---

(١) «المسند» (٤/ ٢٨٤) برقم (١٨٦٦٧) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه) و«سنن أبي داود» (٢٨٠٢) والترمذي (١٤٩٧) وصححه النسائي (٧/ ٢١٥) وفي الكبرى (٤٤٦٠) وابن ماجه (٣١٤٤) وصححه الألباني في «الإرواء» (٤/ ٣٦١).

(٢) ابن أبي شيبة (٤/ ٢٩٤) وابن جرير (١٦/ ٥٤١).

(٣) الحديث في البخاري من رواية أنس برقم (١٦٩٠، ١٧٠٦، ٢٧٥٤، ٦١٥٩) ومسلم برقم (١٣٢٣).

ولدها، فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدها[١].

وتشير الآية إلى أن من شعائر الحج الوقوف بعرفة، ورمي الجمار، والسعي، والوقوف بمزدلفة، والذبح، وطواف الإفاضة بالبيت العتيق.

مَشْرُوعِيَّةُ الذَّبَائِحِ فِي جَمِيعِ الأُمَمِ

٣٤- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا[٢] لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾

ولكل أمة من الأمم السابقة جعلنا منسكًا لإقامة ذكر الله تعالى وشكره، فاستبقوا الخيرات، وسارعوا إليها، والمنسك هو المذبح، أي المكان الذي ينحر فيه الهدْى ونحوه.

وهذه الذبائح، شعيرة معروفة في جميع الأمم، والإسلام يوجهها الوجهة الصحيحة، بحيث تُذبَح لله وحده دون سواه، وما كان خاصًا منها بالحرم لا يُذبَح إلا فيه؛ فالذبائح ليست خاصة بهذه الأمة، بل هي من شعائر الأمم التي سبقت ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: وجعلنا لكل جماعة مؤمنة سلفت ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ المنسك: مأخوذ من النسك الذي هو العبادة، والذبح عبادة، وقد يراد به: مكان العبادة أو زمانها.

وفسره مجاهد في هذه الآية بالذبح وإراقة الدماء تقربًا إلى الله تعالى.

وكان المشركون يجعلون لأصنامهم مناسك تشبه مناسك الحج، ويجعلون لها مواقيت ومذابح، مثل منحر العزَّى، واسمه (الغبغب)، كما تُنحر الذبائح عند بعض الأضرحة والقبور، فبيَّن الله سبحانه أنه لم يشرع لكل أمة إلا مكانًا واحدًا للتقرب بالذبائح فيه إلى الله تعالى، فهو الذي رزقهم الأنعام التي يتقربون بها إليه سبحانه، فالذبح لا يكون إلا لمن خلَق هذه الأنعام، ومن لا يَرزُق الناس لا يستحق أن يُجعل له منسك، فالمناسك لا تتعدد.

وقد أمر الله عباده بالذبح ليتعودوا المداومة على ذكر الله تعالى، وهذا معنى: ﴿لِّيَذْكُرُوا

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٢٣).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر السين من (منسِكا)، والباقون بفتحها، وهما لغتان بمعنى واحد، والمنسك هو النسك نفسه، أو مكانه وزمانه ووقته.

ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ فيشكروه على نعمه وفضله، ويُخْلِصوا له ويوحِّدوه، فلا يذكروا غير اسم الله على ذبائحهم.

وكما جعل الله لكم منسكًا واحدًا، فإن إلهكم الذي تعبدوه واحد، وإن تعددت الشرائع، وإن تعددت الرسالات، وإن نسخ بعضها بعضًا ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ هو الله سبحانه، فانقادوا لأمره وأمر رسوله، وأخلِصوا له الطاعة والعبادة ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ وهكذا يربط القرآن بين العقيدة والشعائر، فهما وحدة واحدة، والعبادة تنبثق من العقيدة، فالذبح لله ينشأ من توحيد الله، وما أُهلَّ به لغير الله ينشأ من الشرك بالله.

ثم أمر الله نبيه أن يبشر المؤمنين بالأجر العظيم، فقال: ﴿وَبَشِّرِ﴾ -يا محمد- ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ المتواضعين الخاضعين لربهم بخيري الدنيا والآخرة، **والخبت**: هو ما انخفض من الأرض. **والمخبت**: المتواضع المتطامن غير المتكبر، والمبشر به في الآية محذوف لتعظيم شأنه.

أَرْبَعُ صِفَاتٍ لِلْمُخْتَبِينَ

٣٥- ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

وقد وصف الله عباده التائبين الخاضعين المنقادين له سبحانه، المطمئنة قلوبهم بذكر الله جلَّ شأنه، وصفهم **بأربع صفات** هي: وجَل القلوب عند ذكر الله تعالى، والصبر على الأذى في سبيله، وإقامة الصلاة، والإنفاق في سبيل الله، وهي مظاهر التواضع، وكلها صفات تناقض صفات المتكبرين قُساة القلوب، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

الوصف الأول للمخبتين: وَجَلُ القلوب عند ذكر الله تعالى:

وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فقلوبهم ليست قاسية، وإنما هي خائفة خاشعة، مستحضرة لعظمة الله تعالى، تطمئن قلوبهم بذكر الله ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

كما قال جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ

﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] أي: أنهم خافوا من عذاب الله وراقبوه، وحذروا مخالفته، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، فليست قلوبهم قاسية أو بعيدة من خشية الله سبحانه، بل إنها ترتعش وتُشفق من خشية الله تعالى، وهذا معنى ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

الوصف الثاني: الصبر على المكاره:

الصبر على طاعة الله وعن محارم الله، والصبر على الأذى في سبيل الله، والصبر على أقدار الله، وما ينزل بهم من المكاره، في البأس والشدة، فهم يصبرون بغية الثواب من الله تعالى على السراء والضراء، وعلى ما يصيبهم من البلايا والمحن، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝١٥٥ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝١٥٦ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة]. وهذا معنى ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾.

الوصف الثالث: إقام الصلاة:

أي إنهم يقيمون الصلاة، فهم من المحافظين عليها، المؤدين لها في أوقاتها مع جماعة المسلمين، بخشوع وخضوع، وإسباغ للوضوء، وتمام لأقوالها وأفعالها، بحيث ينعكس أثرها على سلوك العبد مع ربه ومع الناس.

سئل النبي ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله سبحانه فقال: «**الصلاة لوقتها**...»[1].

وهذا معنى ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾.

الوصف الرابع: النفقة في سبيل الله:

إنهم ينفقون أموال الصدقة والزكاة في وجوه الخير والبر، وفي طرق الجهاد، ومواساة المحتاجين والضعفاء، وصلة الأرحام والمشاريع الخيرية، وهذا معنى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وهذا شامل لجميع النفقات الواجبة كالزكاة والكفارات والنفقة على من تعول، وشامل للنفقة المستحبة، كالصدقة ووجوه البر والإحسان، فهذه الصفات الأربع مظاهر للتواضع والإخبات.

---

(١) من حديث عبدالله بن مسعود، كما في صحيح الجامع الصغير، برقم (١٦٤).

التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِإِرَاقَةِ الدِّمَاءِ فِي الْحَجِّ

٣٦- ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

أي ومن جملة شعائر الله: البُدْن، فَتُعَظَّم عند ذبحها، وتُستسمنُ وتُستحسن.

وهكذا، تحدثت الآية عن البدن، وقد خصها القرآن بالذكر؛ لأنها أضخم وأكبر ما يُذبح من أنواع الأنعام الثمانية، وهي الذكَر والأنثى لكل من: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز، وهي التي يكون بها الهدْي، والتقرب إلى الله تعالى.

والبدن: اسم جنس يراد به العظيم السمين من الإبل والبقر؛ وسمِّيت بذلك لضخامتها ولبدانتها، وقاسوا على الإبل، البقر، فهي أيضًا من البدن كما في حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال: نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدَنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة[(١)].

وفي رواية له قال: كنا نتمتع مع رسول الله ﷺ بالعمرة فنذبح البقرة عن سبعة نشترك فيها[(٢)]

فأفاد هذا صحة إطلاق البدَنة على البقرة، وأنها تجزئ عن سبعة كالبعير.

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ﴾ أعلام دين ﴿ٱللَّهِ﴾ ليتقربوا بها إلى الله تعالى، ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ في الدنيا بالمنافع، وفي الآخرة بالأجر والمثوبة، منافع بالأكل منها والانتفاع بأصوافها وأوبارها وأشعارها.

فقولوا عند ذبحها، وعند أكل لحومها، والركوب عليها: باسم الله وعلى ملة رسول الله، باسم الله، الله أكبر. ولكم فيها خير في الآخرة بالصدقة والأجر والمثوبة.

﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ أي: إذا أردتم ذبحها فاذبحوها وهي قائمة، قد صُفَّت قوائمها الثلاث وقُيِّدت الرابعة. والأرجل الثلاث هي: رجلاها من الخلف واليمين من أمام، معقولة الرجل اليسرى وهي الرابعة.

عن ابن عمر ﷺ أنه أتى على رجل قد أناخ بدنته ينحرها فقال له: ابعثها قيامًا مقيدة،

---

(١)، (٢) «صحيح مسلم» برقم (١٣١٨).

سُنَّة أبي القاسم ﷺ[١].

وعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدْن معقولة اليسرى، قائمة على ما بقي من قوائمها[٢].

فإن هذه الذبائح خير للعبد في الدنيا بالانتفاع بألبانها ولحومها، وخير له في الآخرة بالأجر والثواب. فاذكروا اسم الله عليها عند ذبحها وهي قائمة، ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾، أي: سقطت ووقعت على الأرض بأن ذُبحت وسُلخت فقد حل أكلها ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ تعبدًا، والأمر للإباحة.

﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾. **القانع**: هو الفقير الراضي بما عنده، المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئًا. **والمعترُّ**: هو الذي يعرِّض نفسه للسؤال، أي: أطعموا منها السائل وغير السائل، فأحلَّ الله لكم ركوبها، وأكل لحومها، والانتفاع بأصوافها وأوبارها ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ ومن هذا التسخير أن الطفل الصغير يسحبها فتكون منقادة له، وقد سخرها لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على تسخيرها لكم، ولولا ذلك لم يكن لكم بها طاقة، فكان هذا التسخير رحمة بكم فاحمدوا ربكم واشكروه.

وهذه البدن التي سخرها الله لنا هي الإبل، وألحق بها البقر والغنم، سمِّيت هَدْيًا بالنسبة لما يذبح منها في الحج، وسميت شعائر؛ لأنها معالم على الحج، وكانت تعلَّم للإشعار بأنها مسوقة للبيت.

كان عبد الله بن عمر ﷺ إذا أهدى هديًا من المدينة قلَّده وأشعره بذي الحليفة، وكان يقلِّده بنعلين، ويشعره بطعن في سنامه من الشق الأيسر[٣].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ [المائدة: ٢].

واختلف الفقهاء في الأكل من لحوم الهدايا الواجبة:

---

(١) البخاري برقم (١٧١٣) ومسلم برقم (١٣٢٠).

(٢) «سنن أبي داود» برقم (١٧٦٧).

(٣) يُنظَر: «موطأ الإمام مالك». وعن ابن عباس في صحيح أبي داود (١٥٤١) وهو في صحيح مسلم.

١- **فقال مالك**: يباح الأكل من لحوم الهدايا الواجبة، وهو عنده مستحب. ولا يؤكل من فدية الأذى، وجزاء الصيد، ونذر المساكين، والحجة لمالك صريح الآية فإنها عامة.

٢- **وقال أبو حنيفة**: يؤكل من هدْي التمتع والقران.

٣- **وقال الشافعي**: لا يؤكل من لحوم الهدايا بحال.

٤- **وقال أحمد**: يؤكل من الهدايا الواجبة إلا جزاء الصيد والنذر.

الأضاحي: أما الأكل من لحوم الأضاحي فقد قال الفقهاء بتثليث الأضحية: يأكل الثلث، ويهدي الثلث لأرحامه وجيرانه وإن لم يكونوا فقراء، ويتصدَّق بالثلث على الفقراء والمساكين، وهذا التقسيم على وجه الاستحباب لا الوجوب.

وقد أكل النبي ﷺ من الأضحية وتصدَّق، وأعطى للمساكين من الأضحية التي ذبحها عن نفسه، وعن أهل بيته، والتي ذبحها عن أمته.

فقد صحَّ أن رسول الله ﷺ قال: **«إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فكلوا وادخروا ما بدا لكم»**[١].

وفي رواية: **«فكلوا وتصدقوا وادخروا»**[٢]

وفي رواية أخرى: **«فكلوا وأطعموا وتصدقوا»**[٣].

ولفظ مسلم عن جابر **«كلوا وتزوّدوا»**

وعن أبي سعيد **«كلوا وأطعموا واحبسوا وادخروا»**.

وهذه طائفة من الأحاديث تبيِّن أحكام الأضحية:

١- في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من كان له سعة، ولم يضحِّ، فلا يقربنَّ مصلّانا»**[٤].

---

(١) يُنظَر هذا المعنى من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه في «صحيح مسلم» برقم (٩٧٧) والمسند (٢٣٠٠٥) ومصنف عبد الرزاق (٦٧٠٨) والطبراني في الكبير (١١٥٢).

(٢) من حديث طويل عن عائشة كما في صحيح مسلم (١٩٧١) وصحيح أبي داود (٢٨١٢).

(٣) في مسلم (١٩٧٢) وعن أبي سعيد (١٩٧٣) من حديث جابر في «الموطأ» (٢/ ٢٨٢).

(٤) «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٢٥٣٢) بتحسين الألباني له، وفي تخريج مشكلة الفقر (١٠٢) وصحيح مسلم (١٩٧١) وهو في «المسند» (٢/ ٣٢١) و«المستدرك» (٢/ ٣٨٩) والبيهقي (٩/ ٢٦٠).

٢- وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ ضحَّى بكبشين أملحين أقرنين، فسمَّى وكبَّر[١].

٣- وفي حديث جابر بن عبد الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ صلى للناس يوم النحر، فلما فرغ من خطبته وصلاته دعا بكبش فذبحه هو بنفسه، وقال: **«باسم الله، والله أكبر، اللهم هذا عني، وعمَّن لم يُضحِّ من أمتي»**[٢].

٤- وعن البراء بن عازب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا نصلي، ثم نرجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله، ليس هو من النسك في شيء»**[٣].

٥- وعن شداد بن أوس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحدَّ أحدكم شفرته، وليُرح ذبيحته»**[٤].

وتجزئ الشاة الواحدة عن أهل البيت، والأضحية سُنَّة مؤكدة عند الجمهور، وواجبة عند الأحناف، والمقصود من الذبح هو التعبد والاحتساب وصدق النية، وليس مجرد الذبح:

٣٧- ﴿لَن يَنَالَ[٥] ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

وكان المشركون في الجاهلية إذا ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء ينضحون بها الكعبة، فأراد المسلمون أن يفعلوا مثل ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٦].

وقال الحسن: كانوا يلطِّخون بدماء القرابين، وكانوا يشرِّحون لحوم الهدايا وينصبونها حول

---

(١) «المسند» (١٠/ ٢٤) «١١٩٦٠» بسناد صحيح على شرط الشيخين، والبخاري (٥٥٥٨) ومسلم (١٩٦٦) والنسائي (٤٣٩٧) وابن ماجه (٣١٢٠) وأبو يعلى (٣٠٧٦) والطيالسي (١٩٦٨) والدارمي (١٩٤٥).

(٢) «المسند» (٢٣/ ١٣٤) برقم (١٤٨٣٧) قال محققوه: صحيح لغيره وإسناده حسن، وأبو داود (٢٨١٠) والترمذي (١٥٢١) والحاكم (٤/ ٢٢٩) و«صحيح سنن أبي داود» (٢٤٣٦) وعبد بن حميد (١١٤٦).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٥٥٤٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٩٦١) وهذا لفظه.

(٤) «صحيح مسلم» برقم (١٩٥٥).

(٥) قرأ يعقوب بتاء التأنيث في (ينال) و(يناله)، والباقون بياء التذكير؛ لأن الفاعل فيهما مؤنث مجازي.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٦٣) من رواية ابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس.

الكعبة قربانًا إلى الله تعالى، وهذه عقيدة وثنية قديمة، وللوثنيين في هذا توجُّهات عديدة:

(أ) فقد كانوا يرمون اللحم والطعام الذي يتقربون به، ولا يجعلون أحدًا يأكله.

(ب) وكان أهل اليونان يشْوُون لحم القرابين على النار، حتى تصير رمادًا، ويتوهمون أن رائحة الشواء، تسرُّ الآلهة المتقرب إليها بهذه القرابين.

(ت) وكان المصريون يُلْقُون الطعام للتماسيح في نهر النيل؛ لأنها مقدسة عندهم، وقد حرم الإسلام كل ما كان من هذا القبيل.

فبيَّن سبحانه أن الإخلاص في عبادة الذبح، بأن تكون الذبيحة لله وحده، ويذكر اسم الله عليها عند الذبح، والتصدق ببعضها على المحتاجين، وهذا ونحوه من التقوى التي تُرفع إلى الله تعالى؛ ليثيبكم ويجازيكم عليها.

والمعنى: إن لحوم الهدايا والأضاحي ودماءها لا تُرفَع إلى الله تعالى، ولا يُرفَع إليه إلا العمل الصالح الذي يراد به وجهه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. فإراقة الدماء، وتقطيع اللحوم ليست مقصودة بذاتها للتعبد، وإنما هي وسيلة لنفع الفقراء والمحتاجين، ونفعكم أنتم أيضًا بالأكل منها، ولذلك نهى الله سبحانه المسلمين عن تقليد المشركين فيما كانوا يفعلونه، وبيَّن جلَّ شأنه أن اللحم والدم لا يُرفَع إلى الله سبحانه، وأن الذي يُرفَع إليه هو العمل الصالح والتقوى.

وإن الله تعالى لا يصل إليه شيء من الذبائح، وإنما يصل إليه التقوى منكم، لذلك شرعها لكم؛ لتكبِّروا الله عند ذبحها، وتشكروه على ما هداكم للحق، وذللها لكم أيها المتقون؛ لتكبروا الله عند ذبحها، وتعظموه، وتثنوا عليه سبحانه.

وفي ختام الآية أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يزف البشرى لعباده المحسنين في عبادتهم لله تعالى، والمحسنين إلى خلق الله بكل خير وعوْن، وأُخذ من هذه الآية مشروعية التكبير في عيد الأضحى إلى نهاية أيام التشريق، كما شرع التكبير في عيد الفطر من قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥].

الْإِسْلَامُ يَنْهَى عَنِ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ

٣٨- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ[(١)] عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ۝٣٨﴾

نزلت هذه الآية لمَّا كثُر المسلمون بمكة، واشتد إيذاء الكفار لهم، وهاجر بعضهم إلى الحبشة، وأراد بعض المسلمين أن يقتل ما أمكنه من الكفار، فيغتال من يشاء ويغدر بمن يشاء، فنهاهم الله تعالى عن هذا، وطمأنهم بأنه يدفع عنهم السوء ويكفيهم شر أعدائهم، ولذا ختم الله ببيان أنه لا يحب كل خوان كفور.

ففي هذه الآية إخبار ووعد وبشارة من الله تعالى بأنه سبحانه يدفع عنهم كل مكروه، ويكفيهم شر عدوهم، وشر الشيطان، وشرور أنفسهم وسيئات أعمالهم، ويحمل عنهم عند نزول المكاره ما لا يتحملوه.

والمسلمون في مكة كانوا ضعفاء، ينالهم الأذى الشديد من المشركين، وكانوا يشتكُون إلى النبي ﷺ ويأتون إليه بين مشجوج ومضروب ومجروح، فيأمرهم عليه الصلاة والسلام بالصبر، ويقول لهم: «**إني لم أومر بقتال**».

ولما أسلم أكثر من سبعين من الأنصار، وجاؤوا يبايعون النبي ﷺ عند العقبة، قالوا: يا رسول الله، ألا نذهب إلى مكة نقاتلهم؟ قال: «**إني لم أومر بذلك**»، ونزل في مكة أكثر من سبعين آية تنهى النبي ﷺ عن القتال في الفترة المكية.

وقبل الإذن بالجهاد طمأن الله سبحانه المؤمنين، وبيَّن لهم أن عليهم أن يدفعوا عن أنفسهم، ويأخذوا بالأسباب المشروعة في قتال العدو دون غدر ولا عدوان، وأنه جلَّ شأنه سيتولى الدفاع عنهم، ويتولى حمايتهم، فقال في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ أي: يدفع عن الذين آمنوا غائلة المشركين وشرهم وبأسهم، وبيَّن سبحانه أن الكفار خونة، خانوا الله والرسول، وجحدوا نعمته وكفروا به، والله سبحانه كافٍ عبده، وهو لا يحب الخائن الجحود،

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (يَدْفَع) بفتح الياء وسكون الدال وحذف الألف وفتح الفاء، مضارع دفع، وقرأ الباقون (يدافع) بضم الياء وفتح الدال بعدها ألف وكسر الفاء، مضارع دافع؛ للمبالغة في الدفع عن المؤمنين.

ومفهوم الآية أن الله تعالى يحب كل أمين شكور، ومن يأخذ بالأسباب ويتوكل على الله، فإن الله تعالى كافيه وناصره.

وفي الآية تقوية لعزائم المؤمنين حتى يقبلوا على الجهاد في سبيل الله بثبات وأمل كبير في نصر الله وتأييده، فإن دفاع الله عن المؤمنين لمحبته لهم وبغض أعدائهم.

الإِذْنُ بِالْقِتَالِ لِرَدِّ الْعُدْوَانِ

٣٩- ﴿أُذِنَ[١] لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ[٢] بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

إن تأمين الطريق إلى الحج، وتأمين حرية الدعوة وانتشار الإسلام، وحماية المسلمين من الذين يصدونهم عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، والدفاع عن النفس والمال والعرض، ونصرة المستضعفين، كل ذلك يحتاج إلى قوة، وإلى جهاد في سبيل الله.

ولما اشتدَّ ساعد المسلمين، وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة، تكونت دولة الإسلام، فنزلت أول آية فيها الإذن للمؤمنين بالدفاع عن أنفسهم، وقد نزل الأمر بالقتال على وجه التدرج؛ لأن القتال شاقٌّ على النفس؛ لما فيه من احتمال الموت، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ٢١٦].

وقد ذكر الله سبحانه قومًا فقال: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧].

وكانت أول آية نزلت تأمر المسلمين بالدفاع عن أنفسهم موصولة بالحج في الآيات قبلها؛ لبيان مشروعية القتال دفاعًا عن النفس، إنهم يدفعون عن أنفسهم الظلم إذ ليس لهم من جريرة ولا ذنب، إلا أنهم قالوا: ربنا الله، ولذا كانت مشروعية بدء الإذن في الجهاد للمسلمين، وأنها كانت بسبب أنهم ظُلِموا وأُخرجوا من ديارهم وأموالهم.

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر ويعقوب وإدريس بخلف عنه بضم همزة (أُذِن) مبني للمجهول، (للذين) نائب فاعل، والباقون بفتح الهمزة، مبني للمعلوم، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر بفتح التاء من (يقاتلون) مبني للمجهول والواو نائب فاعل، والباقون بكسرها مبني للمعلوم والواو فاعل، والمفعول محذوف، أي: يقاتلون المشركين.

قال ابن عباس ﷺ: لما أخرج رسول الله من مكة قال أبو بكر: إذًا والله لنهلكنَّ، فأنزل الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ قال أبو بكر: فعرفت أنه سيكون قتال وقال ابن عباس: هي أول آية نزلت في القتال[1].

لقد كان المسلمون في أول أمرهم ممنوعين من قتال الكفار، مأمورين بالصبر على أذاهم، بأن قيل لهم ﴿كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧]، فلما بلغ أذى المشركين مداه، وخرج النبي ﷺ مهاجرًا إلى المدينة، وأصبحت للإسلام قوة وشوكة، أَذِن الله للمسلمين في القتال بسبب ما وقع عليهم من الظلم والعدوان، ثم طمأنهم بأن نصر الله آتٍ لا محالة، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

فهو سبحانه قادر على أن ينصرهم، ويخذل عدوهم من غير حرب ولا قتال، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد].

وقال: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [محمد: ٤] أي: من غير حرب ولا قتال، بل يتنزل عليهم النصر سهلًا هينًا بلا عناء لمجرد أنهم مسلمون.

ولكن الله تعالى ربط الأسباب بالمسببات، والنتائج بالمقدمات، وشرع الجهاد لتمحيص المسلمين واتخاذ الشهداء منهم.

١- كما قال تعالى: ﴿وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

٢- وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾ [محمد].

٣- وقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

٤- وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

وقد مرَّ الجهاد في الإسلام بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مجرد الإذن في القتال لدفع الصائل: وهذه أول آية نزلت تأذن بالقتال لدفع الظلم، ورد العدوان لمن يصلح منهم للقتال، واستثنى القرآن الكريم الأعمى،

---

(١) «سنن الترمذي» برقم (٣١٧١) والنيسابوري ص ٢٦٠ و«صحيح سنن الترمذي» (٢٥٢٥) والنسائي (٣٠٨٥) ومسند أحمد (١٨٦٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وابن حبان (٤٧١٠) والحاكم (٣/ ٧) والطبراني (١٢٣٣٦).

والأعرج، والمريض، والضعيف، والعاجز عن السفر، والعاجز عن الأخذ بأساليب القتال، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ أي: في التخلف عن الجهاد ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١].

المرحلة الثانية: قتال من قاتل: وبعد الإذن بالقتال جاء الأمر بوجوبه **بشروط ثلاثة** هي:

الشرط الأول: أن يكون القتال في سبيل الله، لا لِحَمِيَّة،ولا لعصبية، ولا شجاعة ولا رياء، وإنما لنشر الدعوة، وتوسيع رقعة الإسلام، ورفع رايته.

الشرط الثاني: أن نقاتل من قاتَلَنا، ولا نتعرض لمن لم يقاتلنا، فإن قاتلتنا نساء اليهود أو النصارى وهنّ مقاتلات حاملات للسلاح فإنهنَّ يُقاتَلْن، أما غير المقاتلات وغير المقاتلين من الشيوخ والصبيان والعجزة والرهبان والفلاحين فلا نقاتلهم.

الشرط الثالث: عدم البدء بعدوان، ويجمع هذه الشروط الثلاثة قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة].

المرحلة الثالثة: قتال من وقف في وجه الدعوة:

ثم إذا تمالأ أعداء الإسلام على الإسلام، فقد أمر الله تعالى بقتالهم جميعًا إذا قاتلونا جميعًا، فقال: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

وهذه الآية ناطقة بأن قتال عموم المشركين مشروط بما إذا قاتل المشركون عموم المسلمين، فقاتلوهم كافة إذا قاتلوكم كافة، وقال تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. وهذه الآية لتعقُّب المشركين في جزيرة العرب وقتالهم والترصُّد لهم في كل مكان، وحبْسهم ومحاصرتهم، وذلك في حالة ما إذا نقضوا عهودهم، ونكثوا مواثيقهم مع المسلمين، وهذا هو مقتضى سياق الآية التي أولها ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ وهي المدة التي أعطاها الإسلام لهم مهلة للدخول في الإسلام، أو لكفِّ أذاهم وعدم الوقوف في وجه الدعوة والحيلولة دون انتشارها.

وتجدُر الإشارة إلى أن المراد بالمشركين في الآيتين: هم الوثنيون من عُبَّاد الأوثان

والأصنام، أو الجن، أو الكواكب، ونحو ذلك.

مَتَى يُقَاتلُ أَهْلُ الْكِتَابِ؟

أما أهل الكتاب فلهم آية أخرى تأمر بقتالهم في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة].

وهذا بالنسبة لأهل الكتاب غير المقيمين في بلاد المسلمين، فالإسلام لا يجبرهم على الدخول في الإسلام.

وإن كانوا من أهل جنسية البلد التي يعيشون فيها وينخرطون في جيشه، ويدْفعون العدو عنها مع المسلمين، فلا جزية عليهم.

فإن لم يشتركوا في تحقيق الأمن للبلاد والأوطان فعليهم أن يدْفعوا ما يُشبه الضريبة وهي الجزية مقابل حماية المسلمين لهم والدفاع عن الأرض التي يقيمون عليها، وتحقيق الأمن والأمان لهم، وتمتُّعهم بالمرافق العامة، كما يدفع المسلم الزكاة والضرائب.

ولفظ الشرك والكفر، يطلق على عبدة الأوثان، كما يطلق على من قالوا: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، ولفظ الكفر يطلق على من لم يؤمن بوجود الله تعالى، وعلى من آمن بالله، ولكنه أشرك معه غيره في عبادته، فهو غير مؤمن بوحدانية الله تعالى، ويطلق أيضًا على من آمن بالله تعالى ولكنه جحد رسالة محمد ﷺ ولم يؤمن بها، فهو كافر بهذا المعنى.

وتعاليم الإسلام في البلدة التي يفتحها المسلمون تقضي بأن يبدأ المسلمون بدعوة أهلها للإسلام، فإن استجابوا فالحمد لله، وإن لم يستجيبوا وهم أهل كتاب يقيموا في ديار المسلمين، وينتفعوا بمرافقها العامة، ويتمتعوا بأمن بلادها، ولهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما على المسلمين من واجبات، والمسلمون يدفعون زكاة أموالهم، فعليهم أن يدفعوا الجزية مقابل تمتُّعهم بحماية المسلمين لهم والانتفاع بالخدمات المشتركة، فإن أبوا دفْع الجزية، ووقفوا حائلًا في وجه نشر الدعوة الإسلامية، فمنعوا وصولها للناس، ففي هذه الحالة يقاتَلون، قال تعالى ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] ثم بين سبحانه سبب أمر المسلمين بقتال غيرهم فقال:

٤٠- ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ[1] ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ[2] صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾

ثم بيَّن ﷺ فضله على أهل مكة وغيرهم من المسلمين المضطهدين في كل زمان ومكان، ممن أُخرجوا من ديارهم بغير حق، فبيَّن سبحانه أن الذين أُلْجِئوا إلى الخروج من ديارهم لا لشيء فعلوه، إلا لأنهم أسلموا وقالوا: ربنا الله وحده، ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] وهذا الإيمان ليس فيه اعتداء على أحد؛ فإيمانهم يخصهم، وليس فيه ضرر لغيرهم، ومن هنا فإن دفاعهم عن أنفسهم أمر مشروع.

ولولا ما شرعه الله من الجهاد، وأمْره به كل نبي وكل رسول وكل أمة؛ لِدفْع الظلم والباطل، بالقتال، لولا هذا لاستولى غير المسلمين على المؤمنين في كل مكان وزمان، وهزموا الحق، وخرَّبوا الأرض، وعطَّلوا أماكن العبادة وهدموها.

وهذا يدل على حكمة الجهاد، وأن المقصود منه هو إقامة الدين ورد العدوان.

والصوامع أماكن خاصة لعبادة رهبان النصارى.

والصومعة: بناء مرتفع لعبادة الراهب، وقيل: هي لعبادة الصابئين.

والبِيَع: هي الكنائس العامة للنصارى.

﴿وَصَلَوَٰتٞ﴾ هي معابد اليهود ﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ المسلمين.

وأخَّر ذِكْر المساجد؛ لأنها أعم، وشأن العموم أن يعقُب الخصوص.

أي: ولولا مشروعية الجهاد في كل أمة لهدمت المعابد في زمن موسى، وهدمت الكنائس في زمن عيسى، وهدمت المساجد في زمن محمد صلوات الله عليهم أجمعين،

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب (ولولا دِفَاعُ) مصدر دفع أو دافع، والباقون (ولولا دَفْعُ) مصدر دفع.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بتخفيف الدال من (لهدمت)، فعل ثلاثي مجرد، والباقون بتشديدها، فعل مضعف العين؛ للمبالغة في التهديم، وأدغم التاء من (لهدمت) في صاد (صوامع) أبو عمرو وابن عامر بخلْف عن هشام، وحمزة والكسائي وخلَف، وأظهرها الباقون.

ودور العبادة هذه ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ ولا يَعرِف ذكر الله تعالى إلا أهل الشرائع، ولذا لم تذكر الآية أسماء أصنام أهل الشرك.

ويصح أن يكون المعنى: ولولا ما شرعه الله للأنبياء من قتال الأعداء لَتَجَاوَزَ المشركون مَواضع العبادات واعتدوا على ما يجاور بلادهم، ولهدموا معابدهم بقصد محو دعوة الرسل ومعالم التوحيد، فالجهاد أمر متقدم في الأمم، وبه صلحت الشرائع.

المستحقون لنصر الله تعالى:

ثم ذكر ﷻ مَنْ وعدهم الله بالنصر، وشروط هذا النصر، فقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: ومن اجتهد في نصر دين الله، فإن الله ناصره على عدوه، فقد أمر الله المسلمين بالدفاع عن دينهم، وضمِن لهم النصر في ذلك الدفاع؛ لأنهم بدفاعهم عن دينهم وحسن إيمانهم ينصرون دين الله، فكأنهم نصروا الله، ومن بيده النصر ﷻ قادر عليه بالقوة والعزة والغلبة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ لا يغالب ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يرام، قد قهر العباد وأخذ بنواصيهم. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]

وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

أما شروط هذا النصر، فهو ثلاثة شروط ذكرتْها هذه الآية:

٤١- ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

أي: إن الذين يستحقون النصر على عدوهم هم الذين ينصرون دين الله تعالى بإقامة هذه **الشروط الثلاثة** المذكورة في الآية، والتي إذا تحققت فيهم جعل الله لهم الولاية والسيادة على الأرض، واستخلفهم فيها حكامًا ومحكومين، لأنهم أخذوا بأسباب النصر المادية فإن النتائج لابد لها من مقدمات:

الشرط الأول: إقامة الصلاة ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدوها تامة في أوقاتها، مع المحافظة على شروطها وأركانها، فهي دواء لكل داء، وهي تجديد مستمر للإسلام؛ لأنها الصلة بين العبد وربه، ومن ضيعها كان لما سواها أضيع، ولأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتجدد العلاقة خمس مرات في اليوم والليلة بين العباد وربهم.

الشرط الثاني: ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي أدوها لمستحقيها؛ لكفاية المجتمع، وإقامة الروابط بين الغني والفقير، وتطهير المال ونمائه، ووقاية للنفس من الشحِّ والبخل.

الشرط الثالث: ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ وإذا توقف معرفتهما على التعليم وجب القيام بذلك، وإذا توقف العمل بهما على التأديب وجب ذلك، فالأمة الإسلامية إذا تعطل فيها الأمر بالمعروف، وتعطل فيها النهي عن المنكر، وكان المنكر ظاهرًا معلنًا يُرتكب عيانًا، فهذه الأمة غير جديرة بنصر الله سبحانه، وغير مؤهلة للتمكين لها في الأرض، لأنها غير مطبوعة بالطابع الإسلامي.

أخرج الطبري بسند حسن عن أبي العالية قال: كان أمْرهم بالمعروف أنهم دعوا إلى الإخلاص لله وحده لا شريك له، ونهْيهم عن المنكر أنهم نهوا عن عبادة الأوثان وعبادة الشيطان، قال: فمن دعا إلى الله من الناس كلهم فقد أمر بالمعروف، ومن نهى عن عبادة الأوثان وعبادة الشيطان فقد نهى عن المنكر.

والآية عامة في كل من مكَّن الله لهم في الأرض، أن يقوموا بالعهد الذي أخذه عليهم في هذه الآية، فإن وفَّوا به فهم جديرون بنصر الله لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد].

والمعروف: كل ما هو معلوم من الدين بالضرورة، من الأحكام المتفق عليها، ويعلمها كل مسلم.

والمنكر: كل ما لا يرضاه الله ورسوله من الأقوال والأفعال الظاهرة المخالفة لأحكام الشريعة.

فهذه الشروط الثلاثة أُسس الخير، ودعائم الإصلاح، وما فرطتْ أمة في واحدة منها إلا ذلَّت، فإقامة صلاة الظهر مثلًا مسؤولية الأمة في دواوين الحكومة وسائر المؤسسات، يتقدمها المسؤول الأول فيها.

وجمع الزكاة من رعايا الدولة، وتوزيعها على المستحقين مسؤولية الأمة أيضًا.

وإيجاد المظهر الإسلامي في الشارع العام مسؤولية الدولة، وهكذا.

ومرجع الأمر في النهاية إلى الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ فإليه وحده مصير الأمور، والعاقبة للتقوى، فمن وَلِيَ أمر المسلمين وقام بأمر الله وعدله فيهم، فعاقبته محمودة، ومن أقام فيهم هوى نفسه كانت عاقبته ممقوتة.

من أسباب تأخر النصر:

١- هذا: وقد يتأخر نصر المسلمين؛ لكونهم غير مؤهَّلين للنصر في الوقت الحاضر لسبب من الأسباب، حتى تحشد الأمة طاقاتها، تُجند كل قواها، وتستعين بمن تشاء، بعد عودتها إلى الله تعالى وبعد الأخذ الجيد بأسباب النصر المعنوية والمادية.

٢- وقد يتأخر نصر الله للمسلمين حتى يشتد اتصالهم بالله ﷻ، ويتفَقَّدوا جوانب التقصير في حق الله سبحانه، لتقْوَى الروابط والعلاقة بينهم وبين ربهم.

٣- وقد يتأخر النصر حتى يقاتل المسلمون في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، ويبذلوا كل غال ونفيس من أموالهم وأنفسهم؛ لرفع راية الإسلام، لا لعصبية ولا لحمية، ولا رياء ولا شجاعة أو سمعة، ونحو ذلك.

٤- وقد يتأخر النصر على المسلمين حتى يتم الولاء والبراء لله تعالى، وليعلموا أن القوة بغير سند من الله سبحانه لا تؤدي إلى النصر، وإن كانت تعتمد على الشرق أو الغرب؛ فإن هذا لا يغني عنهم من الله شيئًا، ولابد لهم من الاتصال بالله وحده، والاعتماد على أنفسهم بالاكتفاء الذاتي في التصنيع الحربي والاقتصاد الوطني.

٥- وقد يكون المانع من النصر في زمن من الأزمان، أو في وقت من الأوقات -يعود لعدم الأخذ بأسباب النصر المادية بما يضارع قوة العدو.

والناظر في أحوال المسلمين يجد أن هذا حاصل لا محالة، وأن نقص الإيمان مع عدم الأخذ بالأسباب هو سبب تأخر النصر.

فالله تعالى لا يعطي النصر للمسلمين سهلًا بدون قتال، وبدون أخذ بالأسباب المادية

والمعنوية؛ لأن الأمة في هذه الحالة تكون غير مؤهلة لطلب النصر من الله تعالى.

ولكي تكون الأمة جديرة بنصر الله لها، وجديرة بالتمكين لها في الأرض بعد النصر، لابد لأهلها أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر.

وإلى جانب التعبئة الروحية المستمرة لابد من الإعداد المادي بالقوة العسكرية، على أحدث ما توصَّل إليه البشر جوًّا وبرًّا وبحرًا؛ حتى يتأهلوا للنصر على العدو، وحتى تنضج الأمة، وتكتمل قواها المعنوية والمادية؛ لتكون جديرة بنصر الله ﷻ؛ إذ لا وعْد بالنصر لمن لم يكن من حزب الله ولا من أوليائه، فَمَثَلُهم في هذه الحالة كمثل العامل الذي يطلب الأجرة دون أن يقوم بالعمل.

وقد نصر الله تعالى الخلفاء الراشدين على أعدائهم؛ لأنهم نصروا دين الله، فمكَّن الله لهم واستخلفهم في الأرض، وهكذا كل من قام بنصر دين الله على الوجه الأكمل، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

سَبْعٌ مِنَ الأُمَمِ كَذَّبُوا سَبْعَةً مِنَ الرُّسُلِ

٤٢، ٤٣- ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ[1] ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ[2]﴾

وبعد الإذن بالجهاد، ووعْد الله للمؤمنين بالنصر والتمكين لهم في الأرض إذا حققوا منهج الله في أرضه، أخذ ﷻ يُطمئن رسوله ﷺ إلى نُصرة أوليائه وخُذلان أعدائه، وما على المكذبين المخالفين إلا التأمل في مَصَارع الغابرين، وسنة الله في خلقه لا تتخلف.

والمكذبون بدعوة النبي ﷺ موجودون في كل وقت، وإلى أن تقوم الساعة، سواء أكانوا من أهل الكتاب: اليهود والنصارى، أم كانوا من غيرهم كالهندوس، والبوذيين، واللادينيين.

وقبل محمد ﷺ كثير من الأمم كذبوا رسلهم، كما قال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ

---

(١) قوله تعالى وعاد وثمود) لم يعدها آية، الشامي، وعدها غيره.

(٢) لم يعدّ الشامي والبصري (وقوم لوط) آية، وعدّها غيرهما.

قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ﴾ [فصلت: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات].

فالله ﷻ يسلِّي رسوله صلوات الله وسلامه عليه، ويقول له: اصبر ولا تحزن، فليس هذا التكذيب لك وحدك، وليس هذا شأنك فحسب، إنما هو شأن جميع الرسل من قبلك.

وفي هذه الآية والآيتين بعدها ذكَر الله ﷻ أسماء سبع من الأمم كذَّبوا سبعة من رسل الله، وهم ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾

١- وقوم نوح هم أول أمة كذبت نبيها، وقد جاء هذا التكذيب في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء].

٢- أما تكذيب قوم عاد لنبيهم هودا فقد جاء في مثل قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء].

٣- وقوم ثمود كذبوا نبيهم صالحا: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء].
والقرآن الكريم يعبر بصيغة الجمع؛ لأن من كذَّب رسولًا واحدًا فقد كذَّب جميع الرسل.

٤- أما تكذيب قوم إبراهيم ﷺ له فقد جاء في مثل قوله تعالى حكاية عن قومه: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء].

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

٥- وقوم إبراهيم أقرب شبهًا بمشركي قريش الذين كذبوا رسولهم، وآذوه، وألجؤوه إلى الخروج من موطنه، فقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

وجاء تكذيب قوم لوط ﷺ له في مثل قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الشعراء]. وقولهم: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦].

هؤلاء خمسة من رسل الله في آية واحدة، وفي الآية التالية رسولين:

٤٤- ﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ[1]﴾

٦- وقد جاء تكذيب قوم مدين لنبيِّهم شعيبًا ﷺ في مثل قوله تعالى حكاية عنهم:

(١) قرأ ورش بإثبات الياء وصلًا وحذفها وقفًا من (نكير) ويعقوب بإثباتها في الحالين، والباقون بحذفها في الحالين.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود].

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ [هود: ٩١].

وتكذيب أصحاب الأيكة لنبيهم شعيبًا ﷺ جاء في مثل قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الشعراء].

٧- وأما تكذيب فرعون وملئه لموسى ﷺ فقد جاء في مثل قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى على لسان فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠١].

فهؤلاء سبعة أقوام كذبوا رسلهم:

١- قوم نوح كذبوا نبيهم نوحًا.

٢- وقوم عاد كذبوا نبيهم هودًا.

٣- وقوم ثمود كذبوا نبيهم صالحًا.

٤- وقوم إبراهيم كذبوا نبيهم إبراهيم.

٥- وقوم لوط كذبوا نبيهم لوطًا.

٦- وأصحاب مدين كذبوا شعيبًا، وكذلك أصحاب الأيكة، إلا أن قوم مدين هم قوم شعيب، فهو منهم، أخ لهم، بخلاف أصحاب الأيكة فليس منهم، وقوم مدين كانوا أسبق من أصحاب الأيكة في التكذيب، وكانت رسالة شعيب إليهما معًا.

وجاء ذكر موسى بهذه العبارة ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ﴾ ولم يقل قوم موسى؛ لأن الذين كذبوا موسى هم فرعون وقومه، وآمن به بنو إسرائيل، فجميع القوم لم يكذبوا موسى، بل كذبه فرعون وملؤه، مع وضوح الأدلة، والآيات الظاهرات، والمعجزات البيِّنات التي جاء بها موسى من عند ربه.

قال سبحانه: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: أمهلت هؤلاء الأمم جميعًا، فأخَّرت نزول العذاب بهم، ولما لم يؤمنوا أخذتهم.

قال بعض السلف: كان بين قول فرعون لقومه: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]

وبين نزول العذاب به حين أغرقه الله سبحانه: أربعون عامًا.

وفي الحديث عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»** ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[1] [هود].

وهذا معنى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت].

فقد عذَّب الله قوم نوح، وقوم فرعون بالغرق، وعذَّب قوم عاد بالريح الصرصر العاتية شديدة الهبوب، وعذَّب قوم ثمود وأصحاب مدين بالصيحة، وعذَّب قوم لوط بحجارة من سجيل، وقلَب الله ديارهم رأسًا على عقب.

وعذَّب قوم إبراهيم -وهم الكلدان- بما جاء في قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [النحل].

وقال تعالى في عذاب قوم إبراهيم: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء].

وفي آية أخرى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٨].

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم كفرهم وتكذيبهم، وتبديل ما كان بهم من نعمة، إلا عقاب المكذبين لرسل الله جميعًا بالهلاك، فإن هؤلاء الأقوام لم أعاجلهم بالعقوبة بل أمهلتهم، وأمليت لهم، ثم أخذتهم أخذ عزيز مقتدر، فبدَّلْتُ نعمتهم نقمة، وكثرتهم قلة، وأمنهم خوفًا، وعمرانهم خرابًا.

---

(١) حديث صحيح عن أبي موسى، أخرجه البخاري برقم (٤٦٨٦) ومسلم برقم (٢٥٨٣).

وَهَذَا مَصِيرُ كَثِيرٍ مِنَ الأُمَمِ الظَّالِمَةِ

٤٥- ﴿فَكَأَيِّن[١] مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا[٢] وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ[٣] مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

ذكر سبحانه في هذه الآية كيف كان نكير الله وغضبه على الأمم المكذبة بعد أن أمهلها وأملى لها، فبعد أن ذكر الله تعالى سبعًا من الأمم الذين كذبوا رسلهم، ذكر سبحانه حُكْمًا عامًّا، فبيَّن أن هذا هو حال أكثر البشرية، وأن كثيرًا من المدن العظيمة، والقرى الكبيرة، من أهل الحضر والبدو، أهلكهم الله لتكذيبهم رسل الله، ولم يبق منهم لا أهل الحضَر ولا أهل البادية ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: مشركة مكذبة لرسل الله، فالشرك والكفر وتكذيب الرسل هو سبب الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة.

﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ قد هُدّمت ديارهم، ولم يبق فيها سقف ولا جدار ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ أي: أن الله سبحانه بدَّل نعمتهم وحوَّلها إلى نقمة، وغيَّر حياتهم إلى هلاك ودمار، وبدَّل ما هم فيه من نعيم وعمران إلى شقاء وخراب.

وأهل المدن الذين أهلكهم الله لظلمهم كثيرون، منهم من ذُكر في القرآن، ومنهم من لم يذكر، مثل: طسم وجَديس، وآثارهم باقية في اليمامة.

وكم من بئر كان يزدحم عليه الناس لشربهم وشرب مواشيهم قد فَقَدَ أهله، وعَدِم الصادر والوارد، بعد أن تعب عليه أهله فشيدوه وحصّنوه، وحين جاء أمر الله، لم يُغن عنهم بنيانهم من الله شيئًا، قد صار عبرة لمن يعتبر، ومثالاً لمن ينظر ويفكر، وهذه البئر تضرب مثلا لكل عمران وكل مورد ماء وكل وسيلة إنتاجية.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو جعفر بألف بعد الكاف، بعدها همزة مكسورة في (فكأين) تقرأ هكذا (فكائِن) ومثلها (وكائن) في الآية (٤٨) وهذه الهمزة حققها ابن كثير، وسهلها أبو جعفر مع المد والقصر، وقرأ الباقون بهمزة مفتوحة بعد الكاف وبعدها ياء مكسورة مشددة، ووقف أبو عمرو ويعقوب على الياء هكذا (وكأي)، والباقون وقفوا على النون (وكأين).

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب (أهلكتُها) على إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم، وقرأ الباقون (أهلكناها) على إسناد الفعل إلى ضمير العظمة.

(٣) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (بئر) ياء في الحالين، ومعهم حمزة عند الوقف، وحققها بقية القراء.

وفي مسير الصحابة إلى تبوك مرُّوا بديار ثمود، فنهاهم النبي ﷺ عن الشرب من آبارها إلا بئرًا واحدة هي التي شربت منها الناقة.

ويقال: إن المراد بالبئر في الآية: بئر الرس، والمراد بالقصر المشيد: القصر الذي بناه شداد بن عاد بن إرم.

وقال بعض المفسرين: إن هذه البئر المعطلة والقصر المشيد كانا في حضْرموت، وإن نبي الله صالحًا بعد أن نجَّاه الله ومن آمن معه من الصيحة أتوْا إلى مدينة يقال لها: حَضور -بفتح الحاء- ومات فيها صالح عليه السلام، فسميت حضرموت؛ لأن صالحًا حضر إليها ومات فيها.

وأما قومه فقد كانوا عند هذه البئر، وطال بهم الوقت بعد نبي الله صالح، فعبدوا الأصنام، فأرسل الله إليهم نبيًّا يقال له: (حنظلة بن صفوان) فنهاهم عن عبادة الصنم، فقتلوه، فغارت البئر، وهلكوا عطشًا.

وقوله سبحانه: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ إشارة إلى هلاك ملوك البدو والقرى.

أما القصر المشيد، فهو كل قصر خلَّفه أهله بعد هلاكهم؛ كقصر غمدان، وقصور الفراعنة في صعيد مصر، وغير ذلك من القصور العالية المشيدة التي لم تدفع عن أهلها سوء العذاب، وكثير من الأبراج في العالم ذاقت نفس المصير لفساد أهلها وظلمهم، وما أحداث الحادي عشر من سبتمبر في أمريكا عنا ببعيد، فقد قوضت أعلى المباني وأفخمها وأهلكت الآلاف من البشر في لحظات!!

فكثير من القرى أهلك الله أهلها بسبب كفرهم وظلمهم، وإذا نظرت إليها وجدتها خالية من أهلها وقد سقطت سقوفها على جدرانها.

وكثير من الآبار التي كانت تتفجر منها تعطلت وصارت مهجورة.

وكثير من القصور الفخمة خلَت من أهلها، فدمرهم الله تدميرًا؛ لما كذبوا رسل الله، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق].

وفي هذا إشارة إلى هلاك ملوك المدن ذات الحضارة العظيمة.

والقول بأن صالحًا ﷺ مات في حضرموت قول غير دقيق، فإن بعض المحققين[١] يذكر أن قبر صالح ﷺ في عكّا وليس في حضرموت.

التَّعَجُبُ مِنْ غَفْلَةِ النَّاسِ

٤٦- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

هذا تعجب من غفلة الناس، وتوبيخ لهم على عدم الاستفادة من أحداث التاريخ، حيث قال سبحانه داعيًا هذه الأمة إلى النظر والسفر والتأمل، كما دعاهم للاعتبار بمصائر الأمم الغابرة، للتعجب من حالهم، وعدم الوقوع فيما وقعوا فيه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يسافروا وينتقلوا ليشاهدوا آثار المهلَكين؛ فيتفكروا بعقولهم، ويسمعوا أخبارهم بآذانهم، وينظروا إلى مدائن صالح، وإلى وادي الأحقاف، وإلى البحر الميت، وإلى آثار الأماكن التي دمر الله أهلها، فيعتبروا بما حدث لهم، فشأن المسافر أن يستفيد ويطلع على ما لم يطلع عليه المقيم.

وليس العمى عمى البصر، وإنما هو عمى البصيرة، عن الفهم وقبول الحق، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة].

والأبصار والأسماع وسائل وطرق لتحصيل العلم، والإدراك يكون بالعقل، فإذا لم يكن في الدماغ عقل يعي، كان المبصر كالأعمى، والسامع كالأصم، بسبب اختلال العقل.

وقد بيَّن الله سبحانه، أن موضع القلب في الصدر، وذِكْر الصدر من باب التأكيد.

ويوضح هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [هود].

وقوله تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد].

---

(١) هو الإمام أبو القاسم الأنصاري كما في «البحر المحيط»، قال: إنه رأى قبر صالح بالشام في عكّا.

عَذَابُ اللهِ لِمَنْ كَذَّبَ رُسُلَهُ آتٍ لَا مَحَالَةَ

٤٧ - ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ[١]﴾

وبدل أن يتأمل المكذبون في مصارع مَن سبقوهم، ويعتبروا بما حدث لهم، ويجْنحوا إلى الإيمان خشية العقاب، فإنهم قالوا: لو كان محمد صادقًا في تهديده لنا بالعذاب إن لم نؤمن، لعجَّل لنا هذا العذاب، إنهم يستعجلون نزول العذاب الذي وعدهم به محمد ﷺ، وبدل أن يؤمنوا به، ويتوبوا من كفرهم وشركهم فإنهم يطلبون سرعة نزول العذاب بهم استهزاء وسخرية.

ولما كان استعجالهم للعذاب يدل على أنهم غير مصدقين بهذا الوعيد، فإن الله تعالى أعقب ذلك ببيان أن العذاب نازل بهم لا محالة؛ لأنه وعْد من الله تعالى، ووعد الله لا يتخلف، فعذاب الله بالمكذبين سوف يحل بهم في الدنيا في صورة أو أخرى، ويحل بهم يوم القيامة في يوم عظيم الهوْل، يبلغ طوله ألف سنة من أيام الدنيا ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ من أيام نزول العذاب بهم ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ من أيامكم التي تعيشونها، فما أجهل من يستعجل هذا!

لقد أعلمهم الله تعالى أنهم إذا استعجلوا العذاب في أيام قصيرة، فإنه سيأتيهم في أيام طويلة، وفي هذا وعيد لهم بامتداد العذاب بهم، ويقدَّر اليوم في الدنيا بأربع وعشرين ساعة.

١- واليوم عند رب العالمين بألف سنة، كما جاء في الآية التي معنا.

عن ابن عباس ﷺ أنه أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض.

٢- أما قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة: ٥] فإن المراد اليوم الذي فيها، هو مقدار سيْر الأمر وعروجه إليه سبحانه من السماء إلى الأرض[٢].

(١) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف بالياء في (تعدون)، على إسناد الفعل إلى ضمير الغائبين في (ويستعجلونك)، والباقون بالتاء، والخطاب موجه للمسلمين وغيرهم.

(٢) أخرج هذا ابن أبي حاتم من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس.

٣- أما يوم القيامة فمقداره خمسون ألف سنة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج].

فآيتا الحج والسجدة متوافقتان، أما آية المعارج فتزيد خمسين ضعفًا.

وقيل: إن اختلاف زمن اليوم في جميعها، باعتبار حال المؤمن وحال الكافر؛ حيث يطول هذا اليوم على الكافر، ويقصر على المؤمن، كما قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر].

فهو يوم يطول على الكافر ويقصُر على المؤمن؛ حيث يكون على المؤمن كمقدار الصلاة المكتوبة، جاء في الحديث: عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«أبشروا يا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم، وذلك مقدار خمس مئة سنة»**[1].

وذَكَرت الأحاديث أن الحساب يوم القيامة ينقضي في نصف نهار، ونصف النهار يقدر بخمس مئة عام، وهو وقت القيلولة والاستراحة؛ لقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان].

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم»**، قلت: وما مقدار نصف يوم؟ قال: **«أو ما تقرأ القرآن»**؟ قلت: بلى، قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[2].

وفي حديث آخر عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمس مئة عام»** وعند أحمد **«فقراء أمتي»** قال: وتلا الآية:

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٦) وانظر صحيح ابن ماجه (٣٣٢٧) والمسند (١١٦٠٤) بنحوه، قال محققوه: وهو حديث حسن بإسناد ضعيف، لجهالة العلاء بن بشير المزني، وأخرجه البغوي في شرح السنة (٣٩٩٢) وأبو يعلى (١١٥١) والترمذي (٢٣٥١) وابن ماجه (٤١٢٣) والطبراني في الأوسط (٨٤).

(٢) يُنظر الحديث في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣١٨٩) وسنن الترمذي برقم (٢٣٥٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح وانظر صحيح ابن ماجه (٣٣٢٦).

وإن يوما. . .»[١].

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ عن النبي ﷺ أنه سئل عن مقدار نصف اليوم، فقال: «**خمس مئة عام**»[٢].

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت]. قال تعالى:

٤٨- ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾

ثم بيَّن الله سبحانه أن كثيرًا من القرى التي أمهلها سبحانه، وأخَّر نزول العذاب بها، ولم يعاجل أهلها بالعقوبة في الدنيا على ظلمهم وكفرهم، أنهم لما اغتروا وتمادوا، ولم يرجعوا إلى الله سبحانه، أنزل بهم عقابه في الدنيا وأهلكهم، فضلًا عما ينتظرهم في الآخرة من العذاب الذي يستحقونه.

فمعنى الآية: إن كثيرًا من القرى أمهلتُها، ولم أعاجلها بالعقوبة، وهي مصرة على الكفر، ثم عاقبتها بالهلاك في الدنيا، وإليَّ المرجع والمآب في الآخرة فأُجازي كلًّا بما يستحق.

وفي الآية السابقة بيان لكثرة الأمم التي أهلكها الله تعالى في الدنيا، وأنها لا تقتصر على قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وغيرهم ممن جاء ذكرهم في القرآن الكريم، بل هناك كثير غيرهم أهلكهم الله تعالى، ولم يرِد ذكرهم في القرآن، والآية السابقة تقتصر كذلك على الإهلاك دون الإمهال. أما هذه الآية فإنها تقتصر على الإمهال دون الإهلاك؛ لبيان أن تأخير العذاب لا يقتضي عدم تحققه، فليحذر الظالمون من حلول عقاب الله بهم، ولا يغتروا بالإمهال.

---

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٣٤٨) والترمذي برقم (٢٣٥٤) وقال: حسن صحيح و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢/٣٩٦) عن أبي هريرة، وهو في ابن ماجه (٤١٢٢) والحديث في مسند أحمد (١٠٧٣٠) حديث صحيح، وفيه شتير ابن نهار متكلّم فيه وانظر رقم (١٠٦٥٤) بإسناد صحيح على شرط البخاري ورقم (٧٩٤٦) (محققوه) وابن أبي شيبة (١٣/٢٤٦).

(٢) من حديث أخرجه أبو داود في «السنن» برقم (٤٣٥٠).

رِسَالَةُ النَّبِيِّ ﷺ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ وَنَذِيرٌ لِلْكَافِرِينَ

٤٩، ٥٠- ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٤٩ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠﴾

ثم بيَّن سبحانه أن صدَّ الكفار وتكذيبهم لن يمنع النبي ﷺ من تبليغ رسالة ربه، وأن إعراضهم عنه لن يثنيه عن القيام بواجب الرسالة، فقال الله تعالى لرسوله: إن نزول العذاب ليس بيدك، وإنما أنت عبد مأمور، تبلِّغهم وتنذرهم وتبشرهم، فقل لهم: - يا أيها الناس - ما أنا إلا منذر لكم، مبلِّغ عن الله رسالته، فلستُ طالب دنيا، ولا متقربًا إليكم، فمن أطاعني فلنفسه، ومن عمي فعليها، وأمركم إلى الله، إن شاء عجَّل لكم العذاب وإن شاء أخَّره عنكم، فهو الفعَّال لما يريد.

ثم إن الناس في تلقِّيهم لهذا الإنذار، بين مُصدِّق ومُكذِّب، وقد بيَّن ﷻ حال الفريقين، وما ينتظر كلًا منهما من مصير، فالذين آمنوا بالله ورسوله، واستقر الإيمان في قلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحة، لهم عند الله مغفرة يستر بها ذنوبهم، ولهم رزق حسن لا ينقطع، في الجنة ونعيمها، وقد جمع الله لهم بين مغفرة الذنوب والرزق الكريم في جنات النعيم؛ لأنهم جمعوا في الدنيا بين الإيمان والعمل الصالح.

قال القرطبي: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فاعلم أنه الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [سبأ]. هذا جزاء المؤمنين، فما جزاء الكافرين؟ قال تعالى:

٥١- ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ[1] أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝٥١﴾

أي: وأما الفريق المقابل لأهل الإيمان، فهم الذين استمروا على الكفر، واجتهدوا في الكيد لإبطال آيات القرآن، محاولين مشاقة الله ورسوله، ظانين أنهم نالوا مُرادهم في الدنيا، ولم يفكروا في سوء المصير، وقد كانوا باذلين جهدهم في الطعن في آيات القرآن

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (مُعَجِّزين) بحذف الألف وتشديد الجيم، اسم فاعل من عجَّزه إذا ثبَّطه، وقرأ الباقون (معاجزين) اسم فاعل من عاجزه إذا سابقه فسبقه، ثم استُعمل في المتخاصميْن؛ لأن كل واحد يحاول تعجيز الآخر وإبطال حجته، والكفار يحاولون إبطال ما نطقت به الآيات من الحجج.

وإطفاء نور الله، وتثبيط الناس عن اتباعه، معطلين وصولها إلى قلوبهم؛ حتى لا يعملوا بها، وهم الملازمون للنار الموقدة.

ومن أحسن ما يفسر هاتين الآيتين ما صحَّ عن النبي ﷺ من حديث أبي موسى ﷺ أنه قال: «**إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعينيَّ، وإني أنا النذير العُريان، فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا فانطلقوا على مُهْلتهم، وكذبت طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم، فصبَّحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئتُ به، ومثل من عصاني وكذَّب ما جئتُ به من الحق**»(١)

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل]. وذلك لأنهم وقفوا حجر عثْرة ضد الدعوة، يُثَبِّطون الهِمَم، ويمنعون الناس من الدخول في الإسلام، فَضَلُّوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [سبأ].

ومعنى **معاجزين**: مثبطين غيرهم عن الإسلام، وظانين أنهم يُعجزون ربهم، وأنه لايقدر على بعثهم بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ [التغابن: ٧]. وقال تعالى عن الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ [الجن]. أو أن الكفار يظنون أنهم سيفلتون من عقاب الله تعالى.

أو أنهم يحاولون منع الأنبياء من دعوتهم بقتالهم؛ لتعجيزهم عن تبليغ دعوة الله، وتثبيط من أراد الدخول في الإسلام عن اعتناقه وهم لن يفلتوا من عقاب الله تعالى على أي حال.

قِصَّةُ الْغَرَانِيقِ وَالْحِكْمَةُ مِنْهَا

٥٢- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ(٢) فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾

هذه الآيات لبيان ما لقيه النبي ﷺ من الظلم والتكذيب في صدر الدعوة، وهو امتداد

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٨٣) عن أبي موسى، و«صحيح البخاري» برقم (٦٤٨٢، ٧٢٨٣).

(٢) قرأ أبو جعفر بتخفيف ياء (أمنيته)، والباقون بتشديدها.

لأفعال الأمم الظالمة التي أمهلها الله تعالى ثم أهلكها.

ويراد بالغرانيق: الأصنام، والغرانيق في الأصل: هي الطيور البيضاء، يقال له: غرنوق، أي: طائر أبيض، والمشركون كانوا يشبِّهون أصنامهم بالغرانيق، ويعتقدون أنها ترتفع إلى الله سبحانه، وتطير كما تطير الطيور البيضاء فتشفع لهم عند الله تعالى.

وقد زلَّت قَدمُ بعض الناس في قصة الغرانيق؛ لأنهم لم يفهموها على الوجه الصحيح، وهي تُذكَر عند الآية الثانية والخمسين في أربع آيات من سورة الحج، ويأتي ذكرها في قوله تعالى من سورة النجم: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم].

وهذه القصة سببها ما ورد أن سورة النجم لما نزلت على النبي ﷺ قرأها على مسمع من المسلمين والمشركين جميعًا في الكعبة حول البيت، فلما وصل إلى نهاية السورة وقرأ: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ سجد سجود التلاوة، وسجد معه المسلمون والمشركون جميعًا، وهذا القدْر هو الذي صحّت به الأحاديث.

ولكنَّ الأفاكين قالوا: إن النبي ﷺ عندما وصل إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ ألقى الشيطان على مسامع المشركين بعدها: (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) ففرح المشركون بذلك أيما فرح.

هذا: ولما بيَّن سبحانه في الآيات السابقة، أن من اتبع الرسول ﷺ فقد نجا واهتدى، وأن من كفر به فقد ضل وهلك، وأن مهمة الرسول ﷺ هي البلاغ والإعلام، ولما كان النبي ﷺ حريصًا على هداية قومه، شديد الرغبة في إيمانهم، يتمنى أن يؤمنوا جميعًا:

لما كان الأمر كذلك أراد الله سبحانه أن يبيِّن لرسوله ﷺ أنه لم يَسْلَم أحد من الرسل والأنبياء السابقين قبله، من محاولة الشيطان أن يُفسِد عليهم ما يجتهدون فيه من هذْي الأمم، وأن جميع الرسل كان من أقوامهم مصدقون لهم، ومنهم مكذبون لِمَا جاؤوا به. ولنا في هذه الآية أربع وقفات:

الوقفة الأولى: مع الرسول والنبي ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾.

الرسول: هو الرجل الذي نزل عليه جبريل بوحي وشريعة من الله تعالى يبلِّغها إلى قومه، وقد ذكر القرآن بعض الرسل دون بعض، وقال: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم

مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

واشتمل القرآن على خمسة وعشرين نبيًّا ورسولًا.

ويبلُغ عدد الرسل كما ذكرت بعض الآثار: ثلاث مئة وثلاثة عشر رسولًا.

والنبي: هو كل رجل أوحى الله إليه بهداية قومٍ، على ضوء كتابٍ وشريعة الرسول الذي سبقه، أو على ما هو مستقر في الشرائع الإلهية جميعًا، ولم ينزل عليه كتاب سماوي، ولكنه مأمور بتبليغ دعوة من سبقه.

والأنبياء كثيرون سِيَّمَا في بني إسرائيل، وقيل: إن عددهم مئة وأربعة وعشرون ألفًا.

الوقفة الثانية: معنى ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾

التمني: كلمة مشهورة، معناها: طلب الشيء العسير حصوله.

وجميع الرسل والأنبياء، كانوا يتمنون أن يكون كل أقوامهم صالحين مهتدين، ومن ذلك حرص النبي ﷺ على هداية كبار كفار قريش، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف].

وكما في قصة عبد الله بن أم مكتوم، وسبب نزول سورة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾.

وكما في قصة فقراء الصحابة حين طلب صناديد قريش من رسول الله ﷺ أن يطردهم عن مجلسه؛ حتى يتسنىَّ لهم الجلوس معه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وكان النبي ﷺ يتمنى أن يُعزَّ الله الإسلام بأحد العُمَريْن: عمر بن الخطاب أو عمْرو بن هشام (أبو جهل)، وهكذا.

والشيطان يتمنى صرف الناس عن دعوة الحق بإلقاء الوساوس والأباطيل في نفوس الناس، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

أما تفسير ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ بمعنى: (قرأ، وتلا) فهذا لم ترد به اللغة، والقراءة لا يقال لها: أمنية، وقد أورده بعض المفسرين اعتمادًا على أمرين:

أحدهما: أسانيد واهية مضطربة متنًا وسندًا، مطعون فيها، وهي مِنْ وَضْعِ الزنادقة، وأعلاها ما هو منسوب إلى ابن عباس من طريق الكلبي عن أبي صالح، وهو متروك باتفاق أهل العلم فلا يُحتج به.

وفي هذا الأثر أنه قال في: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: إذا حدَّث ألقى الشيطان في حديثه.

وثانيهما: شطر البيت المنسوب إلى حسان بن ثابت: تمنى كتاب الله أول ليله. . .

أي: تمنى أن يقرأ القرآن في أول الليل على عادته فلم يستطع، ولا يلزم من البيت أن يكون التمني بمعنى القراءة، فليس فيه مستند لغوي.

وإسناد التمني إلى الأنبياء يدل على أن المراد به: تمني هداية أقوامهم بتبليغهم ما أنزل الله إليهم، وبموعظتهم وجدالهم بالتي هي أحسن؛ حتى يقترب القوم من الإيمان، وتنجح أماني الرسل في دعوتهم، ومعنى تمنى: أراد وأحب.

الوقفة الثالثة: ما يلقيه الشيطان في أمنية الرسول ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾

وبعد أن يبذل الرسول جهده في هداية قومه، يأتي الشيطان إلى الناس فيضع الوساوس والشكوك والعقبات المانعة من تصديق الرسول وقبول ما جاء به، فيلقي عليهم أنه ساحر، أو شاعر، أو كاهن، وأن ما يأتي به هو من أساطير الأولين.

فإسناد الإلقاء إلى الشيطان يدل على أنه يلقي الضلال والفساد في نفوس الناس، سيَّمَا أئمة الكفر ورؤوس الطغيان؛ ليفسد ما يقوله الأنبياء من الهدى والرشاد، وكان الشيطان قد قطع على نفسه عهدًا بذلك حين قال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [ص].

وقال: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف]. وقد حذرنا الله تعالى من فتنته وإغوائه في قوله: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف].

أما أن يقال: إن ما ألقاه الشيطان هو إلقاؤه على مسامع المشركين في سكتات النبي ﷺ وفَصْلِه بين الآيات، وهو يقرأ سورة النجم بعد قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾

وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) ففرح المشركون بذلك وسجدوا مع المسلمين، وأن بعض المهاجرين إلى الحبشة حين بلغهم ذلك رجعوا إلى عشائرهم ظنًّا منهم أن المشركين جميعًا قد أسلموا. . . إلخ.

فالجواب على ذلك، أن الأحاديث التي ذُكر فيها هذا السجود، جاءت بدون ذكر هذه الجملة: (تلك الغرانيق العلى. . .)

١- فقد جاء في الصحيح: عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ فسجد فيها، وسجد **من كان معه** -يعني: سجود التلاوة الذي في آخر السورة- غير أن شيخًا من قريش -هو أمية بن خلف- أخذ كفًّا من حصى أو تراب، فرفعه إلى جبهته وسجد عليه؛ لكبر سنه، قال عبد الله -أي: ابن مسعود-: فلقد رأيته بعدُ قتل كافرًا[(١)].

٢- وصحَّ من حديث ابن عباس ﷺ من طريق عكرمة أن رسول الله ﷺ سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس[(٢)].

٣- وفي رواية في الصحيحين: أن زيد بن ثابت ﷺ قرأ على النبي ﷺ سورة النجم فلم يسجد فيها[(٣)].

فهذا الذي صحَّ عن رسول الله ﷺ لم يُذكر فيه أن النبي ﷺ ذكَر تلك الألفاظ، فلا دليل في الآية من قريب ولا بعيد على قصة الغرانيق المزعومة، ولم تُروَ من طريق متصل السند برسول الله ﷺ[(٤)].

وآيات القرآن قاطعة باستحالة أن يجري على لسان رسول الله ﷺ شيء غير الوحي المنزَّل عليه في تبليغه دعوة ربه، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٠٦٧، ١٠٧٠)، ومسلم برقم (٥٧٦، ٣٨٥٣، ٣٩٧٢).

(٢) رواه البخاري برقم (١٠٧١، ٤٨٦٢).

(٣) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (١٠٧٢، ١٠٧٣) و«صحيح مسلم» (٥٧٧) مطولًا.

(٤) يُنظَر: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للشيخ محمد أبو شهبة ص ٣١٤، و«نصب المجانيق في نسف حديث الغرانيق» للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، والقاضي عياض في «الشفاء» (٢/ ٢٠٧)، والشيخ محمد عبده في تفسير «المنار» للآية، وغيرهم.

ويردُّ قصة الغرانيق قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء].

لقد كان الرسول ﷺ حريصًا على هداية القوم، يريد استمالة قلوبهم إلى الحق، وقد ثبَّت الله رسوله عن الركون إليهم واتباع أهوائهم، ولو حدث شيء من هذا القبيل لضاعف الله له العذاب في الدنيا والآخرة، وحاشا لرسول الله ﷺ أن يمدح آلهتهم، أو يتسوَّر عليه الشيطان فيذكر على لسانه ما يشبه القرآن، فإن هذا ممتنع؛ لأن الله تعالى قد عصم رسوله من أن يُفترى عليه، وحفظه من الركون إليهم قليلًا أو كثيرًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ [النساء: ١١٣]

وهذا المعنى قاله المشركون تعليقًا على جُهد الرسول ﷺ معهم في محاولة هداهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢].

لقد أراد المشركون أن يُسْلموا فصرفتْهم الشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وهذا القرآن ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت].

وفي الردِّ على طلب الكفار من النبي ﷺ أن يأتي لهم بقرآن يحقق رغبتهم، يُلقِّن الله سبحانه رسوله ﷺ الجواب في قوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [يونس: ١٥].

وفي قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم]. ولو جاز هذا القول لارتفع الأمان عن القرآن، ولم يكن هناك فرق بين الزيادة عليه، أو النقصان منه.

الوقفة الرابعة: مع قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾

أي: أن الله تعالى يزيل الشبهات والشكوك من نفوس المؤمنين ببيان الله الواضح، ويزيد دعوة الرسل بيانًا بإثبات مدلولها، وتوضيحها بما لا شُبهة بعده إلا لمن زاغ قلبه.

ومعنى ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: وكلما أفسد الشيطان دعوة الرسل أمر الله رسله

فعاودوا الإرشاد وكرروه بتكرار المواعظ والقصص في القرآن، ففي هذه المعاودة نسْخ لِمَا يُلْقيه الشيطان، وتثبيت لآيات الله في قلوب عباده؛ وذلك لأن الشيطان داعية ضلال، والله تعالى ينسخ ما يلقيه في نفوس البشر بواسطة الرسل، كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر].

ويصح أن يكون المعنى: إن النبي ﷺ إذا تمنى إيمان قومه، وحرص على هدايتهم بكل وسيلة، ثم لقي منهم العناد، ألقى الشيطان في نفس النبي خاطر اليأس من هداهم، وهذا من الخواطر التي تعرض للنفس البشرية، ثم لا يلبث أن ينقشع هذا الخاطر بمقتضى عصمة الرسل، ويَرْسَخ في قلب الرسول ما كُلِّف به من استمرار تبليغ الدعوة، والصبر على الأذى.

وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام].

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بما كان وما يكون، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، حكيم في تقديره وأمره. قال تعالى:

فِتْنَةُ النَّاسِ بِقِصَّةِ الْغَرَانِيقِ

٥٣- ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

ثم ذكر الله سبحانه في هذه الآية ثلاث فتن بسبب **وسوسة الشيطان** للناس في قصة الغرانيق: **الأولى** تتعلق بأهل القسوة والنفاق، **والثانية** تتعلق بأهل الإيمان، **والثالثة** تتعلق بأهل الكفر، فبيَّن سبحانه أن المقصود من القصة امتحان الخلق جميعًا:

أولا: فتنة المنافقين وقُساة القلوب:

أما **الفتنة الأولى** فقد جاءت في هذه الآية خاصة بالمنافقين وقساة القلوب، وهي أن ما

يلقيه الشيطان من وساوس إنما هي فتنة للذين في قلوبهم مرض،

وما كانت وسوسة الشيطان وإلقاؤه الشبهات والشكوك في نفوس الناس، إلا ليجعلها الله اختبارًا للذين في قلوبهم شك ونفاق، وهذا معنى ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾

وهو الشق الأول من الآية.

فالمرض يطلق في القرآن على النفاق، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وهم المترددون في قبول الإيمان، أي: في قلوبهم شك، ونفاق﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

كما يطلق المرض على حب الفاحشة، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] أي: حب الزنى، والانحراف.

أما المشركون الممعنون في تكذيب الرسول ﷺ فإن قلوبهم قاسية وجافية عن قبول الحق.

﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم الذين لا يؤثر فيهم الوعظ ولا الزجر، فَقُساة القلوب هم المصمِّمون على النفاق وهم أهل الجحود والعناد، وهذا هو الشق الآخر في الآية.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من هؤلاء وأولئك ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: في عداوة شديدة لله ورسوله، وفي بُعدعن الصواب والحق؛ حيث يجدون في مثل هذه الأحوال مادة للجدل، واللجاج، والشقاق.

ثَانِيًا: فِتْنَةُ الْمُؤْمِنِينَ:

٥٤- ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ[1] ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

أما **الفتنة الثانية** من وسوسة الشيطان للناس فإنها تتعلق بالفريق المقابل لأهل الكفر والنفاق، وهم المؤمنون الذين أوتوا العلم بالوحي عن طريق الكتب التي بلَّغها لهم رسل الله، فأشرق نور النبوة في قلوبهم -وفي مقدمتهم أصحاب رسول الله ﷺ المعاصرون للتنزيل- فإن هؤلاء المؤمنين يزدادون يقينًا بأن الوحي الذي نزل على رسول الله هو الحق

---

(١) وقف يعقوب بالياء على (لهاد)، والباقون بحذفها في الحالين.

الثابت الذي لا يتطرق إليه الشك ولا الشبهة.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فأهل العلم هم الذين يفرقون بعلمهم بين الحق والباطل، فيدركون أن القرآن هو الحق النازل من عند الله، ولا سبيل للشيطان إليه، فيزداد إيمانهم به، وتخضع له قلوبهم، هذا معنى: ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الروم].

ثم مدح الله أهل العلم الديني، وأشار إلى أن إيمانهم هو سبب هدايتهم، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وعكسُ هذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]. في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحج]

لقد قام رسول الله بدعوة أهل النفاق، وأهل الجحود والعناد، وهم الذين قست قلوبهم، كما دعا أيضًا أهل العلم اليقيني، فهداهم جميعًا بالدعوة والإرشاد إلى الطريق الواضح، المنقذ من الضلال، وهو الإسلام، فمنهم من آمن وهم أهل العلم الحق، ومنهم من كفر وهم أهل النفاق والجحود.

ثَالِثًا: فِتْنَةُ الْكَافِرِينَ:

٥٥- ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾

ثم خصَّ الله سبحانه الكفار المكذبين بالقرآن وبرسول الإسلام، بعد أن عمَّهم في جملة الظالمين ، فبيَّن سبحانه أن هؤلاء الكفار سيستمرون على شكِّهم في القرآن، حتى تأتيهم الساعة فجأة وهم على تكذيبهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ لا خير فيه بالنسبة لهم، وهو يوم القيامة ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في شك من هذا القرآن ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ كالريح العقيم التي لا خير فيها، فيجازي الله الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وعند قيام الساعة أو مجيء ذلك اليوم، يعلم الكفار أنهم كانوا كاذبين، ويندمون حين لا ينفع الندم، ويَيْئسُوا من كل خير، ويتمنَّوا لو أنهم آمنوا بالرسل، واتخذوا معه سبيلا، وفيِّ هذا تحذيرلهم من الإقامة على الكفر.

وهكذا فقصة الغرانيق فيها تمحيص وابتلاء للمنافقين قساة القلوب أهل الظلم والطغيان، وفيها ثبات ويقين لأهل العلم الحقيقي، وفيها إظهار الشك والارتياب لأهل الكفر.

فَصْلُ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْخَلَائِقِ

أولا: المؤمنون ونعيمهم:

٥٦- ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾

وفي يوم القيامة يكون الملك والسلطان لله وحده، كما أن المُلْك في الدنيا لله وحده، لكنَّ الدنيا فيها مُلك ظاهري لعدد من الخلق، أما في يوم القيامة فلا يكون اسم المَلِك إلا لله وحده؛ حيث لا مُلك لأحد من ملوك الدنيا: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ أي: أن الله تعالى يقضي يوم القيامة بين المؤمنين والكافرين فيما اختلفوا فيه، وادَّعى كل منهم أنه على الحق، وضده على الباطل، كما قال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ [الفرقان: ٢٦]. وقال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

ثم فصَّل سبحانه هذا الحكم الذي يكون بين الناس يوم القيامة، فذكر أن الناس **ثلاثة أصناف**:

أولهم: المؤمنون، الذين صدَّقوا بالله ورسوله، فأيقنوا واعتقدوا اعتقادًا جازمًا بوحدانية الله تعالى، وصدق ما جاء محمد ﷺ، وعملوا الأعمال الصالحة، فهؤلاء لهم النعيم الدائم في جنة الخلد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [لقمان].

وقال تعالى عن عباده المقربين: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة]، فيحصل لمن في الجنة: الراحة والرزق والنعيم المقيم.

ثَانِيًا: الْكُفَّارُ وَعَذَابُهُمْ:

٥٧- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾

وثانيهم: الكافرون الذين جحدوا وحدانية الله تعالى وكذبوا رسوله، وأنكروا آيات القرآن، فأولئك لهم عذاب يخزيهم ويُهينهم في جهنم، كما قال تعالى:
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ثَالِثًا: مَنْ فُتِنُوا فِي دِينِهِمْ وَمَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُمْ:

٥٨- ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ[1] أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨﴾

وثالثهم: تخصيص لفريق من عموم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، للمهاجرين المجاهدين، تنويهًا بفضل الجهاد في سبيل الله، وهم الذين خرجوا من ديارهم، طلبًا لرضى‌الله تعالى، ونُصرة لدينه، سواء من قُتل منهم وهو في جهاد مع الكفار، أو من مات منهم على نية الجهاد من غير قتال، فإن الله تعالى سيرزقهم جميعًا رزقًا حسنًا هو الجنة، ونعيمها الذي لا ينقطع ولا يزول، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾ [النساء: ١٠٠]. والله تعالى هو خير الرازقين، أي: أن الله تعالى هو الرازق في الواقع وحقيقة الأمر.

ومن قُتل في سبيل الله، مهاجرًا أو غير مهاجر، فهو حيٌّ يرزق عند ربه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٧٠﴾ [آل عمران]. وهذا من الرزق الحسن الذي وعدهم الله إياه، فهم يرزقون في البرزخ، ويرزقون يوم لقاء الله:

٥٩- ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا[2] يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾

ومن كرامة المهاجرين المجاهدين على الله، وحسن منزلتهم عنده، أنه سبحانه يُدخلهم مدخلًا حسنًا يرضونه هو الجنة في الدار الآخرة، أما في الدنيا فإن الله تعالى سيفتح عليهم من البلاد ما يدخل به الفرح والسرور عليهم.

وعلم الله تعالى محيط بمن خرج من بيته مهاجرًا في سبيل الله، ومن خرج طلبًا للدنيا، وهو سبحانه حليم بمن عصاه فلا يعاجلهم بالعقوبة.

---

(١) قرأ ابن عامر بتشديد التاء من (قتلوا) للتكثير، والباقون بتخفيفها على الأصل.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح الميم من (مدخلا)، مصدر أو اسم مكان من دخل الثلاثي، والباقون بتشديدها من أدخل الرباعي.

وَعْدُ اللَّهِ تَعَالَى بِنُصْرَةِ الْمَظْلُومِ

٦٠- ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾

لما ذكر الله تعالى الهجرة والجهاد في الآيات السابقة، بعد أن أذن سبحانه لعباده المظلومين بالدفاع عن أنفسهم في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ وعدهم هنا بالنصر على عدوهم، فمن عاقب الظالم بمثل ظلمه، ثم اعتدى الظالم مرة أخرى على المظلوم فإن الله تعالى ناصره.

أي: ومن ظُلم وجُنى عليه، فإنه يجوز له أن يقابل الجاني بمثل جنايته، فإن فعل ذلك فليس بملوم وليس عليه سبيل، فإن بُغى عليه بعد ذلك فإن الله ينصره، لأنه مظلوم.

وكان المسلمون قد اعتُدِي عليهم، وأُخرجوا من ديارهم وأموالهم، فبيَّن سبحانه أن دفْع المعتدين الذين آذَوْا المسلمين وأرغموهم على مغادرة أوطانهم، هو من باب القانون العادل المماثل في رد العدوان.

وسُمِّي اعتداء غير المؤمنين على المؤمنين عقابًا في قوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ لأن غير المسلمين كان قصْدهم معاقبة المسلمين على خروجهم عن الشرك وعبادة الأوثان.

وقيل في أسباب النزول: إن قومًا من المسلمين لقَوْا جماعة من المشركين قبل نهاية شهر المحرم بيومَيْن، فأراد المشركون أن يحملوا على المسلمين ويقاتلوهم، وقالوا: إن أصحاب محمد يحرِّمون القتال في الشهر الحرام، فناشدهم المسلمون ألَّا يقاتلوهم، وألا يتعرضوا لهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا أن يقاتلوا المسلمين، فقاتلوهم، فثبَّت الله المسلمين ونصرَهم على المشركين، وحدث في نفوس المسلمين شيء من القتال في الشهر الحرام، فأنزل الله سبحانه الآية[1].

والمعنى: إن ذلك الأمر الذي قصصناه عليك -يا رسولنا- من إدخال المهاجرين

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل بسند مرسل في سرية بعثها النبي ﷺ في نهاية المحرم، ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٠/ ٥٣٥) والقرطبي (٢/ ٩٠) وابن كثير (٥/ ٤٤٩).

الجنة، وحُسْن منزلتهم عند الله تعالى، هو الجزاء العادل فإن المظلوم مأذون له في دفع العدوان بمثله.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة يؤتى به للفصل بين كلامين، ولا يصلح أن يكون ما بعده خبرًا عن اسم الإشارة، ويؤتى به لبيان أهمية ما سيأتي.

وهو أن مَن اعْتُدِيَ عليه وظُلم، ولو كان هذا الاعتداء في الشهر الحرام، ثم دافع عن نفسه، وجازى المعتدي بمثل ما فعل، فقابل السيئة بالسيئة، وانتصر لنفسه فلا شيء عليه؛ لأن الله تعالى قد أذن له أن يقابل الجاني بمثل فعلته، ولا حرج عليه في ذلك.

ثم إن اعتُدِي أو بُغي عليه مرة أخرى، فإن الله تعالى قد تعهد بنُصرة المظلوم في مثل هذه الحالة أيضًا ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ إذ لا يجوز أن يُعتدَى عليه بسبب انتصافه لنفسه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الشورى].

والآية تشير إلى أن الذين أخذوا حقهم قصاصًا وردًّا للعدوان، فإن الله تعالى غفور لهم رحيم بهم، يتجاوز عنهم ولا يؤاخذهم ما داموا لم يعتدوا ابتداء، ولم يتجاوزوا الحدَّ في القصاص، فإن اعتُدِي عليهم بعد أن قابلوا العدوان بمثله فإن الله سينصرهم.

وهذا الجزاء المماثل في رد العدوان جاء في سياق الدفاع عن الوطن، وحمايته من المعتدي، وليس في مقام تعامل الأفراد، ولذا فإن آيات الترغيب في العفو لا مجال لها في هذا المقام أي في مقابلة السيئة بمثلها، ولكن العفو درجة أعلى من ذلك.

ولذلك ختم الله الآية بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ يعفو عن المذنبين ويغفر ذنوبهم، وقد جُمع الأمران معًا قوله تعالى ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ﴾ [الشورى: ٤٠]

سِتَّةُ أَدِلَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ

الدليل الأول: إدخال كل من الليل والنهار في الآخر:

٦١- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾

ثم بيَّن سبحانه أنه لا عجب في النصر الذي وعد الله به المسلمين مع قلتهم؛ فإن

نُصْرته تعالى للمظلوم من آثار قدرة الله تعالى، وربطها بسننه الكونية.

ومعناه: أن الله القادر على نُصرة المظلوم هو القادر على إدخال الليل في النهار، وإدخال النهار في الليل، فالليل يزيد والنهار ينقص، والنهار يزيد والليل ينقص، وظلمة الليل تدخل في ضوء النهار، وضوء النهار يدخل في ظلمة الليل، وهو الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران].

والله تعالى سميع لكل صوت، بصير بكل فعل، لا يخفى عليه شيء، ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]

الدَّلِيلُ الثَّانِي: كُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ فَهُوَ بَاطِلٌ:

٦٢- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

أي: أن الذي يفعل ذلك فيُدخل النهار في الليل، ويُدخل الليل في النهار، هو الإله الحق الثابت الذي لا يفنى، ولا يحول ولا يزول، ليس مثله شيء وليس بعده شيء.

قوله حق، ووعده حق، ودينه حق، وعبادته حق، ولقاؤه حق، فهو القادر على نصر المظلوم، وهو الذي تعنو الوجوه لعظمته، ولا تعنو لغيره، ولا تتجه لسواه، فكل ما سوى الله باطل، من سائر الآلهة التي تُعبد من دون الله في طول الأرض وعرضها، فلا تنبغي العبادة إلَّا له، وكل ما في الكون تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله غيره ولا رب سواه، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، والله تعالى هو العلي الكبير، الكامل في أسمائه وصفاته وأفعاله، الأرض قبضته يوم القيامة، والسموات مطوياته بيمينه، نواصي العباد بيده، لا يسكنون ولا يتحركون إلا بمشيئته.

فمعنى الآية: ذلك بأن الله هو الواحد الأحد، الذي لا إله غيره ولا رب سواه، وأن ما

يعبده المشركون من دون الله هو الباطل الذي لا ينفع ولا يضر، وأن الله هو العلي على خلقه، المتعالي عن الأشباه والأنداد، الكبير الذي دونه كل شيء، ولا شيء أكبر منه، فهو صاحب صفات الكمال والجلال، والكبرياء والعظمة، كلها ثابتة له سبحانه، والمقصود من العبادات: تكبيره وتعظيمه، وإجلاله وإكرامه، ولذا كان التكبير شعار الصلاة.

والآية تشير إلى سبب آخر لنصر المؤمنين على عدوهم، وهو أن الله تعالى إذا أراد فعَل وقدَّر، فهو سبحانه ينصر أولياءه، وما يعبده المشركون من دون الله لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلًا عن غيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف].

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: إِحْيَاءُ الْأَرْضِ بِالْمَاءِ

٦٣- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾

وبعد هذه الآيات الثلاث التي تُبيِّن شيئًا من كمال قدرة الله ﷻ، ذكر جلَّ شأنه بعض نعمه على الإنسان، الدالة على آثار قدرة الله سبحانه في الكون؛ كي يشكر العبد ربه، ويعلم أنه المستحق للعبادة دون سواه.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ والخطاب لرسول الله ﷺ ولكل مسلم يتأتى منه الخطاب، وهو يعلم قدرة الله بقلبه علم اليقين ويشاهدها ببصره، وفي هذا حث للعباد على التأمل والنظر في آيات الله الدالة على وحدانية وكمال قدرته.

والمعنى: ألم تعلم ببصيرتك، وتشاهد بعينيك آثار دلائل قدرة الله تعالى في الكون، ومنها نعمة الماء، فترى أن الله تعالى ينزل الماء من السحاب إلى الأرض اليابسة الجافة الميتة، فيُنبِت به الزروع والثمار والأشجار بعد أن كانت الأرض هامدة جامدة؟! كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال سبحانه: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠].

واخضرار الأرض بما ينبُت فيها من نبات؛ بسبب سقيها بالماء، يكون بعد انتعاشها،

ومرور البذر فيها بمراحل التكوين؛ وهي تُشبه أطوار خلق الإنسان من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم لحم وعظام، وهذا من أدلة قدرة الله تعالى على البعث والنشور بعد الموت والفناء.

إن الله تعالى لطيف بعباده، قدَّر لهم أقواتهم وأرزاقهم من هذا النبات الذي يخرج من الأرض بأثر هذا الماء، خبير بهم وبأحوالهم، لا يغيب عنه شيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان].

وهو سبحانه لطيف، يدرك بواطن الأمور، وخفاياها وأسرارها، فهو يسوق الخير إلى العباد، ويدفع عنهم الشر بطرق لطيفة تَخْفى على العباد، ومن لطفه تعالى أنه يعلم مواقع القطر من الأرض، وبذور الحب في باطنها، فيسوق الماء إلى البذر الذي خفى عن علم الخلائق، فيُنْبت منه النبات، وهو خبير بسرائر الأمور وخبايا الصدور، وخفايا الأمور.

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: الكَوْنُ كلّهُ مَرْبُوبٌ للهِ تَعَالَى:

٦٤- ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾

وإنزال المطر من السماء، وإنبات العُشب من الأرض، ما هو إلا بعض ما في هذا الكون، فهو سبحانه ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ملكًا وخلقًا وعبودية، يتصرف فيهم كيف يشاء، والكل محتاج إلى فضله وتدبيره، والكون كله مخلوق ومربوب لله تعالى، والله جلَّ شأنه يرزق من يشاء بقدرته وحكمته وعلمه، وهو الغني عن خلقه جميعًا، المستحق للحمد دون سواه، ومن غناه سبحانه أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه، ولم يتخذ له صاحبة ولا ولدا، وهو سبحانه صمد، لا يأكل ولا يشرب، ولا والد له ولا ولد، فغناه تام مطلق من جميع الوجوه، لا يحتاج إلى شيء، والخلق كلهم مفتقرون إليه في كل شيء، وهو سبحانه محمود في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وكلها تدور بين العدل والإحسان والرحمة والحكمة، فهو يأمر بكل ما فيه مصلحة، وينهي عن كل ما فيه مفسدة، لا يُحصى العباد ثناء عليه، بل هو سبحانه كما أثنى على نفسه، فهو الغني في حمده، الحميد في غناه.

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: نِعَمُ اللَّهِ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ وَالْبَحْرِ وَالْجَوِّ

٦٥- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ(١) رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾

من نعم الله تعالى على الإنسان أن سخَّر له كل ما في الأرض، وكل ما في البحر، وكل ما في الجو، فهذه نعم ثلاث، شملت هذا الكون بسمائه، وأرضه، وبره، وبحره، وكلها دالة على وحدانية الله تبارك وتعالى:

النعمة الأولى جاءت في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: من دواب، وأشجار، وأنهار، وجبال، ومعادن، ونبات، وغير ذلك.

والتسخير: هو تسهيل الانتفاع بكل ما في الأرض، سِيَّمَا ما يصعُب تذليله ممابإمكانه أن يمتنع من التسخير، كتسهيل استخدام الحيوان الداجن من: الخيل، والإبل، والبقر، والغنم، ونحوها، بأن جعل الله فيها طبيعة الخوف من الإنسان، وإلفها له.

وكذلك تسهيل الانتفاع بما يتعذَّر تسخيره، لولا أن الله تعالى يَسَّرَ وسائل التغلُّب عليه مثل: صيد الوحش، واستخراج اللؤلؤ والمرجان من البحر.

كما سخَّر الله للإنسان ما هو تحت يده، من الحيوان والجماد، والزروع والثمار، ويسَّر له ركوب الدواب ووجود الطعام، واستغلال ثروات الأرض، وطاقاتها الظاهرة والكامنة، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

ومن هذه النعم: الهواء المحيط بأجواء الأرض، وبغير هذا الهواء لا يتنفس الإنسان، ولا يعيش كل كائن حي إلا به.

ومنها: الماء الذي خلق الله منه كل شيء حي: كالإنسان، والطير، والنبات،

(١) قرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بقصر همزة (لرءوف) والباقون بمدها، بمقدار مد البدل عند جميع القراء ما عد ورشًا وقرأ الأزرق عن ورش بتثليث البدل، أي بمده حركتين، أو أربع حركات، أو ست حركات.

والشجر، والدواب.

لقد سخَّر الله للإنسان ما في الأرض، وما فوق ظهر الأرض، وما هو داخل في جوف الأرض من الكنوز والمعادن والبترول، وكل ما يتجدد ويظهر للناس من المنافع.

النعمة الثانية جاءت في قوله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾.

الفلك هي السفن، وقد عُرفت السفن من عهد نوح عليه السلام، وهي تحمل الخلائق، وتنقلهم من مكان إلى مكان وتحمل الأرزاق، والتجارات، وآلات الحروب، وغيرها.

قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ [يس].

ويقاس عليها الطائرات، والغواصات، والدبابات، وكل ما جدَّ واستحدث.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية].

النعمة الثالثة جاءت في قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾.

فالله تعالى يحفظ السماء أن تسقط بما فيها من الأجرام والكواكب والأفلاك والنجوم؛ لأنها إذا وقعت على الأرض أهلكت ودمرت كل ما عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١].

وقال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٩].

ولفظ السماء: يتناول كل ما في العالم العلوي، ولفظ الأرض: يتناول كل ما في العالم الأرضي.

فلو شاء الله تعالى وأذن للسماء في الوقوع فسقطت على الأرض لأهلكتْ كل من عليها، ولكن الله تعالى حفظ نظام الكون من الخلل والتصادم إلى نهاية هذه الحياة، ولا يحدث التغيير إلا عند قيام الساعة، حين يتغير هذا الكون بتشقق السماء وانفطارها، وتكوير الشمس، وتناثُر النجوم، وتسيير الجبال، وتغيير الأرض غير الأرض والسموات، وبرزوا لله الواحد القهار.

فالله تعالى يمنُّ على الناس في هذه الآية بسلامتهم مما يُفسد حياتهم.

والمخلوقات العلوية، والكواكب السيارة من شأنها التغلُّب على المخلوقات الأرضية وإمكانية تحطيمها، ولكن الله تعالى أودعها سُننًا ونُظُمًا تسير في فلكه ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس] وإمساك السماء أن تقع على الأرض ضرْب من تسخير الله لها لمصلحة البشر، وهي نعمة كبرى، ومنة عظيمة، يذكِّر الله تعالى بها الإنسان، ولذا خُتمت الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فيما سخر لهم من الأرض، والبحر، والسماء، وهو أرحم بهم من أنفسهم ومن والديهم، يسوق لهم الخير، ويدفع عنهم الشر.

أخرج الطبراني عن ابن عباس ﷺ قال: إذا أتيْتَ سلطانًا مهيبًا تخاف أن يسْطُوَ بك فقل: الله أكبر، الله أكبر من خلقه جميعًا، الله أعزُّ مما أخاف وأحْذَر، أعوذ بالله الذي لا إله إلا هو، المُمْسِك السموات السبع أن يقعْن على الأرض إلا بإذنه، من شر عبدك فلان وجنوده وأتباعه وأشياعه من الجن والإنس، إلهي كنْ لي جارًا من شرِّهم، جلَّ ثناؤك، وعزَّ جارُك، وتبارك اسمُك، ولا إله غيرك. ثلاث مرات[1].

الدَّلِيلُ السَّادِسُ: الْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ

٦٦- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

ثم ختم الله تعالى هذه النعم، بما هو أجلُّها وأعظمها، نعمة الحياة والموت، ثم البعث والنشور، إن سر الموت وإمداد الجسد بالروح لا يعلمه إلا الله، والإنسان لم يتوصل إلى هذا السر العجيب إلى يومنا هذا؛ فالموت لا يعلمه إلا الله؛ إذ كيف تُسلب الروح من جسد الإنسان فيصبح جثه هامدة؟ ما الذي حدث؟

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة].

من يستطيع أن يتوصل إلى معرفة قدرة الله تعالى في الحياة والموت؟ من يستطيع إعادة الروح إلى الجسد؟ وقدرته سبحانه في الإماتة لا تقل عن قدرته في الإحياء، والحياة تتجدد كل يوم، والموت يحدث كل يوم.

---

(١) الطبراني (١٠٥٩٩) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، «مجمع الزوائد» (١٠/١٣٧).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾ من العدم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ بعد الموت للبعث والحساب والثواب والعقاب.

والإنسان -مع وجود هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى- جَحود بأنعم الله تعالى عليه، إلا من عصمه الله، ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾، لنعم الله عليه، لا يعترف بإحسانه، وربما كفر بالبعث وقدرة الله عليه.

ومثلُ هذه الآية قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتًا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة].

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦].

وقوله: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ [غافر: ١١].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الروم: ٤٠].

اخْتِلَافُ الشَّرَائِعِ وَاتِّفَاقُ الْعَقَائِدِ فِي الرِّسَالَاتِ

٦٧- ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾

في هذا السياق العظيم يبيِّن الله ﷻ أن كل أمة من الأمم الماضية لها شريعة وعبادة، أمرَهم الله تعالى بها، فهم عاملون بمقتضاها، وقد تختلف عن بعضها في بعض الأمور، مع اتفاقها في الأصول والعقائد ﴿لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

ذلكم أن الله سبحانه ربَّى الأجيال على أيدي الرسل، فانتقلت في مراحل الحياة من الطفولة إلى الشباب إلى الرجولة، وكانت مرحلة الطفولة والشباب على أيدي الرسل الأولين، بحيث يُنزِل الله إليهم منهجًا وشريعة على قدر مستواهم من التكليف بالشريعة ومنهج الحياة المناسبة، ثم يكبرون شيئًا فشيئًا، فتزداد التكاليف الشرعية، دون خلاف في العقائد.

فليس بإمكان الطفل مثلًا أن يأكل الجزَر أو الخبز اليابس، ولكنه يتناول أوَّلًا ثدْي أمه، ثم الحليب، ثم السوائل، ثم الأرز...، وفي النهاية يمُصُّ القصب، وقد اكتملت رجولة

الإنسان عند مبعث محمد ﷺ، فأتى الله سبحانه بالرسالة الخاتمة إلى يوم القيامة، ونَسخت كل ما قبلها ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: كلَّفنا كل أمة بشريعة وعبادة، ومنهج حياة، على لسان رسول الأمة التي بُعث إليها.

فشريعة موسى عليه السلام جاءت بمنهج التوراة، واستمرت إلى مبعث عيسى عليه السلام، ثم جاء منهج عيسى ﷺ في الإنجيل، واستمر إلى مبعث محمد ﷺ، ثم من بعثة رسول الله محمد ﷺ إلى يوم القيامة كان هذا القرآن.

وكل أمة من الأمم عليها أن تؤمن بمحمد ﷺ وبكتابه؛ لأن الرسالة الخاتمة نَسخَت ما قبلها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١]. وهي الرسالة الأخيرة التي تصلح لكل زمان ومكان إلى قيام الساعة.

وما دام الأمر كذلك ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ وهو توحيد الله سبحانه، وما جئت به من عند الله تبارك وتعالى، فلا يكذبك المكذبون ولا يعترض عليك المعترضون بعقولهم الفاسدة، في مثل نزاعهم في حل الميتة بقياسهم الفاسد، فيقولون: تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله، ومثل قولهم ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] وهم منكرون لأصل الرسالة، فنزاعهم من باب التعجيز والتعنت.

وهذا خطاب لرسول الله ﷺ، أي: لا تلتفت -يا رسولنا- إلى ما يقوله المشركون من تعدد الآلهة، ولا إلى ما يخاصمونك به، أوينازعونك فيه، من اتخاذ الوسطاء إلى الله تعالى، وهذا نهي لغير المسلمين أن ينازعوا النبي ﷺ في التوحيد والتكاليف الشرعية، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

وقد أمر الله رسوله أن يدعو إلى دين ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

فامضِ - يا رسول الله - في طريق الدعوة إلى الله، إنك لعلى هدى مستقيم، أي: ادع إلى توحيد ربك، وإخلاص العبادة له، واتباع ما أمرك به من المناسك، ومختلف أنواع العبادات،

وادع إلى ربك إنك لعلى دين قويم، لا اعوجاج فيه، موصل إلى جنات النعيم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ﴾ [القصص: ٨٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس].

وقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى].

فامض - أيها الداعي إلى الله - في طريق الدعوة فأنت على ثقة من أمرك، ويقين من دينك، ولست على أمر مشكوك فيه أو حديث مفترى ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] وقد وصف الله ما جاء به النبي ﷺ بأنه هدى تحصل به الهداية في أصول الدين وفروعه ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾.

هذا: ولفظ **المَنسَك** بفتح الميم والسين: اسم للمكان الذي تُذبح فيه القرابين، وهي الذبائح، ويطلق النُّسُك على العبادة، ويطلق على أعمال الحج ومواضعها.

ومن المفسرين من يرى أن لهذه الآية ارتباطًا بنظيرتها السابقة [٢٤] ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وأن المراد بالمنسك في الآية السابقة: هو موضع ذبح القربان، والمراد به هنا: نسك الحج من هدْي وفدية، أو أن قريشًا في الجاهلية كانت تقف وحدها عند المشعر الحرام، ويقف سائر العرب في عرفة، وكانوا يتجادلون أيهما على صواب؟ فقال الله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ﴾[1].

ومعنى ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ على هذا، أي: في أمر الحج.

قلت: هذا الكلام يخصُّ الحجَّ، وهو يدخل في المعنى الأول، وأعمال الحج من العبادة التي يشملها لفظ النسك، فالتفسير الأول أعم وأشمل.

ورد أن هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار في أمر الذبائح، وقولهم للمؤمنين: تأكلون ما

---

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١٧/ ٢٣٠).

ذبحتم وهو من قتلكم، ولا تأكلون مما قتل الله من الميتة؟! فنزلت الآية بسب هذه المنازعة[١].

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ قول أهل الشرك: أمَّا ما ذبح الله بيمينه فلا تأكلون، وأما ما ذبحتم بأيديكم فهو حلال[٢].

حُسْنُ الأَدَبِ فِي جِدَالِ الْمُعَانِدِ:

٦٨، ٦٩- ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٦٩﴾

وبعد أن بيَّن سبحانه أنه لا نزاع ولا جدال في توحيد الله تعالى، وأنَّ العبادة يجب أن تُوجَّه إليه وحده، من ذبح وحج وذكر ودعاء، وما إلى ذلك، يقول الله تعالى لرسوله: إن تبيَّنَ عدم اقتناعهم بالأدلة، وأصروا على مجادلتك بالباطل فيما تدعوهم إليه بعد ظهور الحق وقيام الحجة، فلا تجادلهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝٣٠﴾ [السجدة]. وفوِّض أمرهم إلى الله، وقل لهم: الله أعلم بما تعملونه من الكفر والتكذيب، وهو أعلم بمقاصدكم ونياتكم فأنتم معاندون مكابرون، وفي هذا تهديد ووعيد على استمرارهم في الجدال والعناد.

فإذا كان يوم القيامة فإن الله يحكم بيني وبينكم، أي: يفصل بين المسلمين والكافرين، وأمري وأمركم إلى الله، ويوم القيامة سيتبيَّن الحق من الباطل، ويظهر الاختلاف في الدين، فمن وُفق إلى الصراط فهو من أهل النعيم، ومن زاغ عنه فهو من أهل الجحيم.

والآية تُعَلِّم حُسْنَ الأدب في الرد على من جادل تعنتًا واستكبارًا، والله تعالى لا يجادله أحد، ولا نزاع في حكمه، وسوف يحاسبكم ويجازيكم على ما قدمت أيديكم.

عِلْمُ اللهِ مُحِيطٌ بِمَا فِي الْكَوْنِ مُنْذُ الأَزَلِ:

٧٠- ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾

وحُكْم الله تعالى بين خلقه يوم القيامة يكون عن علم ويقين، فالله تعالى لا تخفى عليه

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/ ١٣٢).

(٢) «الدر المنثور» (١٠/ ٥٣٧).

خافية، ولا يغيب عليه شيء من أعمال العباد، وسوف يجازى كلًّا بما عمل.

وكل ما يجري في هذا الكون كائن وثابت في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾. والعلم بأحوال الخلق، وتسجيل أعمالهم، أمر سهل وهين على الله تعالى، فهو سبحانه لا يعجزه شيء ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾. ومن ذلك مطابقة الواقع لما في اللوح المحفوظ.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«كتب الله مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء»**[1].

فقد عَلِم الله كل شيء قبل أن يكون، وقدَّره وكتبه على الوجه الذي يقع عليه، فهذا يعصي الله باختياره، وهذا يطيعه باختياره، وكل ذلك مسطور في اللوح المحفوظ.

أَعْظَمُ الذُّنُوبِ عَلَى الْإِطْلَاقِ

٧١- ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ[2] بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ﴾

أي: وهؤلاء الذين يجادلونك في الدين، مستمرون على عبادة من لا يستحق العبادة، بعدما رأوا الدلائل النقلية والعقلية، تاركين ما تدعوهم إليه -أيها الرسول- من عبادة الواحد الأحد؛ لأن قلوبهم قد أُشْرِبت حب عبادة الأصنام، والتقرب بها إليه سبحانه، ولا مستند لهم في عبادتها إلا تقليد آبائهم الضالين، وليس لهم فيها من الله برهان، بل البراهين القاطعة تدل على فساد عبادتهم وبطلانها.

والناس في هذه الجزيرة وما حولها من البلاد الإسلامية لا تعرف غالبا عبادة الأوثان في الوقت الحاضر، ولهذا فالكلام على عبادة الأوثان والأصنام فيها قد يكون عجيبًا عند أهل الإسلام، أو أهل الكتاب، والقرآن لم يَنْزِل إلى هذه البقعة من العالم فحسب، وإنما نزل القرآن للبشر أجمعين، لأهل اليونان، ولأهل الصين، وللسيخ، وللبوذيين، وغيرهم.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٥٣).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بإسكان النون من (ينزل) مع تخفيف الزاي، مضارع أنزل، وقرأ الباقون بفتح النون وتشديد الزاي، مضارع نزَّل.

فعبادة الأصنام موجودة على وجه الأرض، والقرآن يخاطب الناس جميعًا، ولا يخاطب أهل هذه المنطقة من العالم، أو أهل الشرق أو الغرب فحسب، بل يخاطب العالم كله، ولذلك فالقرآن الكريم يتوجه إلى المشركين في كل زمان ومكان بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غير الله تعالى ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾.

السلطان: هو البرهان والحجة أينما وُجد في القرآن أو في صحيح السُّنَّة، أو فيهما معًا فهم يعبدون أصنامًا وأوثانًا ليس لهم في عبادتها مستند شرعي، ولا حجة عقلية، وبطلان عبادتها أمر واضح، إنهم يعبدون آلهة لم يَرِدْ في كتاب الله تعالى بها برهان على أنها تصلح للعبادة؛ إذ لا علم لهم على وجه الحقيقة فيما اختلقوه وافتروه على الله تعالى، فليس لهم دليل عقلي ولا نقلي على عبادتها، وهذا معنى: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ إنما هم يقلدون من سبقهم، كما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف].

فهم قد اتبعوا آباءهم بلا دليل نقلي ولا عقلي على عبادة غير الله سبحانه، فإذا كان يوم الحساب والجزاء فليس للمشركين ناصر ينصرهم، أو دافع يدفع عنهم العذاب؛ لأنهم قطعوا عن أنفسهم كل رحمة ومغفرة، والسبب في هذا هو كفرهم بالله، والأصنام لا تنصر عابديها. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الأعراف].

قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون]. وقد توعَّدهم الله تعالى بعدم النصرة يوم لقائه في قوله ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ينصرهم من عذاب الله إذا حل بهم.

ثم إنهم يكرهون الذين يأمرون بالقسط من الناس، ويكادون يبطشون بهم:

٧٢- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

يبيِّن الله سبحانه موقف هذا الصنف من البشر، وهم مَنْ يعبدون غير الله تعالى، بأنهم

إذا نصحهم الناصحون أخذتهم العزة بالإثم، وإذا تُلِيت عليهم آيات الله الواضحة، وفيها دعاؤهم إلى التوحيد والإقرار بالعبودية لله وحده، وترْك ما هم عليه من عبادة غير الله تعالى، فإن علامات الكراهية والمساءة، والعزم على فعل السوء بالدعاة إلى الله، تظهر على وجوههم، وهذا معنى ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ﴾.

كما قال تعالى عن المؤمنين: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين].

وقال عن الكفار: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

أي: فإنهم يكرهون الدعوة إلى التوحيد، ويبدو الغيظ والغضب في تصرفاتهم، والحنق والحقد على وجوههم، فهم لا يتأثرون به، بل يكادون يبطشون بمن يتلون عليهم آيات الله فيؤذونهم، ويسبونهم ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ إنهم لا يقابلون الحجة بالحجة، إنما يلجؤون إلى العنف والبطش عند عجزهم وفقدهم الدليل.

وقد حدث هذا البطش في صدر الإسلام بعبد الله بن مسعود، وبلال، وخباب، وغيرهم، ونزل أبو بكر في جوار رجل يحميه، وأجار عُمَر، العاص بن وائل، وأبي ذر. ويحدث مثل هذا على مرِّ العصور، والسجون أكبر شاهد على هذا.

يقول الله سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم -يا محمد- ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ أي: من هذا الذي تكرهونه، وهو سماع القرآن وبغض أهله، وأشد ألمًا من غيظكم: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: المكان الذي يأوون إليه يوم القيامة، أشد ألما وأقوى عذابا هذا هو الرد المناسب، والعقاب الملائم لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان].

أو يكون المعنى: أنه إذا كان بغضهم للحق وعداوتهم له شر في حد ذاته، فإن هناك ما هو أشر منه، وهو عذاب النار يوم القيامة.

ضَرْبُ المَثَلِ بِالذُّبَابِ:

٧٣- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ[1] مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾

(١) قرأ يعقوب بياء الغيبة في (تدعون) على الالتفات، والباقون بتاء الخطاب لمناسبة أول الآية.

هذا خطاب للناس عامة، يبيِّن خطأ من يعبد غير الله تعالى، حيث بيَّن سبحانه أن ما يُعبد من دون الله أضعف من الضعف، فضرب له مثلًا تعجيزيًّا ينفي عنه صفة الخلق والاختراع، وهما من الصفات الثابتة المختصة بالإله الحق، وهو مثل مستغرب، وحالة عجيبة لمن يتدبر ويتأمل، وهو من أبلغ ما جهَّل الله به من يعبد غير الله تعالى، وأكبر دليل على أن الشيطان قد ربطهم برباطه، فهو مثل ضربه الله تعالى لقبح عبادة الأوثان، وبيان نقص عقول من يعبدها، وبيان ضعف الجميع، وقد خاطب الله به الكفار لقيام الحجة عليهم، وخاطب المؤمنين ليزدادوا علمًا وبصيرة:

والقرآن يضرب الأمثال المحسوسة؛ ليقرب المعاني المعقولة إلى الناس، فتأملوا هذا المثل وتدبروه:

إن هذه الآلهة مجتمعة لا تقدر على خلق ذبابة واحدة ولو تضافرت قواهم وجهودهم.

إن خلْق الجمل والفيل والبقرة على ضخامة أجسامها وكبر حجمها يستوي مع خلق الذباب، فمن يخلق الذباب يخلق الجمل والفيل والأسد، ولكن الله سبحانه لم يضرب المثل بهذه المخلوقات الكبيرة، وإنما يضربه بمخلوق ضعيف حقير.

والذباب: حشرة معروفة بطيشها وضعفها وقذارتها.

وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة ﷺ فيما يرويه النبي ﷺ عن ربه ﷻ: **«ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقًا كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة»**[١].

وفي لفظ آخر عنه أيضًا: **«ومن أظلم ممن خلق كخلقي، فليخلقوا مثل خلقي ذرة، أو ذبابة، أو حبة»**[٢].

وهذا في سياق التعجيز؛ لأن الحبة لا حياة فيها، والذَّرة فيها حياة ضعيفة.

وأبرز صفات من يستحق العبادة: الخلْق والرزق، فإذا عجزتْ هذه الآلهة عن خلق أضعف الكائنات، فكيف تكون آلهة؟ والله سبحانه يضرب المثل بالذباب لكثرته

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٩٥٣، ٧٥٥٩) ومسلم برقم (٢١١١) عن أبي هريرة، واللفظ له.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/٣٩) عن أبي هريرة أيضًا برقم (٧٥٢١، ٩٨٢٤، ١٠٨١٩). قال محققوه: حديث صحيح، وإسناد حسن، لأن فيه ابن علقمة حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات.

وحقارته، وضعفه، وقذارته، ولم يضربه بما هو أكبر منه.

بل يذهب القرآن إلى ما هو أكثر من ذلك؛ حيث يُثْبت أن البشر عاجزون عن مقاومة الذباب، والانتصار منه لأنفسهم عندما يسلب منهم شيئًا، فقد كان المشركون يَطْلُون الأصنام بالزعفران، فإذا جف استلبه الذباب، وكانوا يُطيِّبون آلهتهم المزعومة، فيأتي الذباب، ويقع على هذا الطِّيب، أو يقع على الطعام والشراب الذي يضعونه للأصنام كي تباركه، أو يقع على فم الإنسان النائم، ونحو ذلك.

وكانت مسألة الذباب هذه أمرًا محسوسًا عند العرب يتألمون منه أشد الألم، فجعله الله مثلًا لهم؛ ليستدل بضعف الذباب على ضعف الأصنام، ويبيِّن أنها أحط رتبة وأدنى منزلة، فألقُوا أسماعكم يا من تعبدون غير الله، وتفهموا هذا المثل، ولا يلقى منكم قلوبًا لاهية، ولا أسماعًا معرضة، فإن من تعبدونهم من دون الله، لن يخلقوا أضعف المخلوقات وأحقرها، ولَوْ تمالؤوا على ذلك واجتمعوا عليه.

والله تعالى قد خصَّ الذباب بالذكر؛ **لأربعة أمور** تخصه وهي: مهانته، وضعفه، واستقذاره، وكثرته، فإذا لم يقدر الذين عُبدوا من دون الله على خلْق أضعف الحشرات وأحقرها، ولا على دفع أذاها عنهم، فكيف تسوغ عبادتهم وطاعتهم؟

ثم تنزل الله سبحانه من العجز عن رتبة الخلق، إلى العجز عما دون ذلك، وهو ردُّ ما يأخذه الذباب منهم، فقال تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ أي: وإذا أخذ الذباب شيئًا مما وقع عليه من يد الإنسان، أو من الطيب، أو من المأكل، أو المشرب، فإنهم لا يستنقذونه منه، أي: لا يمكن للناس أن يستخلصوا ما سلبه الذباب من الطعام أو الشراب ونحوهما، فهل بعد ذلك من عجز؟ فهما ضعيفان معًا، العابد والمعبود، فكيف يليق أن يُنزّل هذا الضعيف منزلة رب العالمين؟

يقول سبحانه: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ أي: العابد والمعبود، ضَعُفَ العابد غير الله أن يَستنقِذ ما أخذه الذباب منه، وضَعُفَ المعبود لعجزه عن نفع نفسه فضلا عن نفع غيره، فكيف تُتخذ هذه الأصنام آلهة وهي بهذا الهوان؟ ضعف الداعي والمدعو، أي: ضعف المشركون في دعوتهم غير الله، وضعفت الأصنام أن تكون لها صفات الإله، فالطالب هو العابد الذي يطلب الخير أو دفع الضر من معبوده، والمطلوب هو الآلهة

العاجزة المزعومة، وكلاهما ضعيف.

عن طارق بن شهاب قال: قال سلمان: دخل رجل الجنة في ذباب، ودخل رجل النار في ذباب، قالوا: وما الذباب؟ فرأى ذبابًا على ثوب إنسان، فقال: هذا الذباب، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: مرَّ رجلان مسلمان على قوم يعكفُون على صنم لهم لا يجوزه أحد حتى يقرِّب له شيئًا، فقالوا لهما: قرِّبا لصنمكما قربانًا، قالا: لا نشرك بالله شيئًا، قالوا: قرِّبا ما شئتما ولو ذبابًا، فقال أحدهما لصاحبه: ما ترى؟ قال أحدهما: لا أشرك بالله شيئًا، فقُتل، فدخل الجنة، فقال الآخر بيده على وجهه، فأخذ ذبابًا فألقاه على الصنم، فخلوا سبيله، فدخل النار[١].

هذا: والتسوية بين الفقير العاجز من جميع الوجوه، بالقوى الغنى من كل الوجوه، وتسوية من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتًا، ولا حياة ولا نشورا، بمن هو النافع الضار، المعطي المانع، مالك الملك، المدبر لكل الأمور، هذه التسوية فيها جهل بحق الله تعالى، وعدم تقديره قدره:

٧٤- ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

أي: إن هؤلاء المشركين لم يعظِّموا الله حق تعظيمه، ولم يعرفوه حق معرفته، حيث تركوا عبادته، وعبدوا ما يعجز عن ردِّ ما سلبه الذباب منه ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ حين سوَّوْه بالحجارة والخشب.

ثم أخبر تعالى بقوته وعزته، وهما صفتان مناقضتان لعجز الأصنام، وهدد الله العابدين بأنه سينتقم منهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج]. فكيف يسوُّون بين القوي العزيز، والعاجز الحقير؟! والله تعالى كامل العزة والقوة، ومن قوته وعزته أن نَواصي الخلق بيده، فلا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإرادته ومشيئته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومن كمال قوته أنه يُمسك السموات والأرض أن تزولا، وأنه يبعث الخلق كلهم بصيحة واحدة، وأنه أهلك الجبابرة والأمم العاتية بشيء يسير من عذابه.

---

(١) ابن أبي شيبة (١٢/٣٥٨) وأحمد في كتاب «الزهد» ص (١٥، ١٦) والبيهقي (٧٣٤٣).

تَوْبِيخُ لِمُكَذِّبِي الرَّسُولِ ﷺ

٧٥- ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾

في هذه الآية بيان لتمييز بعض الخلائق على بعض، لما خصهم الله به من الفضائل، فقد اختار الله من الملائكة رسلا، واختار من الناس رسلًا، واصطفاهم ليكونوا صفوة الخلق، واصطفاء الله لهم عن علم منه بهم ف ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فهم أهل الاصطفاء.

وفي الآية توبيخ للمكذبين للرسول ﷺ، والمبغضين لمن يتلون كتاب الله تعالى، فبيَّن جلَّ شأنه أنه يختار من الملائكة رسلًا إلى أنبيائه: كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل.

ويختار من الناس رسلًا؛ لتبليغ دعوة ربهم إلى الخلق وإصلاح شؤونهم: كمحمد، وموسى، وعيسى، وإبراهيم، ونوح عليهم السلام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ لأقوال عباده ﴿بَصِيرٞ﴾ بجميع خلقه.

قيل: إن هذه الآية نزلت بسبب قول الوليد بن المغيرة: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ [ص: ٨]. وكان من دواعي تكذيبهم أن استبعدوا أن يكون الرسول من البشر فقالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]. قال سبحانه:

٧٦- ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ[1] ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾

يعلم ما سبق من أحوال وأعمال خلقه ورسله، ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم، وعلمه تعالى محيط بكل شيء، لا يخفى عليه شيء من الماضي ولا الحاضر ولا المستقبل، من الأقوال والأفعال والأعمال، ما ظهر منها وما خفي، قال تعالى ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ [الجن: ٢٨]. فهو سبحانه يعلم ما مضى، ويعلم ما هو آتٍ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ في الآخرة فيقضي بين عباده، ويجازي كلًّا بعمله، ممن استجاب منهم لدعوة الرسل، وممن نكل وكذب.

---

(١) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بفتح التاء وكسر الجيم من (ترجع) مبنيًا للمعلوم، وقرأ الباقون بالبناء للمجهول (تُرجَع).

خُلَاصَةُ مَنْهَجِ الْمُؤْمِنِينَ فِي خَمْسَةِ أُمُورٍ

٧٧- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾

وفي نهاية سورة الحج يرسم الله سبحانه منهجًا للمؤمنين، بعد ندائه تعالى للمشركين أربع مرات في هذه السورة، ويتضمن هذا المنهج **خمسة أوامر** موجَّهة للمؤمنين:

الْأَوَّلُ، وَالثَّانِي: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ أي: يا من آمنتم بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا ورسولًا، إن أخصَّ أعمالكم بعد التوحيد: الصلاة، فأكثروا من الركوع والسجود، وخصَّ الركوع والسجود بالذكر تشريفًا لهما لفضلهما وأهميتهما في الصلاة، ففيهما يكون الخشوع والطمأنينة.

والصلاة أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين، فأدوها بخضوع وخشوع وإخلاص لله تعالى؛ فهي تنهاكم عن الفحشاء والمنكر، وترفع درجاتكم عند ربكم، وهي قرة العيون، وسلْوَة القلب المحزون، وقُربة لعلام الغيوب.

الثَّالِثُ: ﴿وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ الذي تولى خلْقكم ورعايتكم، وهذا أمر بالعبادة عامة بعد الأمر بالصلاة، من باب التعميم بعد التخصيص، والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من فعل الأوامر واجتناب النواهي لكل قول أو عمل، وهذا يقتضى الإخلاص في العبادة، وفعل الخيرات عمومًا، ويدخل فيها الصيام والزكاة والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنواع البر والإحسان وشعب الإيمان.

الرَّابِعُ: ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ إفعلوا الخير فيما بينكم وبين الناس، من الإحسان، والصلة، وحُسْن الخلُق، وما إلى ذلك، وافعلوا الخير فيما بينكم وبين الله، بالتقرب إليه بالطاعات وترك المعاصي والذنوب، وبهذا يكون الفلاح والنجاح، والفوز والسعادة في الدارين ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فتفوزون بالرضوان وجنة النعيم، ولا طريق للسعادة إلا بالإخلاص في عبادة الخالق والسعي في نفع المخلوقين.

سجود التلاوة: لم يختلف العلماء في السجدة الأولى من هذه السورة، واختلفوا في السجدة الثانية، وهي التي في هذه الآية:

١- فعدَّها سجدة: الشافعي، وأحمد، وإسحاق.

عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قرأ سورة الحج فسجد فيها سجدتين، وقال: إن هذه السورة فُضِّلت بسجدتين[١].

وفي حديث عقبة بن عامر ﷺ أنه قال: يا رسول الله، أفي (الحج) سجدتان؟ قال: **«نعم، ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما»**[٢].

٢- وعند أبي حنيفة ومالك أنها ليست بسجدة، ودليلهما: أن الله تعالى قرن هذا السجود بالركوع، فدلَّ على أنها سجدة صلاة، لا سجدة تلاوة.

قلت: ولعل الأول أرجح.

وجملة ما في القرآن من السجدات عند الشافعي أربع عشرة سجدة، وقد أسقط الشافعي سجدة سورة (ص) وأثبت في الحج سجدتين، وبه قال أحمد في إحدى الروايتين عنه، فعنده أن عدد السجدات خمس عشرة سجدة، وأثبت أبو حنيفة سجدة سورة (ص)، وسجدة واحدة في (الحج).

عن عمرو بن العاص ﷺ قال: أقرأني رسول الله ﷺ في القرآن خمس عشرة سجدة، منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان[٣].

وقد اشتملت هذه الآية على المنهاج الذي رسمه الله تعالى لهذه الأمة؛ لتنهض بتكاليف الدعوة الإسلامية، فذكرت منها بعد التوحيد والإيمان: الصلاة، والعبادة بشكل عام، ثم بيان فضل الخير في التعامل مع الناس، بعد التعامل مع الله تعالى بالصلاة والعبادة، وبيَّنت أن العمل بهذا هو سبيل الفلاح في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» من رواية أبي مصعب برقم (٢٦٠).

(٢) صححه الشيخ أحمد شاكر، ويُنظَر تحقيق: «فتح القدير» للشوكاني (٣/ ٤٣٣) وقد أخرجه أبو داود برقم (١٤٠٢) والترمذي (٥٧٨) والحاكم (٢/ ٣٩٠).

(٣) أخرجه أبو داود برقم (١٤٠١) قال أبو داود: رواه أبو الدرداء بإحدى عشرة سجدة، وإسناده واهٍ.

الأَمْرُ الخَامِسُ: حَقُّ الجِهَادِ

٧٨- ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ[١] مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾

أكملت الآية الأخيرة من السورة منهج المؤمنين، فتحدثت عن الجهاد بشكل عام: جهاد النفس، والهوى، والشيطان، وجهاد أعداء الله من الكفار والمنافقين والظالمين، والمبتدعين في دين الله ما ليس منه، والجهاد لإعلاء كلمة الله بنشر الدعوة، ولدفع العدو، وهذا أعظم الجهاد، وذروة سنام الإسلام، ولابد أن يكون هذا الجهاد لله، وفي سبيل الله، كما قال ﷺ في حديث أبي موسى الأشعري ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[٢].

وهذا الجهاد يكون بالنفس والمال واللسان، كما جاء في حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وألسنتكم**»[٣].

ومن ذلك جهاد النفس والهوى والشيطان، فقد سمَّاه بعض الصحابة جهادًا أكبر؛ لمشقته على النفس.

كما جاء في الأثر: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**»[٤].

---

(١) انفرد المكي بعدّ (سماكم المسلمين) آية، وتركها غيره من العدد.

(٢) من حديث أبي موسى الأشعري في البخاري (١٢٣، ٢٨١٠، ٧٤٥٨) ومسلم (١٩٠٤) والطيالسي (٤٨٨) وابن أبي عاصم في الجهاد (٢٤٣) «المسند» (١٩٤٩٣، ١٩٥٤٣) وغيرهما.

(٣) «المسند» (١٢٢٤٦، ١٢٥٥٥، ١٣٦٣٨) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن سلمة فمن رجال مسلم وأبو داود (٢٥٠٤) والنسائي (٣٠٩٦، ٣١٩٢) والحاكم (٢/ ٨١) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٢١٨٦).

(٤) ينسب هذا بسند ضعيف إلى النبي ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» والصحيح أنه من قول أحد الصحابة.

فجاهدوا الكفار والظلَمة، وجاهدوا النفس والشيطان جهادًا عظيمًا، مخلصين فيه النية لله تعالى، مسلمين له قلوبكم وجوارحكم، جاهدوا أعداءكم، وجاهدوا أنفسكم، وجاهدوا أهواءكم، وجاهدوا شيطانكم، وجاهدوا المنكَر والشر والفساد.

والجهاد هو استفراغ الطاقة وبذل الوسع في حصول الغرض المطلوب، وأكثر ما يطلق على جهاد العدو؛ وذلك لأن الله تعالى قد اجتباكم بأن فضَّل هذه الأمة على سائر الأمم، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وقد اصطفاكم الله واختاركم من بين عباده للقيام بتبعة الجهاد في سبيل الله، وتحمُّل أعباء الرسالة الأخيرة إلى البشر كافة، واختار لكم أفضل الرسل وأنزل عليه أفضل الكتب، فقابلوا هذه النعمة بالجهاد فيه حق الجهاد.

وحق الجهاد هو القيام التام بأمر الله تعالى، ودعوة الخلق إليه بكل طريق يوصل إليه، من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر ووعظ وترغيب وترهيب.

ثم بيَّن سبحانه مزية هذا الدين في يُسره وسماحته، ورفع الحرج عن الأمة، وأن الله سبحانه لم يكلفنا ما لا نطيق، فالصلاة وهي أعظم أركان الإسلام تجب أربعًا في الحضر، وتُقصر في السفر إلى اثنتين، وفي شدة الخوف تصل إلى ركعة واحدة، وتؤدَّى على أي حال، ومن لم يستطع الصلاة قائمًا صلى قاعدًا، وإلا فمضطجعًا، أو بالإشارة، ومن لم يجد الماء يتيمم، وهكذا في سائر العبادات، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده.

ورفع الحرج يكون بالنسبة لمن استقام على منهج الله وشرعه، أما أهل كبائر الذنوب فهم الذين جلبوا الحرج لأنفسهم بارتكابهم لها ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وما خُيِّر الرسول ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن فيه إثما.

والتوبة شرَعَها الله سبحانه من الصغائر والكبائر، ومن الشرك والكفر، وقد شرع الإسلام الكفَّارة لبعض الذنوب تيسيرًا على المسلمين، وغير ذلك من مواطن رفع الحرج، فالمشقة تجلب التيسير، والضرورات تبيح المحظورات.

وهذه هي ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ﴾ الحنيفية السمحة فالتزموها، فإن الإسلام قد حوى ملة

إبراهيم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١].

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يدعى نوح ﷺ يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يارب، فيقال له: هل بلغت ما أُرسلت به؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته، فيشهدون أنه قد بلَّغ»**(١).

وإبراهيم هو الذي دعا ربه قائلًا: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

ورُوى عن العرياض بن سارية ﷺ: **«أنا دعوة أبيَ إبراهيم، وبشرى أخي عيسى»**(٢).

والله سبحانه هو الذي سمَّاكم المسلمين في الكتب السابقة، وفي هذا القرآن.

في حديث الحارث الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جُثا جهنم»** قال رجل: يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ قال: **«نعم، فادعوه بدعوة الله التي سمَّاكم بها المسلمين، والمؤمنين عباد الله»**(٣).

ويصحُّ عود الضمير من ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾ إلى إبراهيم ﷺ؛ لقوله تعالى على لسانه: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وقد خصَّكم الله -أيها المسلمون - بهذا الاختيار؛ ليكون الرسول شهيدًا على هذه الأمة يوم القيامة أنه بلَّغها رسالة ربه، وتكونوا أنتم شهداء على الأمم أن الرسل بلَّغوا أممهم رسالة ربهم كما أخبركم بذلك نبيكم، وكما جاء في كتاب ربكم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فاعرفوا لهذه النعمة قدرها؛ لتشكروها وتحافظوا على معالم دينكم، وقابلوها بأداء ما

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٤٨٧) وانظر: (٣٣٣٩، ٧٣٤٩).

(٢) من حديث العرباض بن سارية، وقد ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم (٢٠٩١).

(٣) «مسند الطيالسي» (١٢٥٨) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٢٩٨) والترمذي (٢٨٦٣) وأحمد (٢٨/ ٤٠٤) (١٧١٧٠) و(١٧٨٠٠) من حديث صحيح طويل برجال ثقات وأبو يعلى (١٥٧١) والطبراني في الكبير (٣٤٢٨) وابن حبان (٦٢٣٣) و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٨٦٦) وصحيح ابن خزيمة (١٨٩٥) وغيرهم.

فرضه الله عليكم ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة بأركانها وواجباتها وشروطها وسننها ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة لمستحقيها شكرا لله تعالى ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: التجئوا إليه، وتوكلوا عليه، واطلبوا النجاة منه، واستعينوا به في كل أموركم، فهو نعم المولى لمن تولاه، ونعم النصير لمن استنصر به.

وقُدِّمت شهادة الرسول على شهادة الأمة يوم القيامة في هذه الآية؛ لأنها في مقام التنويه بهذا الدين الذي جاء به الرسول ﷺ.

وفي آية سورة (البقرة) قُدِّمت شهادة الأمة على شهادة الرسول؛ لأنها بصدد الثناء على الأمة، فقُدِّمت شهادة الأمة هناك، لأن المقام يتطلب ذلك.

وبهذا المنهج الذي جاء في الآيتين الأخيرتين تنهض الأمة، وتنتفع بمواردها وطاقاتها المادية، وتملك القوة الحربية والمعنوية التي تنتصر بها على عدوها، وتدخل بها جنة ربها.

تم تفسير (سورة الحج) ولله الحمد والمنة.



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ (٢٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة المؤمنون هي السورة الثالثة والعشرون في ترتيب المصحف، والسادسة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الطور، وقبل سورة الملك.

وهي ألف وثمان مئة وأربعون كلمة، وأربعة آلاف وثمان مئة حرف، وحرفان.

وسورة المؤمنون نزلت على رسول الله ﷺ في مكة المكرمة.

وهي ثماني عشرة ومئة آية في العدد الكوفي والحمصى، ومئة وتسع عشرة آية عند غيرهم، فقد أسقطوا ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ من العدد.

عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بإسناد فيه مقال، أن النبي ﷺ كان إذا أُنزل عليه الوحي يُسمَع عند وجهه دَوِيٌّ كدَوِيِّ النحل، قال: فأنزل الله عليه يومًا، فمكثنا ساعة، ثم سُرِّي عنه فاستقبل القبلة، ورفع يديه إلى السماء، وقال: **«اللهم زدنا ولا تنقُصنا، وأَعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تُهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا»**، ثم قال ﷺ: **«لقد أُنزلتْ عليَّ عشرة آيات من أقامهن - أي: من عمل بما في هذه الآيات العشر- دخل الجنة»**.

وقرأ ﷺ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ إلى آخر الآيات العشر الأولى من سورة المؤمنون[1].

وأخرج النسائي وغيره أن أم المؤمنين عائشة ﵂ سُئلت عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن.

وقرأتْ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ إلى قوله تعالى:

---

(١) يُنظَر طرق الحديث في: «المسند» (١/ ٣٤) برقم (٢٢٣) قال محققوه: وإسناده ضعيف لجهالة يونس بن سُليم، وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣١٧٣) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١٤٣٩) والحاكم (٢/ ٣٩٢) و«مصنف عبد الرزاق» (٣٨٦٠) والبزار (٣٠١). والبغوي في شرح السنة (١٣٧٦) وعبد بن حميد (١٥).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ قالت: هكذا كان خُلُق رسول الله ﷺ[١].

وجاءت آثار من طرق عدة، فيها أن الله ﷻ لمَّا خلق الجنة، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نظر الله تبارك وتعالى إليها، ثم قال لها: تكلَّمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾[٢].

وقد ابتدأت السورة بذكر صفات المؤمنين الذين تحقق لهم الفوز بالجنة والنجاة من النار، ثم ذكرتْ أدلة الإيمان في الأنفس، وفي الكون والآفاق، وأتبعت ذلك بذكر مصائر بعض الأمم التي كذبت دعوة الرسل؛ كقوم نوح، وقوم هود، وقوم موسى، وتحدثت عن أدلة التوحيد، وعن البعث واليوم الآخر، ومصير الكفار الأشقياء في الدار الآخرة، وهذه هي موضوعات القرآن المكي.

وتسميتها بهذا الاسم، جاءت بها السُّنَّة، وسماها بعضهم سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾.

عن عبد الله بن السائب ﷺ قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ الصبح بمكة، فاستفتح سورة المؤمنون، حتى إذا جاء ذِكْر موسى وهارون، أو ذِكْر عيسى، أخذت النبي سَعْلة، فركع[٣]. **والسعلة**: هي السعال، فعيي فركع.

ولفظ النسائي عنه أيضًا قال: حضرتُ رسول الله ﷺ يوم الفتح، فصلَّى في قِبَل الكعبة، فخلع نعليه فوضعهما عن يساره، فافتتح سورة المؤمنون، فلما جاء ذكر موسى أو عيسى أخذته سَعْلة فركع.

---

(١) البخاري في «الأدب المفرد» (٣٠٨) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٣٥، ١١٢٨٧) والحاكم (٢/ ٣٩٢) والبيهقي (١/ ٣٠٩) و«صحيح الأدب المفرد» (٢٣٤)، والحديث بدون الآيات في المسند (٢٥٣٠٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين كما قال محققوه.

(٢) رُوي مرفوعًا وموقوفًا على أبي سعيد، وابن عباس، وغيرهما، والموقوف أصح، يُنظَر: مسند البزار برقم (٣٥٠٨) «كشف الأستار» قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٩٧): رجال الموقوف رجال الصحيح.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤١١) برقم (١٥٣٩٣، ١٥٣٩٥، ١٥٣٩٧) حديث صحيح بإسناد صحيح على شرط مسلم، وهو في مسلم في الصلاة (٤٥٥/ ١٦٣) برقم (٤٥٥) وأبو داود في الصلاة (٦٤٩) وابن ماجه (٨٢٠) وابن خزيمة (٥٤٦) وعبد الرزاق (٢٧٠٧) وابن أبي شيبة (١٤/ ٥٠٥) وابن حبان (١٨١٥، ٢١٨٩) والبيهقي في «السنن» (٣٨٩) والشافعي في «شفاء العي» (٢٤١) والبخاري في تاريخه (٥/ ٨، ١٥٢).

ولفظ (سورة) مضاف إلى المؤمنين، ويقال: سورة المؤمنون، على حكاية اللفظ القرآني، وهكذا في سائر السور، إما أن تُجرَّ على الإضافة، وإما أن تبقى على حكاية اللفظ القرآني.

محتويات السورة: وسورة المؤمنون تربط بين الجزاء والعمل، فتُعلِّق أبصار عباد الله الصالحين بالآخرة، وتُطمْئِنهم إلى مستقبلهم الطيب، ولو كانت حياتهم قاسية.

وفي مقابل ذلك تَذْكُر السورة في نهايتها؛ مستقبل الأشرار السيئ الذي ينتظرهم، وإن كانت حياتهم في بحبوحة من العيش، فهو سراب خادع، صرفهم عن المستقبل المُشرِق، وحجَب أبصارهم عن الحق.

وذكرت السورة مصائر الأمم المكذبة لرسل الله، مع المناقشة والتوبيخ لكل من كان مثْلهم إلى يوم القيامة.

وقد تكررت صفات المؤمنين في السورة في ثوب آخر؛ لتوضيح جانب من سيرتهم، ولونٍ من شمائلهم التي استحقوا بها النجاة والفلاح ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

وقد وصفهم الله تعالى وصفًا يبعث على الإيمان، ويصرِّح بعظمة الخالق سبحانه.

أما الذين هم في غفلة عن ربهم ممن جحدوا رسالاته، وكفروا بالرسول الخاتم، فإن مصيرهم كالح.

إن البلاد العربية كانت أقرب من غيرها لرسالات الله، وأكثر وَعْيًا بحقائق الوحي؛ فقد كان نوح في شمالي العراق، وهبط إبراهيم من العراق إلى الحجاز، ومرَّ بمصر، واستقر في الشام، وخرج موسى من وادي النيل يريد الفرار بقومه، ومات بالتِّيه، ووُلد عيسى بفلسطين، وزار مصر.

وكان صالح وشعيب في شمال الجزيرة العربية، وكان هود بالأحقاف في الربع الخالي من المملكة العربية السعودية.. الخ.

ولم يكلف هؤلاء الرسل أقوامهم ما لا يطيقون، بل كلفوهم أن يَدَعُوا الخبيث، ويفعلوا

الطيب، ويداوموا على العمل الصالح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [٥١].

وجاءت الرسالة العالمية بعد الرسالات المحلية؛ لِتسُوق للبشر خلاصة الوحي الإلهي كله في هذا القرآن، فشريعة الأنبياء جميعًا شريعة واحدة في أصولها وعقائدها، ولكن كثيرًا من الناس أغمض عينيه، وصمَّ أذنيه ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾

ورفْضُهم للحق يكلِّفهم ثمنًا باهظًا يوم لقاء الله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

لقد دعا محمد ﷺ البشر قاطبة إلى الإيمان بالله ورسوله الخاتم، فكان منهم من آمن ومنهم من كفر، وبيَّن الله تعالى في السورة مصير الجميع يوم القيامة، وردَّ على شبهات الكفار ودعاويهم الفاسدة، ولكنهم تنكَّبوا الطريق ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

لقد عرضت السورة لدلائل القدرة والوحدانية في هذا الكون العجيب، فبدأت بالإنسان، وانتقلت إلى خلق السموات، ثم لفتت الأنظار إلى مخلوقات الله التي تحيا بالماء من الحيوان، والأنعام، والنبات، والأشجار، وكيف أن الله تعالى سخرها لنفع الإنسان.

وبعد نحو ثلاثين آية من أول السورة تعرضت لجوانب من قصص نوح، وهود، وموسى، ومريم البتول، وعيسى ابن مريم، ثم وجَّهتْ نداءً عامًّا إلى الرسل جميعًا تأمرهم بالمواظبة على أكل الحلال الطيب، والمداومة على العمل الصالح، ومن ثَم بيَّنتْ أن دعوة الرسل جميعًا واحدة في أصولها وعقائدها ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾.

وذكر سبحانه وتعالى في السورة ألوانًا من الأدلة على وحدانية الله تعالى، وهو موضوع السورة الأساس ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

وصوَّرت السورة حال الكفار يوم القيامة وهم يتمنون العودة إلى الدنيا مرتين: مرة عند

سكرات الموت، ومرة عند الحساب لتدارك ما فاتهم، دون جدوى، مع توبيخهم على سخريتهم من الإسلام والمسلمين.

وخُتِمت السورة بأمر النبي ﷺ أن يغض الطرف عن سوء معاملة الأشرار، ويسأل ربه المغفرة للمؤمنين ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **أربعة مقاطع**:

المقطع الأول: يتضمن صفات المؤمنين، أهل الفوز والفلاح والنجاح، ثم بيان أطوار خلق الإنسان ونهايته، والاستدلال على البعث والنشور بخلق السموات، وما ينتج عن نعمة الماء من إخراج الفواكه والبساتين والأشجار والنخيل من الأرض، .وبخلق الأنعام وما فيها من ألبان ومنافع، وتسخير السفن لحمل الناس والمتاع، وجاء هذا من أول السورة إلى الآية الثانية والعشرين منها.

المقطع الثاني: يتناول جوانب من قصص أنبياء الله تعالى، وهم: نوح، وهود، وصالح، عليهم السلام، وبعْدهم عدد آخر من الرسل، ذُكر إجمالًا، ثم إشارة إلى أنبياء الله: موسى، وهارون، وعيسى عليهم السلام، وقد جعلهم الله أمة واحدة، فاختلف الناس بعدهم وتنازعوا، وهذا المقطع من الآية الثالثة والعشرين إلى الآية السادسة والخمسين.

المقطع الثالث: يتضمن أوصافًا لفريقين من الناس:

أحدهما: المؤمنون المشفقون من عذاب ربهم. **وثانيهما**: المغرورون الغافلون عن ربهم، المفتونون بما هم فيه من ترف ومتاع، فتُبيِّن مصير الفريقين، وتستنكر على الفريق الثاني موقفهم العجيب من صاحب الرسالة العالمية، فترُدُّ على شُبههم بالعقل والمنطق، وتضرب لهم مثلًا بمصير من كذَّبوا رسول الله ﷺ، وتقيم مجموعة من الأدلة الكونية على وحدانية الخالق سبحانه، ويستغرق هذا المقطع من الآية السابعة والخمسين إلى الآية الثانية والتسعين.

المقطع الرابع والأخير: يوجه الخطاب للنبي ﷺ ولكل داعٍ إلى الله تعالى على بصيرة، أن يدفع السيئة بالحسنة، وألَّا يغضب ولا يضيق صدره.

ويتناول حال المكذبين عند الاحتضار، إلى البرزخ، إلى النفخ في الصور، إلى خفة

الميزان وثِقَله، مع التركيز على حال الأشقياء يوم لقاء الله، وأنهم عند الحساب ينسوْن الماضي ويذهب الزمن من عقولهم، فلا تتماسك الحياة الأولى في ذاكرتهم إلا للحظات قصيرة مبهمة، وهذا المقطع من الآية الثالثة والتسعين إلى نهاية السورة.

وقد ذكرت السورة عشرة أوصاف للمؤمنين: ستة في أولها، وأربعة في وسطها من الآية السابعة والخمسين إلى الآية الحادية والستين.

كما ذكرت أحد عشر دليلًا على وحدانية الله تعالى من الآية الثانية عشرة إلى الآية الثانية والعشرين، ومن الآية الثامنة والسبعين إلى الآية التاسعة والثمانين.

وتفصيل ذلك كله واضح في فهرس السورة.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

ثمانية أَوْصَافٍ لِأَهْلِ السَّعَادَةِ

الوصف الأول: الإيمان ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ①﴾

في هذه الآية تنويه من الله تعالى بشأن عباده المؤمنين، وبيان فلاحهم وسعادتهم في الداريْن، وبأي شيء وصلوا إلى ذلك، وفي هذا حث على الاتصاف بصفاتهم، والتأسّي بفعالهم، وما على المرء إلا أن يزن نفسه بهذه الآيات، ليتبيّن له نسبة الإيمان الذي لديْه حتى يعمل على تحقيق ما تبقّى من هذه الصفات.

وهكذا، فقد فاز وسعد المصدقون بالله ورسوله، وظفروا بالجنة والنعيم الدائم، وفازوا بكل ما رغبوا؛ لأن همتهم انصرفت إلى تمكين الإيمان والعمل الصالح من نفوسهم، وفي هذا بشرى لهم برضوان الله عليهم، وأن هذا أمر محقق ومؤكد، وهو قريب المنال منهم.

وسورة المؤمنون تبيِّن أن هؤلاء المؤمنين العاملين قد ضمن الله ﷻ لهم وثيقة الفلاح والنجاح في الدار الآخرة، وضمَّنَها الله كتابه العزيز، فنالوا بغيتهم، وأحرزوا البقاء الدائم والنعيم المقيم، وكل صفة من هذه الصفات تدل على رسوخ الإيمان، وهي سبب للفلاح والفوز بالنجاة.

وهؤلاء المؤمنون هم من وُصفوا بصفات سبع، جاء ذكرها في الآيات الأولى من السورة، معرَّفة باسم الموصول في كل منها؛ للدلالة على رسوخ الإيمان في قلوبهم، وأن هذه الخصال هي سبب فلاحهم، وهذه الصفات أولها يتحدث عن الصلاة، وآخرها يتحدث عن الصلاة؛ لأهمية الصلاة في الإسلام.

الْوَصْفُ الثَّانِي: الْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ

٢- ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ②﴾

الخشوع في الصلاة: حضور القلب بين يدي الله تبارك وتعالى، مستحضرًا عظمته، متدبرًا لكل ما يقول ويفعل، واضعًا بصره محل سجوده، وحينئذ يطمئن القلب وتسكن

الجوارح، وتذهب الأفكار والوساوس، ويُقبل العبد على ربه بالكلية.

والخشوع هو التطامن والوقار، وسكون الأعضاء، وهو خوف يوجب تعظيم الله تعالى، ويظهر على من في قلبه خوف واستكانة، ومحله القلب، يتجلى على العبد في صلاته، فيشعر أنه بين يدي ربه، فيخضع ويَذِل له.

ولأن الخشوع في الصلاة أهم صفة للمؤمن قدَّم الله تعالى هذا الوصف على غيره، وجعَله تاليًا للإيمان، فقد أثنى سبحانه على عباده المؤمنين، وبيَّن أنهم يخشعون ربهم في صلاتهم ويراقبونه، فلا ينشغلون إلا به، ولا تتعلق قلوبهم بغيره.

والخشوع في الصلاة له باطن وظاهر، فالخشوع الباطني هو خشوع القلب، وإذا خشع القلب وسكن، اطمأن العبد، وعلم أنه مع الله تعالى في صلاته، وأدرك أنه قد وقف بين يدي العليِّ الأكبر حين قال: الله أكبر، فكل ما عدا الله فهو صغير، لا ينبغي التفكير فيه، من المال والولد والمنصب والجاه والشهوات، وغير ذلك من مشاغل الحياة، لأن كل ما دون الله تعالى فهو صغير.

وإذا سكن القلب سكنت الجوارح، وهذا هو الخشوع الظاهر، ولذا: ورد أن بعض السلف رأى رجلًا يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه[١].

فهذه الجوارح: اليد، والرجل، والعين وغيرها، إذا سكنت في الصلاة دلت على الخشوع الباطني، أما إذا تحركت اليد مثلًا لتُصلح الثياب أو أي شيء يلبسه الإنسان فقد ذهب الخشوع.

والعين حين تنظر في الساعة، وحين تعرف مَنْ على اليمين والشمال، وحين ترتفع وتنخفض فإنها تذهب بالخشوع، وأيضًا حين ترتفع الرِّجْل وتتحرك يمنة ويسرة فإنها تذهب بالخشوع.

وهكذا سائر أنواع العبث والحركات في الصلاة، فإن هذا كله يدل على عدم خشوع الباطن، وعدم خشوع القلب، ولو خشع القلب لخشعت الجوارح والأعضاء.

قال محمد بن سيرين: كان أصحاب النبي ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء، ويلتفتون

---

(١) ولا يصح رفعه إلى النبي ﷺ كما هو عند الحكيم الترمذي عن أبي هريرة (٣/ ٢١٠) حيث قال الألباني في السلسلة الضعيفة (١١٠): موضوع.

يمينًا وشمالًا، فأنزل الله سبحانه ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝﴾ فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك في الصلاة، ولم يلتفتوا يمينًا ولا شمالًا[(١)].

وهكذا قال علي، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، والحسن ﷺ: إن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية، خفضوا رؤوسهم، وأخذوا ينظرون إلى مواضع سجودهم[(٢)].

وإن مما يعين العبد على الخشوع في الصلاة أن ينظر إلى موضع السجود، وأن يتأمل ويتدبر فيما يقرأ: في معاني الفاتحة، وفي الآيات التي يقرؤها بعدها، ويُشرَع له أن يقرأ بصوت يُسمِع به نفسه إن كان منفردًا؛ فإن ذلك يصرف عنه وساوس الشيطان.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: إن الله لا يزال مقبلًا على العبد ما دام في صلاته ما لم يُحدث ولا يلتفت[(٣)]. وفي رواية: فإذا التفت أعرض عنه[(٤)].

ولما سألت عائشة ﷺ رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة، قال: **«هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»**[(٥)] أي: سرقة يسرقها الشيطان من الصلاة؛ فهو يريد أن يضيِّع عليه الأجر، ويفوِّت عليه المثوبة، وينقُص من أجر الصلاة.

والمؤمن الحق هو الذي يتغلب على وساوس الشيطان، وهو الذي يركِّز في صلاته، ويكون خاشعًا بقلبه وجوارحه لله ﷻ.

في البخاري وغيره عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم»** فاشتدَّ قوله في ذلك، حتى قال: **«لينتهُن عن ذلك أو لتُخطفَنَّ أبصارهم»**[(٦)].

---

(١) الطبري (٧/١٧) عن عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) رُوِي هذا مرفوعًا وموقوفًا، يُنظَر: الحاكم (٢/ ٣٩٣) والبيهقي (٢/ ٢٨٣) وابن جرير (٩/١٧) وعبد الرزاق (٢/ ٤٣).

(٣) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢/ ٤٠).

(٤) عن عبد الله بن سعد عند ابن أبي شيبة (٢/ ٤١).

(٥) البخاري (٧٥١، ٣٢٩١) وأبو داود (٩١٠) والنسائي (١١٩٥) وابن أبي شيبة (٢/ ٤٠).

(٦) البخاري (٧٥٠) وأبو داود (٩١٣) والنسائي (١١٩٢) وابن ماجه (١٠٤٤) وابن خزيمة (٤٧٥) وغيرهم.

فالخشوع في الصلاة: خوف القلب، وسكون الجوارح، وجمع الهمة في الصلاة، والإعراض عما سواها، وألا يجاوز بصره مُصلَّاه، وألا يلتفت، ولا يفرقع أصابعه، ولا يعبث بشيء من جسده أو لحيته، أومصلَّاه في صلاته.

وفي حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ: **«وجُعِلت قرة عيني في الصلاة»**[١].

وفيها راحة النفس، كما كان النبي ﷺ يقول: **«يا بلال، أرحنا بالصلاة»**[٢].

وفي حديث عبدالعزيز بن اليمان أخي حذيفة بن اليمان ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا حزَبه أمر فزِع إلى الصلاة [٣].

والخشوع في الصلاة أُولى صفات المؤمنين، أهل الفلاح الذين يرثون الفردوس، ومن لم يكن خاشعًا في صلاته تصعب عليه الصلاة، وتكون شاقة على نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة].

وهكذا فإن منزلة الخشوع من الصلاة منزلة الروح من الجسد، ولا يكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل، أي إلا ما كان مع الله فيها بقلبه وقالبه، فيُرفع له منها نصفها أو ثلثها أو عشرها، ويُلفّ بعضها كما يُلفّ الثوب الخلِق، فيُضرب بها وجه صاحبها، وهل إذا وقف العبد بين يديْ حاكم أو مسؤول، يمكنه أن يسرح عنه وهو يحادثه؟ أو يمكنه أن يعبث ويتحرك، ويقفل الهاتف أو يتناول منديلًا أو يخرجه من جيبه ليتنظف به؟ فإذا كان هذا لا يليق مع المخلوق فكيف يليق مع الخالق؟!

---

(١) في «المسند» (٣/ ١٢٨) برقم (١٢٢٩٣، ١٣٠٥٧، ١٤٠٣٧) قال محققوه: إسناده حسن ورجاله ثقات و«سنن النسائي» (٦١١٧) وأبو يعلى (٣٤٨٢) والطبراني في الأوسط (٥١٩٩) وغيرهم.

(٢) عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم في «المسند» (٥/ ٣٦٤) برقم (٢٣٠٨٨) ورجاله ثقات، وعن محمد ابن الحنفية عن علي في «المسند» (٥/ ٣٧١) برقم (٢٣١٥٤) ورجاله ثقات، (محققوه) وأخرجه أبو داود (٤٩٨٥) والطبراني في «الكبير» (٦٢١٤) والدارقطني في «العلل» (٤/ ١٢٢) ورجاله ثقات.

(٣) أخرجه ابن حبان في الثقات (٨/ ١٦٨) برقم (١٢٧٩٢) وهو في فتح الباري (١/ ٢١١) ورواه أبو داود برقم (١٣١٩) عن حذيفة، وحسنه الألباني بلفظ (كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلّى) وهو في مسند أحمد (٢٣٢٩٩) بإسناد ضعيف. كما قال محققوه.

الْوَصْفُ الثَّالث: الإِعْرَاضُ عَنِ اللَّغْوِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ

٣- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

الكلام اللغو، هو الذي لا خير فيه ولا فائدة منه، ومن صفات المؤمنين أنهم يترفَّعون عنه، تنزيهًا لأنفسهم، وصيانة لها عن فضول الكلام، ووقاية لها من الوقوع في الحرام، فإذا ملك العبد لسانه، ملك زمام نفسه، وأصبح أمره بيده، ومِثْلُ اللغو في القول، اللغو في الفعل.

ولما كانت الصلاة دعاء وأفعالًا وأقوالًا صالحة، وكان اللغو عبثًا وباطلًا يخطر ببال المصلي، أعقب الله سبحانه صفة الخشوع بصفة الإعراض عن اللغو، فمن اعتاد القول الصالح تجنب القول الباطل، ومن اعتاد الخشوع لله تعالى تجنب قول الزور، والمؤمنون يُعرضون عن كل ما لا فائدة فيه مما يشغلهم عن ذكر الله تعالى، وعن شؤون دينهم ودنياهم.

واللغو: هو الباطل والهزل واللعب واللهو، وكل ما لا يليق بمروءة المسلم وآدابه، فعليه أن يترفع عنه.

ويشمل الإعراض عن اللغو الإعراض عن سماعه، وفي مقدمة ذلك الإعراض عن لغو المكذبين للقرآن ولرسول الإسلام ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾ [فصلت: ٢٦].

ومنه: الإعراض عن مجالس اللهو، وعن مجالسة من يقدح في الإسلام، ويذم أهله ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ومن صفات المؤمنين - عباد الرحمن- أنهم إذا مروا باللغو مروا كرامًا، ولا يخوضون مع الخائضين، ولا يكونون معهم، فاللغو لا فائدة فيه، ولا يعود على الإنسان بفائدة في دينه ولا دنياه.

وقد وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ۝٥٥﴾ [القصص].

والجنة لا يُسمع فيها لغو ولا تأثيم إلا قيلًا سلامًا سلامًا.

وفي الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من**

رضوان الله، لا يُلقي لها بالًا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم»[١].

وفي وصية النبي ﷺ إلى معاذ بن جبل ﷺ، قال له: **«ألا أخبرك بملاك، ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول الله ، قال: كف عليك هذا، قلت: بلى يا رسول، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكف الناس في النار على وجوهم أو قال: على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟»**[٢].

وقول الزور وحضور أعياد المشركين الدينية، أعظم اللغو، وقد وصف الله تعالى عباد الرحمن بقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان]. كما أن الله تعالى وصفهم بقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وإذا كان الإسلام يدعونا إلى ترك اللغو الباطل، وترك ما لا نفع فيه، ولا فائدة منه من الأقوال والأفعال، فهو من باب أولى يدعونا إلى ترك سائر المحرمات والمعاصي والآثام والذنوب، والإعراض عن اللغو يتضمن ترك اللغو من باب أولى.

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: إِخْرَاجُ الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَةِ

٤- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾﴾

من صفات المؤمنين أنهم يؤتون زكاة أموالهم المفروضة، على اختلاف أجناس الأموال، وينفقون نفقة التطوع في سبيل الله بصفة عامة، كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، والمؤمنون يزكّون أنفسهم، ويطهرونها من الشحّ والبخل ونحوهما، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلى].

وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس].

---

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (٦٤٧٧، ٦٤٧٨) ومسلم (٢٩٨٨) مختصرًا.

(٢) مسند أحمد (٢٢٠١٦) قال محققوه: صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد منقطع، أبووائل - وهو شقيق ابن سلمة - لم يسمع من معاذ، وعاصم بن أبي النجود، صدوق حسن الحديث، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، وهو في مصنف عبدالرزاق (٢٠٣٠٣) وابن ماجه (٣٩٧٣) والترمذي (٢٦١٦) وغيرهم.

أي: زكَّى نفسه وطهَّرها من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال، التي تزكو النفس بتركها وتجنبها، وزكَّى ماله وطهَّره من حق الفقير، فهؤلاء قد جمعوا بين عبادة الخالق، بالخشوع في الصلاة، وبين الإحسان إلى خلق الله بأداء الزكاة.

والزكاة المفروضة، فُرِضت بمكة قبل الهجرة، ولكن مقاديرها ومصارفها وتفصيل أحكامها شُرعت بالمدينة في السنة الثانية من الهجرة.

وهذه السورة مكية، وقد جاء ذكر الزكاة غير محددة المقادير في كثير من السور المكية، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقوله: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات].

والتزكية تشمل: زكاة النفس، وزكاة المال، والآية تشمل الأمرين معًا؛ فالمؤمنون يُطهِّرون أنفسهم بحسن أخلاقهم، ويُطهِّرون أموالهم بإخراج زكاة أموالهم على اختلاف أجناسها.

ولأن عدم الإشراك بالله تعالى من طهارة القلب، فقد وصف الله سبحانه المشركين بأنهم يمنعون الزكاة، فقَرن بين الشرك بالله ومنع الزكاة في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت].

الوصْفُ الْخَامِسُ: حِفْظُ الْفُرُوجِ

٥، ٦- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾

إن المؤمنين يحفظون أنفسهم مما حرَّم الله، يحفظونها من الزنى واللواط وسائر الفواحش، فهم يحفظون فروجهم من الحرام، رجالًا ونساء، ومن تمام حفظها تجنُّب النظر والمصافحة واللمس والمحادثة ونحو ذلك.

ولما كانت الآية السابقة تنهى عن اللغو، وتأمر بالإعراض عنه، وفي هذا حفظ للسمع واللسان، فقد بيَّن سبحانه بعد ذلك أن حِفْظ الفرج صِنوْ حفظ اللسان والسمع؛ لأن العبد قد ينفلت لسانه، وقد تغلبه شهوته، ولذا: وضع الإسلام ضوابط شرعية لاستعمالهما في الحلال دون الحرام.

جاء في حديث سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من يضمن لي ما بين لَحْيَيْه**

وما بين رجليه أضمن له الجنة»[١].

فمن شأن المؤمن أنه عفيف، مُمْسك لشهوته. والأُمَّة المؤمنة هي التي تُصان فيها الأعراض، ويحافَظ فيها على الأنساب، ويغُضُّ فيها الرجال والنساء أبصارهم عن بريد الزنى، ولا يضعون شهواتهم إلا فيما شرع الله، وما انتشرت الفاحشة في أمة إلا خابت وخسرت في دنياها وأخراها، وضاعت أنسابها، وانتشر فيها الأمراض، والفرج يطلق على فرج الرجل والمرأة.

فالمؤمنون حافظون لفروجهم من كل أحد، إلا على الزوجة وملك اليمين، فهم ممسكون لشهواتهم لا يستعملونها إلا فيما أحلَّ الله، وهم يصونون أعراضهم، ويحفظون أنسابهم، فلا لوم عليهم ولا حرج في جماع ملك اليمين والاستمتاع بهن؛ لأن الله تعالى أحلّهن، وهم غير مؤاخذين على ذلك، فقد أحلَّ الله هذين الصنفين من بقية أصناف النساء، والمؤمنات حافظات لفروجهن إلا من أزواجهن.

والإسلام لم يُجِز الرِّقَّ إلا في الحرب المشروعة، بين المسلمين وغيرهم، لردّ عدوان، أو إزالة للعوائق من طريق الدعوة، وتقسيم النساء الأسيرات من الكفار على المحاربين المسلمين فيه إكرام وصيانة لهن، وحفاظ عليهن.

ولما جاء الإسلام وجد الرق نظامًا عالميًّا، فجفف منابعه بكل طريق، ولم يُبقِ إلا على التعامل بالمثل مع الكفار.

وملك اليمين: هو المرأة الكافرة التي تؤخذ أسيرة في حرب مشروعة بين المسلمين والكفار، فإن هذه المرأة التي تؤسر في الحرب، وتُصبح من حق زيد من الناس، يصح له الاستمتاع بها، هذا هو ملك اليمين، وكذا المرأة الرقيقة المملوكة، وهذا الحكم خاص بالرجل.

فالمرأة إذا ملَكتْ رجلًا فإنه لا يجوز لها أن تستمتع بفرج مملوكها، وهو حُكْم متفق عليه بين أهل العلم[٢].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٤٧٤، ٦٨٠٧).

(٢) يُنظَر في ذلك: ما أخرجه عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز في «مصنف عبد الرزاق» (١٢٨١٨، ١٢٨٢١) وابن أبي شيبة (٤/٣٣٨).

كما حرَّم الإسلام موطوءة الأب؛ فإنها لا تحل بملك اليمين إجماعًا، وهذا من عموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢].

وحرَّم الإسلام الجمع بين الأختين في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣].

كما حرَّم الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها في الأحاديث النبوية[١].

وقد حرم الإسلام إتيان الشهوة فيما عد الزوجة وملك اليمين، قال تعالى:

٧- ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾

أي فمن طلب التمتع بغير الزوجة وملك اليمين، من كل ما حرم الله، كالزنى، واللواط، والسحاق، والاستمناء باليد، وإتيان البهائم ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي هم الذين تجاوزوا الحلال إلى الحرام، ومن ذلك نكاح المتعة على الصحيح، ونكاح المحلل، والاستنماء واللواط والسحاق وإتيان البهائم.

وقد أخذ الإمام الشافعي من هذه الآية أن الاستمناء باليد هو من قضاء الشهوة فيما عدا الزوجة وملك اليمين[٢].

جاء في الأثر عن أنس ﷺ: **«سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا يجمعهم مع العاملين، ويدخلهم النار أول الداخلين: الناكح يده، والفاعل والمفعول - جريمة اللواط- ومدمن خمر، والضارب والديه حتى يستغيثا، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليلة جاره»**[٣] أي: زوجة جاره.

فالزنى حرام، وأفجره أن يزني الإنسان بامرأة جاره، والذين يقعون في شيء من ذلك يكونون قد عرَّضوا أنفسهم لعقاب الله تعالى وسخطه؛ لأنهم وقعوا في الحرام الذي نُهوا عنه، فلم يحفظوا فروجهم عن غير الزوجة والأَمَة المملوكة.

---

(١) ينظر تفسير آية المحرمات في سورة النساء.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٦٣).

(٣) رواه الإمام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور برقم (٤١) وفي إسناده من لا يُعرَف، وهو في خلاصة البدر المنير لابن الملقن برقم (١٩٩٦) عن أنس مرفوعًا، وفي مسند الفردوس (٢/ ٣٣٢)، فهو حديث ضعيف.

قال عطاء: سمعت أن قومًا يحشرون وأيديهم حبالى، فأظن أنهم هؤلاء، أي: الذين يفعلون ما يسمى بالعادة السرية.

وقال سعيد بن جبير: عذَّب الله أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم، أي: يفعلون اللواط، وهم قوم لوط.

الْوَصْفُ السَّادِسُ وَالسَّابِعُ: حِفْظُ الْأَمَانَاتِ والْعُهُودِ

٨- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ[1] وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾

الأمانة: لفظ عام يدخل فيه كل ما ائتمَن الله عليه العبد من قول أو فعل أو اعتقاد، وما اؤتمن الإنسان عليه من الودائع والأسرار وغيرها.

والعهد: كل ما طُلب من الإنسان الوفاء به، من حقوق الله تعالى ومن حقوق الناس.

وشأن المؤمن أن يحفظ كل ما استودعه الله إياه من العبادات التي بينه وبين ربه، والمعاملات التي بينه وبين الناس، ومما استأمنه الله عليه: الغسل من الجنابة ونحوها، فهو أمر لا يطلع عليه الناس، والصيام سِرٌّ بين العبد وربه، فهو أمانة استودعه الله إياها، وهكذا كل أمانة.

وفي مقدمة ذلك: حفظ أمانة ميثاق الفطرة والتوحيد بين العبد وربه، والقيام بحقوق الله سبحانه، وكذا القيام بالحقوق التي بين العبد والعباد من أمانات وحقوق وواجبات، ومنها الودائع، سِيَّمَا إذا كانت هذه الودائع ليس عليها دليل، كشخص ائتمن شخصًا على ماله، ولم يأخذ عليه أوراقًا أو مستندات، وأمانة المؤمن تظهر في مثل هذه الحالة؛ إذ لا يوجد من يشهد بذلك إلا رب العالمين، ومثله شخص استودع شخصًا سرًّا فهو أمانة، أو حضر مجلسًا يقال فيه كلام سر، فالمجلس أمانة. ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾[الأحزاب: ٧٢]

وكذلك يجب حفظ العقود التي تُبرم بين الإنسان وغيره، ويجب عليه الوفاء بكل ما هو

(١) قرأ ابن كثير بحذف الألف بعد النون من (لأماناتهم)، على الإفراد لإرادة الجنس، والباقون بإثبات الألف، على الجمع، لإرادة أنواع الأمانات.

مشروع منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقد جمعت هذه الآية صفتين وفضيلتين، هما: فضيلة أداء الأمانة، وفضيلة الوفاء بالعهد، وقد تكون الأمانة على انفراد بين الأمين والمؤتمن، وقد تكون الأمانة من النفائس التي تغري المؤتمن فيجحدها ولا يردها، ولذلك فقد جعل الله ردها من شعب الإيمان، وخيانتها نفاقًا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]:

١- جاء في الحديث عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ أن الأمانة نزلت في جَذْرِ قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، وعلموا من السُّنَّة، قال حذيفة: وحدثنا عن رفعها قال: **«ينام الرجل النومة فتُقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكْت، ثم ينام النومة فتقبض، فيبقى أثرها مثل المَجْل، كجمْر دَحْرَجْتَه على رجلك، فَنَفِطَ، فتراه مُنْتَبِرًا، وليس فيه شيء، فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلًا أمينًا، ويقال للرجل: ما أعقلَه! وما أظرفَه! وما أجلده! وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»**[(١)].

والوكْت: هو قشر التمرة، والمجْل: انتفاخ في الجلد الرقيق، أي: أن الأمانة حين تقبض - أوَّلًا - من قلب الرجل يبقى أثرها في قلب العبد كقشرة التمرة، وحين تقبض - ثانيًا - تترك أثرًا كالجلد الرقيق المنفوخ.

٢- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة»**، قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: **«إذا أُسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»**[(٢)].

٣- وخيانة الأمانة من صفات المنافقين، كما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»** زاد في رواية: **«وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم»**[(٣)].

---

(١) في «صحيح البخاري» برقم (٦٤٩٧) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٣).
(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٩، ٦٤٦٩).
(٣) «صحيح البخاري» (٣٣، ٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٩٥) و«صحيح مسلم» (٥٩).

٤- وفي حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر»**(١).

والأمانات: تشمل جميع التكاليف التي كلَّفنا الله بأدائها فيما بين العبد وربه، وفيما بينه وبين الناس، فهي تشمل: الودائع، والأيمان، والنذور، والعقود، والمواعيد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾ [المؤمنون].

والعهود: تشمل كل ما طُلِب من العبد الوفاء به من حقوق الله وحقوق الناس، والأمانة أعمًّ من العهد، فكل عهد أمانة، وقد جاء الأمر بالوفاء بالعهد في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

فالأمانة والعهد تجمعان كل ما تحمَّله الإنسان من أمر دينه ودنياه، قولًا وفعلًا، وهذا يعمُّ معاشرة الناس، والمواعيد التي تكون بين الإنسان وغيره، ونحو ذلك.

الْوَصْفُ الثَّامِنُ وَالْأَخِيرُ: الْمُحَافَظَةُ عَلَى الصَّلَاةِ

٩- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ(٢) يُحَافِظُونَ ۝٩﴾

والمحافظة على الصلاة تشمل الخشوع فيها، بالإضافة إلى المحافظة على أدائها في أوقاتها، وعلى أركانها ووضوئها، وسجودها، والاطمئنان فيها، والمحافظة على أدائها مع الجماعة، وعدم تأخيرها عن وقتها، فالمحافظة على الصلاة والخشوع فيها متلازمان، فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع، أو على الخشوع من غير محافظة عليها، مذموم وصلاته ناقصة، فقد أنذر الله سبحانه متوعِّدًا من يؤخرون الصلاة عن وقتها، أو يضيعونها حتى يخرج وقتها، فقال سبحانه: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [مريم].

---

(١) البخاري (٣٤، ٢٤٥٩، ٣١٧٨) ومسلم (٥٨).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (صلاتهم)، على الإفراد لإرادة الجنس، وقرأ الباقون (صلواتهم) بالجمع لإرادة الفرائض، أو الفرائض والنوافل.

وقد ذمَّ الله سبحانه المنافقين؛ ووصفهم بأوصاف، منها: التكاسل عن أداء الصلاة، فقال: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وسئل النبي ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله ﷻ، كما في حديث عبد الله بن مسعود ؓ قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**ثم بر الوالدين**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[1].

فقد جاءت الصلاة في المرتبة الأولى، وبر الوالدين في المرتبة الثانية، ثم الجهاد في سبيل الله، وهو ذروة سنام الإسلام، وقد يختلف هذا الترتيب باعتبار ما هو الأهم بالنسبة لحال السائل، كما في الأحاديث الأخرى.

فالمسلم لا يفوِّت الصلاة إهمالًا، ولا يضيِّعها كسلًا، ولا يقصِّر في إقامتها على الوجه الأكمل، مستوفاة الأركان والسُّنن والآداب، حتى يعرج العبد إلى ربه، ويتصل به سبحانه خمس مرات في اليوم، فيؤثِّر ذلك فيه بالانتهاء عن الفحشاء والمنكر.

مُجْمل الصفات الثمان: وقد بدأت هذه الصفات الثمان بالخشوع في الصلاة، وخُتِمت بالمحافظة عليها، وفي هذا تنويه بعظم شأن الصلاة، ورد للعَجُز على الصدر، وقد جَمعت هذه الصفات أصول التقوى؛ لأنها اشتملت على أعمال القلب والجوارح.

١- فبدأت بوصف الإيمان وهو أساس التقوى.

٢- ثم ذَكَرت الخشوع في الصلاة وهي عماد التقوى؛ لما فيها من استحضار الوقوف بين يدي الله تعالى ومناجاته، والخشوع تمام الطاعة، وشدة المراقبة لله تعالى، وامتثال أمره واجتناب نهيه.

٣- ثم ذكرت السورة الإعراض عن اللغو، وهو من سوء الخُلُق المتعلق باللسان الذي يعسر إمساكه، فإن أعرض الإنسان عن سماع اللغو، وأعرض عن الخوض فيه، فقد سَهُل عليه الإعراض عن غيره.

٤- ثم ذكرت إعطاء الصدقات ودفع الزكاة لمن يستحقها، وفي هذا مقاومة لداء الشح

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٩٧٠) وانظر: (٥٢٧)، و«صحيح مسلم» برقم (٨٥).

والبخل ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

٥- ثم ذكرت الآيات حفظ الفروج، وفي هذا مقاومة لغريزة الشهوة وتعديل لمسارها، وكبح لجماحها، وترفُّع عن مشابهة البهائم.

٦- ثم ذكرت صفة الأمانة، وهي مظهر الإنصاف، وإعطاء الحقوق، ومغالبة شهوة النفس في متاع الدنيا.

٧- وذكرت الوفاء بالعهد، وهو العدل في التعامل، بأن يحب العبد للناس ما يحبه لنفسه.

٨- وخُتِمت هذه الصفات بالمحافظة على الصلاة، وفيها التزام بالمواعيد، ووقوف عند الحدود.

وفي هذه الصفات أمر بحفظ ما من شأن الناس إهماله، وبذل ما من شأن الناس إمساكه، وهو جماع حفظ الأوامر وترك النواهي، ومنبع الأخلاق الفاضلة.

الْجَنَّةُ أَعْظَمُ مِيرَاثٍ

١٠، ١١- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾

هؤلاء المؤمنون الموصوفون بهذه الصفات الثمان ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ ولكن ماذا يرثون؟ الجواب: يرثون الجنة، أعلاها وأوسطها وأفضلها، لأنهم تحلّوْا بأعلى صفات الخير وذروتها، ويدخل في ذلك عموم أهل الجنة على اختلاف مراتبهم، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف].

ولكل أحد من خلق الله مسكن في الجنة ومسكن في النار، فإذا كان الإنسان من أهل النار فإن مكانه في الجنة يأخذه أهل الجنة، حيث يرث أهل الجنة مكانَ الكافر الذي كان مُعدًّا له في الجنة لو كان مؤمنًا، فالمؤمنون وارثون لهم **بهذا المعنى**.

وكذلك إذا كان الإنسان من أهل الجنة، فإنه يأخذ مكانه من الجنة، ويؤول إليه مكان الكافر الذي كان معدًّا له في الجنة لو كان مؤمنًا، فيرثونه إلى جوار مساكنهم فيها.

كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله»**

وذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾[١].

وذلك لأن الله تعالى خلق الخلق لعبادته، فإذا لم يعبدوه، فإنهم لم يقوموا بما وجب عليهم، ولمَّا قام به المؤمنون، فإنهم يستحقون نصيب مَنْ لم يقم بما وجب عليه، وتَرَكَ ما أُمر به، وهذا أحد معنيين في تفسير الآية.

والمعنى الآخر: أن معنى الوراثة هو أن يؤول أمر المؤمنين إلى الجنة، وينالوها بأعمالهم الصالحة، كما يؤول أمر الميراث إلى الوارث.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ۝٦٣﴾ [مريم: ٦٣].

وقال: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال سبحانه على لسان أهل الجنة: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤٧].

والفردوس: أعلى منازل الجنة وأفضلها، وهو اسم لأشرف الجنات.

جاء عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن في الجنة مئة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجَّر أنهار الجنة»**[٢].

وسألت أم حارثة ﷺ رسول الله ﷺ عن ولدها، وكان قد استُشهد يوم بدر، قالت: يا رسول الله، أخبرني إن كان هو في الجنة أصبر وأحتسب، وإن كان غير ذلك بكيت عليه، فقال: **«يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»**[٣].

وأهل الجنة لا يخرجون منها أبدًا، ولا يبغون عنها حِوَلًا، ففيها أكمل النعيم وأتمّه دون مكدر ولا منغص.

---

(١) «تفسير الطبري» (١٨/ ٦٠٥) ورواه ابن ماجه في «السنن» برقم (٤٣٤١) من طريق آخر، قال البوصيري في الزوائد: (٣/ ٣٢٧) هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٢٧٩) وصححه ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٤٤٢) وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٥٠٣).

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٢٧٩٠، ٧٤٢٣).

(٣) من حديث أنس في البخاري برقم (٢٨٠٩) وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣١٧٤).

أَرْبَعَةُ أَدِلَّةٍ تَبْعَثُ عَلَى الإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ

الدَّلِيلُ الأَوَّلُ: أَطْوَارُ خَلْقِ الإِنْسَانِ

١٢، ١٣- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾

بعد أن ذكر الله سبحانه صفات المؤمنين ذكر أطوار خلق الإنسان، من ابتداء خلقه إلى موته ومبعثه، وفيه امتنان على الناس بأنه سبحانه أخرجهم من العدم إلى الوجود؛ ثم أمرهم ونهاهم ليظهر الفرق بين المؤمنين وغيرهم، حيث يتم الاختبار والابتلاء في هذه الحياة، ثم يأتي البعث والحساب والجزاء.

وقد بدأت هذ الرحلة بخلْق الإنسان الأول، وأنه خُلق ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾، **والسلالة**: اسم لما سُلَّ من الشيء واستُخرج منه، والإنسان سُلّ من الأرض وأُخذ منها، أي: ولقد خلقنا أباكم آدم من جزء مستخرج من الطين، وهذه السلالة كانت أوَّلًا ترابًا، ثم جاءت مرحلة الطين بعد أن بُلَّ التراب بالماء، ثم تخمَّر الماء والتراب حتى صار طينًا لازبًا، أي: يلتصق باليد، ثم تحوَّل الطين إلى حمأ مسنون، أي: طين أسود، ثم إلى صلصال كالفخار، ثم نفخ الله فيه من روحه فصار بشرًا سويًّا.

وخَلْق آدم من تراب جاء في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم].

وفي الحديث: عن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك والسهل والحَزْن وبين ذلك**»[١].

وقال ابن عباس ﷺ: **السلالة**: صَفْوة الماء الرقيق الذي يكون منه الولد[٢]

---

(١) «المسند» (٤/ ٤٠٠) برقم (١٩٥٨٢) قال محققوه: إسناد صحيح ورجال ثقات، والطبري في التفسير (٦٤٥) وابن حبان (٦١٨١) وأبو داود (٤٦٩٣) والترمذي (٢٩٥٥) وأبو الشيخ (١٠١٨).

(٢) الطبري (١٧/ ١٩).

ويراد بهذه السلالة التي يُخلق منها أبناء آدم، وهي مجموع ماء الذكر والأنثى المسلول من دمهما.

وهذه السلالة، هي ما يفرزه جهاز الهضم من الغذاء حين يكون دمًا، فإن هذا الدم يمرُّ على غُدَّتي التناسل (الأنثيين) فتُفرز منه مادة دُهنيَّة شحميَّة تحتفظ بها، وهي التي تتحول إلى منيٍّ عند الجماع.

وهذه السلالة مستخرجة في الأصل من الطين؛ لأنها من الأغذية، والغذاء يخرج من الأرض. ودم المرأة يمرُّ على قناة في رحمها، ويترك فيه بُويْضات دقيقة هي بَذر الأجنة، ومن اجتماع منيِّ الرجل وبُويضة الأنثى، يتكوَّن الجنين، فلا جرَم أن يكون بنو آدم مخلوقين من سلالة من طين[1].

ثم خلق الله من آدم، حواء، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]

وقال ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]

جاء في الأثر: أنها خلقت من ضلعه.

وخُلِق من آدم وحواء البشر جميعًا، من سلالة تعود إلى آدم وإلى الأرض التي تُقْبر فيها هذه السلالة، وهي تتكون من الغذاء الذي يتكون منه الدم، ومنه يكون المني الذي يُخلق منه الإنسان، فالنطفة هي الطور الأول، وهي الماء الدافق الذي يخرج من الرجل والمرأة، والقرار المكين هو موضع الولد في رحم المرأ، وعن استكمال مراحل خلق الإنسان يقول تعالى:

١٤- ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا[2] فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

---

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٨/ ٢٢).

(٢) قرأ ابن عامر وشعبة بفتح العين وسكون الظاء بدون ألف من (عظاما) و(العظام)، على الإفراد لإرادة الجنس، وقرأ الباقون بكسر العين وفتح الظاء بعدها ألف؛ لأنها عظام دقيقة وغليظة ومستديرة ومستطيلة، فهي أنواع.

والعَلَقَة هي الطور الثاني في خلق الإنسان، وهي دم أحمر غليظ مختلط كالدودة، وسميت كذلك لأنها تَعْلَق في جدار رحم المرأة.

ثم تكون هذه العلقة في طورها الثالث مُضْغَة، أي: قطعة لحم قدْر ما يمضغه الإنسان لا شكل فيها ولا تخطيط، ثم تكون هذه المضغة عظامًا مشكَّلًا ذا رأس ويديْن ورجليْن بعظامها، وعصبها، وعروقها، والقرآن يقرر أن خلايا العظم تُخلق أوَّلًا قبل خلايا اللحم، حيث تُكسى العظام باللحم.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«كل ابن آدم يأكله التراب إلا عَجْبَ الذَّنَب منه خُلق، وفيه يركّب»**.

وفي لفظ آخر: **«إن في الإنسان عظمًا لا تأكله الأرض أبدًا، فيه يُركّب يوم القيامة»**، قالوا: أي عَظْمٍ هو يا رسول الله؟ قال: **«عجْبُ الذَّنَب»**[1].

ثم ينفخ الله فيه الروح فيصير بشرًا سويًا، خلقًا آخر، يسمع ويبصر، ويتحرك ويتكلم، ويكون طفلًا، ثم صبيًّا، ثم غلامًا محتلمًا، ثم شابًّا، ثم كهلًا، ثم شيخًا، ثم هرِمًا، ثم يصير إلى الموت، كما في حديث ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملَك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكَتْب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد»[2].

وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير المكي، أن عامر بن واثلة، حدثه أنه سمع عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: الشقي من شَقِيَ في بطن أمه، والسعيد من وُعظ بغيره، فأتى رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: حذيفة بن أُسَيْد الغفاري، فحدثه بذلك من قول ابن مسعود فقال: وكيف يشقى رجل بغير عمل؟ فقال له الرجل: أتعجب من ذلك؟ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا مرَّ بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها مَلَكًا،**

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٩٣٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٥) من حديث ابن مسعود.

(٢) يُنظَر: حديث ابن مسعود في البخاري (٦٥٩٤) ومسلم (٢٦٤٣)، و«المسند» (١/ ٣٨٢) (٣٦٢٤،٤٠٩١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وأبوداود (٣٢٠٨) والنسائي في الكبرى (١١٢٤٦) وابن ماجه (٧٦).

فصوَّرها، وخلَق سمْعها وبصرها، وجِلْدَها ولحمها، وعظامها، ثم قال: يا رب، أذكَر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتُب الملَك، ثم يقول: يارب، أجلُه، فيقول ربك ما شاء، ويكتُب الملَك، ثم يقول: يارب، رزقُه، فيقضي ربك ما شاء، ويكتُب الملَك، ثم يخرُج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أُمر، ولا ينقص»[1].

قلت: المراد بالشقاء الذي في الحديث، هو باعتبار ما سيكون عليه العبد عندما يكون عبدًا مكلفًا حرًّا مختارًا، وهو أمر سبق في علم الله تعالى وكشفه للناس بعد ما خُلق الإنسان.

وهذه الجملة: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ من موافقات عمر ﷺ، فإنه لما سمع هذه الآية نطق بما أنزله الله سبحانه.

عن أنس قال: قال عمر: وافقت ربي في أربع: قلت: يا رسول الله، لو صلَّينا خلف المقام؟ فأنزل الله ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقلت: يا رسول الله، لو اتخذتَ على نسائك حجابًا؛ فإنه يدخل عليك البَرُّ والفاجر؟ فأنزل الله ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقلت لأزواج النبي ﷺ: لتنتهُنَّ أو ليُبدِّلَنَّه الله أزواجًا خيرًا منكن، فنزلت ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ [التحريم: ٥].

ونزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾؛ فقلت أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[2].

وقيل: إن قائل ذلك أيضًا هو عبد الله بن أبي سرح، وأنه أراد بهذا أن يقول: أنا آتي بمثل ما يأتي به محمد، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقد سأل عمر ﷺ، جَمْعًا من الصحابة ﷺ، عن ليلة القدر، فقالوا: الله أعلم، فقال

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٥).

(٢) في البخاري(٤٤٨٣)بدون ذكر (فتبارك الله أحسن الخالقين)أخرجه الطيالسي (٤١)وابن عساكر (١١٣/٤٤).

عمر: ما تقول يا ابن عباس؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله خلق السموات سبعًا، والأرضَ سبعًا، وخلق ابن آدم من سبع، وجعل رزقه في سبع، فأراها في ليلة سبع وعشرين، فقال: أعْجزَكم أن تأتوا بمثل ما أتى به هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه؟

وأراد ابن عباس ﷺ بخلْق ابن آدم من سبع، هذه الآية التي معنا، وأراد بقوله: وجعل رزقه في سبع قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ۝٣١﴾[1] [عبس].

والأب ما تأكله الأنعام، وهو حشائش الأرض، والقضْب قيل: هو البقول؛ لأنها تقضب.

وعن هذه الأطوار التي يمر بها الإنسان في مراحل الخلق، يقول عليٌّ بن أبي طالب ﷺ: إذا أتمَّت النطفة أربعة أشهر، بُعِث إليها ملَك، فنفخ فيها الروح في الظلمات الثلاث، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾ يعني: نفخنا فيه الروح، فانتقل من كونه جمادًا إلى أن صار حيوانًا.

وعن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾ قال: يعني تنقُّله من حال إلى حال، إلى أن خرج طفلًا، ثم نشأ صغيرًا، ثم احتلم، ثم صار شابًّا، ثم كهلًا، ثم شيخًا، ثم هرمًا.

ومما رُوى أن يهوديًّا مرَّ برسول الله ﷺ وهو يحدِّث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودي، إن هذا يزعم أنه نبي، فقال: لأسألنَّه عن شيء لا يعلمه إلا نبيٌّ، قال: فجاءه حتى جلس، فقال: يا محمد، مم يُخلَق الإنسان؟ فقال: «**يا يهوديُّ، من كلٍّ يُخلَق، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة، منها العظم والعصب، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة، منها اللحم والدم**»، فقام اليهودي فقال: هكذا كان يقول من قبلك[2].

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/ ١٣٨).

(٢) رواه أحمد بسنده، «المسند» (١/ ٤٦٥) عن عبد الله بن مسعود، برقم (٤٤٣٨) بإسناد ضعيف (محققوه) وأخرجه البزار (٢٣٧٧) والطبراني في الكبير (١٠٣٦٠) وأبو الشيخ في العظمة (١٠٨٨) وانظر مجمع الزوائد (٨/ ٢٤١).

جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة].

فخلْقُهُ كله حسن، والإنسان من أحسن مخلوقاته، بل هو أحسنها على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٣] ولهذا فإن خواص الإنسان أفضل المخلوقات وأكملها.

وهذه الآية - آية السجدة - مفسِّرة للآية التي معنا، في سورة (المؤمنون) وهي دالة على أن المراد بالإنسان الذي خلقه الله من طين: هو آدم، وأن نسله خلَقه الله من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق].

وقال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المرسلات].

وعن مراحل خلق الإنسان يقول سبحانه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح].

وقال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ﴾ [الزمر: ٦].

هي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وكثيرًا ما يجمع الله سبحانه بين خلْق الإنسان الأول وذريته، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر].

وعن أطوار خلْق الإنسان السبعة، بما يشمل الموت والبعث، ورد أن رجلين تناجيا في مجلس عمر، وكان عليٌّ حاضرًا، فقال لهما عمر: ما هذه المناجاة؟ فقال أحدهما: إن اليهود يزعمون أن العزل هو الموؤودة الصغرى، فقال عليٌّ: لا تكون موؤودة حتى تمر عليها التارات السبع، وقرأ الآيات: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

فقال عمر لعليٍّ: أطال الله بقاءك[1] قيل: إن عمر أول من قالها.

---

(١) هذا الأثر عند الطبراني برقم (٤٥٣٦) وهو عند أحمد عن حكم الغسل من التقاء الختانين دون قضية العزل، وصححه محققو المسند (٣٥/ ٢١) ورقمه: (٢١٠٩٦) وبنحوه عن مجاهد عن ابن عباس في «مصنف عبد الرزاق» برقم (١٢٥٧٠)، وأخرجه مالك في الموطأ (١/ ٤٧).

١٥، ١٦- ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦﴾

ثم إن المصير بعد ذلك إلى الموت والتراب، ولا مفر لكم منه، ولا مهرب لكم عنه عندما تنقضي أعماركم، وكثيرًا ما يربط الله سبحانه بين المبدأ والمعاد؛ ليستدل بالخلق الأول على البعث والنشور، كما قال سبحانه:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة].

وبعد الموت وانقضاء الدنيا تُبعثون من قبوركم للحساب والجزاء، حيث تُوفَّى كل نفس جزاء ما عملت، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ، وهذه هي النشأة الآخرة التي قال الله عنها: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

الدَّلِيلُ الثَّانِي: خَلْقُ السَّمَوَاتِ

١٧- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ۝١٧﴾

وبعد أن ذكر الله سبحانه ما يدلُّ على قدرته تعالى في خلق الإنسان أتبع ذلك بما هو أعظم وأكبر من خلق الناس، وهو خلْق السموات، وهي من نعم الله على الإنسان، ذكرها سبحانه وذكر بعدها الماء والنبات والأرض والحدائق والفواكه والنخيل والأعناب والزيتون والأشجار والجنات والأنعام والسفن، وكل ذلك لبيان مسكن الإنسان وتوافر هذه النعم عليه في هذه الأرض التي يسكنها بعد خلق الله له من نطفة، فهذه النعم وسائل معيشته في هذه الحياة، وأولها خلق السموات. ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦﴾ [نوح].

والقرآن الكريم يذكر دائمًا خلق السموات بعد خلق الإنسان، ويبيِّن سبحانه أن خلق السموات أكبر من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

والسماء في القرآن الكريم ذات سُمك وجرْم ومادة وبناء، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال جل شأنه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

والسماء عند علماء الفلك: هي الأفلاك التي تسير فيها المجموعة الشمسية، أي الشمس وما ينجذب إليها، ويدور حولها من الكواكب، وقد خلق الله هذه السموات بعضها فوق بعض، وجعلها الله ﷻ طُرُقًا للملائكة تعرج فيها وتَنْزِل، فهي ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ أي: سبع سموات يعلو بعضها بعضًا، وهي طرق للملائكة، وهو سبحانه يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وهو سبحانه قدَّر الأرزاق والمعايش لعباده، ودبَّر أمورهم، ويسَّر حياتهم، ولا يغفل عن مخلوقاته في السموات ولا في الأرض لحظة من اللحظات؛ حتى لا يختل نظام هذا الكونِ، ولا ينساه، ولا يشغله أمر عن أمر.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: مَا يَنْتُجُ عَنِ المَاءِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ

١٨ - ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

أي: أنزلنا من السماء ماء بقدْر حاجة الخلائق، لكم ولأنعامكم وزرعكم، وجعلنا الأرض مستقرًّا لهذا الماء؛ لتنتفعوا به وقت الحاجة إليه، وفجَّرنا منه العيون والأنهار.

وإنزال الماء هو: إسقاطه من السحُب ماء، وثلْجًا، وبرَدًا على السهول والجبال، ويراد بإسكانه في الأرض: إقراره فيها، وهذا الإقرار على نوعين:

النوع الأول: إقراره لمدة قصيرة في القشرة الظاهرة من الأرض، بمقدار ما ينبت النبات من بذور البقل، وبمقدار ما تمتص أصول الأشجار وعروقها؛ لإخراج الثمار والعروق.

والنوع الآخر: إقرار طويل للمياه في الأرض، تنشأ منه العيون، وتتفجر منه الآبار، وذلك بعد تسرب الماء إلى داخل الأرض[١].

والقرآن الكريم يقرر أن الماء الجوفي الذي في باطن الأرض، هو في الأصل نازل من ماء المطر من السحاب، وقد أنزله الله سبحانه بقدر معلوم ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر]

أي: بما يحقق منفعة العباد، ولا يضرهم، فلا يكون طوفانًا فيغرقهم، ولا يكون قليلًا

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٨/٣٧).

فيحصل لهم الجدب والعطش، وقد أنزله الله في وقت الحاجة ورفعه عند الضرر.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: والله سبحانه قادر على أن يتسرب هذا الماء من جوف الأرض، فلا يصل إليه الإنسان، ولا ينتفع به ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك]. وفي هذا تهديد ووعيد للظالمين بسلْب تلك النعمة عنهم، فالقادر على إنزاله قادر على إزالته وإذهابه، وقد أشارت هذه الآية إلى **ثلاثة أشياء**:

أولها: أن الله تعالى أنزل هذا الماء بمقدار معلوم، بقدر حاجة العباد والبلاد.

وثانيها: أن هذا الماء المنزل من السماء، أسكنه الله في الأرض، كما أسكن النطفة رحم المرأة في قرار مكين منه، وجعله مستقرًّا لها، إلى انتهاء مدة الحمل ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ [الزمر: ٢١]

وقال: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢].

وثالثها: أن الله تعالى قادر على الذهاب به وعلى عدم إنزاله، وقادر على إفساده وعدم الانتفاع به، كما قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة].

فالله تعالى يجمع الماء في السماء، ثم يُخرجه من ثُقوب السماء وفُروجها، فيُنزلُه على قوم، ويَصْرفُه عن آخرين وفق حكمته سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور].

والمؤمن ينسب هذا الماء إلى الله تعالى، وغير المؤمن ينسبه إلى الأنواء والكواكب، قال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان].

وقد خلق الله من هذا الماء بساتين النخيل والأعناب وسائر الفواكه؛ قال تعالى:

١٩ - ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾

ومن الماء تنشأ الحياة، ومن آثار الماء هذه النعم الذي خلقها الله لنا من الزرع

والثمار، وجنات من حدائق وبساتين ونخيل وأعناب.

والقرآن الكريم يخص النخيل والأعناب بالذكر؛ لكثرة وجودهما في الجزيرة العربية والحجاز، خاصة وقت نزول القرآن، فقد كانت المدينة النبوية يكثر فيها النخيل، والطائف يكثر فيها الأعناب، ولكثرة منافع هاتين الشجرتين وفَضْلهما، خصهما الله تعالى في كتابه بالذكر، لأنهما طعام وفاكهة، وفيهما أصناف كثيرة مختلفة، فمن التمر: البُسْر والرطب والبلح، ومن العنب: الزبيب والعصير، لكم فيها فواكه أخرى مختلفة الأنواع والأشكال، ومنها تأكلون، كما قال تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ [النحل: ١١]. وهكذا؛ كما قال تعالى:

٢٠- ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ[١] تَنۢبُتُ[٢] بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ٢٠﴾

ومن الماء خلق الله سبحانه شجرة الزيتون، وقد خصها ﷻ بالذكر؛ لكثرة فوائدها، بزيْتها وطعامها وخشَبها، وهي شجرة مباركة تخرج غالباً في جبل الطور بصحراء سيناء.

ونُسبت شجرة الزيتون إلى هذا المكان، قيل: لأنها تكثر فيه عن غيره، أو لأن أول شجرة من شجر الزيتون نبتت في جبل الطور الذي كلَّم الله فيه موسى، فجميع الأجناس وأنواع الثمار الموجودة على ظهر الأرض، لابدَّ لها من موطن ابتدأ وجودها فيه، وبعض المناطق يكون أكثر مُلاءمة للحيوان والنبات، فلعل الله تعالى خصَّ جبل طور سيناء بشجر الزيتون؛ لأنه يتوسط بين المناطق الحارة والباردة، ولأنه يتوسط بين ارتفاع الجبال وانخفاض السهول، كما قال تعالى: ﴿زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ [النور: ٣٥].

وقد عرف نوح ورقة الزيتون، وعُرفت كذلك في عهد موسى عليهما السلام.

ففي التوراة أن شجرة الزيتون كانت موجودة قبل الطوفان وبعده[٣].

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بكسر السين من (سِيناء) لغة بني كنانة، والباقون بفتحها لغة أكثر العرب.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بضم التاء وكسر الباء من (تُنبِت) مضارع أنبت، وقرأ الباقون بفتح التاء وضم الباء مضارع نبت.

(٣) يُنظَر: الإصحاح الثاني من سفر التكوين.

فطور سيناء هو منبتها الأصلي الذي ابتدأ الله خلْقها فيه.

وشجرة الزيتون يخرج منها الزيت للدهن، حيث يُدهن به الجسد للتداوي ويُرجَّل به الشعر، وفيها الزيت الذي إذا غُمس الخبز فيه فإنه يُصبغ ويتغير لونه، وهذا معنى: ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾.

وفي الحديث: عن أبي أُسيد بن ثابت الأنصاري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كلوا الزيت وادَّهنوا به فإنه من شجرة مباركة**»[1] وفيها الزيتون، طعام وغذاء.

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: خَلْقُ الْأَنْعَامِ

٢١- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم[2] مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

ومن دلائل قدرته تعالى أن خلَق وسخّر لنا بهيمة الأنعام: الإبل، والبقر، والغنم من الضأن والمعز؛ لنأكل من لحومها، ونشرب من ألبانها، وننتفع بأصوافها، وأوبارها، وأشعارها، لعلكم تتأملون كيف أن الله سبحانه أخرج من بين الفرث والدم لبنًا خالصًا نقيًّا سائغًا للشاربين لا تشوبه قذارة.

إن هذا الغذاء الذي يأكله الحيوان، يتحول بقدرة الله ﷻ إلى دم، وإلى لبن، وإلى براز، ويخرج اللبن من بين الفرث والدم، لا يشوبه لون الدم، ولا رائحة الفرث، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس].

وقد جعل الله هذه الأنعام سُفنًا لكم في البر، تحملون عليها أثقالكم إلى بلد لم تكونوا

---

(١) «المسند» (٣/ ٤٩٧) عن أبي أسيد، مالك بن ربيعة الأنصاري، ورقمه (١٦٠٥٤، ١٦٠٥٥) قال محققوه: وإسناده ضعيف لجهالة عطاء الشامي وباقي رجال الإسناد ثقات، وأخرجه النسائي في الكبرى (٦٧٠٢) والترمذي (١٨٥٢) والبغوي في شرح السنة (٢٨٧١) والطبراني في الكبير ١٩(٥٩٦).

(٢) قرأ نافع وابن عامر وشعبة ويعقوب بنون مفتوحة في (نَسقيكم) مضارع سقى، وقرأ أبو جعفر بالتاء المفتوحة، على التأنيث، وقرأ الباقون بالنون المضمومة، مضارع أسقى.

بالغيه إلا بشق الأنفس، كما جعل لكم السفن في البحر تحملكم وتحمل متاعكم - قليلًا أو كثيرًا - إلى هنا وهناك.

٢٢- ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يربط الله سبحانه بين حمل الإنسان على الأنعام، وحمله على الفُلْك، فكلاهما مسخر لخدمة الإنسان، فقال سبحانه: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أي: وعلى الأنعام من الإبل ونحوها تُحملون في البَر ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ وهي السفن تجرى في البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾ عليها بقدرة الله ومنّته، فهذه أربع منافع من الأنعام، وهي الانتفاع بالألبان، وبالصوف، وباللحوم، وبالركوب.

١- كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

٢- وقال أيضاً: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [غافر].

٣- وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ [يس].

٤- وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٢].

وهكذا: فإن مَنْ أنعم علينا بهذه النعم، وأغْدق علينا هذه الخيرات، هو وحده الذي يستحق الشكر وعظيم الثناء، وإخلاص العبادة له، وألّا يُستعان بنعمه على معاصيه.

مِنْ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ فِي السُّورَةِ: أَوَّلًا: قِصَّةُ نُوحٍ عليه السلام

٢٣- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

وبعد أن ذكرت السورة هذه الأدلة الإيمانية الأربعة تحدثت عن حقيقة التوحيد الذي جاء به الرسل جميعًا، وبدأت الحديث عن نوح عليه السلام أول رسل الله بعد نبي الله إدريس عليه السلام، وخَتمت الحديث عن عيسى عليه السلام، وهو الرسول الأخير قبل محمد ﷺ، فابتدأت السورة بأول رسول، واختتمت بالنقطة الأخيرة قبل مجيء النبي محمد صلوات الله وسلامه عليه؛ حيث تحدثت بشيء من التفصيل عن قصة نوح، وقصة هود عليهما السلام،

ثم أجملت بقية الرسل، وذكرتْ منهم النبي قبل الأخير، وهو موسى ثم عيسى عليهما السلام بمجرد ذِكْر الاسم وذكر القوم، وبيَّنت السورة كيف استقبل القوم من جميع الأمم كلمة التوحيد، وكيف كانت استجابتهم لرسل الله.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ أي: أرسلناه بدعوة التوحيد، وهي التي يقولها جميع الرسل إلى جميع الأقوام في كل أمة، وأنه ليس لهم إله يُعبَد بحق غير الله سبحانه، قال لهم نوح: يا أهلي، ويا عشيرتي، إنه ليسُرُّني ما يسركم، ويؤذيني ما يؤذيكم، فاقبلوا دعوتي وأنا لكم ناصح أمين، أفلا تخافون الله حين تعبدون هذه الأوثان والأصنام التي أقبلتم عليها، وهي: ودٌّ، وسواع ويغوث ويعوق ونسر؟!

فأخلِصوا العبادة لله، واتركوا ما أنتم عليه من عبادة الأصنام، وقد استمر نوح عليه السلام يدعو قومه إلى توحيد الله تعالى ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم سرا وجهارا، وليلًا ونهارًا فلم يزدادوا إلا عُتوًّا ونُفورًا:

٢٤- ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾

أي فكانت النتيجة أن كذَّبه كبار القوم والأشراف، والأثرياء، وقالوا لعامتهم على سبيل التحذير من اتِّباعه: إنه إنسان مثلكم، لا يتميز عليكم بشيء، ولا فرق بينكم وبينه، ولا يريد بقوله هذا إلا رئاسة وفضلًا عليكم، فكيف يكون نبيًّا؟ هذا هو الاعتراض، وهذه هي الشبهة المتكررة من جميع الأمم على جميع الرسل؛ إذ كيف يكون الرسول بشرًا؟ والذين يقولون هذا، هُمْ في نفس الوقت يعبدون آلهة من حجر ونحوه، فهم لا يستغربون أن يكون الإله وثنًا أو صنمًا أو حجرًا، ويستغربون أن يكون النبي بشرًا.

وهم يزعمون أن الله سبحانه لو أراد أن يُرسل رسولًا لكان هذا الرسول ملَكًا، فقالوا عن نوح عليه السلام: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وقد ردَّ الله تعالى على هذه الشبهة في سورة الأنعام [٨، ٩] وفيها أن الله تعالى لو أجابهم إلى مطلبهم، ثم لم يؤمنوا لاستأصلهم العذاب، ولو كان الرسول ملَكًا لجعله الله بشرًا؛ حتى يمكنهم رؤيته ومحادثته، والتبس عليهم الأمر أيضًا.

فقالوا: ما هذا إلا بشر يريد أن يتميز، ويتفضل علينا، ولو شاء الله أن يرسل إلينا رسولًا لم يرسله من البشر، وإنما يرسله من الملائكة، ما سمعنا في الأمم السابقة، ولا فيمن سبقنا من الآباء والأجداد أن الله تعالى أرسل بشرًا، ولا سمعنا أن الإله يكون واحدًا ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم]

ولما قالوا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أخبرهم الله تعالى أن هذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

وهذا اعتراض باطل على مشيئة الله، ولو شاء الله لأنزل ملائكة كما طلبوا، ولكنهم لا طاقة لهم على رؤية الملك ومخاطبته، وكون هذا لم يحدث في آبائهم السابقين، ليس فيه حجة لهم، بل هو حجة عليهم بجهلهم وتقليد أهل الضلال.

وجملة: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ جاءت في هذه السورة دون غيرها؛ وذلك لأن سادة القوم ظنوا أن نوحًا جاء بتلك الدعوة حبًّا في الرئاسة، فخافوا على سيادتهم وزعامتهم، وكانت عبادة الأصنام قد بدأت في عهده بسبب غُلُوِّ الناس في محبة الصالحين الذين ماتوا، فأرادوا أن يقلدوهم في عبادتهم، ثم تغيرت الأجيال، فعبدهم الناس من دون الله، وكانوا قبل ذلك على التوحيد من لدن آدم ﷺ.

ومن الكفر وشدة العناد، ومن الجهل والضلال أن يصفوا نبيهم بالجنون فقالوا:

٢٥، ٢٦- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ[1]﴾

ثم اتهموا نوحًا ﷺ بالجنون، فقالوا: إن به مسًّا من جنون، فانتظِروا حتى يفيق من جنونه، فيترُك دعوته، أو حتى يموت هذا الرجل المجنون فنستريح منه.

وقولهم هذا فيه تناقض فقد أثبتوا أن له عقلا راجحًا يكيدهم به، ويريد أن يتفضل عليهم، فكيف يستقيم هذا؟

لقد أعلم الله نوحًا ﷺ بعد أن استمر يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وكان قد

(١) قرأ يعقوب بإثبات الياء في (كذبون) وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

مضى عليه قبل البعثة أربعون عامًا، وعاش بعد الطوفان ستين عامًا، فعاش نوح ألفًا وخمسين عامًا، أعلمه الله -بعد هذه المدة الطويلة من عمر الرسالة- أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فدعا ربه واستنصره عليهم كما جاء في سورة القمر، وقال: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ فأجابه ربه بقوله: ﴿فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]. وفي هذه السورة سأل نوح ربه أن ينصره على قومه؛ بسبب تكذيبهم له فيما بلَّغهم به من رسالة ربه، فأجابه ربه: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥] وأمره أن يصنع سفينة النجاة:

٢٧- ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ[1] زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

أمر الله نوحًا أن يصنع السفينة بتعليم جبريل له، أي: اصنع سفينة بأمرنا ومعونتنا، وأنت في حفظنا وتحت رعايتنا -وفي الآية إثبات صفة العين لله سبحانه بما يليق بجلاله، دون تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل- فإذا فرغت من صنع السفينة وبدأ الطوفان، وجاء أمرنا بعذاب قومك بالغرق- وكان الله قد جعل لنوح علامة على بدء الطوفان، وهي أن يفور الماء ويخرج من موقد النار، وهو التَّنُّور، الذي يُقدح فيه الخبز، فإن اقترب وقت هلاكهم، فاركبْ السفينة يا نوح أنت ومن آمن معك، وخذ معك من أصناف المخلوقات جميعًا، من كل صنف: ذكرًا وأنثى؛ ليبقى النسل، وليركب معك أهلك الذين آمنوا معك، ما عدا زوجتك الكافرة، وما عدا ابنك كنعان، الذي لم يؤمن بك، فقد استثنى الله تعالى من استحق العذاب من أهله لِكُفْره، فقال: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾. بالهلاك، كابنه الكافر.

ثم إن الله سبحانه قطع عليه الخط، ونهاه عن المراجعة في شأنهم، فقال له: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: لا تشفع لهم، ولا تدعو لهم، وهذا نهي من الله تعالى أن يشفع لابنه، أو لزوجته، أو لغيرهم ممن أراد الله هلاكهم؛ لكفرهم بدعوة نوح عليه السلام ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ لا محالة، فإن القضاء والقدر قد حتّم ذلك، قال تعالى:

---

(١) قرأ حفص بالتنوين في (كل) عوضًا عن المضاف إليه، أي: من كل ذكر وأنثى و(زوجين) مفعول به، وقرأ الباقون بترك التنوين، على إضافة كل إلى زوجين، و(اثنين) مفعول به.

٢٨- ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

ثم علَّمه ربه ماذا يقول إذا ركب السفينة، أي: إذا علَوْت السفينة مستقرًّا عليها أنت ومن آمن معك، فاحمد الله تعالى على نجاتك أنت وأهلك من الغرق قائلًا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود].

وعلَّمنا ربنا إذا ركبنا السيارة أو الدابة ونحوهما، أن ندعو بهذا الدعاء، الذي جاء في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف].

كما علمنا ربنا أن ندعوه ونطلب منه التيسير وسلامة الأسفار عند النزول في الديار:

٢٩، ٣٠- ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا[1] مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾

ثم علَّمه ربه إذا نزل من السفينة ورستْ على جبل الجودي، أن يدعو بهذا الدعاء: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ رب يَسِّر لي النزول المبارك الآمن، فأنت خير المنزلين، وفي هذا تعليم من الله تعالى لعباده أن يقولوا هذا عندما ينزلون من السفن، وقد استجاب الله دعاء نوح ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]. و ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ﴾ [هود: ٤٨].

ثم يُعقِّب الله سبحانه في نهاية القصة على أن في نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين دلالات واضحة على صدق رسل الله بما جاؤوا به من عند الله تعالى، وعلى رأسهم خاتم النبيين، وإن كنا لمُختبِرين الأمم بإرسال الرسل إليهم قبل وقوع العقاب بهم، ومن ذلك ما أهلك الله به قوم نوح، وفيه بيان أن العاقبة للمؤمنين، وسوء المنقلب للكافرين، قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر].

وقد جمَع الله لفظ (آية)، في سورة المؤمنون، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ وأفردها في سورة القمر، لأن (آية) في سورة القمر، تشير إلى السفينة وحدها، وهي هنا تشير إلى صدق نوح وكذب قومه، وتشير إلى رحمة الله بهم حين حملهم في الفلك وأغرق أهل الأرض.

---

(١) قرأ شعبة بفتح الميم وكسر الزاي من (مَنزِلًا) اسم مكان من نزل، وقرأ الباقون بضم الميم وفتح الزاي، اسم مكان من أنزل.

وما تقدم من تكذيب قوم نوح وإيذائهم له، كان ابتلاء من الله تعالى لنوح ﷺ، وهذا الابتلاء سُنَّةُ الله في خلقه، ولو شاء الله لآمن قوم نوح، ولو شاء لنصره عليهم من أول يوم، ولكن الله تعالى يميز الخبيث من الطيب، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ وتعريض بكل من كذَّب دعوة الإسلام.

ومما جاء في هذا المعنى ما جاء في حديث أبي سفيان أن هرقل قال له: وكذلك الأنبياء تُبتلى، ثم تكون لهم العاقبة.

ثانيًا: قِصَّةُ هُودٍ عليه السلام

٣١- ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾

ثم أرسل الله ﷻ بعد نوح نبيه هودًا إلى قوم عاد، وقد جاءت الإشارة إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد قوم نوح الذين نَجَوْا من الغرق، أنشأنا من بعدهم ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ هم أمة هود ﷺ قوم عاد، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

٣٢- ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾

فأرسلنا في قوم عاد رجلًا منهم هو نبيهم هود ﷺ، قال لهم ما يقوله جميع الرسل: ليس لكم معبود بحق غير الله، أفلا تخافون عقاب الله إن عبدتم غيره؟ ولكن هذه الدعوة لم ترق للرؤساء وكبار القوم، لأنها ستذهب بجاههم ومنافعهم.

٣٣، ٣٤- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾

أى فاعترض الأشراف والوجهاء من قوم عاد، الذين كفروا بالله، وكذَّبوا رسول الله هودًا ﷺ، وأنكروا الدار الآخرة، وأطغاهم ما هم فيه من النعم وترف العيش، وقالوا: ما هذا الذي يدعوكم إلى توحيد الله، ويزعم أنه رسول، إلا بشر مثلكم، يأكل من جنس طعامكم، ويشرب من جنس شرابكم، فما الذي فضله عليكم؟ فهلّا كان ملَكًا لا يأكل ولا يشرب؟ أي: أنهم قالوا لمن أُرسل فيهم ما قاله قوم نوح لنبيهم: كيف يكون

نبيًّا وهو بشر لا يتميز علينا في شيء؟!

ولئن اتبعتم بشرا مثلكم، وجعلتموه نبيا لكم، إنكم لنادمون خاسرون، ناقدون لعقولكم وهذا كقوله تعالى بالنسبة لقوم ثمود: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر].

وقد وصف الله قوم هود في هذه الآية بثلاثة أوصاف هي: الكفر بالله، والتكذيب بالبعث والحساب والجزاء، وأنهم مترفون في الحياة الدنيا.

قال الأشراف للعامة مثيرين لهم **شبهتين** لصدهم عن الإيمان به:

الشبهة الأولى: أن هودًا واحد منكم، لا يختلف عنكم في شيء، فكيف تطيعون بشرًا مثلكم، يأكل مثلكم، ويشرب مثلكم؟ هذه شبهة، فإن أطعتموه وصدقتموه فإنكم خاسرون؛ حيث أذللتم أنفسكم باتباعه.

قال أبو السعود: انظر كيف جعلوا اتباع الرسول الحق الذي يوصلهم إلى سعادة الدارين خسرانًا، دون عبادة الأصنام التي لا خسران وراءها، -في زعمهم - قاتلهم الله أنى يؤفكون[1].

وبعد أن أنكروا رسالة نبيهم أنكروا البعث بعد الموت، فقالوا:

٣٥، ٣٦- ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ[2] وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ[3] هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾

والشبهة الثانية: أن هودًا يقول لكم: إنكم إذا فارقتم الحياة، وتمزقتم كل ممزق، وتفتَّتت أجسامكم فصار بعضها ترابًا وبعضها عظامًا، فإنكم ستخرُجون للبعث بعد الموت! فكيف تصدقون ما يعدكم به هود من أنكم إذا متم وصرتم ترابًا وعظامًا مُفتَّتة

---

(١) تفسير أبي السعود «إرشاد العقل السليم» (٤/ ٣١).

(٢) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وخلف بكسر الميم من (مِتم)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٣) قرأ أبو جعفر بكسر التاء من (هيهات) معًا وهي لغة تميم وأسد، والباقون بفتحها وهي لغة أهل الحجاز، وهي اسم فعل بمعنى: بَعُد، ووقف عليها البزي والكسائي وقنبل بخلف عنه بالهاء، والباقون بالتاء، وهو الوجه الثاني لقنبل.

أنكم تخرجون من قبوركم أحياء؟! وهكذا قال الكفار لمحمد ﷺ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [سبأ].

لقد قاس الكفار قدرة الخالق بقدرتهم، فأنكروا قدرته تعالى على إحياء الموتى، ونسوا خلقهم أول مرة، وكان عليهم أن ينكروا وجودهم المحسوس حتى يسْلَم لهم إنكارهم للبعث، فلِمَ لم ينكروا خلقهم ويكابروا في المحسوسات؟ والقادر على البدء قادر على الإعادة من باب أولى، وعليهم أن ينظروا في دليل آخر، وهو إحياء الأرض بعد موتها، وقد أجاب الله به المنكرين للبعث في قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ قال تعالى ردًّا عليهم ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ وهم في جوف الأرض ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [ق: ٢-٤]

وأكثر ما تستعمل ﴿هَيْهَاتَ﴾ في الأمر البعيد الذي يستحيل حصوله، وقد استُعملت في هذه الآية مرتين، أي: أن هذا أمر بعيد جدًّا، أن تَحْيَوْا بعد أن تموتوا أيها القوم، وهذا على حد زعمهم:

٣٧- ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧﴾

أي: ما هي إلا هذه الحياة التي نعيشها، يموت فيها الآباء ويحيا الأبناء، فالأحياء يموتون ولا عودة لهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بل يموت قوم ويولد غيرهم، وهكذا قال أهل الكفر في كل زمان ومكان ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. فلا وجود -في زعمهم- غير هذا الوجود، تموت طائفة وتأتي طائفة أخرى إلى أن ينقرض العصر، فلا بعث ولا نشور ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ۝٣٥ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٦﴾ [الدخان]. وبعد أن كذبوا بالبعث، كذبوا رسولهم مرة أخرى فقالوا:

٣٨- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨﴾

قال قوم عاد: هذا رجل افترى على الله كذبًا بدعواه النبوة، ودعوتكم إلى التوحيد، وإثبات المعاد، وهؤلاء هم الذين قالوا لهود عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]. وهم الذين قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤]. ويقولون عنه هنا: إنه رجل اختلق الكذب على الله بقوله: إننا نُبعَث

بعد الموت، ولسنا بمصدقين قوله في دعواه النبوة، ولا في دعوى البعث بعد الموت، ولا في وحدانية الله تبارك تعالى.

فما عليكم إلا أن تتربصوا به الموت، ولا تعاقبوه بالقتل ونحوه، فإنه مجنون غير مؤاخذ بما يتكلم به، ولما اشتد كفرهم ولم ينفع فيهم الإنذار دعا عليهم وسأل ربه النصرة:

٣٩، ٤٠- ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠﴾

دعا هود ربه أن ينصره عليهم بسبب تكذيبهم له، فطلب وقوع العقاب بهم، بعد أن تأكد له إصرارهم على الكفر والجحود.

قال سبحانه مجيبًا دعوته: ﴿عَمَّا قَلِيلٖ﴾ أي: بعد وقت قريب جدًّا ليندمُنَّ أشد الندم على كفرهم، وتكذيبهم لك، وستنزل بهم العقوبة الصارمة:

٤١- ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾

فصاح بهم جبريل، فارتجفت الأرض من تحتهم، فجاءتهم صيحة شديدة مع ريح عاتية، كانت سبب هلاكهم، وهي صيحة حق لا اعتداء ولا ظلم عليهم فيها، بل هم مستحقون لها، فأصبحوا غثاء كغثاء السيل والورق وعيدان الحطب التي تَطْفو فوق الماء كالزَّبَد، وهذا معنى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ﴾ أي: أهلكهم الله سبحانه، فبُعدًا وهلاكًا لهؤلاء الظالمين، وبعدًا لهم من رحمة الله تعالى، فليحذر جميع المكذبين لرسل الله أن يحلَّ بهم ما حلَّ بمن سبقهم ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦﴾ [الزخرف].

﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾[1] [الدخان: ٢٩].

---

(١) نظرًا لأن هذه القصة التي سبق ذكرها، لم يصرح القرآن فيها بذكر اسم النبي المعنى بها، فقد ذهب بعض المفسرين كالطبري وابن عاشور وابن سعدي إلى أن المراد بهذه القصة هم قوم ثمود؛ نبيهم صالحًا عليه السلام، لأن هلاكهم كان بالصيحة في الصباح الباكر، كما ذكر الله تعالى عنهم في سورتي الحجر والقمر وغيرهما، ولعل ما أثبتناه هو الأرجح،فقصة هود تلى قصة نوح في القرآن كله، وقد تعدد ذكر اسم العذاب للأمة الواحدة، فتارة تذكر الرجفة، وتارة تُذكر الصيحة، أو الطاغية، أو الصاعقة، وهكذا.

ثَالِثًا: الْإِشَارَةُ إِلَى الْأُمَمِ الَّتِي تَلَتْ قَوْمَ عَادٍ

٤٢ ، ٤٣- ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾

ثم أنشأنا من بعد هلاك قوم هود أممًا كثيرة، لكل أمة أجل لا تتعداه، ولم يذكُر الله سبحانه الرسل لهذه الأمم؛ لأن قصص هذه السورة مجرد بيان لموقف الأمم من الرسل، وكيف استقبلوا حقيقة التوحيد.

والمعنى: إن هذه القرون الخالية لم يرسل الله إليهم رُسلًا، وظلُّوا متَّبعين شريعة مَنْ قبلهم من الرسل، كنوح، وهود، وصالح، ولم يؤمروا بشرع آخر، ولذا: فقد اقتصرت الآية على ذكر الأمم دون الرسل، وجاء ذكر الرسل مجملًا بعد ذلك.

ثم بيَّن سبحانه أن كل قرن من القرون بما فيه من رسول وأمة، يستوفي أجله ويمضي، وهي سُنَّة الله في خلقه، أي: أن كل أمة كذَّبت رسولها، أهلكها الله سبحانه في وقت محدد، لا يتقدم ولا يتأخر، مع أن كل رسول معه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر.

رَابِعًا: رُسُلٌ طَوَى السِّيَاقُ ذِكْرَهُمْ

٤٤- ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا[(١)] تَتْرَا[(٢)] كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

وبعد هذه القرون أرسل الله رسلًا، وهؤلاء الرسل جاؤوا تباعًا مع وجود فترة من الزمن بين كلٍّ منهم، يتْبع بعضهم بعضًا، منهم: إبراهيم، ولوط، ويوسف، وشعيب، وأيوب، ويونس، أرسلناهم إلى أمم أخرى؛ لأن إرسال الرسول يستلزم وجود أمة.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ رسولًا بعد رسول، وأمة بعد أمة، وكل أمة كذَّبت رسولها أهلكها الله، بعد أن سخروا منه واستهزؤوا به؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسْلنا)، والباقون بضمها.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بالتنوين في (تترًا) وصلًا وبإبداله ألفًا وقفًا، والألف مبدلة من التنوين، أو هي للإلحاق، وقرأ الباقون بالألف بلا تنوين وصلًا ووقفًا على أنه مصدر على وزن فعلى وألفه للتأنيث.

﴿رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات].

وقال سبحانه: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس].

ومهمة الرسل تبليغ دعوة الله إلى الأمم أن يعبدوا الله ويوحدوه سواء تبعه القوم أم كذبوه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. فأتبع الله بعضهم بعضًا في الهلاك والتدمير بسبب تكذيبهم، ولم يبق إلا أخبار هلاكهم يتناقلها الناس بينهم؛ حيث جعلهم الله أحاديث يتحدث الناس عنهم بما جرى لهم على سبيل التعجب، أمة بعد أمة، فبعدًا وهلاكًا وسحقًا لقوم لا يصدقون الرسل، ولا يطيعونهم.

خَامِسًا: مُوسَى وَهَارُونُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

٤٥، ٤٦- ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ[1] بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾

وبعد أن أهلك الله قوم نوح، وقوم هود ومَن بعدهم، أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون وملئه بالآيات والمعجزات التي أيَّد الله بها موسى، وهي العصا واليد، وهما المعجزتان اللتان اقترن بهما تحدي فرعون، فهما السلطان المبين والحجة الظاهرة بالنسبة له، أما بقية المعجزات فقد كانت بعد الخروج من البحر، وهي خاصة ببني إسرائيل، وهي: السنون، ونقص الثمرات، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، وفلْق البحر، وانفجار الحجر، ونتق الجبل، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] وقال : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣] بعد ذكر السنين ونقص الثمرات في الآية ١٣٠ الأعراف.

وأرسلنا موسى أيضًا بالسلطان المبين، وهو الحجة القوية الواضحة، التي تحمل كل عاقل على الإيمان بموسى والاستجابة لدعوته، فقد آتى الله موسى التوراة إلى جوار هذه المعجزات، ولكنها نزلت بعد هلاك فرعون وقومه، وهي حجة بينة تقهر القلوب، فتنقاد

---

(١) لم يعد الكوفي والحمصي (وأخاه هارون) آية، وعدها غيرهما.

لها، وتقوم بها الحجة على المعارضين المعاندين وقد جاء هذا أيضًا في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [غافر: ٢٣].

وكانت مهمة موسى وهارون كما جاءت في قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧]. فقد أُرسلا بالتوحيد، ولتخليص بني إسرائيل من ظلم فرعون.

ومع هذه الحجج الدامغة، والبراهين القاطعة، فإن فرعون وقومه استكبروا عن اتباع موسى وهارون، وامتنعوا عن الانقياد لأمرهما، فكانوا بهذا قومًا متطاولين على الناس، قاهرين لهم بالظلم، فقد تجبروا وطغوا، وكانوا قومًا طاغين متعالين على الناس، ظالمين لهم، وادَّعى فرعون إلى جوار ذلك الربوبية والألوهية.

قال تعالى مقررا موقف المكذبين برسالة موسى عليه السلام:

٤٧، ٤٨- ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾

أي: فأنكر فرعون وملأه على موسى وهارون أن يكونا بشرين، كما أنكر ذلك مَن قبلهم من الأمم على رسل الله، واعترضوا نفس الاعتراض، فقالوا وهم مغترون متكبرون: أنصدق رجلين من الناس مثْلنَا من البشر -يعنُون: موسى وهارون- وقومهما من بني إسرائيل لنا عابدون؟ أي: تحت إمرتنا، طائعون لأمرنا، مطيعون لنا، فهم خدم لنا، يُسَخِّرُهم فرعون، فيذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويستضعف فريقًا منهم في الأعمال الشاقة، ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٤١] وهكذا أعرض فرعون وقومه عن الإيمان بموسى وهارون، بزعمهم أن الرسول لا يكون بشرًا، وأن بني إسرائيل ومنهم موسى وهارون، بمنزلة الخدم لفرعون وحاشيته، فلا يليق بهم اتباعهما، وهذا كقول قوم نوح له ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ الشعراء: ١١١] وقولهم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧].

فكذَّب فرعون وحاشيته موسى وهارون فيما جاءا به من عند الله، فكانت النتيجة أن أغرق الله فرعون ومن كان معه، وفي هذا بيان لعاقبة فرعون وقومه لمَّا كذبوا موسى وأخاه هارون، فقد أهلكهم الله بالغرق في البحر في يوم واحد ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ

﴿فَنَبَذْنَهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القصص]. قال تعالى:

٤٩- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

أُعيد ذكر موسى في هذه الآية؛ لبيان نزول التوراة عليه بعد هلاك فرعون وقومه، أي: وبعد غرق فرعون وإهلاكه، أنزل الله التوراة على موسى؛ ليهتدي بها قومه إلى الحق، وفيها أحكام الله وأوامره ونواهيه، وقد فعل الله ذلك؛ كي يهتدي بها بنو إسرائيل ويؤمنوا بنبيهم.

وبعد أن أنزل الله التوراة، لم يُهلك أمة بعذاب الاستئصال، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، وذلك لأن الله تعالى ذكر الأمم المتتابعة في الهلاك، ثم أخبر أنه أرسل موسى بعدهم، وأنزل عليه التوراة لهداية الناس، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص]. وكان إهلاك فرعون قبل نزول التوراة، وقد صرحت آية سورة القصص، أن نزول التوراة كان بعد هلاك الأمم المكذبة لرسل الله، وأن التوراة نزلت بصائر للناس وهدى ورحمة.

ويشبه هذا المعنى ما جاء في سورة يونس ٧٥ في قوله تعالى ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

وجاء في سورة الأعراف ١٠٣ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾.

واقتصر الكلام في هذه الآية على موسى لأن التوراة نزلت عليه، ولأن هارون قد انتهت مهمته بتبليغ الدعوة لفرعون وملئه، وكان موسى قد سأل ربه إشراك أخيه هارون معه في تبليغها له؛ لأنه أفصح منه لسانًا في بيان الحجة والبرهان، وكانت لفرعون يد على موسى بتربيته في بيته.

وقد أهلك الله فرعون، وخلّص بني إسرائيل من عذابه، ونجاهم مع موسى ﷺ وتمكن من إقامة أمر الله فيهم، ووعده الله أن ينزل عليه التوراة بعد أربعين يومًا ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقال الله تعالى هنا ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي يثوبون إلى رشدهم ويرجعون إلى ربهم، فيعقلوا عنه أمره ونهيه وثوابه وعقابه، فيعبدوه ويطيعوه، وقد فصلت سورة الأعراف وغيرها ما كان منهم من مخالفة أوامر الله عز وجل.

سَادِسًا: نَبِيُّ اللهِ عِيسَى عليه السلام

٥٠- ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ[1] ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾

وتأتي النقطة الأخيرة قبل رسالة محمد ﷺ في سلسلة رسل الله جميعًا، عن نبي الله عيسى عليه السلام، ولما كانت ولادته ﷺ معجزة دالة على قدرة الله سبحانه، كان الاهتمام بذكر ميلاده هنا دون ذكر الرسالة، لأنها دالة على صدق رسالته؛ إذ كيف حملتْ مريم بعيسى؟! وكيف ولدتْه بغير أب، كما خلق الله آدم من غير أب ولا أم، وكما خلق حواء من غير أم؟! وكانت ولادة عيسى من غير أب معجزة عظمى دالة على قدرته تعالى، وقد ألجأه الله هو وأمه ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أي: إلى مكان مرتفع في بيت المقدس فيه راحة ومياه جارية، حيث أوحى الله لمريم أن تنعزل بعيسى من قومها مكانًا بعيدًا حين اقترب مخاض ولادته، فقال تعالى: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢﴾ [مريم]. وفي هذا منة من الله تعالى على عيسى وأمه.

والقرار: هو المكان المستوي الصالح للاستقرار عليه، فيه خصوبة من الحبوب والثمار، وفيه مياه جارية ظاهرة للعيون، وقد اكتملت فيه كل الخصائص، وهو أهل لأن يُستقرَّ فيه، ويرجَّح أن هذا المكان هو بيت لحم في فلسطين؛ لأن ولادة عيسى كانت فيه، والمَعِين هو النهر الجاري الذي فجَّره الله من تحتها، وهو وارد في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤﴾ [مريم]. وهناك أماكن أخرى ذهبت به مريم إليها في طفولته وصباه وهي: دمشق ومصر.

وفي ذكر أم عيسى في الآية رد على اليهود وتسفيه لهم فيما رموها به من إفك.

ويقال: إن الملك الحاكم آنذاك أراد أن يُخرج عيسى وأمه، ففرت به أمه، وذهبت به إلى مصر، وإلى غوطة دمشق، وإلى أماكن أخرى متفرقة، واستمر ذلك قرابة اثني عشر عامًا، ثم رجعت به إلى مكانها بعد أن مات هذا الملك.

---

(١) قرأ ابن عامر وعاصم بفتح الراء من (رَبوة)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

سَابِعًا: نِدَاءٌ إِلَى رُسُلِ اللَّهِ جَمِيعًا

٥١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

تحدثت سورة المؤمنون -كما أسلفنا- عن رسل الله الكرام من لدن نوح ﷺ، وذكرت قبله آدم في قصة الخلق، وطوَّفت بنا حتى وصلت إلى عيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وفي نهاية هذا الحديث وجَّه الله ﷻ النداء إلى الرسل جميعًا بما يُشعِر أن هذا النداء وُجِّه إلى كل رسول في زمانه، والموجود منهم وقت نزول هذه الآية هو النبي محمد ﷺ المنزل عليه هذا القرآن العظيم، ومنه هذه الآية، وفيها يأمر الله ﷻ رسُلَه جميعًا أن يأكلوا من الحلال الطيب الذي لا شبهة فيه، ولا تشُوبه شائبة، ويأمرهم سبحانه أن يشكروا الله تعالى بقلوبهم وجوارحهم على هذا الرزق الحلال، ويتزودوا بالعمل الصالح، فيعملوا الصالحات من الفرائض والنوافل، والإكثار من أعمال الخير والبر.

والله ﷻ عليم بما يعملون، فهو جلَّ شأنه يحاسبهم ويجازيهم يوم القيامة على ما قدمت أيديهم، وجميع الرسل متفقون على إباحة الطيبات وتحريم الخبائث، كما اتفقوا على توحيد الله تعالى ومحبته، وأن محمدا ﷺ هو خاتم الرسل والأنبياء.

والأكل من الحلال له أثر في قبول العمل الصالح، فاللحم الطيب يَنْبُت مِنْ تحرِّي الحلال في المطعم والمشرب، والأكل من الحلال الطيب يجعل الأنفاس مباركة، والدعاء مقبولًا، والعبادة مقبولة.

واللحم الخبيث الذي ينبُت من أكل الحرام، تكون أنفاس صاحبه خبيثة، وعمله وقوله مردودين عليه؛ وقد جاء في الحديث ما يفسر هذه الآية:

١- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يا أيها الناس، إن الله تعالى طيِّب لا يقبل إلا طيِّبًا، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة]. ثم ذكر: «**الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يارب يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام،**

وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك»[١].

٢- وعن أم عبد الله أخت شداد بن أوس، أنها أرسلت إلى النبي ﷺ بقدَح مِنْ لبن، عند فِطْره وهو صائم، وذلك في أول النهار وشدة الحر، فردَّ إليها رسولها: **«أنَّى كانت لك الشاة»**؟ فقالت: اشتريتها من مالي، فشرب منه. فلما كان الغد أتته، فقالت: يا رسول الله، بَعثْتُ إليك بلبن، مُرْثيةً لك من طول النهار وشدة الحر، فرددتَ إليَّ الرسول فيه؟ فقال لها: **«بذلك أُمرت الرسل، ألَّا تأكل إلا طيِّبًا، ولا تعمل إلا صالحًا»**[٢].

ومعنى قولها: رددتَ إليَّ فيه، أي أنه سألها عن مصدر اللبن، ومن أين آلت لها الشاة التي حلبتها، وهكذا بقية الرسل، ومنهم نبي الله داود عليه السلام.

٣- فقد أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن جعفر بن سليمان، وعبد الوهاب بن أبي حفص قال: أمسى داود عليه السلام صائمًا، فلما كان عند إفطاره أُتي بشَرْبة لبن، فقال: من أين لكم هذا اللبن؟ قالوا: مِنْ شاتِنا، قال: ومن أين ثمنها؟ قالوا: يا نبي الله، من أين تسأل؟ قال: إنا معاشر الرسل أُمرنا أن نأكل من الطيبات ونعمل صالحًا[٣].

وفي الآية رد على من زعم أن الرسل لا ينبغي أن يكونوا بشرًا يأكلون ويشربون، فبيَّن سبحانه بقوله: ﴿كُلُوا﴾ أن الأكل لا ينافي الرسالة، وأن الذي أرسلهم أباح لهم الأكل.

وفي الأمر لهم بأكل الطيبات، إشارة إلى أن الرسل من شأنهم اجتناب الخبائث والمحرمات والمكروهات، وهمة الرسل تنصرف إلى العمل الصالح أكثر مما تتوجه إلى مُتع الحياة، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [المائدة: ٩٣].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٠١٥) والبخاري في رفع اليدين (٩٤) والترمذي برقم (٢٩٨٩) وأحمد (١٤/ ٨٩) برقم (٨٣٤٨)، والدارمي (٢٧١٧) والبيهقي (٣/ ٣٤٦) وفي إسناده فُضَيْل بن مرزوق، صدوق، حسن الحديث.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٢٥) من طريق المعافى بن عمران عن أبي بكر بن أبي مريم به نحوه، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: قلت: وابن أبي مريم واهٍ، وأخرجه أحمد في «الزهد» ص ٣٩٨ وغيرهما.

(٣) البيهقي في الشعب (٥٧٦٩).

وقد أوصى الله تعالى كل رسول بالأكل من الطيبات، والإكثار من العمل الصالح إرشادًا لأمته وتحذيرًا لهم من المحرمات، يدل عليه نهاية الآية ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من أمركم، وسيوفِّيكم جزاءكم.

وفي الآية دليل على أن أكل الحلال عون على العمل الصالح، وأن عاقبة الحرام وخيمة، ومنها ردُّ الدعاء.

دِينُ اللَّهِ وَاحِدٌ

٥٢- ﴿وَإِنَّ(١) هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ(٢) ﴿٥٢﴾﴾

بيَّن الله ﷻ أن ملة الإسلام دينها واحد من لدن آدم إلى محمد، وهو التوحيد. فأصول الشرائع واحدة، والعقيدة واحدة، وأساس ما جاء به الرسل جميعًا واحد، وهو التوحيد الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وأصول العبادات لا تختلف في جميع الشرائع السماوية، وإن اختلفت في الفروع بما يناسب مراحل تكاليف الأمم، أمة بعد أمة، فأمتكم -معشر الأنبياء- أمة واحدة، وشريعتكم واحدة، ودينكم واحد، وهو الإسلام ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وربكم واحد، فامتثلوا ما أمركم به، واجتنبوا ما نهاكم عنه.

وقد خُتمت هذه الآية بالأمر بالتقوى؛ لأنها جاءت بعد إرسال الرسل إلى أقوامهم بالتوحيد وترك الشرك، فكان ذكر الأمر بالتقوى هنا أنسب بالمقام؛ لأن الرسل المخاطبين في الآيات مأمورون بالتقوى وبالزيادة عليها، فقد قال تعالى في حق رسوله محمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ [المزمل]. وقال في حق الأمة: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠].

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بفتح الهمزة وتشديد النون من (وإن هذه) على تقدير حرف الجر قبلها، أي ولأنَّ، وهذه اسمها، وأمتكم خبرها، وقرأ ابن عامر بفتح الهمزة وتخفيف النون على أنها مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، واللام مقدرة قبلها، وهذه مبتدأ، وأمتكم خبر، والجملة خبر إن، وقرأ الباقون بكسر الهمزة وتشديد النون على الاستئناف، وهذه اسمها، وأمتكم خبرها.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء وصلًا ووقفًا من (فاتقون)، والباقون بحذفها.

أما آية سورة الأنبياء فقد خُتمت بالأمر بالعبادة؛ لأن المقصود منها هناك تبليغ الرسل إلى أقوامهم، فكان ذكر العبادة أنسب؛ لأن حظ الأمم منها أكثر.

اخْتِلَافُ الأُمَمِ فِي الدِّينِ الْوَاحِدِ

٥٣- ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ[1] فَرِحُونَ ۝٥٣﴾

ومع أن الرسل جميعًا جاؤوا بالتوحيد من عند الله تعالى، إلا أن الأمم اختلفوا وتفرقوا في هذا التوحيد، فتعدد المعبود، كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي على دين واحد هو التوحيد، فاختلفوا وأشركوا مع الله غيره ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] أي: حين اختلفوا وتفشى فيهم الشرك ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ﴾ أي: أصبحوا متفرقين في دينهم، وصاروا أحزابًا وفرقًا وشيعًا، منهم من اتبع التوراة، ومنهم من اتبع الإنجيل، ومنهم الملحد والعلماني، ومنهم المسلم، ومنهم عبدة الأوثان وهكذا، فكان منهم الكافر ومنهم المؤمن.

وأهل الديانة الواحدة تفرقوا، فاليهود تفرقوا فرقًا، والنصارى كذلك، وأمة محمد أيضًا ظهرت فيهم الفرق والأحزاب، فالإنجيل الواحد المنزَّل على عيسى أصبح أناجيل، واليهود يقولون: عزير ابن الله، والنصارى يقولون: المسيح ابن الله، وكلاهما حرَّف وبدَّل في دين الله وفي كتاب الله، والوثنيون عُبَّاد الأصنام مختلفون، وكذا غيرهم ممن لا دين لهم، كلهم ملل ونحل مختلفة، قد تعددت معبوداتهم.

والمفروض أن يكون الناس جميعًا أمة واحدة، يؤمنون برب واحد، ودين واحد، ويؤمنون بالرسول الخاتم، وبالقرآن الذي نزل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران]. ولكن الأمة تفرقت، وتنازعت أمر التوحيد بينها، حتى مزَّقته وقطَّعته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝١٥٩﴾ [الأنعام].

وأهل كل حزب، وكل فرقة، وكل شيعة، وكل فئة، قد أوصدوا الباب على أنفسهم،

---

(١) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (لديهُم)، والباقون بكسرها.

فأصمُّوا آذانهم على ما ورثوه ودرسوه، ولم يتجردوا من الهوى والتعصب، ولم يستمعوا لغيرهم، ولم يناقشوا الحق من حيث هو، ولم يتحرروا من ربقة ما ورثوه وتعلَّموه، ولم يبحثوا عن الحقيقة، وإنما أغلقوا الباب والنوافذ على أنفسهم، وكل حزب منهم فرح بما هو عليه، من غير تبصُّر ولا مناقشة، فعكف على ما هو عليه، وذمَّ غيره، وكفَر به، من غير برهان ساطع، والدين الواحد صار ديانات، ويزعم كل فريق منهم أنه على حق، وغيره على باطل، ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ والآية تحذر من التحزب والتفرق في الدين، وتأمر باتباع الشريعة التي ختم الله بها رسالاته.

وُجُوبُ تَرْكِ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ

٥٤- ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

والله ﷻ يقول لنبيه ﷺ: دع هذه الفرق الضالة، من الذين خرجوا على ملة التوحيد، واتركهم في ضلالهم، وفي جهلهم وغيِّهم وفسادهم، فليسوا أهلًا للهداية، فاتركهم حتى ينقضي أجلهم، ويفاجئهم المصير، وحتى ينالوا جزاءهم يوم لقاء رب العالمين.

قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر]. وقال سبحانه: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧].

والغمرة: هي الشيء الذي يغمر الإنسان فيغطِّي عقله، ويصمُّ أذنه، ويعمي عينيه عن النظر الصحيح، فهو مغمور فيه، كالذي يغمره الماء، ويغطي قامته كلها.

كَثْرَةُ النِّعَمِ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى رضى اللَّهِ تَعَالَى

٥٥، ٥٦- ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾

وغير المسلمين يأخذون نصيبهم في الحياة الدنيا أوْفَى وأكثر من المسلمين، فهم أكثر أموالًا، وأكثر جاهًا، وأكثر متاعًا، وأقوى جندًا، وسياسة واقتصادًا.

فلا تظن - أيها المخاطب - أن ما يعطيهم الله من الخيرات، دليل على أنهم من أهل

السعادة في الدنيا والآخرة،فليس الأمر كذلك، لأن الله تعالى يمهلهم ويزيدهم ليزدادوا إثما وليغتبطوا بما أوتوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤]

والله ﷻ يبيِّن أن كثرة المال والمتاع والولد، ليست علامة على رضى الله سبحانه، وإنما قد تكون الأموال استدراجًا للعبد؛ ليستمر في طريق الخطأ، والكفر والضلال، فلا يظن غير المسلمين في كل زمان ومكان أن ما نَغْدِقُه عليهم من صنوف النعم، وكثرة الأموال والمتاع، وما هم فيه من التقدم العلمي في العلوم التجريبية، لا يظنون أن هذا مسارعة من الله ﷻ إليهم في الخيرات لأنهم يستحقونها، أو أن هذا دليل رضوانه تعالى عليهم! كلا، بل هم لا يعلمون أننا نعجل لهم الخير في الدنيا فتنة واستدراجًا؛ لكي تسجل عليهم الملائكة نتيجة اختبارهم، وتقوم عليهم الحجة يوم القيامة.

فلا تغتر -أيها المسلم- بما هم فيه من ظهور على الساحة العالمية، فإن مصيرهم إلى زوال وعاقبتهم إلى خسران، قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران].

عن يزيد بن ميسرة قال: أجد فيما أنزل الله على موسى: أيفرح عبدي المؤمن أن أبسُط له الدنيا وهو أبعد له مني؟ أوْ يجزَع عبدي المؤمن أن أقبض عنه الدنيا وهو أقرب له مني؟ ثم تلا الآيات[١].

ولما جيء لعمر بن الخطاب ﷺ بِثَرْوَةِ كِسْرى، وفيها سواره، خشي على نفسه أن يكون هذا استدراجًا له، ومكْرًا من الله به، وقرأ هاتين الآيتين[٢].

أخرج الإمام أحمد وغيره عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده، لا يسْلَم عبد حتى يَسْلَم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه**»، قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: «**غشْمُه وظُلْمه، ولا يكسب عبد مالًا من حرام فينفق منه فيبارَك له فيه، ولا**

(١) يُنظَر: «الدر المنثور» (١٠/ ٥٩٩) عن ابن أبي حاتم بتصرف.

(٢) يُنظَر: البيهقي (٦/ ٣٥٨).

يتصدق به فيُقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»[1].

وقال سبحانه: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم]. فهو ابتلاء وامتحان؛ كي يَظْهَر في عالم الوجود ما علمه الله سبحانه عنهم أزلًا، فتسجله عليهم الملائكة في صحف أعمالهم؛ ليكون حجة عليهم يوم الحساب والجزاء.

أَرْبَعُ صِفَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي ثَوْبٍ آخَرَ

بعد الحديث عن الكفار ناسب المقام أن يبيِّن سبحانه أوصاف عباده المؤمنين الذين ذُكروا في أول السورة؛ حيث جاء وصفهم **بأربعة أوصاف** في هذه الآيات:

الْوَصْفُ الأَوَّلُ: شِدَّةُ الْخَوْفِ مِنَ اللهِ تَعَالَى

٥٧- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

إنهم شديدو الخشية والخوف من عقاب الله تعالى، مع إيمانهم وإحسانهم، وعملهم الصالح، ورقة قلوبهم، فهم يعبدون ربهم رغبًا ورهبًا، ويدعونه تضرُّعًا وخُفية، ويتوجّهون إليه بقلوبهم وعقولهم آناء الليل وأطراف النهار.

قال الحسن البصري: المؤمن جمَع إحسانًا وخشية، والمنافق جمَع إساءة وأمنًا.

الْوَصْفُ الثَّانِي: التَّصْدِيقُ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى

٥٨- ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾

أي: أنهم يُصدِّقون بآيات الله القرآنية، وآياته المنزلة على سائر رسله، وكذا آياته الكونية التي تدعو إلى توحيد الله ﷻ، وتدل على آثار قدرته تعالى في هذا الكون العظيم،

---

(١) «المسند» (١/ ٣٨٧) برقم (٣٦٧٢) بإسناد ضعيف، لضعف ابن حازم البجلي، وبقية رجاله ثقات، (محققوه) وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ١٦٦) والبزار في الزوائد (٣٥٦٢) والبيهقي في الشعب (٥٥٢٤) والبغوي (٢٠٣٠) والحاكم (٢/ ٤٤٧) والبخاري في التاريخ (٤/ ٣١٣).

فهم يؤمنون إيمانًا راسخًا بآيات الله الشرعية والكونية، ويعملون بمقتضاها، طلبًا لمرضاته، وابتغاء وجهه، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا، ويتفكرون في آيات الله القرآنية فيتدبرونها ويعملون بما فيها، ويتفكرون في آيات الله الكونية فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: الْإِيمَانُ الرَّاسِخُ

٥٩- ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾

إن إيمانهم بالله ورسله إيمان خالص راسخ لا يشوبه نفاق، ولا رياء، ولا شرك خفي، بل يوحدونه، ويخلصون له العبادة وحده، فهم لا يشركون مع الله تعالى غيره في عبادتهم ولا في دعائهم ولا نذرهم ولا ذبحهم، ولا يطلبون العون والمدد إلا منه سبحانه، فهم لا يحلفون إلا به، ولا يستعينون إلا به سبحانه، ولا يسألون غيره جلْب خير ولا دفع ضُرّ.

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: بَذْلُ الْجَهْدِ فِي الطَّاعَةِ

٦٠، ٦١- ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾

إنهم يبذلون الجهد والطاقة في عبادة الله ﷻ، من صلاة وصيام وزكاة وحج، سِيَّمَا بذل الأموال في وجوه الخير، والبر، والصدقة، والصلة، والنفقة، وكل أصناف العطاء وأعمال البر بصفة عامة، ومع ذلك فهم يرجون رحمة الله، ويخشون عذابه، ويخافون من الله تعالى ألَّا يقبل منهم طاعتهم، فهم يتصدَّقون ويصومون ويصلُّون ويفعلون الخيرات والمبرات، وهم مع هذا قلوبهم خائفة من الحساب والجزاء، يفعلون الصالحات بقلوبهم وجوارحهم، ويخافون ألا يكون الله راضيًا عنهم، ويظنون أن ذلك لا ينجِّيهم من عذاب الله تعالى، ولديهم إحساس بالتقصير، وأن هذه الأعمال قد لا تنجيهم من عذاب الله تعالى لعلمهم بِعظَم حق الله عليهم.

وقد لا يجد بعضهم ما يتصدق به، مع حرصه الشديد على المسارعة في الخيرات، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ، أن أهل الصُّفَّة قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم،

قال ﷺ: **«أوليس الله قد جعل لكم ما تَصَدَّقون به، إن لكم بكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة»**[١].

وقال أبو مسعود الأنصاري: لمَّا أُمِرْنا بالصدقة، كنا نحاول، فيصيبُ أحدنا المُدَّ، فيتصدق به.

ومما يشير إلى معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾ [الإنسان].

وهؤلاء المؤمنون يخشون هذا اليوم الذي يَلْقون فيه ربهم، إنهم يخافون مِنْ يوم يعرضون فيه على رب العالمين، ويرجعون فيه إلى الله ﷻ، فيحاسبهم ربهم على ما قدمت أيديهم.

سألت أم المؤمنين عائشة ﵂ رسول الله ﷺ عن هذه الآيات فقالت: أهو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله ﷻ قال: **«لا يا ابنة الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله ﷻ»**[٢].

فهو الذي يفعل الخيرات، ويخاف رب العالمين.

وهؤلاء المسارعون في الخيرات، المجتهدون في الطاعات، دأْبهم المبادرة إلى كل عمل صالح، والتنافس في الإكثار من عمل الصالحات، فهم سابقون إليها، عاملون بقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]، وقوله: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾ [آل عمران].

قال الفخر الرازي: واعلم أن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحُسْن.

---

(١) يُنظَر الحديث في «صحيح البخاري» (٨٤٣) و«صحيح مسلم» (٥٩٥) وغيرهما.

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٤٢/١٥٦) برقم (٢٥٢٦٣، ٢٥٧٠٥) وفي إسناده ضعف لأن عبدالرحمن بن سعيد لم يدرك عائشة، وبقية رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين كما قال محققوه، والترمذي برقم (٣١٧٥) وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٣٣٨٤) وهو في ابن جرير (١٧/ ٧٠) و«المستدرك» (٢/ ٣٩٣)، والطبراني في الأوسط (٣٩٧٧) والحميدي (٢٧٥).

فالصفة الأولى: دلَّت على حصول الخوف الشديد، الموجب للاحتراز عما لا ينبغي.

والثانية: دلَّت على التصديق بوحدانية الله تعالى.

والثالثة: دلَّت على ترك الرياء في الطاعات.

والرابعة: دلَّت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاث يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصدِّيقين، رزقنا الله الوصول إليها[1].

تَكَالِيفُ الشَّرْعِ لَيْسَتْ فَوْقَ طَاقَةِ الْبَشَرِ

٦٢- ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

يبيِّن جلَّ شأنه أن ما أمر به المتقين من الطاعات والخيرات، وجميع ما ورد في الشرع من تكاليف، ليس أمرًا فوق طاقة الناس؛ فالله سبحانه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وقد رفع الله جلَّ شأنه الحرج عن هذه الأمة، ويسَّر عليها في التكاليف بشكل عام، وخاصة على المريض والمسافر ونحوهما، ولم يكلف عبدًا من عباده إلا بما يسعه العمل به، فلم يكلفهم فوق الطاقة، ولا ما يشق عليهم.

وعِلْم الله تعالى محيط بأحوالهم ونواياهم، وأعمالهم مسطَّرة في صحيفة الأعمال التي تسجلها عليهم الملائكة، وتنشُرها يوم القيامة، وشأنهم مسجل في الكتاب الأول الذي فيه كل شيء، وهو يطابق كل واقع يكون.

وصحف الأعمال تنطق بالحق، وكلها حق وصدق، فيها جميع أقوالكم وأفعالكم في الدنيا، ليس فيها زيادة ولا نقصان، والناس لا يُزادُون في السيئات، بل يعفو سبحانه ويصفح، ولا يُنقَصون من الحسنات، بل يزيد ويضاعف، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية].

وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء].

---

(١) «التفسير الكبير» (٢٣/ ١٠٧).

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

٦٣- ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يصف القرآن الكريم قلوب الكفار المكذبين بأنها في جهالة وفي ضلالة، مهما مرَّت بهم آيات الهداية، فإن الغفلة والإعراض تمنع وصول الهداية إليهم ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء] ولهم أعمال أخرى دون الكفر والشرك، وهي أعمال سيئة كثيرة جمعوا فيها بين الكفر وسوء العمل ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾.

أي: سوف يعملونها في المستقبل، وإذا عملوها استحقوا غضب الله وعقابه، فالله جلَّ شأنه يخبر عما حدث وعما سيحدث منهم.

وفي حديث ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «... **فوالذي لا إله غيره، إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»(١).

الاسْتِغَاثَةُ عِنْدَ نُزُولِ الْعَذَابِ لَا تُفِيدُ

٦٤، ٦٥- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾

أي: حتى إذا أخذنا بالعذاب المباغت المفاجئ، أكثر الناس استغراقا في المتاع والانحراف، والذهول عن المصير الأخروي، من أهل البطر والكبْر، إذا هم يرفعون أصواتهم ويصيحون متضرعين، ومستغيثين كي يرفع الله عنهم العذاب، والمترفون هم أشد الناس إحساسًا بالعذاب؛ لأنهم لم يعتادوا مسَّ الضر والألم.

والمترف: هو الزائد في النعم، البطر، الأشر، الذي يبطره الغنى، ويلهيه عن طاعة الله تعالى وذكره.

---

(١) حديث ابن مسعود في صحيح مسلم برقم (٢٦٤٣) وصحيح البخاري برقم (٣٢٠٨) وغيرهما.

أما الذي عنده أموال من حلال، ويُخرج الزكاة عنها، وينفع المسلمين، ولا تُلهيه ولا تُنسيه طاعة ربه، ولا يستعملها فيما حرم الله، فهو رجل صالح، وفيه نفع كبير للمسلمين، وخيره يعم، ونفعه لا يقتصر عليه، إنما يتعداه إلى غيره.

إنما المترف المذموم، هو البطر الأشر، الذي يطغى ويتجبر ويفسُق ويعْصىٰ، وهو ممن قال الله عنه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق].

وهو الذي يمنع زكاة ماله، ويأخذ نصيبه الوافي من المتع والرفاهية في الدنيا، ثم يُعذب يوم القيامة، وهو الذي عَنَتْهُ هذه الآية ممن يجأرون ويضجّون من العذاب الذي لحق بهم في دنياهم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾ [المزمل].

فتقول لهم الملائكة عند حلول العذاب بهم: لا تجأروا اليوم، لا تضجُّوا ولا تستغيثوا؛ فليس هناك من مغيث، ولا دافع يدفع عنكم العذاب، ولا يوجد من يمنعكم من دون الله تعالى.

والجؤار: هو النداء والدعاء على النفس بالويل والهلاك، كما قال تعالى: ﴿فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣].

وقال: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣﴾ [الفرقان].

وهذا الجؤار الذي يكون يوم حلول العذاب بهم، يحكيه الله تعالى عنهم ويُعْلِمهُم به مُسْبقًا؛ ليخوفهم منه قبل أن ينزل بهم؛ إذ عند نزوله لا يفيدهم نداء ولا استغاثة، ولا صراخ ولاعويل، فلا يطمع أحد في كشفه عنه.

ثم بين سبحانه في الآية التالية السبب الذي أوْصَل المترف إلى هذه الحال:

الإِعْرَاضُ عَنِ الْقُرْآنِ مِنْ أَسْبَابِ الْعَذَابِ

٦٦، ٦٧- ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ[1]﴾.

---

(١) قرأ نافع بضم التاء وكسر الجيم من (تُهجِرون) مضارع أهجر، وقرأ الباقون بفتح التاء وضم الجيم مضارع هجر، يقال: هجر في القول، إذا هذي فيه، وأهجر في القول، إذا أفحش فيه.

بيَّن سبحانه في هذه الآية الأسباب التي أفضت بالمترفين إلى العذاب، بأنهم كانوا في الدنيا معرضين وغافلين عن آيات الله تعالى، وعن هذا الكتاب الذي يتلى بين أظهرهم؛ فقد كان القرآن يتلى عليكم لتؤمنوا به، وتعملوا بما فيه، فكنتم تَنفرون من سماعه ومن التصديق به، والعمل بما فيه، وكنتم في غفلة وإعراض وذهول عنه، وكنتم ﴿عَلَىٰٓ أَعۡقَـٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ﴾ أي: ترجعون إلى الخلف، كما يفعل الناكص على عقبيه برجوعه إلى الوراء، فتتكبرون وتُعرضون عن آيات الله بما أُوتيتم من مال ومنصب وجاه، فإذا دُعِيتم إليه وحده أبيتم، وإن وجدتم الشرك أسرعتم إليه، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾ [غافر: ١٢].

أخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير قال: كانت قريش تسمُر حول الكعبة، ولا تطوف بها، ويفتخرون بها، فأنزل الله هذه الآية(١).

أي أنكم كنتم تُعرضون عن آيات الله وأنتم مستمرون في اللهو والبطر والشهوة والشبهات، وتفعلون ذلك مستكبرين على الناس بغير الحق، كما جاء في أسباب نزول الآية أن المشركين كانوا يجلسون في بيت الله الحرام حول الكعبة ليلاً، يَسمُرون فيسخرون من القرآن، ويخوضون فيه، ويسخرون من النبي ﷺ،كما قال تعالى: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ [النجم].

وكانوا يحاولون أن يُلْهوا المؤمنين ويصرفوهم عن سماع القرآن، وَيلْغَوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ۝٢٦﴾ [فصلت].

وهؤلاء المشركون الذين كانوا وقت التنزيل وكذا أمثالهم إلى يوم القيامة، وصفهم ربنا في الآية السابقة بأنهم كانوا مستكبرين بسبب خدمة الحرم، فيعتقدون أنهم أكبر الناس منزلة، وأن لهم أعظم الحقوق عليهم، يقولون:[نحن أهل الحرم، ولا ينبغي لأحد أن يظهر علينا، ونحن فوق الناس، نتميز عنهم بمجاورة بيت الله الحرام، ويقولون: نحن لا نخاف أحدًا، ونحن أهل بيت الله ووُلاته، فهم يستكبرون بخدمتهم ورئاستهم لبيت الله الحرام في الجاهلية قبل الإسلام، وكان مجلسهم عند الكعبة يسخرون فيه من الإسلام،

---

(١) «أسباب النزول» للسيوطي ص ٢٦١، و«زاد المسير» (٥/ ٤٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٣٧).

ومن رسول الإسلام، وهذا لا يستقيم ولا يناسب القائمين على بيت الله الحرام! فكيف تقولون إنكم أهل بيته وأنتم تتسامرون حوله بسيِّئ القول والكفر والباطل وهَجْر الحق؟!

فالضمير في ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ يعود على الحرم المعهود للمخاطبين، أي: أنهم بسبب الحرم وخدمتهم له، ودعواهم أنهم أهله، يتكبرون على الناس ويترفعون عليهم، ويفعلون موجبات الكفر والفجور. ومعنى: ﴿سَٰمِرًا﴾ أي جماعة من المعاندين المكذبين، يتحدثون بالليل حول البيت يقولون كلامًا فيه هجر وقبح يتعلق بالقرآن، ولذا استحقوا العقوبة وعدم النصرة، والتوبيخ على قبيح أفعالهم وأقوالهم.

تَفْنِيدُ خَمْسَةٍ مِنْ شُبَهِ الْمُكَذِّبِينَ بِخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ

٦٨، ٦٩- ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول الله ﷻ منكرًا على المكذبين تكذيبهم في **خمس نقاط**، هي **استفهامات** عن سبب إعراضهم، واستمرار قلوبهم في جهل وغمرة، إلى أن حلَّ بهم عذاب الله تعالى، وفي هذه الآيات إحصاء لأنواع ضلالهم وخطئهم، وقَطْعٌ لحُجَجهم ومعاذيرهم، وتنبيه لهم بأن صفات الرسول ﷺ كلها تدل على صدق دعوته، فجاء الإنكار عليهم **بخمسة أمور** في صورة استفهام:

الإنكار الأول: عدم تدبر القرآن

وقد جاء هذا في قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ أي أَفَلَمْ يتدبروا هذا القرآن الذي يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله، فيتفكروا فيه ويتأملوه، ولو أنهم فعلوا ذلك لأوجب لهم الإيمان ولمنَعهم من الكفر، ولكنهم أعرضوا، فأصابهم ما أصابهم، وذلك لأن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير ويعصم من كل شر، ويؤدي إلى الاعتبار بما فيه من الحق المبين، والدلائل الواضحة على صدق محمد ﷺ. ويأخذ بأيديهم إلى طريق الهدى والرشاد.

وفي هذا الاستفهام، إنكار عليهم لعَدم تفهُّمِهم ما يتلى عليهم من القرآن، ومقابلة النعمة التي أسداها الله إليهم بعدم قبولها، وعدم القيام بشكرها، والعمل بمقتضاها، ولو أنهم تدبروا القرآن ونظروا في معجزاته وصحة أغراضه لعلموا أنه الحق.

والتَّدَبُّر: إعمال النظر العقلي في الدلائل التي لا تظهر للمتأمل بادئ الأمر. ولو أنهم تدبروا القرآن لوجدوا فيه من العظات والآداب، والأحكام والقصص، والعقائد والتشريعات، ما يسعدهم ويهديهم إلى الصراط المستقيم، ويجنِّبهم ما نزل بمن قبلهم من المكذبين، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]. وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد].

فاستمرارهم في العناد بسبب عدم تدبرهم للقرآن، هو إحدى العلل التي غمرت قلوبهم بالكفر.

الإنكار الثاني: أن ما جاهم به محمد ﷺ ليس بدعًا من الرسل

وقد جاء هذا في قوله تعالى ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي أكَذَّبوا رسولهم؛ لأنه جاءهم بما لم يأت به الرسل السابقون لآبائهم وأسلافهم، فاستبعدوه وكفروا به؟ أي: أَمْ أَنَّ هذا النبي قد جاءهم بشيء مبتدع. لم ينزل به رسول من قبل، فجاءهم بشيء غير مألوف لهم ولآبائهم، فلذلك أنكروه واستبعدوه، ومنَعهم من الإيمان بمحمد ﷺ، كما قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزخرف].

والجواب: إن ما جاء به محمد ﷺ من الإيمان بالله واليوم الآخر، وغير ذلك من أصول التشريع هو الذي جاء به كل رسول من عند الله، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ﴾ [الأحقاف: ٩]. فلا وجه لكفرهم وتكذيبهم.

الإنكار الثالث: أن محمدًا ﷺ لم يكن مجهولًا لديهم

وقد جاء هذا في قوله تعالى ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي أم أن السبب الذي منعهم من اتباع الحق أنهم لم يعرفوا محمدًا ﷺ حق المعرفة، فلذا أنكروا رسالته؟ مع أنه ﷺ قد وُلد ونشأ وبُعث بينهم، فهم يعرفون أصله وفصله، وحسبه ونسبه، وكانوا

يلقبونه بالصادق الأمين قبل بعثته، ولذا أنكر الله عليهم ذلك في قوله تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

ولهذا قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك، إن الله بعث إلينا رسولًا منّا نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، وبمثل هذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى.

وهكذا قال أبو سفيان لهرقل ملك الروم حين سأله عن صفات النبي ﷺ، وكان المغيرة وأبو سفيان -في ذلك الوقت- كافرين. فهل كان محمد ﷺ رجلًا غريبًا عليهم لم يعرفوه؟

والجواب: إنهم يعرفون حسبه ونسبه، وصدقه وأمانته، ووفاءه بالعهود قبل أن يكون نبيًّا ورسولًا.

الإنكار الرابع: أن محمداً ﷺ كان أكمل الناس عقلًا وأرجحهم فكرا:

وقد جاء هذا في قوله تعالى:

٧٠- ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾

أي أم أن سبب إصرارهم على الكفر هو اتهامهم للرسول ﷺ بالجنون؟ فلهذا قال ما قال، ولا عبرة بكلام المجنون، فإن الإنسان قد يعرض له اختلال العقل، فلعلهم ادَّعوا أن رسول الله ﷺ الذي يعرفونه قد أصيب بالجنون، فانقلب صِدْقه كذبًا، وكانوا يعتقدون أن ما يصيب الإنسان من خلل عقلي، هو من مسِّ الجن، وهذا معنى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي: بل أحسبوه مجنونًا؟

لقد كذَبوا في زعمهم، فالنبي ﷺ هو أكمل الناس عقلًا، وأرجحهم فكرًا، وأثقبهم رأيًا. إنما جاءهم بالقرآن والتوحيد، والدين الحق، وإثبات البعث، والمساواة، ومنع الفواحش، وتحقيق الأخوة، ومنع وأد البنات، وجاءهم بالأخبار الصادقة، والأوامر والنواهي، وجاءهم بالصلاة والزكاة وصلة الرحم، وعدم الاعتداء على مال اليتيم، ونحو ذلك من كل ما فيه صلاح النفس والمجتمع، وإبطال ما كان عليه أهل الجاهلية من العقائد الباطلة والأخلاق الذميمة، وليس فيما جاء به اختلاف ولا تناقض، فكيف يكون به جنة؟ فبطل ما قالوه في الرسول والقرآن، وثبت أن كل ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي خلق الله له هذا العالم ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩].

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ [الأعراف].

ولكن طبْع الكافر المكذب إنكار الحق وكراهيته، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ وقليل منهم يجنحون إلى الحق، ولكنهم يتابعون أقوامهم مصانعة لهم، كأبي طالب، والوليد بن المغيرة، وغيرهما ممن كانوا يحبون الدخول في الإسلام، ولكنهم يخافون من تعيير قومهم لهم بمخالفة آبائهم وأجدادهم، فليست هناك شبهة في هذه الإنكارات الأربعة التي سبق ذكرها، وليست لها حقيقة في الأصل، ولكن السبب هو كراهية أكثرهم للحق، وأعظم الحق الذي جاءهم به هو التوحيد، وترك كل ما يعبد من دون الله، وهذا سبب تكذيبهم عنادًا ومكابرة واتباعًا للهوى قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]

عن أنس ﷺ ذُكر لنا أن النبي ﷺ لَقي رجلًا، فقال له: «**أسلم**» فقال الرجل: إنك لتدعوني إلى أمر أنا له كاره، فقال نبي الله ﷺ: «**وإن كنت كارها**»[(١)].

قال قتادة: وذُكر لنا أنه ﷺ لقي رجلًا فقال له: «**أسلم**» فكبُر ذلك عليه، فقال له نبي الله ﷺ: «**لو كنتَ في طريق وَعِر، فلقيتَ رجلًا تعرف وجهه، وتعرف نسبه، فدعاك إلى طريق واسع سهل، أكنتَ متبعه**»؟ قال: نعم، قال: «**فوالذي نفس محمد بيده، إنك لفي أوعر من ذلك الطريق، وإني لأدعوك إلى أسهل من ذلك**»[(٢)].

لَا يُصْلِحُ الْعَالَمَ إِلَّا خَالِقُهُ

٧١- ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾

أي: ولو شرع الله للكافرين ما يوافق أهواءهم واتبع مرادهم لفسد نظام العالم، واختلَّت الموازين والمقاييس؛ لأن الحق واحد ثابت، والأهواء كثيرة متقلبة ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ وأغراضهم الفاسدة لفسد هذا الكون، لفساد التصرف والتدبير المبني على الظلم وعدم العدل، واتباع الأهواء وتبايُن الآراء.

(١) مسند أحمد (١٢٨٦٨، ١٢٠٦١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وأخرجه الضياء في المختارة (١٩٩٠، ١٩٩١) وأبو يعلى (٣٧٦٥) وهو في الأحاديث المختارة (١٩٨٩).

(٢) من «تفسير ابن كثير» للآية، بتصرف، وقد ذكره بدون سند عن قتادة (٥/ ٤٨٤) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٠/ ٦٠٩).

ولفظ: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ يراد به: الله سبحانه، فهو من أسمائه الحسنى، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦٢]. ويراد به أيضًا: ما يقابل الباطل.

والحق هنا هو الحق المتقدم ذكره في قوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ فالمراد به ما يوافق الوجود الواقعي، وما يوافق حقائق الأشياء، والأصول المتقررة، وذلك مثل تقرير أن الإله واحد، وأنه سبحانه لم يلد ولم يولد، وأن البعث والحساب حق واقع للجزاء على الأعمال والأقوال.

ومن الحقائق الثابتة كون الوأد ظلمًا، والقتل عدوانًا، والقمار أكلًا للمال بالباطل، والزنى خلطًا للنسب، والخمر تغطية للعقل... وهكذا.

ولو كان الحق في ضد هذه الأشياء لفسد من في السموات ومن في الأرض من الناس وغيرهم، ولو أن الآلهة تعددت لفسد العالم، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [٩١].

ولو لم يكن هناك بعث وحساب، لما كان هناك جزاء عادل على الأعمال، ولا استوى فاعل الخير وفاعل الشر، ولم يكن هناك خوف ولا رجاء، ولكان خلْق هذا العالم عبثًا، والله تعالى منزه عن العبث! ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾، وهذا هو مقتضى الحق الذي خلق الله الكون به في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان].

ومن أهواء المشركين زعْمَهم أن الملائكة بنات الله، ولو كان هذا حقًّا لأفضى إلى آلهة تتولَّد؛ لأن الولد من جنس أبيه، ولم تكن الملائكة مسخرة لطاعة الله تعالى وتنفيذ أمره، وهذا مِنْ فساد مَنْ في السموات، فالأهواء الفاسدة والشهوات الباطلة لا يمكن أن تقوم عليها السموات والأرض؛ لاختلافها وتناقضها، فكيف يكرهون الحق مع أن محمدًا ﷺ جاءهم بهذا القرآن، وفيه ما يُصلح أحوال البشر إلى قيام الساعة؟! فالسموات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل، وهذا معنى:

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ وهو القرآن والإسلام، فيه شرفهم وعزهم، ومجدهم وفخرهم، وأرسلنا إليهم محمدًا ﷺ ليذكرهم بالقرآن، ويعظهم به، فوجب عليهم ألَّا يعرضوا عنه.

وقد كان العرب قبل مجيء الإسلام لا وزْن لهم، ولا قيمة لهم في تاريخ العالم، والإسلام هو الذي رفع مكانتهم، ورسول الإسلام الذي خرج من بين أظهرهم هو الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور، ولكنهم مع هذا معرضون عن الحق وعن اتباعه ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ التوبة: ٦٧] ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

الإنكار الخامس: أن النبي لم يطلب منهم أجرًا على تبليغ الدعوة، فقد جاء في قوله تعالى:

٧٢- ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا(١) فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾

أي بل، أَمَنَعَهُم من الإيمان أن محمدًا ﷺ يسألهم على تبليغ الدعوة أجرًا؟ فهل يطلب منكم مالًا فَبَخِلْتُم به، فلذلك لم تؤمنوا؟

والجواب: أن محمدًا ﷺ لم يفعل ذلك، فلماذا تكذبونه وتعادونه؟ وهو لا يطلب الأجر إلا من الله تعالى، ويعلم أن ما عند الله من الثواب والعطاء خير من عطائكم، وهذا توبيخ لهم على عدم إيمانهم.

والآية فيها استفهام عن دواعي إعراض المكذبين عن رسول الله ﷺ واستمرار قلوبهم في غمرة.

والخراج: قيل: هو العطاء الذي يلزم أداؤه كالإتاوة، ودعوة الرسل ليست طمعًا في دنيا، إنما تبليغًا عن الله ونصحًا للأمة.

أي: إن محمدًا ﷺ لم يطلب منهم أجرًا على تبليغ الرسالة المتضمنة لخيري الدنيا والآخرة؛ حتى يكون هذا سببًا مانعًا من إيمانهم؛ فالرسل لا يأخذون الأجرة على تبليغ الدعوة، كما قال تعالى عن نوح ﷺ: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩].

---

(١) قرأ ابن عامر بإسكان الراء وحذف الألف من كلمة (خرْجًا) وكلمة (فخراج) هكذا: (أم تسألهم خرْجا فخرْج ربك خير) وقرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الراء وألف بعدها في الموضعين (خراجا فخراج)، وقرأ الباقون بإسكان الراء وحذف الألف في الأول، وفتح الراء بعدها ألف في الثانية هكذا (خرْجا فخراج) قيل: إن المقصور مصدر، والممدود: اسم لما يكثر إخراجه من المال، والخرج اسم لما يخرج مرة واحدة، وقيل: هما لغتان.

وقال تعالى عن قوم هود عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٥١﴾ [هود].

وقال تعالى عن محمد ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: ٢٣].

وقال ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرًا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠]

وليس في استطاعة أحد أن يرزق أحدًا، أو يعطيه أجرًا مثل رزق الله سبحانه وعطائه له، فهو خير الرازقين.

ولما ذكر سبحانه ما يوجب الإيمان بالله ورسوله وكتابه، ومنه تدبُّر القرآن، واشتهار الرسول ﷺ بالصدق والأمانة، وأنه لا يسألهم أجرا على تبليغ الرسالة، وذكر كذلك موانع الإيمان، ومنها : أن قلوبهم في غمرة، وأنهم لم يتدبروا القرآن، وأنهم قلّدوا آباءهم، ووصفوا الرسول ﷺ بالجنون، وقد بينت الآيات فساد هذه الموانع واحدًا تلو الآخر، بعد ذلك بيّن سبحانه أن ما يدعو إليه الرسول ﷺ هو الحق الذي يأخذ بأيديهم إلى سعادة الدارين، ولكن المنحرفين عن الحق هم أهل الضلال، فقال تعالى:

٧٣، ٧٤- ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾

ختم الله هذه الآيات، ببيان أن الرسول ﷺ لا يدعو إلا إلى الحق، وأن المعرضين عن دعوته خارجون على الحق، وإنك -أيها الرسول الكريم- لتدعوهم إلى طريق الحق الواضح والدين القويم، وهو دين الإسلام الموصل إلى جنات النعيم.

ولكن الكفار المكذبين بالبعث والحساب لا يصدقون بهما، ولا يعملون لهما، ولذلك فهم يَميلون ويَرجعون عن طريق الحق إلى غيره، ولا يهتدون إليه؛ لأنهم لم يطلبُوا طريق النجاة، بل عدلوا عنه إلى غيره، وسبب ذلك عدم إيمانهم بالدار الآخرة، فالرسول ﷺ يأخذ بأيدينا إلى النجاة، وهؤلاء يُلْقون بأنفسهم في الهاوية، قال تعالى ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص: ٥٠]

الْعِنَادُ وَالطُّغْيَانُ هُمَا سَبَبُ الْكُفْرِ بِاللَّهِ تَعَالَى

٧٥- ﴿۞ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٧٥﴾

وبعد أن ذكر الله سبحانه في الآيات السابقة، إعراضَ المكذبين عن دعوة الإسلام، بيَّن في هذه الآية وما بعدها، سبب هذا الإعراض، وأتبعه بأدلة التوحيد، ثم ذكر أحوال السعداء والأشقياء، وختم هذا الربع ببيان الحكمة من الحشر والحساب، وأنه لولا ذلك لما تميز الطائع من العاصي.

وفي هذه الآية بيان شدة تمردهم وعنادهم، وأنهم إذا أصابهم الضر سألوا الله أن يكشفه عنهم، فإذا كشفه عنهم استمروا في طغيانهم يترددون، كحالهم عند ركوب البحر، يدعون الله مخلصين له الدين عند تلاطم الأمواج واضطراب السفينة، فإذا أنجاهم الله أشركوا معه غيره ونسوا ما كانوا فيه.

وفي هذه الآية أيضًا بيَّن سبحانه وتعالى أن الكافرين الذين تنكبوا الصراط قد قست قلوبهم، وفسدت نفوسهم، وماتت ضمائرهم، فلا يؤثِّر فيهم الابتلاء بالخير أو الشر، وكفار اليوم هم كفار الأمس، وهم كفار الغد.

والقرآن الكريم يخاطب في هذه الآية، أمة الدعوة المطالَبين بالدخول في الإسلام إلى يوم القيامة، فيبيِّن لهم في أكثر من آية، أن الكافر إذا أنعم الله عليه بكثير من النعم، فإنه يظُن أن ذلك مسارعة من الله تعالى له في الخيرات، ورِضًى عنه، وإذا ابتلاه بالنقم، فإنه لا يرجع إلى الله ﷻ ويتوب إليه من شركه وكفره، وهذه الآيات آتية في سياق الحديث عن الكفار.

ومعنى الآية: ولو رحم الله الكفار، وأزال ما بهم من ضر وسوء حال، لاستمروا في عنادهم وضلالهم يتخبطون، ولو رفع الله تعالى عنهم الجوع والقحط، والمِحَن والمصائب، لتمادوْا في طغيانهم واستمروا في كفرهم وعنادهم.

وعن ابن عباس ﷺ قال: نزلت هذه الآية في ثُمامة بن أُثال، لمَّا أسرتْه السريَّة وأسلم، وخلَّى رسول الله ﷺ سبيله، فحال بين مكة وبين الميرة، وقال: والله لا يأتيكم من اليمامة حبَّة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ، وأخذ الله قريشًا بالقحط والجوع، حتى أكلوا الميتة والكلاب والعِلْهِز، قيل: وما العِلْهِز؟ قال: كانوا يأخذون الصوف والوبر فيَبُلُّونه بالدم، ثم يشْوُونه ويأكلونه، فقال أبو سفيان: أَنشدُك الله والرحم، أليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين؟ قال: «بلى»، قال: فوالله ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف،

وقتلت الأبناء بالجوع، فنزل قوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾[1]. قال تعالى:

٧٦- ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾

المراد بالعذاب هو الجوع، وفي وقت التنزيل ابتلى الله أهل أهل مكة بالجوع والقحط لَمَّا لم يصدقوا نبيّهم كي يتوبوا إلى الله ويرجعوا إليه.

وهذا إخبار من الله تعالى عن استكبار المكذبين وطغيانهم بعدما نزل بهم بأس الله وعقابه، فأخبر سبحانه أنه قد ابتلاهم بالنقم والمِحَن وابتلاهم بالمصائب فما خضعوا لربهم، وما تضرعوا له بالدعاء لرفع العذاب عنهم بل ظلوا في عنادهم وجحودهم؛ وذلك لأن الاستكانة والتضرع عند مسِّ الضر دليل الرجوع إلى الله تعالى.

وفي عصر التنزيل دعا ﷺ على كفار قريش لما أبطؤوا عليه بالإسلام، فقال: **«اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»** فأصابهم الله بالقحط، والجوع، والجدْب سبع سنوات، فذهب أبو سفيان إلى النبي ﷺ يقول له: لقد بُعثتَ رحمة للعالمين، فادع الله تعالى أن يكشف عنا هذا الضرَّ، فدعا النبي ﷺ ربه، فرفع عنهم ما بهم من ضرٍّ وجوع وجدب استمر لمدة سبع سنوات[2].

وفي البخاري وغيره: عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«اللهم اكفنيهم بسبع كسبع يوسف»**، فأصابتهم سنة أتتْ كل شيء حتى أكلوا العظام، حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها مثل الدخان، قال الله: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [الدخان].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الدخان]

أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة وقد مضت آية الدخان، ومضت البطشة؟[3].

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٤١٥) والطبري (١٨/ ٣٤) و«أسباب النزول» للسيوطي ص ١٩١، والواحدي ص ٢٦٢، وانظر: ابن حبان برقم (٩٦٧) الإحسان، والحاكم (٢/ ٣٩٤) وصححه، وحسنه ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٥١٠).

(٢) يُنظَر: «سنن النسائي» برقم (١١٣٥٢) و«صحيح البخاري» برقم (١٠٠٧).

(٣) يُنظر «صحيح البخاري» برقم (٤٦٩٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٩٨).

ولكنهم مع ذلك لم يعودوا إلى الله سبحانه، ولم يعتبروا.

وَرَدَ عن الحسن ﷺ أنه قال: إذا أصاب الناس مِنْ قِبَل السلطان بلاء، فإنما هي نقمة، فلا تستقبلوا نقمة الله بالحميَّة، ولكن استقبلوها بالاستغفار، واستكينوا وتضرعوا إلى الله، وقرأ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾[١].

١-والمراد بهذا العذاب: **عذاب دنيوي** يحل بهم في صورة من الصور، كما حدث لأهل مكة حين عذبهم الله تعالى بالجوع والقحط الشديد، لمَّا دعا عليهم النبي ﷺ فقال: **«اللهم اشدد وطأتك على مُضَر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»**[٢].

فأصابهم جوع شديد وعذاب أليم؛ بسبب دعوة النبي ﷺ.

وكان هذا الجوع قد أصاب أهل مكة **مرتين**:

مرة والنبي ﷺ بين أظهرهم، وقد كشف الله هذا الجوع لمَّا دعوا ربهم قائلين: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الدخان].

أما **الجوع الثاني** فقد كان بعد هجرة النبي ﷺ؛ بسبب دعائه عليهم، وذلك أنه لما أسلم ثُمامة بن أُثال الحنفي، عقِب سرية خالد بن الوليد إلى بني كلب، التي أُخذ فيها (ثُمامة) أسيرًا وأسلم، فمنع تصدير الطعام من أرض قومه باليمامة، إلى أهل مكة إلا بإذن رسول الله ﷺ وكانت اليمامة مصدر أقواتهم، فأصابهم جوع حتى أكلوا الجيف ونحوها سبع سنين[٣].

وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل].

وكان أهل مكة قبل هذا الجوع في ترف ودعة سالمين من الحروب؛ لأنهم أهل الحرم الآمن، تُجْبَى إليه ثمرات كل شيء، وكانوا مكرَّمين من جميع القبائل، وتأتيهم أرزاقهم من كل مكان.

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: صحيح البخاري (١٠٠٧) وسنن النسائي (١١٣٥٢) وصحيح مسلم (٢٧٩٨)

(٣) يُنظر نصّهُ وتخريجه في الآية (٧٥) من هذه السورة.

٢- أما **عذاب ما قبل الموت** فإن الآيات تحدثت عنه بعد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾. كما حلَّ العذاب بالمترفين منهم خاصة، حين قُتل صناديد قريش وكبراؤهم في يوم بدر، ويحل بأمثالهم من أهل الترف والطغيان إلى يوم القيامة.

وهذا العذاب هو الذي نزل بهم في دنياهم فلم يحصل منهم رجوع إلى الله تعالى في الماضي، ولا التجاء إليه في المستقبل.

والاستكانة: هي الرجوع والخضوع إلى الله ﷻ.

والتضرع: هو الدعاء واللجوء إلى الله جلَّ شأنه، ولكنهم لم يعتبروا، فلم يرجعوا ولم يتوبوا إلى الله تعالى، ولم يسألوه رفْع ما بهم من ضرٍّ، كما قال جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ أي: هلّا إذا نزلت بهم نقمة الله وبأسه، تضرعوا وسألوه. قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٣].

وما نزل بهم من عذاب دنيوي كان عقوبة لهم على ما كسبته أيديهم، وهذا تأديب من الله تعالى للعصاة في كل زمان ومكان ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]

٧٧- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾

أخبر سبحانه أنهم سيستمرون على جحودهم وعنادهم، ويُصرُّون على كفرهم، بدل أن يرجعوا إلى ربهم، حتى يأتيهم العذاب الشديد يوم لقاء رب العالمين فيصيبهم اليأس.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا﴾ من أبواب العذاب الشديد الْمُعدِّ لهم في نار جهنم يوم القيامة ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من كل خير؛ حيث ينظر المرء يوم القيامة يمينًا فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر شمالًا فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر أمامه فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر خلفه فلا يرى إلا ما قدَّم، يقول النبي ﷺ فيما يرويه عديّ بن حاتم ﷺ: **«فاتقوا النار ولو بشق تمرة»**[(١)].

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟

---

(١) يُنظر حديث طويل في صحيح البخاري (١٤١٣، ٣٥٩٥) وصحيح مسلم (١٠١٦).

وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ [الأنفال].

وقال: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨]. فلْيحذر مكذبوا الرسالة أن ينزل بهم ما نزل بأسلافهم.

سَبْعَةُ أَدِلَّةٍ فِي ثَوْبٍ جَدِيدٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: خَلْقُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْفُؤَادِ

٧٨- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

عادت الآيات للاستدلال على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته بما منح خلقه من نعم؛ ليشكروه بإفراده بالعبادة، فذكرت سبعة أدلة من نعم الله جلَّ شأنه في مقام الامتنان بها على خلقه، وأنَّ خالق هذه النعم هو الذي يستحق الشكر، ويستحق العبادة دون سواه.

ومن هذه النعم: السمع، والبصر، والفؤاد، حيث يخصُّ الله سبحانه بالذكر هذه النعم الثلاث: ولو تأمل العبد هذه النعم، لاهتدى بها إلى معرفة الحق سبحانه، ولكنه لا يشكر ربه، ولا يصرف هذه النعم فيما خُلقت من أجله، فقد خُلقت للطاعة، ولكنه يستعملها في معصية الله ﷻ.

ولما كان البصر يتعلق بكثير من المرئيات، والسمع يتعلق بالأصوات فحسب، أفرد السمع وجمع الأبصار، والسمع مصدر، والمصدر يأتي مفردًا، ولأن الفؤاد يُدرك كثيرًا من الأجناس والأنواع، فقد جاء بصيغة الجمع، وقد يكون جمع البصر والفؤاد باعتبار تعدد الأفراد:

فهو سبحانه خلق لكم السمع لإدراك المسموعات، فتنتفعوا بها في دينكم ودنياكم.

وخلق لكم الأبصار لإدراك المرئيات، فتنتفعوا بها في مصالحكم.

وخلق لكم الأفئدة وهي العقول لتتفقهوا بها، وتُميزوا بين الأشياء.

ومع هذا فشكركم لهذه النعم المتوالية قليل لا يذكر، والخالق لهذه الحواس هو الواحد القهار.

وفي هذا تعريض بمن يصرف هذه النعم في غير مصارفها، وكان ممن قال الله فيهم:

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وماذا لو عدمتم السمع والأبصار والعقول، بأن كنتم صُمًّا عُميًا بُكمًا، فماذا تكون حالكم؟ أفلا تشكرون الذي منَّ عليكم بهذه النعم، فتقومون بتوحيده وطاعته؟ ولكن شكركم قليل، مع توالي النعم عليكم.

الدَّلِيلُ الثَّانِي: نِعْمَةُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالتَّمْكِينِ لَهُ فِي الْأَرْضِ

٧٩- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾

لقد منَّ الله تعالى على عباده بنعمة الإيجاد والحياة، ويسَّر لهم التمكُّن في الأرض، والإكثار من الحرث والنسل، وبثهم في أقطار الأرض وجوانبها، وسخر لهم ما فيها من مصالح ومنافع، وجعلها كافية لمعايشهم ومساكنهم، ويوم القيامة يحشرهم بعد موتهم؛ لِيُجازيهم على ما قدَّموه من خير أو شر، فهو الذي أوجدكم - أيها الناس - من الأرض، حيث خلقكم وبثكم فيها، وجعلكم تنتشرون عن طريق التناسل، ويوم القيامة يجمعكم بعد تفرق أجسادكم وانتشارها في الأرض للبعث والحساب والجزاء.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: نِعْمَةُ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ

٨٠- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

امتنَّ الله سبحانه على عباده بالحياة والموت، والإيجاد والبعث والحشر، فهو الذي يُحيي من العدم، ويُحيي بالبعث بعد الموت، وهو الذي يميت بعد الحياة، ولا يفعل ذلك إلا رب العالمين.

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: اِخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

وبقدرته تعالى يُصرِّف الليل والنهار، وهذا أمر مشاهد ومكرر، نراه كل يوم في حياتنا صباحًا ومساءً، نعمة نتقلب فيها، ونلهو عنها، ولا نفكر في تعاقب الليل والنهار، واختلافهما في البياض والسواد، كلٌّ منهما يخلف الآخر، فالظلمة تخلف النور، والنور يخلُف الظلْمة، ويتفاوتان بالزيادة والنقصان، هذا هو اختلاف الليل والنهار، ولو شاء الله

لجعل كلا من الليل والنهار سرمدًا إلى يوم القيامة، فمن إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه، ومن إله غير الله يأتيكم بضياء ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]

ولما كانت هذه الأدلة من شأنها أن تفيد مَنْ نظر فيها بأدنى تأمل، فيدرك أن الله تعالى واحد، مستحق للعبادة دون سواه، وأن البعث والنشور حق، وأن من لم يهتدِ بهذه الأدلة فهو بمنزلة غير العقلاء.

لذا: ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وتدركون ما في هذا الكون من دلائل على وحدانية الخالق المدبر، المالك المتصرف، فتعبدوه وحده، ولا تشركوا معه غيره.

مَوْقِفُ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْبَعْثِ

٨١، ٨٢- ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾

لقد سلك المكذبون بالبعث في العصور المتوالية ما سلكه الأولون الذين استنكروا البعث واستبعدوه، فقالوا: هذا أمر مستبعد لا يدخل في العقل - بزعمهم - مع أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وبعثهم أهون - في نظر الناس - من بدإ خلقهم.

ولكن الكفار - مع وجود هذه الدلائل وهذه النعم -ينكرون البعث والنشور، ويقولون ما قاله آباؤهم الأولون على سبيل التعجب والإنكار:

١- ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ فقد ردَّدوا ما قاله أسلافهم.

٢- كما قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات].

٣- وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس].

٤- وقال أيضًا: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾ [الرعد].

٥- وقال عز وجل ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت].

والذي أحياء الأرض بعد موتها يحيى الخلق بعد موتهم، والآيات بهذا المعنى كثيرة.

قال آباؤهم على وجه الاستنكار والاستبعاد: إذا تحلّلتْ أجسامنا في تراب الأرض، أنعود للحياة مرة أخرى؟ هذا لا يكون ولا يتصور!!

لقد وُعد آباؤنا بمثل ما وُعدْنا به من البعث والنشور، ولكن شيئًا من ذلك لم يكن؟

٨٣- ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

إنهم لم يكتفوا بإنكار البعث، بل سخروا ممن يؤمن بالبعث والنشور، وأساؤوا الأدب مع رب العالمين، ومع رسل الله أجمعين، وقالوا: هذا الكلام قد قيل لآبائنا من قبل، فهو وعد قديم وُعد به آباؤنا الأولون على ألسنة الرسل في الأمم السابقة، ومحمد ﷺ وَعَدَنا ذلك أيضًا، ولم نر هذا البعث الذي وَعَدُوا به آباءنا قبل محمد ﷺ ولا بعده فأين هو؟أي: ما هذا البعث إلا خرافة وأُكذوبة، سطروها في كتبهم من عند أنفسهم.

ونظير هذه الآية في سورة النمل [٦٨] بتقديم لفظ (هذا) فيها، وتأخيره في هذه السورة.

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: خَلْقُ الْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا

٨٤، ٨٥- ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(١)﴾

وهذه ثلاثة أدلة أخرى - بعد الاعتراض بذكر منكري البعث، بالإضافة إلى أربعة أدلة في الآيات السابقة؛ - للدلالة على وحدانية الله ﷻ، وللدلالة على البعث والنشور يوم القيامة، وهي أدلة تردُ في صورة ثلاثة أسئلة، على طريقة الترقي من الأدنى إلى الأعلى.

ومجملها: سؤال عن مِلْكية الأرض ومن فيها، وسؤال عن مِلْكية السموات والعرش العظيم، وسؤال عن الهيمنة الكاملة على كل شيء في هذا الكون.

وفي **الجواب عن ذلك** كله، يقيم سبحانه وتعالى الحجة على المكذبين المعاندين، بما أثبتوه

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الذال من (تذكرون)، والباقون بتشديدها.

وأقروا به من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وبما أثبتوه من تفرده سبحانه بالخلق، على ما أُنكروه من البعث والنشور.

وبيان ذلك، أنه سبحانه صاحب النفوذ المطلق في كل شيء، فيأمر الله رسوله ﷺ أن يسأل المشركين مع الله غيره، ويقول لهم: انظروا وتأملوا في هذه الأرض، من يملكها؟ ومن يملك المخلوقات التي فيها؟ من يملك السموات السبع ومن فيهن؟ ومن يملك العرش العظيم؟ ومن بيده ملكوت كل شيء؟ وجوابهم في هذا كله: إنه الله وحده.

وفي هذه الآية أَمَرَ الله تعالى رسوله ﷺ أن يرُدَّ على منكري البعث، بأن يسألهم عن هذه الأرض ومن فيها من الكائنات، ومنها الحيوان والنبات والجماد والبحار والأنهار والجبال، يسألهم: لمن هذه الأرض ومن فيها من المخلوقات؟ مَن صاحب الملك والخلق والتدبير والتصرف فيها؟ ولفظ (مَنْ) يشمل العاقل وغير العاقل.

فـ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ خالقها ومالكها، وكنتم من أهل العلم والفهم فأجيبوني، وهو شرط حُذِف جوابه، لدلالة الاستفهام عليه، إذ لا بد لهم أن يقولوا: الله وحده خالقها ومدبر أمرها، وفي هذا توجيه لعقولهم أن يتأملوا، أي: إن كان لديكُم عِلم فأجيبوني.

وهكذا: ثم أخبر سبحانه أن الجواب سيكون حتمًا بالاعتراف بأن الله تعالى خالق هذه الأرض ومن فيها وما فيها ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: إن الكون وما فيه، ملك لله تعالى، فالكافر يعترف بتوحيد الربوبية، ولكنه لا يفرد الله تعالى في العبادة، بل يتقرب إليه بغيره، ويدعو معه غيره، فهو ينذر لغير الله، ويذبح لغير الله، ويستعين بغير الله، ويلجأ إلى غير الله.

فإذا أقروا بوجود الخالق ولم يتوجهوا له بالعبادة، فقل لهم:

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ فتعلمون أن من قَدرَ على خلق الأرض ومن فيها من العدم، قادر على إحيائكم بعد الموت، أفلا تتعظون بخلق هذه الأرض ومن فيها وما فيها، فتؤمنوا بالله وتوحدوه، وتعلموا أن القادر على ذلك قادر على إعادة الناس بعد موتهم؟ أفلا ترجعون إلى ما هو معلوم لديكم، مستقر في فطركم، فتعلمون أن الخالق الرازق هو المستحق للعبادة دون سواه.

ثم انتقل سبحانه إلى ما هو أعظم في الخلق من الأرض ومن فيها وهو خلق السموات والعرش فاستدل بهما على وحدانية الله تعالى وعلى البعث والنشور:

الدَّلِيلُ السَّادِسُ: عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْعَرْشِ الْعَظِيمِ

٨٦، ٨٧- ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ[١] قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

قل مَنْ خالقُ العالم العلوي وما فيه من الأفلاك والكواكب السيارات والثوابت، ومَنْ خالقُ العرش العظيم الذي تحمله الملائكة؟ وهو أعلى المخلوقات وأعظمها وأوسعها:

جاء في الحديث: عن أبي ذر، وعن جبير بن مطعِم ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ما السموات السبع والأرضون السبع وما بينهن في الكرسيِّ إلا كحلقه ملقاة بأرض فلاة، وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة»**[٢].

أي: أن السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسي مثل الريال الفِضِّي يُلْقى في صحراء واسعة.

وما هذا الكرسي بالنسبة لعرش الرحمن، إلا كحلقة صغيرة، ألقيت في أرض فضاء، أي: في صحراء واسعة.

والسموات والكرسي والعرش أعظم المخلوقات وأعلاها، وهذا يدل على سعة مُلْك الله العظيم، وأن السموات أكبر من الأرض.

فمن الذي خلق هذه الكائنات ودبّر أمورها وصرّفه بأنواع التدبير:

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ قل لهم حين يقروا بذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾. الله، وتتركون عبادة المخلوقات العاجزة.

---

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بإثبات همزة الوصل وفتح لام لفظ الجلالة وتفخيمه ورفع الهاء من (سيقولون لله) في الموضعين الأخيرين، على أنه مبتدأ والخبر محذوف تقديره: (الله ربها) في الأول، و(الله بيده ملكوت كل شيء) في الثاني، فالجواب مطابق للسؤال، وقرأ الباقون بحذف همزة الوصل، ولامين: الأولى مكسورة، والثانية مفتوحة مرققة، وخفض الهاء، جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف. أما الموضع الأول فلا خلاف في أنه بلامين.

(٢) رواه الطبري في تفسيره بسنده عن أبي ذر ﷺ (٥/ ٣٩٩) وانظر: «سنن أبي داود» برقم (٤٧٢٦) عن جبير بن مطعم.

والجواب الحتمي على سؤالهم، أنهم سيقولون: الكون كله مخلوق لله تعالى، ومملوك له سبحانه، قل لهم: أفلا تخافون عذاب الله فتؤمنوا به وتوحدوه، قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

لقد اعترفوا بربوبية الله تعالى للأرض ومن فيها، ثم بربوبيته للسموات ومن فيها وهي أعظم من الأرض، فناسب هذا حثّهم على طاعة الله ورسوله، ولزم إقامة الحجة على من جعل مع الله أربابًا في السموات سواء من عبدوا الملائكة، أو من قالوا: الملائكة بنات الله، أو من قالوا: لبيك لا شريك لك لبيك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك ولزم إقامة الحجة أيضًا على من أشركوا بالله تعالى من أهل الأرض.

الدَّلِيلُ السَّابِعُ مِنْ أَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ: تَصْرِيفُ الْكَوْنِ وَتَدْبِيرُ شُؤُونِهِ

٨٨، ٨٩- ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ[1] مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قل للمكذبين بوحدانية الخالق سبحانه: مَن مُصرِّف هذا الكون، ومدبر أمره، ومالك جميع المخلوقات؟ في العالم العلوي والسفلي، ما نبصره وما لا نبصره، وهو جلَّ شأنه يحي ويميت، ويحفظ من يشاء، فيمنع عنه السوء والأذى، بمشيئته تعالى وإرادته، وليس في مقدور أحد من خلق الله أن يمنع السوء أو العقاب الذي ينزل من الله تعالى بأحد من خلقه، وهو سبحانه يؤمِّن من يشاء من عباده مما يخاف، وليس في وسع أحد أن يؤمِّن أحدًا من عذاب الله، فإن كنتم من أهل العلم والفهم فأجيبوني.

وهم سيجيبون بأن ذلك كله لله، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ فهم معترفون حتمًا بأن المُلك كله، والسلطان كله لله، قل لهم: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ فكيف تُخبلُون وتَختل عقولكم؟ وكيف يخيل لكم الحق باطلًا، والباطل حقًّا؟ وكيف تُخدعون وتنصرفون إلى غيره، فتعبدوا غير الله، وتكذبوا بالبعث والحساب والجزاء؟ إن العقول التي دلتكم على ذلك عقول مسحورة، زيّن لها الشيطان قلب الحقائق.

والملكوت: صيغة مبالغة بمعنى الملك ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ عباده من الشر ويدفع عنهم المكاره

---

(١) قرأ رويس باختلاس كسرة الهاء من (بيده)، وأشبعها الباقون من باب الصلة القصيرة.

ويحفظهم مما يضرهم، ولا يقدر أحد أن يجير على الله، ولا يدفع الشر الذي قدّره، بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه.

وقد دلَّت هذه الآيات على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم، ونبَّهتْ على أن من ابتدأ الخلق والإيجاد، هو المستحق للألوهية والعبادة، وهو قادر من باب أولى على البعث والنشور.

وقد رُتبت هذه التوبيخات الثلاثة بالتدريج، فقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أبلغ من ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾؛ لما فيها من زيادة التخويف من الله تعالى، وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أبلغ في التوبيخ والتأنيب مما قبله في جانب التذكير وفي جانب التقوى.

مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ الْحَقُّ وَمَا يَقُولُهُ الْمُكَذِّبُونَ هُوَ الْبَاطِلُ

٩٠- ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾

أَضْرَبَ الله سبحانه عن وصف المكذبين للبعث والنشور، وإنكارهم له، وبيَّن أنَّ ما يقولونه خرافة وأكذوبة، وقرر سبحانه حقيقة ما جاء به الرسول ﷺ من التوحيد والبعث، وأبطل ما نسبوه إلى الله تعالى من الشريك والولد.

أَضربَ سبحانه عن هذه الأباطيل، وبيَّن جلَّ شأنه أن الحق هو التوحيد الذي جاء به محمد ﷺ في هذا القرآن، وأنهم كاذبون فيما يصفون الله به من الشريك والولد.

وكاذبون في وصفهم صاحب الرسالة محمدًا ﷺ بأنه ساحر، أو شاعر، أو كاهن.

وكاذبون في قولهم: إن القرآن سحر، أو شعر، أو كهانة.

وكاذبون في إنكارهم البعث، والنشور، والثواب، والعقاب، بل إن القرآن صادق في أخباره وأوامره ونواهيه، فما بالهم لا يعترفون به، وهو أحق أن يُتّبع، وما عداه كذب وباطل.

نَفْيُ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى بِالدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ

٩١، ٩٢- ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ[1] ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(١) قرأ نافع وشعبة وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلَف برفع الميم من (عالم)، على القطع، وهو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو عالم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص وروح بالخفض، على أنه بدل من لفظ الجلالة، وقرأ رويس بالخفض وصلًا، وله حالة البدء الرفع والخفض.

وبعد الاستدلال على وحدانية الله تعالى، يأتي الاستدلال على نفي الولد والشريك عن الله تعالى، فالله تعالى لم يجعل لنفسه ولدًا، وليس معه معبود آخر؛ لأنه لو كان هناك أكثر من معبود، لانفرد كل معبود بمخلوقاته، ولَكَانَ بينهم خلاف في توزيع الملك، كملوك الدنيا؛ فيختل نظام الكون، وقد تنزه سبحانه وتقدس عما وصفه به المشركون.

وهذه الآية فيها **ثلاث مسائل عظام** يقررها الله ﷻ:

فيُبيِّن في **المسألة الأولى**: أنه جلَّ شأنه لم يتخذ ولدًا، وحاشاه أن يكون له ولد، فهو الغني عن خلقه ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ وإنما قدَّم نفي الولد على نفي الشريك، مع أن أكثر المشركين عبدة أصنام لا عبدة ملائكة؛ لأن شبهة عبدة الملائكة أقوى من شبهة عبدة الأصنام؛ فالملائكة غير مشاهَدين، ولأن الذين زعموا أن الملائكة بنات الله أقرب للتمويه من الذين زعموا أن الحجارة شركاء لله تعالى[1].

المسألة الثانية: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي: ليس له جلَّ شأنه شريك معه في ألوهيته ولا في ربوبيته، كما يزعم الجاهلون، وقد جاء هذا النفي بإخبار الله تعالى وإخبار رُسله ودلالة العقل السليم، ولهذا امتنع وجود إلٰهين بالدليل العقلي.

المسألة الثالثة: أنه سبحانه أقام الدليل العقلي والمنطقي على استحالة وجود إله معه سبحانه، فقال: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾؛ أي انفرد واستقل به، لأن الآلهة لا تتوارد على مخلوق واحد، فكل إله يريد أن يستقلَّ بمخلوقاته التي خلقها دون الآخر، وينفردُ هو بالزعامة، ويترفعُ عليه، فهذا يريد أمرًا، وذاك يريد أمرًا آخر، وكل إله يختص بمخلوقات لا يتصرف فيها غيره، ومخلوقات بعض الآلهة قد تكون أقوى من بعض بما أُودع فيها من خصائص، وهكذا، فيختل نظام الكون، لوجود التنازع والمغالبة، وهذا معنى:

﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: لغلب القوي منهم الضعيف، والغالب يكون هو الإله، ولهذا نزَّه الله نفسه عما يصفه الظالمون في نهاية الآية.

ومن تمام الاستدلال على نفي الشريك عن الله تعالى، أنه جلَّ شأنه عالم ما ظهر وما

---

(١) من «تفسير التحرير والتنوير» بتصرف (٩/ ١١٤).

بطن، وهو وحده يعلم ما غاب وما حضر، وصفة العلم لا تتداخل، وهي من خصائص الإله الحق؛ فهو الذي يعلم ما يغيب عن عقول الناس ومداركهم، وهو العليم أيضًا بما يشاهدونه بأبصارهم وحواسهم، وهذا دليل على نفْي الشريك عن الله تعالى وإحاطة علمه بكل شيء.

مَشْرُوعِيَّةُ الدُّعَاءِ عِنْدَ حُلُولِ الْبَلَاءِ

٩٣ ، ٩٤- ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾

في هذه الآيةِ أمر الله نبيه ﷺ أن يدعو لنفسه بالنجاة من عذاب الظَّلَمة إن أراه الله عذابهم، فقد أعلم الله رسوله بأنه مُنْزِلٌ عذابه بالمكذبين إن عاجلًا أو آجلًا، في حياته أو بعد مماته، وعلَّمه أن يسأل ربه أن يخلِّصه من عذابهم.

وذلك بعد أن بيَّنت الآيات السابقة ذروة ضلال المشركين، وانتفاء عُذرهم، وغضبُ الله عليهم، وأنهم مع الأمم التي عجَّل الله لها العذاب في الدنيا مع ما يدخره لهم من العذاب الأخروي.

فيا رب، إن أطلت في عمري حتى أرى نزول العذاب بالكافرين كما وعدت، فلا تجعلني في جملتهم، ونجني مما تُهلكم به، لأن العقوبة العامة، تعم - عند نزولها - العاصي وغيره ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

قل -يا رسولنا- يارب إن أريتني وأنا حي، ما ينزل بالمكذبين من عذاب فلا تجعلني معهم، وهذا إن عاش النبي ﷺ وشاهَد العذاب الذي ينزل بالكفار، وهو حيٌّ بين أظهرهم، وقد أعلمه ربه أن يدعو بهذا الدعاء في هذه الحالة: ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: يارب أبعدني عن هذا العذاب ولا تهلكني بما تهلكهم به، ولا تجعلني مع الظالمين، ونجني من عذابك وسخطك، واجعلني ممن رضيت عنهم، والنبي ﷺ لن يكون معهم حين نزول العذاب بهم بطبيعة الحال؛ لأن الله تعالى قد عصمه من مثل ذلك، وإنما يعلمنا الله سبحانه أن الدعاء عبادة، وأن المؤمن عليه أن يهضم نفسه، وأن يسأل ربه في كل شيء، كما في الحديث عن معاذ ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**وإذا أردت**

بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون»[(١)].

٩٥- ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ۝٩٥﴾

أخبر الله تعالى رسوله ﷺ في هذه الآية، بأنه جلَّ شأنه قادر على أن يريه في حياته ما يعدهم به من العذاب، ولكنه أخَّر ذلك لحكمة، وهذا بيان لكمال قدرة الله تعالى التي لا يُعجزها شيء، ولكن العذاب العاجل مؤخر عن هذه الأمة إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] أي: إنه بسبب وجود النبي ﷺ في هذه الأمة رفع الله عنهم عذاب الاستئصال، ولأن الله تعالى قد علم أن منهم مستغفرين لذنوبهم، فرفع عنهم العذاب.

ويحتمل أنه سبحانه قد أطْلع رسوله على عذابهم في حياته، وجعلَه يُشاهد ما نزل بالمشركين من عذاب في وقته.

ففي الآية إشارة إلى أن الله تعالى سيُرِي نبيه حلول العذاب ببعض من كذَّبوه في حياته، وقد تحقق هذا في مصرع صناديد قريش يوم بدر، حين وقف النبي ﷺ على القليب الذي دُفنوا فيه، وناداهم بأسمائهم واحدًا واحدًا، وقال لهم: **«فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا»**[(٢)]؟

وكذلك شاهد النبي ﷺ ما حلَّ بمكذبيه في حياته يوم حنين، ويوم الفتح الأكبر، وهذا بخلاف ما حلَّ ويحلُّ بكل من كذَّب ويكذِّب بالنبي الخاتم ﷺ إلى يوم الساعة.

وفي الآية أيضًا تحذير من السبب المعذَّب من أجله، بالنسبة لسائر الأمم، وهو الشرك بالله تعالى، وعدم الإيمان بخاتم النبيين ﷺ.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٤٣) برقم (٢٢١٠٩) والترمذي برقم (٣٢٣٥) من حديث طويل، عن معاذ بن جبل ﷺ، وقال الترمذي: حسن صحيح وأوله (عَلَى مَصَافِّكُمْ كما أنتم) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٥٨٢) وفي مختصر العلو (١١٩/ ٨٠) وظلال الجنة (٣٨٨) وأخرجه البزار (٢٦٦٨) والحاكم (١/ ٥٢١) وقال محققو المسند: إن مداره على عبدالرحمن بن عائش، وقد اختُلف فيه عليه، فأعلّوه بالاضطراب.

(٢) يُنظر: صحيح البخاري برقم (٣٩٧٦) عن أبي طلحة وصحيح مسلم (٢٨٧٥) من حديث طويل.

الأَمْرُ بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ

٩٦- ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾

أمر الله رسوله أن يدفع مُكَذبيه بالتي هي أحسن، وألّا يَضِيق صدره بتكذيبهم، وأن يصبر على سوء أخلاقهم، ويدفع إساءتهم بالعفو عنهم، وهكذا أرشد الله نبيه إلى الترياق النافع في مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يسيء بالقول أو الفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، وادفع إساءتهم بالإحسان، فإن ذلك فضل منك عليهم، وفيه أجر عظيم ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشورى: ٤٠] وذلك ليستجلب خاطره، فتُحوِّل عداوته صداقة، وبغضه محبة، كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]. وما يُلْهَم هذه الصفة ويَعمل بها إلا الصابرون على أذى الناس، أهل الحظ العظيم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت].

وكأن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ: إذا أساء إليك أعداؤك بالقول أو الفعل فلا تقابلهم بالإساءة، ولكن ادفع إساءتهم بالإحسان منك إليهم، والصبر على أذى الكفار، والصفح عنهم، ولين الجانب لهم، وقد كان الأمر بذلك للنبي ﷺ قبل نزول آيات القتال.

وبعد أن قامت دولة الإسلام، وصدر أمْرُ الله لنبيه بقتال المشركين، فإن آيات القرآن التي نزلت بعد ذلك للأمر بالصفح واللين، تخص المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [التحريم: ٩]، ووصف الله أصحاب رسول الله ﷺ بأنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

وفي نهاية الآية يخبر الله تعالى رسوله ﷺ بأن علمه محيط بما يصفه به المشركون من الشرك والتكذيب، وسوف يجازيهم على ذلك.

والآية عامة لكل مسلم أن يدفع السيئة بالحسنة، وأن يتحلى بالصفح ومكارم الأخلاق، فيعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويُحسن إلى من أساء إليه، كما قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف].

والمسلم لا ينتقم لنفسه، ولا يغضب إلا إذا انتُهكت حرمات الله.

قال أنس ﷺ في قول الرجل لأخيه ما ليس فيه أن يقول له: إن كنتَ كاذبًا فأنا أسأل الله أن يغفر لك، وإن كنتَ صادقًا فأنا أسأل الله أن يغفر لي[١].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ، فقال ﷺ «**لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفُّهم الملَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك**»[٢].

وإذا كان الله تعالى يعلم ما يصفه به المشركون من اتخاذ الشريك والولد، فيصبر عليهم ويحْلَم عليهم ويمهلهم، فإن في هذا دعوة لعباده أن يقابلوا السيئة بالحسنة ويعفو عمن أساء إليهم، ويعرضوا عن الجاهلين.

التَّحَصُّنُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيَاطِينِ

٩٧ ، ٩٨- ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

أمر الله نبيه ﷺ أن يستجير به ويعتصم من إغواء الشياطين ووسوستهم التي تُغري بالباطل وتصد عن الحق، وأن يستعيذ بالله من شرورهم، ويلجأ إليه سبحانه في كل أموره، ويتبرأ إليه من حوله وقوته.

وهكذا: أمر الله نبيه ﷺ أن يستعيذ بالله من مجرد قرب الشياطين وحضورهم في أيِّ أمر من أمور الدين أو الدنيا، فهو وحده القادر على دفع أذاهم وحمايته منهم، سِيَّمَا في وقت الوفاة وحضور الأجل:

وفي هذا تعليم للأمة للاقتداء والتأسي به ﷺ في التحصُّن من نزغات الشياطين، وفيه زيادة في التوقِّي وشدة الحرص في اللجوء إلى الله تعالى في كل حين، وإلا فالنبي ﷺ معصوم من تأثير الشياطين.

ونزغات الشيطان: هي ثورات الغضب التي لا يملك فيها الإنسان نفسه.

والهمز: هو الضغط باليد. **والطعن**: هو الطعن بالإصبع ونحوه، ويستعمل في الأذى بالقول وبالإشارة، ومنه قوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم].

وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾ [الهمزة].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٥٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٥٨) والبخاري في «الأدب المفرد» برقم (٥٢).

وهمزات الشياطين: وساوسهم لبني آدم، وحضورهم عند ارتكاب ما نهى الله عنه، وتكون هذه الوساوس بتحريك القُوى في الإنسان لعملِ الأمر المخالف.

١- كان النبي ﷺ يقول كما في حديث أبي سعيد ﷺ: **«أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»**[١].

وكان ﷺ يأمر بذكر الله تعالى في كل حال، فإن ذلك مَطْردة للشياطين، سِيَّمَا عند الأكل والجماع والذبح.

٢- وكان ﷺ يقول كما في حديث أبي اليسر: **«اللهم إني أعوذ بك من الهدْم، وأعوذبك من التردِّي، وأعوذ بك من الغرَق، والحرق، والهَرَم، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبرًا، وأعوذ بك أن أموت لديغا»**[٢].

٣- وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم، من الفزع: **«باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة، من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون»**.

قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيرًا لا يعقل أن يحفظها، كتبها له وعلَّقها في عنقه[٣].

---

(١) من حديث أبي سعيد في سنن الترمذي (٢٤٢) وصحيح سنن أبي داود (٧٠١) وانظر إرواء الغليل (٣٤٢) وفي المسند (١١٤٧٣) وأعلّه محققوه بأن فيه جعفر بن سليمان الضبعي، تفرد بهذا الحديث، وهو مختلف فيه، وأخرجه عبدالرزاق في المصنف (٢٥٥٤) وابن خزيمة (٤٦٧) وأبو يعلى (١١٠٨).

(٢) «سنن أبي داود» برقم (١٥٥٢)، والمسند (١٥٥٢٣، ١٥٥٢٤) بإسناد ضعيف، لأن ابن أبي هند مختلف فيه.

(٣) «المسند» (٢/ ١٨١) عن عبد الله بن عمرو برقم (٦٦٩٦) وفيه محمد بن إسحاق، فهو يحتمل التحسين، (محققوه) وأبو دادو برقم (٣٨٩٣) والترمذي برقم (٣٥٢٨) والنسائي برقم (١٠٦٠١) وابن أبي شيبة (٨/ ٣٩) والطبراني في الدعاء (١٠٨٦) وقد حسنه الألباني في صحيح أبي داود (٣٢٩٤) وهو عند الترمذي (٣٧٧٠) وفي صحيح الترمذي (٢٧٩٣).

٤- أخرج أحمد وغيره عن الوليد بن الوليد أنه قال: يا رسول الله، إني أجد وحشة، قال: «**إذا أخذت مضجَعك فقل: أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون، فإنه لا يضرك**»(١).

٥- وفي حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الشيطان: همزه ونفخه ونفثه**»(٢).

قال أبو داود: **همزه**: الموتة، وهي الجنون. **ونفخه**: الكبر. **ونفثه**: السم. فأستعيذ بك يارب أن يكون الشيطان معي في صلاتي، وفي قراءتي للقرآن، وعند حضور أجلي، وفي كل أمر من أموري.

وإذا أعاذ الله عبده من الشرور، وأجاب دعاءه، سَلِم من كل شر، ووُفق لكل خير.

الْكَافِرُ يَتَمَنَّى الْعَوْدَةَ إِلَى الدُّنْيَا كَي يُسْلِمَ

٩٩، ١٠٠- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ(٣) أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

وبعد ذكر العذاب الدنيوي للمكذبين بالرسالة الخاتمة يأتي شيء من التفصيل لوصف ما يَلْقونه من مقدمات عذاب الآخرة.

فالكافر الذي يظل على كفره حتى يفاجئه الموت، ويرى مقعده من النار، يسأل الله الرجعة عند الاحتضار.

والكافر إذا حضرتْه الوفاة، ورأى ملائكة العذاب، فإنه يسأل الله الرجعة إلى الدنيا؛ لكي يتدارك ما فاته فيها من الإيمان والعمل الصالح، وفي مقدمة ذلك ترك الشرك بالله

---

(١) «المسند» برقم (١٦٥٧٣، ٢٣٨٣٩) قال محققوه: محتمل للتحسين بشواهده، ويُنظَر: «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٢٣)، وفيه محمد بن حبان، لم يدرك الوليد بن الوليد، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين.

(٢) مسند أحمد (٣٨٣٠، ٢٨٢٨) قال محققوه: صحيح لغيره، وإسناده يحتمل التحسين، لأن محمد بن فضيل سمع من عطاء بن السائب بعد الاختلاط، وبقية رجاله ثقات، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ١٨٥) وأبو يعلى (٤٩٩٤) وابن ماجه (٨٠٨) ابن خزيمة (٤٧٢) والبيهقي في السنن (٢/ ٣٦).

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (لعليَ أعمل)، والباقون بإسكانها.

وتوحيده سبحانه، فيقول: يا رب، أرجعني إلى الدنيا حتى أستدرك ما فاتني منها، وما ضيعت فيها.

أما المؤمن حين يرى ملائكة الرحمة، ويرى مقعده من الجنة، فإن الملائكة تقول له: نُرجعك إلى الدنيا؟ فيقول: إلى دار الهموم والأحزان..، إلى رب العالمين قُدُمًا، إلى رب العالمين[١].

ويقال للكافر النادم الذي يتمنى العودة إلى الدنيا: كلا، لا رجوع إلى الدنيا، وفي هذا ردع وزجر له عن طلبه.

فالكافر يتمنى العودة إلى الدنيا كي يُسْلِم، ويتدارك ما فاته يقول الله سبحانه ردًّا عليه: ﴿كَلَّآ﴾ لا رجعة ولا إمهال، فقد قضى الله أنهم لا يرجعون ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ أي: إنَّ طلب الرجعة إلى الدنيا مجرد كلمة قيلت، ليس لها جدوى ولا فائدة منها، وأمامهم برزخ إلى يوم البعث.

والبرزخ: هو المدة الفاصلة والحاجزة بين الدنيا والآخرة، بالنسبة لمن فارق الدنيا، سواء أكان ذلك في القبر أم في غيره، وهذا البرزخ يتنعم فيه المطيعون، ويعذب فيه العاصون، من يوم موتهم إلى يوم يبعثون، فلْيُعِدُّوا له العدة، ولْيتزوّدوا في دار المهلة.

مواطن تمني العودة إلى الدنيا:

وتدل آيات القرآن الكريم على أن الكافر يسأل الله العودة إلى الدنيا؛ كي يرجع عما أصرَّ عليه من الكفر إلى الإسلام، أو يتدارك ما فاته فيها من العمل الصالح.

وتمني العودة إلى الدنيا يكون في أربعة مواطن: عند الاحتضار، وعند العرض على النار، وعند العرض على الجبار، وبعدما يُقذف في النار، وأنه لا يجاب إلى شيء من ذلك في المواطن الأربعة:

١- أما عند حضور الأجل، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون].

---

(١) تُنظر رواية عائشة من طريق ابن جريج، ورواية جابر بن عبد الله في: «تفسير الطبري» (١٧/ ١٠٧).

٢- وعند العرض على النار، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام].

وقد قال تعالى في جوابهم: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال أيضًا: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤].

٣- وعند العرض على رب العالمين، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة].

٤- وبعدما يُقذفون في النار، وهم في حمأة الهول والعويل، يقول تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

وقد قال تعالى في الرد عليهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]. وغير ذلك من الآيات.

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة ﷺ قال: «**إذا وُضع الكافر في قبره، فيرى مقعده من النار**» قال: «**فيقول: رب ارجعون، أتوب وأعمل صالحًا**»، قال: «**فيقال: قد عمَّرت ما كنت معمرًا**»، قال: «**فيضيق عليه قبره**»[1].

وقال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهلٍ ولا إلى عشيرةٍ، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فانظروا أُمْنية الكافر المفرط، فاعملوا بها، ولا قوة إلا بالله[2].

الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُمَا الْحَسَبُ وَالنَّسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

١٠١- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾

يخبر سبحانه وتعالى عن أهوال يوم القيامة ومنها النفخ في الصور للبعث والنشور.

أي: إذا كان يوم القيامة فإنه يُنفخ في الصور، وهو القرْن أو البوق، يَنفُخ فيه إسرافيل للتجمع والنفير، وذلك عند النفخة الثانية للبعث حيث لا نسب ولا حسب ولا جاه، بل إيمان وعمل؛ إذ ليس هناك أحد يفخر على أحد بحسَبه، أو نسبه، أو أصله، أو قبيلته،

---

(١) ،(٢) من «تفسير ابن كثير» للآية (٥/ ٤٩٤).

فالحسب والنسب في هذا اليوم هو ما قدَّم العبد من العمل.

يقول النبي ﷺ من حديث عمر، وابن عمر، والمِسْوَر بن مَخْرمة ﷺ:

«كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري»[1].

فلا أنساب بينهم ولا تفاخر، كما كانوا يتفاخرون في الدنيا، فالأنساب يومئذ لا تنفع، والقريب لا ينفع قريبه، وهو يراه بعينه، ولو كان عليه من الأوزار ما يُثقل ظهره، ما حمل عنه شيئًا، ولو كان أقرب الناس وأعزهم إليه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج] فلا أحد ينصر أحدًا، ولا يشفع لأحد، ولا ينقذه مما هو فيه.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس].

تسأل عائشة ﷺ رسول الله ﷺ عن يوم القيامة: هل يذكر الناس أهلهم يوم القيامة؟ فيقول ﷺ: **«أما في ثلاثة مواطن فلا: حين تتطاير الصحف، وحين يُوضع الميزان، وحين يُنصب الصراط»**[2].

فهذه ثلاثة مواطن يفر فيها المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لقد أنساهم هول الموقف ما بينهم من تراحُم وتعاطف.

لكل منهم يومئذ شأن يغنيه، فلا يتذكر أحد أحدًا في هذه المواطن، ولا يسأل أحد عن أحد: **«حين تتطاير الصحف»** فيأخذ كل منهم صحيفته التي فيها مصيره؛ ليقرأ كتابه بنفسه، **«وحين يوضع الميزان، حيث تُرجّح كفة الحسنات أو السيئات، وحين يُنصب الصراط»** للمشي عليه على متن جهنم، فيسقط فيها الكافر، وينجو المؤمن. كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم

---

(١) الطبراني في «الأوسط» برقم (٣٩٦٣) و«الكبير» (٤٥١٣) وبنحوه في «المسند» (٤/ ٣٢٣) برقم (١٨٩٣٠) و(١٨٩٠٧) والحاكم (٣/ ٥٨) و«مسند البزار» (٢٤٤٥) «كشف الأستار» والضياء المقدسي في «المختارة» (٢٨١) وهو حديث حسن بشواهده، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٠٣٦) وألفاظه متقاربة.

(٢) مسند الإمام أحمد برقم (٢٤٧٩٣) بنحوه مطولًا وفيه ابن لهيعة، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٥٨) وقال: رواه أحمد وفيه ابن لهيعة، وهو ضعيف، وقد وُثق، وبقية رجاله رجال الصحيح.

﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣﴾. يقولون لهم: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ أي في الدنيا ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ بالشهوات والملذات ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ أي: الدنيا وما فيها، وخدعكم الشيطان ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٣، ١٤].

إِثْبَاتُ السُّؤَالِ وَنَفْيُهُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

قال ابن عباس ﷺ: إن للقيامة أحوالًا ومواطن، ففي موطن يشتد عليهم الخوف، فيشغلهم عظم الأمر عن التساؤل فلا يتساءلون، وفي موطن يُفيقون إفاقة فيتساءلون[1].

ومن هنا أثبت القرآن السؤال في مواطن، ونفاه في مواطن أخرى، أما إثبات السؤال ففي مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ٢٨ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٢٩﴾ [الصافات]. وقوله: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾ [الصافات].

وقوله: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦﴾ [الأعراف].

وأما نفي السؤال ففي مثل قوله تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ٣٩﴾ [الرحمن]، وقوله: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

وقوله: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦﴾ [القصص].

إنهم لا يتكلمون ولا ينطقون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابًا.

وعن ابن عباس ﷺ في البخاري: أن عدم السؤال عند النفخة الأولى والسؤال عند النفخة الثانية.

والمجرمون لا يتساءلون يوم القيامة عن ذنوبهم إنما يُقذفون في النار قذفًا، حيث ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ٤١﴾ [الرحمن].

ويوم القيامة يوم طويل، وفيه عدة مواقف، تارة يُسألون، وتارة لا يسألون، وذلك في مواطن دون مواطن، وبالنسبة لقوم دون آخرين.

وفي يوم القيامة مواطن يشتد الكرب فيها، ويعظُم الخطب، منها ما يكون عند وزن الأعمال، حتى يتبيّن مثاقيل الذر من الخير والشر:

---

(١) يُنظَر: «الدر المنثور» (١٠/ ٦٢٠) والطبري (١٧/ ١١٣).

ثِقَلُ الْمِيزَانِ وَخِفَّتُهُ، عَلَامَةُ السَّعَادَةِ أَوِ الشَّقَاءِ

١٠٢، ١٠٣- ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

ينوِّه الله سبحانه بالمؤمنين، ويبيِّن أن غيرهم لا يجدون في موازين أعمالهم شيئًا؛ لأن الأصل -وهو الإيمان- منتفٍ، فأعمالهم الخيريَّة تصير هباءً منثورًا، فمن ثقلت موازين أعماله ولو بحسنة، فقد فاز ونجا.

وأبواب الأعمال الصالحة كثيرة، كل خطوة يخطوها المؤمن إلى المسجد يرفعه الله بها درجة، ويمحو عنه بها سيئة، وصلاة الْجماعة تزيد سبعًا وعشرين، أو خمسًا وعشرين درجة عن صلاة المنفرد، وكل كلمة طيبة صدقة، وتبسمك في وجه أخيك صدقة، وهكذا، فمن رجحت حسناتهم على سيئاتهم فهم السعداء، أهل الجنة، ومن زادت سيئاتهم ورجحت على حسناتهم فهم الأشقياء الذين خسروا السعادة الأبدية، وهم في نار جهنم خالدون، وهذه هي الخسارة الكبرى، والخسارة الحقيقية ليست خسارة المال ولا التجارة، ولا الأولاد، ولا المنصب، ولا الجاه، إنها خسارة صعبة، لا يُجبر مصابُها، ولا يستدرك ما فات منها، إنها خسارة أبدية، وشقاوة سرمدية، خسر فيها الإنسان نفسه، وحَرمَها دار النعيم، فهو في جهنم لا يخرج منها أبد الآبدين، وهذا بالنسبة لمن مات على الكفر والشرك، وهو لا يحاسَب محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فهؤلاء لا حسنة لهم، ولكن أعمالهم تحصى عليهم، فيقرون بها ويجزوْن عليها، أما من كان معه أصل الإيمان، فإن رجحت سيئاته، فإنه وإن دخل النار، لا يخلد فيها وإنما يجزى بمقدار عمله، كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف]

والموزون هو أعمال العبد؛ لإقامة الحجة عليه بالطريقة المحسوسة كما اعتاد وعَرَف.

ووزن الكافر على أحد وجهين:

١- إما أن يوضع كُفْره في كفة، فلا يجد شيئًا يعْدله في الكفة الأخرى.

٢- وإما أن توضع أعماله من صلة رحم وبرٍّ ومنفعة في كفة الحسنات، ثم يوضع كُفْره في الكفة الأخرى، فتخف أعماله[1]. ثم ذكر سبحانه مصير الكافرين في الآيات التالية:

مِنْ أَحْوَالِ الْكَافِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

١٠٤، ١٠٥- ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾

أي: إن هؤلاء الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون، تحرق النار وجوههم، فتتقلّص الشفتان، وتظهر الأسنان، بسبب تقطُّب أعصاب الوجه من شدة الألم، كما يشاهد الإنسان رأس الشاة بعد شيِّها - والعياذ بالله - وهم في جهنم كالحون.

والكالح: هو الذي تشمَّرت شفته، فتقلَّصت وارتفعت عن أسنانه، وأصبح منظره بشعًا، حيث إن الكالح تشويه النار فتتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته. وهم في النار عابسون قانطون، وهو عذاب حسي، كأن القارئ للقرآن أو المستمع له يراه بعينيه، وهو أشد فظاعة من التأنيب والخزي الوارد في الآيات السابقة.

وقد جاء هذا المعنى موضحًا في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

١- ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ [النمل: ٩٠]

٢- وقوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

٣- وقوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

٤- وقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

إنه عذاب ترتجف له القلوب، وتهتز منه النفوس، وتقشعر من هوله الأبدان.

ويقال لأهل النار على سبيل التأنيب والتوبيخ: ألم تكن آيات القرآن -وفيها القوارع والزواجر التي تُخوِّفكم- تُقرأ عليكم في الدنيا؛ لتقيم الحجة عليكم، وتُزيل كل شبهة لديكم، فكذَّبتم بها، ولم تعملوا بما فيها، قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/١٥٦).

يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الملك].

فإذا سمعوا هذا التقرير أذعنوا فأقروا واعترفوا على أنفسهم بأن الله تعالى قد أزال عنهم كل شبهة، فأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ولم يُبق لهم حجة.

وقال تعالى على لسانهم: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

فإذا اعترفوا أقروا بظلمهم حيث لا ينفع الإقرار:

١٠٦- ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا[١] وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ۝﴾

وحين تُقام الحجة على أهل النار، وتُقْطع أعذارهم، بأن رسل الله قد أنذَرْتهم، وأن آياتِ ربهم قد تُليت عليهم، فإنهم يعترفون اعترافًا فيه مرارة، بأنهم أساؤوا الأدب مع ربهم، وتجاوزوا حدودهم، فغلبت شقاوتهم سعادتهم، واستولى الهوى والشيطان على قلوبهم، فقهرها وغلبها، فكانوا في أقوالهم وأفعالهم من الضالين عن الهوى، وفق ما سبق في علم الله تعالى عنهم.

حيث قالوا وهم في نار جهنم: ربنا غلبت علينا شهواتنا وملذاتنا، وغلب علينا الشيطان والنفس الأمارة، حتى حقَّ علينا ما علمه الله عنا أننا من أهل الشقاء، لقد اعترفوا في الوقت الذي لا ينفع فيه الاعتراف، ولا يفيد فيه الندم، وذلك أنهم كانوا قوماً ضالين في عملهم، فكانوا من أصحاب السعير ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[الملك: ١٠] وعندئذ يقولون:

١٠٧، ١٠٨- ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۝ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾

أي: إن أهل النار بعد أن أقروا بذنوبهم، وتنصلوا منها -انتقلوا من الاعتراف بذنوبهم، إلى الرغبة والتضرع إلى الله تعالى أن يُخرجهم من النار؛ وذلك لأنهم ظنوا أن في وُسعهم أن يزيدوا في السؤال، فطلبوا الخروج من النار للرجوع إلى الإيمان.

وطلبُ العودة إلى الدنيا يكون في **أربعة مواقف:**

١- وقت خروج الروح من البدن، فيتمنوْن الرجعة إلى الدنيا.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الشين وإثبات ألف بعد القاف هكذا (شَقاوتُنا)، وقرأ الباقون كقراءة حفص هكذا (شِقْوتنا) وهو سوء العاقبة أو الهوى والملذات.

٢- ويكون أيضًا عند عرْضهم على النار.

٣- ويكون عند رؤية النار، فيقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤].

٤- ويطلبون الرجعة إلى الدنيا أيضًا حين يُعرضون على رب العالمين كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنعام]

ثم إن أهل النار ظنوا أنهم إن عادوا إلى الدنيا بعد خروجهم من النار، فإنهم سيرجعون إلى الإيمان والعمل الصالح، فألزموا أنفسهم بأنهم لا يعودون إلى الكفر والتكذيب، حيث قالوا: ﴿فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ أي: إن رجعنا إلى الضلال فإنا ظالمون نستحق العقوبة؛ لأننا تجاوزنا الحد في الظلم والعدوان.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]

وعندما يطلب أهل النار الخروج من النار للعودة إلى الدنيا يقول الله تعالى لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ هذا هو الجواب على طلبهم الخروج من النار، والعودة إلى الدنيا، وفيه تيئيس وزجر لهم بعدم استجابة طلبهم، ونهْيهم عن الاستمرار في الخطاب مع الله تعالى، وهو غاية الذل والمهانة، حيث يقال لهم: اخسؤوا في جهنم، أي: امكثوا في النار صاغرين أذلاء، ولا تخاطبوني؛ فإنكم تستحقون ما أنتم فيه، فانقطع عند ذلك دعاؤهم ورجاؤهم.

جاء في الأثر:[١] أن أهل النار يسألون الخزنة في النار أن يُخفف الله عنهم العذاب ولو يومًا واحدًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾[غافر]. اسأله يخفف عنا ولو يومًا واحدًا، ولمَّا لم يجدوا إجابة أخذوا يسألون خازن النار (مالكًا) أن يموتوا موتة واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ جملة واحدة، بدلًا من هذا العذاب المتجدد، فيجيبهم مالك بعد أربعين عامًا: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

---

(١) رُوي موقوفًا على عبد الله بن عمر، كما ذكره البغوي في تفسير الآية.

وفي الآية التي معنا يسألون رب العالمين أن يخفف عنهم عذاب النار فيقولون يا ربنا: ﴿أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ فيجيبهم بعد مقدار عمر الدنيا: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ وهذا مبالغة في المنع من الكلام، فإذا سمعوها يئسوا، فتنطبق عليهم النار ويبقون فيها، ينعى بعضهم بعضًا.

قال الحسن: هو آخر ما يتكلم به أهل النار، ثم لا يتكلمون بعد ذلك، وما هو إلا الزفير والشهيق، وعواء كعواء الكلاب، لا يفهمون ولا يُفهمون[1].

ولفظ: ﴿اخْسَئُوا﴾ كلمة فيها شتم وزجر وعدم استجابة، ويراد بها: التحقير، والإذلال، والإهانة، والتوبيخ، والتأييس من كل خير.

عدم خروج الكافر من النار:

وعدم الخروج من النار تدل عليه آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

قال محمد بن كعب القرظي: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله في أربع، فإذا كانت الخامسة لم يكلِّموا بعدها أبدًا:

١- ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ [غافر]

فيجيبهم الله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر].

٢- ثم يقولون: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة].

فيجيبهم الله: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة].

---

(١) من «تفسير الخازن» (٣/ ٣١٢) وابن أبي شيبة (١٣/ ١٥٢) والحاكم (٢/ ٣٩٥) و«مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٩٦).

٣- ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾

فيجيبهم الله: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

٤- ثم يقولون: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾؛ فيجيبهم الله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

٥- ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾، فيجيبهم الله: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

مِنْ أَسْبَابِ عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ

١٠٩- ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

هذه الآية تعليل لزجر الكفار عن طلب الخروج من النار، وذِكْر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب، وقَطعتْ عنهم وسائل الرحمة، وإخبار عن حال الذين أنعم الله عليهم من فقراء المسلمين.

أي: يقال لأهل النار يوم القيامة على وجه التوبيخ: إنكم سخرتم من عبادي الصالحين الضعفاء وداومتم على ذلك حتى نسيتم ذكر الله، وهكذا فإن من أسباب عذابهم يوم القيامة أنهم كانوا يهزؤون ويسخرون من فقراء المسلمين وضعفائهم في الدنيا، وهذا يحدث في كل زمان ومكان؛ حيث يحتقر القوي الضعيف، ويحتقر الغني الفقير.

والفريق المشار إليه في الآية هو كل مستضعف من المؤمنين، ومن هذا الفريق في صدر الإسلام مَنْ كانوا يرفعون أكفَّ الضراعة إلى الله تعالى، فيتوسلون إليه بإيمانهم به أن يغفر لهم ذنوبهم، ويستر عليهم عيوبهم، ويدخلهم في رحمته.

فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، والدعاء بالمغفرة والرحمة، والتوسل إلى الله تعالى بربوبيته لهم، ومنّه عليهم بالإيمان، والإخبار بسعة رحمته وعموم إحسانه، وهذا يتضمن خضوعهم وخشوعهم لله، وخوفهم منه ورجاءهم له، وهم بهذا سادات الناس وفضلاؤهم، ومنهم بلال وصهيب وعمار وخبيب وغيرهم. قال تعالى:

١١٠- ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا[١] حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾

أي: ومن الأسباب التي أدخلت أهل النار النار: استهزاءهم وسخريتهم من ضعفاء المؤمنين في الدنيا حتى أنساهم ذلك ذكر الله تعالى والإيمان به.

فكان حالكم -أيها الكافرون- أنكم اشتغلتم بالسخرية بهم، والاستهزاء منهم، وبقيتم على تكذيبكم، حتى نسيتم ذكر الله، وكنتم منهم تضحكون سخرية واستهزاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [المطففين]

أي: يغمز بعضهم بعضًا استخفافًا بهم.

وقال سبحانه: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩].

فاشتغال أهل الترف والعناد، بالاستهزاء بضعفاء المسلمين وفقرائهم، أنساهم ذكر الله، كما أن نسيانهم للذكر شجعهم على الاستهزاء بهم، فكُلًّا منهما يمدّ الآخر. قال تعالى:

١١١- ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ[٢] هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

أي: يقول سبحانه للكفار يوم القيامة: إني جزيت هؤلاء الضعفاء اليوم برحمتي ورضواني وجنّتي أحسن الجزاء؛ بسبب طاعتهم وصبرهم على الأذى، وذلك مثل: بلال، وعمّار، وصُهَيْب، وخبّاب، من فقراء المسلمين الذين كان يسخر منهم كفار قريش، وأمثال هؤلاء في كل زمان ومكان هم الفائزون برضوان الله وجنته.

ويشهد لهذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف].

---

(١) قرأ نافع وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم السين من (سخريا)، والباقون بكسرها، وهما لغتان بمعنى: الاستهزاء، وقيل: الضم بمعنى الاستخدام، والكسر بمعنى الاستهزاء.

(٢) قرأ حمزة والكسائي بكسر الهمزة من (أنهم هم)، على الاستئناف، وثاني مفعولي (جزيتهم) محذوف تقديره: الخير والنعيم في الجنة، وقرأ الباقون بفتحها على أنه المفعول الثاني لجزيتهم، أي: جزيتهم فوزهم، أو على تقدير حرف الجر، أي: لأنهم أو بأنهم.

قِصَرُ عُمْرِ الْكَافِرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى طُولِ عَذَابِهِ

١١٢، ١١٣- ﴿قَٰلَ[١] كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ[٢] ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾

يُبيّن الله سبحانه قِصَرِ عُمْر الدنيا في طاعة الله وعبادته، بالنسبة إلى عُمْر الآخرة، فقد ربح وفاز أهل الجنة، وخاب وخسر أهل النار؛ ذلك أنه عند، النفخة الثانية لخروج الأموات من الأرض، يكون السؤال عن مدة مكث الأموات في الأرض، سِيَّمَا الكفار منهم؛ لإثبات خروجهم من الأرض أحياء، وإيقافهم على ضلال اعتقادهم في إنكارهم البعث بالدليل العملي، وإبطال اعتقادهم باستحالة رجوع الحياة إلى العظام والرفات.

وهو بعث يعمُّ كل من مات: سواء من مضى على موته يوم، أو عام، أو قرن، أو قرون متطاولة.

والله سبحانه يعلم مقدار الزمن الذي لبثوه في الدنيا، والذي مكثوه في قبورهم، ولكنه سبحانه يسألهم ليبيِّن لهم قصر أيام الدنيا بالنسبة للعذاب المقيم في الآخرة، وليزيد في حسرتهم وتوبيخهم، فيسألهم ربُّهم على وجه اللوم: كم بقيتم في الدنيا من السنين؟ وكم ضيَّعتم من طاعة الله؟ فقد اكتسبتم في هذه المدة اليسيرة كل شر أوصلكم إلى مقت الله وغضبه.

فيكون جواب الذين نُهوا عن الكلام، وقيل لهم: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون]. حين يُسألون عن مدة لُبثهم في الدنيا.

لبثنا يومًا أو بعض يوم؛ وذلك لأنهم لما وجدوا أنفسهم أحياء كحياتهم الأولى، أوْهَمهم كمال أجسادهم أنهم ما مكثوا في الأرض إلا زمنًا يسيرًا، لا يتغيَّر معه هيكل أجسامهم، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات].

وقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف]

وهذا شأن الإنسان وهو ينظر إلى الدنيا خَلْفه، أو ينظر إلى ما مضى من عمره، كما

---

(١) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي (قل) فعل أمر، والمخاطب بهذا الأمر هو الملَك الموكل بهم، وقرأ الباقون (قال) فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله أو على الملَك.

(٢) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف بنقل حركة همزة (فاسأل) إلى السين هكذا: (فسل)، وكذا حمزة عند الوقف، وحققها الآخرون.

حدث لأصحاب الكهف، وللذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وغيرهم.

وفي غمرة الذهول من شدة الموقف، يعترفون بأنهم لم يَضْبُطوا مدة مكثهم، فأحالوا السؤال على من يضبط ذلك من الملائكة الذين يسجلون عمل ابن آدم ويُحصونه عليهم، أو على الحُسَّاب الضابطين الذين يعدُّون الأيام والشهور والأعوام؛ ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ ذلك لأن الميت أو النائم ليس من شأنه أن يقدِّر الزمن، وأن يَعُدَّ الحركة،وإنما هذا شأن الحي الذي يُحصي الزمن ويَحسب الوقت، وكأنهم حسبوا أنهم قاموا من قبورهم، وأن الدنيا باقية بمن فيها.

ويتفاوت تقدير الكافر لهذه المدة، كما قال تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه].

وكما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم].

أما جواب المؤمن فقد علَّمنا الله إياه في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الروم].

أما أهل النار فهم في عذاب مذهل وشغل شاغل عن معرفة العدد، ثم يأتي جواب الله تعالى عن المدة التي مكثوها، وأنها وقت لا يذكر، بالقياس إلى عمر الدنيا:

١١٤- ﴿قَٰلَ[1] إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾

يرد الله تعالى، عليهم بأنكم ما لبثتم في الدنيا إلا وقتًا قليلًا، سواء عرفتم عدده أم لا؛ فإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون، ولو صبرتم فيه على طاعة الله لفزتم بالجنة، ولو كان عندكم عِلْم لعلمتم أنكم ما لبثتم إلا قليلًا؛ وذلك لأن مدة مكثكم في الدنيا قليل جدًّا بالنسبة إلى طول المدة في الآخرة، والخلود في النار.

فمدَّة مكث الإنسان في الدنيا وفي البرزخ، بالقياس إلى مدة العذاب أو النعيم في الآخرة، مدة قليلة جدًّا، ولو علم الناس ذلك لآثروا الباقي على الفاني، وصبروا على طاعة الله وعن معاصيه، وفي هذا من الترهيب والترغيب ما فيه.

(١) قرأ حمزة والكسائي (قل)، والباقون (قال).

الْحِكْمَةُ مِنَ الْبَعْثِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ

١١٥- ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ[1] ﴿١١٥﴾﴾

لو الله تعالى، خلق الخلق، فأحسن المحسن وأساء المسيء، ولم يلْق كل منهم جزاءه، لكان ذلك إضاعة لحق المحسن، وغَضًّا للطرف عن إساءة المسيء، ولكان خلْق البشر، عبثًا لا فائدة فيه، وكان وجود الناس في الدنيا مجرد لعب ولهو وباطل، والعباد لم يُخلقوا كالبهائم بلا ثواب ولا عقاب، وإنما خُلِقوا للعبادة، وإقامة أوامر الله تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ مهملين، تأكلون وتشربون وتمرحون وتلعبون، وتتركون هكذا بلا أمر ولا نهي، ولا عذاب ولا نعيم ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء في الدار الآخرة؟ لا يخطر هذا ببالكم، فالله تعالى منزه عن الظلم.

والمعنى: أغرَّتكم الدنيا وغفلتم عن مصيركم، فحسبتم أنا خلقناكم عبثًا بلا ثواب ولا عقاب، كما خُلِقت البهائم، وليس لحكمة تقتضيها إرادتنا من خلقكم؟ إنما خلقناكم للطاعة والعبادة، ثم الرجوع إلى دار الجزاء؛ لنجزي الذين أساؤوا بما عملوا ونجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم].

ومن توهَّم أنه خُلق لغير غاية، وأنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، فمصيره مُهين في نار جهنم، يصطلي بعذابها ولهيبها.

خطب عمر بن عبد العزيز - رحمه الله- فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: فإنكم لم تُخلَقوا عبثًا، ولن تُتركوا سدى، وإن لكم مَعادًا، ينزل الله فيه للحُكْمِ والفصل بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله، وحُرِم جنة عرضها السموات والأرض.

ألم تعلموا أنه لا يأمن غدًا إلا مَن حَذِر هذا اليوم وخافه، وباع نافدًا بباقٍ، وقليلًا

---

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف بالبناء للمعلوم في (لا ترجعون)، والباقون بالبناء للمجهول.

بكثير، وخوفًا بأمان؟ ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين، وسيكون مَنْ بَعْدكم الباقون، حتى تُرَدُّوا إلى خير الوارثين؟

ثم إنكم في كل يوم تُشيِّعون غاديًا ورائحًا إلى الله ﷻ، قد قضى نحبه، وانقضى أجله، حتى تُغيِّبوه في صَدْع من الأرض، في بطن صَدْع غير ممهَّد ولا موسَّد، قد فارق الأحباب، وباشر التراب، وواجه الحساب، مُرْتَهَن بعمله، غني عما ترك، فقير إلى ما قدَّم، فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواثيقه، ونزول الموت بكم، ثم جعل طرف ردائه على وجهه، فبكى وأبكى من حوله[1].

١١٦- ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾

فتعاظم رب العزة، وتقدس مالك الملك، أن يخلُق شيئًا عبثًا بلا حكمة ولا فائدة، ولا غرض صحيح، فمُلكه تعالى مُلْك حقيقي، لا يحول ولا يزول، وكل من ملك شيئًا من عرض الدنيا فهو مالك من جهة، ومملوك من جهة أخرى، ففيه نقص واحتياج، وهو مُلْك باطل زائل بموت صاحبه أو بالخروج عليه.

والله سبحانه مالك أعظم المخلوقات وهو العرش، وهو دليل على عظمة قدرة الله تعالى، فهو صاحب السلطان المطلق، المتصرف في ملكه بالإيجاد والإعدام، والإحياء والإفناء، وقد تنزَّه عن العبث والنقائص، سبحانه لا رب غيره ولا خالق سواه، وهو حق في وعده ووعيده وإلٰهيته لخلقه، وهو خالق العرش والكرسي والكون كله، الموصوف بكل كمال، والمنزه عن كل نقص، وهو صاحب الرحمة والخير والبركة، وهو سبحانه أكرم الأكرمين.

التَّعْقِيبُ عَلَى مَا جَاءَ فِي السُّورَةِ

١١٧- ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

لما كان أعظم ما دعا الله إليه هو التوحيد، وكان أصل الضلال هو الشرك بالله تعالى، أتبع ذلك بأن العقاب الذي ينال الناس في الدار الآخرة، إنما هو بسبب الشرك بالله تعالى، وأن هذا الشرك ليس عليه دليل ولا برهان من عقل أو نقل.

---

(١) من «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٠١).

وكل من دعا غير الله تعالى، ليس له برهان ولا حجة على عبادته، بل دلت الأدلة على بطلان عبادته، سوف يُقْدِم على ربه فيجازيه بأعماله، ولا يناله من الفلاح شيء، لأن الكفر منعه من ذلك.

هذا: ولما كان موضوع سورة (المؤمنون) هو إثبات توحيد الله تعالى، وإقامة الأدلة على ضلال المشركين، جاء هذا التعقيب مهدِّدًا كل من يعبد غير الله تعالى، ومبينًا لما حوته السورة من جدل وحجج ودلائل؛ لتنزيه الله تعالى عما يقولون.

فكل دعوى بألوهية أحد مع الله تعالى دعوى باطلة، ليس لها حجة من عقل ولا نقل.

ومن يعبد مع الله الواحد إلهًا آخر، لا حجة له على استحقاقه هذه العبادة؛ فإنما جزاؤه على عمله السيئ عند ربه في الآخرة، إذ لا فلاح ولا نجاح للكافرين يوم القيامة.

وهذا ردٌّ لعَجُز السورة على صدرها، فقد افتُتِحت السورة بإثبات فلاح المؤمنين، وخُتمت بنفي فلاح الكافرين، وما يراه الناس من نعمة الكافر ومتاعه وقوته وسلطانه في الدنيا، ليس فلاحًا في حقيقته، بل هو فتنة واستدراج، ينتهي بالوبال في الدنيا والعقاب في الآخرة.

ثم أرشدنا جل شأنه أن نُخْلص له العبادة والدعاء فقال:

١١٨- ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

علَّمنا سبحانه في ختام السورة أن ندعوه بالغفران والرحمة، وتجاوز الذنوب والسيئات، فيا رب اغفر للمؤمنين ذنوبهم، وارحم العصاة منهم، وأنت يا مولانا خير من يرحم، وخير من يغفر، فسدِّد أقوالنا وأفعالنا يا رب العالمين، فأنت أرحم الراحمين، وأنت سبحانك خيرُ من رَحِم صاحب ذنب وقَبِل توبته، وأنت أرحم من الوالدة بولدها، وأرحم بالإنسان من نفسه.

وقد علَّم النبي ﷺ أبا بكر ﷺ أن يقول ذلك في صلاته، فقد أخرج الشيخان وغيرهما، عن أبي بكر ﷺ أنه قال: يا رسول الله، علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي، فقال له:

«قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة

من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[١].

وورد أن عبد الله بن مسعود ﷺ قرأ هذه الآيات: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ إلى آخر السورة في أُذن رجل، فبرئ بإذن الله سبحانه، فلما علم النبي ﷺ بهذا الخبر، قال: بماذا قرأت؟ فأخبره، فقال ﷺ: **«والذي نفسي بيده، لو قرأها رجل موقنًا بها على جبل لأزال الله هذا الجبل»**[٢].

وعن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، وأمرنا أن نقول إذا أصبحنا وأمسينا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ فقرأناها؛ فغنِمْنا وسلمنا[٣].

تم تفسير (سورة المؤمنون) ولله الحمد والمنة



(١) البخاري برقم (٨٣٤، ٦٣٢٦، ٧٣٨٧) ومسلم برقم (٢٧٠٥) والترمذي برقم (٣٥٣١) والنسائي برقم (١٣٠١) وابن ماجه برقم (٣٨٣٥) وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٦٩) وغيرهم.

(٢) رواه أبو يعلى برقم (٥٠٤٥) بإسناد ضعيف كما قال محققه، وهو عند الحكيم الترمذي (٢/ ١٠٤) وأبي نعيم (١/ ٧) وغيرهم.

(٣) قال محقق «عمل اليوم والليلة»: فيه يزيد بن يوسف وعمرو بن يزيد، وهما ضعيفان، وهو عند ابن السني (٧٧) وأبي نعيم (١/ ٢٠٨) وفي «أسد الغابة» (١/ ٥١) و«الإصابة» (١/ ١٩).

تَفْسِيرُ سُورَةِ النُّورِ (٢٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة النور هي السورة الرابعة والعشرون في ترتيب المصحف، والمئة في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الحشر، وقبل سورة الحج، ونزلت قبلها سورة الأحزاب وهي سورة مدنية، وعدد آياتها أربع وستون آية في العدد الكوفي والبصري والشامي، واثنتان وستون آية في عدد أهل مكة والمدينة وثلاث وستون آية في العدد الحمصي.

وهي ألف وثلاثمئة وست عشرة كلمة، وخمسة آلاف وست مئة وثمانون حرفًا.

وقد نزلت آيات أحداث غزوة بني المصطلق، بعد شهر شعبان من السنة السادسة للهجرة، ونزل بعض أوائل السورة قبل ذلك بثلاث سنوات، أيام أن كان المسلمون يتلاحَقُو في الهجرة، ويأسر المشركون بعضهم بعضًا.

وسميت بسورة النور أخذًا من قول الله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [٣٥]. وهذه التسمية من عهد النبي ﷺ، ولم يُعرَف لها اسم آخر.

عن حارثة بن مضرِّب قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب: أن تعلَّموا سورة النساء، والأحزاب، والنور[١].

وهذا النور ماديٌّ ومعنويٌّ، وهو من أسماء الله الحسنى.

ومما رُوي في دعاء النبي ﷺ يوم آذاه المشركون بالطائف: **«أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحلّ بي غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله»**[٢].

ومن دعائه ﷺ وهو يقوم الليل: **«اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن**

---

(١) أخرجه أبو عبيدة في «الفضائل» ص ١٢٨ .

(٢) يُذكر هذا من دعاء النبي ﷺ حين رجع من الطائف، وانظر: الطبراني في «الكبير» (١٠٦٠٠) بنحوه، وهو في السلسلة الضعيفة للألباني عن عائشة برقم (٢٩٣٣).

فيهن، ولك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن»[١].

ومن دعاء النبي ﷺ إذا خرج إلى الصلاة: **«اللهم اجعل لي في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا، واجعل لي في سمعي نورًا، واجعل لي في بصري نورًا، واجعل لي من خلفي نورًا، ومن أمامي نورًا، واجعل من فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، اللهم أعطني نورًا)**[٢].

وعن ابن مسعود ﷺ: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه. . .

وقد صدَّر الله سبحانه سورة النور بهذا العنوان ﴿سُورَةٌ﴾ وكل سورة في القرآن اسمها سورة، ولكن لم تحْظَ سورة سواها بهذا التصدير؛ وذلك لبيان فضلها وعِظَم ما فيها من الأوامر والنواهي، والأحكام، والحلال والحرام، ولكي ينتبه المسلم لما في هذه السورة من الأحكام والآداب.

ويبيِّن الله جلَّ شأنه أن من هذه الأحكام: العقوبة للزاني، وللقاذف، وآداب الاستئذان والسلام، وغض البصر، وكلها فرائض وحدود، وسبل لوقاية المسلم من الوقوع في جريمة الزنى.

وقد تكرر لفت النظر إلى ما أتت به السورة من أحكام مرتين: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

وفي قوله جلَّ شأنه: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾. بالإضافة إلى الآية الأولى في بدء السورة، فتكون ثلاثًا.

وذُكر تبيين الآيات في سبع مواضع منها.

وبهذا فإن السورة أقامت تنظيمًا كاملًا لبناء المجتمع الإسلامي على الفقه والطهارة، وأقامت سياجًا منيعًا حول المحارم التي يخاف المسلم من الوقوع فيها.

---

(١) من حديث ابن عباس في البخاري.برقم (٦٣١٧) ومسلم برقم (٧٦٩).

(٢) من حديث طويل لابن عباس في البخاري (٦٣١٦) ومسلم (٧٦٣) و«المسند» (٢٥٦٧) و(٣١٩٤) وأبي داود (١٣٥٣) والترمذي (٣٤١٩)، وأخرجه الطيالسي (٢٧٠٦) وابن ماجه (٥٠٨) وابن خزيمة (١٢٧) وابن حبان (١٤٤٥).

وسورة النور تتحدث أساسًا عن جريمة الزنى والقذف به، بمناسبة قصة الإفك الذي رُميت به أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها.

فالسورة تبدأ بالحديث عن الزنى وحدِّه المقرر شرعًا، وتذكُر بعده حدَّ القذف والملاعنة بين الرجل والمرأة، وكأن هذا بمثابة المقدِّمة أو التوطئة لذكر حادثة الإفك، ثم تَذْكُر حادثة الإفك في عشر آيات، وجاء التعقيب عليها في ست آيات بعد ذلك.

وتتناول آيات السورة الوسائل التي تقي المسلم من الوقوع في جريمة الزنى، سواء أكانت آدابًا أم أخلاقًا، ونحو ذلك، فتتحدث عن صيانة البيوت وحرماتها، وأنه لا يجوز الاطلاع على ما في داخلها، ويَشْرعُ الله سبحانه في السورة: الإذن والسلام قبل الدخول في البيوت، ويوجب غضَّ البصر من الرجل والمرأة على حد سواء؛ لأن النظر بريد الزنى، وسهم مسموم من سهام إبليس، وهو مقدمة الزنى وأوله.

ثم تتحدث السورة عن حدود إبداء المرأة لزينتها عند المحارم وعند غير المحارم، وتُبيِّن أن الطريق الوحيد المشروع للغريزة الجنسية وإشباعها في الإنسان، هو الزواج المشروع.

وتتحدث السورة بعد ذلك عن تعليم الأطفال -وهم صبْية قبل سن البلوغ- ألَّا يدخلوا على آبائهم وأمهاتهم في وقت النوم والخلوة والراحة إلَّا بإذن؛ حتى لا تقع أعينهم على عوراتهم، أو على ما لا يجوز لهم الاطلاع عليه.

ويَشْرَعُ الله سبحانه الإذن في الدخول للأبناء على الآباء بعد سن البلوغ، وأنه يجب عليهم أن يستأذنوا كغيرهم عند إرادة الدخول على الأمهات والآباء.

ويخفف الله سبحانه في السورة -أي: يرفع الحرج- عن المرأة الكبيرة المُسِنَّة، في وضع الحجاب عنهامع عدم إظهار الزينة،فلها أن تخفف من ملابسها الخارجية في بيتها، وألَّا تتبرج بزينة،وتُبيِّن السورة مَنْ يجوز للمسلم أن يتناول معه الأكل من الأقارب والأصدقاء.

وفي منتصف السورة تُربَط كل هذه الأحكام بنور الإيمان الذي يقذفه الله سبحانه في قلب المؤمن، وتضرب المثل لهذا النور في قلب المؤمن، وتذكرُ أنه ظُلمة في قلب الكافر، وتبيِّن مجافاة المنافقين لهذه الأحكام التي نزلت على رسول الله ﷺ وجاءت في

كتابه الكريم، وفي ثنايا هذه الأحكام يربط الله سبحانه العبد بربه ربطًا إيمانيًا، فيبيِّن عاقبة المؤمنين والكافرين.

وتتحدث الآيات في السورة عن جانب من مظاهر قدرة الله تعالى في الكون، وأنه يقلِّب الليل والنهار، ويحوِّل السحاب إلى مطر لا غنى للخلق عنه، وهو جلَّ شأنه خلق كل دابة من ماء: فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، ويَعِدُ الله عباده المؤمنين المقيمين لمنهج الله تعالى أن يمكِّن لهم في الأرض، وأن يبدِّل خوفهم أمنًا، كما ذكرت السورة صفات المؤمن الحق في نهايتها.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **خمسة مقاطع**:

المقطع الأول: يتناول العلاقة الخاصة بين الرجال والنساء، والعقوبات على الجرائم الجنسية، والوقاية من الزنى بتشريع الحد فيه، وتحريم نكاح الزانية التي لم تتب، وحدّ القذف، وتشريع اللعان، وعدم اتباع خطوات الشيطان، ويتناول هذا المقطع، حديث الإفك، ومشاكلة الخبيثين للخبيثات، والطيبين للطيبات، وينتهي هذا المقطع بالآية السادسة والعشرين من السورة.

المقطع الثاني: يتناول وسائل الوقاية من جريمة الزنى، والآداب الخاصة بدخول البيوت، ومنها: الأمر بغضِّ البصر، والنهي عن إبداء زينة المرأة لغير محارمها، والحضُّ على إحصان الفرج بالزواج، وهذا المقطع من الآية السابعة والعشرين إلى الآية الرابعة والثلاثين من السورة.

المقطع الثالث: يتناول جانب الربط بين تشريع الأحكام ودلائل وحدانية الله تعالى، ويظهر أثر ذلك على المعمِّرين لبيوت الله تعالى بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ويقابل مَثَل النور للمؤمنين بمَثَل الظلمات للكافرين في ثنايا الأدلة على وحدانية الله تعالى، من تسبيح الخلائق بحمده، وتقلُّب الليل والنهار، وإزجاء السحاب، وخلْق الدواب على اختلاف أنواعها وأشكالها، وهذا المقطع من الآية الخامسة والثلاثين إلى الآية السادسة والأربعين من السورة.

المقطع الرابع: يتحدث عن مسلك المنافقين الرافضين لحكم الله ورسوله ﷺ، المتقوِّلين بالإفك على أم المؤمنين عائشة ﵂، وفي مقابلهم المؤمنون المطيعون لله

والرسول، أهل الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والنصر على غير المسلمين، وهذا المقطع من الآية السابعة والأربعين إلى الآية السابعة والخمسين من السورة.

المقطع الخامس: يتحدث عن آداب الاستئذان بالنسبة للصبيان والبالغين وأحكام الضيافة، وحكم القواعد من النساء.

وتختم السورة بوصفٍ جامعٍ للمؤمنين، والنهي عن نداء النبي ﷺ باسمه المجرد، وإعلان أن الله تعالى هو مالك هذا الكون بما فيه، وهذا المقطع من الآية الثامنة والخمسين إلى نهاية السورة.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

افْتِتَاحٌ فَرِيدٌ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي بَقِيَّةِ السُّوَرِ

١ - ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا[١] وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[٢] ①﴾

كأنَّ الله سبحانه يقول: في هذه السورة مراسيم إلهية فانتبهوا لها، وفيها آيات بينات فاعملوا بها، واتعظوا واعتبروا لعلكم تذكرون.

والمعنى: هذه سورة عظيمة من القرآن، أنزلناها رحمة بالعباد، وقدّرنا فيها ما قدّرنا من الحدود والشهادات والأحكام والآداب، يجب الاعتناء بها، والعمل بما فيها على وجه الإيجاب القطعي، من أحكام الحلال والحرام، والأمر والنهي، والحدود، والآداب والأخلاق، وقد شرعنا فيها أحكامًا مفسَّرات، واضحات الدلالة، أوجبْنا الأخذ بها، والعمل بمقتضاها.

ومن الآيات البينات: اشتمالها على التوحيد، وحقيقة الإسلام، ودلائل قدرة الله تعالى، وعلمه وحكمته.

ومن الآيات البينات: إطْلاعُ الله رسولَه ﷺ على دخائل بعض الناس مما كتموه في نفوسهم من النفاق، وما أظهروه من الإيمان، وما كادوا به للإسلام وأهله، سِيَّمَا النَّيل من أم المؤمنين عائشة ﵂.

وهذه الآيات مظنَّة التذكر؛ لتتذكروا -أيها المؤمنون- ما في هذه السورة من الآيات البينات، وتعملوا بما فيها.

والسورة: جزء من القرآن، فيها عدد من الآيات، لها بداية ونهاية.

وقد ذكرت سورة النور عشرة من الوسائل التي تؤدي إلى حفظ المجتمع من فاحشة

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديد الراء من (فرَّضناها) إشارة إلى الإلزام والإيجاب، أو إلى كثرة الأحكام المفروضة في السورة، وقرأ الباقون بتخفيفها، أي: أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجابًا قطعيًّا.

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الذال من (تذَكرون)، والباقون بتشديدها.

الزنى وهي في النصف الأول منها، بالإضافة إلى أدب الأبناء والخدم في الاستئذان، وقد جاء ذكره قرب نهاية السورة، وهو أيضًا من وسائل صيانة المجتمع المسلم من الرذيلة:

التَّدَابِيرُ الْوَاقِيَةُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الزِّنَى

أَوَّلًا: تَشْرِيعُ حَدِّ الزِّنَى

٢- ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ[١] جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ[٢] فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾

وتبدأ السورة بعد هذا الاستهلال بذكر الوسيلة الأولى لحفظ المجتمع من الفاحشة وهي الأمر بإقامة حدِّ الزاني، أو عقوبة الزاني والزانية البكريْن، وهي أن يُجلد كُلًّا منهما مئة جلدة، أما الثيبّ فقد دلت السنة الصحيحة على أنه يرجم حتى الموت.

والزنى: هو ما يكون بين الرجل والمرأة - غير الزوجة - من إدخال حشفة الذكر في فرج المرأة، بدون نكاح صحيح وبدون عِوَض، فإن كان بعوض فهو بغاء.

فكنّ يجْهرن به في الجاهلية بين الإماء، فكانت البغايا يجعلْن رايات على بيوتهن.

وكان أهل الجاهلية لا يعاقبون على الزنى إذا كان بالتراضي بين الرجل والمرأة، وبحكم أهل الجاهلية تحكم القوانين الوضعية في بعض الدول الإسلامية وغيرها، ومن هنا تجرَّأت الحضارة المعاصرة على المنكرات فاستباحتها، وأصبح الزنى حبًّا وصداقة، وارتكابه أخف بكثير من تعدد الزوجات! فوجدنا مَنْ يعاقب على الزواج الثاني، ولا يعاقب على ارتكاب الفواحش، ووجدنا من يَعُدُّ أبناء السفاح مواليد شرعيين ترعاهم الدولة!

وتقديم المرأة الزانية على الرجل في الآية؛ لأن المرأة لها الضلع الأكبر في ارتكاب هذه الجريمة.

---

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة (مائة) ياء وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

(٢) قرأ ابن كثير بخلف عن البزي بفتح همزة (رأفة)، والباقون بإسكانها، وهو الوجه الثاني للبزي، وهما لغتان، وقرأ الأصبهاني عن ورش، وأبو جعفر وأبو عمرو بخلفه بإبدال الهمزة ألفًا وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

فهي التي تَظْهَر سافرة متبرجة متعطرة، وهي التي تخضع بالقول، وتجعل الرجل يطمع فيها، وهي التي تمكِّن الرجل من نفسها، ولولا ذلك ما حدثت جريمة الزنى، وهي التي تُلحق العار بأهلها وبيتها وقومها وعشيرتها، وتُدنس فراشها وفراش أهلها وفراش زوجها، وهي التي تتسبب في خلط الأنساب، فيولَد بعض الأطفال من غير آبائهم، ويُنسَبون إليهم، فتتسبب في فساد الأنساب وخلطها، ولو منعت المرأة نفسها لم يجد الرجل إلى الزنى سبيلًا، ولذلك قُدِّمت المرأة على الرجل في أمر الزنى، فقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾.

أما في السرقة، فالرجل أقوى وأجرأ من المرأة على ارتكاب هذه الجريمة، ولذا قُدِّم الرجل على المرأة في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

وقد شرَّع الله سبحانه في أول سورة النور عقوبة الجَلْد بالنسبة للزاني البكر الحُرّ الذي لم يسبق له الزواج، وهو بالغ عاقل، فجعل عقوبته مئة جلدة بالسوط، في ضرب موجع مؤلم ﴿فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ بالنسبة للحرة، والجارية وهي الأمة، تُجلد خمسين جلدة، كما جلد عبد الله بن عمر ﷺ جارية كانت عنده زنت، فأمر الجلَّاد فجلَدها على ظهرها ورجليها، فقال له ابنه: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾، فقال: يا بني، أرأيتني أخذَتْني بها رأفة؟ إن الله لم يأمرني أن أقتلها، وقد ضربتُ فأوجعت[١].

والحكم قائم في حالة وجود الرق في أي مكان من العالم، قال تعالى:
﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء: ٢٥].

وبيَّنت السُّنَّة الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ أن الزاني غير المحصن والزانية غير المحصنة -أي: اللَّذيْن لم يسبق لهما الزواج- عقوبة كل منهما الجلد، بالضرب بالسوط، وهو السَّير من الجِلْد.

ويضاف إلى هذه العقوبة من السُّنَّة: الإبعاد والطرد، وفي معناه: الحبس أو السجن والنفي عامًا كاملًا عند جمهور الفقهاء، خلافًا لأبي حنيفة، كما جاء في حديث عبادة بن

---

(١) «مصنف عبد الرزاق» (١٣٥٣٧) و«تفسير الطبري» (١٧/ ١٤٠) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٥١٨).

الصامت ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلًا، البكر بالبكر جلد مئة وتغريب عام، والثيِّب بالثيِّب جلد مئة والرجم»**[١].

فغير المحصن، رجلًا كان أو امرأة، يُجْلَد مئة جلدة، كما جاء في كتاب الله، ويُنفى عن بلده، أي: يحبس ويسجن عامًا كاملًا، أخذًا من سنة المصطفى ﷺ ويُقام الحدُّ عليهما بلا هوادة، ولا تسامح، ولا رحمة، ولاشفقة، ولا وساطة، ولاعاطفة، فإن كنتم ممن يؤمن بالله حقًّا وصدقًا، وممن يُصدِّق باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، فلا تأخذكم بهما رحمة في إقامة حدود الله، لا رأفة قرابة ولا رأفة عاطفة، والإيمان بالله، يوجب انتفاء هذه الرأفة المانعة من إقامة حدود الله.

ثم ليكن هذا الجلد بحضور جماعة من المؤمنين وليس سرًّا؛ للتشهير والتشنيع، وللردع والزجر، والاعتبار، وللتحقق من إقامة الحدّ على الوجه الشرعي، وهذه الجماعة تختلف في العدد من المدينة إلى القرية، إلى ما هو دون ذلك، ولكن ذَكَر بعض أهل العلم أن أقلّه أربعة، يروْن إقامة الحد رأي العين، وهو العدد الذي يثبُت به حد الزنى، قال تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ﴾ أي: جمع من المؤمنين، تختلف قلته وكثرته من مكان إلى مكان، ومشاهدة إقامة الحدود يقوي العلم بها ويستقر بها الفهم.

أما **حد الزاني المحصن**، أي: الذي سبق له الزواج، ووَطِئ في نكاح صحيح، وكان بالغًا عاقلًا، فهو الرجم حتى الموت، وقد أُخذ هذا الحكم من الكتاب والسُّنَّة،

أما الكتاب فبآيتين: آية منسوخة التلاوة، باقية الحكم، وهي قوله تعالى:

(الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالًا من الله والله عزيز حكيم).

في الصحيحين وغيرهما عن ابن عباس ﷺ قال: قال عمر ﷺ وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ: إن الله قد بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أُنزل عليه آية الرجم، قرأناها، ووعيناها، وعقلناها، فرَجَم رسول الله ﷺ، ورجَمْنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان، أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٦٩٠) وأخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٣١٧) برقم (٢٢٦٦٦، ٢٢٧٠٣، ٢٢٧٨٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات (محققوه) و«سنن أبي داود» برقم (٤٤١٦) و«سنن الترمذي» برقم (١٤٣٤) و«السنن الكبرى» للنسائي برقم (١١٠٩٢) وابن ماجه برقم (٢٥٥٠).

فريضة أنزلها الله، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أَحصن، من الرجال والنساء إذا قامت البينة، أو كان الحَبَل، أو الاعتراف[(١)].

وأخرج الإمام أحمد وغيره بسنده إلى كثير بن الصلت قال: كان سعيد بن العاص وزيد بن ثابت، يكتبان المصاحف، فمرَّا على هذه الآية، فقال زيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) فقال عمر: لما أنزلت هذه أتيت رسول الله ﷺ فقلت: أَكْتِبْنيها قال شعبة: فكأنه كره كذلك، فقال عمر: ألا ترى أن الشيخ إذا لم يُحْصن جُلد؟ وأن الشاب إذا زنى وقد أُحصِن رُجِم) [(٢)].

وقد رفع الإمام مالك هذا الإشكال، فبيّن أن المراد بالشيخ والشيخة: الثيِّب والثيِّبة سواء أكانا شابّيْن أم شيخيْن[(٣)].

فهذا الحديث دليل صريح على أن الرجم ثابت بآية من كتاب الله، أُنْزلت على رسول الله ﷺ، وقرأها الصحابة، ووعَوْها وعقلُوها، ثم نسخت، وأن حكمها باقٍ؛ لأن النبي ﷺ قد فعله، والصحابة ﷺ قد فعلوه من بعده، كما جاء في الصحيحين.

ولكن ما الحكمة في نسخ تلاوتها وبقاء حكمها؟ قالوا: لأن الله سبحانه لم يُرد التعبد بهذه الآية، ولم يُرد تلاوتها، إنما أراد بقاء حكمها فحسب، فأنزلها الله تعالى بعض الوقت، حتى فهمها الصحابة وأدركوها وعملوا بما فيها، وفهمتْها الأمة، ثم نسخها الله سبحانه.

وقد فسَّر الإمام مالك الشيخ والشيخة: بالثيِّب والثيِّبة اللذيْن سبق لهما الإحصان والزواج كما سبق بيانه.

---

(١) يُنظَر: البخاري برقم (٦٨٢٩، ٦٨٣٠) وصحيح مسلم برقم (١٦٩١) من حديث ابن شهاب الزهري عن ابن عباس واللفظ له وهو جزء من حديث (٦٨٣٠) في البخاري وانظر: «المسند» (١/ ٢٩) (٢١٥٩٦) والنسائي برقم (٧١٥٤) و«الموطأ» (٢/ ٨٢٢).

(٢) «المسند» (٥/ ١٨٢) برقم (٢١٥٩٦) قال محققوه: رجاله ثقات رجال الشيخين غير كثير بن الصلت فقد روى له النسائي وهو ثقة، و«سنن الدارمي» (٢/ ١٧٩) (٢٣٢٣) و«المستدرك» (٤/ ٣٦٠) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه ابن حجر في «الفتح» (٩/ ٦٥) وأخرجه النسائي في الكبرى (٧١٤٥) والبيهقي (٨/ ٢١١).

(٣) يُنظر: تحقيق مسند الإمام أحمد (٣٥/ ٤٧٣) بإشراف الدكتور عبدالله التركي.

أما **الآية الثانية** الدالة على حكم الرجم في التوراة، وهي باقية الحكم والتلاوة معًا، فهي الآية الثالثة والعشرون من سورة آل عمران ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

هذه الآية نزلت في شأن يهوديين زنيا بعد إحصان، وجاءا إلى النبي ﷺ فحكم عليهما بالرجم، كما في التوراة، وقصتهما في الصحيحين معروفة مشهورة، وقد حكم النبي ﷺ عليهما بالرجم، وجاء وصْف اليهود الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب بأنهم ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: إن هذين اليهوديين أعرضا ولم يريدا ما في التوراة، فثبت بهذا أن الرجم في الإسلام ثابت ضمنًا بمقتضى هذه الآية أيضًا، وشَرْعُ مَنْ قبلنا شرع لنا ما لم يردْ ناسخ، وهي آية ثابتة التلاوة والحكم، وهو حدٌّ باقٍ ولم يُنسَخ.

ومن الأحاديث الصحيحة في هذا المقام ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة وزيد بن خالد أن أعرابيين قدما على النبي ﷺ قال أحدهما: يا رسول الله، إن ابني هذا كان عسيفًا -أي: أجيرًا أو مزارعًا- عند هذا الأعرابي، فزنى بامرأته، فافتديتُ منه بمئة شاة، ووليدة -أي: جارية- ثم سألتُ أهل العلم، فقالوا لي: إن على زوجة هذا الرجم، وعلى ابنك جلْد مئة وتغريب عام، فقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله، الغنَم والوليدة ردٌّ عليك**» -أي مردودة لك- «**وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغدُ يا أنيس**» وهو رجل من الصحابة، قال له النبي ﷺ: «**اذهب إلى امرأة هذا فاسألها، فإن اعترفَتْ فارجُمْها**». فغدا إليها فأقرت واعترفت؛ فرجمها.

وهذا الحديث ثابت في البخاري ومسلم، وغيرهما[(١)].

وهذا الافتداء المذكور في الحديث هو الذي كان معمولًا به في الجاهلية، ثم فرض الإسلام عقوبة الزاني، بإيذاء الرجُل وحبْس المرأة، على رأي في الآيتين كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٣١٤، ٦٦٣٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٩٧، ١٦٩٨).

وكان ذلك حكمًا مؤقتًا، ثم فُرض حد الزاني بما في هذه السورة.

وقد ثبت الرجم للزاني المحصن بالسُّنَّة المتواترة من أقوال الرسول وأفعاله، وأنه ﷺ رجم ماعزًا، ورجم المرأة الغامدية، والمرأة التي من جهينة، كما جاء في صحيح مسلم: عن عمران بن حصين أن امرأة من جهينة أتت نبي الله ﷺ وهي حُبْلَى من الزنا، فقالت: يانبي الله، أصبت حدًّا فأقمه عليَّ، فدعا نبي الله ﷺ وليَّها فقال: «**أحسن إليها، فإذا وضعتْ فَأْتِني بها**»، ففعل، فأمر بها نبي الله فشُدَّت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرُجمت، ثم صلَّى عليها، فقال له عمر: تصلي عليها يانبي الله وقد زنت؟! فقال: «**لقد تابت توبة لو قُسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتْهم، وهل وجدْتَ توبة أفضل من أنْ جادت بنفسها لله تعالى**»[1].

وعن جابر بن عبد الله ﷺ أن رجلًا من أسلم أتى رسول الله ﷺ فحدثه أنه قد زنى، فشهد على نفسه أربع شهادات، فأمر به رسول الله ﷺ، فرُجم، وكان قد أُحصن[2].

وهذا كله ثابت من فعل الرسول ﷺ، فرجْمُ الزاني المحصن من الرجال والنساء، ثابت بالكتاب والسُّنَّة وإجماع أهل العلم الشرعي.

وما جاء عن الإمام أحمد من أنه يجب أن يُجمع على الزاني المحصن بين الجلدوالرجم أخذًا من الآية، و من حديث عبادة السابق، وفيه: «**... والثيب بالثيب، جلد مئة والرجم**».

ولأن عليًا ﷺ جلَد امرأة من أهل الكوفة مُحْصنة قد زنت يقال لها: شُراحة، جلَدَها يوم الخميس، ورجمها يوم الجمعة، ثم قال: جلَدتُها بكتاب الله، ورجمْتُها بسُنَّة رسول الله ﷺ[3].

فقد قال الإمام النووي في الإجابة على الجمع بين الرجم والجلد بالنسبة للزاني المحصن: وحديث الجمع بين الجَلْد والرجم منسوخ؛ لأنه كان أول الأمر، وقال جماهير

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٦٩٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٧٠، ٦٨١٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٩١).

(٣) في «صحيح البخاري» برقم (٦٨١٢) ورواه أحمد في «المسند» برقم (٧١٦) وعند النسائي في الكبرى (٧١٤) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٢٩) والحاكم (٤/ ٣٦٥).

العلماء: الواجب الرجم وحده[١].

وقد وردت الأحاديث الصحيحة متعددة الطرق بالاقتصار على الرجم، وليس فيه ذكر الجلْد، ولم يُنقل عن رسول الله ﷺ أنه جلَد قبل الرجم ماعزًا، أو الغامدية، أو الجهنية، وقد فُرض حد الزنى بالجلد في الآية الثانية من هذه السورة، وهي آية عامة، تشمل المحصَن وغيره، ثم خصصت السُّنَّة هذا العموم بغير المحصَن من الرجال والنساء.

ويتولى أمر الرجم أو الجلد، مَنْ يتولَّى أمر المسلمين من الأمراء، والقضاة، والحكام، ومن ينيبونهم في ذلك، ولا يتولاه غيرهم، كصاحب الشأن أو عامة الناس.

تحريم الشفاعة في الحدود:

وتحْرُم الشفاعة لمنع إقامة الحد عليهما، وهي الشفاعة السيئة التي جاءت في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥].

وهي الشفاعة لتعطيل حدود الله؛ إذ إنه بعد وصول الأمر إلى القاضي لا شفاعة في الحدود.

جاء في الحديث عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن النبي ﷺ قال: **«تعافوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حدٍّ فقد وجب»**[٢].

وفي الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«حَدٌّ يُعمل به في الأرض، خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحًا»**[٣].

وجاء عن رسول الله ﷺ من حديث ابن عمر ﷺ: **«من حالت شفاعته دون حدٍّ من**

(١) «شرح مسلم» (١١/ ١٨٩).

(٢) أبو داود برقم (٤٣٧٦) وصحيح أبي داود (٣٦٨٠) والنسائي في «السنن» (٨/ ٧٠) وصحيح النسائي (٤٨٨٥) بتصحيح الألباني من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، هو في «صحيح الجامع» برقم (٢٩٥١).

(٣) «المسند» (٢/ ٣٦٢) برقم (٨٧٣٨، ٩٢٢٦) قال محققوه: إسناده ضعيف، لضعف جرير بن يزيد، وابن حبان (٤٣٩٨) والنسائي في «السنن» (٨/ ٧٥) من حديث أبي هريرة، وفي «السنن الكبرى» (٧٣٥٠) وابن ماجه (٢٥٣٨) ورواية «أربعين صباحًا» أصح من «رواية ثلاثين»، صباحًا كما قال النسائي في «السنن الكبرى».

حدود الله فقد ضادَّ الله في ملكه» وفي رواية: **«في أمره»**[١].

أي: مَنْ حالت شفاعته دون إقامة حدٍّ من حدود الله، فقد ضادَّ الله في أمره، وذلك حين يشفع لقريب أو صهر أو صديق، ونحو ذلك، سواء أكانت هذه الشفاعة السيئة مقابل منفعة، أم حَمِيَّة وعصبية، أم لجاهه ومكانته بين الناس، أم غير ذلك.

ولا تُعطَّل الحدود، ولا يُخفف منها، ولا تُنقص، سِيَّمَا إذا كان المُقام عليه الحد صاحب جاه، أو منصب ونحو ذلك؛ فإن تعطيل حدود الله أمر عظيم في الإسلام، والرأفة لتعطيل حدود الله، ومنع إقامة دينه، رأفة غير محمودة، والله الذي شرع الحد أرأف بعباده من رأفة بعضهم لبعض.

في مسند أبي يعلى عن حذيفة: **«ويؤتى بالذي ضَرَبَ فوق الحدِّ، فيقول الله له: عبدي، لمَ ضربْتَ فوق الحدِّ؟ فيقول: غضِبْتُ لك، فيقول الله: أكان غضبك أشد من غضبي؟ ويؤتى بالذي قصَّر فيقول: عبدي لِمَ قصَّرت؟ فيقول: رَحِمْتُه، فيقول: أكانت رحمتك أشد من رحمتي»**[٢].

ثَانِيًا: النَّهْيُ عَنْ زَوَاجِ الزَّانِي والزَّانِيَةِ مَا لَمْ يَتُوبَا

٣- ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

هذه الآية تنهي عن التزوج بالزاني أو الزانية حتى يتوبا من الزنى، وهذه هي الوسيلة الثانية لحفظ المجتمع من الفاحشة، وتنهي كذلك عن التزوج بالمشرك والمشركة حتى يتوبا من الشرك، فالمشرك لا يعترف بحرمة الزنى، وقد حرم الله تعالى زواج من اتصف بالزنى أو الشرك على المؤمنين قبل التوبة، وفي هذا بيان لرذيلة الزنى، وأنه يدنس عِرْض

(١) صححه الألباني عن أحمد وأبي داود في «السلسلة الصحيحة» برقم (٤٣٨) من حديث ابن عمر، وأخرجه الحاكم وابن أبي شيبة والطبراني في «الأوسط»، يُنظَر: «نيل الأوطار» (٧/ ٢٧٤) وهو في «المسند» برقم (٥٣٨٥، ٥٥٤٤)، بإسناد صحيح ورجال ثقات، وعند الحاكم (٢/ ٢٧) والبيهقي في السنن (٦/ ٨٢) وفي الشعب (٧٦٧٣) وأبي داود (٣٥٩٧).

(٢) الأثر في كنزل العمال للمتقي الهندي برقم (١٤٧٦٩) وأوله: (يؤتي بالوُلاة يوم القيامة عادِلِهم وجائرهم..)

صاحبه وعرض من يقترن به قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصفافات: ٢٢]

وفي الحديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» فالزاني والسارق وشارب الخمر، ينتفي عنهم صفة الإيمان حال ارتكاب أحد هذه الجرائم الثلاث.

وقد نزلت هذه الآية جوابًا لمن سأل عن الزواج من البغايا، بقصد التشنيع وتبشيع أمره، وبيان أنه محرم على المؤمنين، وكان من أصحاب النبي ﷺ مَنْ هاجر إلى المدينة، وترك في مكة امرأته وأولاده وأمواله ودياره، وأصبح في المدينة فقيرًا لا يجد شيئًا، فوجد بعضُ هؤلاء الفقراء من المهاجرين بعضَ النسوة في المدينة من البغايا، وهن من أغنى القوم، فذكر بعضهم للنبي ﷺ أنه يريد الزواج من بعض هؤلاء البغايا.

ومن ذلك أن امرأة جميلة كانت تُدْعى أم جميل، وكانت من البغايا، وكان رجل يريد أن يتزوجها؛ لتنفق عليه من كسبها، فنهى الله سبحانه أن يتزوج المسلم من هؤلاء البغايا[1].

ووردت روايات كثيرة في أسباب نزول هذه الآية بهذا المعنى، منها أن نسوة من البغايا يردْن الزواج من هؤلاء الفقراء، منهن تسع في مكة، وأخريات في المدينة.

وكانت المرأة البغيُّ لها راية تضعها فوق بيتها؛ للإشعار أن من يُرد الزنى يدخل هذا المكان، وتسمى هذه البيوت بالمواخير، ومنهن امرأة يقال لها: أم مهزول، وكانت هذه المرأة جارية عند السائب بن أبي السائب المخزومي، وكانت تسافح الرجال، وتشترط على من يتزوجها أن تنفق عليه، فتقدَّم رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ يريد أن يتزوجها، فأنزل الله سبحانه: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾[2].

قال عكرمة: نزلت هذه الآية في نساء بغايا بمكة والمدينة -وكُنَّ كثيرات- ومنهن تسع، صواحب رايات، لهن رايات كَرَايات البيطار يعرفونها، وهن:

١- (أم مهزول) جارية السائب بن أبي السائب المخزومي.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٢٧٣) عن مجاهد مرسلًا وأخرجه عبد بن حميد وغيره.

(٢) يُنظَر: «المسند» (٢/ ١٥٩) برقم (٦٤٨٠) قال محققوه: وهو حديث حسن، وفي إسناده ضعف لجهالة الحضرمي، والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٣٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو، والطبراني في الأوسط، (١٨١٩) والطبري في تفسيره (١٨٥/ ٧١) والبيهقي في السنن (٧/ ١٥٣).

٢- و(أم غليظ) جارية صفوان بن أمية.

٣- و(حنة القبطية) جارية العاص بن وائل.

٤- و(مزنة) جارية مالك بن عمثلة بن سباق.

٥- و(خلالة) جارية سهيل بن عمرو.

٦- و(أم سويد) جارية عمرو بن عثمان المخزومي.

٧- و(شريفة) جارية زمعة بن الأسود.

٨ - و(قرينة) جارية هشام بن ربيعة.

٩- و(فرتنا) جارية هلال بن أنس.

وكانت بيوتهن تسمى المواخير، لا يدخل عليهن ولا يأتيهن إلا زانٍ من أهل القبيلة، أو مشركٌ من أهل الأوثان، فأراد ناس من المسلمين نكاحهن؛ ليتخذوهن مأكلة، فأنزل الله الآية، ونهى المؤمنين عن ذلك وحرَّمه عليهم(١).

كما كان بالمدينة إماء لعبد الله بن أُبي بن سلول وغيره مشهورات.

ومن ذلك أن مرثد بن أبي مرثد الغنَوي أسلم وهاجر إلى المدينة،وكان قبل إسلامه، له خليلة في مكة: امرأة من البغايا يقال لها: (عَنَاق)، فلما أسلم الرجل، وهاجر إلى المدينة كان يأتي إلى مكة بين الحين والآخر؛ كي يحمل الأسرى من المسلمين الذين حبسهم المشركون فيها؛ لأنهم أسلموا، ولم يتركوهم لِيُهاجروا، وهم من ضعفاء المسلمين الذين لم يتمكنوا من الهجرة، فكان مرثد يأخذ الأسير منهم ليلًا، ويذهب به إلى المدينة.

فجاء ذات ليلة -وكانت ليلة مقمرة- فرأته (عناق) فجاءت إليه، وقالت له: أهلًا ومرحبًا بك يا مرثد، هلًا، بتْ عندنا هذه الليلة. قال: يا عناق، إن الله قد حرم الزنى، فلما امتنع منها حرَّضتْ عليه الكفار، وقالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسْراكم إلى المدينة، فتبعه ثمانية منهم، فدخل مرثد في غار بجبل، ووصلوا إليه حتى قاموا على رأسه، ولكن الله أعمى أبصارهم فلم يروْه.

---

(١) «أسباب النزول» للواحدي ص ٢٦٢. والسيوطي ص ١٩٢، و«الدر المنثور» (١٩/٥).

فلما رجعوا حمَل مرثد أسيره، وذهب به إلى المدينة وكان رجلًا ثقيل الوزن.

وفي رواية أن المرأة لَمَّا قال لها: إن الله حرم الزنى، قالت له: تزوجْني، فذكر ذلك للنبي ﷺ: أأنكحها؟ أي: هل أتزوجها يا رسول الله؟ فسكت النبي ﷺ، ثم ذكَّره مرثد مرة ثانية، فسكت النبي ﷺ حتى أنزل الله الآية: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ فقال: **«يا مرثد، لا تنكحها»**[1].

أي: إن الزاني لا يليق به أن يتزوج إلا من كان على شاكلته، وهو بطبيعته لا يألف المرأة العفيفة المتَّزنة، فالطيور على أشكالها تقع، فالخبيثات للخبيثين، والخبيثون للخبيثات، والطيبات للطيبين، والطيبون للطيبات، فالزاني لا يألف إلَّا مثله، والزانية لا تحب أن تتزوج من رجل ملتزم طاهر عفيف، والزاني رجل دنِئ ، لا يليق به أن يقترن بالمرأة العفيفة، لأنه لن يحفظ لهاحقها، وكذلك المرأة الزانية لا تليق بالرجل العفيف، لأنها ستفسد عليه دينه، وتدنس عرضه وفراشه، وتخلط عليه نسبه!!

في حديث أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: **«لا ينكح الزاني المجلود إلا مثلَه»**[2].

وعن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا يدخلون الجنة، ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق والديه، والمرأة المترجِّلة، والدَّيُّوث»**[3].

والمعنى: أن من كان الزنى دأبًا له، وخُلُقًا قد تخلَّق به، ولازمَهُ ولم يتب منه، ولم يُقر بحرْمته، فإنه لا يجوز الزواج منه، رجلًا كان أو امرأة؛ لأنه لا يرغب في معاشرة الزانية إلا من تروق له أخلاقها، والعكس صحيح.

---

(١) يُنظَر حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده في «سنن الترمذي» برقم (٣١٧٧) وأبو داود برقم (٢٠٥١) و«سنن النسائي» (٦/ ٦٦) وحسن إسناده الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٥٣٨) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، «المستدرك» (٢/ ١٦٦).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» برقم (١٨٠٧) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرك» (٢/ ١٩٣) وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير برقم (٥٩).

(٣) «المسند» (١٠/ ٣٢١) برقم (٥٣٧٢، ٦١١٣) والنسائي (٢٥٦١) و«صحيح سنن النسائي» (٢٤٠٢) والنسائي في «السنن الكبرى» (٢٣٥٤) والبزار (١٨٧٥) وأبو يعلى (٥٥٥٦) والطبراني في «الكبير» (١٣١٨٠، ١٣٤٤٢) وابن حبان (٧٣٤٠) والبيهقي في «السنن» (٨/ ٢٨٨) و«الشعب» (٧٨٠٣).

وقد ابتدأ سبحانه هذه الآية بذكر الزاني قبل الزانية؛ لأنه هو الخاطب، ومنه يبدأ الطلب؛ ولأن سبب النزول كان رغبة رجل في التزوج من امرأة تعوَّدت الزنى، ولم تتُب منه، فاقتضى المقام مذمة أمثال هذا الرجل؛ لأن المؤمن الصالح لا يتزوج الزانية، وحُرِّم نكاح الزانية التي لم تتب منه على المؤمنين.

وجمهور أهل العلم على أن المراد بالتحريم في الآية: هو كراهة التنزيه، وبهذا قال الأئمة الثلاثة: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وقال بعضهم، ومنهم الإمام أحمد: إن التحريم على ظاهره.

قال سبحانه: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حرم الله الزنا، أو حرم الزواج بين الزاني المشرك والعفيفة، وبالعكس، وهؤلاء البغايا كُنَّ مشركات، ولذلك قال تعالى: ﴿لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ فالمرأة كانت مشركة بطبيعة الحال، أما إن تابت ورجعت إلى الله سبحانه وأنابت إليه؛ فإنه يجوز الزواج منها، ولفظ النكاح في الآية يشمل العقد والجماع معًا.

ثَالِثًا: تَشْرِيعُ حَدِّ الْقَذْفِ

٤- ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ[1] ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾

بيّن سبحانه أن الذين يتهمون النساء الحرائر العفيفات، وكذ الرجال، بدون بيِّنة، لهم ثلاث عقوبات هي:

١- الجلد ثمانين جلدة. ٢- ورد شهادتهم حتى يتوبوا.

٣- والحكم عليهم بالفسق حتى يتوبوا.

فإن كان المقذوف غير محصن عفيف، فعقوبته التعزير.

وقد نزلت هذه الآية في حد القذف، ورمي النساء عمومًا بالفاحشة، وقذفُ الرجال يدخل في الحكم، بالإجماع، وهذه هي الوسيلة الثالثة من وسائل حفظ المجتمع من الوقوع في الفاحشة.

---

(١) قرأ الكسائي بكسر الصاد من (المحصِنات). والباقون بفتحها.

والمراد **بالإحصان**: العفة، ويخرج من هذا الوصف من ثبت عليها الزنى، ويُجلد القاذف ثمانين جلدة.

بم يثبت الزنى:

ويثبت الزنى بالإقرار، أو بشهادة أربعة شهود عدول، أو بالحمل ممن قُذفت به، فإن ثبت هذا رُدَّ عن القاذف حد القذف، وإلا أقيم عليه الحد، وكل واقعة في الإسلام جناية كانت، أو جريمة مالية، أو بدنية، تكفي فيها شهادة: رجلين، وفي جرائم الأموال: رجل وامرأتان، أما الزنى فهو الجريمة الوحيدة التي لا تثبت إلَّا بالإقرار، أو بشهادة أربعة رجال عدول، يشهد كل منهم شهادة مستقلة لا تختلف عن الآخرين، يشهدون أنهم رأوا بأعينهم الذكر داخل الفرج، ويجوز في هذه الحالة الاطلاع على العورة لإثبات الجريمة، ولإقامة حدود الله، فلا تثبت الجريمة إلا بأربعة شهود، فإن كانوا ثلاثة فإنهم قَذَفَة، يقام عليهم الحدُّ.

ففي حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال: جاءت اليهود برجل وامرأة منهم زنيا، فدعا رسول الله ﷺ بالشهود، فجاؤوا بأربعة، فشهدوا بأنهم رأوْا ذَكَرَهُ في فرجها، مثْل المِرْوَدِ في المكْحلة، فأمر رسول الله ﷺ برجمهما[١].

ويُسأل كل واحد من الشهود على انفراد دون حضور الآخرين، فيشهد كل واحد منهم أنه رأى الرجل قد أدخل فرجه في فرجها، كدخول المرود في المكحلة، أي: أوْلَجَهُ فيه، فإن اختلفوا في شهادتهم، أو كانوا أقل من أربعة، فلا يجوز لهم النظر إلى عورة الزاني؛ لأنه لا فائدة في شهادتهم، فإن شهد اثنان أن الرجل زنى بالمرأة وهي مكرهة ومجبرة، وشهد اثنان أنه زنى بها وهي مطاوعة، أو موافقة، فلا حدَّ على المرأة إجماعًا؛ إذ لابد من تطابق الشهادة في كل الأحوال.

ولذلك فإنه في عهد عمر ﷺ اتُّهم ثلاثة، المغيرة بن شعبة بالزنى، وهناك شخص رابع نكل في شهادته، فأقام عمر الحدَّ على الثلاثة[٢]؛ لأنه لابد من شهادة أربعة لإثبات هذه الجريمة.

---

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» برقم (٤٤٥٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٧٤٠).

(٢) يُنظَر الأثر في «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٥٢) و«المصنف» برقم (١٣٥٦٤).

والله سبحانه حكيم عليم بشؤون خلقه، وما يُصلح أحوالهم، فالنفوس ضعيفة، ولولا ذلك لقال كل إنسان ما شاء فيمن شاء، إذا أراد أن يَفْضَح غيره، أو أن يُشهِّر به، أو يتشفَّى فيه، ولذلك كانت جريمة الزنى لا تثبت إلَّا بشهود أربعة دون بقية الجرائم، بما في ذلك جريمة القتل؛ لأن ترك الألسنة تُلْقي التُّهم على العفيفات الحرائر -ثيبات وأبكارًا- بدون دليل قاطع، يجعل المجال فسيحًا لكل من شاء أن يقذف بريئًا أو بريئة؛ ليلوِّث سُمْعته، ويُفْشي في المجتمع قالة السوء.

وقد يقتفي أثرها بعض من في قلوبهم مرض؛ لذلك شدَّد الإسلام في صيانة الأعراض، فجعل عقوبة القذف قريبة من عقوبة الزنى -ثمانين جلدة- هذه هي العقوبة الأولى وزاد على الجلد: رد شهادة القاذف ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا﴾ هذه هي العقوبة الثانية، أي: أن شهادتهم مردودة، وهي عقوبة معنوية قائمة، ما دام مصرًّا على الذنب ولم يتب.

والعقوبة الثالثة: الحكم عليه بالفسق وهي عقوبة دينية، قال تعالى: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ الخارجون على حدود طاعة الله ورسوله، المحبون لإشاعة الفاحشة بين الناس، المنتهكون لأعراض الناس.

وفي هذا دليل على أن القذف من كبائر الذنوب، وقد جاء هذا صريحًا في حديث «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر منهم «وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». قال تعالى:

٥- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

توبة القاذف أن يكذب نفسه، ويُقِرّ أنه كاذب فيما قال، ولو كان قوله صحيحًا، لكنه لم يأت بأربعة شهود، في أحد القولين، فإن تاب وبّدل إساءته إحسانًا، زال عنه الفسق وقُبلت شهادته، بهذا قال جمع من الصحابة والتابعين كما سيأتي.

وهذا الاستثناء لا يشمل الجلد بعد وصول الأمر إلى القاضي، فيقام عليه حدُّ القذف وإن تاب، والتوبة تكون بقبول شهادته بعد التوبة، وزوال صفة الفسق عنه عند جمهور الفقهاء؛ وذلك لأن الحدود الشرعية لا تسقط بالتوبة.

والتوبة: هي الإقلاع والندم، والعزم على عدم العودة، وليس من شروط التوبة أن يكذِّب الإنسان نفسه فيما قذف به غيره عند الجمهور، إن كان صادقًا فيما قال، ولكنه عجز عن إثبات ذلك بأربعة شهداء، فتوبته في هذه الحالة أن يُصلح نفسه، ويُحسِّن حاله، ويثبت على التوبة والاستقامة، هذا قول.

وقال عمر ﷺ: **التوبة في هذه الحالة**: هي الرجوع عن القول، يعني: أن يعترف اعترافًا واضحًا صريحًا بأنه كان كاذبًا فيما ادعاه، وفيما رمى به هذه المرأة أو هذا الرجل من الزنى، فمن التوبة أن يُصْلح ما قال ما دام كاذبًا فيه، بأن يرجع في قوله أمام من تكلم عندهم، وقال بذلك ابن عمر، وعطاء، والشعبي، والزهري، وطاوس، ومسروق[١].

قلت: ولعل هذا هو الأصح، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ فإن تاب وأصلح ما قاله، قُبلت شهادته، وخرج من فسقه، فالله سبحانه تواب عليه رحيم به، والتائب من الذنب كمن لاذنب له.

هذا: ويجلد القاذف إذا لم يأت بأربعة شهداء ما لم يكن زوجًا، فإن كان زوجًا، فالحكم بينهما هو الملاعنة:

رَابعًا: تَشْرِيعُ حَدِّ اللِّعَانِ

٦ - ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ[٢] شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

أي: والرجال الذين يتهمون زوجاتهم بالزنى وليس معهم شهداء عدول على اتهامهم لزوجاتهم بالزنى، فعلى الزوج أن يشهد أمام القاضي أربع مرات على أنه صادق فيما رماها به من الزنى.

وهذه وسيلة رابعة من وسائل حفظ المجتمع من الوقوع في الزنى وصيانة الأسرة من الشكوك والظنون والاتهامات.

وهذه الآية تخصُّ الزوجة من بين المحصنات في الآية السابقة، أي: أن الرجل لو وجد امرأته متلبسة بالزنى، فعليه أيضًا أن يأتي بأربعة شهود؛ لإثبات الحد عليها، وإلا كان قاذفًا لها، ويقام عليه الحد، والزوج لا يرمى زوجته بالزنى - غالبًا- إلا إذا كان صادقًا،

---

(١) يُنظَر «الدر المنثور» عن عبد بن حميد وابن مردويه وغيرهما (١٠/ ٦٤٦، ٦٤٧).

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر، برفع العين من (أربعُ) على أنه خبر المبتدأ، وهو (فشهادة) أي: فشهادة أحدهم المعتبرة لدرء الحدِّ عنه أربع شهادات بالله، وقرأ الباقون بنصب العين، على أنه مفعول مطلق، وناصبُه (فشهادة) وحينئذ: فشهادة مبتدأ، والخبر محذوف، والتقدير: فشهادة أحدهم أربع شهادت بالله واجبة، أو خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: فالواجب شهادة أحدهم.

ولذا فإن شهادته عليها تدرأ عنه الحدّ.

ولذلك فإن سعد بن عبادة ﷺ لما سمع هذه الآية، قال: يا رسول الله، هكذا أُنزلت؟ أيجد الرجل منا عند امرأته -إذا كانت خبيثة فاجرة- رجلًا قد تفخذّها، ثم لا يُحرّكُه ولا يُهيِّجه، أي: يتركه على حاله، ويذهب ليلتمس شهودًا أربعة، فوالله ما كنت لآتي بأربعة حتى يكون قد قضى حاجته وذهب، ثم يُقام عليَّ الحدُّ، فقال النبي ﷺ: **«أسمعتم ما يقوله سيدكم»**؟ قال سعد: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنها حق، وأنها من الله، ولكني عجبتُ من ذلك، وفي ذلك يقول سعد بن عبادة: لو وجدتُ رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصْفِح.

وقد كانت هذه عادتهم في الجاهلية، فمنع الإسلام ذلك، وجعل إقامة الحد من حق الحاكم؛ حتى لا يُقتل بريء أو بريئة، وتكون أرواح الناس خاضعة لمختلف النفسيات، وقد قال ﷺ فيما يرويه المغيرة بن شعبة ﷺ: **«أتعجبون من غيرة سعد، لأنا أغير منه، والله أغير مني»**[١].

والرجل في العادة ليس من مصلحته أن يتهم امرأته؛ لأن هذا تدنيس لفراشه ولعرضه، وتلويث لأبنائه وذريته، فلا يتهمها ولا يذكرها بذلك في العادة إلا إن كان صادقًا.

وكان عويمر العجلاني قد قال: إذا رأى الرجل على امرأته رجلًا فقتله قُتل، وإن تكلم ضُرب -أي: جُلد وأقيم عليه حد القذف- وإن سكت سكت على غيظ[٢].

ولم يلبثوا إلا زمنًا يسيرًا حتى جاء هلال بن أمية -وهلال من الثلاثة الذين خُلِّفوا- جاء إلى النبي ﷺ يقول: يا رسول الله، جئتُ عِشاء، فوجدتُ شريك بن سحماء البلوي على بطن امرأتي، رأتْ عيناي، وسمعتْ أُذناي، فقال النبي ﷺ: **«البينة، أو حدٌّ في ظهرك»**، قال: يا رسول الله، أيجد الواحد منا الرجل على امرأته ثم يذهب يلتمس البينة؟ قال: **«البينة، أو حدٌّ في ظهرك»**، قال: يا رسول الله، والله إني لصادق، وما قلتُ إلا حقًا،

---

(١) يُنظَر: «صحيح مسلم» برقم (١٤٩٨) عن أبي هريرة، و(١٤٩٩) عن المغيرة والبخاري (٦٨٤٦، ٧٤١٦) ورواه أحمد في المسند برقم (٢١٣١) وعبد الرزاق (١٢٤٤٤) والطيالسي (٢٧٨٩) وأبو داود (١٢٢٥٦) وغيرهم.

(٢) تنظر قصته في البخاري برقم (٤٧٤٥) ومسلم برقم (١٤٩٢) و«المسند» برقم (٢٢٨٣٠) وغيرهم.

ولَيُنزلنَّ اللهُ ما يبرِّئ به ظهري من الحدِّ، وكان النبي ﷺ قد عزم على جلْد هِلال، وإقامة حد القذف عليه، فأنزل الله الآية، فجمعهما وتلاعنا[1].

وقد أنزل الله هذه الآيات التي تسمى بآيات الملاعنة، وذلك عند تعذُّر إحضار الشهود الأربعة، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ أي: يقذفونهم بالزنى ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي: ليس هناك شهداء على اتهامهم لهن بالزنى إلا أنفسهم ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ﴾ يشهدها أمام القاضي، ويقرره أمام مجتمع من الناس، وهذه الشهادات الأربع تقوم مقام الشهود الأربعة على الزنى، فيشهد أربع شهادات بالله إنه صادق فيما رماها به، بأن يقول: (أشهد بالله أني لمن الصادقين فيما رميتُها به). قال تعالى:

٧- ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ[2] لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧﴾

أي: ويؤكد الشهادات الأربع بشهادة خامسة، فيدعو فيها على نفسه باللعنة إن كان كاذبًا فيما يقول، فإن تم لعانه سقط عنه حد القذف، وهذا يقال له: الملاعنة، أو اللعان بين الزوجين، فإن سكتت المرأة فهذا في حكم الاعتراف والإقرار منها، فيقام عليها حدُّ الرجم حتى الموت، وإن لم تسكت وردّت شهادته، فإن لها حق الدفاع عن نفسها بشهادة مماثلة، وأَمْرُهما إلى الله، قال تعالى:

٨- ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٨﴾

أي: فإن هي كذَّبتْه، وقالت: إنه كاذب فيما ادعاه، فعليها أن تدرأ العذاب، أي: تدرأ الحدَّ والعقوبة عن نفسها في الدنيا، بأن تشهد مقابل شهاداته أربع شهادات هي الأخرى، إنه كاذب فيما رماها به. قال تعالى:

---

(١) تُنظَر قصته في: البخاري (٢٦٧١، ٤٧٤٧) والترمذي (٣١٧٩) وابن ماجه (٢٠٦٧).

(٢) قرأ نافع ويعقوب بإسكان نون (أنْ) على أنها مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، و(لعنةُ) بالرفع مبتدأ، والجار والمجرور بعده خبر، والجملة خبر (أن) المخففة، وقرأ الباقون بتشديد نون (أنَّ) ونصب (لعنةَ) على أنها اسم (أن) والجار والمجرور بعده خبر (أن). ووقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي على (لعنة) بالهاء، والباقون بالتاء وأمالها الكسائي وقفًا.

٩- ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ(١) أَنَّ(٢) غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾

أي: وتشهد في المرة الخامسة، فتدعو على نفسها بغضب من الله عليها إن كان صادقًا فيما قال، فإذا فعلت ذلك لا يقام عليها الحدُّ. وقطعًا فإن أحدهما كاذب، وحسابه على الله.

فإن تم اللعان على هذا النحو، فُرِّق بينهما إلى الابد، وانتفى الولد الملاعَن عنه.

والولد في هذه الحالة لا يَنْتسب للرجل ولا يرثه، إنما يلتحق بأمه.

واللعان مختص بالرجل إذا رمى إمرأته بالزنى، والعكس لا يصح، وإنما تدفع المرأة عن نفسها فقط.

وسُمِّي اليمين شهادة، لأنه يكون بدلًا منها، ولأن صيغة الشهادة تستعمل في الحلف كثيرًا، وتُسمى أيضًا: أيْمان اللعان.

والزوج وهو يلاعن إن سَمَّى رجلًا مُعَيَّنًا زنى بامرأته، فإنه يكون قاذفًا له، زيادة على قذفه المرأة، فإذا لاعنَ امرأته سقط عنه حد القذف بالنسبة لها، أما بالنسبة للرجل ففي إسقاط حد القذف عن المُلاعن خلاف فقهي، فقال مالك وأبو حنيفة: لا يسقط، وقال الشافعي: يسقط.

وصيغة اللعان: أن يُبدأ بالزوج، فيقول أمام القاضي أربع مرات: أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رَميْتُ به زوجتي، وفي المرة الخامسة يقول: لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

---

(١) قرأ حفص بنصب (والخامسةَ أن غضب) على أنها مفعول مطلق لفعل محذوف، تقديره: ويشهد الشهادة الخامسة. وقرأ الباقون برفعها على أنها مبتدأ، وما بعدها خبر.

(٢) وقرأ نافع بتخفيف نون (أنْ غضب) على أنها مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، و(غضِبَ) بكسر الضاد وفتح الباء، على أنه فعل ماض، ولفظ الجلالة (اللهُ) بالرفع فاعل غضب، والجملة من الفعل والفاعل في محل رفع خبر إن.

وقرأ يعقوب بتخفيف (أن) مثل قراءة نافع إلا أنه قرأ بفتح الضاد ورفع الباء من (غضبُ) ولفظ الجلالة مضاف إليه، و(عليها) في محل رفع خبر (إن).

وقرأ الباقون بتشديد (أنَّ) وفتح الضاد ونصب الباء من (غضبَ) ولفظ الجلالة مضاف إليه، فهذه ثلاث قراءات فيها، واتفق القراء على رفع تاء (والخامسةُ) من (والخامسة أن لعنة الله عليها).

ثم تُلاعِن المرأة -إن أرادت اللعان- فتقول أربع مرات: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به، وتقول في الخامسة: غضبُ الله عليها إن كان من الصادقين، والظاهر أن ألفاظ اللعان لا يزاد عليها ولا يُنقص منها، ولا يبدل بها غيرها عما جاءت في الآية، وتكون بالترتيب المذكور فيها أيضًا، ويسقط الحد عنهما حينئذ، ويُفرِّق القاضي بينهما فُرقة أبدية، فلا يحل له مراجعتها أبدًا، لا قبل زواج بغيره ولا بعده، وهي فُرقة فَسْخ بين الزوجين المتلاعنين، وليست فرقة طلاق، فلا رجعة لهما بعد اللعان.

وقد ورد في اللعان أحاديث كثيرة، منها:

١- حديث أنس بن مالك ﷺ قال: لأَوَّلُ لِعانٍ كان في الإسلام أن شَريك بن سحْماء قذَفه هلال بن أمية بامرأته، فرفعه إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «**أربعة شهود، وإلا فحدٌّ في ظهرك**»، فقال: يا رسول الله، إن الله يَعْلَمُ إني لصادق، ولَيُنزلنَّ الله عليك ما يُبرِّئ به ظهري من الجلد، فأنزل الله آية اللعان... فدعاه النبي ﷺ فقال: «**اشهدْ بالله إنك لمن الصادقين فيما رميتَها به من الزنى**»، فشهد بذلك أربع مرات شهادات، ثم قال له في الخامسة: «**ولعنةُ الله عليكَ إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به من الزنى**»، ففعل.

ثم دعاها رسول الله ﷺ فقال: «**قومي فاشهدي بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماك به من الزنى**»، فشهِدتْ بذلك أربع شهادات، ثم قال لها في الخامسة: «**وغضب الله عليكِ إن كان من الصادقين فيما رماك به من الزنى**»، فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكتت سكتة، حتى ظنوا أنها ستعترف، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضَتْ على القول، ففرق رسول الله ﷺ بينهما، وقال: «**انْظُروه، فإن جاءت به جَعْدًا حَمْش الساقين، فهو لشريك بن سحماء، وإن جاءت به أبيض سبطًا، قَضِيء العينين، فهو لهلال بن أمية**»، فجاءت به آدم، جَعْدًا، حَمْش الساقين كأنه جمل أورق، فقال رسول الله ﷺ: «**لولا ما نزل فيهما من كتاب الله لكان لي ولها شأن**»[(١)].

ويؤخذ من هذا أن الشّبه في الولد مع اللعان لا عبرة به، كما لا يعتبر مع الفراش، لأن

---

(١) رواه أبو يعلى (٥/٢٠٧) وأصله عند مسلم برقم (١٤٩٦) من طريق هشام عن محمد، والحديث في «البخاري» عن ابن عباس برقم (٢٦٧١، ٤٧٤٧) والترمذي (٣١٧٩) وابن ماجه (٢٠٦٧).

الولد للفراش، أي يُنسب للزوج، وللعاهر الحجَر، أي الرجم، وإنما يُعتَبر الشبه إذا لم يوجد مرجح غيره.

وكان هذا المولود أمير مصر فيما بعد، وهو لا يُعرف له اسم فيما أعلم.

ومعنى حَمْش الساقين: دقيقهما، والسبط: ممتد الأعضاء، وقَضِيء العينين: فاسدهما بكثرة دمع، أو حُمرة، أو غير ذلك.

٢- وعن نافع عن ابن عمر ﷺ أن رجلًا رمى امرأته، فانتفى من وَلَدِها في زمان رسول ﷺ فأمر بهما رسول الله ﷺ فتلاعنا كما قال الله، ثم قضى بالولد للمرأة، وفرَّق بين المتلاعنين[١].

٣- وعن سهلْ بن سعد ﷺ أن رجلًا أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت رجلًا رأى مع امرأته رجلًا، أيقتُله فتقتلوه، أم كيف يفعل؟ فأنزل الله فيهما ما ذُكَر في القرآن من التلاعن، فقال له رسول الله ﷺ: «**قد قُضِي فيك وفي امرأتك**» قال سهل: فتلاعنًا، وأنا شاهد عند رسول الله ﷺ ففارقها، فكانت سُنَّة أن يُفرَّق بين المتلاعنين، وكانت حاملًا، فأنكر حملها وكان ابنها يُدعى إليها[٢].

٤- وعن سعيد بن جبير عن ابن عمر ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن امرأتي زنت، وسكت رسول الله ﷺ كأنه ينكث في الأرض، ثم رفع رأسه فقال: «**قد أنزل الله فيك وفي صاحبتِك فائت بها**»، فجاءت، فقال: «**قم فاشهد أربع شهادات**»، فقام فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فقال له: «**ويلك -أو قال: ويحك- إنها موجبة**» فشهد الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

ثم قامت امرأته فشهدت أربع شهادت بالله إنه لمن الكاذبين، ثم قال: (ويلكِ -أو قال: ويحكِ- إنها موجبة» فشهدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ثم قال له: «**اذهب، لاسبيل لك عليها**»، فقال: يا رسول الله، مالي، قال: «**لا مال لك، إن كنت صدَقْتَ فهو بما استحللت من فرجها، وإن كنت كذَبْتَ**

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٤٧٤٨) وانظر: (٥٣٠٦، ٥٣١٣، ٥٣١٤) وأخرجه مسلم (١٤٩٤).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٢٣، ٤٧٤٦) و«صحيح مسلم» (١٤٩٢).

فيها فذاك أبعَدُ لك منها»[١].

٥- وفي حديث سعيد بن جبير: أن النبي ﷺ بدأ بالرجل فوعظه وذكَّره، وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فقال: والذي بعثك بالحق ما كذبْتُك، ثم ثنَّى بالمرأة فوعظَها وذكَّرها، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فقالت: والذي بعثك بالحق إنه لكاذب[٢].

قال القرطبي: قال مالك وأصحابه: وبتمام اللعان تقع الفُرقة بين المتلاعنين، فلا يجتمعان أبدًا، ولا يتوارثان، ولا يحل له مراجعتها أبدًا، لا قبل الزواج ولا بعده، وقال أبو حنيفة وغيره: لا تقع الفُرقة بعد فراغهما من اللعان، حتى يفرق الحاكم بينهما. وقال الشافعي: إذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان، فقد زال فراش امرأته، الْتَعَنَتْ أو لم تَلْتَعِن؛ لأن لعانها إنما هو لدرء الحد عنها لا غير[٣]. قال تعالى:

١٠- ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية أنه لولا تفضل الله على المؤمنين بهذا التشريع لفضَح الكاذب، وأقيم عليه الحدُّ والعقوبة، ولكن الله تعالى لم يُعجِّل لكم العقوبة في الدنيا؛ حتى يتوب من يتوب، ويستر عليكم، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لعاجلكم بالعقوبة، ولكن الله ستر على الكاذب ليتوب، والله تعالى يتوب على من شاء، وهو سبحانه حكيم في شرعه وتدبيره.

وجواب الشرط في الآية محذوف، يدل عليه سياق الكلام، أي ولولا فضل الله لأحلَّ بالكاذب من المتلاعنيْن ما دعا به على نفسه، ومن فضل الله ورحمته أن جعل هذا اللعان خاص بالزوجين لشدة الحاجة إليه، ومن فضله ورحمته أن شرع التوبة لعباده من كبائر الذنوب.

---

(١) البخاري (٥٣٤٩، ٥٣٥٠) ومسلم (١٤٩٣).

(٢) صحيح مسلم (١٤٩٣) و«المسند» برقم (٤٦٩٣، ٥٠٠٩)وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات (محققوه) و« صحيح سنن الترمذي» (٩٦٠) وأبو يعلى (٥٦٥٦) وابن حبان (٤٢٨٦) والنسائي (٣٤٧٣) وغيرهم.

(٣) «تفسير القرطبي» (١٢/ ١٩٣).

حَادِثَةُ الإِفْكِ

١١- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ[1] شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ[2] مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

هذه الآية وما بعدها إلى ست عشرة آية، نزلت في أم المؤمنين عائشة ﵂؛ لتبرِّئ ساحتها مما اتهمها به المنافقون، وقد وقعت هذه القصة في غزوة بني المصطلق.

وبنو المصطلق: بطن من خزاعة، كانوا يقيمون على ماء قُرب المرَيْسيع على ساحل البحر الأحمر، بين جدة ورابغ. بلَغ النبي ﷺ أن هؤلاءِ القوم يُعِدُّون له العدة، ويستنصرون بالقبائل المجاورة؛ لقتاله، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يباغتهم ويبادرهم بقطع دابر الفتنة، فخرج إليهم في شهر شعبان من السنة السادسة للهجرة، وقيل: سنة أربع، وخرج مع رسول الله ﷺ عدد كبير من المنافقين، على رأسهم كبير المنافقين عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول الذي مات على الكفر والنفاق.

وكان من عادة النبي ﷺ أنه إذا خرج إلى غزوة أنْ يُقْرِع بين نسائه، فمن خرجتْ عليها القُرعة ذهبت معه ﷺ في هذا السفر، وقد خرجت قُرعة عائشة ﵂ في هذه الغزوة.

وهذه الغزوة لم تكن في الإسلام من الغزوات الكبار، ولكن الذي جعل لها أهمية وشأنًا ما حدث فيها من المنافقين مِنْ **فِتْنتين كبيرتين**:

إحداهما: إثارة الفتنة والخلاف والوقيعة بين المهاجرين والأنصار، بسبب غلام من المهاجرين وآخر من الأنصار، اقتتلا على الماء، فقال عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول: أوَ قدْ فعلوها، لقد قاسمونا -يريد المهاجرين- ديارنا وأموالَنا، وما مَثَلُهم إلا كالمثَل القائل: سمِّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجن الأعز منها الأذل، وهي فتنة عظيمة حدثت من المنافقين في هذه الغزوة، وهي قصة مشهورة معروفة توضحها سورة المنافقون.

والفتنة الأخرى: هي حادثة الإفك، أي: اتهام أم المؤمنين عائشة ﵂ بالفاحشة.

---

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين من (لا تحسَبوه) و(تحسَبونه)، والباقون بكسرها.

(٢) قرأ يعقوب بضم الكاف (كُبره)، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

وذلك: أنها لما خرجت مع رسول الله ﷺ كانت تُحمَل في هَوْدج، ويوضع هذا الهودج فوق البعير، ويقودها أحد القوم، وكانت سنُّها آنذاك نحو السادسة عشرة، وكانت خفيفة الوزن في هذا الوقت.

وفي عودة النبي ﷺ من الغزوة، نزل بمكان قريب من المدينة؛ وكان من تخطيط النبي ﷺ في سفره أنه يُخلِّف على القوم رجلًا، تكون مهمته أن يتفقَّد المكان بعد أن يرحل منه الجيش، لعلَّه يجد جنديًّا ضائعًا، أو شيئًا قد تُرك، أو صبيًّا، أو رجلًا، أو امرأة، ونحو ذلك، فكانت هذه مهمة صفوان بن أمية السُّلَمي في هذه الغزوة.

وكانت عائشة ﵂ أرادت أن تقضي حاجتها أثناء راحتهم في الطريق، فذهبت إلى الخلاء بعيدًا عن مكان الجيش، ولم يَعْلَم بها رسول الله ﷺ؛ لكونه مشغولًا مع الرجال، وأذَّن في الناس برحيل الجيش، فذهبوا ولم يَعْلموا أن عائشة ﵂ في الخلاء، وقد حَمَلُوا هوْدَجها وَوُضع على البعير، واقتادوا البعير دون أن يشعروا بعدم وجود عائشة ﵂ في الهودج؛ لأنه يشبه خيمة مغلقة لا يرى أحد ما فيها، وكان وزْن عائشة خفيفًا لم يميزه من يقود الجمل الذي تركب عليه.

ولأن هذه الغزوة، ونزول سورة النور، كان بعد نزول سورة الأحزاب، وبعد نزول آيات الحجاب، فكُنَّ يحتجبْن، ثم إنها بعد أن قضتْ حاجتها تلمَّستْ صدْرها وعُنُقَها، وكان فيه عُقْد من خَرز صغير، فلم تجد فيه العقد، فرجعتْ إلى المكان الذي كانت تتخلى فيه، ووجدت العقد قد انفرط، فأخذتْ تجمعُه حبة حبة، وفي هذه الأثناء كان الجيش قد ذهب، ثم أتت مكان قومها فلم تجد أحدًا، فجلستْ في مكانها مختبئة في عباءتها، حتى يأتي إليها أحد، أو يعود إليها أحد.

فجاء صفوان -المكلَّف بتفقُّد المكان بعد رحيل الجيش- ورأى مِنْ على بُعد سواد إنسان نائم، وكان يراها قبل الحجاب ويعرف حجمها، فعرفها، واسترجع قائلًا: إنا لله وإنا إليه راجعون، فلما سمعت صوته استيقظتْ وانتبهت وخمَّرت وجهها بجلبابها، فأتى ببعيره وأناخه، وتنحَّى بعيدًا حتى ركبتْ، ثم قاد البعير، وانصرف بها يلحق بالقوم، فلما لحق بالجيش في نحر الظهيرة، ورآه عبد الله بن أُبيٍّ، قال: مَن هذه؟ قالوا: عائشة، قال: ومن هذا؟ قالوا: صفوان، قال: والله ما نجتْ منه ولا نجا منها، امرأة نبيكم باتت

عند رجل حتى أصبحت، ثم جاء يقودها.

فابن أُبيٍّ هذا، هو الذي تولى كبره، وهو الذي بدأ هذه المقالة الشنيعة.

وسمع هذه المقالة أصحاب رسول الله ﷺ فكان منهم من أنكر، ومنهم من سكت، وقد شايع عبد الله بن أُبَيّ على هذه المقولة خمسة أشخاص: امرأة، وأربعة رجال.

أما المرأة فهي حَمْنة بنت جحش، أخت زينب بنت جحش، زوج النبي ﷺ، وكأنها كانت تريد أن تكِيد بضَرَّة أختها، مع أن زينب ﵂ لما سألها النبي ﷺ أن تشهد شهادتها في ضَرَّتها عائشة قالت: يا رسول الله، والله ما رأيت إلا خيرًا، وما علمت إلا خيرًا.

ومع هذا فإن أختها هلكت مع من هلك في شأن عائشة ﵂.

وأما الرجال الأربعة، فهم اثنان من المنافقين، وهما: عبد الله بن أُبيٍّ رأس النفاق، ورأس الكيد للإسلام، والرجل الثاني هو: زيد بن رفاعة، وهو يهودي أسلم نفاقًا، هؤلاء اثنان من المنافقين.

واثنان آخران هما: مسطح بن أثاثة، ابن خالة أبي بكر ﵁، وكان رجلًا مسكينًا، ينفق عليه وعلى عياله أبو بكر ﵁.

والشخص الرابع هو: حسان بن ثابت الشاعر المعروف.

وكانت عائشة ﵂ قد مرضتْ من أثر السفر، وظلَّت شهرًا في بيت رسول الله ﷺ وهي لا تعلم شيئًا عما يقال، وكان النبي ﷺ طيلة هذا الشهر في ضيق وكرب وقلَق، ولم ينزل عليه الوحي في هذا الشأن شهرًا كاملًا، وهو يسأل أسامة بن زيد، ويسأل علي بن أبي طالب وغيرهما، عما حدث.

ولما برئت عائشة ﵂ من مرضها خرجت إلى الخلاء، وخرجت معها أم مِسْطَح، فلمَّا تعثَّرت قدمُها قالت: تعس مِسْطَح، فقالت عائشة: لماذا تَدْعين عليه، وهو ممن شهد بدرًا؟ قالت أم مِسْطَح: أما علمتِ ما يقول؟ قالت: لا، فأخبرتْها بما يقوله الناس ومنهم مِسْطَح، فمرضتْ عائشة ﵂. قالت: وكنت أرى من رسول الله ﷺ جفوة، ولم أدر من أي شيء، فلما حدثتْني أم مِسْطَح علمتُ سبب هذه الجفوة، فاستأذنتُ رسول الله ﷺ في الذهاب إلى بيت أبي في هذه الفترة، ولم تَعُدْ تجد الملاطفة من النبي ﷺ وحُسْن العشرة

التي اعتادتْها منه، فكان ﷺ يسأل عليها وهي مريضة ويقول: «كيف تيكم»؟ يعني بهذا: عائشة، يسأل عنها بالإشارة، واستمر الأمر كذلك طيلة شهر كامل، لا تكتحل بنوم، ولا يرقأ لها دمع، حتى أنزل الله سبحانه براءة عائشة من فوق سبع سموات في ست عشرة آية من كتاب الله في سورة النور، تُتْلَى إلى يوم القيامة(١).

وقدَّمت سورة (النور) لحديث الإفك ببيان حدِّ الزنى وجُرمه، وبيان حدِّ القذف وأثره، وهؤلاء قذفوا أم المؤمنين عائشة ﵂.

ولما نزلت هذه الآيات أقام النبي ﷺ الحدَّ على حسان، ومِسْطَح، وحَمْنة، وهم المسلمون الذين اتهموها بالإفك، كما جاء في الحديث عن عائشة ﵂ قالت: لما نزل عُذْري، قام النبي ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن، فلمَّا نزل من المنبر، أمر بالرجلين والمرأة فضُربوا حدَّهم، وسماهم: حسان، ومِسْطَح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش(٢) جُلد كل منهم ثمانين جلدة، ولم يُقَم الحدُّ على المنافقيْن، وهما: عبد الله بن أبيٍّ، وزيد بن رفاعة؛ قيل: لأنهما في الدرك الأسفل من النار، ولأن الله تعالى قد توعَّدهما بالعذاب العظيم، ولأنه لم يثبت منهما إقرار بالمقولة.

وقد نزلت آيات حدِّ القذف، وآيات حدِّ الزنى واللعان في أول السورة، وكأن ذكر هذه الحدود بمثابة مقدمة لقصة الإفك.

والإفك: هو البهتان الذي لا شبهة في أنه حديث اختلقه المنافقون، وراج بينهم وبين نفر من سذَّج المسلمين، وهذا البهتان يَظْهَرُ جليًا في **أحداث القصة**:

١- فهذه **زينب بنت جحش** ﵂، يروي محمد بن عبد الله بن جحش، قال: تفاخرتْ

---

(١) تُنظَر القصة في: «صحيح البخاري» برقم (٤٧٥٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٧٠) و«المسند» برقم (٢٥٦٢٣) وعبد الرزاق برقم (٩٧٤٨) والطبري (١٧/ ١٩٧) والبيهقي (٧٠٢٨) وغيرهم.

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود برقم (٤٤٧٤) و«المسند» (٦/ ٣٠) برقم (٢٤٠٦٦) دون ذكر الأسماء، قال محققوه: وهو حديث حسن، لأن فيه محمد بن إسحاق وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، و«سنن الترمذي» (٤/ ١٦٢) برقم (٣١٨١) و«السنن الكبرى» للبيهقي (٨/ ٢٥٠) وابن ماجه (٢٥٦٧) وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٨٤) وهو في «فتح الباري» (١٣/ ٣٥٣) ط الريان، و«سنن النسائي الكبرى» (٧٣١١).

عائشة وزينب ﷺ، فقالت زينب: أنا التي نزل تزوُّجي من السماء، وقالت عائشة: أنا التي نزل عذري في كتابه، حين حملني ابن المعطل على الراحلة، فقالت لها زينب: يا عائشة، ما قلتِ حين رَكبْتِها؟ قالت: قلتُ: حسبي الله ونعم الوكيل. قالت زينب: قلتِ كلمة المؤمنين، ولما سألهما النبي ﷺ عما يقال في شأن عائشة قالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمتُ إلا خيرًا، وهي التي كانت تُساميني من أزواج رسول الله ﷺ، فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة بنت جحش، تحارب لها، فهلكت فيمن هلك[١].

٢- وها هي **عائشة** ﷺ تقول عن القرآن الذي نزل ببراءتها: وأنا والله أعلم أني بريئة، وأن الله تعالى مُبرِّئي، ولكني ما كنت أظن أن يُنزل الله تعالى في شأني وحيًا يُتلى، ولَشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يُتلى، ولكن كنت أرجو أن يرَى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله تعالى بها.

وكانت ﷺ قبل نزول آيات البراءة تقول: والله ما أجد لي ولا لَكُم مثلًا إلا أبا يوسف، قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[٢].

٣- وهذا **حسان بن ثابت**، فبسبب العقاب الذي لحق به في الدنيا، أذهب الله بصره.

قال مسروق: كنت عند عائشة ﷺ، فدخل حسان بن ثابت، فأمرتْ له عائشة بوسادة، فلما خرج قلت لعائشة: أتأذنين لهذا يدخل عليك وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟ قالت: وأيُّ عذاب أشد من العمى؟ لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم، ثم قالت: إنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ، ثم أنشد حسان شعرًا يمتدحها به[٣].

٤ - وهذا **أبو بكر** ﷺ يقول: والله ما رُمِينا بهذا في جاهلية، أفنرضى به في الإسلام؟

---

(١) البخاري (٤٧٥٠) ومسلم (٢٧٧٠) و«المسند» (٢٥٦٢٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين ومصنف عبدالرزاق (٩٧٤٨) وابن حبان (٤٢١٢) والنسائي في الكبرى (١١٣٦٠) وأبويعلى (٤٩٢٧) و«تفسير الطبري» (١٨/ ٧٠).

(٢) يُنظَر في هذا والذي قبله: سبب النزول عن ابن شهاب في الصحيحين وغيرهما، «البخاري» في حديث الإفك الطويل برقم (٤٧٥٠) (٤٧٥٧) والمسند (٢٤٣١٧).

(٣) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٤١٤٦) و«صحيح مسلم» برقم (٢٤٨٨).

٥- وهذه **أم رومان**، زوج أبي بكر ﷺ تقول لابنتها عائشة ﷺ: يا بُنَيَّة، هَوِّني على نفسك، فوالله لقلَّما كانت امرأة قط وضيئة، عند رجل يحبها ولها ضرائر، إلا أكثرْن عليها.

٦- وهذا **صفوان بن المعطل**، يقول حين فوجئ بالاتهام الظالم: سبحان الله! والله ما كشفتُ ستر أنثى قط، ولم يملك نفسه حين علم أن حسَّان يروِّج لهذا الإفك، إلا أن ضربه بالسيف على رأسه ضربة كادت تودي بحياته.

٧- وهذا **عمر** ﷺ يقول لرسول الله ﷺ: أنا قاطع بكذب المنافقين؛ لأن الله تعالى قد عصمك من وقوع الذباب على جِلْدك؛ لأنه يقع على النجاسات فيتلطَّخ بها، فكيف لا يعصمك من صحبة مَن تكون صحبتهم متلطخة بمثل هذه الفاحشة؟

٨- وهذا **عثمان** ﷺ يقول للنبي ﷺ: إن الله تعالى ما أوقع ظلَّك على الأرض؛ لئلا يضعَ إنسانٌ قدمَه عليه، فكيف يمكِّن أحدًا من تلويث عرض زوجتك؟

٩- وهذا **عليٌّ** ﷺ يقول للنبي ﷺ: إن الله أمرك بإخراجها إن كانت متلطخة بشيء من الفواحش، أي وهي غير متلطخة بشيء من الفواحش.

١٠- وهذا **أبو أيوب الأنصاري** ﷺ يقول لامرأته: ألا تَرَيْنَ ما يقال؟ فقالت: لو كنتَ بدل صفوان، أكنت تظن بحرم رسول الله ﷺ سوءًا؟ فقال: لا، قالت: ولو كنتُ أنا بدل عائشة ما خنتُ رسول الله، فعائشة خيرٌ مني وصفوان خير منك(١).

١١- وهذا **ابن عباس** ﷺ دخل على عائشة وهي في مرض الموت، فقال لها: أبشري فإنك زوج رسول الله، وكان يحبك، ولم يتزوج بكرًا غيرك، ونزلت براءتك من السماء(٢).

١٢-وهذه **بَرِيرَة** ﷺ تقول: والله يا رسول الله، ما علمتُ على أهلك إلا خيرًا، إلا أنها امرأة تنام حتى تجيء الداجِنُ فتأكل عجينها، وإن كان شيء من هذا ليخبرنك الله.

١٣- وهذا **أسامة بن زيد** ﷺ يقول: سبحان الله ما يحل لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم.

---

(١) يُنظَر في: الفقرات الأربع الأخيرة من «تفسير النسفي» للآيات.

(٢) يُنظَر المعنى في: مسند أحمد (٣٢٦٢) بإسناد قوي على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن خيثم فمن رجال مسلم، وانظر أيضًا (٢٤٩٦). (محققوه).

أخرج ابن سعد أن عائشة ﵂ قالت: فُضِّلتُ على نساء النبي ﷺ بعشر، قيل: وما هن يا أم المؤمنين؟ قالت:

١- لم ينكح بكرًا قط غيري.

٢- ولم ينكح امرأة أبواها مهاجران غيري.

٣- وأنزل براءتي من السماء.

٤- وجاءه جبريل بصورتي من السماء في حريرة، وقال: تزوجْها؛ فإنها امرأتك.

٥- وكنت أغتسل أنا وهو من إناء واحد، ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيري.

٦- وكان يصلي وأنا معترضة بين يديه، ولم يكن يفعل ذلك بأحد من نسائه غيري.

٧- وكان ينزل عليه الوحي وهو معي، ولم يكن ينزل عليه وهو مع أحد من نسائه غيري.

٨- وقبض الله نفسَهُ وهو بين سحْري ونحْري.

٩- ومات في الليلة التي كان يدور عليَّ فيها.

١٠- ودُفن في بيتي(١).

ونمضي مع الآيات: إن الذين جاؤوا بأشنع وأشد أنواع الكذب وأسوئه باتهام أم المؤمنين عائشة ﵂ بالفاحشة جماعة منكم، ينتسبون إليكم -أيها المسلمون- وكلمةُ عُصْبة للإشعار بأنهم جماعة هدفُهم خبيث ومكْرُهم سيئ، وهم هؤلاء الخمسة السابق ذكرهم، **والعُصْبة:** العدَد من الناس.

لا تظنوا أن هذا القذف لعائشة وصفوان شرٌّ لكم -والخطاب للمؤمنين، ولآل أبي بكر خاصة- بل هو خير لكم، فيه فتنة وابتلاء وامتحان من الله تعالى، ومثوبة لكم عند الله، ولتظهر براءة عائشة في كتاب الله، والتنويه بذكرها وشأنها، فهذا الخير من **خمسة أوجه:**

١- ففيه تبرئة لعائشة ﵂.

٢- وفيه كرامة من الله لها بإنزال الوحي في شأنها.

---

(١) «طبقات ابن سعد» (٨/ ٦٣) وأخرج الحاكم تسعة منها، وصححه في «المستدرك» (٤/ ١٠).

٣- وفيه أجر عظيم لها على ما ارتكبوه في شأنها من إفك وكذب.

٤- وفيه موعظة للمؤمنين وعبرة لهم.

٥- وفيه الانتقام في الدنيا والآخرة من الذين افتروا الكذب على أم المؤمنين ﵂.

لكل من الذين اتهموا عائشة أن يعاقَب بمقدار ما تكلَّم بالإفك جزاء فِعْلِه من الذنب، أي: عقوبة على قَدْرِ جُرْمه، والذي تحمَّل مُعْظَمَه -وهو رئيس المنافقين منهم- له عذاب عظيم في الآخرة، وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

مَوْقِفُ الْمُؤْمِنِ مِنَ الشَّائِعَاتِ

١٢- ﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾

في هذه الآية تأديب من الله تعالى للأمة، بعدم تصديق الشائعات، وعدم نشرها في المجتمع؛ حيث توجَّهت الآيات تُعاتب أهل الإيمان وتلُومهم، وتعلِّمهم كيف يتعاملون مع إشاعة الفاحشة بين الناس؛ فلا ينشروها ويظنوا خيرا ببعضهم، ويتبرؤوا إلى الله مما يقوله المروِّجون، وذلك ليكون المجتمع الإيماني مجتمعًا نظيفًا لا تشُوبه هذه الشوائب، فتقول الآية:

هلَّا حين سمعتم مثل هذا الكلام الذي فيه اتهام وقذف للآخرين، ظنَّ المؤمنون والمؤمنات بعضهم ببعض خيرًا عند سماعهم هذا الإفك، وهو السلامة مما رمُوا به، وقالوا: هذا كذب ظاهر على عائشة ﵂، وسارعوا إلى نَفْي التهمة عمَّن عرفوا فيها النزاهة والطهارة؛ فإن مقتضى الإيمان، أَلَّا يُصدِّق مؤمن ما يقال من شائعات في شأن أخيه المؤمن، وأن يذبَّ عن عرضه بالغيب، فإن مجيء عائشة ﵂ على راحلة صفوان، كان وقت الظهيرة أمام الجيش كله، ورسول الله ﷺ بينهم يشهد بنفي الريبة، وشأن المخطئ ألا يأتي على رؤوس الأشهاد، بل يحاول التخفِّي بعيدًا عن الأنظار، كأنَّ المسلمين في الذوْد عن بعضهم جسد واحد، ونفس واحدة، بحيث يقيس الإنسان غيره على نفسه، فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يُرْمَى بمثل هذه الفاحشة، فإن براءة أم المؤمنين منها من باب أولى.

ولذلك فإن عمر بن الخطاب ﵁ قال: يا رسول الله، إن الله قد حفظك أن يقع الذباب على جسمك؛ حتى لا تُلوث بالقذارة، أفلا يحفظك من صحبة من تلطختْ بالفاحشة؟

وقال عثمان ﷺ: يا رسول الله، إن الله تعالى لم يُمكِّن أحدًا أن يطأ ظِلَّك على الأرض بقدمه، فكيف لا يحمي عرضك؟

وفي أثناء ذلك دار حديث بين أبي أيوب وأم أيوب، قالت أم أيوب لزوجها: لو كنتَ مكان صفوان، أكنتَ تظن بِحُرْمة رسول الله سوءًا؟ قال: لا والله، قالت: ولو كنتُ أنا مكان عائشة ما خنتُ رسول الله ﷺ، ثم قالت: وصفوان خير منك، وعائشة خير مني، أي: أن أم أيوب أثبتت لنفسها ولزوجها البراءة أولًا، ثم أثبتت ذلك من باب أولى لعائشة وصفوان، فإذا كان هذا لا يليق بأم أيوب وأبي أيوب، فإنه لا يليق بعائشة وبصفوان من باب أولى، وفي هذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك ولم ينكروه لأول وهلة. قال تعالى:

١٣- ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾

في هذه الآية بيان لطريقة ثبوت جريمة الزنى، وهي أن القائل بها يجب عليه أن يستند إلى شهود أربعة -كما سبق بيانه- فيمن يقذفون المحصنات؛ حيث يخاطب الله سبحانه الذين اتهموا عائشة بالفاحشة من هؤلاء الكذبة، فيقول: هلَّا أتوا على دعواهم بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا، فإن البينة على من ادعى، فإذا لم يفعلوا ذلك فهم الكاذبون على الحقيقة في علم الله تعالى، وكأن الكذب قد انحصر بينهم؛ لشناعة وفظاعة ما قالوه. قال تعالى:

١٤- ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

هذا عتاب من الله تعالى يبيِّن فيه جانبًا من مظاهر فضله ورحمته بالمؤمنين، وأن الله سبحانه قد شملهم بإحسانه، ولم يعاجلهم بالعقوبة، فلولا أن تفضل الله عليكم في دينكم ودنياكم؛ ليدخل في رحمته من يشاء، وليتوب على من يشاء، لولا ذلك لمسَّكم فيما خُضْتم فيه في شأن صفوان وعائشة عذاب عظيم، لاستحقاقكم ذلك بما قلتم، ومن رحمة الله بكم أن شرع لكم التوبة، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب.

قال تعالى يصور حال من خاضوا في حادثة الإفك عند تلقيّ الخبر:

١٥- ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾

أي: إن العذاب العظيم المشار إليه في نهاية الآية السابقة، يصيبكم -أيها المنافقون-

حين تتلقفون الإفك، وتتناقلونه بينكم بألسنتكم، فاللسان يتلقَّف القول عن طريق السؤال والترويج وكثرة المخاطبة، ويتقوَّل على الناس دون بينة ودون علم، ولا تعقُّل ولا تَروٍّ، فتقولون على الله ما لا تعلمون، والقول على الله بغير علم، والتكلم بالباطل، كلاهما محظور على العبد، تظنونه أمرًا هينًا وهو عند الله كبير وعظيم، وفي هذا زجر عظيم عن التهاون في إشاعة الباطل على وجه العموم، فكيف لو كان في زوجة خاتم النبيين والمرسلين؟

جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يدري ما تبلغ، يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض**»[1]

ولا يعظُم عند الله إلا الأمر الجليل الذي تُزلْزَلُ له الجبال.

وفي قوله تعالى: ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ وقوله: ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ ما يشير إلى أن الحديث كان باللسان دون القلب، وقد عاتبهم الله تعالى على ثلاثة أشياء:

١- تلقيه بالألسنة والسؤال عنه. ٢- التكلُّم به.

٣- استصغاره؛ حيث حسبوه هيِّنًا، وهو عظيم عند الله. قال تعالى:

١٦- ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

يؤدب الله جميع المؤمنين في هذه الآية، ويعلِّمهم ماذا يكون موقفهم من قول السوء، وأنه كان يجب عليهم أن يُنزِّهوا أسماعهم عن مجرد الاستماع، فضلًا عن النطق به، فهو كذب فاضح، وأمر عجيب مستبعد، والمسلم عندما يرى الأمر العجيب يسبِّح الله تعالى، فهلَّا قلتم عند سماعكم هذا البهتان: ما يحل لنا الكلام بهذا الكذب، تنزيهًا لك يا رب، من قول ذلك على زوجة رسول الله ﷺ فهو كذب عظيم في الوزر واستحقاق الذنب.

وهذا مسوق للتوبيخ على تناقلهم الخبر الكاذب، وفي قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ إشعار بغضب الله تعالى على كل من خاض في حادثة الإفك، وأن عليه التوجه إلى الله تعالى بالتوبة، وفيه تعجب من شناعة الخبر، ولهذا جاز أن تكون زوجة النبي كافرة، كامرأة نوح، وامرأة لوط، ولم يجز أن تكون فاجرة. قال تعالى:

---

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٦٤٧٨) وانظر: (٦٤٧٧) ومسلم برقم (٢٩٨٨).

١٧، ١٨- ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝﴾

أي: إن الله تعالى يذكِّركم، وينهاكم عن مخالفة أمره ونهيه، ويعظكم بما يرقق قلوبكم، ويحذِّركم من العودة لمثل هذا الفعل من الاتهام الكاذب، وما يشبهه من الأحاديث الباطلة، فلا تعودوا لمثله أبدًا إن كنتم مؤمنين بالله تعالى إيمانًا كاملًا.

والوعظ: هو الكلام الذي يُطلب به تجنُّبُ المخاطَب به أمرًا قبيحًا، أو فِعْل أمر محمود.

والأبد: هو الزمان المستقبل كله، فلو تكلم أحد بالإفك بعد هذه الآية معتقدًا وقوعه، فمقتضى الشرط أن يكون كافرًا، وبذلك قال مالك، رحمه الله.

قال ابن العربي: قال هشام بن عمار[1]: من سبَّ أبا بكر وعمر أُدِّب، ومن سبَّ عائشة قُتِل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ﴾ أي: ينهاكم ﴿أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فمن سبَّ عائشة فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن قُتل، ومعنى المخالفة: إنكار ما جاء به القرآن نصًّا؛ لأن الله تعالى برَّأ عائشة بنصوص لا تقبل التأويل.

وذكر ابن العربي عن الشافعية أن سبَّ عائشة ﵂ بغير الإفك مُساوٍ لسبِّ غيرها من الصحابة[2].

ويوضِّح الله لكم الآيات المشتملة على الأحكام الشرعية والمواعظ ومحاسن الأخلاق، ويجعلها واضحة الدلالة على المقصود، وفيها ما يسعدكم في دنياكم وأخراكم، متى تمسكْتم بها، والله عليم بأفعالكم وأقوالكم وما يُصلح أحوالكم، حكيم في شرعه وتدبيره بما يعود عليكم بالنفع والفائدة.

خَامِسًا: عُقُوبَةُ حُبِّ إِشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ

١٩- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾

---

(١) هشام بن عمار السلمي الدمشقي، الحافظ، المقرئ، الخطيب، سمع مالكًا وغيره، وثَّقه ابن معين، توفي سنة (٢٣٥)هـ عاش اثنتين وتسعين سنة، ذكره الذهبي في «الكاشف» والمزي في «تهذيب الكمال».

(٢) يُنظَر «تفسير ابن عاشور» (١٨/ ١٨٣).

تشير الآية إلى أن عدم إشاعة الفاحشة بين الناس، وسيلة من وسائل حفظ المجتمع من الوقوع في الرذيلة، وفيها وعيد شديد بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة معًا لمن يحب ذلك، والله يعلم ما يصلح شؤون خلقه وما فيه سعادتهم في الداريْن، وهذا خلُق رفيع من أخلاق الإسلام.

هذا: وفي مقام التربية الإيمانية أدَّب الإسلام أبناءه في هذه الآية وما سبقها من آيات: فأمرهم **أوَّلًا** أن يظنوا خيرًا ببعضهم في الآية الثانية عشرة: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

وأمرهم فيها **ثانيًا** بأنه إنْ حدث في أنفسهم شيء من الظن، فلا ينبغي لهم أن يتكلموا به، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدَّثت به أنفسها، ما لم تعمل به أو تكلم**»[(١)].

ثم أمرهم **ثالثًا** في الآية السادسة عشرة بأنهم إن سمعوا شيئًا من الكلام السيئ ألا يتكلموا به، وأن يقولوا: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾.

ثم أدَّبهم **رابعًا** في هذه الآية ببيان أن مَنْ أحب ذيوع الخبر السيئ وانتشاره فقد شارك في الإثم، وهو متوعَّد بالعذاب في الدنيا بإقامة حدِّ القذف عليه، ومتوعَّد بالعذاب في الآخرة بما هو أشد وأبقى، فمن شأن المؤمن أن يحبَّ لإخوانه ما يحبُّ لنفسه، وفي إشاعة أخبار الفواحش ونشرها في وسائل الإعلام ونحوها، مفاسد أخلاقية، تُجرِّئ الناس على ارتكابها وتُعلِّمهم الوسائل المفضية إليها، ومحبة انتشار الفواحش بين صفوف المؤمنين ذنب عظيم يؤدي إلى العذاب في الدارين.

جاء في الحديث عن أبي برزة الأسلمي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته حتى يفضحه في جوف بيته**»[(٢)].

---

(١) البخاري (٦٦٦٤) وهذا لفظه (٢٥٢٨٢) ومسلم (١٢٧).

(٢) من حديث أبي برزة عند أحمد (١٩٧٧٦) قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، وأخرجه أبو داود (٤٨٨٠) وأبو يعلى (٧٤٢٤) والبيهقي في السنن (١٠/٢٤٧) وفي الشعب (٦٧٠٤).

والإسلام دين يحب الستر، والحياء شعبة من الإيمان، والإسلام يدعو إلى الستر ما لم تصل الجريمة إلى الحاكم، «. . . ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة»(١).

وماعز الأسلمي الذي جاء مقرًا بذنبه إلى النبي ﷺ قال عنه رجل: أنا الذي حملته يا رسول الله على أن يأتي ويعترف، فقال له النبي ﷺ: «هلَّا سترته بثوبك»(٢).

وهكذا يطلب الإسلام ممن رأى الجريمة أن يسترها قبل أن يُرفع الأمر إلى القاضي؛ لأنه لا يحب انتشار الفاحشة بين الناس.

إن الزنى محرم في النصرانية، وفي اليهودية، وفي الإسلام، وغيرها من سائر الشرائع الإلهية، وعجبًا لزمن ترى فيه الجريمة تتلقفها أجهزة الإعلام المختلفة، وتشيعها بين الناس، وتبثُّها في العلن أجهزة مسموعة ومرئية ومقروءة، وتكتب المؤلفات في ذلك، وتستخدم المرأة لأغراض سياسية واقتصادية وغير ذلك،

ومجرد حب إشاعة الفاحشة بين المؤمنين، فضلًا عمَّن يتكلم بها، قد توعَّد الله عليه بعذاب أليم في الدنيا يوجع القلب والبدن، وما يتْبع ذلك من البلايا الدنيوية، ولهم عذاب أليم في الآخرة بعذاب النار إن لم يتوبوا.

والله يعلم ما خفي وما ظهر، وأنتم لا تعلمون إلا ظواهر الأمور، فكيف يتحدث الناس عن الجرائم ويفشونها فيما بينهم؟! وكيف تتناقلها الصحف، والإذاعات والتلفاز، وغيرها؟! أين الحياء؟ أين التعاليم السماوية؟

إن النصرانية في أصلها، تقول ما يقوله الإسلام، وتحرِّم ما يحرِّمه الإسلام، واليهودية كذلك، والذين يُشيعون الفاحشة بين الناس يَخْرُجُون عن تعاليم الشرائع الإلهية جميعًا، وينطبق عليهم حديث النبي ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ﷺ: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل العبد بالليل عملًا، ثم يصبح قد ستره ربه، فيقول: يا فلان، قد عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه**»(٣).

---

(١) من حديث طويل لأبي هريرة في مسلم برقم (٢٦٩٩).

(٢) يُنظر: تلخيص الحبير برقم (١٧٧٩) وقصة ماعز في الصحاح والسنن والمسانيد.

(٣) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٩٠) والبخاري برقم (٦٠٦٩).

ومن ذلك الذي يحب إشاعة الفاحشة في المجتمع، فهو وإن بالغ في إخفاء ما هو كامن في نفسه من ذلك، فإن الله تعالى يعلم ذلك منه، وسوف يحاسبه ويجازيه بمقدار علمه عنه، وإن خفي ذلك على الناس. قال تعالى:

٢٠- ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

للمرة الثالثة يمتنُّ الله على عباده بفضله ورحمته، وأنه لولا ذلك لفضحكم بذنوبكم، ولعذبكم بما أفضتم فيه من قول الباطل والبهتان، ولعاجلَكم بالعقوبة في الدنيا، ولكن الله رؤوف بعباده رحيم بهم، يبيّن لهم أحكامه وحِكَمه.

وفي المرة الأولى خُتِمت الآية بأنه سبحانه توّاب حكيم؛ لمناسبة الكلام قبلها عن الملاعنة التي تكون بين الزوجين (**وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ**).

وختمت الآية الثانية بالتهديد والوعيد لمن خاض في حديث الإفك (**لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُم فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**).

وخُتمت هذه الآية بوصف الرأفة من العذاب والرحمة بالثواب، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وحذف جواب ﴿لَوْلَا﴾ في الأولى والثانية؛ لتذهب النفس فيه كل مذهب في التهويل والتخويف، أي: لولا فضل الله ورحمته لعذبهم وأهلكهم.

وبهذه الآية تنتهي الآيات العشر التي نزلت متابعة على النبي ﷺ في أصحاب الإفك، وقرأها عليه الصلاة والسلام حين نزولها في بيته.

سادسا: التَّحْذِيرُ مِنْ فِتْنَةِ الشَّيْطَانِ

٢١- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ[1] ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

وبعد أن نهى الله سبحانه عن إشاعة الفاحشة بين الناس، نهى عن الذنوب عمومًا، فقد

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وشعبة وحمزة وخلف والبزي بخلف عنه بإسكان الطاء من (خطْوات)، والباقون بضمها، ومعهم البزي في وجهه الثاني.

وجَّه سبحانه وتعالى في هذه الآية خطابه إلى المؤمنين، فنهاهم عن اتباع طرق الشيطان ومسالكه ووساوسه، والتحذير من فتنة الشيطان وسيلة من وسائل حفظ المجتمع وصيانته من الوقوع في جريمة الزنى ونحوها، ويأتي هذا تعقيبًا على آيات الإفك العشر؛ كي تشير هذه الآية إلى أن ظن السوء، ومحبة شيوع الفاحشة من وساوس الشيطان، ومن شأنه أن يأمر بالفحشاء، وهي كل قول وفعل قبيح، مما تستفحشه العقول السليمة، والشرائع السماوية، من الذنوب والمعاصي الكبيرة، وتطلق الفاحشة على خصوص الزنى واللواط.

ومن شأن الشيطان أن يأمر بالمنكر أيضًا، وهو ما أنكره الشرع والفِطرة السليمة، وكل معصية هي من خطوات الشيطان؛ فهو عدو لكم، يأخذ بأيديكم إلى الفاحشة، ومقدماتها، وأسبابها، ونتائجها، ومن يتبع مسالكه وطرقه فإنه يأمر بقبيح الأقوال، والأفعال، ومنكراتها.

وهذه هي المرة الرابعة خلال اثنتي عشرة آية، يمتنُّ الله تعالى فيها على عباده بفضله ورحمته، وأنه لولا ذلك ما تطهَّر أحد من دنس ذنبه أبدًا، وما اهتدى أحد من الخلائق أبدًا، ولكن الله يطهِّر من يشاء بفضله ومَنِّه، ويهدي من يشاء، ممن علم منه سلامة الفطرة والاستجابة للحق، والله سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأفعالكم، وكان من دعاء النبي ﷺ (اللهم آت نفسي تقواها، وزكِّها، أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها) والله سبحانه أعلم بمن هو أهل للتزكية، وهو يزكي من يشاء، ممن علم منه أنه يُزكّى.

مِسْطَحُ بْنُ أَثَاثَةَ المُطَّلِبِيُّ

٢٢- ﴿وَلَا يَأْتَلِ[1] أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

كان أبو بكر ﷺ ينفق على مِسْطحِ ابن خالته، وهو الذي تكلم مع من تكلموا بشأن عائشة ﷺ، فلما حدث هذا قطع عنه النفقة وأقسم على ذلك، فأنزل الله تعالى يعاتب أبا بكر بقوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي: ولا يحلف ﴿أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ أبو بكر وأمثاله من أهل

---

(١) قرأ أبو جعفر (ولا يتألَّ) بوزن يتفعَّل، والباقون (يأتل) بوزن يفتعل، وكلاهما بمعنى: الحلف.

الإيمان وأهل المال، فيتركون النفقة على أقربائهم الفقراء، من المحتاجين والمهاجرين، - فقد كان مسطح، ابن خالته، وكان مسكينًا مهاجرًا، ومن أهل بدر، واسمه عوف، ومسطح لقبه - وليتجاوزوا عن إساءتهم لهم، ولا يعاقبوهم على ما فعلوا، وهذه دعوة من الله تعالى إلى العفو والصفح عمن ظلم وأساء، وكان مسطح قد اعتذر وقال: إنه كان يغشى مجلس حسان، فيسمع ولا يتكلم.

ولما نزلت هذه الآية، كان بعض الصحابة قد قطع نفقته عمَّن تحدَّث في شأن عائشة ﵂، ففعلوا مثل ما فعل أبو بكر، ولما نزلت هذه الآية كفَّروا عن أيْمانهم، كما كفَّر أبو بكر عن يمينه، وأخذوا يُنفقون عليهم.

وفي الآية دليل على أن النفقة لا تترك بسبب المعصية، وفيها حث على العفو والصفح.

ولمَّا قال تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْۚ﴾ قال أبو بكر: بلى، أحب أن يغفر الله لي، ففي الحديث أنّ مَن حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليكفِّر عن يمينه، وليأت الذي هو خير.

عن أبي ماجد الحنفي قال: رأيت عبد الله أتاه رجلٌ برجلٍ نَشْوَان، فأقام عليه الحد، ثم قال للرجل الذي جاء به: ما أنت منه؟ قال: عمه، قال: ما أحسنت الأدب ولا سترت، ثم قال عبد الله: إني لأذكر أول رجل قطعَهُ النبي ﷺ أُتي به، فلما أُمَر به لتُقطع يده، كأنما سُفَّ - أي: تغيَّر وجهه رمادًا - فقيل: يا رسول الله، كأن هذا شقَّ عليك، قال: «**لا ينبغي أن تكونوا للشيطان عونًا على أخيكم، فإنه لا ينبغي للحاكم إذا انتهى إليه حدٌّ إلا أن يقيمه، وإن الله عفوٌّ يحب العفو**»، ثم قرأ: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْۚ﴾[1].

وكان حسان بن ثابت ممن رمى عائشة ﵂، وقد فقد بصره فيما بعد وعمي، ولما دخل على عائشة أكرمتْه، وأمرت الخادم أن يضع له وسادةً، فقيل لها: هذا حسان، قالت: وأي عذاب أكبر من فَقْد بصره؟! فقد عمي، لقد كان ينافح عن رسول الله ﷺ فتذكَّرتْ منه الحسَنة، وتركت السيئة.

---

(١) عبد الرزاق (١٣٥١٩) والطبراني في الكبير (٨٥٧٢) والحاكم (٤/ ٣٨٢) و«المسند» برقم (٣٩٧٧) قال محققوه: حسن بشواهده وانظر صحيح البخاري (٦٧٨١) عن أبي هريرة والبيهقي في السنن (٨/ ٣٣١).

قَذْفُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ يُوجِبُ اللَّعْنَةَ وَشِدَّةَ الْعَذَابِ

٢٣- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

هذه أوصاف ثلاثة: محصنات، غافلات، مؤمنات، والمتصفات بهذه الصفات الثلاث، لا عِلْمَ لهُنَّ بما رُمين به من الزنى، ولم يخطر بقلوبهن ارتكاب الفاحشة.

قال سعيد بن جبير: هذا اللعن يخصُّ من قذَف عائشة ﷺ.

وقال ابن عباس والضحاك، وغيرهما: بل هو لجميع أزواج النبي ﷺ.

وقيل: إن الآية عامة، ويدخل فيها أمهات المؤمنين من باب أولى.

ولم يذكر الله تعالى لمن قذف أمهات المؤمنين توبة، أما ما يتعلق بقذف بقية المؤمنات فقد ذكره الله في أول السورة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ فوصفتْهن الآية بوصف واحد فقط هو الإحصان، أي: العفاف ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [٤]. وأعقب الله ذلك بالتوبة في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾. وبالنسبة لزوجات النبي ﷺ فقد وَصفتْهن الآية بثلاثة أوصاف هي: الإحصان، والغفلة، والإيمان. ولم يذكر للقاذفين توبة، والمرأة المحصنة هي التي تمنع نفسها من كل سوء، ويُطلَق الإحصان على الرجل والمرأة إذا توفرت فيهما صفات: العفاف، والإسلام، والحرية، والزواج.

قرأ ابن عباس سورة النور ففسرها، فلما أتى على هذه الآية قال: هذه في عائشة وأزواج النبي ﷺ، ولم يجعل لمن يفعل ذلك توبة، وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبي ﷺ التوبة، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ إلى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ فجعل لمن قذف امرأة من المؤمنين التوبة، ولم يجعل لمن قذف امرأة من أزواج النبي ﷺ توبة، ثم تلا هذه الآية: ﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فهمَّ بعض القوم أن يقوموا إلى ابن عباس، فيقبلوا رأسه لحُسْن ما فُسّر[1].

واللعن في الدنيا: يشمل الحكم عليهم بالفسق، وسلْب أهلية الشهادة عنهم، وإقامة حد

(١) «تفسير الطبري» (١٧/ ٢٢٨) والطبراني (٢٣٤) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٠): رواه الطبراني بأسانيد، وفي هذا الإسناد راوٍ لم يُسمَّ، وبقية رجاله ثقات.

القذف عليهم، ونبذ المؤمنين لهم.

واللعن في الآخرة: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى، والعذاب العظيم في نار جهنم، ولاشك أن قصة عائشة ﵂ هي سبب النزول.

ذكر ابن جرير بسنده عن عائشة ﵂ قالت: رُميت بما رُميت به وأنا غافلة، فبلغني بعد ذلك، قالت: فبينما رسول الله ﷺ جالس عندي إذ أُوحي إليه، قالت: وكان إذا أُوحي إليه أخذه كهيئة السُّبات، وإنه أُوحي إليه وهو جالس عندي، ثم استوى جالسًا يمسح على وجهه، وقال: أبشري يا عائشة، قالت: قلت: بحمد الله لا بحمدك، فقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[1].

وفي الحديث: عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»[2].

وبعد أن بيَّن الله سبحانه أن القاذفين للمحصنات الغافلات المؤمنات ملعونون في الداريْن، زاد على ذلك بيان أنهم معذبون يوم القيامة في نار جهنم، فقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وفي هذا دليل على عظم ذنب من سبَّ أو اتَّهم زوجة من زوجات النبي ﷺ، وفي الآية التالية بيان لعذاب يوم القيامة:

شَهَادَةُ الْجَوارِحِ عَلَى الْعَاصِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

٢٤- ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ[3] عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية وقت حلول العذاب بمن قذف المحصنات الغافلات المؤمنات، أي: أن للقاذفين عذابًا عظيمًا يوم القيامة، حين يقفون بين يدي الله تعالى للحساب، فتشْهد

---

(١) «تفسير الطبري» (١٧/ ٢٢٧).

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٢٧٦٦، ٥٧٦٤، ٦٨٥٧) ومسلم برقم (٨٩).

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء في (يشهد)، والباقون بالتاء، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه لأن الفاعل جمع تكسير.

عليهم ألسنتُهم بما نطقت من أقوال قبيحة، وتتكلم أيديهم وأرجلهم بما عملت في الدنيا من أعمال سيئة، وكل جارحة تشهد بما عملته، يُنطقها الله جل شأنه، فلا يمكنه الإنكار، لقد عدل الله سبحانه بين العباد، حيث جعل الشهود عليهم من أنفسهم، وهذا من أعظم الخزي والتنكيل، والمراد بذلك: إخبار الجوارح، ونُطقُها بما كان يقوله العبد ويفعله في الدنيا.

فَمَنْ أفلَت من العقاب في الدنيا ممن خاضوا في حادثة الإفك، كعبد الله بن أُبيٍّ بن سلول؛ الذي لم يُقَم عليه حد القذف؛ لعدم وجود الشهود، فإن عذاب الله تعالى ينتظره في الدار الآخرة، ويومها لن يحتاج الأمر إلى شهود.

ويوم القيامة يشهد اللسان عندما يجحد الإنسان، ويُنكِر قوله وفعله السيئ، فإذا كذَب في الشهادة بلسانه فإنه يُختم على فمه فلا يتكلم، وتنطق الجوارح الأخرى بالشهادة، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس].

١- عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﷺ أن المشركين إذا رأوْا يوم القيامة أنه لن يدخل الجنة إلا المؤمنون المصلُّون، قالوا: تعالَوْا حتى نجحد، فيجحدون أنهم كانوا مشركين، فيختم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتمون الله حديثًا.

٢- وفي آخر حديث أبي هريرة ﷺ عن رؤية الله تعالى يوم القيامة: **«ثم يقال له: الآن نَبْعَثُ شاهِدَنا عليك، ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد عليَّ؟ فيُختم على فيه، ويقال لفخذه، ولَحْمِه، وعظامه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليُعذَر من نفسِه، وذلك المنافق الذي يسخط الله عليه»**[1].

٣- وفي حديث بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده: أن أول ما يشهد على الإنسان بعد أن يُخْتَم على فمه: فَرْجُه وكفُّه[2].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٨).

(٢) ينظَر: «المسند» (٣٣/ ٢٢٩) برقم (٢٠٠٤٣) من حديث طويل قال محققوه: إسناده حسن، وهو حديث صحيح لغيره، وحديث معاوية بن حيدة (٢٠٠٢٦) بإسناد حسن، وانظر في المسند أيضًا (٢٠١١)، وأخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ١٠٧) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٤٧٦) والطبراني في الكبير ١٩ (١٠٣١).

٤- وعن أنس بن مالك ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: **«أتدرون مم أضحك»؟** قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: **«من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب، ألم تُجِرْني من الظلم؟ قال: يقول: بلى. قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيُختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلَّى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بُعْدًا لكُنَّ وسُحْقًا، فعنكُنَّ كنت أُناضل»**[1].

وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١].

والآية عامة فيمن قذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وفي غيرهم من كل من مات على نفاقه وكفره. قال تعالى:

٢٥- ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾

وفي يوم القيامة يوفيهم الله جزاءهم كاملًا على أعمالهم بالعدل الذي يستحقونه، ويعلمون في ذلك الموقف العظيم أن الله هو الحق في ذاته وصفاته وأفعاله، وأنه ﷻ هو المُظْهِر لما أبطَنَتْه النفوس، وخبأتْه الضمائر، وهو القادر على مجازاة الذين أساؤوا بما عملوا، والذين أحسنوا بالحسنى، ولا يظلم أحدًا مثقال ذرة، كما قال تعالى:
﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩]

و(الحق) من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الثابت، واجب الوجود، الذي لم يسبقه عدم، ولم يلْحقه فناء، والحق أيضًا بمعنى: العدل، فهم يتحققون يوم القيامة -بِعلْم قطْعي لا يقبل الخفاء ولا التردد- أن الله هو الحق المبين فيما كذَّبهم فيه من حديث الإفك، فأوصافه حق، وأفعاله حق، ولقاؤه حق، ووعده ووعيده حق، وحكمُه حق، وتشريعه حق، وجزاؤه حق، ورسله حق، وفي يوم الموقف العظيم يعلم المنافقون أن الله هو الحق المبين، وأن الحق المبين منحصر في الله تعالى، وكانوا قبل ذلك في الدنيا يُبطِنون الشرك مع الله تعالى، فيجعلون الحق ثابتًا لأصنامهم.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٩).

شَبِيهُ الشَّيءِ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ

٢٦- ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

الموصوف بالخبيث والطيب في الآية، قيل: هو الأقوال والأفعال، وقيل: هو النساء والرجال.

فقد ختم الله سبحانه حديث الإفك بتقرير سُنَّة إلهية يشاهدها الناس في الواقع، وهي أن شبيه الشيء منجذب إليه، وأن الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، وأن الطيور على أشكالها تقع.

ولا يمكن أن تكون زوجات النبي ﷺ -وعلى رأسهن عائشة ؓ- إلا من أطيب الطيبات من النساء، وأطهر الطاهرات منهن.

جاء في الأثر: مَثَلُ الذي يسمع الحكمة ثم لا يُحدِّث إلا بشرِّ ما سمع، كمثل رجل جاء إلى صاحب غَنم، فقال: أجزرني شاة، فقال: اذهب فخذ بأُذُنِ أيها شئت، فذهب فأخذ بأذن كَلْب الغنم[1].

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ أي: كل خبيث من النساء والرجال، ومن الأقوال والأفعال مناسب ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ ممن هم على شاكلتهم مفتونون بهم، ممن يوافقونهم في طبعهم.

﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ من الرجال والنساء والأقوال والأفعال ﴿لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ ممن هم على شاكلتهم، موافقون لهم، ومفتونون بهم، وعبد الله بن أُبيٍّ، هو الخبيث، فكان الأولى أن تكون الكلمة الخبيثة له.

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ أي: وكل طيِّب من الرجال والنساء، ومن الأقوال والأفعال مناسب ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ مثل: عائشة، وصفوان، وكان الأولى أن يكون الكلام الطيب لهم.

---

(١) حديث ضعيف، أخرجه الترمذي في «السنن» برقم (٢٦٨٧) وابن ماجه برقم (٤١٦٩) عن أبي هريرة، ورواه أيضًا أحمد في «المسند» برقم (٩٢٦٠) بإسناد ضعيف، قال محققوه: لضعف ابن جدعان وجهالة أوس بن خالد، وانظر (٨٦٣٩) وبنحوه في الطيالسي (٢٥٦٣) وأبي يعلى (٦٣٨٨) والبيهقي في الشعب (١٧٨٨) من طرق أخرى..

ثم تأتي شهادة الله تعالى ببراءة عائشة ﷺ بما يغني عن كل شهادة، فيقول تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ قال ابن زيد: ها هنا برئت عائشة.

﴿لَهُم﴾ أي: لكل طيب وطيبة، ولعائشة ﷺ، وللمحصنات الغافلات المؤمنات، لهم يوم لقاء رب العالمين ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هو الجنة.

دخل عبد الله بن عباس ﷺ على عائشة وهي في مرضها فقالت: إنها خائفة من لقاء ربها، قال لها: إنك تلاقين أمامك مغفرة ورزقًا كريمًا، وعَدكِ الله بها في هذه الآية.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من سائر الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هو الجنة يوم لقاء رب العالمين.

وَرَدَ أن عائشة ﷺ كانت تفتخر بأشياء لم تُعطَها امرأة غيرها(١).

منها: أن جبريل ﷺ أتى بصورتها للنبي ﷺ في قطعة من حرير، وقال: هذه زوجتك، فقد ورد أنّ جبريل أتى بصورتها للنبي ﷺ في راحته، أي: كَفِّه.

ومنها: أن النبي ﷺ لم يتزوج بكرًا غيرها، وقُبض رسول الله ﷺ وهو في حجرها، وفي بيتها.

وكان ينزل عليه الوحي وهي معه في اللحاف، ونزلت براءتها من السماء.

وهي ابنة الصديق خليفة رسول الله ﷺ، خُلِقتْ طيبة، ووُعدت مغفرة ورزقًا كريمًا.

وكان مسروق إذا حدَّث عن عائشة ﷺ قال: حدثتْني الصديقة بنت الصديق، حبيبة رسول الله ﷺ، المبرأة من السماء.

فالقدح في عائشة ﷺ قدح في النبي ﷺ ، وبمجرد كونها زوجة للرسول ﷺ يُعلم أنها لاتكون إلا طيبة طاهرة، فكيف وهي صديقة النساء، وأفضلهن وأعلمهن وأطيبهن، وقد تربت في بيت النبوة.

وبهذا تنتهي قصة الإفك والتعقيب عليها، وفيها إرشاد المؤمنين إلى أنجع الوسائل في محاربة الشائعات، ومنها إحسان الظن من الناس بعضهم ببعض، وكتمان الشائعات، والتحذير من إفشائها، وتوجيه المؤمنين إلى العفو والصفح والتسامح، وتكريم أم المؤمنين عائشة ﷺ.

---

(١) سبق ذكرها في تفسير الآية العاشرة.

سَابِعًا: الاسْتِئْذَانُ: أَحْكَامُهُ وَآدَابُهُ

٢٧- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

وبعد أن تحدثت سورة النور عن عقوبة الزنى والقذف، تحدثت عن الأسباب والوسائل التي تؤدي إليه؛ لأن الإسلام يحرص على الوقاية قبل أن تقع الجريمة، ويبيِّن القرآن الكريم في هذه الآية وما بعدها، أن من الطرق التي تؤدي إلى الزنى أربعة:

الأول: دخول بيوت الآخرين بدون إذن.

والثاني: عدم غض البصرْ عن النساء المحرمات.

والثالث: خروج المرأة سافرة متبرجة.

والرابع: عدم الزواج والإحصان للأعزب من الرجال أو النساء.

والإسلام إذا حرَّم شيئًا، حرَّم أسبابه ووسائله ودواعيه وبواعثه ومقدماته.

دُخُوْلُ بُيُوتِ الآخَرِينَ بِإِذْنِ

تبدأ هذه الأمور الأربعة بوجوب الإذن عند إرادة دخول بيوت الآخرين.
وهي تدابير وقائية تقي الإنسان من الوقوع في الزنى عند الالتزام بها.

وقد جاء في أسباب النزول عن عدي بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، لا والد ولا ولد، وإنه لا يزال الرجل يدخل عليَّ من أهلي وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع؟ فأنزل الله سبحانه هذه الآية[١].

وكان الاستئذان معروفًا في الجاهلية وصدر الإسلام، وكان يختلف شكله باختلاف حال المستأذن عليه من الملوك فمَنْ دُونهم من عامة الناس.

وقد اتخذ الناس البيوت للاستتار، فوجب الاستئذان من أجل البصر.

---

(١) «تفسير الطبري» (١٧/ ٢٤٢).

قال أبو بكر وبعض الصحابة ﷺ لما نزلت هذه الآية: أرأيتَ يا رسول الله، البيوت والحانات التي على الطرق بين مكة والمدينة والشام وبيت المقدس، ليس فيها ساكن، فأنزل الله سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾[1].

وكان بعض الناس في الجاهلية يدخل أحدهم بيت غيره، فيهجم عليه بدون إذن، ولم تكن للبيوت آنذاك أبواب ولا ستائر ونحوها، بل كانت الأبواب مفتوحة، فكان الرجل يدخل البيت مباشرة، ويقول لأهله: حُيِّيتم صباحًا، أو حُيِّيتم مساء[2].

والظاهر من الآية أن الاستئذان لا يكون إذا دخل الإنسان بيته على أهله، أي: على زوجته؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ فإذا دخل الإنسان بيت نفسه، فإنه لا يجب عليه أن يستأذن على زوجه؛ لأن بين الرجل والمرأة ما بينهما من عدم الحشمة وعدم الكلفة، بما لا يوجد بين رجل آخر وامرأة أخرى.

ولكن النبي ﷺ نهى إذا قَدِم الإنسان من سفر أن يَطْرُق أهله ليلًا بدون أن يعلمهم، فيدخُل عليهم فجأة؛ لأنه قد تكون المرأة رثَّة الثياب، أو في منظر كريه ونحو ذلك، ولا تحب أن يراها الرجل على هذه الحالة؛ فتتهيأ لاستقباله، كما جاء في الحديث عن جابر ﷺ: أن النبي ﷺ نهى أن يطرق الرجل أهله ليلًا يتخوَّنهم، فقد سمع جابر رسول الله ﷺ يقول: **«إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلًا»**[3].

والله سبحانه يبيِّن أنه إذا قيل لمن يريدون الدخول: ارجعوا فلْيرجعوا، هو أزكى لهم؛ إذ ليس هنالك من حرج ولا غضاضة إذا جاء الإنسان على غير موعد، أو اتصال سابق، ولم يجد أهل البيت على استعداد لاستقباله، فلا جناح عليه أن يرجع من حيث أتى، وقبل أن يرجع الإنسان يكرر الاستئذان ثلاث مرات.

جاء في الحديث الآتي ذكره: **«الاستئذان ثلاث، فإن أُذن لك وإلا فارجع»** والمرة الأولى واجبة، وما بعدها هو حق للمستأذِن، إن شاء أكمله، وإن شاء اقتصر على مرة أو مرتين، ويكون بين الأولى والثانية فاصل، وبين الثانية والثالثة فاصل، حتى تُعطَى الفرصة لأهل البيت أن يتهيَّؤُوا لاستقبال الضيف، أو يغيِّروا من الوضع الذي لا يُحبُّون أن يراهم عليه أحد.

---

(١) «تفسير الطبري» (١٨/ ٨٧) و«أسباب النزول» للواحدي (٢٧٢) و«زاد المسير» (٦/ ٧٧).

(٢) ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان (٨/ ٢٥٦٥).

(٣) من حديث جابر في البخاري برقم (٥٢٤٣، ٥٢٤٤) وانظر: «صحيح مسلم» برقم (٧١٥).

آثار وأحاديث في الاستئذان:

١- جاء رجل من بني عامر يريد الاستئذان على النبي ﷺ وهو في بيته، ولم يكونوا يعرفون آداب الاستئذان قبل ذلك، فوقف الرجل على باب النبي ﷺ يقول: أَأَلِج؟ أي: أَأَدْخُل؟ فقال النبي ﷺ لخادم عنده: **«قُمْ إلى هذا فعلِّمه الاستئذان، قل له يقول: السلام عليكم، أأدخل؟»** فسمعها الرجل فقال: السلام عليكم، أأدخل؟ فأذن له النبي ﷺ بالدخول[١].

٢- وفي الصحيحين: أن أبا موسى الأشعري ﷺ استأذن باسمه الصريح على عمر بن الخطاب ﷺ ثلاثًا، فقال: السلام عليكم، هذا عبد الله بن قيس، فلم يأذن له، وقال في الثانية: السلام عليكم، هذا أبو موسى، وقال في الثالثة: السلام عليكم، هذا الأشعري، ولَمَّا لم يؤذن له انصرف، فقال عمر: رُدُّوه عليَّ، فجاء، فقال عمر: يا أبا موسى، كنا في شُغْل، فقال أبو موسى: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الاستئذان ثلاث، فإن أُذن لك وإلا فارجع»**[٢].

٣- وعن أبي أيوب ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ هذا التسليم قد عرفناه، فما الاستئناس؟ قال: **«يتكلم الرجل بتسبيحه، وتكبيره، وتحميده، ويتنحنح، فيؤْذِن أهلَ البيت»**[٣].

٤- وثبت في حديث أبي موسى أيضًا أن عمر ﷺ استأذن على النبي ﷺ مرتين فلم يُؤذن له، فرجع، فتبعه غلام فقال له: ادخل، فقد أذن لك النبي ﷺ[٤].

٥- وليس هنالك أفضل من سيد الخلق ﷺ؛ حيث حدث له مثل ذلك، فقد جاء ﷺ إلى بيت سعد بن عبادة، فقال: **«السلام عليكم ورحمة الله»**، فردَّ سعد ردًّا خفيًّا، لم

---

(١) يُنظَر الحديث في: «سنن أبي داود» برقم (٥١٧٧) وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٤٣١٢) وهو في «المسند» (٥/٣٦٨) برقم (٢٣١٢٧) بنحوه، من حديث طويل صحيح لغيره، وإسناد رجاله ثقات، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٣١٦) والبيقهي (٨/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: «صحيح مسلم» برقم (٢١٥٤) و«صحيح البخاري» برقم (٦٢٤٥) وانظر: (٢٠٦٢، ٧٣٥٣).

(٣) ابن أبي شيبة (٤١٩١٨) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٦٧) والحاكم، والترمذي (٢/ ٨٩) قال ابن كثير (٦/ ٤٠): حديث غريب.

(٤) صحيح مسلم (٦/ ١٨٠) وصحيح سنن أبي داود (٤٣١٤) و ابن عبد البر في «التمهيد» (٣/ ٢٠٢).

يسمع به النبي ﷺ ويقصِد من ذلك أن يستزيد من سلام النبي ﷺ، والرسول ﷺ لم يستمع إلى رد السلام من سعد، قال قَيْس: أحد الحاضرين في المجلس: ألا تأذن لرسول الله؟ قال: نريد أن نستزيد من سلامه.

قال ﷺ مرة ثانية: «**السلام عليكم ورحمة الله وبركاته**»، فرد سعد ردًّا خفيًّا لم يسمعه الرسول ﷺ، ثم قال الرسول مرة ثالثة: «**السلام عليكم ورحمة الله وبركاته**»، وانصرف لَمَّا لم يؤذن له، فلم يدخل النبي ﷺ مع استئذانه ثلاث مرات، فتبعه سعد، وقال: يا رسول الله، إني كنت أستمع إليك، ولكني كنت أرد ردًّا خفيًّا؛ لِتُكْثِر علينا من السلام، ثم أتى به إلى بيته، فاستضافه وأكرم وفادته ﷺ، وصلوات الله وسلامه على رسول الله ﷺ ورضي الله عن سعد بن عبادة[1].

٦- وقد كره النبي ﷺ ألا يُفصح الإنسان عن نفسه، وألا يُصَرِّح باسمه عند إرادة الاستئذان، فلا يقول: أنا، إنما يذكر المستأذِن اسمه صريحًا، كما كان عمر ﷺ يستأذن على رسول الله ﷺ فيقول: السلام عليك يا رسول الله، أيدخُل عمر؟ هكذا يصرِّح باسمه.

٧- وكان أبو موسى الأشعري ﷺ يقف على الباب ويقول: السلام عليك يا رسول الله، هذا أبو موسى هذا الأشعري، أي: يعلن عن اسمه صراحة.

٨- وجاء جابر ﷺ إلى رسول الله ﷺ في دَيْن كان على أبيه، قال: فدققتُ الباب، فقال ﷺ: «**من ذا؟**» قال: أنا، فقال ﷺ: «**أنا، أنا**»، كأنه كرهها[2].

أي: كره أن يقول الإنسان: أنا، ولا يصرح باسمه.

---

(١) يُنظَر: أبو داود برقم (٥١٨٥) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠١٥٧) (٥٠١٥٩) و«المسند» (٣/ ١٣٨) برقم (١٢٤٠٦) عن أنس بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) و(١٥٤٧٦) عن قيس بن سعد بن عبادة، وهو مصنف عبدالرزاق (٧٩٠٧، ١٩٤٢٥) والطبراني في الدعاء (٩٢٤) والبغوي (٣٣٢٠) والترمذي (٢٦٩٦) والضياء في المختارة (١٧٨٣) والبزار (٢٠٠٧).

(٢) من حديث جابر في «البخاري» برقم (٦٢٥٠) وهذا لفظه، وانظر: (٢١٢٧) ومسلم برقم (٢١٥٥) وأبو داود برقم (٥١٨٧) والترمذي برقم (٢٧١١) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠١٦٠) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٧٠٩).

٩- وفي حديث آخر عن جابر أيضًا: أن النبي ﷺ قدم المدينة نهارًا فأناخ بظاهرها، وقال: انتظروا حتى ندخل عشاء -آخر النهار- حتى تمتشط الشَّعْثة، وتستحدَّ المُغِيبَة»[1]

١٠- وقال الإمام أحمد: إذا دخل الرجل بيته استُحب له أن يتنحنح، أو يحرك نعليه، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك، وكذا إذا أراد الإنسان الدخول على أمه، أو على أخته، أو ابنته أو بنيه، البالغين، فإنه يجب عليه الاستئذان.

١١- ومن ذلك أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أأستأذن على أمي؟ قال ﷺ: **«نعم»** قال: يا رسول الله، ليس لها خادم غيري، أأستأذن كلما أردت الدخولِ عليها؟ قال ﷺ: **«أتحب أن تراها عريانة»**؟ قال: لا، قال: **«فاستأذن عليها»**[2].

أي: استأذن عند إرادتك الدخول على أمك، وعلى محارمك من باب أولى.

وينبغي للمستأذِن ألا يستقبل الباب بوجهه، وإنما يقف عن يمينه أو يساره.

١٢- عن عبد الله بن بسر ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من رُكْنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: **«السلام عليكم، السلام عليكم»**، وذلك أن الدُّور لم يكن عليها يومئذ ستور[3].

وعدم الاستئذان يوجب الريبة ويتهم فاعله بالشر كالسرقة والخيانة ونحوهما.

وإنما جعل الاستئذان من أجل البصر:

فبسبب وقوع البصر على العورات التي داخل البيوت، فالإنسان يستتر في بيته كما يستتر في ثوبه.

١٣- فقد ثبت عن رسول الله ﷺ من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ أنه قال: **«لو**

---

(١) من حديث طويل عن جابر في البخاري (٥٢٤٧) وانظر: (٤٤٣).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» عن عطاء بن يسار مرسلًا، وهو برقم (٢٠٢٨) من رواية أبي مصعب.

(٣) «سنن أبي داود» برقم (٥١٨٦) و«صحيح سنن أبي داود» برقم (٤٣١٨) والبخاري في «الأدب المفرد» (١٠٧٨)، وصححه الألباني أيضًا في مشكاة المصابيح (٤٦٧٣).

أن امرأ اطَّلع عليك بغير إذن، فحذفْته بحصاة، ففقأت عينه لم يكن عليك جناح»[١].

١٤ - وفي لفظ آخر عن أبي هريرة ﷺ: **«من اطَّلع في بيت قوم بغير إذنهم، فقد حلَّ لهم أن يفقؤوا عينيه»**[٢].

١٥ - وفي حديث سهل بن سعد الأنصاري ﷺ: أن رجلًا اطلع في باب رسول الله ﷺ ومع رسول الله ﷺ مِدْرَى يُرجِّل به رأسه، فقال ﷺ: **«لو أعلم أنك تنظر، طعنتُ به في عينيك، إنما جعل الله الإذن من أجل البصر»**[٣].

والراجح أن السلام يكون قبل الاستئذان

١٦ - لِمَا ورد عنْ جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«السلام قبل الكلام»**[٤].

١٧ - قال صفوان بن أمية: دخلتُ على النبي ﷺ، ولم أُسلِّم، ولم أستأذن، فقال ﷺ: **«ارجع فقل: السلام عليكم، أأدخل؟»** وذلك بعدما أسلم صفوان[٥].

ويرى بعض العلماء أن القادم إن كان يرى أحدًا من أهل البيت سلَّم أوَّلًا، ثم استأذن في الدخول، وإن كان لا يرى أحدًا منهم، قدَّم الاستئذان على السلام.

١٨ - عن مالك، عن زيد بن أسلم أنه استأذن على عبد الله بن عمر ﷺ فقال: أألج؟ فأذن له ابن عمر، فلما دخل، قال له ابن عمر: ما لك واستئذان العرب؟ يريد أهل الجاهلية. إذا استأذنت فقل: السلام عليكم، فإن رُدَّ عليك السلام، فقل: أأدخل؟ فإن أذن لك فادْخل، وغير ذلك من الأدلة

ومعنى الآية: يأيها الذين صدقوا وآمنوا بالله وبرسوله، لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم التي

---

(١) من حديث سعد في البخاري برقم (٦٩٠١، ٦٩٠٢) ومسلم برقم (٢١٥٦، ٢١٥٨).

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة برقم (٢١٥٨).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢١٥٦).

(٤) «سنن الترمذي» برقم (٢٦٩٩)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢١٧٠) وهو في السلسلة الصحيحة (٨١٦).

(٥) «المسند» (٣/ ٤١٤) برقم (١٥٤٢٥) عن كَلَدةَ بن الحنبل، قال محققوه: إسناده صحيح ورجاله ثقات وأخرجه الطبراني في الكبير والترمذي (٢٧١٠) وقال: حديث حسن غريب، والنسائي في الكبرى (٢٧٣٥) وفي عمل اليوم والليلة (٣١٥).

تسكنونها، وهي مسكونة لسواكم، حتى تستأذنوا أهلها في الدخول عليهم، وتطلبُوا أن يأنس بكم صاحب البيت بانتفاء الوحشة والكراهية، وتُسلموا على أهلها، وصفة السلام من السُّنَّة: «**السلام عليكم، أأدخل؟**» ذلكم الاستئذان خير لكم، لعلكم تتذكرون بفعلكم له أوامر الله فتطيعوه، فإن الاستئذان والتسليم خير لكم من الهجوم بدون إذن، ومن الدخول على الناس فجأة، ومن تحية أهل الجاهلية. قال تعالى:

٢٨- ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

بيَّن الله سبحانه أنه إذا لم يكن في البيت المأهول بالسكان أحد في هذا الوقت يأذن بالدخول، فلا تمتنعوا من الرجوع، ولا تغضبوا من صاحب المنزل، فإنه لم يمنعكم حقا واجبًا لكم، وإنما هو متبرع، فإن شاء أذن لكم، وإن شاء منع، فإنه لا يجوز لك أن تدخل بدون إذن، فإن لم يأذن صاحب البيت وطلب منكم الرجوع فارجعوا، ولا تُلحُّوا في طلب الدخول، فإن هذا أطهر لكم وأحفظ لمروءتكم؛ لأن للإنسان أحوالًا يكره الاطلاع عليها من أحد من الناس، فلا يأخذكم الكبر ولا الاشمئزاز في هذه الحالة.

ثم توعَّد الله سبحانه أهل التجسس الذين يدخلون بيوت الناس على غفلة؛ حتى ينظروا إلى ما لا يحل لهم، فقال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيجازي كل عامل بعمله.

قال قتادة: قال رجل من المهاجرين: لقد طلبتُ عمري كله هذه الآية فما أدركتها، أن أستأذن على بعض إخواني، فيقول لي: ارجع، فأرجع وأنا مغتبط؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾[1].

هذا الحكم في الأماكن المسكونة، فما هو حكم الأماكن غير المسكونة قال تعالى:

٢٩- ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾

ولما نهى سبحانه وتعالى عن دخول كل بيت ليس ملكًا للإنسان، أخرج منه البيوت التي ليست ملكًا للإنسان، وفيها متاع له، أي قضاء حاجات كبيع وشراء أو سكن أو استراحة أو

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/ ١٧٦).

علاج أو مراجعة، ونحو ذلك، وليس فيها ساكن فأسقط سبحانه الحرج في الدخول إليها.

فهذه الآية لعموم الاستئذان، وذلك أنه لما نزلت آية الاستئذان تَعَمَّق بعض الناس، فكان لا يأتي على موضع خرب وغير مسكون إلا سلَّم واستأذن، فنزلت هذه الآية لرفع الحرج عن الأماكن العامة، والأماكن غير المسكونة، وذلك مثل: الفنادق، والمحلات التجارية، والدكاكين، والاستراحات التي في الطرقات السريعة للمسافرين بين بلاد العالم، وكذا الأماكن العامة التي فيها منفعة للناس، وليس فيها سكان يختصون بها، فلا مانع من أن يدخلها الإنسان بدون إذن؛ لأن العلة في الاستئذان: عدم كشف العورات، فإذا زالت العلة زال الحكم، وهذه الأماكن غير مخصصة للسكنى، بل فيها منافع، ومرافق، وحاجة لمن يدخلها، وفي الاستئذان فيها مشقة.

وكان أبو بكر ﷺ قد سأل النبي ﷺ عن البيوت التي بين مكة والمدينة والشام وبيت المقدس، وهي على ظهر الطريق وليست مسكونة، فأنزل الله الآية.

والله تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوالكم الظاهرة والباطنة، وهذا تحذير آخر لمن يتلصَّصون على بيوت الناس، ويتخوَّلُون النظر خلسة، علَّهم يطلعون على ما فيها من عورات. والله يعلم ما تسرون وما تعلنون، وهو عليم بذات الصدور، فلذلك شرع لكم ما يلزمكم ويصلح أحوالكم من أحكام.

ثَامِنًا وَتَاسِعًا: غَضُّ الْبَصَرِ وَحِفْظُ الْفَرْجِ

٣٠- ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾

الأمر الثاني من الأمور الأربعة السابق ذكرها في أول آية الاستئذان، مما يقي من الوقوع في الزنى، ويعمل على إقامة مجتمع نظيف طاهر، لا تُهيَّج فيه الشهوات، هو **غض البصر**.

والأمر الثالث هو حفظ الفرج، وهما أمران متلازمان، وقد أُمرنا بحفظ الفرج كله، ولكن البصر كله لا يُغضّ، فالإنسان لن يسير في الشارع مُقْفل العينيْن، ولكنه مأمور أن يصرف بصره حال نظرة الفجاءة، وألّا يُطيل النظر، ولا يسترسل، ولا يختلس، ولا يعاود ولا يكرِّر، لك الأولى وعليك الثانية، فلا تتبع خطوات الشيطان.

وقد جاء الأمر في الآية بحفظ الفرج مطلقًا بدون لفظ ﴿مِّنْ﴾ فلم يقل الله تعالى: (ويحفظوا من فروجهم)، كما قال تعالى: ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾.

وحفظ الفرج: يكون بعدم كشف العورة للآخرين، بحيث لا يطلع عليها أحد، وكذا حفظه من الزنى، ومن اللواط، ومن السحاق، والاستمناء وغير ذلك، قال تعالى في وصف عباده المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون] والمعارج ٢٩-٣١ والعادون: هم المتجاوزون الحلال إلى الحرام، والحلال في الآية، هو قضاء الشهوة في زواج مشروع، أو في مملوكة بطريق شرعي، وماعدا ذلك فهو حرام.

وحفظ البصر: غَضُّه عما حرم الله عليه النظر إليه؛ لأن هناك بصرًا يجوز، كالنظر إلى المحارم، والنظر إلى التي يريد خِطْبَتَها، ونظرِ الطبيب إلى موضع المرض من المريض، والنظرِ الذي تتحقق به الشخصية في الأحوال الجنائية، وغيرِ هذا من الأمور الجائزة، ولذلك فإن الله تعالى منَع النظرة المحرَّمة للمرأة الأجنبية، والإنسان بعد ذلك لن يسير في الطريق مقفلة عيناه.

وتشير الآية إلى أن غض البصر سبب لحفظ الفرج وعدم غض البصر سبب لعدم حفظ الفرج، وأن الإنسان إذا أطلق بصره تعلّق قلبه بالنساء، والنظرة بريد الزنى، وهي سهم مسموم من سهام إبليس، فمن تركها خوفًا من الله تعالى رزقه الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه، ومن الصبر على محارم الله، أن يصبر الإنسان على حبْس بصره عما حرم الله، ومن الناس من لا يصبر على ترك نظرة محرمة، وهذا ضعف بالغ في الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال جل شأنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩] يعلم سبحانه مسارقة النظر، والتلصّص به من طرف خفي، والسعادة في حفظ البصر وليس في إطلاقه.

أحاديث في غض البصر:

١- وقد بيَّن الإسلام أن النظرة الفجائية لا يُسأل عنها المرء؛ فقد سأل جرير بن عبد

الله ﷺ رسول الله ﷺ عن نظرة الفجاءة، فقال: «**اصرف بصرك**»[(١)].

أي: إذا وقع بصرك على مُحرم فاصْرِفْه فورًا، ولا تتعمد النظرة الأولى، ولا تُتبع النظرة النظرة، أي: لا تكررها، بل اصرف بصرك.

٢- وفي الحديث: عن بريدة الأسلمي ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**يا علي، لا تُتبع النظرة النظرة؛ فإنما لك الأولى، وعليك الثانية**»[(٢)].

والذي يجلس في الطرق العامة عليه أن يغضَّ بصره، فقد بيَّن النبي ﷺ أن أول حق من حقوق الطريق غض البصر.

٣- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إياكم والجلوس في الطرقات**»، فقالوا: ما لنا بدٌّ، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: «**فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها**»، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «**غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر**»[(٣)].

وكفه عن النظرة إلى ما حرم الله تعالى، لأن النظرة بريد الزنا، وهي سهم مسموم من سهام إبليس، ومن ترك النظرة خوفًا من الله تعالى رزقه إيمانًا يجد حلاوته في قلبه، والعين تزني وزناها النظر.

٤- فعن ابن عباس ﷺ قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللمم، مما قال أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «**إن الله عز وجل كتب على ابن آدم حظه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة، فزنى العينين:**

---

(١) من حديث عبد الله البجلي في «صحيح مسلم» برقم (٢١٥٩) و«المسند» (٤/ ٣٦) برقم (١٩١٩٧) بإسناد صحيح على شرط مسلم وأبي داود برقم (٢١٤٨) والترمذي برقم (٢٧٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح والنسائي برقم (٩٢٣٣).

(٢) من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه عند أبي داود برقم (٢١٤٩) والنسائي في الكبرى (١١٥٤٤) وابن حبان (٤٤٢٠) والترمذي برقم (٢٧٧٧) ومسند أحمد (٢٢٩٩١، ٢٣٠٢١، ٢٢٩٧٤) قال محققوه: وهو حديث حسن لغيره وفيه أبو ربيعة متكلّم فيه، وأخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ١٥) وشرح مشكل الآثار (١٨٦٦) والحاكم (٢/ ١٩٤) والبيهقي في السنن (٧/ ٩٠) وفي الشعب (٥٤٢١).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٢٤٦٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢١٢١).

النظر، وزنى اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»[١].

٥- وفي صحيح مسلم وغيره: عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يُفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تُفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد**[٢]**»**.

٦- وعن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: قلت: يا رسول الله، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: **«احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو مما ملكت يمينك»**، فقال: الرجل يكون مع الرجل؟ قال: **«إن استطعت ألا يراها أحد فافعل»** قلت: والرجل يكون خاليًا؟ قال: **«فالله أحق أن يُستحْىٰ منه»**[٣].

قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: ١٩].

وهكذا: فإن في حفظ الفروج من الحرام وغض البصر عما حرم الله، طهارة من الخبائث التي يتدنس بها أهل الفواحش، وتزكية لعمل الإنسان بترك المحرم، ومَنْ تَرَكَ شيئًا لله، عوَّضه الله خيرا منه، ومَنْ غض بصره عن المحرم أنار الله بصيرته.

والجمع بين غضّ البصر وحفظ الفرج، جمع بين السبب والنتيجة؛ لأن عدم غض البصر كثيرًا ما يؤدي إلى الوقوع في الفواحش، ولذا قدَّم الله الأمر بغض البصر على الأمر بحفظ الفرج، وجعل ذلك من آداب المجالسة سِيَّمَا بعد الدخول إلى بيوت الناس؛ حيث جاء الأمر بغض البصر عقب بيان حكم الاستئذان؛ لكيلا يكون الداخل إلى البيت محدِّقًا بصره في جوانب ونوافذ البيت وخباياه، فلا ينظر إلا إلى ما يعسُر صرف نظره عنه.

---

(١) البخاري وعلقه برقم (٦٢٤٣، ٦٦٦٢) ومسلم برقم (٢٦٥٧) وأبو داود (٢١٥٢) و«المسند» برقم (٧٧١٩، ٨٢١٥) إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٣٣٨).

(٣) أحمد (٥/ ٣) برقم (٢٠٠٣٤، ٢٠٠٤٠) بإسناد حسن وعلَّقه البخاري كما في «الفتح» (١/ ٣٨٥) أخرجه أبو داود برقم (٤٠١٧) والترمذي برقم (٢٧٦٩) وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» برقم (٢٢٢٢) وهذا لفظ، وحسنه أيضًا في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٣٣٩١) وابن ماجه (١٩٢٠) والحاكم (٤/ ١٧٩) وصححه، ووافقه الذهبي، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٩٧٢)، والطبراني في الكبير ١٩ (٩٩٠) والبيهقي في السنن (٧/ ٩٤) وفي الشعب (٧٧٥٣).

وقد صرَف النبي ﷺ وجه الفضل بن العباس عن النظر إلى المرأة الخثْعمية، فدلَّ ذلك على عدم جواز النظر إلى المرأة، سِيَّمَا إذا كانت وضيئة.

فغض البصر يكون عن العورات، وعما لا يحل من النساء، وحفظ الفرج يكون عما حرم الله من: الزنا، واللواط، والسحاق، والعورات المكشوفة، ونحو ذلك؛ فإن هذا أزكى وأطهر للنفس، والله يعلم أحوالكم الظاهرة والباطنة.

لِمَنْ تُبْدِي المَرْأَة زِينَتَهَا؟

٣١- ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ[(١)] ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ[(٢)] أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ[(٣)] لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

وكما أمر القرآن الكريم الرجل بحفظ بصره وفرجه، أمر المرأة كذلك بحفظ بصرها وفرجها في هذه الآية، ولكن الإسلام لم يشدد في ذلك على النساء كما شدد على الرجال، فالإسلام لم يأمر الرجل أن يلبس نقابًا؛ كي لا تنظر إليه المرأة، ولم يأمره أن يحتجب؛ حتى لا تنظر إليه المرأة، كما أمر المرأة أن تُخَمِّر رأسها وصدرها وعنقها، ولم يَنْهَ الإسلام الرجل عن الخروج إلى الأسواق وقضاء الحاجات ونحو ذلك، إنما نهى عن الخلوة، كما في الحديث عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لا يخلونَّ رجل بامرأة إلا**

(١) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وحمزة والكسائي وشعبة بِخُلْف عنه، بكسر الجيم من (جِيوبهن)، والباقون بضمها، وهو الوجه الثاني لشعبة.

(٢) قرأ ابن عامر وشعبة وأبو جعفر بنصب الراء من (غيرَ) على الاستثناء، والباقون بالجر نعتًا للمؤمنين، أو بدلًا، أو عطف بيان.

(٣) قرأ ابن عامر بضم الهاء وصلًا من (أيهُ المؤمنون) وإسكانها وقفًا، وذلك أن الألف لما حُذفت لالتقاء الساكنين، ضُمَّت الهاء تبعًا لضمة الياء، وقرأ الباقون بفتح الهاء وحذف الألف وصلًا، ووقف عليها بالألف بعد الهاء أبو عمرو والكسائي ويعقوب، ووقف الباقون بسكون الهاء مع حذف الألف.

ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم. . .»[١].

ولا يجوز أن تجلس المرأة إلى جوار الرجل أو في مقابلته وجهًا لوجه، يحدِّق النظر فيها، وتحدِّق النظر فيه، هذا ليس من خُلُق الإسلام، ولا من خُلُق الأولين، وليس من عادات العرب، فقد مرَّت امرأة عربية على مجلس من بني نُمَيْر، فوجدتهم يحدِّقون النظر فيها، فقالت لهم: أنتم لم تأخذوا بقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾، ولم تأخذوا بقول الشاعر:

فغُضَّ الطَّرْف إنك مِنْ نُمَيْرٍ — فلا كعْبًا بلغْتَ ولا كِلَابا

ويقول عنترة في الجاهلية:

وأَغُضُّ طَرْفِي إنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي — حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَأْوَاهَا

هذا هو الخُلُق العربي الأصيل، يغض الرجل طرفه إن ظهرت له جارته فجأة، حتى يواري جارته مأواها، فأين هذا ممن يختلس النظر إليها؟!

ومن سبل الوقاية من الزنى: أن الإسلام حرَّم أن يمس الرجل أي موضع من جسد المرأة الأجنبية، لا بالمصافحة ولا غيرها، فالمصافحة بين الرجال والنساء الأجانب نهى عنها النبي ﷺ، ولم تصافح يده ﷺ يد امرأة أجنبية قط، ولا مسَّتْ يده يد امرأة قط، ولمَّا بايع ﷺ النسوة يوم الفتح بايعهن كلامًا، ولم يضع يده في يد امرأة، كما في الحديث: **«لأن يُطْعن أحدكم بمخْيَطٍ في رأسه خير له أن يمسَّ امرأة لا تحل له»**[٢].

وقد حرَّم الإسلام أن تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، وغير ذلك من وسائل الوقوع في الزنى؛ فقد أمر الإسلام النساء أن يغضُضْن من أبصارهن عما لا يحل لهن من العورات، فلا يحلُّ للمرأة أن تنظر إلى ما بين السرة والركبة من الرجل الأجنبي، ولا تنظر إلى مثل ذلك من المرأة، لا في حلَبات المصارعة، ولا في المباريات الرياضية، ولا في الأفلام

---

(١) من حديث ابن عباس في «صحيح مسلم» برقم (١٣٤١) و«صحيح البخاري» برقم (١٨٦٢، ٣٠٠٦، ٣٠٦١) وغيره.

(٢) أخرجه الطبراني كما في «صحيح الترغيب والترهيب».

السينمائية، ولا على شواطئ البحار والأنهار والمسابح، ولا غير ذلك، على أن المجتمعات التي ليس فيها قيود على كشف العورات، ولا على الخلوة والاختلاط، لم يؤد هذا فيها إلى تهذيب الدوافع الجنسية، إنما انتهى إلى سُعار مجنون، لا يرتوي ولا يهدأ، بل أدى إلى الشذوذ الجنسي بكل أنواعه.

وهكذا يأمر الله سبحانه المرأة بحفظ فرجها كما أمر الرجل، فقال سبحانه: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عما حرَّم الله عليهن من الزنى، وكشف العورة لغير أزواجهن، ومن التمكين من جماعها، أو مسِّها، أو النظر المحرم لها.

زينة المرأة الظاهرة: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾.

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: بلَغنا -والله أعلم- أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدَّث أن أسماء بنت مُرْشِدَة، كانت في نخْل لها في بني حارثة، فجعل النساء يَدْخُلْن عليها غير مؤتزرات، فيبدو ما في أرجُلهن -يعني: الخلاخل- ويبدو ما في صدورهن وذَوَائبهن، فقالت أسماء: ما أقبح هذا؟ فأنزل الله هذه الآية[1].

فما هذه الزينة التي تظهر من المرأة؟ قالوا: إنها **ثلاثة أشياء** هي:

١- الملابس الجميلة. ٢- الحلي والقرط والخاتم.

٣- الخضاب في الكف، والكحل في العين.

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

١- وقد فسرها ابن مسعود ﷺ، بالثياب الظاهرة، كالملاءة، والعباءة، وبهذا أخذ الإمام أحمد.

٢- وفسرها سعيد بن جبير، والضحاك، والأوزاعي، بأنها الوجه والكفان.

٣- وفسرها ابن عباس ﷺ بأنها الكحل في العين، والخاتم، والخضاب في اليد.

لأن الزينة ليست جزءًا من جسد المرأة، وإنما الزينة شيء مكتسب، وليست من البدن، وهي شيء تتجمل به المرأة كالحلي، والخضاب، ونحو ذلك.

---

(١) ابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٢٣).

أخرج الطبري بسند حسن: عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﷺ قال: والزينة الظاهرة: الوجه، وكحل العين، وخضاب الكف، والخاتم، فهذه تظهر في بيتها لمن دخل من الناس عليها.

وقال ابن عباس أيضًا: الزينة التي تبديها المرأة لمحارمها: قرطها، وقلادتها، وسوادها، والخلخال والنحر، والشعر، فلا تبديه إلا لزوجها.

والزينة الظاهرة يراها كل من دخل على المرأة من الناس، أما الزينة الباطنة فلا يراها إلا محارمها، والزوج يرى كل شيء.

وقد أطلق اسم الزينة في القرآن على اللباس في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وأطلقه أيضًا على التجمل واللباس الحسن في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه: ٥٩].

والتزين يَزيد المرأة حُسنًا، ويُلفت الأنظار إليها، فنُهِيَت المرأة عن إظهار زينتها إلا لزوجها ومحارمها، ومن ليس عندهم شهوة تتحرك من الرجال أو الطفل.

ومن الزينة: الملابس المُزْركَشة، واللَّامعة، والمطرَّزة، وفاقعة الألوان؛ لأنها مجلبة للنظر.

وقد قسَّم بعض العلماء الزينة إلى قسمين: **زينة خِلْقيَّة** وهي جسد المرأة كله، وما ظهر من هذه الزينة: هو الوجه والكفان، قيل: والقدمان عند أبي حنيفة وغيره.

وزينة مكتسبة مصطنعة، كالقُرط في الأذن، والخاتَم في الإصبع، والخضاب في اليد والقدم، والكحل في العين، وهذه الزينة يتضمن إبداؤها بالضرورة رؤية شيء من البدن؛ فإن رؤية الخاتم والقرط تستلزم رؤية اليد والأذن، ورؤية الكحل تستلزم رؤية العين، ورؤية الخضاب تستلزم رؤية الكف، وهكذا.

وعلى هذا فظهور هذه الزينة يتطلب بالضرورة ظهور الوجه والكفين.

وعلى تفسير ابن مسعود ﷺ للآية، فإن المراد بالزينة الظاهرة: هي الثياب الخارجية، الساترة الفضفاضة، التي لا تصف جسد المرأة ولا تحدده، ولا تُظهر ما تحتها، وهذه

الثياب الخارجية: كالملاءة والعباءة، إذ ليس في إمكان المرأة ستر المستور.

ومن المتفق عليه أن وجه المرأة إن كان فاتنًا مثيرًا للانتباه فإنه يجب ستره، وكذا لو كان هذا الجمال مصطنعًا بأدوات التجميل.

ومن المتفق عليه أيضًا: أن ستر الوجه أفضل وأولى من كشفه، وفيما عدا ذلك من الأحوال العادية فإن قضية كشف الوجه واليدين مسألة خلافية فقهية، وفيها أدلة لكلا الطرفين، وتجدر الإشارة إلى ضعف حديث ابن أم مكتوم، وفيه أن النبي ﷺ قال لأم سلمة وميمونة ﵄: **«احتجبا منه»**، فقالتا: إنه أعمى لا يبصر، فقال ﷺ: **«أفعمياوان أنتما! ألستما تُبصرانه؟»**[1].

المرأة تغطي وجهها وهي محرمة، للحاجة:

وستر الوجه لا يشمل الصلاة والحج والعمرة؛ لأن إحرام المرأة في وجهها وكفيها، والمحرم في المناسك لا يجد في طوافه أو سعيه او في الوقوف بعرفة، أو عند رمي الجمرات، قيد أنملة تخلو من وجود رجال أجانب، ومن الزحام تجد المنكب في المنكب، واليد تلمس اليد، والوجه في الوجه، في أداء جميع الشعائر؛ فالناس قد كثُرت عما قبل، ولذا فلا يتسنى للمرأة أن تغطي وجهها وتكشفه ثم تغطيه وتكشفه وهكذا.

والحديث المنسوب إلى عائشة ﵂ من أن إحداهن كانت تسدل جلبابها على وجهها إذا مرَّ بهنّ الركب من الرجال الأجانب في الحج، في سنده مقال، ونص الحديث عن مجاهد عن عائشة ﵂ قالت: «كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات، فإذا حاذوا بنا

(١) يُنظَر: «ضعيف سنن أبي داود» برقم (٨٨٧) وهو في أبي داود برقم (٤١١٢) والترمذي (٢٧٧٨) و«المسند» (٢٦٥٣٧) والنسائي في «السنن الكبرى» (٩١٩٧، ٩١٩٨) و«شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٢٨٨، ٥٥٧٥)، قال محققو المسند: إسناده ضعيف لجهالة حال نبهان - مولى أم سلمة - وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، والحديث معارض بأحاديث صحاح، منها حديث عائشة في المسند برقم (٢٤٥٤١) وفيه أن النبي ﷺ أذن لها أن تنظر إلى رجال الحبشة وهم يلعبون في المسجد، والحديث في البخاري (٩٤٩) ومسلم (٨٩٢). وحديث فاطمة بنت قيس في المسند أيضًا برقم (٢٧٣٢٧) وفيه أن النبي ﷺ أمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم لأنه رجل أعمى. والحديث إسناده صحيح على شرط الشيخين وهو في صحيح مسلم (١٤٨٠) والمؤطأ (٢/ ٥٨٠).

أَسْدلتْ إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها، فإذا جاوَزُونا كشفْناه»[١].

وقد كانت الناس تطوف وهي على الدواب ركبانًا، وكانت الفجوات التي تخلو من الناس حول الكعبة كثيرة، لقلة أعداد الطائفين، بخلاف وقتنا هذا فالناس فيه متلاصقين.

وقد حرم الإسلام النقاب على المرأة وهي محرمة كما في حديث ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ولا تنتقب المرأة الحرام ولا تلبس القفازين**»[٢].

ولكنه أجاز لها إسدال الغطاء عليه دون ملامسة:

فقد أخرج البيهقي بسنده في السنن (٥/ ٤٧) عن معاذة عن عائشة ﷺ قالت: «المحرمة تلبس من الثياب ماشاءت إلا ثوبًا مسّهُ وَرْس أو زعفران، ولا تتبرقع، ولا تَلَثّم، وتسدل الثوب على وجهها إن شاءت»[٣] وهذا إسناد صحيح.

وفي حديث أسماء بنت أبي بكر في الموطأ (١/ ٣٢٨) عن هشام بن عُروة، عن فاطمة بنت المنذر أنها قالت: كنا نخمر وجوهنا ونحن محرمات، ونحن مع أسماء بنت أبي بكر الصديق»[٤].

قال ابن عبدالبر في التمهيد ج١٥: أجمعوا أن لها أن تسدل الثوب على وجهها من فوق رأسها سدْلًا خفيفًا تستتر به عن الرجال، ولم يجيزوا لها تغطية وجهها.

وقال الخطابي في معالم السنن (٢/ ١٧٩): قد ثبت عن النبي ﷺ أنه نهى المحرمة عن النقاب، أما سدل الثوب على وجهها من رأسها فقد رخص فيه غير واحد من الفقهاء، ومنعوها

---

(١) مسند أحمد (٢٤٠٢١) قال محققوه: إسناده ضعيف لضعف يزيد أبي زياد، وهو القرشي، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، ورواية مجاهد بن جبر عن عائشة في الصحيحين، وقد أنكر يحى بن سعيد القطان سماعه منها فيما ذكر ابن معين. وأخرجه أبو داود (١٨٣٣) وابن خزيمة (٢٦٩١) وابن ماجه (٢٩٣٥) والدار قطني في السنن (٢/ ٢٩٥) والبيهقي في السنن (٥/ ٨٥) وغيرهم، والحديث عن أبي داود وابن ماجه عن مجاهد عن عائشة، ومجاهد لم يسمع من عائشة، قال أبو حاتم الرازي: مجاهد عن عائشة: مرسل، انظر تحقيق أحمد شاكر ومحمد حامد الفقي، على مختصر سنن أبي داود ٢/ ٣٥٤ قلت: وأقل درجات هذا الحديث أنه موقوف على عائشة.

(٢) مسند أحمد (٦٠٠٣) من حديث طويل، والبخاري (١٨٣٨) وأبو داود (١٨٢٥) والترمذي (٨٣٣).

(٣) ينظر تحقيق مسند أحمد (٤٠/ ٢٢) قال محققوه: إسناده صحيح .

(٤) قال محققوه المسند: إسناده صحيح (٤٠/ ٢٣).

أن تلف الثوب أو الخمار على وجهها، أو تشد النقاب، أو تتلثّم، أو تتبرقع، وممن قال بأن للمرأة أن تسدل الثوب على وجهها من فوق رأسها: عطاء ومالك وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل وإسحاق، وهو قول محمد بن الحسن، وقد علق الشافعي القول فيه.

وقد أوجب فقهاء الحنفية والمالكية على المحرمة بحج أو عمرة ستر وجهها بغير البرقع والنقاب، عند وجود الرجال الأجانب، وأجاز ذلك الشافعية والحنابلة.[1]

ضرب الخمار على الوجه: قال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ **الخمار:** هو الغطاء الذي يكون فوق الرأس؛ لستر الشعر والأذنين والعنق.

والجيب: هو فتحة الصدر التي يظهر منها العنق والنحر.

والمعنى: ولْيلقِين بأغطية رؤوسهن على فتحات صدورهن، بحيث لا يظهر شيء من الجِيد وفتحة الصّدر، وقد كانت المرأة في الجاهلية تضع خمارها خلفها، وتُظْهِر من صدْرها فتحة واسعة، فيبدو العُنُق والقلادة، ويبدو النحر والجِيد والأذُن، فيتعرض لها الفسّاق، ولذلك أمرهن الله سبحانه أن يُغطِّين شعورهن، وصدورهن، وأعناقهن، ونحورهن:

١- قالت عائشة ﷺ: يرحم الله نساء المهاجرات الأُول؛ لمَّا أنزل الله ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققْن مُرُوطِهُن فاختمرْن بها[2].

٢- وحديث أم سلمة ﷺ قالت: لما نزلت ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من الأكسية[3].

٣- وحديث عائشة ﷺ قالت: ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، لما نزلت هذه الآية، وقرأها كل رجل على أهل بيته -أي: على زوجه، وأمه، وأخته، وابنته- عمدْن إلى مُروطِهنَّ فاختمرْن بها، فأصبحْن خلْف رسول الله ﷺ في صلاة الصبح كأنَّ على رءوسهنَّ

---

(١) ينظر: المبدع شرح المقنع (٣/ ١٦٨) ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ٣/ ٣٣٣ والشرح الكبير بحاشية الدسوقي ٢/ ٥٤ وحاشية ابن عابدين على الدر المختار (٢/ ١٨٩).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٥٩) وأبو داود (٤١٠٢) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٦٣) وغيرهم.

(٣) سنن أبي داود (٤١٠١) وهو في صحيح أبي داود (٣٤٥٦) وفي حجاب المرأة المسلمة ص(٣٨).

الغربان[1]، هذه هي الزينة الظاهرة بالنسبة للأجانب، ثم تحدث القرآن عن إبداء الزينة الخفية.

زينة المرأة الخفية: أما الزينة الخفية كالرأس، والشعر، والعنُق، وأطراف اليدين والرجلين التي تظهر من المرأة عادة داخل بيتها، فقد ذكر الله سبحانه اثني عشر نوعًا من الرجال يجوز للمرأة إظهار الزينة الخفية لهم، فقال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾.

أي: ولا يُظهِرْن الزينة الخفية الباطنة إلا لمن يأتي ذكرهم في الآية، وهم:

١- البعل: وهو الزوج، وله أن ينظر إلى كل موضع في جسد المرأة، ويُكره النظر إلى الفرج.

ثم ذكرت الآية بعده أحد عشر صنفًا من الأقارب، وهم:

٢- الأب. ٣- وأبو الزوج. ٤- والابن.

٥- وابن الزوج. ٦- والأخ. ٧- وابن الأخ.

٨- وابن الأخت. ٩- والنسوة المختصات بالصُّحبة من المسلمات، غير الكافرات.

١٠- والأَمَة مِلْك اليمين للمرأة.

١١- والتابعون من الرجال، مثل: الخادم، وكبير السن الذي ليست له حاجة في النساء، كالعِنِّين، والمخْصِي الذي لا يشتهي المرأة، وهو يتْبع أهل البيت على ملء بطنه، من الرجال وهو المراد في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ أي: الذين ليست لهم حاجة في النساء.

١٢- ومثلهم الأطفال الذين لا يعرفون شيئًا، ولم يَطّلعوا على عورات النساء.

وكل هؤلاء ممن لهم صلة شديدة بالمرأة، ولذا: أباح الله تعالى أن تضع المرأة خمارها عندهم، وتبدي زينتها الخفية عند هؤلاء من ذوي محارمها من النسب أو الصهر.

وقد ذكرت الآية **سبعة أصناف** من المحارم بعد الزوج، كلهم لا يجوز للمرأة الزواج

---

(١) يُنظر هذا المعنى في سنن أبي داود (٤١٠٠) وعبدالرزاق في المصنف (١٢٠٨) والحاكم (٢/٣٩٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وتفسير الطبري (١٨/ ١٢٠) والبيهقي في السنن (٧/ ٨٨) ومسند أحمد (٢٥٥٥١) من حديث صحيح طويل.

بواحد منهم، ويلحق بهؤلاء المحارم:

(أ) الأعمام. (ب) والأخوال، ولم يرد ذكرهما في الآية، وجاءت بهما السُّنَّة.

ويحرم على المرأة كذلك:

(ت) المحارم من الرضاع. (ث) والأصول وإن علَوْا. (ج) والفروع وإن سفلوا.

وقد ذكرت الآية الأفراد الذين يجوز للمرأة أن تبدي زينتها الخفية أمامهم، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ المسلمات دون الكافرات، أي: إنه لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى المرأة فيما بين السرة والركبة، ولا يجوز للمرأة أن تتجرد من ثيابها أمام النساء غير المسلمات؛ لأنها أجنبية عنهن، وليست من ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ المسلمات، فالضمير للمؤمنات، والكافرة ليست من نساء المؤمنين.

قال مجاهد: لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة، ولا تَقْبلُها -أي: لا تكون قابلة لها- لأن الله تعالى يقول: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ فليست من نسائهن[(١)].

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة: أما بعد، فإنه بلغني أن نساءً من نساء المسلمين يدخلْن الحمامات مع نساء أهل الشرك، فإنه من قِبَلَك، فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها[(٢)].

ومن المحظور على المرأة أن تنعت المرأة لزوجها، سِيَّمَا لغير المسلمين فهو أشد؛ لأنهم غير مؤتمنين، وفي الحديث عن ابن مسعود ﷺ: **«لا تباشر المرأة المرأة، تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها»**[(٣)].

أما مِلْك اليمين الوارد في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ فقد قال سعيد بن المسيب: المراد من الآية: الإماء دون العبيد، أي: النساء الرقيقات المشركات.

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (١١/ ٣٠) والبيهقي (٧/ ٩٥).

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» من طريق سعيد بن منصور (٧/ ٩٥).

(٣) من حديث ابن مسعود في البخاري برقم (٥٢٤١) و(٥٢٤٠).

وظاهر الآية يشمل العبيد والإماء، دون تفرقة بين المسلم والكافر.

والمملوك من شأنه ألا تمتد عينه إلى مالكه، وألَّا يصف المرأة لغيره.

وظاهر الآية يفيد أنه يجوز للمملوك أن ينظر إلى سيدته إذا كانت تملكه كله.

وكان النبي ﷺ قد وهب فاطمة عبدًا، وكانت عليها ثياب إذا سترت رأسها لم تستر قدميها، فلما رآ النبي ﷺ ما تلْقى قال: «**إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلامك**»[1].

ثم قال تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ وهم صنف من الرجال اجتمع فيهم **وصفان**:

الوصف الأول: أنهم يتْبعون المرأة لأخذ الصدقة، أو للخدمة.

والوصف الثاني: أنهم لا حاجة لهم في النساء، كالمجبوب، والعِنِّين، والمعتوه، والشيخ الهرم، فرخَّص الله في إبداء الزينة لهم؛ لرفع المشقة والحرج عن النساء، ولانتفاء الشهوة عند هؤلاء.

والنوع الثاني عشر: هم الأطفال الذين لا يعرفون شيئًا عن مفاتن المرأة ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ أي: قبل سن المراهقة، فإن اقترب الطفل من سن المراهقة، فلا يجوز له الدخول على النساء، سِيَّمَا إن كان من الأقارب، أو الجيران، أو العمال غير المحارم، فإن الخوف منه أكثر من غيره، والفتنة أشد، لتمكّنه من الوصول إلى المرأة والخلوة بها.

وقد جاء في الحديث عن عقبة بن عامر ﷺ: «**إياكم والدخول على النساء**»، قالوا: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: «**الحمو: الموت**»[2].

والحمو: أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه كالأخ والعم وأبنائهما.

ثم نهى الله سبحانه النساء أن يضربن الأرض بأرجلهن عند سيْرهن؛ لئلَّا يظهر ما خفي

---

(١) «سنن أبي داود» برقم (٤٦٠٦) و«صحيح سنن أبي داود» (٣٤٦٠) وإرواء الغليل (١٧٩٩)، والبيهقي (٧/ ٩٥).

(٢) البخاري (٥٢٣٢) ومسلم (٢١٧٢) والترمذي (١١٧١) وابن حبان (٥٥٨٨) و«سنن النسائي الكبرى» (٩١٧٢) وابن أبي شيبة (٤/ ٤٠٩) و«المسند» (١٧٣٤٧، ١٧٣٩٦).

من زينتهن كالخلخال ونحوه، وحتى لا يؤدي صوت أقدامهن إلى انتباه الرجال، ولفت أنظارهم إليهن، كما كانت المرأة تفعل في الجاهلية.

أسند الطبري عن المعتمر عن أبيه قال: زعم حضرمي أن امرأة اتخذت برَّتين من فضة، واتخذت جزعًا، فجعلت في ساقيها، فمرَّت على القوم، فضربتْ برجليها الأرض فوقع الخلخال على الجزع فصوَّت، فنزلت الآية[(١)].

وسماع الزينة أشد تحريكًا للشهوة من إبدائها، وهو أدنى بكثير مما تفعله المرأة في الوقت الحاضر، بعد أن تفنَّن الناس في أنواع الأحذية، والكعب العالي المدبب المنتهي بقطعة صُلْبة حديدية، ونحوها.

وكانت الأرض قديمًا من تراب، وهي اليوم من الرخام والبلاط الرنَّان.

وكانت المرأة لا تعمل بين صفوف الرجال، وهي اليوم تختلط بهم، وترفُل في زينتها في غير أهلها، وتتفنَّن في لفت الأنظار إليها.

وكانت المرأة تسير على حافة الطريق تلتصق بالجدار حتى إنَّ ثوبها ليتعلَّق به من شدة حيائها وبُعدها عن الرجال، على عكس ما عليه أغلب نساء اليوم.

وفي معنى ضرْب الأرض بأرجلهن: خروج المرأة متعطرة متطيِّبة؛ فإن رائحة العطر تثير كوامن الرجال، وتهيِّج غرائزهم.

فعن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«كل عين زانية، والمرأة إذا تعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا»** يعني: زانية[(٢)].

والمقصود: نهي المرأة عن أي حركة أو فعل من شأنه إثارة الشهوة أو الفتنة، كالتعطر،

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/ ١٨٠).

(٢) قال الترمذي: حديث حسن صحيح، برقم (٢٧٨٦) وهذا لفظه، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٢٣٧) والمشكاة (٦٥) وحجاب المرأة المسلمة (٦٤) وأخرجه أبو داود برقم (٤١٧٣) وفي «سنن النسائي» (٨/ ١٥٣) و«المسند» (١٩٥١٣، ١٩٦٤٦)، بإسناد جيد عدا ذكر المرأة، وجاء ذكرها في حديث أبي موسى (١٩٥٧٨) بإسناد جيد أيضًا.

والمِشية المتكلَّفة، ورِقّة الكلام، ونحو ذلك.

لقد نهى الإسلام المرأة أن تضرب الأرض برجلها، وفي معنى هذا ألّا تفعل حركة مثيرة، أو صوتًا مسموعًا، أو تلبس ملابس تثير الانتباه، وتثير الغرائز.

ثم أمر الله تعالى جميع المؤمنين بالتوبة؛ ليردَّهم إليه ردًّا جميلًا، أي: ارجعوا إلى طاعة الله فيما أمركم به من الصفات الجميلة والأخلاق الحميدة، واتركوا الأخلاق الرذيلة والصفات القبيحة؛ رجاء أن تفوزوا بخيري الدنيا والآخرة.

وفي الحديث عن ابن مسعود ﷺ: «**الندم توبة**»[(١)].

ويؤخذ من الآية أن الأمر إذا كان مباحًا ولكنه يُفضى إلى محرم فإنه يُمنع منه، ولما كان الإنسان عرضة لأن يقصِّر في شيء مما ذكرتْه الآية، فقد أمر الله سبحانه في نهايتها جميع المؤمنين بالتوبة، ورتب عليها الفلاح في الدنيا والآخرة، فكل مؤمن يحتاج إلى الرجوع إلى الله تعالى ظاهرا وباطنًا، ليسلم من آفات الدنيا وعذاب الآخرة.

عَاشِرًا: تَشْرِيعُ الزَّوَاجِ

٣٢- ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾

أردف الله سبحانه ببيان ما يعفُّ المؤمنون والمؤمنات به أنفسهم، فيغضون به أبصارهم، ويحفظون فروجهم، وهو الزواج، فهو أعظم وسيلة من وسائل حفظ المجتمع ووقايته من الوقوع في الفاحشة، بل إن الزواج يكون سببًا من أسباب الغنى والثراء.

﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

والزواج قد يكون واجبًا، وذلك إذا كان الإنسان عنده القدرة المالية على النفقة، والقدرة البدنية على الزواج، وكان يخشى على نفسه الوقوع في الزنى، فإن الزواج يجب

(١) «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٢٩) عن ابن مسعود و«المسند» (١/ ٤٣٣) برقم (٣٥٦٨، ٤٠١٢، ٤٠١٦) قال محققوه: حديث صحيح، بإسناد حسن، لأن فيه زياد بن أبي مريم مختلف فيه، وهو في «المستدرك» (٤/ ٢٤٣) وابن حبان (٦١٢) الإحسان، وأبو يعلى (٤٩٦٩) والحاكم (٤/ ٢٤٣) وصححه ووافقه الذهبي.

عليه في هذه الحالة.

فإذا كان لا يخشى على نفسه الفتنة، ولا يخشى الوقوع في الزنى، ولم تكن عنده القدرة المالية أو البدنية، فإن الزواج حينئذ يكون أمرًا مستحبًّا ومندوبًا إليه.

وقد أمر الله جماعة المسلمين وأولياء الأمور أن يزوجوا الأيامى، ممن تجب نفقتهم عليهم فقال: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ أي: زوِّجوا من يحتاجون إلى الزواج من الأحرار والأيامى ممن لا زوج لهم، ولا زوج لهن.

والأيِّم: هو الرجل الذي لا زوج له، سواء أكان ثيِّبًا أم عزبًا، سبق له أن تزوج أم لا، وكذلك المرأة التي لا زوج لها يقال لها: أيِّم.

وأنكحوا أيضًا الصالحين منكم ومن عبيدكم وإمائكم، أي: زوِّجوا المرأة أو الرجل من الأرقاء، ويراد بالصلاح: الصلاح في الدين، والصلاح للزواج، وخص العبيد والإماء بالذكر لكثرة وجود الفساد فيهما.

والأيِّم في الأصل: من أوصاف النساء، وإطلاقه على الرجل للمشاركة والمشاكلة.

١- صحَّ عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تُنكح الأيِّم حتى تُستأمر، ولا تُنكح البكر حتى تُستأذن»**، قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: **«أن تسكت»**[1]

ويُقصد بالأيامى أيضًا: الحرائر؛ ووصف الله تعالى العبيد والإماء بالصالحين، ورغَّب في تزويجهم؛ فزوِّجوهم دفعًا لمشقة العنت عنهم، وهذا يفيد أنهم لو كانوا غير صالحين صلاحًا دينيًّا فإن تزويجهم لا يكون مستحبًّا.

٢- وجاء في حديث ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»**[2].

والوِجاء بكسر الواو: رضُّ الأنثيين، نوع من الخصاء، شُبِّه الصوم في قَطْعِه للشهوة

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥١٣٦) وانظر: (٦٩٦٨، ٦٩٧٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٤١٩).

(٢) من حديث ابن مسعود في البخاري برقم (٥٠٦٦) وانظر: (١٠٩٥) ومسلم برقم (١٤٠٠).

بالوِجاء في قطعه للنسل.

٣- وعن معقل بن يسار ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«تزَّوجوا الودود الولود؛ فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»**[١].

٤- وفي صحيح مسلم وغيره، عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»**[٢].

لا نكاح إلا بولي:

والزواج هو الطريق المشروع للتناسل، وحفظ الشهوة، وصيانة الأنساب.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ﴾ دليل على أن المرأة يزوِّجها وليُّها، ولا تزوِّج نفسها؛ سواء أكانت بكرًا أم ثيِّبًا، فإن الخطاب موجه إلى الأولياء، ولذا قال ﷺ في الحديث الذي يرويه أبو موسى ﷺ: **«لا نكاح إلا بولي»**[٣].

والقول بغير هذا قول مرجوح ليس فيه نص صحيح صريح.

وعن عائشة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل فنكاحها باطل فناحها باطل، فإن دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها، فإن اشْتجرُوا فالسلطان ولي من لا ولي له»[٤]، فإن لم يوجد لها وليٌّ فالقاضي وليُّ من لا وليَّ له.

---

(١) «المستدرك» (٢/١٦٢) بتصحيح الحاكم وموافقة الذهبي، والطبراني في الأوسط (٥٠٩٥) وسعيد بن منصور في سننه (٤٩٠) والبزار (١٤٠٠) كشف، وصححه الألباني بشواهده في «الإرواء» برقم (٧٨٤) وصححه العراقي في تخريج «الإحياء» (٢/ ٩٧٠) وهو في «المسند» عن أنس (٣/ ١٨٥) برقم (١٢٦١٣، ١٣٥٦٩) صحيح لغيره وإسناده قوي (محققوه) وابن حبان (٤٠٢٨) الإحسان، وحسنه الهيثمي في المجمع (٤/٢٥٨).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٤٦٧).

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٢٠٨٥) والترمذي برقم (١١٠١) عن أبي موسى، وهو في «المسند» برقم (١٩٥١٨، ١٩٧١٠، ١٩٧٤٦)، حديث صحيح، وإسناد اختُلف فيه على أبي إسحاق في وصله وإرساله ووصْله أصح، كما قال محققوه. وابن حبان (٤٠٧٧) والطبراني في الأوسط (٦٨٠٥) وغيرهم.

(٤) أخرجه أبو داود برقم (٢٠٨٣) والترمذي برقم (١١٠٢) وهذا لفظه، وأحمد في المسند (٢٤٣٧٢) بنحوه، حديث صحيح، وفي إسناده ابن لَهيعة، - ضعيف - وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه) وأخرجه أبو يعلى (٤٨٣٧) وابن عبدالبر في التمهيد (١٩/ ٨٧) والبيهقي في السنن (٧/ ١٠٦). وغيرهم.

الزواج من أسباب الثراء:

ثم إن الراغب في زواج المرأة الأيم قد يكون فقيرًا، فهل يرده الولي؟الجواب: لا يرده فإن الله تعالى قد وعد الفقير بالغنى وسعة الرزق، فليس الفقر حائلًا دون إتمام الزواج؛ لأن الأرزاق بيد الله، وكم من أُناس كانوا فقراء قبل الزواج، ثم صاروا أغنياء بعده، وكم من زوجين بدأت حياتهما صفرًا، ولما كثرت أولادهما كثُرت أرزاقهما.

قال ابن مسعود ﷺ: التمسوا الغنى في النكاح.

وقال ابن عباس ﷺ: أمر الله سبحانه بالنكاح ورغَّبهم فيه، وأمرهم أن يزوِّجوا أحرارهم وعبيدهم، ووعدهم في ذلك الغنى[1].

وقال أبو بكر ﷺ: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح؛ ينجز لكم ما وعدكم من الغنى[2].

وقال عمر ﷺ: ابتغوا الغنى في الباءة[3].

وقد أخذ الله سبحانه عهدًا على نفسه -فضلًا منه وكرمًا- أن يُعين الفقير الذي يريد العفة بالزواج.

وكذا الرقيق الذي يريد أن يكون حرًّا، فيتفق مع سيده على مبلغ من المال يدفعه له أقساطًا؛ ليكون حرًّا في نهاية المدة، وأيضًا المجاهد في سبيل الله.

كما في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله»**[4].

---

(١) «تفسير الطبري» (١٧/ ٢٧٤) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٨١).

(٢) ابن أبي حاتم (١٨/ ٢٥٨٢).

(٣) عبد الرزاق (١٠٣٨٥).

(٤) «المسند» (٢/ ٢٥١) برقم (٧٤١٦) بإسناد قوي ورجال ثقات (محققوه) والترمذي برقم (١٦٥٥) و«سنن النسائي» (٦/ ٦١) برقم (٣١٢٠، ٣٢١٨) وابن ماجه برقم (٢٥١٨) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٠٤١) والحاكم (٢/ ١٦٠) وابن حبان (٤٠٣٠) الإحسان، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٣٥٢) وهو في البيهقي (٧٨١٧) وعبد الرزاق (٩٥٤٢) وصحح إسناده أحمد شاكر في حاشية «المسند» (١٣/ ٤٩) وحسنه البغوي في «شرح السنة» (٩/ ٧).

وقد زوَّج النبي ﷺ رجلًا لم يجد شيئًا يدفعه مهرًا، زوَّجه بخاتم من حديد، وزوَّج آخر بما معه من القرآن.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: عجبتُ لمن يبتغي الغنى بغير النكاح، والله تعالى يقول: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

وقد بيَّن سبحانه أن فقر الرجل لا ينبغي أن يكون سببًا مانعًا من قبول تزويجه ما دام رجلًا صالحًا على خُلُق، فإن كان مُعْسِرًا فقد تكفل الله له ولغيره بالرزق كما في حديث أبي حاتم المزي: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد** قالوا يا رسول الله وإن كان فيه؟ قال: **إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنحكوه، ثلاث مرات**»[1].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال «**إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**».[2]

فلا تنظروا إلى فقرهم، بل انظروا إلى دينهم واستقامتهم.

وأما الذي لا يملك نفقة الزواج، ولا يملك النفقة على الزوجة، فعليه أن يصبر، وعليه بالصيام كما بيَّن النبي ﷺ، فإن الصيام أغض للبصر، وأحصن للفرج، وهو له وجاء ووقاية من الوقوع في الزنى.

ثم ختم الله الآية ببيان أن الله تعالى واسع الغنى لا تنفد خزائنه، ولا ينتهي ما عنده من خير، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وقد قُرن وصف الواسع بالعلم في هذه الآية، وقرن بالحكمة في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء].

---

(١) قال الترمذي: حديث حسن غريب، وأبوحاتم المزني له صحبة، ولا نعرف له عن النبي ﷺ غير هذا الحديث، جامع الترمذي برقم (١٠٨٥) وقد حسنه الألباني برقم (٨٦٦) في صحيح الترمذي.

(٢) جامع الترمذي (١٠٩٦) وحسنه الألباني برقم (٨٦٥) في صحيح الترمذي، وفي الإرواء (١٦٦٨) والسلسلة الصحيحة (١٠٢٢).

ثَلاثَةُ أَحْكَامٍ فِي هَذِهِ الآيَةِ

٣٣- ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى الْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

اشتملت هذه الآية على ثلاثة أحكام هي:

١- أمر العزب بالعفة. ٢- إعانة المكاتب. ٣- إكراه الإماء على البغاء.

الْحُكْمُ الأَوَّلُ: أَمْرُ الْعَزَبِ بِالْعِفَّةِ

وقد جاء هذا في قوله تعالى ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

فقد أمر سبحانه في هذه الآية غير القادرين على الزواج، أن يلازموا العفاف وقمع الشهوة مدة انتظارهم تيسير الزواج لهم، ويصونوا أنفسهم عن الفواحش، ويجتهدوا في عفتها، ويسلكوا طريق الفضيلة، ويستمروا على ذلك حتى يرزقهم الله ما يستعينون به على إتمام الزواج، وهذا وعْد من الله تعالى أنه سيعينهم بما يُيسِّر لهم العفاف والإحصان، فالذين لا يستطيعون الزواج لفقر أو غيره عليهم أن يطلبوا العفة عما حرم الله، حتى يغنيهم الله وييسر لهم الزواج.

وفي الحديث عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»**[1].

وفسَّر عكرمة الآية بالرجل يرى امرأة فيشْتهيها، فإن كانت له زوجة فليذهب إليها ولْيقض حاجته منها، وإن لم تكن له زوجة فلينظر في ملكوت الله، حتى يغنيه الله، ولا بأس من حمل الآية على المعنيين معًا.

وجواب الأمر في الآية ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ محذوف، بمعنى لا يجدون نكاحًا لفقرهم أو لفقر أوليائهم، أو امتناعهم عن تزويجهم، فعليهم أن ينتظروا فرج الله تعالى وتيسيره عليهم.

---

(١) الحديث متفق عليه البخاري (٥٠٦٥ و٥٠٦٦) ومسلم (١٤٠٠) وهو في صحيح الترمذي (٨٦٢) وصحيح ابن ماجه (١٨٤٥).

الْحُكْمُ الثَّانِي: إِعَانَةُ الْمُكَاتَبِ

وقد جاء هذا الحكم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾.

وهكذا ذكرت الآية حكمًا ثانيًا يتعلق بمن يرغب في الحرية من الموالي والإماء بمكاتبة سيدة على مال يعطيه له ويعتقه، وهذا يتعلق، بالمكاتَب.

والمكاتَب: هو العبد الرقيق الذي يريد أن يكون حرًّا، فيتفق مع سيده على أن يعطيه قدرًا من المال على أقساط، وأوقات مختلفة، وبعد أن يدفع له هذا القدر من المال يعتقه.

وسُمِّي مكاتَبًا، لأنهم كانوا يسجلونه في عَقْدِ أقساطِ عوضِ الحرية، بصكٍّ يكتبه كاتب بينهما، وكان هذا معروفًا في الجاهلية، وهذه المكاتبة كانت باختيار السيد، فجاءت هذه الآية لتأمر به أمرًا، فإن عرَض العبد شراء نفسه من سيده وجب عليه تلْبيته، وهذا الأمر محمول على الندب عند الجمهور، وأوجبه بعضهم.

ومفهوم الآية: أن العبد إذا لم يطلب الكتابة: لا يبتديء سيده بكتابته، وأن سيده إذا لم يعلم فيه خيرًا فلا يأمر بكتابته.

ويراد بالخير: ما هو أخروي وما هو دنيوي، من صلاح وتقوى، وقدرة على الكسب وأخذ بالأسباب، وأدب وحسن خلق، وحسن تعامل مع الآخرين.

وسبب نزول هذه الآية: أن عبدًا لحويْطب بن عبد العزَّى يقال له: صُبيح، سأله الكتابة، فأبى، فأنزل الله الآية، فكاتبه على مئة دينار، ووهب له منها عشرين دينارًا فأداها، وقُتِل يوم حنين في الحرب[1].

وأول عبد كُوتب في الإسلام هو أبو أمية، كان عبدًا عند عمر ﷺ فكاتبه وأعتقه، وهذا معنى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ﴾.

وهذا أمر من الله ﷻ لمن يملكون العبيد أن يكاتبوهم، ويزوِّجوهم إن علموا فيهم الفلاح والرشد والعقل الصحيح، وأنهم قادرون على سداد ما اتفقوا عليه، ليحرِّرُوا أنفسهم من الرق بكسب أيديهم، وعلى أسيادهم أن يتنازلوا عن جزء من هذه الأقساط، وأن يدفعوا

(١) «زاد المسير» (٦/ ٣٧).

إليهم من الصدقة ومن الزكاة؛ ليعينوهم على الخلاص من الرقِّ، كما قال تعالى في مصارف الزكاة: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠]. وهي الزكاة تُعطى لهؤلاء المكاتبين.

في صحيح البخاري وغيره: أن بَريرة دخلت على عائشة ﵂ تستعين بها على دفع خمس أواقٍ، قُسِّطت عليها خمس سنوات مقابل عتقها من الرق، فعرضت عليها عائشة أن تدفع لها المبلغ كله مرة واحدة، ويكون لها الولاء عليها، فلم يقبل أهلها إلا أن يكون الولاء لهم، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: **«اشتريها فأعتقيها، فإنما الولاء لمن أعتق»** ثم قام رسول الله ﷺ فقال: **«ما بال رجال يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله، من اشترط شرطًا ليس في كتاب الله فهو باطل، شَرْطُ الله أحق وأوثق»**[1].

وفي حديث علي بن أبي طالب ﵁ أن النبي ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَىٰكُمْ﴾ قال: **«يُترَك للمكاتب الربع»**[2].

وقال تعالى عن المكاتبين: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَىٰكُمْ﴾.

جاء في الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاثة حقٌّ على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والمجاهد في سبيل الله»**[3].

والمكاتب: هو الذي يريد أن يتحرر. **والغازي**: هو المجاهد في سبيل الله.

والناكح: هو الذي يريد الزواج، وهؤلاء الثلاثة وجب عليكم أن تعينوهم كما جاء في أول هذا الحديث، وتعطوهم من مال الله الذي آتاكم، كما جاء في الآية السابقة.

الْحُكْمُ الثَّالِثُ: الْإِكْرَاهُ عَلَى الْبِغَاءِ

وقد جاء هذا الحكم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٥٦٠) وانظر: (٤٥٦) و«صحيح مسلم» (١٠٧٥) وبنحوه (٦، ١٥٤٠).

(٢) صححه الحاكم (٢/٣٩٧) وأقره الذهبي وقال: رُوي موقوفًا. وأخرجه الضياء المقدسي في «المختارة» (٥٧٦) وعبد الرزاق (٥٧٧) والصحيح وقفه على عليٍّ وله حكم الرفع.

(٣) سبق تخريجه في الآية السابقة.

هذا: وبمناسبة ذكر العبيد والإماء فقد ذكرت الآية حكمًا ثالثًا يتعلق بهم، وهو أن الرجل قد تكون عنده إماء فيكْرِههن على الزنى؛ لتأتين له بالمال، وقد تكون الجارية تريد العفة وسيدها يأبى ذلك؟

وكان لعبد الله بن أبيٍّ بن سلول جوارٍ ست، يكرههن على الزنى، فأسلمتْ منهن ثلاث: مُعاذة، ومُسيكة، وأُميمة، فجاءت مُعاذة ومُسيكة إلى الرسول ﷺ تشكوان له ذلك، فأنزل الله الآية ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾.

وهؤلاء البغايا الست هن: مُعاذة ومُسيكة وأميمة، وعَمرة، وأرْوَى، وقتيلة.

وكان عبد الله بن أُبيٍّ يكرههن على البغاء بعد الإسلام[1].

وكان قد أعد مُعَاذَة لإكرام ضيوفه، فإذا نزل عليه ضيف أرسلها إليه ليواقعها، فشكت مُعَاذَة ذلك إلى أبي بكر ﷺ، فأمر النبي ﷺ أبا بكر أن يعتقها، فصاح عبدالله: مَنْ يعذِرُنا من محمد، يغلبنا على مماليكنا؟ وكان هذا قبل أن يتظاهر عبد الله بالإسلام.

وكان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أَمَة أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت.

فلما جاء الإسلام نهى الله المسلمين عن ذلك، فقالت مُعَاذَة لِمُسَيكة: إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين، فإن يك خيرًا فقد استكثرنا منه، وإن يك شرًّا، فقد آن لنا أن ندعه.

ورد أن إحدى الجاريتين أتت لسيدها (عبد الله) بِبُرٍّ، وجاءت الأخرى بدينار، فقال لهما: ارجعا فازنيا، فقالتا: والله لا نزني، فقد جاء الإسلام وحرم الزنى، وشكتا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله الآية[2].

والأصل في المملوكة أن يُحصِّنها سيدها، ويأمرها بالعفة، أما أن يأمرها بالزنى وهي

---

(١) «أسباب النزول» للنيسابوري ص ٢٧٤ و«الدر المنثور» (١١/ ٥٠) وما بعدها.

(٢) يُنظَر: أبو داود الطيالسي، والبزار (٢٢٣٩) والطبراني (١١٧٤٧) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٨٢): رجاله رجال الصحيح.

تمتنع وتريد العفة فذلك منتهى الخسة والدناءة، والبغاء اسم للمرأة المحترفة للزنى.

روى مالك عن الزهري أن رجلًا مِنْ أسرى قريش، قد جُعل عند عبد الله بن أبيٍّ في يوم بدر، وكان هذا الأسير يراود مُعَاذَة عن نفسها، وكانت تمتنع منه؛ لأنها أسلمت، وكان عبد الله بن أبيٍّ يضربها على امتناعها منه، رجاء أن تحمل من الأسير القرشي، فيطلب فداء رِقِّه من ابن أبيٍّ، وكان الزاني بالأمَة يفتدي ولده بمئة من الإبل، يدفعها لسيد الأمة، فشكته إلى النبي ﷺ فنزلت الآية[١].

أما في مكة فقد كان فيها تسع بغايا شهيرات وَضعْن على بيوتهن رايات؛ ليعْرفْهُن الرجال.

وهن كما ذكر الواحدي: أم مهزول، جارية السائب المخزومي، وأم غليظ، جارية صفوان بن أمية، وحنة القبطية، جارية العاص بن وائل، ومزنة، جارية مالك بن عميلة بن السباق، وجلَّالة، جارية سهيل بن عمرة، وأم سويد، جارية عمرو بن عثمان المخزومي، وشريفة، جارية ربيعة بن أسود، وقريبة، جارية هشام بن ربيعة، وقرينة، جارية هلال بن أنس، وكانت بيوتهن تسمى المواخير.

وكان البغاء في الجاهلية من أصناف النكاح، ففي الصحيح من حديث عائشة: أن **النكاح في الجاهلية** كان على أربعة أنحاء، وبيان هذه الأربع فيما يأتي:

(أ) النكاح العادي المعروف عن طريق الخطبة، والمهر، والولي، والشاهدين.

(ب) ونكاح الاستبضاع: وكانوا يفعلونه رغبة في نجابة الولد، فيرسل الرجل زوجته إلى فلان بعد طهورها من الحيض؛ لتحمل منه، ولا يأتيها زوجها إلا إذا تبيَّن حملها منه.

(ج) ونكاح الرهط: وهو أن المرأة ينكحها نحو عشرة رجال، فإذا وضعت اختارت أحدهم، وقالت له: هذا ولدك، وليس في وُسْعه أن يمتنع من ذلك.

(د) نكاح البغايا: ممن يَنْصِبْن رايات على أبوابهن، فمن أراد الزنى دخل عليها، فإذا وضعتْ حمْلَها أتوْا بالقافة، الذين يعرفون نسبة الولد إلى أبيه، فيُلْحِقونه به.

فلما بُعث محمد ﷺ هدَم هذه الأنواع من نكاح الجاهلية، إلا النكاح المعروف اليوم.

---

(١) «تفسير الطبري» (١٧/ ٢٩٢) وعبد الرزاق (٢/ ٥٩) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٨٩).

وكان البغاء بعد ذلك باختيار المرأة، لأخذ الأجرة عليه، وكان الناس يتخذون الإماء للخدمة والتسرِّي بهن، وبعض الناس يتخذونهنَّ للاكتساب عن طريقهن، وكانوا يسمون أجر البغي: مهرًا.

ومن هنا جاء في الحديث: عن رافع بن خديج ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«مهر البغي خبيث، وكسب الحجام خبيث، وثمن الكلب خبيث»**[1].

وفي حديث أبي مسعود الأنصاري ﷺ: أن النبي ﷺ **نهى عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن**[2]، أي: كسبه.

وبهذا يُعلم أن البغاء كان منتشرًا معمولًا به قبل الإسلام، وأن الإسلام هو الذي حرَّمه وعدَّه من الزنى.

فقد جاء في سفر التكوين في الإصحاح الثامن والثلاثين: فخلعتْ عنها ثياب ترمُّلها، وتغطَّت ببُرقع، وتلففتْ وجلست في مدخل (عينائم) الذي على الطريق، ثم قال: فنظرها يهوذا وحسبها زانية؛ لأنها كانت قد غطت وجهها، فمال إليها على الطريق، وقال: هاتي أدخل عليك، فقالت: ماذا تعطيني؟ فقال: أُرسل لك جَدْي معزى من الغنم، ثم قال: ودخل عليها فحبلت منه.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ موجه إلى المسلمين، وكان العمل بالبغاء عند أهل الجاهلية قد استمر إلى السنة الأولى بعد الهجرة مع تحريم الإسلام له منذ اللحظة الأولى.

وكان عبد الله بن أُبيٍّ قد تردد زمنًا في الدخول في الإسلام، ولما رأى قومه قد دخلوا في الإسلام دخل فيه كارهًا، وهو مُصرٌّ على النفاق، وقد أظهر إسلامه في السنة الثانية للهجرة، ونزل أوائل سورة النور في حدود السنة الثانية للهجرة، وفيها تأكيد على تحريم

(١) من حديث رافع بن خديج في «المسند» (٣/ ٤٦٤) برقم (١٥٨٢٧، ١٧٢٧٠، ١٨٥١٢)، بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، وأخرجه مسلم (١٥٦٨) والترمذي (١٢٧٥) والطبراني في الكبير (٤٢٥٨) وابن أبي شيبة (٤/ ٣٧٥) وابن حبان (٥١٥٢) وأبو داود (٣٤٢١).

(٢) البخاري برقم (٢٢٣٧، ٢٢٨٢، ٥٣٤٦، ٥٧٦١) ومسلم برقم (١٥٦٧).

البغاء بشكل عام، وتدخل فيها قصة إماء عبد الله بن أبيٍّ، سواء أكان إسلامه قبل نزول هذه الآية أم بعده.

وكان الإسلام قد حرَّم الزنى تحريمًا قاطعًا من مبدأ ظهوره، وفُرضت عقوبته في أول سورة النور، وأبطل الإسلام الأنكحة الجاهلية الثلاثة، ومنها البغاء وهو نوع من الزنى، إلا أنَّ الزنى يكون سرًّا، والبغاء يكون علنًا.

وفي البغاء يُلْحِقُون الأبناء بآبائهم على وجه التقريب، فهو شبيه بالاستلحاق، وفي الزنا خلط للأنساب.

أما قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ فهو بيان للواقع الذي نزلت فيه الآية، وهو إكراه المملوكة على الزنى مع نفورها منه، أي: لا تُجْبِروا إماءكم على الزنى وهُنَّ يُرِدْن العفة، فالإكراه لا يكون إلا مع عدم الرضى، وإرادة التحصن هي غالب أحوال الإماء البغايا اللاتي أسْلمن.

والشرط الذي في الآية دليل على تحريم الإكراه على البغاء؛ لأن الإماء المسلمات يَكْرَهْن ذلك، فهو شرط خرج مخرج الغالب.

وكأن الله تعالى يقول: كيف يقع منكم إكراههن على البغاء، وهُنَّ يُرِدْن العفة، ألم يكن الأولى بكم والأليق بكرامتكم، أن تعينُوهن على العفاف والطهر، بدل أن تُكرهوهن على ارتكاب الفاحشة من أجل عرَض من أعراض الحياة الدنيا؟ ولهذا قال تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فتحصُلوا على المال عن طريق الفاحشة والرذيلة.

وعَرَض **الحياة الدنيا**: هو الأجر الذي تكتسبه الإماء من البغاء، وهو ما كان يسمى بالمهر، أي: لا تجبُروهن على البغاء طلبًا للمال، وهن يُرِدْن العفة وأنتم تأبوْنها، وفي هذا غاية التشنيع لفعلهم القبيح، ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ على الزنى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ﴾ لهن ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهن.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥] والإثم على من أكرههن.

وفي الآية جانب: (مكرَه) بفتح الراء، وهو الإماء المكرهات، وقد وعدَهن الله تعالى مغفرته ورحمته.

والجانب الآخر: (مكرِه) بكسر الراء، وهم مَنْ يُكْرِهُون الإماء على الزنى، ولا يخطر بالبال أن الله تعالى غفور رحيم بهم، بعد أن نهاهم الله تعالى عن الإكراه.

وفي الآية تعريض بالوعيد للذين يُكرهون الإماء على البغاء.

آية سورة النساء [٢٥] مخصصة لعموم هذه الآية:

بقي أن نشير إلى أن قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء: ٢٥]. تخصيص لعموم آية سورة النور التي نحن بصددها.

فقد دلَّت آية سورة (النساء) على أن الحرَّ لا يتزوج المملوكة المؤمنة، إلا إذا كان لا يستطيع الزواج من الحرة لعدم وجود المهر معه، وهو يخاف الزنى على نفسه، فله حينئذ أن يتزوج الأمة بإذن أهلها المالكين لها إذا كانت مؤمنة عفيفة، وليست زانية، ولا متخذةً صديقًا لها، ويلزمه دفع مهرها، ومع هذا كله فالصبر وعدم الزواج منها خير له.

فهذه شروط أربعة هي: ١- الإيمان. ٢- العفة ظاهرا وباطنًا. ٣- عدم استطاعة زواج الحرة. ٤- خوف العنت.

والعلة في منع تزويج الحر من الأمة، أنها إن وَلَدتْ منه ولدًا كان ولدها مملوكًا؛ لأن المولود يأخذ حكم الأم، وعلى الأب ألَّا يتسبب في رقِّ أولاده ما استطاع.

وفي آية سورة النور أمرٌ من الله تعالى بالزواج من العبيد والإماء الصالحين على فقرهم، ووعْد من الله تعالى بأن يغنيهم إن كانوا فقراء، وجاء هذا عطفًا على الأمر بإنكاح الأيامى ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

وهذا العموم الذي في هذه الآية يخصصه ما جاء في سورة النساء من شروط، ويرغِّب في زواج الحر من الأمة العفيفة حال وجودها في المجتمع المسلم.

ولا تخلو الأرض من بقايا الإماء هنا وهناك، مع أن الإسلام سلك كل طريق لجعْلِهنَّ وجعل العبيد أحرارًا، وكان الإسلام قد جاء ووجد الرق متفشيًا في العالم، فعمل على عتقهم بطرق متعددة ورغب فيها، حيث جعله قربى إلى الله تعالى، وجعله كفارة للظهار والأيمان والقتل الخطأ، وغير ذلك. قال تعالى:

٣٤- ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ[١] وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

وكما وُصفت السورة في أولها بثلاثة أوصاف هي أنها منزَّلة من عند الله تعالى، وأنها مفروضة، وأنها: مشتملة على الهدَى والتوحيد، وحقيقة الإسلام، فقد خُتمت هذه المواعظ والأحكام في منتصف السورة بثلاثة أوصاف أيضًا:

الوصف الأول: أنها آيات بينات وعظات بالغات، فهي لكمال بلاغتها وإعجازها دلائل واضحات على الحق، فيها ما تحتاجون إليه من الأصول والفروع، بحيث لا يبقى فيها إشكال ولا شبهة. أي: أنها آيات واضحة الدلالة والإفادة، أبانت المقاصد التي أُنزلت من أجلها.

الوصف الثاني: أن هذه الآيات **تشتمل على أخبار الأمم السابقة،** الصالح منها والطالح، وتشتمل على صفة أعمالهم وما جرى لهم وجرى عليهم، وهو مثال لمن فعل مثل أفعالهم، كي لا يُجازى بمثل ما جوزوا به، فهي تصور المعاني بنظائرها كشفًا للحقائق، وهذا المثَل المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هو قصة الإفك المماثلة لقصة يوسف وقصة مريم في تقول البهتانُ على الصالحين الأبرياء.

الوصف الثالث: أن هذه الآيات **يتعظ بها من يتقي الله تعالى،** ويخاف عذابه، فيمتثلون أوامر الله تعالى، ويجتنبون نواهيه.

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة وأبو جعفر ويعقوب بفتح الياء من (مبيَّنات) اسم مفعول، والباقون بالكسر، اسم فاعل، ومثلها الآية (٤٦).

اللَّهُ تَعَالَى هَادِي أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمُدَبِّرُ الأَمْرِ فِيهِمَا

٣٥- ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ[١] يُوقَدُ[٢] مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾

نُور الله تعالى بمعنى: هدايته لخلْقه، وتصريفه لشؤونهم، وأنه تعالى منوِّر هذا الكون بالنور الحسي، والنور المعنوي، وَمَثَلُ نوره، أي: مَثَلُ نور الله تعالى في قلب المؤمن، كمشكاة فيها مصباح.. الخ، فهو سبحانه نور، وحجابه نور، وبه استنار العرش والكرسي والشمس والقمر، وبه استنارت الجنة، وكل هذا من النور الحسي، أما النور المعنوي فكله من الله تعالى أيضًا، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان نور، والعلم نور، ولولا نور الله تعالى لتراكمت الظلمات وعم الضلال.

وذلكم أنه بعد أن امتنَّ الله تعالى على عباده ببيان أحكام سورة النور، وتشريع حدود الزنى، والقذف واللعان، وأحكام الاستئذان، وحدود إبداء زينة المرأة للمحارم وغيرهم، والترغيب في الزواج، وأنه من أسباب الثراء، وتحريم البغاء، وأن ذلك كله كان في آيات واضحات، فيها الموعظة وضرْب المثل.

بعد ذلك امتنَّ الله على عباده بالهداية العامة عن طريق إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وهو سبحانه خالق هذا الكون، ومدبر أمره، وممدُّه بالنور المادي والمعنوي، وبقدرته تعالى أنار الوجود، واستقامت أموره، وصلح شأنه، وقد عبَّر الله سبحانه عن ذلك

---

(١) قرأ أبو عمرو والكسائي بكسر الدال من (دري) وبعد الراء ياء مدِّيَّة وبعدها همزة هكذا (دِرِّيءٌ) صفة لكوكب، وقرأ شعبة وحمزة مثلهما إلا أنهما ضما الدال هكذا (دُرِّيءٌ) صفة أيضا، وهما من الدرء بمعنى: الدفع، أي: يدفع ضوءُه ظلمة الليل، وقرأ الباقون بضم الدال وياء مشددة بعد الراء هكذا (دُرِّيٌّ) نسبة إلى الدر؛ لشدة ضوئه ولمعانه.

(٢) قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف (تُوقَدُ) مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على الزجاجة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب (تَوَقَّدَ) فعل ماض على وزن تَفعَّلَ، والفاعل ضمير يعود على الزجاجة، وقرأ الباقون وهم نافع وابن عامر وحفص (يُوقَدُ) ونائب الفاعل ضمير مستتر يعود على المصباح.

بالنور؛ لأن النور تنكشف به الأشياء.

وقد أُطلِق لفظ النور في القرآن الكريم على ما هو أعم من الهدى:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١].

فعطفُ أحدِهما على الآخر يقتضي المغايرة.

والله تعالى مُوجِد كل ما يعبَّر عنه بالنور، لاسِيَّمَا أسباب الهداية والمعرفة.

والنور: اسم من أسماء الله الحسنى، فقد سمَّى الله نفسه نورًا، فلا يمنع أن يكون الله تعالى نورًا في ذاته، وسمَّى رسوله نورًا، وسمَّى كتابه نورًا، وسمَّى دينه نورًا، وسمَّى حجابه نورًا.

قال ابن القيم: سمَّى الله تعالى نفسه نورًا، وجعل كتابه نورًا، ورسوله ﷺ نورًا، ودينه نورًا، واحتجب عن خلْقه بالنور، وجعل دار أوليائه نورًا يتلألأ، فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وقد فُسر النور بكونه تعالى مُنَوِّرُ السموات والأرض، وهادي أهل السموات والأرض، فبنوره اهتدى أهل السموات وأهل الأرض، وهذا النور مِنْ فِعْلِه سبحانه، فالنور الذي هو من أوصافه تعالى، نور قائم به، ومنه اشتق اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى.

وكان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: «**اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد أنت قيُّوم السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك حق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي، لا إله إلا أنت**»[1].

وكان ﷺ إذا اشتدَّ به ألم يدعو الله تعالى، ويقول: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقتْ له**

(١) البخاري برقم (١١٠٢، ٧٣٨٥، ٧٤٤٢، ٧٤٩٩) ومسلم برقم (٧٦٩) من حديث ابن عباس واللفظ له والنسائي (١٦١٨) وابن ماجه (١٣٥٥).

الظلمات، وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحلَّ بي غضبك، أو أن ينزل عليَّ سخطك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»[1].

وهذه الآية من سورة (النور) هي الآية التي سُمِّيت السورة باسمها؛ فالله تعالى خالق هذا الكون، ومدبر أمره، قد نوَّره بنور حسي، ونور معنوي ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]. نوَّر الأرض بالرسل والكتب والشرائع، وهو سبحانه بهذا النور يهدي من عباده من يشاء ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فالله تعالى يدبر الأمر في السموات والأرض، ويهدي من فيهما.

وهو سبحانه نور، وحجابه نور، به استنار هذا الكون وما فيه، ولولا نوره لتراكمت الظلمات بعضها فوق بعض، ومن نُوره سبحانه: القرآن والإيمان، فالإيمان نور، والقرآن نور.

وقد ضرب الله سبحانه مثلًا حسيًّا لنور القرآن والإيمان فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ كمثل مشكاة، **المشكاة** هي: الطاقة التي تكون في الحائط، ولا تنفذ إلى الجهة المقابلة، فإن نفذت فهي الكُوَّة، وهي تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق.

ومثلُ نوره في أرجاء الكون، وفي قلب المؤمن خاصة، كمثل مصباح داخل طاقة استجمع نوره فيها، فهو ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ أي: تجويف في الحائط غير نافذ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وهذا ﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾ لا يتفرق نوره داخل المشكاة، وهي التجويف في الجدار غير النافذ، وهذا المصباح ﴿فِى زُجَاجَةٍ﴾ وهذه ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا﴾ في صفائها ﴿كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ أي: مضيء غاية الإضاءة، وهذا النور ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ هو زيت الزيتون.

في حديث أبي أُسيد الساعديِّ ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا الزيت وادَّهنوا به، فإنه من شجرة مباركة»[2].

---

(١) عن ابن إسحاق في «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٥) وقد سبق بيان ضعفه في أول المقدمة.

(٢) صححه الحاكم وأقره الذهبي (٢/ ٥٩٧) وهو في «السلسلة الصحيحة» للألباني برقم (٣٧٩) وصحيح الترمذي (١٥٠٨) و«المختارة» للضياء المقدسي برقم (٨٢، ٨٣)، والمسند (١٦٠٥٤، ١٦٠٥٥) وفي إسناده عطاء الشامي، متكلم فيه، وباقي رجال الإسناد ثقات (محققوه)، وأخرجه الترمذي (١٨٥٢) والبغوي في شرح السنة (٢٨٧١) وصحيح ابن ماجه (١٣١٩).

والناس قديمًا يعرفون أن النور يكون من زيت الزيتون، وهي شجرة مباركة، وهذه الشجرة تخرج في صحراء واسعة، وهي ليست في جهة الشرق بحيث لا تشرق عليها الشمس في آخر النهار، ولا في جهة الغرب بحيث لا ترى الشمس أول النهار، إنما هي في مكان متوسط ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ وإذا انتفى الأمران معًا كانت في مكان متوسط من الأرض كزيتون الشام تصيبه الشمس أول النهار وآخره فيكون زيتها أصفى.

قال ابن عباس ﷺ: شجرة بالصحراء، لا يُظلها كهف ولا جبل، ولا يواريها شيء، وهو أجود لزيتها.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ من ذاته وصفاته ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فإذا مسته النار صار نورًا على نور: نور الزيت، ونور النار، فيضيء إضاءة بليغة.

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وهو نور الإيمان، والقرآن، والعلم، لمن يأخذ بأسباب الهداية ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ هذه ﴿ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ الحسية ﴿لِلنَّاسِ﴾ كي يتعظوا ويعتبروا فيهتدوا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾. يعلم من سينتفع بهذه الأمثال فيهتدي، ويعلم من لا ينتفع فلا يهتدى.

قال الطبري: ذلك مثل ضربه الله تعالى، للقرآن في قلب أهل الإيمان، فقال: مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد الذي أنزله إليهم، فآمنوا به وصدَّقوا بما فيه، كمثل مشكاة، وهي عمود القنديل الذي فيه الفتيلة.

وأساس هذا النور أن القلب العارف يُرزق بصيرة تُميِّز الصواب من الخطأ، والبر من الإثم، ويمشي بين الناس ثابت الخطْو، مُسدد الهدف، قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء].

وأخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﷺ قال: مثل هداه في قلب المؤمن، كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسَّه النار، فإذا مسته النار ازداد ضوءًا على ضوء، كذلك يكون قلب المؤمن، يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى، ونورًا على نور، كما قال إبراهيم ﷺ قبل أن تجيئه المعرفة: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ حين رأى الكوكب، من غير أن يخبره أحد أن له ربًّا، فلما أخبره الله أنه ربه

ازداد هدى على هدى.

وقال أُبيُّ بن كعب ﷺ: مثل نوره، أي: المؤمن الذي قد جُعل الإيمان والقرآن في صدره، فضرب الله مثله، فبدأ بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن، فقال: مثل نور من آمن به.

قال أُبيٌّ: فصدْرُ المؤمن هو المشكاة، والمصباح هو القرآن والإيمان الذي جُعل في صدره، والزجاجة قلبه، وحين يستنير القلب بالإيمان والقرآن، يكون كالكوكب المضيء، فمثلُه كمثل شجرة التفَّ بها الشجر، فهي خضراء ناعمة، لا تصيبها الشمس على أيِّ حال، فكذلك المؤمن قد أُجير من أن يمسَّه شيء من الفتن، وإن ابتُلي بها ثبَّته الله، فهو: إن قال صدق، وإن حكم عدل، وإن ابتُلي صبر، وإن أُعطي شكر، وهو في الناس كالرجل الحيِّ يمشي بين قبور الأموات، يتقلب في خمسة من النور: كلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة، وهو الجنة(١).

فنور الله تعالى في قلب المؤمن، هو الفطرة التي فطره الله عليها، وهي مستعدة لقبول التعاليم الإلٰهية، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، اشتعل ذلك في قلبه كما تشتعل النار في فتيل المصباح ذي الزيت الصافي الخالي من الكدر، فيجتمع في القلب نور الفطرة ونور الإيمان، ونور العلم والمعرفة فهو نور على نور.

فذلك مثل الهدى يضيئه الله في قلب عبده المؤمن، والله يهدي ويوفق لاتباع القرآن من يشاء من عباده، ويضرب الأمثال للناس ليعرفوا عنه أمثاله وحكمه، فاشتغلوا بتدبرها وتعقلها، والعمل بمقتضاها، لا بالاعتراض عليها، ولا بمعارضتها، فإنه سبحانه يعلم وأنتم لا تعلمون، والله تعالى لا يخفى عليه شيء.

بُيُوتُ اللَّهِ تَعَالَى هِيَ مَصْدَرُ النُّورِ

٣٦- ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ(٢) لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ(٣)﴾

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٢٩٨) بتصرف، وابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٩٣) والحاكم (٢/ ٣٩٩).

(٢) قرأ ابن عامر وشعبة بالبناء للمجهول في (يُسبَّح) و(له) نائب فاعل، و(رجال) فاعل لفعل محذوف، يدل عليه المقام، والباقون بالبناء للمعلوم، و(له) متعلق به، و(رجال) فاعل.

(٣) عدّ (والآصال) آية الشامي والبصري والكوفي، ولم يعدها آية المدنيان والمكي.

هذا النور، وهذه الإضاءة، مصدرهما بيوت الله في الأرض، وهي المساجد، وبيوت العبادة لأهل الكتاب قبلنا، فهذه الأماكن ومَنْ فيهان هم الأكثر انتفاعًا بنور الله، ولعل المراد بالبيوت أماكن العبادة قبل الإسلام وبعده؛ إذ إنه وقت نزول هذه الآية لم تكن المساجد منتشرة في الأرض، ولم تكن المصابيح موجودة، فقد أُحدِثتْ إضاءة المساجد في عهد عمر ﷺ، فقال له عليٌّ ﷺ: نوَّر الله مضجعك يا ابن الخطاب كما نوَّرت مسجدنا.

ورُوي أن تميمًا الداري أسرج المسجد النبوي بمصابيح جاء بها من الشام، والمساجد التي كانت موجودة وقت نزول هذه الآية هي: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، ومسجد قباء، ولعل مساجد أخرى قد أقيمت في هذه الفترة ولم تكن مشهورة.

وقال كعب: إن في التوراة مكتوبًا: ألا إن بيوتي في الأرض المساجد، وإنه من توضأ فأحسن وضوءه، ثم زارني في بيتي أكرمته، وحق على المزور كرامة الزائر.

فضل بناء المساجد واحترامها: وجاءت أحاديث كثيرة ترغِّب في بناء المساجد، واحترامها، وتوقيرها، وتطييبها، وتَبْخيرها، فعمارة المساجد، منها: بنيانها وصيانتها، ومنها: ذكر الله تعالى فيها بالصلاة وغيرها، ومن تعظيم المساجد، ورفعها: بناؤها وكنسها ونظافتها من الأذى والنجاسة، وصونها عن المجانين والصبيان الذين لا يتحرزون عن النجاسة، وصونها عن الكفار، وعن اللغو فيها.

ومما ورد في بناء المساجد قول النبي ﷺ من حديث عثمان ﷺ: **«من بنى مسجدًا يبتغي به وجه الله، بنى الله له مِثْله في الجنة»**[1].

وقوله ﷺ من حديث عمر ﷺ: **«من بنى مسجدًا يُذكر فيه اسم الله، بنى الله له بيتًا في الجنة»**[2].

---

(١) البخاري برقم (٤٥٠) ومسلم برقم (٥٣٣) والترمذي (٣١٨) من حديث عثمان بن عفان ﷺ ومسند أحمد (٤٣٤،٥٠٦) وابن ماجه (٧٣٦).

(٢) رواه ابن ماجه عن عمر ﷺ برقم (٧٣٥) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٦٠١) وهو في مسند أحمد (١٢٦،٣٧٦) حديث صحيح، وأخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٣١٠) والبزار (٣٠٤) وابن حبان (١٦٠٨) وأبو يعلى (٢٥٣)، وقول البوصيري في الزوائد (١/ ٧): إسناده مرسل، مردود عليه بأن عثمان بن عبد الله بن سراقة - ابن بنت عمر - ثقة من رجال البخاري، وأنه قد أدرك جده وسمع منه كما قال ابن حجر، فهو على هذا متصل، وباقي رجال السند ثقات.

ومهمة المساجد أن يُعبد الله تعالى فيها بشتى ألوان العبادة، وما يتبع ذلك من دراسة العلم، وتنظيم شؤون المسلمين، وليست المساجد للدعاية والإعلان ونَشْدِ الضالة.

رأى النبي ﷺ من ينشد ضالته في المسجد، فقال: **«إنما بُنيت المساجد لما بُنيت له»**(١).

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد، فقولوا: لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد، فقولوا: لا ردَّها الله عليك»**(٢).

والعمل على هذا عند أهل العلم، وأنهم كرهوا البيع والشراء في المسجد.

ولا يجوز رفع الصوت في المساجد، فعن السائب بن يزيد الكندي قال: كنت قائمًا في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب، فقال: اذهب فائتني بهذين، فجئته بهما، فقال: من أنتما؟ أو من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل هذه البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ(٣).

وسمع عمر صوت رجل في المسجد، فقال: أتدري أين أنت؟(٤).

وكان عمر يجمِّر مسجد رسول الله ﷺ كلَّ جمعة(٥).

صلاة الجماعة: وجاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ: **«صلاة الرجل في الجماعة تُضعَّف على صلاته في بيته وفي سُوقه خمسًا وعشرين ضِعفًا، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد، لا يخرجه إلا الصلاة، لم يَخْطُ خُطوة إلا رُفع له بها درجة، وحُطَّ عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه: اللهمَّ صلِّ عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة»**(٦).

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٥٦٩) من حديث بريدة.

(٢) «سنن الترمذي» برقم (٣١٢١) وقال: حسن غريب وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٠٦٦) وفي مشكاة المصابيح (٧٣٣) وإرواء الغليل (١٤٩٥).

(٣) البخاري برقم (٤٧٠).

(٤) «تحفة الأشراف» (٨/ ٤) منسوبًا للنسائي.

(٥) ابن أبي شيبة (٢/ ٣٦٣) و«مسند أبي يعلى» (١/ ١٧٠) برقم (١٩٠) وضعَّفه محقق أبي يعلى.

(٦) من حديث أبي هريرة في البخاري (٦٤٧) ومسلم (٦٤٩).

دعاء دخول المسجد والخروج منه:

وكان النبي ﷺ يقول إذا دخل المسجد: **«أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم»**. . . فإذا قال ذلك، قال الشيطان: حُفظ مني سائر اليوم[١].

وقال ﷺ فيما يرويه أبو حميد، أو أبو أُسيد: **«إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك»**[٢].

وعن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد يقول: **«بسم الله، والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك»**.

وإذا خرج قال: **«بسم الله، والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب فضلك»**[٣].

تحية المسجد: وعن أبي قتادة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«أعطوا المساجد حقها»**، قيل: وما حقها؟ قال: **«ركعتان قبل أن تجلس»**[٤].

آداب خروج المرأة إلى المسجد:

ويجوز للمرأة أن تشهد الجماعة مع الرجال، على ألا تتزين ولا تتطيب.

١- فعن عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لاتمنعوا إماء الله مساجد الله»**[٥]، وزاد في رواية: **«وبيوتهن خير لهن»**[٦]. وفي لفظ «لا تمنعوا نساءكم المساجد».

٢- وعن زينب امرأة ابن مسعود ﷺ قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: **«إذا شهدت**

---

(١) أبو داود برقم (٤٦٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٤١).

(٢) مسلم برقم (٧١٣) و«سنن النسائي» (٢/ ٥٣) عن أبي حميد أو أبي أسيد.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٣٨٨)، (١٠/ ٤٠٥) والترمذي (٣١٤) وابن ماجه (٧٧١) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٦٢٥).

(٤) ابن أبي شيبة (١/ ٣٤٠). وصحيح ابن خزيمة برقم (١٨٢٤).

(٥) البخاري برقم (٩٠٠) وانظر: (٨٦٥) ومسلم برقم (٤٤٢) و«المسند» (٢/ ٧٦) برقم (٤٦٥٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين. (محققوه).

(٦) و أبو داود برقم (٥٦٧) وصحيح أبي داود (٥٣٠).

إحداكن المسجد فلا تمس طيبًا»[١]. وفي لفظ (العشاء) بدل (المسجد).

٣- وفي حديث أبي هريرة ﷺ: «**و لكن ليخرجن تفلات**»[٢].

أي: غير متطيبات، لا ريح لهن.

٤- وعن عائشة ﷺ قالت: كانت نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ، ثم يرجعْن متلفِّعات بمروطهن ما يُعرفن من الغلس[٣].

٥- وجاءت أم حميد، امرأة أبي حميد الساعدي ﷺ إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني أحب الصلاة معك، قال: «**قد علمتُ أنك تُحبين الصلاة معي، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي**».

قال عبد الله بن سويد الأنصاري: فأمرتْ فَبُنِي لها مسجد في أقصى شيء من بيتها وأظلمه، فكانت تصلي فيه حتى لَقيتِ الله ﷻ[٤].

وقد بيَّنت السُّنَّة مفهوم المخالفة في الآية، وأن النساء لَسْنَ كالرجال في حكم الخروج إلى المساجد، وأوضحت أن صلاتهن في بيوتهن أفضل لهن من الخروج إلى المساجد والصلاة فيها مع الجماعة، بخلاف الرجال.

٦- وعن أم سلمة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**خير مساجد النساء قعْر بيوتهن**»[٥].

---

(١) مسلم برقم (٤٤٣)، و«المسند» (٢/ ٤٣٨) برقم (٢٧٠٤٦)، (٢٧٠٤٧) والنسائي في الكبرى (٩٤٢٦) وابن أبي شيبة (٩/ ٢٦) والطبراني في الكبير (٧١٨) وابن خزيمة (١٦٨٠).

(٢) أبو داود (٥٦٥) قال الألباني في صحيح أبي داود (٥٢٩): حسن صحيح.

(٣) البخاري برقم (٥٧٨) ومسلم برقم (٦٤٥).

(٤) «المسند» (٦/ ٣٧١) برقم (٢٧٠٩٠) حديث حسن، وقال ابن حجر: إسناد حسن، وأخرجه ابن خزيمة (١٦٨٩) قال الألباني: حديث حسن، وأخرجه ابن حبان (٢٢١٧) الإحسان، قال محققه: قوي.

(٥) «المسند» (٦/ ٢٩٧) برقم (٢٦٥٧٠) حسن بشواهده وابن خزيمة (١٦٨٣) وأبو يعلى (٧٠٢٥) والحاكم (١/ ٢٠٩) و«صحيح الجامع» (٣٣٢٧) وحسنه السيوطي في «فيض القدير» (٤٠٨٧).

٧- وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حُجْرتها، وصلاتها في مَخْدَعها أفضل من صلاتها في بيتها»**(١).

وبيَّن أهل العلم شروط خروج المرأة إلى المسجد، وهي: ألا تكون متطيبة، ولا متزينة، ولا متبرجة، وألا يكون في يديها أو رجليها شيء من الحليِّ ونحوه مما يُسمع له صوت، ولا تلبس ثيابًا فاقعة اللون، ولا مزركشة، أو مزينة، ولا تختلط بالرجال، وألا تكون شابَّة فاتنة الجمال تُخشى منها مفسدة، وألا يكون في الطريق ما تخاف منه(٢). والثابت من ذلك هو التطيب.

٨- كما في حديث أبي هريرة ﷺ في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«أيما امرأة أصابت بخورًا فلا تشهدنَّ معنا العشاء الآخرة»**(٣).

وذلك لأن المرأة تُحرك شهوة الرجال بريح طيبها، وقد ألحق أهل العلم بذلك كل ما هو سبب للفتنة بتحريك شهوة الرجال، كالزينة الظاهرة، والثياب الفاخرة.

وإذا استأذنت المرأة زوجها في الخروج إلى المسجد، وكانت غير متطيبة، وليس فيها ما يستوجب الفتنة، فإن على زوجها أن يأذن لها، ولا يجوز له منعها من ذلك ما دامت غير متطيبة ولا متبرجة.

٩- لِمَا ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إذا استأذنت امرأة أحدكم إلى المسجد فلا يمنعها»**(٤).

١٠- وفي حديث ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إذا استأذنكم نساؤكم بالليل إلى المسجد فَأْذنوا لهن»**(٥).

١١- وفي لفظ مسلم عنه ﷺ: **«لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأْذَنَّكُم إليها»**(٦).

---

(١) أبو داود برقم (٥٧٠)، بتصحيح الألباني له وإسناده جيد، وهو في صحيح ابن خزيمة (١٦٩٠).
(٢) قاله النووي في شرح «صحيح مسلم» على حديث: «لا تمنعوا إماء الله من المساجد».
(٣) «صحيح مسلم» برقم (٤٤٤).
(٤) من حديث سالم بن عبد الله عن أبيه في البخاري برقم (٥٢٣٨) ومسلم (٤٤٢).
(٥) البخاري برقم (٨٦٥، ٥٢٣٨).
(٦) «صحيح مسلم» برقم (٤٤٢) عن ابن عمر.

وغير ذلك من الأحاديث.

ذِكْرُ الله في المساجد: من ذكر الله تعالى في بيوته: أداء الصلوات كلها، فرضها ونفلها، وقراءة القرآن، والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وحِلَق العلم، ومدارسة القرآن والحديث والسيرة، والاعتكاف، وغير ذلك من تسبيح الله تعالى بالغدو والآصال، وهما أشرف الأوقات، ولذا: شُرع فيهما أذكار الصباح والمساء، يُسبح فيهما لله تعالى رجال لا يؤثر عليهم ما في الدنيا من متاع وشهوات وتجارات ومكاسب، ويرجون ما عند الله من تجارة لن تبور، ونعيم لا يزول.

عُمَّارُ الْمَسَاجِدِ

٣٧- ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾

وعُمَّارُ المساجد على رأس الذين اهتدوْا بنور الله، فهداهم الله إلى ما يحبه ويرضاه، وهم رجال يعبدون الله تعالى، ويقدِّسونه في تلك المساجد التي أمر سبحانه بتشييدها وتعظيمها وصيانتها من كل سوء ونجَس.

وهؤلاء الرجال يسبِّحون الله تعالى وينزِّهونه عن كل نقص، ويتقربون إليه بالطاعات والصلوات، سِيَّمَا في أول النهار وآخره.

عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«من صلى البَرْديْن دخل الجنة»**[1] **والبردان**: صلاة الصبح وصلاة العصر.

وأخرج أبو داود عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من خرج من بيته متطهرًا إلى صلاة مكتوبة، كان أجره كأجر الحاج المحْرِم، ومن خرج إلى المسجد إلى تسبيح الضحى، لا يعنيه إلا ذاك، كان أجره كأجر المعتمر، وصلاة على إثر صلاة، لا لغوَ بينهما، كُتِب في عليين»**[2].

(١) «صحيح مسلم» برقم (٦٣٥) و«صحيح البخاري» برقم (٥٧٤).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» برقم (٥٢٢) بإسناد حسن، كما قال الألباني، وهو في سنن أبي داود (٥٥٨) باب فضل المشي إلى الصلاة.

وقد وصف الله سبحانه عُمَّار بيوته بأنهم رجال لا تشغلهم تجارة ولا مكاسب ولا بيع عن أداء الصلاة في أوقاتها في المساجد.

وقد خَصَّ الله تعالى الرجال بالذكر في الآية دون النساء؛ لأن النساء ليس عليهن حضور في المساجد لجمعة ولا جماعة، على وجه الوجوب.

وخَصَّ الله تعالى التجارة بالذكر من بين الأعمال؛ لأنها أعظم ما يُشغل الإنسان عن الصلاة والطاعات، والتجارة جلْب السِّلَع للربح في بيعها، والبيع أعم منها.

وذِكْرُ الله تعالى يكون بالقلب واللسان، وهو أعم من الصلاة.

وإقام الصلاة: عدم تأخيرها عن وقتها، إنهم في بيوت أذن الله أن يُرفع شأنها، ويُرفع بناؤها، ويذكر فيها اسم الله في الصلاة، والإقامة، والدعاء، والتسبيح، وقراءة القرآن في الأوقات الخمسة، وكل ذلك من قبل رجال لا يلهيهم العمل، ولا يلهيهم الجاه، ولا المنصب، ولا التجارة عن ذكر الله تعالى، وهذه الأمور ليس فيها محذور، إنما المحذور في كونها تلهى صاحبها وتجعله يؤثر الدنيا على الآخرة.

كان عبد الله بن عمر ﷺ في السوق، فأقيمت الصلاة، فرأى التجار قد أغلقوا محلاتهم وتوجهوا للصلاة في المسجد، فقال: فيهم نزلت هذه الآية[١].

وهكذا قال ابن مسعود، وغيره.

والآية أصل في وجوب إغلاق المحلات التجارية وغيرها، وتوقف الأعمال في الدواوين ونحوها في أوقات الصلاة؛ لأدائها مع الجماعة.

وهؤلاء الرجال الذين وصفتهم الآية، يؤدون الزكاة لمستحقيها.

ولمّا كان متاع الدنيا وحب المكاسب، محببًا إلى النفوس، يشق عليها تركه، فقد ذكر سبحانه ما يدعوهم إلى ذلك من الترغيب والترهيب، وهو أن هؤلاء الرجال يخافون يوم القيامة، وهو يوم تتقلب فيه القلوب، حيث تكون بين الخوف والرجاء، ترجو رحمة الله، وتخشى عذابه، وذلك حين تشخص الأبصار من هول ذلك اليوم، وتترقب إلى أيِّ مصير تكون.

---

(١) «تفسير الطبري» (١٧/ ٣٢١) وعبد الرزاق (٢/ ٦١) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٠٧).

وفي هذا بيان لشدة هول القيامة، كما قال تعالى في وصف الصالحين: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان].

وقال في وصف الظالمين: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وقال عنهم أيضًا: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨].

وهكذا: فقد آثر هؤلاء الرجال الآخرة على الدنيا: قال تعالى:

٣٨- ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

فقد بيَّن سبحانه أن سبب إكثار هؤلاء الرجال من الطاعات؛ كيْ يجازيهم الله يوم القيامة أحسن الجزاء على أعمالهم، ويزيدهم من فضله وإحسانه أضعافًا مضاعفة للحسنات، فالمراد بأحسن ما عملوا، أعمالهم الحسنة الصالحة، لأنها أحسن ما عملوا أما السيئات فإنه يغفرها لهم، أو يعاقبهم عليها، والله يعطي من يشاء من خلقه عطاءً واسعًا، أي: يعطيهم من الأجر ما لا يبلغه عملهم، بلا كدٍّ ولا عدد ولا حدٍّ ولا تعب، قال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال جل شأنه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال سبحانه ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥]

مَثَلُ ظُلْمَةِ الْكَافِرِ وَبُطْلَانِ عَمَلِهِ

٣٩- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ[1] ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾

ذكر سبحانه في أوائل سورة البقرة مثلًا للكافر، بالذي ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء، ومثلًا للمنافق بالماء والنار، وذكر في هذه السورة مثلَيْن:

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين من (يحسَبه)، والباقون بكسرها.

الْمَثَلُ الْأَوَّلُ: تَشْبِيهُ عَمَلِ الْكَافِرِ بِالسَّرَابِ

وذلك أنه بعدما ضرب الله سبحانه مثلًا لنور المؤمن، ضرب مثلًا آخر لظلمة الكافر الذي لا ينتفع بنور الله، ولا يهتدي بهدْي الله تعالى، فبيَّن سبحانه أن الذين كفروا وكذَّبوا رسل الله، أعمالهم التي ظنُّوها نافعة لهم في الآخرة، كسراب الماء الذي يُرى في القيعان من ضوء الشمس في الهجيرة.

والسراب معروف، وهو الذي يكون على الأرض المستوية في وقت الظهيرة، شعاع أبيض يظنه الإنسان ماءً مِنْ على بُعْد، لشدة ما به من ظمأ، فيقصد هذا السراب ليزيل ظمأه، فلم يجده شيئًا، فيندم ندمًا شديدًا بسبب انقطاع رجائه، وهكذا، فالكافر يشبه الظمآن في الاحتياج إلى الانتفاع بعمله، حتى إذا قدِم على أعماله يوم الحساب والجزاء، وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئًا.

وعمل الكافر الذي يعمله في الدنيا، كالإحسان في القول، والمعاملة الحسنة، وصلة الرحم، وفك الأسرى، والصدقة، وغير ذلك، كل هذا لا ينفعه يوم القيامة؛ لأن الأصل وهو الإيمان غير موجود، والكافر لا يُقبل له عمل؛ فأعماله شبيهة بالسراب في أنَّ لها صورة الماء وليست بماء، والكافر يَخِيبُ رجاؤه حين يفاجأ بأنه لا أجر له على عمله، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان]. وقال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ﴾ [إبراهيم: ١٨]. قال ابن عباس ﷺ: وكذلك الكافر يجيء يوم القيامة وهو يحسَب أن له عند الله خيرًا فلا يجده، ويُدخله الله النار[١].

وقال ابن عباس أيضًا ﷺ: هو مثل ضربه الله لرجل عَطِشَ فاشتدّ عطشُه، فرأى سرابًا فحسبه ماءً فطلبه، فظنَّ أنه قادر عليه، فلما أتاه لم يجده شيئًا[٢].

وهذا الكافر يوفَّى حسابه يوم القيامة، فيحاسَب على النقير والقطمير، ولن يعدم منه قليلًا ولا كثيرًا.

وقد كان المشركون إذا سمعوا ما أعدَّه الله تعالى للمؤمن من الجزاء على الأعمال

---

(١) ،(٢) يُنظَر: ابن جرير (١٧/ ٢٩٨، ٣٢٨) وابن أبيْ حاتم (٨/ ٢٥٩٣، ٢٦١١).

الصالحة قالوا: ونحن نعمِّر البيت، ونطوف به، ونُطعم المسكين، ونَسقي الحاج، ونَقْري الضيف، فكانت هذه الآية وأمثالها إبطالًا لحُسْبانهم.

وشُبِّه ذلك بحالة ظمآن يَرى السراب، فيحسبه ماء، فيسعى إليه، فإذا بلغ المكان الذي فيه السراب لم يجد ماء، ووجد غريمًا عنده يأسره، ويحاسبه على ما قدم.

وهكذا الكافر يَخِيبُ أملُه، وتشتد حسرتُه عندما لا يجد ماءً في موضع السراب، ووجد الله له بالمرصاد، يوفِّيه حقه كاملًا غير منقوص.

فلا يستبطئ الجاهلون وعد الله تعالى؛ فإنه آتٍ لا محالة.

الْمَثَلُ الثَّانِي لِذَوِي الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ

٤٠- ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ[1] ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

وعمل الكافر إن كان عملًا نافعًا في الدنيا فهو كسراب بقيعة، وإن كان عملًا ضارًّا سيئًا فهو كظلمات متراكمة بعضها فوق بعض.

أو أنَّ المَثل الأول، هو مثَلُ عمل الكافر، وهذا المثل، مَثَلُ عقيدته، فهي كظلمات بعضها فوق بعض في عمق البحر، يعلوها موج متلاطم، ومن فوق هذا الموج، موج آخر يُغطِّيه، ومن فوق الموج الآخر سحاب كثيف، وهذا السحاب الكثيف مليء بالظلمات: ظلمة الموج، وظلمة البحر، وظلمة السحاب، وظلمة الليل، وهذا يعني نفي الرؤية جملة وتفصيلاً، وهكذا ظلمات الشرك والكفر والضلال وفساد الأعمال.

وهذا الكافر له ظلمات: ظلمة الاعتقاد، وظلمة العمل، وظلمة القول، وظلمة الجهل، وظلمة الكفر، فهم في ظلمات يعمهون، وفي غيٍّ وضلال يتردَّدُون، وعن الصراط ناكبون.

قال أُبيٌّ بن كعب: الكافر يتقلَّب في خمس من الظُّلَم: كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخلُه ظلمة، ومخرجُه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة في النار ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ

---

(١) قرأ البزي بعدم التنوين في (سحابُ) وجر (ظلماتٍ) على الإضافة، وقرأ الباقون بتنوين (سحابٌ) ورفع (ظلماتٌ) على أنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذه أو تلك ظلمات.

ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا﴾ من الكتاب والسُّنَّة ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾. يوم لقاء ربه.

ومن لم يأخذ بأسباب الهداية، فما له من هادٍ، ومن لم يرحمهُ الله، وينوِّر حاله بالعفو والمغفرة، فلا رحمة له. والظلمة التي تغشاهم: هي ظلمة القلب، والسمع، والبصر، كما قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية].

سمع بعض علماء الطبيعة من غير المسلمين هذه الآية، فسأل: هل ركب محمد البحر؟ قالوا: لا، فقال: أشهد أنه رسول الله، قالوا: كيف عرفت؟ قال: إن هذا الوصف للبحر لا يعرفه إلا من عاش عمره في البحار، ورأى الأهوال والأخطار، فلما أُخبرتُ أنه لم يركب البحر عرفتُ أنه كلام الله تعالى[١].

خَمْسَةُ أَدِلَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ تُنَزِّهُ اللهَ تَعَالَى وَتَعْبُدُهُ

٤١- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

ذكر الله سبحانه في هذه الآية وما بعدها خمسة أدلة عظام على وحدانية الخالق سبحانه، وبيَّن جلَّ شأنه كيف أنه هَدَى كثيرًا من أهل السموات والأرض إلى توحيده الذي حُرِم منه أهل الضلال، فجميع من في الكون يعبد الله تعالى ويقدسه وينزهه، حتى الكافر يسبح بلسان حاله، والطير لها أجنحة منبسطة في السماء، ما يمسكها إلا الله، وهي تسبح بحمد الله، وهكذا جميع المخلوقات أرشدها ربُّها، وعرفتْ كيف تسبحه وتصلي له، وكل من الإنس، والجن، والملَك، والحيوان، والطير، والجمادات قد علم الله صلاته وتسبيحه بلسان حاله ومقاله، فالإنس يعرف لغة الإنس، والطيور تعرف لغة بعضها،

---

(١) ذكره الشيخ محمد علي الصابوني في تفسيره «صفوة التفاسير»، عند هذه الآية.

والدواب تعرف لغة بعضها، وهكذا.

والطيور مندرجة تحت جملة ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ولكن الله تعالى خصها بالذكر؛ لأنها حين تطير لا تكون في الأرض ولا في السماء، بل تكون بينهما، ولذلك ذكرها سبحانه؛ ليشمل حال بَسْطِها لأجنحتها بدون تحريك، وحال قَبْضها لأجنحتها وهي في الجو، وذلك أعجب أحوالها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ [الملك: ١٩].

والاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ للتعجب من حال فريق من أصحاب العقول الذين حُرموا الهدى، مع أنه سبحانه هَدَى العجماوات، وجَبَلَها على فَهْم نعمة الوجود والرزق، قال تعالى في وصف هؤلاء: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]. والرؤية في الآية رؤية بصرية.

وقد ألهم الله تعالى كل مخلوق من هذه المخلوقات كيفية التسبيح لخالقه، وعرف كيف يسبِّح ويدعو الله تعالى، إما بواسطة الرسل، كالجن والإنس والملائكة، وإما بالإلهام كسائر المخلوقات.

١- والضمير في ﴿عَلِمَ﴾ إما أن يعود **على المخلوقات** التي في السموات والأرض، أي: إن كلًّا منها قد علم معنى صلاة نفسه وتسبيحها، فضمير الفاعل المحذوف يعود على المصلِّين والمسبِّحين.

٢- وإما أن يعود الضمير **على الله سبحانه،** فيكون المعنى: كل واحد منهم قد علم الله صلاته وتسبيحه.

والجملة بعد ذلك ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ للتأكيد اللفظي، وهي للتأسيس على المعنى الأول، والتأسيس للأحكام أولى من التأكيد.

والمعنى الثاني هو الأرجح؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾(١) [الإسراء: ٤٤].

---

(١) يُنظَر: «أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي (٦/ ٢٤٥).

كما بيَّن سبحانه أن غير العقلاء من المخلوقات، لها إدراك خاص يَعلَمُه الله سبحانه، فقال في الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال جلَّ شأنه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]. وليس هناك ما يمنع من أن تكون صلاتها وتسبيحها شيئًا حقيقيًّا.

ولسنا نرى أن الصلاة من خصائص العقلاء، وأن التسبيح لغير العقلاء، ونرى أن الآية على ظاهرها، وأن المراد بالصلاة في الآية: الصلاة المعروفة، وليس الدعاء، ولا حاجة إلى القول بالمجاز، وقد جاء هذا مصرحًا به في آية سورة الحج ١٨ والسجود أخص أركان الصلاة وأبرزها، وفيها أن كل الكائنات تسجد لله.

وقد بيَّن الله سبحانه في نهاية الآية أنه مُطَّلِع على ما يفعله كل عابد ومسبِّح، لا يخفى عليه منها شيء، ومن ذلك صلاة الطيور وتسبيحها، وسوف يجازى كُلّا بما عمل.

ولما بيّن سبحانه افتقار الخلق إليه من ناحية العبادة والتوحيد، بيّن في الآية التالية افتقارهم إليه من جهة الملك والتربية والتدبير:

الدَّلِيلُ الثَّانِي: اللَّهُ سُبْحَانَهُ خَالِقُ هَذَا الْكَوْنِ وَمَالِكُهُ

٤٢- ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾

والله سبحانه خالق هذا الكون ومالكه ومدبر أمره، وإليه المرجع والمصير يوم القيامة، حيث يحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم بما تستحقون من ثواب وعقاب.

وفي هذا وعيد شديد لمن كذَّب الله تعالى، ولم يؤمن بخاتم النبيين ﷺ.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: لَفْتُ أَنْظَارِ الْعِبَادِ إِلَى بَعْضِ الْمَظَاهِرِ الْكَوْنِيَّةِ

٤٣- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ[1] بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ

(١) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال همزة (يؤلف) واوًا في الوصل والوقف، وكذا حمزة عند الوقف، والباقون بتحقيقها في الحالين.

ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ[١] بِٱلۡأَبۡصَٰرِ[٢]﴾

ذكر الله سبحانه آية ثالثة لَفَتَ فيها أنظار عباده إلى مظاهر قدرته في هذا الكون، وتفرُّده بالخلْق والوحدانية: إن الله تعالى يسوق السحاب من مكان إلى مكان، ثم يجمعه بعد تفرُّق، ثم يجعله متراكمًا بعضه فوق بعض، فيكون كالجبال، ينزل من بينه المطر، وينزل من السحاب الذي يشبه الجبال برَدٌ، فيصيب بذلك البرَدِ من يشاء من عباده، فيضره في زرعه وثمره وماشيته، ويدفعه عمن يشاء فلا يضره، بل ينتفع به بحسب حكمته تعالى وتقديره، يكاد ضوء ذلك البرق في السحاب من شدته ولمعانه يخطف الأبصار، قال تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ﴾ [البقرة: ٢٠].

أليس الذي أنشأ هذا السحاب، وساقه لعباده، وأنزله على وجه يحصل به النفع ويندفع به الضرر، كامل القدرة، نافذ المشيئة، واسع الرحمة؟

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: تَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

٤٤- ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ[٣] ﴿٤٤﴾﴾

وبعد أن أقام سبحانه أدلة عُلْويَّة على وحدانيته تعالى وقدرته، أتبع ذلك بدليل زمنيٍّ مشاهَد، وهو تعاقب الليل والنهار؛ حيث قلَّب الله كلًّا منهما، فيأتي النهار ويذهب الليل، ويأتي الليل ويذهب النهار، ويزيد هذا وينقص ذاك، وينتج عن ذلك الفصول الأربعة: الصيف والشتاء والربيع والخريف، كما ينتج عنه الحر والبرد وبين ذلك، وقد جعل الله الليل والنهار وقتًا لنزول نقمته وحلول نعمته.

في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله تعالى: يؤذيني ابن**

---

(١) قرأ أبو جعفر (يُذْهِبُ) مضارع أذهب، والأبصار مفعول به، وقرأ الباقون (يَذْهَبُ) مضارع ذهب، والأبصار مفعول، والفاعل على القراءتين ضمير محذوف، تقديره: هو، يعود على (سنا برقه).

(٢) عدّ قوله تعالى (يذهب بالأبصار) آية، الشامي والبصري، والكوفي، وأسقطها من العدد المدني الأول والأخير والمكي.

(٣) لم يعدّ (لأولى الأبصار) آية، الحمصى، وعدها آية ما عدا الحمصى من أهل العدد.

آدم، يسبُّ الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أُقلِّب الليل والنهار»[١].

وهذا ردٌّ على نسبة الحوادث والنوازل إلى الدهر، على أن المراد بالدهر: الزمن، أي ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ وهم يسبونه ويذمونه لهذا، فبيَّن سبحانه أنه هو الدهر، فلا يجوز نسبة الحوادث إليه، ويحرم ذمه وسبه، والدهر ليس من أسماء الله الحسنى.

فالله تعالى هو الفاعل، والزمن ظرف لما يقع فيه من النوازل، وفي ذلك دلالة يَعْتبر بها كل من له بصيرة، فيتعظ ويسلِّم بوحدانية الخالق سبحانه، ويستدلُّ بها أهل العقول النافذة والبصائر النيّرة على عظم قدرة الله تعالى وبديع صنعه، كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة المحسوسة، فالعاقل يتأمل ويتدبر ويعتبر، والجاهل في ظلمات وغفلة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران]. وقد خصَّهم الله بالذكر؛ لأنهم المنتفعون بالتأمل والتدبر.

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: خَلْقُ الدَّوَابِّ مِنْ مَاءٍ

٤٥- ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ[٢] كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٥﴾

بعد أن استدلَّ سبحانه على وحدانيته تعالى وقدرته بتسبيح أهل السموات والأرض، ثم بتصريف السحاب وإنزال المطر وتعاقب الليل والنهار، أتبع ذلك بدليل خامس، فيه بيان قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلق جميع ما يَدِبُّ على وجه الأرض، على اختلاف الحركات والسكنات، والأشكال والألوان من ماء واحد، فالحيوانات التي تتوالد، مادتها ماء النطفة حين يُلَقِّحُ الذكر الأنثى، والحيوانات التي تتولد من الأرض كالحشرات، مادتها الرطوبة المائية، فالمادة واحدة، والحلقة مختلفة.

والدابة: اسم لكل حيوان ذي روح، سواء أكان من العقلاء أم من غيرهم، والدابة في عُرْفِ الناس هي ذوات الأربع، والمراد هنا: ما هو أعم من ذلك.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٤٦) و«صحيح البخاري» برقم (٤٨٢٦، ٧٤٩١).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (خالقُ كلِّ) من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله. وقرأ الباقون (خلَقَ كلَّ) فعل ماضٍ، و(كل) مفعول به.

وخلْق كل دابة من ماء يعني: وحدة العنصر الأساس في تركيب الأحياء جميعًا، وهو الماء، فهي ذات أصل واحد، أي: إن الله تعالى خلَق كل دابة من نوع من أنواع الماء يختص بتلك الدابة، أو خلقها من ماء مخصوص هو النطفة، ثم خالف سبحانه بين المخلوقات من هذه النطفة، فمنها هوام، ومنها بهائم، ومنها الإنسان، كما قال تعالى عن الأشجار والثمار: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]. فهي واحدة في أصلها، متعددة في أجناسها وألوانها وأشكالها، وفي هذا دليل على أن لها خالقًا مدبرًا.

وبعض الحيوانات يتولَّد من غير نطفة، وهو ولابد مخلوق من شيء، وهذا الشيء أصله الماء، فكلها متساوية في أصل التكوين، وهو ماء التناسل مع الاختلاف في أحوال أجناسها.

وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. فإن لفظ ﴿ٱلْمَآءِ﴾ في هذه الآية جاء معرَّفًا، إشارة إلى أن أجناس الحيوانات كلها مخلوقة من جنس الماء، وهو جنس واحد اختلفت أنواعه، فالحيوان كله مخلوق في أصوله من نطف.

وتنكير الماء هنا ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ لإرادة نوعية الماء، واختلاف صفاته لكل نوع من الدواب باختلاف النطف.

وليس من بين هذه المخلوقات الملائكة والجن؛ لورود النص بخلق الملائكة من نور، والجن من نار.

والماء هو أصل الخلْق، سواء أكان نطفة أم غيرها، فقد خُلق منه كل شيء يدبُّ على وجه الأرض.

وبعض هذه الدواب تمشي على بطنها: كالزواحف، والحيات، والحيتان، والديدان ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام والوحوش، ومنهم من يزيد على أربع ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مما يعقل، ومما لا يعقل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يتعذر عليه شيء.

قال أبو حيان: قدَّمَ ما هو أظهر في القدرة وأعجب، وهو الماشي بغير آلة من رِجْل وقوائم، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع[١].

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٤٦٦).

وهكذا: فقد أنزل الله المطر على الأرض، وهو لقاح واحد، والأم واحدة، وهي الأرض، والأولاد مختلفوا الأصناف والأوصاف، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]

وقال الفخر الرازي: واعلم أن العقول قاصرة عن الإحاطة بأحوال أصغر الحيوانات على الكمال، والاستدلال بها على الصانع أمر ظاهر؛ لأنه لو كان الأمر بتركيب الطبائع الأربع لكان في الكل على السَّويَّة؛ فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات بأعضائها، وأعمارها، ومقادير أبدانها لابد وأن يكون بتدبير قاهر حكيم، ﷻ عما يقول الجاحدون[1]. قال تعالى:

٤٦- ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾

يخبر سبحانه أنه أنزل في هذا القرآن علامات بيِّنات، ودلائل واضحات، وأمثالًا محكمات، ظاهرات الدلالة على جميع المقاصد الشرعية والآداب المحمودة، كلها ترشد إلى الحق وطريق الاستقامة، وتُبين الهدى من الضلال، والرشد من الغيّ، حتى لا يبقى أدنى شبهة لمبطل أوضال، والله يهدي إلى الإسلام مَنْ عَلِم منه سلامة الفطرة، ومن لم يهتد بتلك الآيات من الضلال فلا هادي له، وقد عمم الله البيان لجميع خلقه، وخصص الهداية بمن يشاء، ممن علم الله منه قبول الهوى فأراده له.

ولما كان المراد بالآيات في الآية السابقة: هو القرآن، قيَّدها سبحانه بأنها ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فهم الذين ينتفعون بالقرآن، وفيه امتنان بها، ولكن هذه الآية ليست في معرض الامتنان، وإنما هي لإقامة الحجة على الكافرين، ولذا لم تُقيَّد بإيمان ولا إسلام.

مِنْ أَحْوَالِ الْمُنَافِقِينَ

٤٧- ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

وبعد أن ذكر سبحانه المؤمنين الذين اهتدَوْا بنور الله، وأتبعهم بذكر الكافرين، وبيَّن

---

(١) «التفسير الكبير» (١٤/ ١٩).

سبحانه أن عملهم كالسراب، وأنهم يتخبَّطون في الظلمات، ذكر ثالثًا المنافقين، وبيَّن أحوالهم، وأنهم ممن لم يهتدوا بهدْي الله تعالى، وكان حظُّهم من الإيمان مجرد القول دون الاعتقاد، فلم يدخل الإيمان في قلوبهم، ويُعرض فريق منهم عن الطاعة إعراضًا عظيمًا، وهذا حال من يدّعى الإيمان وهو لا يقوم بكثير من العبادات التي تشق على النفوس كصلاة الفجر، وإنفاق المال في الواجبات والمستحبات، والجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك.

ومما ورد في **أسباب النزول** أنه كان من بين المنافقين رجل اسمه (بِشْر)، كان بينه وبين يهوديٍّ خُصُومة، فقال اليهودي: نحتكم إلى محمد، وقال المنافق: بل نحتكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي، وأخذ كلٌّ منهما يجرُّ الآخر، فجرَّه اليهودي إلى الرسول ﷺ، وكان الحق لليهودي، فحكَم له الرسول ﷺ فلم يرْضَ المنافق، ورضي اليهودي.

ثم احتكما لعمر ﷺ، فقال اليهودي لعمر: لقد تحاكَمْنا إلى رسول الله ﷺ وحكم إليَّ (لي) فقال له عمر: أيها المنافق، لم تقبل حكم الله ورسوله؟ فقال: نعم، قال: مكانكُما حتى آتيكما، ودخل بيته، فأخرج سيفه، وقتل (بِشْرًا)، وقال: هذا جزاء من يرفُض حكم الله ورسوله.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء].

وفي (بِشْر) المنافق وأمثاله من كل من لم يرضَ بحكم الله ورسوله، نزلت هذه الآيات التي نحن بصددها إلى الآية [٥٤]، وقد ورد أن النبي ﷺ لقَّب (عمر) يومئذ بالفاروق؛ لأنه فرَّق بين الحق والباطل[١].

وقيل: إن أحد المنافقين، واسمه المغيرة بن وائل من بني أمية، تخاصم مع عليٍّ ﷺ في أرض اقتسماها، ثم إن (المغيرة) لم يقبل القسمة التي أخذها، وأراد أن ينقضها، فدعاه (عليٌّ) ﷺ إلى الاحتكام إلى النبي ﷺ، فأبى، وقال: إنه يَبْغضُني، وأنا أخاف أن

(١) هذه رواية ضعيفة، نقلها الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، كما في أسباب النزول للواحدي النيسابوري عند تفسير الآية (٦٠) من سورة النساء، وفيها رفض المنافق لحكم الله ورسوله كما تشير إليه الآية.

يحيف عليَّ، فنزلت هذه الآية فيه وفي أمثاله.

ومعنى الآية: إن المنافقين يقولون بألسنتهم: صدَّقنا بالله تعالى، وبما جاء به الرسول ﷺ وأطعنا أمرهما، ثم بيَّن تعالى أنهم كاذبون في دعواهم؛ حيث تُعرِض طوائف منهم عن حكم رسول الله ﷺ فلا تقبله.

ثم نفى الله عنهم الإيمان جملة وتفصيلًا، ووبَّخهم على أقوالهم التي يكذِّبُها الواقع، فقال: وما أولئك المنافقون بالمؤمنين على الحقيقة؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين حقًّا ما أعرضوا عن حكم الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

ومن شأن هؤلاء المنافقين، أنهم يرفضون حكم الله ورسوله، كما سبق بيانه، قال تعالى:

٤٨- ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ[(١)] بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أي: وهؤلاء المنافقون من صفاتهم أنهم إذا دعاهم داعٍ إلى تحكيم شرع الله فيما يحدُث بينهم من خصومات، إذا فريق كبير منهم يُعرض عن الداعي، ويُسْرع إلى التحاكم إلى غير الله ورسوله، ومن أحكام الجاهلية والقوانين الوضعية المخالفة لشرع الله تعالى، والداعي في الأصل هو رسول الله ﷺ، ولكن الآية ذكرت أن الداعي هو الله ورسوله معًا؛ لأن حكم الرسول ﷺ حُكْم الله عز وجل، لأنه لا يحكم إلا عن وحي من الله، سبحانه، والآية عامة في كل من يدعو إلى تحكيم كتاب الله وسنة رسوله:

قال الحسن: إن الرجل يكون بينه وبين الرجل خُصومة، أو منازعة، على عهد رسول الله ﷺ فإذا دُعي إلى النبي ﷺ وهو مُحِقٌّ أَذْعَن وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق، وإذا أراد أن يَظْلم، فدُعي إلى النبي ﷺ أعرض، وقال: انطلق إلى فلان، فأنزل الله هذه الآية، فقال ﷺ: «**من كان بينه وبين أخيه شيء، فدعاه إلى حَكَمٍ من حُكَّام المسلمين، فلم يُجب؛ فهو ظالم لا حق له**»[(٢)].

---

(١) قرأ أبو جعفر بضم الياء وفتح الكاف من (لِيُحْكَم)، على البناء للمفعول، والباقون بالبناء للفاعل.

(٢) ابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٢٢) وقال ابن كثير (٦/ ٧٤): هذا حديث غريب مرسل.

قال الشيخ محمد الغزالي، رحمه الله: إن رباط الشريعة بالعقيدة وثيق قائم، وفي عصرنا يوجد مارِقُون يريدون أن يجعلوا للشرائع مصدرًا غير الإسلام، وللحكم أسُسًا غير الوحي، وهم ينظرون إلى سورة النور خاصة بضيق شديد؛ لأنها حَرَّمت الزنى، والتبرج، والانحلال، ولذلك شرحت السورة موقف هؤلاء، وبيَّنَتْ براءة الدين منهم، وقد تتبعْتُ موقف هؤلاء الرافضين لحكم الله ورسوله، فوجدتُ جَمْهرتهم لا تحترم لله فريضة، ولا تعرف طريقها إلى مسجد! وهم يتظاهرون بالإسلام، ويشدُّ بعضهم أزر بعض؛ حتى لا يقوم للإسلام حُكْم، وغرضهم القريب والبعيد ألَّا يقوم للإسلام كيان عِبادي، أو خلُقي، وأن تعم العالمين جاهلية حديثة(١).

وفي الآية التالية بيان أن هؤلاء المنافقين إذا كان الحكم في صالحهم، أقبلوا عليه مسرعين عند أي حاكم، قال تعالى.

٤٩- ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

أي: وإن عرف المنافق يقينًا أنه صاحب حق فإنه لا يُعرض عن حكم رسول الله ﷺ، بل يسارع ويبادر إلى النبي ﷺ طائعًا منقادًا لحكمه ﷺ؛ لعلمه أنه على حق، وأنه سيقضي له به، وإن لم يكن على حق في دعواه فإنه لا يأتي إلى الرسول ﷺ حين يُدعى إلى التحاكم إليه؛ لأن المبطل يأبى الحق، وهذا هو مفهوم المخالفة، فهم يُعرضون عن حكم الإسلام إذا كان الحق لغيرهم، ويُقبلون عليه إذا كان الحق لهم؛ لعلمهم أنه سيحكم به.

قال تعالى يلوم المنافقين المعرضين عن حُكم الله ورسوله، ويوبخهم على صنيعهم:

٥٠- ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

يُعقِّب القرآن على تصرفات المنافقين القبيحة، ويتعجب من تردُّدهم وخُلُقِهم الذميم:

١- فهل سبب عدم قبولهم حكم الله ورسوله أنهم مرضى القلوب بالنفاق وضعف الإيمان؟ فصاروا بمنزله المريض الذي يعرض عما ينفعه، ويُقبل على ما يضره.

٢- أم سبب ذلك أنهم يشكون في صدق نبوته ﷺ؟ فاتهموه بأنه لا يحكم بالحق؟

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» سورة النور.

٣- أم سببه أنهم يخافون من وقوع الظلم عليهم، فهم يخافون أن يحكم الله عليهم ورسوله زورًا وجورًا؟

وفي هذا الانتقال والتدرج في أخلاقهم ما يشير إلى أن فريقًا منهم يُظهر الإيمان ويبطن الكفر، وفريقًا آخر آمن إيمانًا ضعيفًا، فهم يَطْعَنون في الحُكْم وفي الحاكم؛ وما ذلك إلا لأنهم غير مؤمنين ﴿بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

والسؤال الأول: لإثبات مرض قلوبهم، وبيان أن حكم الله تعالى في غاية القسط والعدالة والحكمة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]

والسؤال الثاني: للتعجب من حالهم، فهم يَشكُّون في حُكْم رسول الله ﷺ ويدَّعون الإيمان، والإيمان لا يُعتد به حتى يقترن بالعمل، ولهذا نفى الله الإيمان عمن تولى عن الطاعة.

والسؤال الثالث: للإنكار عليهم؛ إذ كيف يخافون من ظلم رسول الله ﷺ لهم؟

قال سبحانه في الإجابة على هذه الحالات الثلاث: ليس الأمر كذلك؛ فالرسول لا يظلم، بل هم الظالمون المنافقون، فلاشك أن قلوبهم قد امتلأت بهذه الأسباب الفاسدة وغيرها، فلا أَشَدُّ ولا أعظم من حرصهم على الظلم، ووضع الأمور في غير نصابها، وقبولهم حكم الطواغيت عن حكم الله ورسوله.

ولما ذكر سبحانه حال المعرضين عن حكم الله ورسوله، ذكر حال المؤمنين فقال:

٥١- ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾

بيَّن جلَّ شأنه في هذه الآية ما يميز المؤمن الحق من المنافق المرائي، فالمؤمن لا يرتاب في حكم الله ورسوله، بل يسمع ويطيع عندما يُدْعى إلى الله ورسوله في الحكم والطاعة والعبادة بدون تردد ولا تباطؤ، سواء أوافق هواه أم خالفه، لاسِيَّمَا في مجال التحاكم في خصوماتهم إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله، ولو كان هؤلاء مؤمنون حقًّا لفعلوا ذلك؛ فإن المسارعين إلى حكم الله ورسوله هم الفائزون بسعادة الدارين، وقد حصر الله الفلاح فيهم، لأنه لا يفلح إلا من حكّم الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله و لما ذكر سبحانه فضل الطاعة في الحكم خاصة، أعقب ذلك ببيان فضل الطاعة عمومًا فقال:

٥٢- ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ[1] فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾

في هذه الآية بيان ما يترتب على طاعة الله والرسول في الأوامر والنواهي، ومخافة عواقب العصيان، والحذر من عذاب الله تعالى، وهو الفوز والفلاح في جنات النعيم.

ويدخل في الطاعة تصديق الأخبار، وامتثال الأوامر.

والخشية هي الخوف المقرون بالمعرفة، ويدخل فيها: اجتناب المنهيات، وكف النفس عن اتباع الهوى.

والتقوى، يدخل فيها فعل المأمورات وترك المنهيات، وعند ما تُقترن بالطاعة تُفسَّر بأن يجعل العبد بينه وبين عذاب الله وقاية، بترك المعاصي.

والذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة الرسول، وخشية الله وتقواه، هم الفائزون بنجاتهم من العذاب وحصولهم على عظيم الثواب، ومن فاته شيء من هذه الأوصاف: الطاعة والخشية والتقوى، يفوته من الفوز بمقدار ما قصّر فيه.

سأل بعض الملوك عن آية واحدة من كتاب الله تكفيه، فقُرئت عليه هذه الآية؛ لأنها آية جامعة لأسباب الفوز والفلاح، وقد جمعت ثلاثة عناصر هي أسباب الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة، وهذه العناصر هي:

أوَّلًا: امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وطاعة الله ورسوله في كل قول وعمل.

ثَانِيًا: خشية الله تعالى والخوف منه من اقتراف كل ذنب، أو تفريط في جنب الله تعالى، أو تعدٍّ على حدوده، وتجاوُز أحكامه وشرعه.

---

(١) في لفظ: (ويتقه) سبع قراءات:

الأولى: قرأ قالون ويعقوب بكسر القاف واختلاس كسرة الهاء.

الثانية: قرأ حفص بإسكان القاف واختلاس كسرة الهاء، ولم يسكن القاف أحد غيره.

الثالثة: قرأ أبو عمرو وشعبة بكسر القاف وإسكان الهاء.

الرابعة: قرأ ورش وابن كثير وخلف عن حمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر القاف وإشباع كسرة الهاء هكذا (ويتقِهي)

الخامسة: قرأ ابن ذكوان وابن جماز بكسر القاف، ولهما في الهاء: اختلاس كسرتها وإشباعها.

السادسة: قرأ خلاد وابن وردان بكسر القاف، ولهما في الهاء: الإسكان والإشباع.

السابعة: قرأ هشام بكسر القاف، وله في الهاء ثلاثة أوجه هي: الاختلاس والإسكان والإشباع. والاختلاس يُعرف بالتلقي والمشافهة؛ حيث تحذف فيه ثلث الحركة.

ثالثًا: تقوى الله تعالى في السر والعلن، والحذَر من مخالفة أمره ونهيه.

وكل من استجمع هذه العناصر فهو من السعداء الناجين من عذاب الله تعالى في الآخرة، وهم الفائزون بمطلوبهم في جنات النعيم.

المُنَافِقُ يَتَسَتَّرُ بِالْيَمِينِ الْكَاذِبَةِ

٥٣- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣)﴾

لما نزلت هذه الآيات جاء المنافقون يحلفون الأيمان المؤكدة، لو أن الرسول ﷺ طلب منهم أن يخرجوا من ديارهم وأموالهم ونسائهم؛ لخرجوا معه، فكيف لا يرضَوْن بحكمه؟ ولو طَلب منهم أن يخرجوا للجهاد لجاهدوا معه، فكذَّبهم الله تعالى في قولهم، وكشف عن مكنون صدورهم، وما تنطوي عليه نفوسهم من المكر والاحتيال، والحلف الكاذب بأغلظ الأيمان الموثقة، أنهم لو أُمروا بالجهاد لسارعوا وبادروا إلى الخروج إليه.

يقول الله سبحانه لرسوله: ﴿قُل﴾ لهم - يا رسولنا - ﴿لَّا تُقْسِمُوا﴾ لتأكيد الكلام، فطاعتكم ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ وقد نبأنا الله من أخباركم، فلا حاجة إلى اعتذاركم، فإنكم معروفون بالتثاقل والكسل، وأحوالكم لا تخفى علينا، فليس هناك من عقيدة صحيحة، ولكنها طاعة باللسان دون القلب، وبالقول دون العمل، والله تعالى يعلم ظواهركم وبواطنكم، وهذا هو شأن المنافقين في كل زمان ومكان، كما أخبر عنهم القرآن الكريم في قوله:

١- ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢)﴾ [المنافقون].

٢- وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

٣- وقوله تعالى عنهم: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤].

٤- وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)﴾ [التوبة].

٥- وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢)﴾ [التوبة].

فاسمعوا واطيعوا حتى لا يحل بكم بأس الله ونقمته، والله خبير بأعمالكم، وسوف يجازيكم على ما قدمت أيديكم، أما الرسول ﷺ فوظيفته أن يأمركم وينهاكم.

وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا

٥٤- ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا[1] فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾

لقَّن الله رسوله أن يُرشد الناس سِيَّمَا المنافقين منهم إلى الطاعة الصادقة، ويقتصروا عليها، وألا يكترث بأقوالهم ومواعيدهم الكاذبة، فإن أعرضوا ولم يطيعوا فعلى الرسول ما أُمر به من تبليغ الرسالة التي حَمَّله الله إياها، وقد أداها، وعلى الناس فِعْلُ ما كُلِّفوه، وما حُمِّلوه من تبعة التكليف والامتثال، وعليهم أن يعلموا أنهم بإعراضهم عن دعوة الرسول ﷺ لا يضرون إلا أنفسهم.

ثم أرشدهم سبحانه إلى طريق الفوز والفلاح، فقال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ أي: وإن أطعتموه فيما يأمركم به، وينهاكم عنه، أصبتم الهدى والرشاد.

ومهمة الرسول ﷺ تقتصر على النصح، والبلاغ الواضح، فالذي حُمِّلَه الرسول ﷺ هو التبليغ، وإبلاغ الناس بالرسالة، وبذل الجهد في إنذارهم.

والذي حُمِّله الناس هو السمع، والطاعة، واتباع الحق.

وفي الآية وعيد وتبكيت للمنافقين، وإعلام لهم أنهم لا يضرون بتولِّيهم إلا أنفسَهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران].

وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة].

فالرسول ليس له من الأمر شيء، والذي يحاسبكم ويجازيكم هو الله سبحانه.

في صحيح مسلم وغيره: أن سلمة بن يزيد الجُعْفي سأل رسول الله ﷺ فقال: يا نبي

---

(١) قرأ البزي بتشديد التاء وصلًا من (فإن تولوا) بخلف عنه.

الله، أرأيتَ إنْ قامت علينا أمراء يسألون حقهم ويَمْنعون حقنا، فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم سأله في الثانية أو في الثالثة فجذبه الأشعث بن قيس، فقال رسول الله ﷺ: **«اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حُمِّلوا، وعليكم ما حُمِّلتم»**[(١)].

شَرْطُ التَّمْكِينِ فِي الأَرْضِ

٥٥- ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ[(٢)] ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم[(٣)] مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يختم الله سبحانه هذه الآيات في شأن المنافقين بذكر بشارة وأملٍ للمسلمين، فيه وعد صادق، أن يمكِّن الله لهم دينهم الذي ارتضى لهم، ويجعلهم ماكثين في أرض الله، بأن يورِّثهم الأرض، ويمكِّن لهم فيها، كي يتمكنوا من إقامة شرائعه وإظهار دينه.

وإذا تحقق الشرط وهو الإيمان والعمل الصالح، وإخلاص العبادة لله، وعدم الإشراك به، تحقق المشروط وهو التمكين في الأرض، وإقامة السلطة التامة لهم، وتحقيق الأمن والأمان، والنصر على عدوهم، فيُملِّكهم البلاد، ويجعلهم أهلها، كما جرى في البلاد التي فتحها الإسلام مثل: الشام، والعراق، ومصر، وإيران، والمغرب، فقد سادها الأمن التام، والتمكين الكامل، والوعد قائم إلى يوم الساعة، متى كان الشرط قائمًا من الإيمان والعمل الصالح وعبادة الله وحده.

وهكذا أصحاب رسول الله ﷺ ظلُّوا في مكة خائفين أكثر من عشر سنين، ولما قدموا المدينة أخذوا يحملون السلاح في ليلهم ونهارهم غير آمنين على أنفسهم، فقال أحدهم: متى نضع هذا السلاح ونأمن؟ فأنزل الله هذه الآية، ووعدهم فيها أن يجعلهم خلفاء في الأرض لمن قبلهم حين يقومون بأمر الله فيها، وحينئذ يجعل الله لهم الإسلام دينًا عزيزًا

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٨٤٦) والترمذي (٢١٩٩) وابن أبي شيبة (١٥/ ٨٥).

(٢) قرأ شعبة بالبناء للمجهول في (كما استخلف) و(الذين) نائب فاعل، ويُبدأ (استخلف) بهمزة وصل مضمومة لضم ثالثه، وقرأ الباقون بالبناء للفاعل، و(الذين) مفعول به، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى.

(٣) قرأ ابن كثير وشعبة ويعقوب بإسكان الباء من (وليبْدِلنهم) مع تخفيف الدال، مضارع أبدله، وقرأ الباقون بفتح الباء وتشديد الدال مضارع بدَّل.

مكينًا، ويبدِّل حالهم من الخوف إلى الأمن، إذا عبدوا الله تعالى واستقاموا على طاعته.

عن أبي العالية قال: كان النبي ﷺ، وأصحابه بمكة نحوًا من عشر سنين، يدْعُون إلى دين الله سرًّا وهم خائفون، ثم أُمروا بالهجرة إلى المدينة، فأمرهم الله بالقتال، فكانوا يُمْسُون في السلاح، ويُصْبحون في السلاح، فقال رجل: أما يأتي يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟! قال: فأنزل الله هذه الآية، وأظهر ﷻ دينه، ووضعوا السلاح، وقبض الله نبيه ﷺ، فكانوا آمنين في إمارة أبي بكر، وعمر، وعثمان، حتى وقعوا فيما وقعوا، فأدخل الله عليهم الخوف، واتخذوا الحُجَر والشُّرَط، وغيَّروا فغيَّر الله ما بهم.

هذا: وحالة المسلمين في هذا العصر رديئة، والهزائم المادية والمعنوية تحيط بهم من كل جانب، والحرب ناشبة بينهم وبين غيرهم من قديم، ويريد العدوُّ إسقاط راية الإسلام بكل وسيلة، وقد فتح الله باب الأمل للمسلمين بمثل هذه الآية، إذا حققوا مراد الله تعالى في أرضه.

والتمكين في الأرض وتوطيد المُلْك فيها يحتاج إلى مقدمات طويلة، وجهود مضنية متواصلة، فإن للقيادة والسيادة مؤهلات لابد من تحصيلها.

لقد مكث الرسول ﷺ قُرابة ربع قرن من الزمان حتى هزم الوثنية بعد صراع طويل، وجهاد مرير، لقد تحوَّل رجل واحد إلى أمة قوية بسطتْ سلطانها على العالمين.

إن الوسائل التي نهضت بها هذه الأمة، وقهرتْ بها جبروت العالم، لا يفهمها إلا رجال فقهوا سياسة الدنيا والآخرة، وخرجوا من سلطان الشهوة وحب النفوذ والتملك، وارتفعوا إلى سيرة محمد ﷺ وأصحابه، فآمنوا بالله ورسوله، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وعبدوا الله ولم يشركوا معه أحدًا، وأعدُّوا للعدوِّ كل ما استطاعوا من قوة، فوجَّهوا طاقاتهم إلى التسليح والتصنيع الحربي، ولم يبددوها في سُبُل الهوى والشيطان!

لقد امتنَّ الله على المسلمين الأُوَل فأعزَّهم بعد ضعف، وأمَّنهم بعد خوف، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الأنفال: ٢٦].

فهل نحن أسوأ من هذه الحالة التي وصفها الله في الآية لمن كانوا قبلنا؟

وهل نحن أسوأ حالًا من بني إسرائيل حين كانوا أذلَّاء تحت إمرة فرعون، فوعدهم الله

بنصره واستخلافهم في الأرض في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وقد تحقق لهم هذا، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف].

وقال سبحانه ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص]

ووَعْدُ الله تعالى يتحقق في كل زمان ومكان متى كان الناس أهلًا له، وقد تحقق هذا الوعد في عهد الخلفاء، ففتحوا بلاد الروم والفرس، وأَمِنوا في أوطانهم، ومكَّن الله لهم في الأرض.

وهكذا يمكِّن الله لعباده في كل زمان ومكان إذا تحققت هذه الشروط التي ذكرها الله سبحانه، وممن مكَّن الله لهم في الأرض على مدى التاريخ: يوسف، وداود، وسليمان ﷺ، والنجاشي، وحَمُورابي، والإسكندر ذو القرنين.

عن عدي بن حاتم ﷺ قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطْع السبيل، فقال: «**يا عدِيُّ، هل رأيت الحيرة**»؟ قلت: لم أرها، وقد أُنبئتُ عنها، قال: «**فإن طالت بك حياة لَتَرينَّ الظعينة ترْحلُ من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحدًا إلا الله**».

قلتُ فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَّارُ طيِّئ الذين قد سعَّروا البلاد؟ قال: «**ولئن طالت بك حياة لَتُفتحَنَّ كنوز كسرى بن هرمز**» قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «**كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لَترينَّ الرجل يُخرِج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلبُ من يَقْبله منه فلا يجد أحدًا يَقْبله منه، ولَيلْقينَّ الله أحدَكُم يوم القيامة وليس بينه وبينه تُرجمان، فليقولنَّ: ألم أبعث إليك رسولًا فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أُعطِك مالًا وأَفْضِلُ عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن شماله فلا يرى إلا جهنم**».

قال عدي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد تمرة فبكلمة طيبة»**.

قال عدي: فرأيت الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنتُ فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترُونَّ ما قال أبو القاسم ﷺ يُخْرِجُ ملْء كَفِّه)[1].

وفي الآية دليل على صحة خلافة أبي بكر الصديق والخلفاء الراشدين الثلاثة من بعده؛ لأن الفتوحات العظيمة كانت في زمانهم، فقد تم لهم فتح كنوز كسرى وقيصر وغيرهما من الملوك، وحصَل الأمن والتمكين وظهور الدين، ودامت هذه الخلافة ثلاثين عامًا، وكانوا مؤمنين عاملين للصالحات، ثم صارت بعد ذلك ملكًا عضوضًا.

فمن **أسباب نزول هذه الآية** أن المنافقين كانوا يُظهرون الإسلام خوفًا من ظهوره، وخوفًا من التمكين له في الأرض، وكانوا يبطنون الكفر إبقاء على مودة المشركين، وتَحسُّبًا لظهورهم على المسلمين؛ حتى لا يقال لهم: إنهم بدَّلوا دينهم، فكانوا يخشوْن ألَّا يتم الأمر للمسلمين، وألا يستقر المقام لهم بالمدينة، فيخرجهم المشركون منها حين يجدون الفرصة سانحة لذلك، كما حكى القرآن الكريم عن عبد الله بن أبيٍّ قوله: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

فكانت هذه الأحوال سببًا لنزول الآية، بما اشتملت عليه من وعْد المسلمين بإظهار دينهم، واستخلافهم في الأرض، وتبديل خوفهم أمنًا.

لقد كان المسلمون واثقين بالأمن، ولكن الله تعالى قدَّم على هذا الأمن وعْدَهم بالاستخلاف في الأرض، وظهور الدين، وتمكينهم منه، تنبيهًا على أن سُنَّة الله تعالى تقتضي ألَّا تأمن أمة بأس أمة، حتى تكون هذه الأمة قوية مُهابة مهيمنة على أصقاعها.

وفي هذا الوعد إشارة إلى أنه لابد من بذل أسباب النصر؛ لضمان التوفيق والنجاح والتمكين في الأرض، وأن أساس ذلك هو طاعة الله والرسول ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾

---

(١) رواه البخاري برقم (١٤١٣، ٣٥٩٥) وأخرجه مسلم مختصرًا برقم (١٠١٦)، وهو في مشكاة المصابيح برقم (٢٨٥٧).

أي: تُنصَروا على عدوكم، وتأمنوا على أنفسكم، وتهتدوا في أنفسكم، وإذا حلَّ الاهتداء في النفوس نشأت عنه الأعمال الصالحة، وأقبلت مسبباتها تنهال على الأمة، فأسباب النصر على العدوِّ هي الإيمان والعمل الصالح، وإخلاص العمل والعبادة لله وحده لا شريك له.

كما في حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: **«يا معاذ»**، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك -وكررها ثلاثًا- ثم قال ﷺ: **«هل تدري ما حق الله على العباد»**؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، قال: فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك»**؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإن حق العباد على الله ألَّا يعذبهم»**[(١)].

وبهذه العبادة الخالصة لله تعالى، مع الأخذ بأسباب النصر المادية نصَر الله سلَف هذه الأمة.

عن سَفِينَة، مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الخلافة ثلاثون عامًا، ثم يكون بعد ذلك الملك»**[(٢)].

ثم قال: أَمْسِكْ: خلافة أبي بكر سنتان، وخلافة عمر عشر سنين، وخلافة عثمان اثنتا عشرة سنة، وعليٍّ ستٌّ[(٣)].

وفي رواية: إن خلافة أبي بكر كانت سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر كانت عشر سنين وستة أشهر، وخلافة عثمان كانت اثنتي عشرة سنة، وخلافة عليٍّ أربع سنين وتسعة أشهر، فعلى هذا تكون مدة خلافة الأئمة الأربعة تسعًا وعشرين سنة وستة أشهر، وكَمُلَت ثلاثين سنة بخلافة الحسن ﷺ؛ حيث كانت ستة أشهر[(٤)]:

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٩٦٧) و«صحيح مسلم» (٣٠). وعند عبد بن حميد (١١٩٩) وأبي يعلى (٣٢٢٨) والبغوي في شرح السنة (٤٩) و «المسند» (٥/ ٢٤٢) برقم (١٣٧٤٢) من حديث طويل.

(٢) ينظر: «المسند» (٥/ ٢٢٠) برقم (٢١٩١٩، ٢١٩٢٣، ٢١٩٢٨) نحوه، بإسناد حسن ورجال ثقات (محققوه) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٨١٥٥) وابن أبي عاصم في السنة (١١٨١) والبزار في مسنده (٣٨٢٨) والسلسلة الصحيحة (٤٥٩، ١٥٣٤، ١٥٣٥).

(٣) يُنظَر: أبو داود برقم (٤٦٤٦) وصحيح أبي داود (٣٨٨٢، ٣٨٨٣) والحاكم (٣/ ١٤٥) وابن حبان (٦٦٥٧) الإحسان.

(٤) يُنظَر: الترمذي برقم (٢٢٣٦) و«صحيح الترمذي» برقم (١٨١٣) و«الجامع الصغير» (٤١٤٧).

١- ولم يمت النبي ﷺ حتى فتح الله عليه مكة، وخيبر، والبحرين (الأحساء)، وسائر جزيرة العرب، وأرض اليمن بكاملها، وأَخَذ الجزية من مجوس هَجَر، ومن بعض أطراف الشام، وأهداه ملوك الروم ومصر والإسكندرية وعُمان والحبشة هدايا؛ ليُصالحوه بها.

٢- ثم بعث أبو بكر خالدَ بن الوليد إلى فارس، وأبا عبيدة إلى الشام، وعمرو بن العاص إلى فلسطين، وفُتِح في عهده طرَفٌ من بلاد فارس، وفتحت بُصرى ودمشق وغيرهما.

٣- وتم في خلافة عمر الفاروق فتح البلاد الشامية والمصرية بتمامها، وأكثر بلاد فارس، وأذلَّ الله كسرى وقيصر.

٤- وفي خلافة عثمان امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففُتِحت بلاد المغرب والأندلس، وقبرص والقيْروان وبلاد سبْتة مما يلي البحر المتوسط إلى أقصى بلاد الصين في المشرق، وفُتحت مدائن العراق، وخراسان، والأهواز، وغيرها.

جاء في الحديث: عن ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله تعالى زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها»**[1].

وعن جابر بن سمرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يزال أمر الناس ماضيًا ما وليهم اثنا عشر رجلًا»** قال جابر: ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيتْ عني، فسألت أبي: ماذا قال رسول الله ﷺ؟ فقال: **«كلهم من قريش»**[2].

وليس المراد بهؤلاء الأئمة: أئمة الشيعة الاثنى عشر، بل يكونون متتابعين ومتفرقين، وَوُجد منهم أربعة متوالون هم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وَوُجد غيرهم، وقد يوجد منهم آخرون، ومنهم المهدي الذي يطابق اسمُه اسمَ الرسول ﷺ وكنيتُه كنيتَه، وهم يملؤون الأرض قسطًا وعدلًا، كما مُلِئتْ جورًا وظلمًا[3].

هذا وقد وعد الله المؤمنين العاملين للصالحات في هذه الآية **ثلاثة وُعود:**

الوعد الأول: الاستخلاف في الأرض، بأن يجعلهم سبحانه خلفاء في الأرض، يخلف

(١) من حديث ثوبان في «صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٩).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٨٢١) والبخاري برقم (٧٢٢٢).

(٣) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» للآية (٦/ ٧٧).

بعضهم بعضًا فيها ويسْكُنوها ويعمِّروها، ويكونوا أهلها، ويقيموا منهج الله فيها، كما جعل عباده الصالحين قبلهم خلفاء لغيرهم، فأورثهم أرض الكفار وديارهم وأموالهم، وجعلهم خلفاء من قبلهم.

الوعد الثاني: أن يجعل الله دين الإسلام الذي ارتضاه لهم ثابتًا في قلوبهم، راسخًا في نفوسهم، باسطًا سلطانه على أعدائهم، له الكلمة العليا، ولمخالفيه الكلمة السفلى.

الوعد الثالث: يبدِّل الله خوفهم الذي كانوا يعيشون فيه أمنًا وطُمأنينة، وراحةَ بال، وهدوءًا في الحال.

ثم بيَّن سبحانه الطريق إلى تحقيق هذه الوعود الثلاثة، وهو أن يعبدوا الله تعالى عبادة خالصة لا يشوبها شك، ولا رياء، ولا نفاق، وألا يشركوا معه غيره -كائنًا من كان- في طاعته وعبادته، وحكمه ومنهجه.

عن أُبيٍّ بن كعب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «**بَشِّر هذه الأمة بالسَّنا، والرفْعة، والدين، والنصر، والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب**»[1].

هذا هو وعد الله لعباده الذين أخلصوا له الطاعة والعبادة، وامتثلوا أمر الله تعالى، واجتنبوا نهيه، أما من انحرف عن طريق الحق، وجحد نعمة الله تعالى، واستعمل هذه النعم في غير ما خُلِقت له، فهم الجاحدون لأنعم الله عليهم، الخارجون على أمر الله ونهيه، وليسوا أهلًا للخير ولا للاستخلاف والتمكين في الأرض.

٥٦- ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

ولما أمر الله عباده بالطاعة، بيَّن لهم أهم أركان العبادة، فأمرهم في هذه الآية **بثلاثة أشياء**، هي:

١- المواظبة على أداء الصلاة في أوقاتها بشروطها وأركانها وسننها وواجباتها.

---

(١) «المسند» (٣٥/ ١٤٤) برقم (٢١٢٢٠) قال محققوه: إسناده قوي. وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٣١٨)، وفي الشعب (٦٨٣٤) والحاكم (٤/ ٣١١) والبغوي في شرح السنة (٤١٤٥).

٢- إعطاء الزكاة لمستحقيها مما استخلفهم الله فيه من أموال وغيرها.

وفي هاتين العبادتين قيام بحق الله تعالى وحقوق العباد.

٣- طاعة الرسول ﷺ فيما أمر ونهى، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

ثم رتَّب سبحانه على هذه الثلاثة حصول ما وعدهم الله به من الرحمة، ومنها الأمن في الدنيا، والدرجات العلا في الآخرة، وقد جمعت هذه الآية جميع الأعمال الصالحة، فمن أرادها فهذا طريقها، ومن أرادها بدون هذه الثلاث، فهو يُمنِّي نفسه بالأماني الكاذبة.

٥٧- ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

ثم ثبَّت الله المؤمنين، وهوَّن من شأن عدوهم في هذه الآية؛ لكيلا يرهبوا قُوَّتهم، فلا تظن -أيها المسلم- أن الكفار مهما كان لديهم من قوة أنهم غالبون، أو أن الله تعالى يُعجزه إهلاكهم في الدنيا، فضلًا عن المصير المحتوم لهم في الآخرة، إنهم في قبضة الله تعالى وتحت تصرفه، فإن الله تعالى قادر على إهلاكهم، ومرجعهم في الآخرة إلى النار، وقَبُح هذا المرجع والمصير.

فلا تغتر - أيها المسلم - بما مُتِّع به غير المسلمين في الدنيا، فإن الله تعالى وإن أمهلم فإنه لا يهملهم قال تعالى ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

آدَابُ اسْتِئْذَانِ الأَطْفَالِ وَالْخَدَمِ دَاخِلَ الْبَيْتِ

٥٨- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ[1] مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

عادت السورة لأحكام الاستئذان السابق ذكرها في الآية السابعة والعشرين من هذه السورة، فشرعت الاستئذان لأتباع العائلة، ممن هم شديدو الاختلاط بالبيت، بعد أن

---

(١) قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف بنصب (ثلاث) الثانية على أنه بدل من (ثلاث مرات) الأولى، وقرأ الباقون بالرفع، على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي، أي: الأوقات السابقة عورات لكم.

قُطع الحديث عن أحكام التشريع في السورة من الآية الرابعة والثلاثين إلى هنا.

فذكر سبحانه في هذه الآية حكم استئذان الأقارب والمملوكين، بعد أن ذكر حكم استئذان الأجانب فيما سبق، فأمر المؤمنين أن يستأذنهم مماليكم والذين لم يبلغوا سن الحلم من الأطفال في أوقات ثلاث: قبل الفجر، وفي وقت القيلولة، وبعد صلاة العشاء، فهي عورات ثلاث.

والإسلام ينظم حياة المسلمين في جميع مراحلها، وأطوار حياتها، ومن ذلك ما ذكرتْه سورة النور من أحكام الاستئذان لمن أراد دخول بيت غيره، ومن آداب الاستئذان داخل البيت بين الخدم والأطفال، الذين لم يبلغوا سن الحلم وبين ذويهم، وتحدثت قرب نهايتها عن أحكام وآداب الاستئذان عند إرادة الخروج من مجلس النبي ﷺ في حياته، أو الخروج من مجلس العلم والدعوة، والأمور العامة بعد مماته صلوات الله وسلامه عليه.

سبب النزول:

ومما جاء في أسباب النزول: أن النبي ﷺ أرسل في وقت الظهيرة غلامًا يقال له: مُدْلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه؛ ليأتي به، فدخل الغلام على عمر وكان نائمًا، فلما استيقظ من نومه انكشف منه شيء، وكره عمر ذلك، فقال: وددت لو أن الله تعالى منع غلماننا وخدَمنا من الدخول علينا في مثل هذه الساعة، فلما وصل عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ وجد الآية الخاصة بهذا الأمر قد نزلت على رسول الله ﷺ وهي هذه الآية فخر ساجدًا لله تعالى[1].

وعن مقاتل بن حيان أن رجلًا من الأنصار وامرأته أسماء بنت مُرْشِدة صنَعا طعامًا للنبي ﷺ، فجعل الناس يدخلون بغير إذن، فقالت: ما أقبح هذا! وكان لها غلام كبير، فدخل عليها في وقت كرهتْ دخوله عليها فيه، فأتت النبي ﷺ وقالت: يا رسول الله، إن غِلْماننا وخدَمنا يدخلون علينا في حالة نكرهها؛ فأنزل الله تعالى هذه الآيات[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾. يعني: من العبيد والإماء، ذكورًا وإناثًا، وفي معنى ذلك الخدم والحشم، وكل مَنْ هُم داخل البيت، وليستأذنكم أيضًا

---

(١) يُنظَر هذا المعنى في: «زاد المسير» (٦/ ٦٠) و«تفسير الألوسي» (١٨/ ٢١٠).

(٢) يُنظَر: النيسابوري (٢٧٦) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٢٣) وابن كثير (٦/ ٨٣).

الذين لم يبلغوا الحلم منكم، وهم الصبية من أبنائكم وبناتكم الذين لم يصلوا إلى سن البلوغ، وهو خمسة عشر عامًا للذكَر، وتسع سنوات للأنثى، أو الاحتلام للذكَر، ونزول الحيض للأنثى، يستأذنون حين إرادة الدخول على آبائهم وأمهاتهم في هذه **الأوقات الثلاثة**، وهي:

١- من قبل صلاة الفجر، حين يتهيأ المسلم وينتبه لأداء الصلاة، ويخلع ملابس النوم الرقيقة وغير الساترة غالبًا.

٢- وفي وقت الظهيرة، حين تضعون ثيابكم للراحة والاسترخاء، وتلبسون ما هو دونها في الستر والحشمة في وقت القيلولة.

٣- ومن بعد صلاة العشاء، حين يأوي المسلم إلى فراشه، ويخلع ملابس اليقظة، ويرتدي ملابس النوم؛ حيث يكون فيها ملازمة الراحة في المضاجع.

﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ أي: أن هذه الأوقات الثلاثة هي التي تتكشف فيها عورة المسلم، فأوجب الإسلام على الأطفال الذين لم يبلغوا سن الحلم، وعلى مَن هُم داخل البيت من الخدم وغيرهم ألَّا يدخلوا على مَنْ في البيت من الرجال والنساء في هذه الأوقات إلا بإذن:

(أ) عن ابن عباس ﷺ قال: إذا خلا الرجل بأهله بعد العشاء، فلا يدخل عليه خادم ولا صبي إلا بإذنه، حتى يصلي الغداة -أي الفجر- وإذا خلا بأهله عند الظهيرة فمثل ذلك.

ورُخِّص لهم في الدخول بين ذلك، فأما من بلغ الحلُم، فإنه لا يدخل على الرجل وأهله إلا بإذن على كل حال[1].

(ب) وعن عكرمة، عن ابن عباس ﷺ أن رجلين سألاه عن الاستئذان في العورات الثلاث التي أمر الله بها في القرآن، فقال ابن عباس: إن الله سِتِّير يحب الستر، وكان الناس ليست لهم ستور على أبوابهم، ولا حجاب في بيوتهم، فربما فاجأ الرجلَ خادمُه أو ولدُه، أو يتيمُه في حجْرِه وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سَمَّى الله، ثم جاء الله بعدُ بالسُّتُور، وبسط عليهم في الرزق، فاتخذوا السُّتُور،

---

(١) يُنظَر: ابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٣٤) والبيهقي (٧/ ٩٦).

واتخذوا الحجاب، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أُمروا به[١] بمعنى: أنه يلزم على الرجل والمرأة قَفْل الباب والنوافذ عليهما، فيتعيَّن على من أرادهما أن يطرق عليهما الباب، وإلا كانا آثمين.

(ج) وعن عطاء أن رجلًا سأل ابن عباس ﷺ: أأستأذن على أختي؟ قال: نعم، قال: إنها في حجْري، وإني أُنفق عليها، وإنها معي في البيت، أستأذن عليها؟ قال: نعم[٢].

(د) وعن عطاء بن يسار أن رجلًا قال: يا رسول الله، أستأذن على أمي؟ قال: **«نعم»**، قال: إني معها في البيت، قال: **«استأذن عليها»**، قال: إني خادمها، أفأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: **«أتحب أن تراها عريانة»**؟ قال: لا، قال: **«فاستأذن عليها»**[٣].

والإسلام يعلمنا أن المسلم من شأنه أن ينام بعد العشاء، وأن يستيقظ قبل صلاة الفجر، وليس من شأنه أن يبدد طاقته في السهر، وأن يكون مهتمًّا بوقت العمل، ومُصِرًّا على ترك صلاة الفجر، وإنما ينام بعد العشاء، ويستيقظ عند صلاة الفجر، ويُكرَه السهر إلا لحاجة، وليس منها متابعة الأفلام والتمثيليات، ونحوها.

قال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: ليس على الأطفال، ولا على الخدم، ولا عليكم إثم ولا حرج بعد هذه الأوقات الثلاثة، أن يدخل بعضكم على بعض بغير استئذان، يطوفون عليكم في الخدمة وغيرها.

عن سعيد بن جبير أن ابن عباس ﷺ قال: ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

---

(١) يُنظَر: أبو داود (٥١٩٢) وابن أبي حاتم برقم (٧٨٧) والبيهقي (٧/ ٩٧) و«صحيح سنن أبي داود» (٤٣٢٤). بإسناد حسن موقوف على ابن عباس.

(٢) «صحيح الأدب المفرد» (٨١١).

(٣) «تفسير الطبري» (١٧/ ٢٤٤) والبيهقي (٧/ ٩٧). وهو في تحفة الأحوذي بأسانيد صحيحة (٤٦٧٤) ج٣ وفي الموطأ برقم (٢٠٢٨) من رواية أبي مصعب الزهري المدني.

قلت: إن ابن عباس ﷺ أصاب كبد الحقيقة، في أن الناس غالبًا لا يعملون بهذه الآيات، فإن أهل البيت لا يتحفظون من دخول الأطفال عليهم قبل سن الحلُم، وكذا الخدم والحشم فيما عدا وقت الجماع بين الزوجين، ووقت قضاء الحاجة، وفيما عدا ذلك قد تلْبس سيدة البيت ما هو قريب من العُري، وتتزين غاية التزين أمام أبنائها وبناتها البالغين والبالغات، فضلًا عن الأطفال والخدم، رجالًا ونساء!! وهذا من الخطأ البيّن.

وقد يُظهر الأب ساقيه وفخذيه، وصدره وذراعيه، ويُجسِّد عورته أمام الجميع، وفي هذا قدوة سيئة، وتفتيح للنزوات والشهوات.

ولم أر أهل الميراث يطيِّبون خاطر الأقارب من غير الورثة، كاليتامى والمساكين، بشيء من ميراث الْمُتَوَفَّى كما تشير آية سورة النساء [٨]، لكان خيرا لهم بل يتكالبون على التركة، ويودُّ كلٌّ منهم أن يحظى منها بنصيب الأسد.

أما قدْرُ الناس وقيمتُهم في نظر غيرهم، كما أشارت آية سورة الحجرات [١٣]- فهو المنصب، والمال، والجاه، والمؤهل، والعائلة، وكذا المظهر في الملبس، والمسكن والمركب. . .، ومقياس التقوى والصلاح لا يُقدَّر إلا بين أهله.

والحكمة من تعيين الاستئذان في هذه الأوقات الثلاثة؛ أنها أوقات خلوة للرجال والنساء، وأوقات التخفُّف من الثياب، وهي أوقات نوم.

وما بعد صلاة العشاء يستغرق الليل كله حتى الاستيقاظ إلى صلاة الفجر.

والأمر باستئذان الخدم والعبيد ذكورًا وإناثًا على أهل البيت، يقتضي أمر أهل البيت بالاستئذان في الدخول على هؤلاء الخدم في تلك الأوقات أيضًا، كما قال تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾. وقال: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

والعادة جرت بأن أهل البيت يستدْعونهم عند الحاجة إليهم دون العكس، ولذا وُجِّه الخطاب إلى الأبناء، والخدم، والعبيد، ولم يوجَّه إلى أهل البيت، ولأن أهل البيت هم الذين يُعلِّمون أتباعهم، ويؤدبونهم، وهو لا يمنع أن الحكم سواء.

فيأيها الذين صدَّقوا الله، واتبعوا رسوله، مروا أطفالكم وخدَمكم أن يستأذنوا عند الدخول عليكم في أوقات العورات؛ حيث يقل التستر والاحتشام، أما فيما عداها فلا

حرج إذا دخلوا عليكم للخدمة ونحوها بغير إذن.

ولعل هذه الآية تكون مخصصة لعموم قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾، في الآية الحادية والثلاثين من هذه السورة، من حيث إبداء زينة المرأة الخفية لهؤلاء الأصناف الثلاثة.

وسبب نزول الآية يوضح ذلك، وكما بيَّن الله أحكام الاستئذان يبيِّن آياته وأحكامه، وحججه وشرائع دينه، وهو سبحانه عليم بما يصلح شؤون العباد، حكيم في تشريعه لهم، وتدبير أمورهم، وبهذا يجمع الإسلام بين التستر والاحتشام والتأدب بآدابه القويمة، وبين السماحة ورفع الحرج والمشقة.

الْأَبْنَاءُ كَالْأَجَانِبِ فِي الِاسْتِئْذَانِ عَلَى آبَائِهِمْ إِذَا بَلَغُوا سِنَّ الْحُلُمِ

٥٩- ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

فإذا بلغ الأطفال الذين هم داخل البيت من الأبناء، الذكور والإناث، سن الحُلُم، ووصلوا إلى سن التكليف، فليستأذنوا في جميع الأوقات إذا أرادوا الدخول على آبائهم، كما استأذن الكبار من الأجانب الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [٢٧].وذلك بأن يعلِّمهم آباؤهم تغيير هذه العادة التي اعتادوها وهم صغار، فيُفطَموا عن تلك العادة، كما فُطِمُوا عن ثَدْي الأم مَن قبْل، ويبيِّن لهم أنهم قد بلغوا سنًّا توجب ذلك.

قال ابن مسعود ﷺ: عليكم أن تستأذنوا على آبائكم وأمهاتكم وإخوانكم.

وقال سعيد بن المسيب: يستأذن الرجل على أمه؛ فإنما أنزلت هذه الآية في ذلك.

وسئل حذيفة ﷺ: أيستأذن الرجل على والدته؟ قال: نعم، إن لم تفعل رأيتَ منها ما تكره.

فوجب على الأبناء إذا بلغوا سن الحلم أن يستأذنوا في الدخول على آبائهم، كما هو حال الإناث والرجال الأجانب، والله سبحانه عليم بدخائل نفوس خلقه، وعليم بما يصلحها ويهذبها، وهو سبحانه حكيم في كل ما يشرعه لخلقه من أحكام.

وهكذا يؤدب الإسلام أبناءه صغارًا، وكبارًا، أقرباء وأجانب، ذكورًا وإناثًا، ويعلِّمهم الحياء والعفاف، وترك كل ما يجرح الشعور.

ويؤخذ من هاتين الآيتين: أن أولياء الأمور عليهم تعليم مَنْ هم تحت أيديهم تعاليم الشرع وآدابه، وأنه يجب حفظ العورات، ويجوز كشفها عند الحاجة المشروعة، ولا يجوز للصغير أن يطلع على العورة ولا المملوك.

حُكْمُ الْقَوَاعِدِ مِنَ النِّسَاءِ فِي إِبْدَاءِ الزِّينَةِ

٦٠- ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

وبعد أن أمر سبحانه بالاستئذان في الأوقات التي يضع فيها الرجال والنساء ثيابهم العادية عن أجسادهم، استثنى من عموم النساء: العجائز اللاتي بلغْنَ سن اليأس، وقعدْن عن التصرف، وعن الولادة والحيض، فرخَّص الإسلام لهن ألا يضربن بخمُرهن على جيوبهن، استثناء من قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [٣١]، واستثناء من قوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. كما قال ابن مسعود، وابن عباس ﷺ: الثياب: الجلباب، أي: الرداء الخارجي، والمقْنعة التي فوق الخمار.

والكلام معطوف على وضع الثياب عن لابسها؛ وذلك لأن رغبة الرجال تقلُّ بالنسبة للقواعد من النساء؛ لكبر السن، فلا حرج عليهن في خلع الثياب الظاهرة، غير قاصدات للتبرج، وكشْف ما أمر الله بستره.

وكما ذكرت سورة النور أحكام النساء في إظهار الزينة الظاهرة للأجانب، وإظهار الزينة الخفية للمحارم، فإنها تحدثت هنا عن أن المرأة التي بلغت سن اليأس، وانقطع عنها الحيض، ولم يبقَ لها في الرجال مأرب، ولا للرجال فيها مأرب، فهي لا تطمع في الزواج، ولا يطمع أحد في الزواج منها؛ فقد انقطع حيضها، وبلغت سن اليأس، وقلَّت الشهوة فيها، وأصبحت عجوزًا لا تُشتهى، فلا حرج عليها حينئذ من وضع الثياب الظاهرة، كالرداء، والعباءة، والخمار، والقناع، وأن تتخفف من ملابسها داخل بيتها، بحيث لا

يظهر شيء من عورتها ولا زينتها الخفية، فلا ترتدي ملابس فاتنة، ولا لافتة للأنظار، ولا تتزين وتتجمل بوضع أدوات الزينة ونحوها بما يلفت الانتباه لها، ولا تبدي ذهبها إن كان في معصمها وجيدها ونحوه، وهذا معنى ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٍ﴾ أي غير مظهرات للناس زينة، كالتجمل بثياب ظاهرة مع ستر وجهها، أو ضرب الأرض برجلها وهي تلبس كعب عالي مدبّب بحديدة ونحو ذلك فتلفت الأنظار إليها قال سبحانه: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ بعدم خلع ملابسهن الظاهرة ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ من إبدائها.

فإن كانت في المرأة بقية من جمال وهي في سن الخمسين ونحو ذلك، فإنها لا تدخل في حكم هذه الآية؛ لأنها تخص اللاتي قعدْن في البيوت، ولم تعُد لهن رغبة في الرجال، وذلك لأن المرأة من شأنها أن تُخفي زينتها إلا عن زوجها، فإذا أظهرت زينتها فكأنها تستجلب الرجال، وتثير رغبتهم فيها، وهذا يخالف أحكام الشرع، سِيَّمَا إن كانت المرأة بعد الخمسين من عمرها، فهذا لا يتناسب مع سنها، وقد يَرْغَب فيها بعض أهل الشهوات لما فيها من التبرج بالزينة، وإبراز محاسنها بما يُشغِل عن عيوبها.

وقد سئلت عائشة ﵂ عن الخضاب، والصباغ، والقُرْطَين، والخلخال، وخاتم الذهب، ورقاق الثوب، فقالت: أحلَّ الله لكُنَّ الزينة غير متبرجات، لمن لا يحلُّ لهم أن يرَوْا منكنَّ مُحَرَّمًا، فيكون التبرج بظهور ما كان يحجبه الثوب المطروح عنها.

وفي الموطأ: دخلتْ حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر على عائشة أم المؤمنين - رضي الله عن الجميع- وعلى حفصة خمار رقيق، فشقَّتْه عائشة، وكستْها خمارًا كثيفًا، أي: شقَّته لئلَّا تختمر به فيما بعد؛ لرقته.

فإذا خرجت المرأة العجوز من بيتها فلا يحل لها ترك جلبابها الظاهر، ولا يجوز للعجائز إظهار شُعُورهن، ولا نُحُورهن، ولا سُوقهن، ولا أذرعهن للأجانب، فقد حدَّد ابن عباس معنى الآية في قوله عن القواعد: هي المرأة لا جناح عليها أن تجلس في بيتها بدرْع وخمار، وتضع عنها الجلباب، ما لم تتبرَّج لما يكرهه الله(١).

---

(١) ابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٤١) والبيهقي (٧/ ٩٣) وأخرجه الطبري بسند حسن عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس.

وقال عاصم الأحول: دخلتُ على حفصة بنت سيرين، وقد ألقتْ عليها ثيابها، فقلتُ: يقول الله: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ قالت: اقرأ ما بعده ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ وهو ثياب الجلباب[1].

أي: ثياب الخروج. والاستعفاف: طلب العفة بفعل الأسباب المقتضية لذلك، من تزوُّج، وترك ما فيه فتنة، والله أعلم بالنيات والمقاصد، فلتحذر كل مسلمة من كل قول وقصد فاسد، وتعلم أن الله تعالى مجازيها عليه.

رَفْعُ الْحَرَجِ فِي الأَكْلِ مِنْ بُيُوتِ الآخَرِينَ

٦١- ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ[2] أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ[3] أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

هذه الآية ترفع الحرج عن العجزة، والمرضى بأمراض مزمنة كالأعمى والأعرج، وسائر أصحاب العاهات، ومن لا يُرجى برؤهم من المرضى، وهم فقراء لا يجدون شيئًا، ولا يستطيعون العمل والكسب بوجه من الوجوه، فلا حرج عليهم في دخول بيوت الناس بدون دعوة للأكل منها، وملء بطونهم.

وكان الناس قبل البعثة يتحرجون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يرى الطعام، فربما سبقه غيره إلى الطيب منه، ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه،

---

(١) البيهقي (٧/ ٩٣).

(٢) قرأ قالون وابن كثير وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف بكسر الباء في لفظ (بِيوتكم) ولفظ (بِيوت)، والباقون بضمها.

(٣) قرأ حمزة بكسر الهمزة والميم وصلًا من (أمهاتكم) وقرأ الكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم، والباقون بضم الهمزة وفتح الميم.

والمريض لا يستوفى حقه من الطعام كغيره، فكرهوا أن يأكلوا معهم لئلا يظلموهم[١].

هذا: ويدخل في رفع الحرج: ترك الأمور الواجبة، كالجهاد ونحوه مما يتوقف على بصر الأعمى، وسلامة الأعرج، وصحة المريض.

هذا هو معنى الشق الأول من الآية ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ ويوضح هذا المعنى عطف رفع الحرج عن الأصناف الاثني عشر المذكورين في بقية الآية بعدها، بأن يأكل كلٌ منهم من بيت غيره، سواء دُعي إلى تناول الطعام أم لا.

أما الشق الآخر من الآية، فهو يبين أن الأكل يكون بعد الاستئذان في دخول بيوت الآخرين بمقتضى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [٢٧]. فإذا دخل الإنسان المنزل بالوجه المباح له، صحَّ له بعد ذلك الأكل فيه.

أما أكل أموال الناس بالباطل وهو ما يكون عن طريق السرقة، أو الرشوة، أو القمار، أو الغش، أو الخداع، أو التعدي ونحو ذلك، فلا علاقة له بالآية، والمقطع الأول منها يشبه آية سورة الفتح [١٧]،وآيتي سورة التوبة [٩١،٩٢]؛ إلا أن المقام فيهما يتناول الحديث عن الجهاد والغزو في سبيل الله، فلا جناح عليهم في التخلف عنه لعذرهم.

أما في هذه الآية فهو يتعلق بالاستئذان في دخول بيوت الناس للأكل فيها، وعلى هذا فالمعنى متصل بقوله تعالى بعدها: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ﴾ أي: لا حرج عليكم كذلك في أن تأكلوا من بيوتكم... إلخ.

أي: كما رخَّص الله للأعمى والأعرج، والمريض والزمْنى والعجزة في عدم الاستئذان في الزيارة للأكل من بيوت الآخرين؛ لعدم استطاعتهم التكسب، ولفقرهم وحاجتهم إلى الطعام، فإنه سبحانه رخَّص لكم كذلك أن تأكلوا عند كل من جاء ذكرهم في الآية.

وعلى هذا فقد جاءت هذه الآية عطفًا على أحكام الاستئذان، ورفعًا للحرج عند دخول البيوت، سواء أكان الدخول للزيارة والمودة، أم كان لغرض تناول الطعام فيها، بدعوة أو بغير دعوة، فالكل يشترك في رفع الحرج المذكور في الآية، وقد أَذِن الله للأعمى والأعرج والمريض أن يدخلوا بيوت المسلمين ليأكلوا فيها؛ لأنهم محاويج غالبًا، ولا

(١) قال بذلك سعيد بن جبير ومقسم كما في تفسير ابن كثير للآية.

يستطيعون التكسب، والحرج مرفوع عنهم في كل ما تضطرهم إليه أعذارهم، مرفوع عن الأعمى في التكليف الذي يُشترط فيه البصر، وعن الأعرج فيما يُشترط فيه المشي والركوب، وعن المريض فيما يتأثر به ويشق عليه.

وقد أحدث الإسلام في قلوب الناس تغييرًا كبيرًا في نفوسهم وأوضاعهم، وأصبح عندهم حِسٌّ مُرْهَف، فكان أصحاب النبي ﷺ يسألونه عن كل شيء، والإسلام يعلِّمهم كل شيء، حتى إنه ليعلِّمهم كيف يقضي الإنسان حاجته، وكيف يستنجي، وكيف يأتي أهله! وهكذا كل صغيرة وكبيرة، فكانوا يريدون معرفة الحلال والحرام، والجائز وغير الجائز:

١- فلما نزلت هذه الآية قال الصحابة: أفضل الأموال هو الطعام الذي نأكله، فمنه نبت اللحم والعظم، والدم الذي يجري في العروق، والمريض حين نأكل معه لا يستوفي حاجته من الطعام كالصحيح، والأعمى لا يُبصر الطيِّب من الطعام؛ ليتناوله بيده، والأعرج لا يتمكن من الجلوس والمزاحمة، فلا يأخذ حاجته من الطعام كالصحيح، فلا ينبغي لنا أن نأكل مع المرضى وذوي العاهات مخافة أن نظلمهم، أو تمتد أيدينا قَبْلهم إلى ما لهم فيه رغبة، ويكون فيه أكل لأموالهم بالباطل، فتحرَّجوا من ذلك[1].

٢- وأيضًا فإن بعض المسلمين كانوا يخرجون للغزو مع رسول الله ﷺ، وكانوا يتركون مفاتيح بيوتهم مع الأعمى والأعرج والمريض، ويأذنون لهم في أن يأكلوا من بيوتهم، فكانوا مع هذا الإذن يتحرجون أن يأكلوا من بيوتهم.

عن عائشة ﵂ قالت: كان المسلمون يرغبون في النفير مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتيحهم إلى ضُمنَائهم، ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما احتجتم إليه، وكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن نأكل، إنهم أَذِنُوا لنا عن غير طيب نفس، وإنما نحن أمناء، فأنزل الله الآية إلى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾[2].

---

(١) ورد هذا المعنى عن سعيد بن جبير عند ابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٤٣، ٢٦٤٨) وابن جرير (١٧/ ٣١٦) والبيهقي (٧/ ٢٧٤).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» برقم (٨٩٤) و«تفسير الطبري» (١٨/ ١٢٩) وعزاه الهيثمي إلى البزار وقال: رجاله رجال الصحيح، «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٣) وحسن إسناده محقق ابن أبي حاتم، وصححه ابن حجر في «مختصر زوائد البزار» (٣/ ١١٨) وأخرجه عبد بن حميد عن سعيد بن المسيب.

وقال ابن عباس ﷺ: نزلت في الحارث بن عمرو خرج غازيًا مع رسول الله ﷺ وخلَّف مالك بن زيد على أهله، فلما رجع وجده مجهودًا، فسأله عن حاله، فقال: تحرَّجتُ أن آكل من طعامك، فأنزل الله هذه الآية.

٣- وربما كان الفقير من هؤلاء المرضى وذوي العاهات يدخل على الرجل فلا يجد في بيته شيئًا، فيأخذه إلى بيت أبيه، أو أخيه، أو صديقه، ونحو ذلك، فيرى الفقير أن في هذا حرجًا له؛ لأنه قد أخذه إلى بيت غيره، فكيف يأكل من مال غيره؟[1].

٤- وربما كان بعض الأصحاء يتقزَّزُون من الأكل مع المرضى وغيرهم، فأنزل الله سبحانه هذه الآية؛ لرفْع الحرج في هذا كله، مبيِّنًا أن أصحاب العاهات ليس عليهم حرج ولا إثم في أن يأكلوا مع الأصحَّاء، ولا أن يأكل الأصحاء معهم.

وليس هناك من حرج بشكل عام في أن يأكل الإنسان من بيت أقاربه وأصدقائه.

وعدَّد الله سبحانه في هذه الآية اثنى عشر صنفًا من الناس لا حرج ولا إثم عليهم في أن يأكل الإنسان من بيوتهم بغير إذن، إلا إذا علم أنه لا يرضى بذلك، أو أن هذا يضرُّه، فإنه لا ينبغي له أن يأكل من بيت غيره إلا بإذنه.

وقد قدَّم الله سبحانه في الآية رفع الحرج عن أصحاب الأعذار، فبيَّن تعالى أنه كما رفع الحرج عن أصحاب الأعذار الثلاثة من فاقدي البصر، وذوي العرج، والمرضى، في ترك الأمور الواجبة كالجهاد، ونحوه من الأعمال التي تتوقف على الرؤية، وسلامة الأعضاء، والحواس، والصحة، فليس عليهم حرج ولا إثم في الأكل من بيوت الآخرين.

وليس عليكم -أيها المؤمنون- عامة إثم ولا حرج في الأكل ممن سماهم الله في الآية، من **الاثني عشر صنفًا** من الناس، وهم:

١- لا حرج عليكم أن تأكلوا من **بيوت أنفسكم** من الحلال الطيب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾، فيأكل الرجل من بيته وزوجته غائبة أو العكس، وهذا أمر معلوم لا يحتاج إلى بيان، ولكنه ذُكر استفتاحًا.

---

(١) ورد هذا المعنى عن مجاهد وغيره عند الطبري (١٧/ ٣٦٧) وعبد الرزاق (٢/ ٦٤) وغيرهما.

٢- ولا حرج عليكم أن تأكلوا من **بيوت أبنائكم**، وإن نزلوا، أي: ابن الابن، أو ابن البنت فمن دونهم، وقد ذكرت الآية بيوت الآباء ولم تذكر بيوت الأبناء؛ لأن بيت الابن معلوم أنه كبيت الأب، فلا فرق بينهما، ولأن الأكل من بيت الابن بمثابة الأكل من بيت الإنسان نفسه؛ لأن الولد من كسب أبيه.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : أتى أعرابي رسول الله ﷺ فقال: إن أبي يريد أن يجتاح مالي؟ قال: «**أنت ومالك لوالدك، إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أموال أولادكم من كسبكم، فكلوه هنيئًا**»[1] وفي حكم الولدِ ولدُ الولدِ، وهكذا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾. يشمل بيت الإنسان الذي يسكنه، وفيه عياله وأهله، ويشمل بيوت الأبناء الذكور، وأبنائهم، وكذا البنات، إن كان لهن ذمة مالية مستقلة.

٣- وليس هناك حرج في الأكل من **بيت الأب** وإن علا كالجد وأبيه؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾.

٤- وكذا **الأم** وإن علت، كالجدة وأمها. . . ؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾.

٥- ولا حرج عليكم أن تأكلوا من **بيت الأخ** مطلقًا، سواء أكان شقيقًا، أم لأب، أم لأم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾.

٦- ولا حرج عليكم أن تأكلوا من **بيوت الأخوات** مطلقًا، سواء أكن شقيقات، أم من الأب، أم من الأم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ﴾.

٧- ولا حرج عليكم أن تأكلوا من **بيوت الأعمام** الأشقاء أو لأب؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ﴾.

---

(١) من حديث عبد الله بن عمرو في «المسند» (٢/ ١٧٩) برقم (٦٦٧٨، ٧٠٠١) وأبي داود (٣٥٣٠) وابن ماجه (٢٢٩٢). قال محققوه: وهو حديث صحيح لغيره، وإسناده حسن وأخرجه البيهقي في السنن (٧/ ٤٨٠) وفي الدلائل (٦/ ٣٠٤) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٥٩٨) والطبراني في الكبير (١٠٠١٩) والبزار (١٢٦٠) وأبو يعلى وقد صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٥٤) عن عائشة و (١٨٥٥) عن جابر، و (١٨٥٦) عن عبد الله بن عمرو، وفي الإرواء والمشكاة والروض النضير وغيرها.

٨- ولا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوت **العمات**؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ﴾.

٩- ولا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوت **الأخوال**؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ﴾.

١٠- ولا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوت **الخالات**؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾.

١١- ولا حرج عليكم أن تأكلوا من **البيوت التي وُكِّلتم بها** في غيبة أصحابها، ممن يملكون التصرف في أموالهم، كالخادم، والحارس، والوكيل، وأن يكون ذلك بإذنهم، مع عدم تجاوز شبع البطن؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾.

١٢- ولا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوت **الأصدقاء**؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾.

قال السدِّي: كان الرجل يدخل بيت أبيه، أو أخيه، أو ابنه، فَتُتْحِفه المرأة بالشيء من الطعام فلا يأكل؛ من أجل أن رب البيت ليس ثَمَّ، فنزلت الآية(١).

وَرَدَ أن الحسن دخل داره فوجد عددًا من أصحابه منكبين على أطايب الطعام في بيته يأكلون، فتهلَّلت أسارير وجهه سرورًا، فضحك وقال: هكذا وجدناهم، هكذا وجدناهم، يريد أكابر الصحابة ﷺ، ومن لقيهم من البدْريِّين.

وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب، فيسأل جاريته كيسه، فيأخذ منه ما شاء، فإذا حضر مولاها وأخبرتْه أعتقها سرورًا بذلك(٢).

والمعنى: ليس عليكم جناح أن تأكلوا من منازل هؤلاء جميعًا إذا دخلتموها، من غير أن تتزوَّدوا أو تحْمِلوا، والمعدودون في الآية بينهم من القرابة، أو الولاية، أو الصداقة ما هو سبب للتسامح بينهم في الحضور بغير دعوة، ولا يتحرج أحد منهم من ذلك غالبًا.

ولا إثم عليكم أن تأكلوا **مجتمعين أو منفردين**، بأن يأكل الواحد منكم مع جماعة جاؤوا للأكل مثله، أو تأكلوا متفرقين، بأن يأكل أحدكم وحده ليس معه مشارك، وكان من عادة بعضهم ألا يأكل منفردًا، ويتحرَّج من الأكل وحده، فرفع الله هذا الحرج بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٨٥).

(٢) من «تفسير الكشاف» للآية (٣/ ٢٥٧).

وكان نفر من بني كنانة، يقال لهم: بنو ليث، يتحرج المرء منهم أن يأكل وحده، وربما انتظر يومًا بلا طعام حتى يأتيه ضيف فيأكل معه، فرفع الله الحرج في ذلك[1].

أي: كُلْ وحدك، أو كُلْ مع غيرك، ليس هناك حرج في ذلك، بل إن الأكل مع الجماعة أفضل.

عن وحشي أن بعض الناس قال للنبي ﷺ: إنا نأكل ولا نشبع، فقال: «**العلكم تأكلون متفرقين؟ كلوا مجتمعين، واذكروا اسم الله عليه، يبارك لكم في طعامكم**»[2].

في حديث عمر بن الخطاب ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**كلوا جميعًا ولا تفرقوا**»[3]

إلقاء السلام على من في هذه البيوت:

ثم إن الله تعالى ذكَّرهم بآداب الدخول إلى بيوت الأهل، والأقارب، والأصدقاء؛ للأكل فيها أو لغير الأكل، بأن يبدأ الداخل بإلقاء السلام على من في هذه البيوت، وليست القرابة، أو الصداقة، أو المخالطة، مُسْقِطة لهذه الآداب؛ فملازمة الآداب تكون مع القريب والبعيد، ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهليكم، وإذا دخلتم بيوتًا غير بيوتكم وهي مسكونة، فقولوا لهم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فإذا دخلتم بيوتًا غير مسكونة، أو دخلتم المسجد وليس فيه أحد، فقولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ شرعها لعباده ﴿مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ تُنَمِّي المودة والمحبة بينكم، وهي محبوبة للسامع، وبمثل هذا التَّبيين يُبيِّن الله لكم معالم دينه وآياته؛ لتعقلوها وتعملوا بها، والسلام المذكور في الآية هو سلام التحية، بحيث يدخل الإنسان على غيره فيؤانسه بالأمان إن كان لا يعرفه، وباللطف إن كان يعرفه، ويتضمن السلام: الاستئناس، والاستئذان في الدخول، كما أنه ينبغي عليه أن يُسلِّم أيضًا عند الانصراف.

---

(١) «تفسير الطبري» (١٧/ ٣٧٦) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٤٩).

(٢) من حديث عبد الله بن عمر في «سنن ابن ماجه» (٣٢٨٧) بإسناد ضعيف، كما قال البوصيري في الزوائد برقم (١٨٣). وقد حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٢٦٥٧) وفي السلسلة الصحيحة (٦٦٤).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (٢٦٥٨) والسلسلة الصحيحة (٢٦٩١).

الاستئذان من مجالس مصالح الأمة لا يجوز إلا لعذر

٦٢- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

هذه الآية تتحدث عن نوع ثالث من أنواع الاستئذان يتعلق بالإذن للاعتذار من المجالس الجامعة التي تكون في حضور ولي الأمر، أو بإذنه.

وكما بيَّنت سورة النور آداب الاستئذان عند إرادة الدخول لبيوت الآخرين، بيَّنت كذلك آداب الاستئذان عند الخروج من بيوتهم، أو الخروج من مجالس العلم ونحوها، سِيَّمَا إذا كان أحدهم في مجلس رسول الله ﷺ، أو في مجلس الحاكم ولي أمر المسلمين، أو رئيس مصلحة، أو وزارة، أو إدارة، ونحو ذلك من كل جمع يجمع المعنيِّين بأمر هام، يتعلق بأحوال الناس وأمورهم، وكما يكون السلام عند الدخول يكون أيضًا عند الخروج، فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: «**إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة**»[1]، والاستئذان عند الخروج كالاستئذان عند الدخول.

١- وقد ورد أن النبي ﷺ ومعه أصحابه كانوا أثناء حفر الخندق، إذا عرض لأحدهم أمر ضروري يريد أن يذهب لأجله فإنه يستأذن من الرسول ﷺ فيأذن له الرسول ﷺ، فيقضي حاجته، ثم يعود إلى عمله الذي كان فيه، وكان المنافقون يخرجون خفية متسللين - بعضهم في محاذاة الآخر- من مجلس الرسول ﷺ أو من موقع حَفْر الخندق[2].

٢- وقد حدث مثل هذا في صلاة الجمعة، فكان النبي ﷺ إذا صعد المنبر وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر، لم يخرج حتى يقوم في مواجهة النبي ﷺ ويراه، فيعرف أنه إنما قام ليستأذن، فيأذن لمن شاء منهم.

---

(١) من حديث أبي هريرة في «سنن أبي داود» برقم (٥٢٠٨) والترمذي برقم (٢٧٠٦) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١٠٢٠١). قال الألباني في صحيح أبي داود (٤٣٤٠) وصحيح الترمذي (٢٨٦١): حسن صحيح.
(٢) «السيرة النبوية» لابن إسحاق (٣/ ٢٣٠) و«تفسير القرطبي» (١٢/ ٣٢١) والبيهقي (٣/ ٤٠٩).

قال مجاهد: وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده[١].

قال ابن سيرين: كان الناس يستأذنون في الجمعة ويقولون هكذا، ويشيرون بثلاثة أصابع، فلما كان عهد (زياد) كثُر عليه فاغتمَّ، فقال: من أمسَك عن أنفه فهو إذْنُه[٢].

وكانت خطبة الجمعة تثقُل على المنافقين، فيلوذ بعضهم ببعض، ويخرُجون من المسجد وكان أحدهم إذا أراد الخروج أشار بأصبعه إلى النبي ﷺ فيأذن له من غير كلام؛ لأن من تكلم في أثناء الخطبة بطلت صلاته[٣].

٣- وهكذا كانوا يفرُّون من ساحات الجهاد، ويعتذرون بالمعاذير الباطلة.

والآية تصوِّر خُبث نفوس المنافقين، والتواء طباعهم، وجُبن قلوبهم، أبلغ تصوير.

٤- قال أهل العلم: وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع ولي الأمر لا يخالفونه، ولا يرجعون عنه إلا بإذن، والإمام -أي: الحاكم- مخيَّر بين أن يأذن له أوْ لا.

فإن حدث للمأموم في الصلاة أمر عارض يمنعه من القيام للاستئذان، فإن الاستئذان يسقُط عنه.

وكان المنافقون إذا سمعوا الحديث عن النفاق والمنافقين، آلمهم ذلك، فيخرُجون لِواذًا، بعضهم يلوذ ببعض، ويتسللون خفية من مجلس رسول الله ﷺ تفاديًا للعمل الذي يشقُّ عليهم، أو يتسللون سآمة من سماع كلام لا يريدونه، فنفى الله عنهم وصف الإيمان، وأعلمهم بأن هذا العمل من علامات النفاق، وأنه منافٍ للإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة].

وهذه السورة تزيد المؤمن إيمانًا، وتزيد المنافق رجسًا إلى رجسه، وقد اعتنى سبحانه بذكر أوصاف المؤمنين؛ ليُعلم أن ضدها من صفات المنافقين، وأعرض سبحانه عن

---

(١) يُنظَر: ابن أبي شيبة (٢/ ١١٦) وعبد الرزاق برقم (٥٥١١) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٥٢).

(٢) يُنظَر: ابن أبي شيبة (٢/ ١١٦) وهو في «مراسيل أبي داود» ص ٩٥ .

(٣) يُنظَر هذا المعنى في: ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان (٨/ ٢٦٥٦).

ذكرها احتقارًا لهم.

وقد وصف الله أهل الإيمان بأوصاف **ثلاثة**، هي: أنهم آمنوا بالله، وآمنوا برسول الله، وأنهم لم ينصرفوا عن مجلس رسول الله.

وفي معناه: مجالس القرآن والعلم والذكر، فجعل هذا الاستئذان علامة مميزة للمؤمنين عن المنافقين.

والله سبحانه يبيِّن موقف المؤمنين في هذه الآية، ويثني عليهم، ويبيِّن موقف المنافقين أيضًا، ويلومهم عليه.

والآية تشمل كلَّ من ولي أمرًا من أمور المسلمين، وكلَّ حاكم للمسلمين في الدولة التي يحكمها، وأنه يجب على من وصفهم الله تعالى بالإيمان بالله والرسول، والعمل بشرع الله سبحانه، أنهم إذا كانوا مع الحاكم المسلم- أو من يُنِيبُه- على أمر جَمَعَهم فيه لمصلحة المسلمين، لم ينصرف منهم أحد بدون إذن.

والأمر الجامع: كأمر الحرب، وأمر الشورى، أو صلاة الجمعة، أو الجماعة، أو العيدين، ونحو ذلك من سائر مجالس شؤون المسلمين في دنياهم وأخراهم، فليس لهم أن يخرجوا منه حتى يستأذنوه، إن الذين يستأذنونك -يا محمد- في الخروج لحاجتهم هم المؤمنون حقًّا، فإذا استأذنوك في الانصراف لقضاء بعض أمورهم من كل أمر مباح، ضروري مُهم ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ، ولأمير جماعة المسلمين من بعده، وأنه مخيَّر بين الإذن وعدمه.

والاستئذان عند وجود العذر يرفع سوء الظن عن المستأذِن، وقد خيَّر الله نبيه ﷺ أن يأذن لمن علم منه صدق العذر، وأن يستغفر لهم الله، لأن الخروج بغير إذن لا ينبغي، وربما يكون فيه إثم، وفي هذا إشارة إلى أن عدم الاستئذان أولى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوب عباده ﴿رَّحِيمٌ﴾ واسع الرحمة بهم.

تَعْظِيمُ النَّبِيِّ ﷺ وَعَدَمُ مُخَالَفَةِ أَمْرِهِ

٦٣- ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

هذه الآية تحذر المؤمنين أن يكونوا كالمنافقين في أمرين:

أحدهما: عدم امتثال أمر النبي ﷺ، وعدم اجتناب نهيه.

وثانيهما: ابتذال اسم النبي ﷺ فيما بينهم، وعدم إعطائه حقه من التبجيل والاحترام.

فقد بيَّن الله سبحانه أن الرسول ﷺ إذا دعا أمته لأمر من الأمور، فإن تلبية هذه الدعوة أمر واجب، وكذا لو دعا النبي ﷺ في حياته شخصًا بعينه فإنه يجب عليه تلبية النداء حتى لو كان هذا المدعو في الصلاة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠].

فإن امتثال أمر الرسول ﷺ، واجتناب نهيه أمر واجب لابد من تلبيته.

وهذا يختلف عما إذا دعا بعضنا بعضًا، فإن كان في الصلاة فلا يردُّ عليه، وإن كان في غيرها فإن شاء أجاب، وإن شاء لم يجب.

فإذا دعاكم الرسول ﷺ لأمر جامع، أو مهمة من المهام، فإنه يجب عليكم أن تُلَبُّوا أمره دون تقاعس أو تباطؤ، بخلاف دعاء بعضكم بعضًا فإن الأمر يختلف.

ولا يوجد أحد من الخلق تجب إجابته أثناء الصلاة إلا النبي ﷺ، ولا يوجد أحد يجب قبول قوله والعمل به إلا الرسول ﷺ.

وقيل في تفسير الآية: إننا إذا نادينا النبي ﷺ في حياته أو بعد مماته، فلا نذكر اسمه مفردًا مجردًا، لا نقل: (محمد)، ولا نقل: (يا محمد بن عبد الله)، ونحو ذلك، كما يدعو بعضنا بعضًا؛ فإن في هذا سوء أدب مع النبي ﷺ، وليس فيه وقار، ولا تعظيم له ﷺ. إنما قولوا: يا نبي الله، يا رسول الله.

أخرج أبو نعيم وغيره، من طريق الضحاك، عن ابن عباس ﷺ قال: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فأنزل الله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾

فقالوا: يا نبي الله، يا رسول الله[١].

وقال قتادة في الآية: أمر الله أن يُهاب نبيُّه، وأن يُبجَّل، وأن يعظَّم، وأن يُفخَّم ويُشرَّف[٢].

وكانت الناس تتنادى بالأسماء في غاية من البداوة وقلة الاهتمام، فأدَّب الله الأمة، مَنْ كان معاصرًا منهم للنبي ﷺ ومن هو بعد ذلك إلى قيام الساعة، أن يكونوا في غاية الأدب مع مقام النبي ﷺ فيبجِّلوه، ويحترموه، ويقابلوا أمره ونهيه بالاستجابة الكاملة، وإلا كانوا ممن توعدهم الله تعالى بسوء المصير.

والله سبحانه حين ينادي رسوله ﷺ في القرآن لم يقل: يا محمد أبدًا، إنما يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ ولفظ محمد الوارد في القرآن صريحًا ليس في مقام النداء، إنما هو في مقام الإخبار مثل: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]. ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وحين اقتضى الأمر أن يذكُر الله سبحانه اسم رسوله ﷺ صريحًا لم يصرح الله تعالى به صراحة، وإنما قال: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: ٦٨]. ولم يقل محمدًا، وإنما قال: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ تعظيمًا لشأن رسول الله ﷺ.

والله سبحانه يعلِّمنا الأدب في التعامل مع النبي ﷺ فيقول: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الحجرات: ٢]. كحال الأعراب الذين كانوا ينادون النبي ﷺ من وراء الحجرات باسمه، لا تفعلوا هكذا، بل عظِّموه ووقِّروه.

وفي الحديث عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، ولواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر**»[٣] ومعنى ولا فخر، اي لا يليق بي أن أقول ذلك افتخارًا، فالجملة لدفع توهم أنه قال ذلك افتخارًا.

---

(١) أبو نعيم ص ٤، وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٥٤) و«أسباب النزول» للسيوطي ص ٢٠٤ و«زاد المسير» (١/ ٦٨).

(٢) عبد الرزاق (٢/ ٦٦) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٥٥).

(٣) صحيح الجامع الصغير برقم (١٤٦٨) عند الترمذي (٣٦١٥) وابن ماجه (٤٣٠٨) واللفظ له، و له شاهد في صحيح مسلم برقم (٢٢٧٨) عن أبي هريرة بدون (ولا فخر) وفي المسند (١٠٩٨٧) قال محققوه: حديث صحيح لغيره، وفيه ابن جُدعان متكلم فيه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٧٧) والسلسلة الصحيحة (١٥٧١).

وقد نُهينا عن تعظيم النبي ﷺ في الصلاة وأمور العبادة فحسب، وما عدا ذلك فليس فيه حرج، وتعظيم النبي ليس فيه بدعة ولا شرك، ولا نحو ذلك.

وكان النبي ﷺ يُسيِّد مَن هو أدنى منه من الصحابة، كسعد بن معاذ، وبلال.

وهكذا فإن عمر ﷺ كان يقول عن أبي بكر: «**سيدنا، وأعتق سيدنا**»[1]. عن بلال ﷺ.

ويقول ﷺ عن سعد بن معاذ ﷺ: «**قوموا لسيدكم**»[2]. وعلى هذا فإن للآية **معنيين**:

أحدهما: لا تقولوا -أيها المؤمنون- إذا ناديتم رسول الله: يا محمد، ياابن عبد الله، كما يقول ذلك بعضكم لبعض، ولكن شرِّفوه وعظِّموه ووقِّروه، وقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله.

وعلى هذا فهو من باب إضافة المصدر لمفعوله، والمصدر هو لفظ (دعاء)، والرسول ﷺ هو المدعو.

والمعنى الآخر: أنه يجب عليكم أن تُلبوا أمر رسول الله ﷺ دون تأخير، إذا دعاكم لأمر من الأمور، ولو كنتم في الصلاة، ولا تقيسوا دعاءه إياكم وأمره لكم على دعاء بعضكم لبعض، وهذا من باب إضافة المصدر لفاعله، فالرسول ﷺ داع.

وعلى كلا التفسيرين فالآيَةَ تنهى عن مخالفة أمر النبي ﷺ، كما تَنهى عن تداول اسمه الشريف دون احترام وتبجيل وتوقير.

ومن مخالفة دعاء الرسول ﷺ الخروج من مجلسه في خفاء واستتار، وكان المنافقون يخرجون من الجماعة قليلًا قليلًا، يستتر بعضهم ببعض حتى يخرجوا جميعًا، وكانوا إذا صعد النبي ﷺ المنبر ينظرون يمينًا وشمالًا، ثم يخرجون واحدًا واحدًا، وتارة يفرون من الجهاد معتذرين بالمعاذير الباطلة.

وهذا ينطبق على من يضيق صدره من المساجد، ومجالس القرآن، ومجالس العلم، وساحة الجهاد، وصلاة الجماعة، وخطبة الجمعة، ونحو ذلك، ذلكم قول الله تعالى:

---

(١) من حديث جابر بن عبد الله عن عمر ﷺ في صحيح البخاري برقم (٣٧٥٤).

(٢) يُنظر: صحيح البخاري بعد الحديث رقم (٢٥٤٩) ك (٤٩) ب (١٧) وعن أبي سعيد الخدري برقم (٤١٢١، ٦٢٦٢، ٣٠٤٣) وصحيح مسلم (٢٤٨٦).

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ أي: إن الله تعالى عِلْمُه محيط بمن يخرجون من مجلس الرسول ﷺ خُفية، يلوذ بعضهم ببعض، فليحذر الذين يخالفون عن أمر النبي ﷺ، ويصدون الناس عن دعوته، ويتباعدون عن هديه أن يصيبهم بلاء وكرب يفضح شأنهم في الدنيا، ويسومهم سوء العذاب في الآخرة، وفي هذا وعيد وتحذير شديد

قال جعفر الصادق في تفسير الفتنة: أن يُسلِّط الله عليهم سلطانًا جائرًا، فإذا خالفوا أمر الله وأمْر رسول الله، سلَّط الله عليهم من الحكام من لا يرحمهم، وجعل بأسهم بينهم، وجعل بينهم حروبًا، وفرَّق كلمتهم، وفرَّق جَمْعهم، وسلَّط عليهم عدوهم، ونزلت بهم المِحَن والشرور في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب موجع.

ولفظ (**الفتنة**) أُطلق في القرآن الكريم على **أربعة معانٍ**:

الأول: أن يراد به: **الإحراق بالنار**، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الذاريات].

الثاني: أن يراد به: **الاختبار**، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

الثالث: أن يراد به: **نتيجة الاختبار السيئة**، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]. أي: حتى لا يبقى شرك.

الرابع: أن يراد به: **الحجة**، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام]. والفتنة المرادة في الآية التي معنا من النوع الثالث، على معنى: أن يفتنهم الله، أي: يزيدهم ضلالًا؛ بسبب مخالفتهم عن أمره[1].

فليحذر من يخالف أمر الرسول ﷺ وشريعته أن تصيبه فتنة من الله بأن يُطبع على قلبه، فيكفر بالله تعالى.

وأمْرُ الرسول ﷺ هو: سبيله، ومنهاجه، وطريقته، وسنته، وشريعته، فتُوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ﷺ، فما وافق ذلك قُبِل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله، كائنًا من كان[2].

---

(١) يُنظَر: «أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي (٦/ ٢٥٤).

(٢) من «تفسير ابن كثير» للآية (٦/ ٩٠).

وعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا، فجعل الجنادبُ والفراش يقعْن فيها وهو يذبُّهُنَّ عنها، وأنا آخذ بحُجَزكم عن النار وأنتم تفلَّتون من يدي»**(١).

وقد استدلَّ الأصوليون بهذه الآية على أن الأمر المجرد عن القرائن يقتضي الوجوب؛ لأن الله تعالى توعَّد المخالفين بالفتنة والعذاب الأليم، فالأمر إذا كان أمرًا مطلقًا فهو يقتضي الوجوب، ما لم يصرفه صارف عنه إلى الندب والاستحباب.

خِتَامُ السُّورَةِ

٦٤- ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ(٢) إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾

ختم الله السورة ببيان أن كل ما في هذا الكون مملوك لله تعالى، وهو يجازي عباده بما يستحقون، فإن لله ما في السموات وما في الأرض، ملكًا وخَلْقًا وتصرُّفًا وإيجادًا وعبادًا.

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ قد للتحقيق، أي: إنه سبحانه يحيط علمه بكل صغيرة وكبيرة، ويعلم ما عليه العباد من طاعة أو معصية، واستجابة لأمره أو عدم استجابة.

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يخبرهم يوم القيامة بجميع أعمالهم، دقيقها وجليلها، إخبارًا مطابقًا لما وقع منهم، ويستشهد عليهم بأعضائهم، وهو سبحانه يعلم يوم يرجع العبد إلى ربه ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: يُخبرهم بجميع أعمالهم، و يجازي كل إنسان بعمله من خير، أو شر، أو ثواب، أو عقاب.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهذا من باب العموم بعد الخصوص، ومن ذلك أعمال الخلق وأحوالهم، كما قال تعالى:

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة].

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٧٩٠) برقم (٢٢٨٥).

(٢) قرأ يعقوب بفتح الياء وكسر الجيم من (يَرجِعون)، على البناء للفاعل. وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الجيم، على البناء للمفعول.

وقال جلَّ شأنه: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ويوم القيامة يجد كتاب أعماله لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فيحاسَب ويجازَى على ما قدمت يداه.

تم تفسير (**سورة النور**) ولله الحمد والمنة.



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفُرْقَانِ (٢٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الفرقان) هي السورة الخامسة والعشرون في ترتيب المصحف، والثانية والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (يس)، وقبل سورة (فاطر).

وآياتها سبع وسبعون آية باتفاق أهل العدد، وثمان مئة واثنتان وتسعون كلمة، وثلاثة آلاف وسبع مئة وثلاثة وثمانون حرفًا، وهي سورة مكية.

وسمِّيت سورة (الفرقان)؛ لوقوع لفظ الفرقان فيها ثلاث مرات: في أولها، ووسطها، وآخرها، وهي تسمية توقيفية أقرها النبي ﷺ، كما جاء في حديث عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها، وكدتُ أن أَعْجَلَ عليه، ثم أمهلته حتى انصرف، ثم لَبَبتُه بردائه، فجئتُ به رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا، يقرأ على غير ما أقرأتنيها، فقال لي: **«أرسلْه»**، ثم قال له: **«اقرأ»**، فقرأ، فقال: **«هكذا أُنزلت»**، ثم قال لي: **«اقرأ»** فقرأت، فقال: **«هكذا أُنزلت، إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه»**[1].

ولم يُعرَف لها اسم غير هذا.

عناصر القرآن المكي:

والقرآن الكريم الذي نزل على رسول الله ﷺ بمكة المكرمة، كان يخاطب في الغالب أقوامًا كفَّارا مشركين بالله سبحانه، ولذلك فإن القرآن المكي الذي نزل في نحو ثلاثة عشر عامًا كان يتكوَّن من ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: غرْسُ الإيمان والتوحيد في نفوس الكفار المشركين؛ لأنهم كانوا يشركون بالله - سبحانه - في عبادتهم، ويتقربون إليه بالأوثان والأصنام، وكانوا يكفرون

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٤١٩) وهذا لفظه، وانظر: أرقام (٤٩٩٢، ٥٠٤١، ٦٢٣٦، ٧٥٥٠) و«صحيح مسلم» برقم (٨١٨).

بمحمد ﷺ، وبالوحي الذي جاء به من عند الله، ويكفرون باليوم الآخر، فكان العنصر الأول في السور المكية هو عنصر التوحيد، أي: إفراد الله سبحانه بالعبادة، وإخلاص التوجه له وحده.

والعنصر الثاني: هو الإيمان بمحمد ﷺ، وبالقرآن الذي جاء به من عند الله، وبالوحي الذي حمله إليه، وهو نفس الوحي الذي نزل على سائر الرسل.

والعنصر الثالث: هو الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث، وحساب، وجزاء على الأعمال.

وسورة (الفرقان) من هذا القبيل، من القرآن المكّي الذي خاطب المشركين والكفار في وقت النبي ﷺ، ويخاطب المشركين والكفار في يومنا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو يطالبهم بإفراد العبادة لله وحده.

ويطالبهم بالإيمان برسول الله ﷺ، وبالقرآن الذي نزل عليه من عند الله.

كما يطالبهم بالإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث، وحساب، وجزاء على الأعمال.

عناصر السورة

١- وهكذا أثبتت السورة أن القرآن منزل من عند الله تعالى، ونوَّهتْ بشأن الرسول ﷺ، فأقامت دلائل صِدْقه، وبيَّنت أنه على طريقة الرسل السابقين، وأنه فوق حظوظ الدنيا، وأن قومه كذَّبوه، وضَربتْ على ذلك الأمثلة ببعثة الرسل السابقين، وتكذيب أقوامهم لهم، مثل: قوم موسى، ونوح، وهود، وصالح، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وقد افتتحت هذه الجولة برسالة محمد ﷺ في أول آية من السورة: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ وهذا هو عنصر الوحي والرسالة من عناصر القرآن المكي.

٢- وأثبتت السورة بعد ذلك البعث والحساب والجزاء، وبشَّرت الصالحين بالثواب، وأنذرت المشركين والمكذبين بسوء المصير، وبيَّنتْ ندمهم وتحسُّرهم على شركهم، وتكذيبهم للرسول ﷺ.

وقد ابتدأت هذه الجولة بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝١٠﴾. وهذا هو عنصر الإيمان باليوم الآخر.

٣- ثم استدلت السورة على وحدانية الله تعالى، وتفرُّده بالخلق، وتنزهه سبحانه أن يكون له شريك، أو ولد، وقد ابتدأت هذه الجولة بقوله تعالى:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾.

فكل عنصر منها ابتدأ بجملة ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾ وهذا هو عنصر التوحيد ونبذ الشرك.

شبهات المكذبين بالقرآن:

وفي سورة (الفرقان) إحصاء لشبهات خصوم الإسلام فيما يأتي ذكرها:

١- منها: تكذيب أعداء الإسلام بالوحي المنزل على محمد ﷺ ودعوته إلى التوحيد، فقالوا في شبهتهم الأولى: ما هذا القرآن إلا كذب ملفَّق، اختلقه محمد ﷺ، وأعانه على افترائه قوم آخرون.

وقالوا أيضًا: هذا القرآن من أساطير الأولين التي أُمْليتْ على محمد ﷺ.

وتكذيب الرسل من أقوامهم أمر شائع في الناس من قديم، فلا غرابة في هذا.

٢- وقالوا في شبهتهم الثانية: هذا الرسول بشر، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

وهذه شبهة قالتها جميع الأمم لجميع الرسل.

٣- وقالوا في شبهتهم الثالثة: إن تتبعون إلا رجلًا مسحورًا.

واتهام الرسل بالسحر أمر شائع من قديم، فهكذا قال قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم موسى لرسلهم.

٤- وقالوا في شبهتهم الرابعة: لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا؟

وقد ردَّت سورة (الأنعام) في آياتها [٧-١٠]، وسورة (الإسراء) في آياتها [٥٩، ٩٣-٩٦]، وغيرهما، على هذه الشبهة بما مفاده أن الله تعالى لو فعل لهم ما أرادوا ما لانت قلوبهم، ولا آمنوا بدعوة خاتم الرسل ﷺ.

٥- وقالوا في شبهتهم الخامسة: لولا نزِّل هذا القرآن على محمد جملة واحدة؟

وقد غاب عنهم أن لكل حادث حديثًا، ولكل سؤال جوابًا يأتي في وقته، وأن نزوله

منجَّمًا أثبت لفؤاد النبي ﷺ.

٦- واعترفوا في شبهتهم السادسة بأن القرآن قد زلزل معتقداتهم، وكشَف زيفها، وأن باطلهم قد اتضح، وأنهم كادوا يعترفون بالحق فقالوا:

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الآية ٤٢].

٧- لقد عزَّ على المشركين أن يطلب منهم الرسول ﷺ السجود لإله واحد، ويتركوا أوثانهم التي ألفوها، فأنكروا السجود للواحد الأحد، وقالوا للرسول ﷺ: ما نُطيع أمرك، وانصرفوا عنه في نفور شديد.

وسورة (الفرقان) تعْرِض على المكذبين بالقرآن، مصارع الأمم التي كذبت رسلها، فتحذرهم وتخوفهم أن يحيق بهم مصير الفراعنة، ومصير عاد وثمود، وأصحاب الرسِّ، وما حدث لقوم لوط.

وتعْرض عليهم سلسلة من مشاهد القيامة، كالذين يُحشرون على وجوههم إلى جهنم، والذين يدعون على أنفسهم بالثبور والهلاك، وبالذي يعض على يديه، يقول:

﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الآية: ٢٧].

وتعرض السورة سوء مصير الذين استهزؤوا بخاتم الرسل ﷺ في الدنيا، حين يرون العذاب بأعينهم، ويقال لهم: من أضل سبيلًا؟ أنتم أم هم؟ إلى جوار ما يسلِّي الله به نبيه بأن شأنه شأن الرسل السابقين قبله، يأكلون ويمشون في الأسواق، ويكلفه ربه في النهاية بأن يصبر ويجاهد، ويتحمل مشاقَّ الدعوة، ويتوكل على مولاه وخالقه.

وبعد تخويف المكذبين بخاتم المرسلين بذكر أمثلة من مصارع السابقين، تتجه السورة إلى أسلوب آخر في علاجهم، وهو إعمال العقل والفكر في آثار قدرة الله تعالى، فهو - سبحانه - مرسِل الرسل، ومنزِل الكتب، ولذلك فإن السورة تهيب بالعقل أن يفكر في ملكوت السموات والأرض.

دعوة إلى النظر والتأمل في ملكوت الله:

١- ينظر العبد **أوَّلًا** كيف مدَّ الله الظل، ولو شاء لجعله ساكنًا لا يتحرك، ولكنه يمتد

ويتقلَّص، فيكون أمام وخلف، ويقع تحت قدم الإنسان، إن قدرة الله تعالى تفعل ذلك دون جُهد ولا تكلُّف.

٢- وينظر الإنسان **ثانيًا** في حركتي الليل والنهار، كيف يَسْكُن الليل ويهدأ، فيغمَضُ جفن الإنسان، ولكن قلبه ينبض وصدْره يعلُو ويهبط، وجهازه الهضمي في شغل موصول، وسرعان ما يأتي النهار لمواصلة أعباء الحياة، ومواجهة مشكلاتها.

٣- وينظر المرء **ثالثًا** إلى السحُب وهي تحمل الرياح، وتوزعها شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، وتحمل الغيث لتأمين حاجاتنا، وحاجات الأرض الهامدة، وحاجات الحيوان والطيور وسائر الدواب ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [٤٩، ٥٠].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الآية: ٥٣].

٤- وينظر **رابعًا** كيف خلق الله من الماء بشرًا فجعله نسبًا وصهرًا، ومع ذلك فإن كثيرًا من الخلق يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم.

٥- وينظر المرء **خامسًا** كيف خلق الله هذا الكون بعالَميه العُلْوي والسفلي، وخلق ما هو أعظم منهما وهو العرش ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الآية: ٥٩].

٦- وينظر المرء **سادسًا** إلى آيات الله في الآفاق فهو ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [٦١]. وهو الذي جعل كُلًّا من الليل والنهار يخلُف الآخر في حركة متواصلة متعاقبة ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]. والمنتفعون بذلك هم عباد الرحمن الذين ذكر الله تعالى لهم عشر خصائص في هذه السورة، استحقوا بها المنزلة الرفيعة في الجنة، ويلْقون فيها تحية وسلامًا.

موضوعات السورة:

هذا: ويمكنْ تقسيم السورة إلى **ثلاثة مقاطع**:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية الثانية والعشرين، وهذا المقطع يتضمن غالبًا مزاعم الطاعنين في القرآن، فيفنِّدها ويردُّ عليها بالبرهان القاطع، والحجة الدامغة، ويتخلل ذلك

الثناء على الرسالة، وعلى صاحب الرسالة، وعلى القرآن الذي نزل عليه من عند الله تعالى.

المقطع الثاني: من الآية الثالثة والعشرين إلى الآية الثانية والستين، وهذه الجولة تبدأ بالحديث عن مشاهد القيامة، وهو يوم عسير على الكافر، تتشقق فيه السماء، ويعض الظالم فيه على يديه حسرة وندمًا، ويشكو الرسول إلى ربه هجْر أمته للقرآن، والعمل لهذا اليوم يقتضي التذكير بمصير الأمم الغابرة، ويقتضي التأمل في آيات الله الكونية؛ كي يستعدَّ المرء لهذا اليوم.

أما المقطع الثالث فهو من الآية الثالثة والستين إلى نهاية السورة، وهو يتناول أوصاف عباد الرحمن، وما أكرمهم الله به من التوحيد الخالص، والأخلاق الحميدة التي استحقوا بها الأجر العظيم في جنات النعيم.

وتختم السورة بتقرير هوان البشرية على الله تعالى، لولا القلوب الطائعة المستجيبة لربها، فإن هي جحَدتْ وكَذَّبت فإن عذاب الله تعالى سيكون ملازمًا لها لا ينفك عنها.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

بَرَاعَةُ الاسْتِهْلَالِ

١ - ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾

تعاظم وكثر خير الله الذي نزل القرآن على عبده محمد ﷺ لينذر العالمين جميعًا بأس الله وغضبه ومواقع رضاه وسخطه، وما أعظم نعمة؛ فيها فَرْقُ الحرام من الحلال والهدى من الضلال، وأهل السعادة من أهل الشقاء:

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن خيثمة، قال: قيل للنبي ﷺ: إن شئت أعطيناك مفاتيح الأرض وخزائنها، لا يُنقِصُك ذلك عندنا شيئًا في الآخرة، وإن شئتَ جمعتُها لك في الآخرة، قال: «**بل اجمعها لي في الآخرة**» فنزلت هذه الآية[1] الجامعة بين التنويه بشأن القرآن، وأنه منزل من عند الله، وبين التنويه بشأن النبي ﷺ، ورفعة منزلته عند الله تعالى، وعموم رسالته.

وفي هذه الآية ردٌّ على المكذبين بالقرآن، القائلين بأن محمدًا افتراه، أو أنه أساطير الأولين، وقد اشتملت الآية على الإنذار المحذِّر من تكذيب الرسالة والرسول.

ولذا: فقد ابتدأت سورة (الفرقان) ببيان كثرة خيرات الله سبحانه ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: كثرت خيرات الله، وعظمت نعمُه، ومن نعمه -جلَّ شأنه- ومن كثرة خيراته نزول هذا القرآن الفارق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، على عبده ورسوله محمد ﷺ خاتم النبيين، وأشرف المرسلين؛ ليكون هذا القرآن، ويكون هذا الرسول، نذيرًا للعالمين، بمن فيهم الإنس والجن، يخوفهم سوء المصير إن استمروا على شركهم وكفرهم، فالقرآن يبيِّن للناس أن هذه الرسالة عامة للبشر جميعًا، وليست للعرب وحدهم، بل وليست للإنس وحدهم، وإنما هي للعالمين: الإنس والجن، والأحمر والأبيض والأسود، وقيل: إنها رسالة تشريف للملائكة؛ لأنهم غير مكلَّفين بالعبادة.

---

(١) «تفسير الطبري» (١٨/ ١٤٠).

جاء في الحديث عن جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**أُعطيتُ خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي**»، وذكر منها: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبُعِثت إلى الناس عامة**»[1] قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء].

وقال جلَّ شأنه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨].

والمقام هنا يقتضي الاقتصار على الإنذار دون التبشير، وقرب نهاية السورة جاء قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [٥٦]. وقد وصف الله سبحانه رسوله ﷺ بالعبودية تشريفًا له وتكريمًا.

خَمْسَةُ أَوْصَافٍ لِمُبْدِعِ هَذَا الْكَوْنِ

٢- ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢﴾

أي: والذي أرسل محمدًا ﷺ هو خالق السموات والأرض، وهو الذي يقول للشيء: كن فيكون، رب كل شيء ومليكه، والكل تحت قهره وسلطانه، وقد وصف الله - سبحانه - ذاته بخمسة أوصاف بعد الآية الأولى من هذه السورة، وهذه الأوصاف تدل على وجوب تعظيمه وتوحيده وإفراده - جلَّ شأنه - بالعبادة؛ فإن من حق الله علينا أن نعرفه، وأن نهتدي إليه بعقولنا، وبفِطَرنا التي أوجدها فينا سبحانه، وأن نهتدي إلى معرفة الله - جلَّ شأنه - من تلقاء أنفسنا، دون أن يرسل إلينا رسلًا، أو ينزِّل علينا كتبًا، ولكن الله - سبحانه - من رحمته بعباده أنه لم يتركهم لعقولهم، ولا إلى فِطَرهم، وإنما أرسل لهم رسلًا، وأنزل عليهم كتبًا، وجعل خاتمهم محمدًا ﷺ يقود العالمين بهذه الرسالة، وبهذا القرآن الذي نزل عليه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وآثار الله في هذا الكون تدل عليه - جلَّ شأنه- وتأخذ بيد الإنسان العاقل إلى توحيد الله سبحانه.

(١) من حديث جابر بن عبد الله في «صحيح مسلم» برقم (٥٢١) و«صحيح البخاري» برقم (٣٣٥، ٤٣٨).

ومع هذا فإن الله جلَّ شأنه يقيم لنا الأدلة على وحدانية تعالى؛ في هذه الآية ونحوها ليأخذ بأيدينا إلى طريق الهداية.

وهي أنه - سبحانه - مالك هذا الكون، وخالقه، ومدبر أمره، هذه الأوصاف الثلاثة لا يماري فيها المشركون؛ فهم مقرون بذلك ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

﴿قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون].

ولكنهم يمترون في الوصفين الثاني والثالث وهما في قوله: سبحانه ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ وقد جعل الله سبحانه الوصف الأول مقدمة، والوصف الرابع نتيجة؛ لبيان أنه - سبحانه - لا يليق به أن يتخذ ولدًا، ولا شريكًا له في ملكه ولا في عبادته؛ وبيان هذه الأوصاف فيما يأتي:

الوصف الأول: جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو سبحانه خالق كل شيء في هذا الوجود، ومالك هذا الكون بما فيه ومن فيه، والمتصرف فيه كيفما شاء، وكل ما فيه خاضع لعظمته، فقير إلى رحمته.

الوصف الثاني: أنّه جلَّ شأنه لا والد له ولا ولد ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أي: ليس كما يزعم اليهود والنصارى، الذين يقولون: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله.

والله - سبحانه - يرد عليهم بأنه ليس في حاجة إلى ذلك؛ فهو الغني عن خلقه، فكيف يتخذ ولدًا؟! وقد جعل الله سبحانه التناسل لامتداد الحياة، وهو تعالى باقٍ لا يفنى، غنى لا يحتاج، والذي له ملك السموات والأرض لا يليق به أن يتخذ ولدًا، ولا أن يتخذ له شريكًا، وكيف يكون له ولد، وهو المالك لجميع خلقه، الغني بذاته، والكل مفتقر إليه.

والوصف الثالث: جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ أي: إنه ليس هناك منازع لله - سبحانه - في هذا الكون يشاركه فيه، حتى يُعبد مع الله جلَّ شأنه؛ فالكل خلْق الله وعبيده، وكيف يكون له شريك ونواصي العباد كلهم بيديه، فلا يتحركون ولا يسكنون ولا يتصرفون إلا بإذنه.

والوصف الرابع: قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أوجد كل مخلوق، وأبدع صنعه، من

عظيم الأشياء وحقيرها في العالم العلوي والسفلي، من حيوان ونبات وجماد، وما إلى ذلك.

والوصف الخامس: قوله تعالى: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ أي: إن كل مخلوق خلَقه الله سبحانه على هيئة وصورة معينة غاية في الضبط والإتقان؛ كي يؤدي بها الوظيفة والمهمة التي خُلق من أجلها بلا تفاوت، ولا خلل: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]. وقال سبحانه: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ [النمل: ٨٨]. وقال جل شأنه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ۝٤٩﴾ [القمر].

وقال عز وجل ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى]

وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]

فالطير خلَقه الله على صورة وشكل معين تُمكِّنه من الطير في جو السماء.

والسمك خلَقه الله سبحانه على هيئة معينة تمكنه من السباحة في الماء.

والإنسان خلقه الله سبحانه معتدل القامة، بخلاف الحيوان، فقد خلقه الله على النحو المعروف؛ ليؤدي وظيفته، وهكذا خلَق الله كل شيء فسوَّاه بما يناسبه من الخلْق وفق ما تقتضيه حكمته تعالى دون نقص أو خلل.

والخلْق: هو الإيجاد من العدم.

والتقدير: هو إتقان الصنعة، وتخصيص كل مخلوق لما خُلق له.

قال الرازي: وصف - سبحانه - ذاته بأربعة أنواع من صفات الكبرياء:

الأول: أنه المالك للسموات والأرض، وهذا كالتنبيه على وجوده.

الثاني: أنه هو المعبود أبدًا.

الثالث: أنه المنفرد بالألوهية.

الرابع: أنه الخالق لجميع الأشياء مع الحكمة والتدبير[(١)].

---

(١) «التفسير الكبير» (٢٤/٤٦).

سَبْعُ صِفَاتٍ مِنْ خَصَائِصِ الإِلَهِ الْحَقِّ

٣- ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾

أي: ومع هذه البراهين الساطعة، والأدلة القاطعة على توحيد الله تعالى وعظمته، فإن من بين خلْق الله تعالى من يتخذ أندادًا من دون الله، وهي معبودات باطلة لا تَقْدِر على شيء ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أي: إنه مع قيام الأدلة على أن الله تعالى هو الواحد الأحد، المتفرد بالخلق والتدبير، فإن المشركين اتخذوا آلهة من دون الله، حيث قابلوا إنزال الفرقان بالجحود والطغيان، واتخذوا معبودات من دون الله، لا تستطيع خلْق شيء، والله خلَقها وخلَقهم، ولا يوجد عند هذه الآلهة أدنى خصائص الإلهية، فالله - جلّ وعلا - جرّدهم في هذه الآية من جميع خصائص الإلهية في **سبع صفات**، وهي:

الصفة الأولى: هي الخلْق، فهم ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ بل هم مخلوقون، وبعض آلهتهم من صُنع أيديهم، وكيف يكون إلهًا من لا يخلق شيئًا، حتى ولا ذبابة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣].

الصفة الثانية: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فالبشر كلهم مخلوقون، ومنهم: عيسى، وعزير، والملائكة، والجن كلهم عباد لله، قال تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

والبشر يصنعون الأوثان التي تُعبد من دون الله، فهم ينْحتونها ويعبدونها، ومن عجب أنهم يُنكرون أن يكون النبي بشرًا، ولا ينكرون أن يكون الإله حجرًا أو صنمًا يُعبد من دون الله، قال إبراهيم ﷺ لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات].

الصفتان الثالثة والرابعة: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: إن هذه الأصنام ونحوها من الآلهة المزعومة، لا يستطيعون أن يدفعوا الضر عن أنفسهم، ولا أن يجلبوا الخير لأنفسهم، فضلًا عن غيرهم، ولا يملكون التصرف بحال من الأحوال، قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [المائدة: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [٥٥].

وقال إبراهيم لقومه: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾ [الأنبياء].

والصفات الثلاث المتبقِّيات: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي: إنهم لا يملكون من خصائص الإله: الموت، ولا الحياة، ولا النشور، فهم لا يستطيعون أن يُميتوا أحدًا من الأحياء، ولا أن يُحْيوا ميتًا، ولا أن يبعثوه بعد موته، وهذا أعظم خصائص الإله، قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]. وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر].

فهذه سبع صفات، كل صفة منها كفيلة بسلْب صفة الإلهية عن كل ما يُعْبد من دون الله، ومع هذا فقد آثر بعض الناس عبادة المخلوق على عبادة الخالق، وإذا كان المعبود عاجزًا عن جلب النفع ودفع الضر، فهو أشد عجزًا عن الموت والحياة والنشور؛ إذ لا يقدر على ذلك إلا الله.

وجُمَلُ هذه الآية جاءت في مقابلة الجمل الموصوف بها الله - سبحانه - في الآية السابقة:

١- فجملة ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ تقابل جملة ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢- وجملة ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ تقابل جملة ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾؛ لأن ولد الخالق يجب أن يكون متوالدًا منه، فلا يكون مخلوقًا.

٣- وجملة ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ تقابل جملة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾؛ لأن الشركة في الملك تقتضي الشركة في التصرف.

٤- وجملة ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ تقابل جملة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾

وهذه الصفات أصل الكفر ومادته، وفي هذه المقابلة بين الجمل، اهتمام بإبطال كفرهم، واجتثاث لجذور الكفر والوثنية.

وقد جعل الله للناس داريْن في الآخرة: دار الشقاء والخزى والنكال لمن اتخذ آلهة من دون الله، ودار الفوز والسعادة والنعيم لمن عبد الله وحده.

شُبُهَاتُ الْمُكَذِّبِينَ بِالْقُرْآنِ:

أَوَّلًا: شُبْهَةُ افْتِرَاءِ الْقُرْآنِ

٤- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾

وبعد الآية السابقة يأتي الحديث عن الوحي المنزَّل من عند الله، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ وقدَّم عليه ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ﴾ اهتمامًا بإبطال الكفر المتعلق بصفات الله تعالى.

وفي هذه الآية بيان لما قاله الكفار عن القرآن، ويقولونه في كل زمان ومكان، قالوا: ما هذا القرآن الذي جاء به محمد إلَّا أسوأ الكذب والبهتان، اختلقه محمد ﷺ، وافتراه على الله، وأعانه على ذلك قوم آخرون.

والقائل بهذا: هو النضر بن الحارث، وعبد الله بن أمية، ونوفل بن خويلد، وأُسند القول إلى جميع الكفار؛ لأنه قيل بينهم، وهم يتناقلونه، وأعان محمدًا على خلْقه وافترائه قوم آخرون، وهم أفراد مخصوصون، يُعيِّنُونهم بأسمائهم من عبيد أهل الكتاب: حبشي، ورومي، ومجوسي، ممن لا ينطقون العربية.

وهم: عدَّاس مولى حويطب بن عبد العزَّى، ويسار أبو فكيهة الرومي، مولى العلاء بن الحضرمي، أو صفوان بن أمية، و جبر مولى عامر.

وهؤلاء ممن دانوا بالنصرانية، وكانوا يعرفون شيئًا من التوراة والإنجيل، ثم أسلموا، فزعم المشركون أن الرسول ﷺ كان يتردد عليهم سرًّا، ويستمدُّ منهم ما في التوراة والإنجيل، وضمَّنها هذا القرآن، فقالوا: إن محمدًا افترى بعض هذا القرآن من نفسه، وأعانه قوم على بعضه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ فقال تعالى مجيبًا لهم: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ﴾ [النحل: ١٠٣]. وهؤلاء الثلاثة كانوا بمكة من أهل الكتاب الأعاجم من العبيد الأرقَّاء، فقالوا: إن محمدًا أخذ عنهم وتعلَّم منهم هذا القرآن.

وقد بيَّن - سبحانه - في هذه الآية أنهم كابروا وأقدموا على الظلم، و ارتكبوا بقولهم

هذا زورًا وبهتانًا؛ حيث إنهم يعرفون محمدًا ﷺ من مولده، إلى بعثته، إلى موته، لقد وُلد بينهم، ونشأ وتربى أمام أعينهم، وما جلس إلى معلم قطُّ، وكانوا يصفونه قبل بعثته ﷺ بالصدق والأمانة، ولا يتهمونه بالكذب، ويقولون: ما جرَّبنا عليك من كذب، وهم يعرفون في قرارة أنفسهم أنَّ هذا القرآن ليس من قول البشر، فقد كانوا لا يملكون أنفسهم من التأثر به، وكانوا يختبؤون سرًّا، كل واحد منهم وراء الآخر حتى لا يراه؛ ليستمعوا إلى القرآن، والنبي ﷺ يتلوه في صلاته ليلًا، ثم يكابرون ويعاندون، ولا يؤمنون به، كما قال رب العالمين: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فالمانع من إيمانهم هو الكبر والجحود، والخوف على جاههم وسلطانهم، ولهذا فهم يقولون في القرآن ما لا يعتقدونه.

ثَانِيًا: شُبْهَةُ أَنَّ الْقُرْآنَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

٥- ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾

أي: إن الكفار بخاتم المرسلين قالوا: هذا القرآن أساطير الأولين، وأحاديث السابقين، استنسخها محمد ﷺ، فهي تُقرأ عليه صباحًا ومساءً.

وقد كان النبي ﷺ يتلو القرآن على أهل مكة، ويخبرهم بأخبار الأمم السابقة، ويحذِّرهم من أن يقعوا فيما وقعوا فيه من عدم الإيمان بالله، وتكذيب الرسول ﷺ، والتكذيب باليوم الآخر.

وكان النضر بن الحارث تاجرًا، يسافر إلى الحيرة وغيرها، ويتنقل بين بلاد فارس والروم، ويحفظ قصص ملوك الفرس، وأحاديث رُستم، فكان إذا ذهب النبي ﷺ جلس النضر مكانه، وقال: سأقصُّ عليكم أحسن مما يقصُّه محمد، فما هذا الذي يقوله إلا خرافات وأساطير الأولين، استمَع إليها، وسأل من يكتبها له، فهو ينقلها منهم ثم ينسبها إلى ربه، وهي تُملى وتُقرأ عليه في الصباح والمساء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل ما في القرآن من أساطير الأولين، فالمقصود منه قول النضر بن الحارث.

وهذا القول فيه اتهام النبي ﷺ بالكذب، وفيه وصف القرآن بأنه كذب، وفيه أنهم قادرون على أن يأتوا بمثله، وفيه زعمهم أن الرسول ﷺ يكتب، مع علمهم بأنه لا يكتب.

الرَّدُّ عَلَى الشُّبْهَتَيْنِ

٦- ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾

أمر الله رسوله ﷺ أن يرد عليهم قائلًا: لقد أنزل هذا القرآن، الذي يعلم الغيب والشهادة، يعلم السرَّ والنجوى، ويعلم ما هو أخفى من السرِّ، وعلمه محيط بكل صغيرة وكبيرة.

إنه - سبحانه - كان غفورًا لمن تاب من الذنوب والمعاصي، ومنها الكفر والشرك والقول بالتثليث والبنوَّة، وهو - سبحانه - رحيم بهم؛ حيث لم يعاجلهم بالعقوبة.

فالمعنى: قل -يا محمد- لمن زعموا أن القرآن خرافات وأباطيل، أو أنك اختلقته من عندك، وساعدك عليه أناس غيرك، قل لهم: كذبتم أشنع الكذب وأقبحه، فأنتم أوَّل من يعلم أن هذا القرآن لا يمكن لبشر أن يختلقه، وتعلمون أن له حلاوة وطلاوة، وتأثيرًا على القلوب باعتراف زعمائكم، فالذي أنزله هو من لا يَعْزُب عن علمه شيء، ويعلم ما خفي وما ظهر، فقد أخبركم بالماضي والحاضر والمستقبل، وأعجزكم بفصاحته وبلاغته، قال تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء].

ولو أن هؤلاء المكذبين، تدبّروا القرآن وتأملوا ما فيه من علوم الأولين والآخرين، لكان في هذا دلالة قاطعة لهم على أنه لا يكون إلا من عالم الغيب والشهادة، ومع إنكارهم للتوحيد والرسالة، فإن الله تعالى دعاهم إلى التوبة والرجوع إليه، ووعدهم بالمغفرة والرحمة.

ثَالِثًا: مُقْتَرَحَاتٌ عَلَى صَاحِبِ الرِّسَالَةِ ﷺ

٧، ٨- ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ[1] هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ[2] ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ

(١) يجوز الوقف اختبارًا أو اضطرارًا على (ما) أو اللام من لفظ (مال) لجميع القراء، ويُبدَأ بأول الكلمة، ولا يوقف عليهما اختيارًا.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بالنون في (يأكل) والفاعل ضمير يعود على الواو في (وقالوا)، وقرأ الباقون بالياء، والفاعل ضمير يعود على الرسول.

مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا[1] ۝٨﴾

أي: إن المشركين والملحدين يطعنون في القرآن -موضوع الرسالة- ويطعنون في صاحب الرسالة ﷺ.

فهم يقولون **أولًا**: إن محمدًا قد افترى هذا القرآن.

ويقولون **ثانيًا**: إن القرآن أساطير الأولين.

ثم يقولون **ثالثًا** على سبيل السخرية والتهكم والإنكار: كيف يكون محمد رسولًا وهو يأكل الطعام مثلنا، ويمشي في الأسواق طلبًا للرزق مثلنا؟

فهلّا أرسل الله إليه ملَكًا يشهد على صدقه، ويبلّغ معه رسالة ربه؟

والمعنى: أن المكذبين بالرسالة، قالوا تهكّمًا: ما لهذا الذي ادعى الرسالة، يأكل الطعام ويبيع ويشتري، فهلّا أُنزل مع الرسول ملك يعاونه ويساعده، أو يكون معه مال كثير يأتيه من غير تعب، أو تكون له حديقة مثمرة يستغني بها عن المشي في الأسواق.

ثم بيّن سبحانه، أن الذي حملهم على هذا، هو الظلم، ووصْفهم النبي ﷺ بالسحر، مع علمهم بكمال عقله وسداد رأيه.

جاء في **أسباب النزول**: أن كبار قريش اجتمعوا، ومنهم: أبو سفيان، وأبو جهل، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل وغيرهم...، فأرسلوا إلى النبي ﷺ، وقالوا له: إن كنت تريد مالًا جمعنا لك من المال حتى تكون أكثرنا ثراء، وإن كنت تريد مُلْكًا ملّكْناك علينا، وإن كنت تريد الشرف سوّدناك علينا، فقال عليه الصلاة والسلام: ما أريد شيئًا مما تقولون، وإنما بعثني الله إليكم رسولًا وأنزل عليَّ كتابًا، وأنا نذير وبشير إليكم، فإن أطعتموني دخلتم الجنة، وإن عصيتموني فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم، ونصحت

---

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب وابن ذكوان بخلف عنه بكسر التنوين وصلًا من (مسحورا) حال وصله بـ (انظر) بعدها، والباقون بضم التنوين وصلًا أيضًا، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان، ويُبدأ للجميع بضم همزة الوصل في (انظر).

لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبر لأمر الله تعالى، حتى يحكم بيني وبينكم، فقالوا له: فإن كنت غير قابل شيئًا مما عرضْنا عليك، فَسَلْ ربك أن يبعث معك ملَكًا يصدقك، ويشهد لك بأنك رسول من عند الله، وسلْه أن يجعل لك جنات وقصورًا تغنيك؛ فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمس؛ حتى نعرف فضلك ومنزلتك فقال لهم: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بُعِثْتُ إليكم بهذا، ولكن الله تعالى بعثني بشيرًا ونذيرًا، فأنزل الله تعالى هذه الآيات[١].

فكانت شبهة المشركين أن قالوا للنبي ﷺ: أنت لم ينزل عليك كنز من المال؛ حتى تنفق وتعيش منه، وأنت لست بملَك؛ لأنك تسعى على كسب قوتك وعيشك، وتمشي في الأسواق، ولأنك تأكل كما نأكل، والملائكة لا يأكلون، فَسَلْ ربك أن يغنيك وينزِّل عليك كنزًا بحيث لا تفتقر إلى الناس، أو تكون لك جنة من نخيل وأعناب وحدائق مثمرة تأكل منها، أو تكون لك قصور من ذهب وفضة؛ حتى تتميز عن الناس، ويعرفوك بغناك، ثم اتهموه في النهاية بالسحر والجنون.

لقد خيَّره الله - سبحانه - بين أن يكون عبدًا رسولًا، أو نبيًّا ملِكًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا، وأرسل له الملك الموكل بالجبال يعطيه مفاتيح خزائن الأرض، أو يدخرها له عند ربه، فقال: «**بل أجوع يومًا فأسأل الله من فضله، وأشبع يومًا فأشكر الله على نعمه**»[٢].

ويواصل المكذبون تعنُّتهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل، فيقترحون على النبي ﷺ أن يهبط عليه من السماء كنز من مال، يأتيه بلا تعب ولا مشقة، كمن يجد كنزًا صُدفة، أو تكون له حديقة عظيمة يأكل من ثمرها، بجانب ما قالوه من قبل، من نزول ملَك معه، فهذه أمور ثلاثة اقترحها الكفار تعنتًا وعنادًا، وهذه الأمور الثلاثة كثيرا ما تحدَّث عنها القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ

---

(١) يُنظَر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٢٤) وابن جرير (١٨/ ١٣٨) وابن أبي شيبة (٩/ ١١٨٤) و«تفسير الألوسي» (١٨/ ٢٣٧) وابن إسحاق (١/ ٢٩٥).

(٢) ينظر حديث أبي أمامة في تفسير الآية العاشرة.

مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ﴾ [الإسراء].

فهم يعيبون على الرسول ﷺ أن يأكل الطعام كما يأكل سائر الناس، ويعيبون عليه أن يمشي في الأسواق ويتردد فيها، كما يتردد سائر الناس سعيًا وراء أمور المعيشة، فأحواله مماثلة لأحوال الناس، وهم يزعمون أن الرسول لا يكون بشرًا من الناس، وخصوا هاتين الحالتين: الأكل، والمشي في الأسواق، بالذكر؛ لأنهما من المشاهد المكررة.

وقد ردَّ الله عليهم قولهم هذا بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [٢٠].

ثم يختم المكذبون قولهم بتوجيه الخطاب للمؤمنين قائلين لهم: ما هذا الذي تتبعونه - أيها المؤمنون- إلا رجل ساحر، غلب عليه عقله، فزعم أنه رسول الله، وفي هاتين الآيتين نرى أن المشركين قد اقترحوا على النبي ﷺ اقتراحات ستة، جاءت على وجه التدرج والتنزل، فقالوا: إن النبي ﷺ غير مستغنٍ عن:

١- الأكل كسائر الناس.

٢- وعن طلب المعيشة وتحصيل الرزق.

٣- وأن يكون معه ملَك يسانده في التبليغ والإنذار.

٤- وألا يحتاج إلى طلب المعاش، بأن ينزل عليه كنز من السماء.

٥- أو على الأقل يكون له في الأرض بستان يأكل منه.

٦- ثم رموه بالسحر في نهاية الأمر.

وقد وصفهم القرآن بالظلم حيث طلبوا هذه المقترحات وكذبوا رسول الله ﷺ.

ولما كانت هذه الأقوال عجيبة جدًّا فقد قال تعالى:

٩- ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾﴾

أي: إن الله تعالى ردَّ عليهم اقتراحاتهم الفاسدة، ومطالبهم القبيحة، فصرف سبحانه الأنظار إلى التعجب من سوء أقاويلهم؛ حيث ضلوا الطريق في كل ما وَصفوا به النبي

ﷺ، فانظر -يا محمد- ما قاله المكذبون في حقك من الأقوال العجيبة التي تشبه الأمثال لغرابتها: كالشعر والكهانة والسحر ليتوصلوا بها إلى تكذيبك!

والذي ابتكر اتهام النبي ﷺ بالسحر هو عبد الله بن الزِّبْعري.

فقالوا عن النبي ﷺ: مرة مسحور، ومرة شاعر، ومرة كاهن، وقالوا عن القرآن: مرة أساطير الأولين، ومرة إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، فبَعَدُوا بذلك عن الحق، ولم يجدوا سبيلًا يصححون به ما قالوه فيك -أيها الرسول- من الكذب والبهتان، وكله متناقض فيه جهل وضلال وسفه، والعاقل يجزم ببطلانها بمجرد النظر فيها، ولذا افتتح الله الآية بالدعوة إلى النظر والتأمل.

الرَّدُّ عَلَى مُقْتَرَحَاتِهِمْ

١٠- ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل[1] لَّكَ قُصُورًا﴾

أي: إن الله تعالى بعد أن تعجب من أقوالهم، ذكر أنه قادر على أن يعطي رسوله أفضل مما يطلبه المكذبون مما اقترحوه عليه من:

١- أن يَنْزِل عليه كنز من السماء.

٢- أو تكون له حديقة يأكل منها؛ حتى لا يحتاج إلى تحصيل الرزق كسائر الناس.

٣- أو ينزل عليه ملَك من السماء يعضده في أعباء الرسالة - على حد زعمهم.

فأخبر أنه - سبحانه - قادر على أن يجعل له في الدنيا حدائق كثيرة تتخللها الأنهار، ويجعل له فيها قصورًا عظيمة، ويعطيه من الأموال ما لا يوجد عند بشر؛ فخزائن الله لا تنفد، وخيراته كثيرة، وبركاته عظيمة.

عن أبي أمامة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«عَرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا، فإذا جُعْتُ تَضرَّعْتُ إليك وذكرْتك، وإذا**

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وحفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف بجزم اللام من (ويجعل لك) جوابًا للشرط، ويلزم إدغامها في اللام بعدها، وقرأ الباقون بالرفع وعدم الإدغام على الاستئناف، أي: وهو يجعل، أو سيجعل.

شبعتُ حمدتُك وشكرتُك»[١].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: **«لو شئتُ لسارتْ معي جبال مكة ذهبًا، جاءني ملك -إن حجزته لتساوي الكعبة- فقال: يا محمد، إن ربك يقرئك السلام، ويقول: إن شئت نبيًّا عبدًا، وإنّ شئت نبيًّا ملِكًا، فنظرت إلى جبريل، فأشار لي أن ضع نفسك، فقلت: نبيًّا عبدًا»**، قالت: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئًا، يقول: **«أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»**[٢].

وجاء توضيح هذا الخبر عن الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما عيَّر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة، حَزِن ﷺ، فنزل جبريل عليه السلام معزِّيًا له، فبينما النبي وجبريل عليهما السلام يتحدثان، إذ فُتح باب من السماء، فقال جبريل: أبشر يا محمد، هذا رضوان خازن الجنة، قد أتاك بالرضى من ربك، فسلَّم عليه، وقال: ربك يُخيِّرك بين أن تكون نبيًّا ملِكًا، وبين أن تكون نبيًّا عبدًا - ومعه سقط من نور يتلألأ- ثم قال: هذه مفاتيح خزائن الأرض، فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير، فأومأ بيده أن تواضع، فقال ﷺ: **«بل نبيًّا عبدًا»** فكان ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئًا حتى فارق الدنيا[٣].

وقال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن خيْثمة، قيل للنبي ﷺ: إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يُعطَ نبي قبلك، ولا يُعطى أحد من بعدك، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله، فقال ﷺ: **«اجمعوها لي في الآخرة»**، فأنزل الله الآية[٤].

ومع ذلك فبعد الفتوحات الإسلامية في العهد النبوي جاءت الأموال وفيرة إلى النبي ﷺ، جاءه من البحرين الأموال الكثيرة، فوضعها في المسجد، ولم يأخذ إلى بيته منها

---

(١) ذكر هذا الحديث البغوي بسنده في «شرح السنة» بعد الحديث (٤٠٤٤) والطبراني في «الكبير» (٧٨٣٥) والبيهقي (١٠٤١٠) و«المسند» (٢٢١٩٠) وقال محققوه: إسناده ضعيف جدًّا.

(٢) تفسير البغوي، والخازن للآية، والحديث في السلسلة الصحيحة (١٠٠٢) وانظر السلسلة الضعيفة (٢٠٤٥).

(٣) «حاشية زاده على البيضاوي» (٣/ ٤٤٤) وبزيادة على هذا في «أسباب النزول» للواحدي ص ٢٥٠ وعند ابن عساكر كذلك، وانظر ضعيف الترغيب والترهيب برقم (١٩٠٨).

(٤) «تفسير الطبري» (١٨/ ١٤٠) وابن أبي شيبة (١١/ ٥٠٩) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٦٦).

درهمًا، وكان يعطي الرجل المال حتى لا يستطيع أن يقوم به من مقامه، وقد امتلأ حجره بالذهب والفضة.

ولما جاء المال الكثير إلى النبي ﷺ ووزعه بين أصحابه، سألته ابنته وقُرَّةُ عينه فاطمة ﵂ خادمًا من هذا الفيء الذي أفاء الله عليه به، فأبى ونصحها هي وعليًا ﵁ أن يكثرا من: التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل، وقال: «**إن هذا خير لكما من خادم**».[1]

ومعنى الآية: جلَّ شأن الله، وعظمت بركاته، وكثرت خيراته، فهو إن شاء أعطاك خيرًا مما اقترحوه عليك من الكنوز والبساتين، ويجعل لك مع ذلك قصورًا رفيعة مشيدة.

فقدرة الله ومشيئته فوق ذلك، ولكنه سبحانه أعطى أولياءه من الدنيا ما اقتضتْه حكمته تعالى.

لقد ابتدأت السورة بتعظيم الله تعالى والثناء على أنه - سبحانه - أنزل الفرقان على رسوله ﷺ، وأعقب ذلك بما قابل به المشركون هذه النعمة من جحود وإنكار واتخاذهم معبودات من دون الله، ثم طعْنهم في القرآن ورسول الإسلام، فلما أراد الله تعالى أن يُعرض عن باطلهم، ويُقبل على الرسول ﷺ بتثبيته وتثبيت المؤمنين أعاد الله - سبحانه - اللفظ الذي بدأ به السورة على طريقة وصل الكلام[2].

ولما كانت مقرحات المكذبين للرسالة، مجرد تعنت وظلم وتكذيب بالحق، فقد بيّن سبحانه أن الذي حملهم على هذا هو عدم الإيمان باليوم الآخر، فقال:

١١- ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾

بيَّن - سبحانه - في هذه الآية أنهم لم يكذِّبوا الرسول ﷺ؛ لأنه يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق فحسب، وإنما كذَّبوا بيوم القيامة، وما فيه من بعث وحساب وجزاء، ولذلك فهم لا يقرون بأن ما ادخره الله لرسوله ﷺ في الآخرة، نعيم لا يتناهى، فليس الأمر إذن

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٢٧) وصحيح البخاري ٣٧٠٥،٠١٣١٣) متفق عليه وينظر: مشكاة المصابيح (٢٣٨٧) وهو في صحيح سنن أبي داود برقم (٤٢٣٢).

(٢) يُنظَر هذا الربط في «تفسير التحرير والتنوير» لابن عاشور (١٨/ ٣٣٠).

أنهم يُكذِّبون رسول الله ﷺ؛ لأنهم يعرفون صدقه وأمانته، ولكن الأمر أنهم يكذبون بيوم القيامة،كما أنكروا وحدانية الله تعالى،وطعنوا في شخصية رسول الله ﷺ،والوحي المنزل عليه، ولذا فإن الله تعالى أعدَّ لهم في الآخرة نارًا ملتهبة ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. وكذا كل من كذَّب باليوم الآخر فإنه يخلَّد في النار يوم القيامة.

مِنْ أَوْصَافِ جَهَنَّمَ، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ

١٢- ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾

وصف الله - سبحانه - في هذه الآية نار السعير التي أُعدت للمكذبين برسل الله، كما وصف حال الكافرين حين يُعرضون على النار في ساحة المحشر، ووصف هلعهم حين يُلقَى بهم في النار.

فبيَّن - سبحانه - أن النار إذا رأت الكافر يوم القيامة من مكان بعيد وهو في عرصات المحشر، اشتد لهبها على من كفر بربها، وسمعوا صوت غلَيانها وزفيرها من شدة تغيظها منهم.

والزفير: امتداد النفَس من الغيظ وضيق الصدر.

وقد بيَّن - سبحانه - أن أهل النار يسمعون لها شهيقًا مع الزفير، كما قال تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٧، ٨]

أي: يكاد بعضها يتقطَّع وينفصل عن بعض، من شدة غيظها على من كفر بالله تعالى.

وظاهر الآية يفيد أن النار تُبصر الكفار يوم القيامة، وتراهم رؤية حقيقية، كما أنها تتكلم وتنطق:

١- جاء في الأثر: **«يَخْرُج عنُق من النار له عينان تُبصران، ولسان ينطق فيقول: وُكِّلْتُ بكل من جعل مع الله إلهًا آخر، فهو أبصر بهم من الطير بحبِّ السمسم فيلتقطه».**

وفي لفظ: **«يخرج عنُق من النار فيلتقط الكفار لَقْطَ الطائرِ حبَّ السمسم»**[1].

ويشهد لهذا الأثر، الحديث الآتي:

---

(١) رواه رُزيق وصححه ابن العربي.

٢- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يخرج عنُق من النار يوم القيامة، له عينان تُبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق فيقول: إني وُكِّلتُ بثلاث: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهًا آخر، وبالمصورين**»[١].

٣- وعن مجاهد، عن ابن عباس ﷺ قال: (إن العبد ليُجرُّ إلى النار فتنْزوِي وتنْقبِض بعضها إلى بعض، فيقول لها الرحمن: ما لك؟ قالت: إنه يستجير مني، فيقول: أرسلوا عبدي، وإن الرجل ليُجرُّ إلى النار فيقول: يارب، ما كان هذا الظن بك؟ فيقول: فما كان ظنك؟ فيقول: أن تَسعَني رحمتك، فيقول: أرسلوا عبدي، وإن الرجل ليُجرُّ إلى النار، فتشهق إليه النار شهوق البغلة إلى الشعير، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف»[٢].

٤- وأخرج ابن جرير أن الربيع بن خيثم كان في صحبة عبد الله بن مسعود ﷺ، فمرَّ على حدَّاد فأخذ ينظر إلى حديدة في النار، فتمايل ليسقُط، ثم مرَّ وهو على شاطئ الفرات بفُرن تلتهب النار في جوفه، فقرأ ابن مسعود: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ فصُعق الربيع، فحملوه إلى بيته فلم يُفق[٣].

٥- وعن مجاهد، عن عبيد بن عمير قال: إن جهنم تزفر زفرة، لا يبقى ملَك ولا نبي إلا خرَّ ترْعَد فرائصه، حتى إن إبراهيم ﷺ ليجثو على ركبتيه، ويقول: رب لا أسألك اليوم إلا نفسي[٤].

٦- وفي الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**اشتكت النار إلى ربها، وقالت: أكل بعضي بعضًا، فجعل لها نَفَسيْن: نفَسًا في الشتاء، ونفَسًا في الصيف، فأما**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٧٤) وقال: هذا حديث حسن غريب، والبيهقي في الشعب (٦٣١٧) وفي البعث والنشور (٥٢٤) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» برقم (٢٠٨٣) وفي «السلسلة الصحيحة» برقم (٥١٢) وهو في «المسند» برقم (٨٤٣٠)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) قال ابن كثير في تفسيره للآية: وهذا إسناد صحيح (٦/ ٩٧) وانظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٤١٠) وابن أبي حاتم (٢٦٦٨).

(٣) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٩٦).

(٤) «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٥٦) والطبري (١٧/ ٤٠٩) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٦٨) وابن عطية (٤/ ٢٠٢).

نَفَسها في الشتاء فزمهرير، وأما نَفَسها في الصيف فسَمُوم»[١].

٧- وفي رواية مسلم: **«فما وجدتم من برد أو زمهرير، فمن نفَس جهنم، وما وجدتم من حر أو حرور فمن نفس جهنم»**[٢].

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [ق: ٣٠].

وإذا رأت النار أهلها قبل أن يدخلوها فإنها تفرح بلقائهم، ويشتد حنقها وغضبها عليهم، فيُسمع لها تغيظ من الغليان وزفير، هذا وَهُمْ خارج النار.

ثم يصور القرآن حالهم حين يُلقى بهم فيها، فيقول تعالى:

١٣- ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا[٣] مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣﴾

أي: فإذا أُلقوا في جهنم -والعياذ بالله- وكانوا في مكان شديد الضيق كنهاية الحديدة التي في آخر الرمح، وهو مكان ضيق جدًّا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾ مغلقة ومطبقة ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾ [الهمزة]. فيُلْقَوْن فيه وأيديهم مغلولة إلى أعناقهم بالسلاسل -والعياذ بالله- كحال الأسرى والمساجين حين يُقرَن عدد منهم في وِثاق واحد، كما قال تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨﴾ [ص].

وقال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم].

وقال أيضًا: ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣﴾ [الحاقة].

وحينئذ فإنهم يتمنوْن الهلاك مرة واحدة؛ للاستراحة من العذاب، وَيدْعُون على أنفسهم بالهلاك الدائم، وبالويل والخسران؛ للخلاص من نار جهنم. فيقال لهم تيئيسًا:

---

(١) البخاري (٥٣٧) ومسلم (٦١٧) و«صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٠٩٠) و«صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٤٣١٩). ومسند أحمد (٧٢٤٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والنسائي في الكبرى (١٤٨٨) وأبي يعلى (٥٨٧١) وابن خزيمة (٣٢٩).

(٢) صحيح مسلم (٦١٧) وانظر صحيح ابن ماجه (٤٣١٩) والسلسلة الصحيحة (١٤٥٧).

(٣) قرأ ابن كثير بسكون الياء من (ضيْقا) والباقون بتشديدها، وهما لغتان، وقيل: التشديد في الأجرام، والتخفيف في المعاني.

١٤- ﴿لَا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾

لا تدعوا على أنفسكم بالهلاك مرة واحدة، بل ادعوا مرات كثيرة، فلن يزيدكم ذلك إلا غمًّا وحُزنًا حيث لا خلاص لكم من عذاب الله، وكل نوع منه له ثبور؛ لشدته وفظاعته، وهو عذاب متنوع متجدد ومتكرر لا ينتهي ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. وفي هذا إقناط لهم من إجابة الدعاء.

مَصِيرُ أَهْلِ الشَّقَاءِ وَأَهْلِ السَّعَادَةِ

١٥- ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾

هذه مقابلة بين نعيم الجنة وعذاب النار، فيأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يوجه الخطاب إلى المؤمنين والمشركين معًا، على سبيل التقريع والوعيد للكافرين، وإظهار المنة وحفْز الهمة للمؤمنين.

قل -يا محمد- لأمتك: أهذه النار التي وصفْتُ لكم من أنها تتلقى الأشقياء بوجه عبوس وتغيُّظ وزفير، خير، أم جنة الخلد والنعيم الدائم الذي وعد الله به المتقين الخائفين من عذاب الله؟ كانت لهم ثوابًا على أعمالهم ومصيرًا يرجعون إليه في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

وقال في مقابل ذلك: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

ومثل هذه الآية من ذِكْر أهل النار وما فيها من الويل والثبور، مع ذكر أهل الجنة وما فيها من النضرة والحبور، قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات].

وليس هناك أفضلية بين نعيم الجنة وعذاب النار، وإنما المقصود بيان خصوصية الجنة بالفضل عن طريق الاستفهام، لبيان الصواب من الخطأ، دون مقابلة بينهما. قال تعالى عن نعيم أهل الجنة:

١٦- ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾

أي: لهؤلاء المطيعين في الجنة ما يشتهون من ملاذ النعيم؛ فمتاعهم فيها دائم، كما وعدهم ربهم، أي: ولهم في الجنة ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، من المطاعم والمشارب والملابس، والحور العين، والقصور والحدائق والفواكه، وأنهار اللبن والعسل والخمر والماء، والروائح الطيبة، والمساكن المزخرفة، والأصوات الشجية، والتمتع بالأهل والأحباب، والسعادة برضى الله سبحانه، وهم فيها خالدون، وقد كانوا في الدنيا يطلبون ذلك ويقولون: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

وكانت الملائكة تسأل ذلك لهم فتقول: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [غافر: ٨].

هذا هو وعد الله، والله لا يخلف الميعاد، وقد وعدهم الله في الدنيا بالجنة، والله لا يخلف وعده، وهو وعد يسأله عباد الله المتقون، كأنهم يقولون: ربنا عملنا ما أمرتنا، فأنجز لنا ما وعدتنا، فيجيبهم الله بما وعدهم به من النعيم المقيم، وهذا معنى ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ يسأل هذا الوعد، عباد الله المتقون، بلسان حالهم ولسان مقالهم، وتسأله لهم الملائكة، وقد حقق الله وعده وأجاب سؤاله.

مُحَاكَمَةٌ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ بَيْنَ الْمُشْرِكِ وَمَعْبُودِهِ

١٧- ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ[١] وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ[٢] ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ[٣] أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب بالياء في (يحشرهم) والفاعل ضمير يعود على (ربك) في الآية السابقة، وقرأ الباقون بنون العظمة، على الالتفات من الغيبة إلى التكلم، وهو موافق لقوله تعالى: (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا).

(٢) قرأ ابن عامر بنون العظمة في (فيقول)، والباقون بالياء.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية من (هؤلاء أم) ياء مكسورة، والباقون بتحقيقها.

ويوم القيامة يحشر الله الأولين والآخرين، ويجمع العابدين من المشركين، والمعبودين من الأوثان والأصنام، وكل من عُبد من دون الله: كالملائكة، والجن، وعزير، والمسيح، فيحشر العباد والخلق جميعًا، ثم يوجه هذا الاستجواب للمعبودين: أأنتم أضللتم عبادي عن طريق الحق فدعوتموهم إلى عبادتكم؟ أكنتم السبب في ضلالهم ودعوتموهم إلى عبادتكم؟ ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ فعبدوكم من تلقاء أنفسهم، من غير أن تُغْوُوهم وتُرشدوهم إلى ذلك؟

والمشركون الذين كانوا في عصر التنزيل موجودون في وقتنا، فالشرك في هذه المعمورة موجود في: عُبَّاد البقر، وعُبَّاد الوثن، وعُبَّاد الشيطان، وعُبَّاد القبور، ونحو ذلك.

وفي هذه الآية يبيِّن الله ﷻ أنه إذا كان يوم الحشر يجمع المعبودين الذين عُبدوا من دونه، ويجمع الكفار الذين عبدوهم، يجمعهم جميعًا في ساحة العدل الإلهية، ويكون هناك استجواب من الله -سبحانه-، يسأل فيه الذين عُبدوا من دون الله، أأنتم أضللتم هؤلاء المشركين؟ فيكون جوابهم بالتبرؤ من عبادتهم، ويقع الخزي على من عبدوهم.

١٨- ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ[1] مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾

هذا الجواب يكون من المعبودين العقلاء: كعيسى، والملائكة، والجن على وجه التعجب والإنكار على العابدين؛ حيث يقولون: تنزيهًا لك يارب عن الشركاء، وعن كل ما لا يليق بجلالك، فلا ينبغي ولا يصح لأحد من خلق الله جميعًا أن يَعبُد سواك، ولا يصح لنا أن نوالي أو نعبد غيرك، ولا ندعو أحدًا سواك.

وفي هذا تسفيه للذين عبدوهم من دون الله واتخذوهم أولياء، وهذا الجواب كجواب الملائكة الذي جاء في سورة (سبأ) في قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ

---

(١) قرأ أبو جعفر بضم النون وفتح الخاء من (نتخذ)، على البناء للمفعول، ونائب الفاعل ضمير تقديره (نحن) يعود على الواو في (قالوا) و(من دونك) متعلق بـ(نتخذ) و(من) لتأكيد النفي، و(أولياء) حال، وقرأ الباقون بالبناء للفاعل، والفاعل مستتر تقديره (نحن)، و(أولياء) مفعول به.

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ۝٤١﴾ [سبأ].

وهذا الاستجواب يكون أيضًا لعيسى عليه السلام وقد عُبد من دون الله، ولا يزال النصارى يؤلِّهونه؛ حيث يقول الله له: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ۝١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة].

أما غير العاقلين، كالأصنام ونحوها، فإن الله تعالى يجعل فيهم نطقًا يسمعه عبدتها.

وفي يوم القيامة يتبرأ المعبود من العابد، ويقول: ما دعوناهم لعبادتنا، وإنما هم ضلوا السبيل، وعبدوا غير الله من تلقاء أنفسهم. ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦] ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت: ٢٥]

وهكذا الذين عُبدوا من دون الله في جوابهم على سؤال الله لهم يوم القيامة ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فيقول الملائكة، وعيسى، وعزير: إنّ هؤلاء المشركين قد قابلوا النعمة بالكفران، فقد أطلْت -يارب- أعمارهم هم وآبائهم، وأغدقت عليهم من فضلك وإحسانك ونعمائك، حتى نسوا التوحيد الذي جاءت به الرسل، وكانوا بذلك قومًا هلكى خاسرين، غلب عليهم الشقاء والخذلان، وأحلوا قومهم دار البوار، وهو الموت والهلاك؛ بسبب أنهم قابلوا نعمة الله بالكفران.

تَوْبِيخٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِكُلِّ مُشْرِكٍ فِي سَاحَةِ الْحَشْرِ

١٩- ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ[1] فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ[2] صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ

---

(١) قرأ قنبل بخلف عنه بياء الغيبة في (بما تقولون) على أن الكاف في (كذبوكم) للمشركين، والواو فيها وفي (يقولون) للمعبودين من دون الله، والمعنى: فقد كذبكم - أيها المشركون - المعبودون بقولهم: (سبحانك ما كان ينبغي لنا)، وقرأ الباقون بتاء الخطاب، وهو الوجه الثاني لقنبل، بمعنى: فقد كذبكم - أيها المشركون- المعبودون في قولكم: إنهم أضلوكم.

(٢) قرأ حفص بتاء الخطاب في (فما تستطيعون) والمخاطب هم المشركون، والباقون بياء الغيبة على إسناد الفعل للمعبودين.

نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾

هذا خطاب من الله - تعالى - إلى الكفار على سبيل التقريع والتبكيت؛ حيث يقول لهم: ها قد كذَّبكم الذين عبدتموهم من دون الله بما تقولون، في أنهم دعوكم إلى عبادتهم، فقد تبرؤوا منكم اليوم، وكفروا بعبادتكم، وها هو العذاب قد حلَّ بكم، وأنتم لا تملكون دفعه عنكم، ولا تستطيعون نصر أنفسكم، ولا يوجد من يحول بينكم وبينه، فلا فكاك لكم منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف].

فهؤلاء هم الذين عبدتموهم من دون الله؛ قد كذَّبوكم في زعمكم أنهم أولياؤكم، وأنهم شفعاء ووسطاء لكم عند الله تعالى.

ثم يأَّسهم الله بأنهم لا يملكون دفع الضر عنهم يوم القيامة ولا ينفعونهم في شيء، ولا يستطيعون نصر أنفسهم، ولا نصر غيرهم، **والصرف**: هو دفع العذاب.

ثم وجَّه - سبحانه - الخطاب لخلق الله جميعًا بأن من يظلم نفسه بالشرك فيعبد غير الله، ويمت على ذلك، نذقه عذابًا شديدًا في نار جهنم، فالظلم أنواع، وأعظم الظلم هو الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وبهذا فقد أقام الله الحجة عليهم، فأخرس ألسنتهم وجعلهم أهلًا لنزول العذاب.

أما المعاند منهم الذي عرف الحق ولم يعمل به، فقد قال تعالى في حقه ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ فيترك الحق عنادًا وتكبرًا ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ لا يحيط به وصف.

جَمِيعُ الرُّسُلِ يَأْكُلُونَ، وَيَقْضُونَ حَاجَاتِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ

٢٠- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

يردُّ الله - سبحانه - على شبهة الذين قالوا في أول السورة: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ ببيان أنك - أيها الرسول الكريم - لست بدعًا من الرسل ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]. فما من رسول أرسله الله قبلك -

أيها الرسول - إلا وهو بشر يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق؛ ليكتسب، ويتاجر، ويقضي حاجته، فلست وحدك هكذا، إنما هي سُنَّة الله في رسله جميعًا، فجميع الرسل متصفون بصفات البشر، والمشركون لم ينكروا وجود الرسل قبل محمد ﷺ، كما قال تعالى على لسانهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

وما داموا معترفين فهم بالضرورة من البشر، يأكلون الطعام ويمشون في أسواق المدن والبادية، ويحْضُرون مجامع الناس ونواديهم؛ إذ لا حاجة إلى تغيير نمَط حياتهم المادية

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقال أيضًا ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء].

والحكمة تقتضي إعدادهم نفسيًّا لتلقِّي الفيوضات الإلهية، وهذه سُنَّة مستمرة في الرسل جميعًا، فلا وجه للطعن فيها، ولا وجه للاعتراض على سُنَّة من سنن الله تعالى. ولذا قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي أن القصد من هذه الفتنة، وهي اصطفاء الله تعالى بعض خلقه للرسالة، وكون بعض الناس غنيًا وبعضهم فقيرًا، وبعضهم صحيحًا وبعضهم مريضًا، وبعضهم طائعًا وبعضهم عاصيًا، وبعضهم رسولًا وبعضهم مرسل إليهم، فالدنيا دار ابتلاء واختبار، والقصد من هذا هو الابتلاء بالصبر ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ وذلك، ليعترض من لا يدرك حكمة الله تعالى وتدبيره، وليصبر من يثق بحكمة الله في سننه، فالفقير مبتلى بالغني، والمريض مبتلى بالصحيح، والضعيف مبتلى بالقوي، وهكذا، ، كلٌّ يقول: ليتني مثل الآخر، وقد تكون الفتنة عكسية.

جاء في الأثر عن الحسن: لو شاء الله لجعلكم أغنياء كلكم لا فقير فيكم، ولو شاء الله لجعلكم فقراء كلكم لا غني فيكم، ولكن ابتلى بعضكم ببعض[1].

وقد مرَّ بنا أن النبي ﷺ لو شاء لأجرى الله له جبال مكة ذهبًا، وقد حسده كبار قريش على نعمة النبوة، وهذه فتنة لهم، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤]. وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف].

(١) ابن أبي شيبة (١٣/ ٢٢٦) مختصرًا.

فهم يقولون: فلان وفلان، هم كبار الناس، فلماذا لا تنزل عليهم الرسالة، ونزلت على هذا اليتيم الضعيف؟ فكان حال الرسول هذا فتنة للمشركين، و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ولما أسلم: عَمَّار، وبلال، وصُهَيْب، وسلمان، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، نظر إليهم: أبو جهل، والعاص، والوليد، وغيرهم من كبار الكفار، فقالوا: أنؤمن فنكون مثل هؤلاء؟ لو كان هذا الإيمان خيرًا ما سبقونا إليه، فكان هذا فتنة لهم، وسببًا في بقائهم على الكفر؛ لأنهم يأنفون أن يدخلوا في الإسلام، فيكونوا مثل هؤلاء الضعفاء، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وهذه الأنَفة، وهذا الكبر يحصل على مرِّ الأزمنة، وفي جميع الأمكنة من كبار القوم بالنسبة لضعفائهم، سِيَّمَا في طُرق الهداية والدعوة؛ ليبتلي صبرهم وجزعهم، ولو شاء الله لجعل الدنيا في أيدي الرسل فلا يخالفهم أحد، ولكنه سبحانه أراد أن يبتلي عباده بالرسل؛ ليظهر إيمانهم بهم من عدمه.

والله - سبحانه - جعل رسالة الرسل اختبارًا وابتلاءً مقصودًا؛ لتصبروا.

وجعل الله الأمر بالصبر في الآية في صورة الاستفهام ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ أي: اصبروا، كما قال تعالى في تحريم الخمر: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] أي: انتهوا، ثم حثهم على الصبر المأمور به في نهاية الآية، فقال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: عالمًا بمن يشكر ويصبر فيثيبه، ومن يكفر ويجزع فيعاقبه.

وقيل: إن الآية نزلت في ابتلاء فقراء المسلمين بالمستهزئين من قريش، كانوا يقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين تبعوا محمدًا ﷺ من موالينا وأراذلنا، فقال الله تعالى للمؤمنين: أتصبرون على هذه الحالة من الفقر والشدة والأذى؟

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخلْق، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فُضِّل عليه**»[1].

---

(١) هذا لفظ البخاري برقم (٦٤٩٠) ومسلم برقم (٢٩٦٣).

وفي رواية له أيضًا: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر ألا تزدرُوا نعمة الله عليكم**»(١).

وعن عياض بن حمار ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: ... إنما بعثْتُك لأبتليك وأبتلي بك...**»(٢)

وكان ﷺ قد خُيِّر بين أن يكون نبيًّا ملِكًا، أو عبدًا رسولًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا.

جَوَابُ الشُّبْهَةِ الرَّابِعَةِ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾

٢١- ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾

يجيب القرآن الكريم على الشبهة الرابعة التي قالها المشركون للنبي ﷺ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ أي: لماذا لم يُنْزِل الله عليه الملائكة؛ حتى يشهدوا له أنه محق في دعواه، أو يخبرنا ربنا بذلك؟

وقد جاء هذا القول ممن نفى الله عنهم الخوف والرجاء؛ لعدم إيمانهم بالبعث، وهم الكفار، فهم لا يؤملون بلقاء الله، ولا يخافون عذابه يوم القيامة، وينكرون ما فيه: من البعث والنشور، والحساب والجزاء، يقولون: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: لتشهد بصدق محمد ﷺ، أو ليكونوا رسلًا بدلًا من البشر، أو نرى ربنا ليخبرنا أنك رسول الله، إنهم يطلبون رؤية الله في الدنيا عيانًا، كما اقترح بنو إسرائيل وقالوا لموسى: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]. وهؤلاء يقولون: لو نرى ربنا ليشهد بصدق محمد ﷺ، وهم يتوهمون أن شبهتهم هذه أقوى حجة لتكذيب الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].

فمن أنتم - أيها الضعفاء المساكين - حتى تطلبوا رؤية الله تعالى، وتزعمون أن الرسالة يتوقف ثبوتها على ما تطلبون من اقتراحات؟

---

(١) وهذا لفظ مسلم برقم (٢٩٦٣) أيضًا.

(٢) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (٢٨٦٥).

والجواب: أن هذا طغيان زائد، ومبالغة في الكفر؛ ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ حيث طلبوا نزول الملائكة عليهم، وطلبوا رؤية الله - سبحانه -، لقد أُعجَبوا بأنفسهم، فاجترؤوا على هذا القول، وتجاوزوا الحد في طغيانهم وكُفْرهم، فأضمروا في أنفسهم الاستكبار عن الحق، وطلبوا مطالب هي أبعد مما بين الأرض والسماء، ومن ذلك قوله تعالى عنهم: ﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢].

فقلوب هؤلاء أشد من الحجارة وأصلب من الحديد، لا تلين للحق، ولا تصغى للناصحين، ولذا: لم ينجع فيهم وعظ ولا تذكير:

يقول - جلَّ شأنه - في الرد عليهم: ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ١١١﴾ [الأنعام].

نُزُولُ المَلَائِكَةِ لِبُشْرَى المُؤْمِنِينَ وَعَذَابِ الكَافِرِينَ

٢٢- ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٢٢﴾

بيَّن - سبحانه - في هذه الآية أن المشركين لا يرون الملائكة إلا في يوم عصيب، حين ينزل بهم العذاب الذي لا نجاة لهم منه، فيخبر - جلَّ شأنه - أن الملائكة ستنزل على الكفار، لا لتشهد بصدق الرسول ﷺ، ولا لتبشرهم بالجنة، وإنما تنزل لعذابهم، فيوم القيامة يرون الملائكة - كما طلبوا -، ويتحقق اقتراحهم الذي اقترحوه في الدنيا، ولكنها تنزل عليهم لتقول لهم: إن الجنة حرام عليكم، إنهم سيرون الملائكة، ولكنها رؤية تَسُوؤُهم، حين يرون زبانية العذاب يسوقونهم إلى النار، ويرونهم قبل ذلك حين تقبض أرواحهم وقت الاحتضار، وتبشرهم بالخيبة والخسران، وتبشرهم بالنار، فتقول للكافر حين خروج روحه: «**اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغسّاق، وآخر من شكله أزواج، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان فيقال: لامر حبًا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث،ارجعي ذميمة، فإنه لا يُفتح لك أبواب السماء، ثم تصير إلى القبر...**»[1].

---

(١) يُنظَر في هذا: حديث أبي هريرة في «المسند» برقم (٨٧٦٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) والنسائي في الكبرى (١١٤٤٢) وابن ماجه (٤٢٦٢، ٤٢٦٨) وابن حبان (٣٠١٤).

إنها بشرى بأحوال شنيعة، كما تجاوزوا الحد والطغيان، وطلبوا ما ليس من حقهم، ولم تبق لهم بارقة أمل في زحزحة ما نزل بهم حالًا أو مآلًا.

إن الملائكة تنزل لا لتبشر المجرمين، ولكن لتبشر المتقين بالجنة عند خروج الروح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠].

هذا هو نزول الملائكة بالنسبة للمؤمنين عند قبض أرواحهم.

أما نزول الملائكة للكفار فإنه يكون لإذاقتهم العذاب في **حالات خمس:**

١- يكون عند قبض أرواحهم؛ لضرب الوجوه والأدبار منهم، كما قال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ [محمد].

٢- ويكون لبسط أيديهم لهم بالعذاب وهم في سكرات الموت، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ -أي: بالعذاب- يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ مما أنتم فيه ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

٣- وتأتيهم الملائكة مرة أخرى في القبر؛ لتسألهم عن ربهم ونبيهم ودينهم، كما صح بذلك الخبر[1].

٤- وتأتيهم الملائكة يوم القيامة؛ لتسوقهم إلى أرض المحشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: تسوقهم الملائكة إلى جهنم، كما تساق الإبل العطشى إلى موارد الماء ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦].

٥- وتتولى الملائكة عذابهم في جهنم والعياذ بالله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٣١]. وقال سبحانه: ﴿عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

---

(١) من حديث البراء بن عازب في «صحيح مسلم» (٢٨٧١) والبخاري (١٣٦٩، ٤٦٩٩) وحديث أنس في «صحيح مسلم» (٢٨٧٠) و«صحيح البخاري» (١٣٣٨، ١٤٧٤)، وحديث أبي هريرة في صحيح ابن ماجه (٣٤٤٣، ٣٤٤٤)

وهذا بخلاف حال المؤمن فإنه يُبشر بالجنة، والخيرات، والمسرات:

عن أبي هريرة ﷺ أن الملائكة تقول لروح المؤمن: «**اخرجي أيتها النفْس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروْحٍ وريحان، ورب غير غضبان**»[(١)].

أما الكفار فإن الملائكة لا تبشرهم بالجنة، ولكن تقول لهم: لقد جعل الله الجنة مكانًا محرمًا عليكم، وهذا معنى ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: حرامًا محرمًا عليكم أن نبشركم بما نبشر به المتقين.

ولكن مَن القائل لهذه الجملة؟ هل هم الكفار، أم الملائكة؟

اختار الإمامان ابن جرير وابن كثير، وغيرهما: أنها من كلام الملائكة، كما قال ابن عباس ﷺ: تقول الملائكة للكفار: حرامًا محرمًا عليكم أن تكون لكم البشرى، أو مغفرة الذنوب، أو دخول الجنة، قلت: ولعله الأرجح.

واختار الشيخ الشنقيطي في «**أضواء البيان**» وغيره، أن هذا من قول الكفار؛ حيث يقولون للملائكة: حرامًا محرمًا عليكم أن تمسونا بسوء؛ لأننا لم نرتكب ما يستوجب ذلك، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ فقولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ أي: إننا لم نفعل ذنبًا نعذب عليه، فتعذيبنا حرام محرم عليكم، فردَّ الله عليهم وكذَّبهم في دعواهم بقوله: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ لَا فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ﴾ [النحل: ٢٨، ٢٩].

وكانت العرب إذا نزل بهم شدَّة أو شيء يكرهونه يقولون: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

والكفار يقولون ذلك أيضًا إذا رأوا الملائكة، وكان الرجل إذا لقي من يخافه في الشهر الحرام يقول له: حجرًا، أي: حرام عليك أن تؤذيني.

وهكذا يظن المشركون أن هذا القول ينفعهم في الآخرة، كما كان ينفعهم في الدنيا.

---

(١) «المسند» (٨٧٦٩) وهو حديث صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وابن ماجه (٤٢٦٢) وصحيح ابن ماجه (٣٤٣٧) وهذا لفظه و«سنن النسائي الكبرى» (١١٣٧٨).

الْعَمَلُ الصَّالِحُ مِنَ الْكَافِرِ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ

٢٣- ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ٢٣﴾

قد يظن غير المسلمين أن العمل الصالح يجلب لهم الخير في الدنيا، فيزيدهم الله من نعمه، وهم في الوقت ذاته لا يؤمنون بالله ورسوله، ولا يصدقون بالبعث والنشور، ويقولون: إن كان البعث حقًّا فستكون أعمالنا من البر، وصنوف الخير -كإطعام المساكين، وصلة الرحم، وإكرام الضيف، ومساعدة الضعفاء- سببًا لنجاتنا.

فأخبر الله - سبحانه - بأن هذه الأعمال كالعدَم؛ لأن القلب غير موصول بالله تعالى، والعمل غير قائم على الإيمان، فهو عمل باطل لا ينفع، كالهباء المنثور، وهو الغبار الخفيف الذي يُرى في شعاع الشمس؛ إذ لا ينفع من الأعمال في الآخرة إلا ما توافر في صاحبه:

١- إخلاص الإيمان بالله تعالى، وعدم الشرك به.

٢- والموافقة لهدي رسول الله ﷺ وعدم الابتداع في الدين.

فالأعمال التي عَمِلها غير المسلمين في الدنيا من أعمال البر والخير لا قيمة لها، ولا وزن لها؛ لأن شرط الإيمان مع الإخلاص فيه لله - سبحانه -، وشرط المتابعة لرسول الله ﷺ غير متحقق، ولذلك كان عملهم هباء منثورًا، والهباء لا يُرى في الظلام، ولا تمسه الأيدي، ولا يُقبض باليد لخفته، ولا يوزن ولا يُكال.

وعمل الكافر هكذا لا قيمة له، ولا وزن له، فقد خسروه وحُرموا أجره.

وهذا كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩].

وقوله - سبحانه - عن المنان المؤذي المرائي بصدقته: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ [البقرة: ٢٦٤].

نَعِيمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ

٢٤- ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

يلتفت السياق إلى الجانب الآخر المقابل لأهل النار؛ ليتم التقابل بين أهل الشقاء، وأهل النعيم، وبضدها تتميز الأشياء، فالمؤمنون في السعادة والنعيم المقيم، وهم في الجنة مستقرون مستريحون، ناعمون في الظلال الوارفة، والقصور العالية، راحتهم تامة، ونعيمهم لا يشوبه كدَر.

والكفار في دركات الجحيم، **والمستقَر**: هو مكان الإقامة الدائم. **والمقيل**: هو المكان الذي يأوي إليه الإنسان للاستراحة من الحر في وقت القيلولة.

أي: إن أهل الجنة الذين عملوا لها في الدنيا يكونون يوم القيامة خيرًا من غير المسلمين مكانًا واستقرارًا، ومنزلة ينزلون فيها، ويكونون أحسن منهم في وقت القيلولة، فهم في مقام أمين، حسن المنظر، طيب المقام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان]. وهم في الغرفات ودرجات الجنات آمنون، كما بيَّن ﷻ أن من آمن وعمل صالحًا في غرفات الجنة آمنون ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

فأهل الجنة يقول الله تعالى عنهم: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

وفي مقابلهم يقول تعالى عن أهل النار: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾.

يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: إن الله تعالى يحاسب الخلق في مقدار نصف يوم، فلا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار(١).

وقد استنبط بعض العلماء من هذه الآية أن حساب أهل الجنة يسير، وأنه ينتهي في وقت قصير، لا يتجاوز نصف النهار؛ لأن وقت القيلولة الذي يستريح فيه أهل الإيمان يكون في نصف النهار.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ

---

(١) «تفسير الطبري» (١٧/ ٤٣٤) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٨٠) والحاكم (٢/ ٤٠٢).

﴿مَسْرُورًا ۝٩﴾ [الانشقاق].

قال ابن عباس: الحساب اليسير: أن يُعْرَضُوا على ربهم عَرضة واحدة.

وقال سعيد الصواف: بلغني أن يوم القيامة يقصُر على المؤمن، حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وإنهم لَيقيلُون في رياض الجنة، حتى يفرغ الناس من الحساب[١].

وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة أنه قال: إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، هي الساعة التي يكون فيها ارتفاع الضحى الأكبر، إذا انقلب الناس إلى أهليهم للقيلولة، فينصرف أهل النار إلى النار، ويقيل أهل الجنة في الجنة، ويُطعَمُون كبِد الحوت فيشبعهم[٢].

وإن هذا اليوم ليخفّ على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا، ويثقل على الكافر حتى يكون كألف سنة مما تعدون.

مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ

٢٥- ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ[٣] ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ[٤] ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾

أي: إن يوم القيامة يوم تُفتح فيه الحدود، وتزول فيه الحواجز التي كانت تمنع الملائكة من مبارحة سمواتهم، إلا لمن يؤذن له بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩﴾ [النبأ].

فتنشق السموات وتتفتق، ويكون هذا بمثابة الإذن للملائكة بالحضور إلى موقع الحشر والحساب.

وآيات القرآن الكريم تشير إلى أن نهاية هذا العالم ستكون مُرَوِّعة، تنبئ عن أحداث فلَكية ضخمة، فالأرض ترجُف وتُدك، والجبال تُنسف وتُسيَّر، والبحار تُفجَّر وتُسجَّر،

---

(١) «تفسير الطبري» (١٧/ ٤٣٥).

(٢) ابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٨١).

(٣) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الشين من (تشقق) مضارع أصله تتشقق، والباقون بتشديدها على الإدغام.

(٤) قرأ ابن كثير بنون مضمومة بعدها نون ساكنة مع تخفيف الزاي من (ونزل) مضارع أنزل، والملائكة مفعول به، والباقون بنون واحدة مضمومة وزاي مشددة، والملائكة نائب فاعل.

فتصبح نارًا، والنجوم تُطمس وتنكدر، والكواكب تتناثر وتتحطم، والسماء تُشقق وتنفطر، وتختل المسافات، فيُجمع الشمس والقمر، وتبدو السماء مرة كالدخان، ومرة حمراء ملتهبة، وفي هذه الآية يخوِّف الله تعالى الخلائق **بثلاثة أمور**:

الأول: تتشقق السماء يوم القيامة، فتتصدع وتنفطر، وتكون طرقات وأبوابا، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن].

وقال: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحاقة].

وقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق].

وانشقاق السماء يكون بسبب نزول الغمام، وانبثاقها عنه في ساحة العرض والحساب.

الثاني: يخلُق الله غمامًا فيه قوة، تنشق به السماء لنزول الملائكة، كقوة البرق الذي يشق السحاب، وهذا الغمام: سحاب رقيق، يغشى مكان الحساب في أرض المحشر، فيستره الله ويغطيه، وهو سحاب يعمُّ الجوَّ ويُظلمه، وتُغمُّ القلوب من رؤيته وشدة ظلمته، بما يشبه الضباب الكثيف، وهو الذي أظل الله به بني إسرائيل في التيه.

الثالث: نزول الملائكة من السموات، وفي أيديهم صُحف أعمال العباد، فتحيط بالخلائق صفوفًا في أرض المحشر، فتنشق السماء الدنيا، ويخرج أهلها وهم أكثر ممن في الأرض من الإنس والجن، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة].

وهكذا في هذه الآية يبيِّن - جلَّ شأنه - ما يحدث يوم القيامة من الانقلاب الهائل الذي تتشقق فيه السماء، وتتناثر فيه النجوم، وتُسيَّر فيه الجبال، وتُسجَّر فيه البحار، وتُبعثر فيه القبور، فيظهر من فتحاتها سحاب أبيض دقيق، كالضباب المظلم الذي نزل على بني إسرائيل، يظلُّهم من وهج الشمس، وهذا الغمام تتفتح بسببه السماء يوم القيامة، فينزل معه ملائكة الرحمن، ومعهم صحف أعمال العباد بأيديهم، فيحيطون بالخلق جميعًا في أرض المحشر، ويكونون صفًّا واحدًا محيطًا بالخلائق، أو أن أهل كل سماء يكونون في صف واحد محيط بالخلائق، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر].

ولمجيء الله - سبحانه - يوم القيامة للفصل بين العباد، تتشقق السماء الدنيا فينزل

أهلها، ثم أهل السماء الثانية، وهم أكثر من أهل السماء التي دونها وهكذا، حتى ينزل حملة العرش والكرسي، كما ورد بذلك الخبر عن ابن عباس. ﷺ

مَالِكُ المُلْكِ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ

٢٦- ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

وفي هذا اليوم الذي تنزل فيه الملائكة، وتحيط بالخلائق في أرض المحشر، فإن الملْك -الحقيقي الثابت الذي لا يحول ولا يزول- لله سبحانه.

والمُلْك الذي يكون في الدنيا لزيد أو لعمرو، أو يكون لملك أو لرئيس أو أمير أو حاكم، هو مُلْك مؤقت، كالكرسي المؤقت، وهو ليس بملك على الحقيقة؛ لأن مالكه لا يملك موتًا ولا حياة ولا رزقًا، ولا إخراج النبات من الأرض، ولا إنزال الماء من السحاب . . ، ومن لا يملك تدبير الأمور في مُلكه فليس بمَلِكٍ على الحقيقة.

أما الملْك الدائم الذي لا يشارك فيه أحد، فهو لله - سبحانه - في الدنيا والآخرة، وخصَّ الآخرة بالذكر، مع أنه - جلَّ شأنه - مالك لهذا الكون بما فيه ومن فيه، في الدنيا والآخرة؛ لأن في ذلك ردًا على الكافرين الذين زعموا أن أصنامهم ستشفع لهم يوم القيامة، ولبيان أن الملْك الحقيقي يكون لله الواحد القهار الذي تخضع له الملوك، وتعنو له الوجوه.

وقد نُسب المُلْك للرحمن الذي سبق غضبه رحمته، والذي وسعت رحمته كل شيء، ولم ينسبه للجبار، وكلاهما من أسماء الله جلَّ شأنه

ويوم القيامة يوم عسير، على الكافرين غير يسير، قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر]. وقد ورد أن هذا اليوم على المؤمن أخف من صلاة مكتوبة، كما بين صلاتي العصر والمغرب.

وفي الآية الأخرى قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يطوي الله ﷻ يوم القيامة السموات بيمينه، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟**

أين المتكبرون؟»[1].

النَّهْيُ عَنْ جَلِيسِ السُّوءِ

٢٧، ٢٨- ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى[2] ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾

بيَّن ﷻ في هذه الآية ما سيكون عليه الكافر يوم القيامة من حَسْرة وندامة، وهو مشهد من مشاهد القيامة، يبيِّن الله تعالى فيه أثر الجليس الصالح، والجليس السوء في الدنيا، وذلك أن عقبة بن أبي معيط صنع وليمة، ودعا لها كبار قريش، ودعا النبي ﷺ، فأبى - عليه الصلاة والسلام - أن يأكل من طعامه حتى يُسْلِم، فأسلم الرجل، ونطق بالشهادتين، فبلغ ذلك صديقه وخليله أُبيَّ بن خلف، فقال له: أصبأت عن دين قومك؟ قال: لا، ولكني استحييت؛ فقد أبى الرجل أن يأكل من طعامي حتى أنطق بالشهادتين فنطقتُ بهما، قال أُبَيّ لِعقْبة: ما أنا بالذي يرضى عنك أبدًا إلا أن تأتيه، فتبصق في وجهه، فكان من عقبة أن رجع إلى الكفر، وآذى النبي ﷺ وهو ساجد، وارتد عن الإسلام، فقال ﷺ لعقبة بن أبي معيط: **«لا أراك خارجًا من مكة إلا علوْتُ رأسك بالسيف»**، فقُتل عُقبة يوم بدر صبرًا، وأما أُبَيُّ بن خلف فقتله النبي ﷺ بيده يوم أحد.

وفي بعض الروايات أنه لما أسلم عقبة قال له: وجهي من وجهك حرام إن تابعت محمدًا، فكفر عقبة وارتد[3]، وحدث مثل ذلك مع أمية بن خلف.

والحكم في الآية عام يشمل كل صديق أضلَّ صديقه، وكان سببًا في صدِّه عن متابعة الإسلام، كما يشمل كل من تأثر بغيره، فكم من صديق يكون سببًا في ضلال صديقه، وكم من صديق يأخذ بيد صديقه إلى النار، وهذا حال الجليس السوء، وهو يشبه نافخ الكير إما أن يحرقك، وإما أن تشم منه رائحة منتنة.

---

(١) من حديث عبد الله بن عمر في «صحيح مسلم» برقم (٢٧٨٨) وهذا لفظه وهو في البخاري برقم (٤٨١٢، ٦٥١٩، ٧٣٨٢).

(٢) قرأ أبو عمرو بفتح ياء الإضافة من (يا ليتني اتخذت)، والباقون بإسكانها.

(٣) وردت هذه القصة ونحوها من عدة طرق، يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٩/٨) و«الدر المنثور» (٥/٦٩) وأبو نعيم (٤٠١) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٨٣) وغيرهم.

وفي سورة (الصافات) [٥١-٥٧] يُقسم صديقٌ يوم القيامة أن صديقه في الدنيا كاد أنْ يضله ويغويه، ويأخذ بيده إلى النار: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ -أي: من أهل الجنة- ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ -أي: صديق في الدنيا- ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ إنه يدعوه إلى الكفر ويقول له: أإنك لمن المصدقين بالبعث والحساب والجنة والنار؟ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ ومجْزيُّون بأعمالنا ﴿قَالَ﴾: لمن معه من أهل الجنة بعد دخولها: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ معي؟ تعالوا ننظر إليه ﴿فَٱطَّلَعَ﴾، واطلعوا معه ﴿فَرَءَاهُ﴾ ورَأوْهُ ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: في وسط جهنم ﴿قَالَ﴾ له: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ أي: لقد قاربت أن تهلكني معك بإغوائك وإضلالك ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ معك الآن في النار.

فلا ينبغي للمرء أن يتخذ له خليلًا، إلا ممن يأمن السلامة من جانبه، وعدم الوقوع فيما يحمله على سوء الأفعال والأقوال، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: ١١٨].

ولما كان مقام النبوة يستدعي من الأخلاق ما هو فوق مكارم الأخلاق، قالت عائشة ﵂ عن النبي ﷺ: كان خلقه القرآن.

ولما كان أفضل الأمة بعد الأنبياء والمرسلين هو أبو بكر ﵁، فإن النبي ﷺ قال فيما يرويه عبد الله بن مسعود ﵁: **«ولو كنت متخذًا من الناس خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلا»**[1].

وندَمُ الظالم الذي فارق طريق الحق بسبب الجليس السوء، وعضُّه على يديه حسرة وأسفًا يوم القيامة، يكون ذلك في وقت لا ينفع فيه الندم، وهو يقول: يا ليتني لم أتخذ الكافر صديقًا أتَّبعه، وأقتدي به.

وكل خارج عن طاعة الله يندم غاية الندم يوم القيامة، ويعضُّ على يديه، سواء في ذلك أُبيّ بن خلف، أو أخوه أُمية بن خلف، أو عقبة بن أبي معيط، أو غيرهم، فالكلام عام، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا

(١) من حديث ابن مسعود في «المسند» (٢٤٣٢، ٣٥٨٠، ٣٩٠٩، ٤١٢١) بإسناد صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه البخاري (٤٦٧) وأبو يعلى (٢٥٨٤) وابن حبان (٦٨٦٠) والطبراني (١١٩٣٨) وابن أبي عاصم في السنة (١٤٦٣).

كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ [الأحزاب].

فاذكر -يا محمد- يوم يعضُّ الظالم على يديه ندامة وتحسرًا وحُزنًا وأسفًا قائلًا: يا ليتني صاحبتُ رسول الله محمدًا ﷺ، واتبعْتُه في اتخاذ الإسلام طريقًا إلى الجنة.

وهكذا يندم الظالم الذي أشرك بالله، أو فرَّط في جنب الله، ويعَضُّ كِلْتا يديه ندمًا وحسرة، يقول: يا ليتني، سلكت طريق الهداية التي جاء بها محمد ﷺ.

ثم: إن الظالم يدعو على نفسه بالويل والهلاك، ويقول: يا ليتني، لم أصاحب فلانًا، ولم أسلك طريق الضلال معه. وسواء أكان سبب نزول الآية هو قصة إسلام عقبة بن أبي معيْط ثم ردَّته أم غير ذلك، فإن المعنى عام يشمل كل صديق سيئ، وقرين ظالم.

ثم ذكر الصديق سبب هذا الندم وهذه الحسرة فقال:

٢٩- ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

لقد أضلني هذا الصديق عن الهداية والإيمان، والتوحيد والقرآن بعد أن هداني الله إلى طريق الرسل والكتب، والدعاة إلى الله الذين بلَّغوني إياه.

وكان الشيطان صارفًا للإنسان عن الحق، مُحَرِّضًا له على الباطل، فإذا احتاج إليه الإنسان لنَصْرِه ودفع العذاب عنه خذَله وتركه، وفرَّ عنه يوم القيامة، فهو عدو مضل له، يورِّطه في الدنيا، ولا ينصره يوم لقاء رب العالمين، حين يقول الشيطان وهو يخطب في الناس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وهكذا شأن من يتبعون الشيطان، وشأن أصدقاء السوء، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف].

وقد أرشد الإسلام المسلمين إلى اتخاذ الصديق الصالح، ونهاهم عن اتخاذ صديق السوء.

عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«مثل الجليس الصالح وجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا**

خبيثة»[١]. فلينظر العبد من يجالس؟ وليتدارك نفسه في وقت المهلة، وليصادق الصالحين، ويترك من تضره صداقتهم.

هَجْرُ الْقُرْآنِ

٣٠- ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾

أي: ومنْ ضلال بعض الناس نبْذُ القرآن حفظًا وتلاوة، وعلمًا وعملًا، وتدبرًا واتعاظًا، وهداية واستشفاءً، ومن ثَمَّ يشتكي النبي ﷺ إلى ربه هجْر قومه للقرآن بإعراضهم عنه، وعدم سماعهم له.

والكفار لا يصْغُون للقرآن، ويكثرون من اللغط فيه، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾ [فصلت: ٢٦].

والمقصود من الآية: التحريض على تلاوة القرآن، والاستماع إليه، وتدبره، والعمل بما فيه، والتحذير من هجره كما فعل هؤلاء الذين تمادوا في الإعراض عنه، هجروا قراءته، أو هجروا سماعه، أو هجروا تدبُّره، أو هجروا العمل بما فيه، أو هجروا حلاله وحرامه، أو هجروا تحكيمه والتحاكم إليه، أو هجروا التداوي والاستشفاء به، وبعضُ الهجْر أهون من بعض، وفي هذا تخويف عظيم لمن هجر القرآن ولم يعمل به.

وفي الآية التالية تسلية للنبي ﷺ ببيان أن المكذبين للنبي ﷺ لهم نظائر في الأمم السابقة، فقال تعالى:

٣١- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٣١﴾

أي: وكما حصل لك -أيها الرسول- من الذين هجروا القرآن، فعادَوْك وآذَوْك، حصل مثل ذلك في الأمم الماضية، وهكذا بيَّن - سبحانه - في هذه الآية أن ما لقيه الرسول ﷺ من أذى قومه له إنما هو سُنَّة في الأمم مع أنبيائهم؛ حيث يقول - سبحانه - مسليًا رسوله ﷺ ومبيِّنًا له: إنه كما جعلْنا لكل نبي سبقك عدوًّا من المجرمين، جعلْنا لك أعداء من قومك، وحالك معهم كحال من كذَّبوا قوم: نوح، وعاد، وثمود.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٢٨) و«صحيح البخاري» برقم (٥٥٣٤) وانظر: (٢١٠١).

وأعداء الأنبياء من جملة المجرمين، فاصبر كما صبر من سبقك من الرسل؛ فإن الله هاديك، وناصرك عليهم

وفي هذا بيان أن الله تعالى كافٍ في هداية قومه الذين أعرضوا عنه، وأصرُّوا على عداوته، ولو شاء الله لهداهم أجمعين، وهو - سبحانه - كافٍ في نصر من يريد أن ينصره على عدوه، ولو شاء - سبحانه - لاستأصلهم وأهلكهم أجمعين، ولكن كما قال ﷺ في حديث عائشة ﵂: «**بل أرجو أن الله يُخرِجَ من أصلابهم من يعبد الله**»(١).

ولله الحكمة البالغة في تصدِّي المجرمين لعداوة الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى؛ كي يقْوى عُود الدعوة ويشتدَّ، وتتميز الدعوات الحقة من الدعاوى الكاذبة، فتنتشر الدعوة الحقة وتعمُّ، وتمضي في اجتياز امتحانها وبلائها، وهي تشق طريقها بين الأشواك والصخور في خطوات ثابتة وئيدة.

من أجل هذا جعل الله لكل نبي عدوًّا من المجرمين يقفون في وجه الدعوة، ويكافحهم الدعاة، مستميتين في نُصرتها، حتى تنتهي المسيرة بالهداية الحقة، ونصر الله لهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وفي هذا بيان أن الحق يعلو على الباطل، وأن الحق يتبيّن ويتضح كاملًا بمعارضة الباطل له، فلا تحزن - أيها الرسول - ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فكفى بربك هاديًا ونصيرا.

طَلَبُهُمْ نُزُولَ الْقُرْآنِ جُمْلَةً وَاحِدَةً وَالرَّدُّ عَلَيْهَا

٣٢- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾

أي: ومن جملة مقترحات المكذبين بالرسالة أنهم يطلبون نزول القرآن على صاحب الرسالة جملة واحدة، فرد الله عليهم بأن القرآن نزل هكذا مفرقا لتثبيت قلب النبي ﷺ وليكون أعون على فهمه مع أسباب النزول، وعلى حفظه وترتيله شيئًا فشيئًا.

(١) يُنظر: صحيح البخاري برقم (٣٢٣١) عن عائشة وصحيح مسلم (١٧٩٥).

جاء في **أسباب النزول** عن ابن عباس ﷺ أن المشركين قالوا: إن كان محمد نبيًّا كما يزعم، فلِمَ يُعذِّبه ربه؟ ألا يُنزل عليه القرآن جملة واحدة؟ بدل أن ينزل عليه الآية والآيتين، فأنزل الله هذه الآية[1].

ومن الشُّبه التي أوردوها أنهم قالوا للنبي ﷺ: هلَّا نزل عليك القرآن دفعة واحدة، كما نزلت الكتب السابقة على مَن قبلك من الرسل؟ وهذا حسب زعمهم، وإلا فهم جاهلون لا يدرون كيفية نزول كتب الله على أنبيائه، فكتابا العهدين القديم والجديد استغرقا قرونًا طويلة، ولم ينزل شيء من كتب الله جملة واحدة على رسول من رسله، وإنما كان وحيًا مفرقًا، فقد نزلت التوراة على موسى ﷺ في الألواح، عشر كلمات، بمقدار سورة (الليل) من القرآن. وإنجيل عيسى ﷺ ليس إلا أقوالًا نطق بها في الملأ، ثم كتب الحواريون من حِفْظهم أناجيل عدة في أزمنة لاحقة، وزبور داود نزل قِطَعًا كثيرة، ولم تنزل هذه الكتب أسفارًا تامة.

والذين قالوا هذا من المشركين أو اليهود، قالوه: جهلًا، أو عنادًا، أو بهتانًا، أو نسيانًا، واعتراضهم هذا أو سؤالهم، فيه سوء أدب، فقد طلبوا ما لا يعنيهم، واقترحوا ما لا مدخل لهم فيه، ولا علم لهم بحكمته.

وإذن فمن الأمور الشائعة أن الكتب السابقة: التوراة، والإنجيل، والزبور، نزلت دفعة واحدة، والصحيح أنها نزلت مفرقة كالقرآن، ولم تنزل جملة واحدة.

قال الإمام الشوكاني في «**فتح القدير**»: هذا زعم باطل، ودعوى داحضة، فإن هذه الكتب نزلت مفرقة.

ويقول - جلَّ شأنه - في بيان الحكمة من إنزال القرآن مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة على النبي ﷺ وفق الحوادث، والوقائع، والأحوال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: أنزلناه في هذه المدة ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي: ليقوى قلبك فتعِيَه، وتحفظه شيئًا فشيئًا، وتثبيت الفؤاد فيه خيْر النفْس وسكونها واطمئنانها، وعدم اضطرابها وقَلَقِها، وقد كان النبي ﷺ أميًّا فكيف

---

(١) «أسباب النزول» للسيوطي (٢٠٦) و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٨).

يحفظ القرآن دفعة واحدة؟

والقرآن نزل مفرقًا ليسهُل استيعابه وحفظه، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء].

أخرج الحاكم بسند صحيح عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال: فُصِل القرآن من الذكر، فوُضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل ﷺ ينزله على النبي ﷺ، ويرتله ترتيلًا[١]. وهذا القول موقوف على ابن عباس ﷺ.

وأخبر عبد الرزاق عن معمر عن الحسن بسند صحيح قال: كان القرآن ينزل آية وآيتين وآيات، جوابًا لهم، وردًّا عن النبي فيما يتكلمون به، وكان بين أوله وآخره نحوٌ من عشرين سنة[٢].

وكان الصحابة ينزل عليهم عشر آيات، فلا ينتقلوا إلى غيرها حتى يحفظوها ويفهموها ويعملوا بما فيها. ولو لم ينزل القرآن مفرقًا على حسب الحوادث لمَا ظهر في كثير من آياته مطابقتها لمقتضى الحال ومناسبتها للمقام، وهذا من إعجاز القرآن.

لقد نزل القرآن لِيُربِّي أمة تُنشئ مجتمعًا، وتُقيم نظامًا، فيه تشريع للحياة، وتربية بالقرآن، فهو ليس كتاب ثقافة، ولا كتاب معرفة، إنه كتاب هداية وتشريع، ومنهج حياة، وتربية، وهذا المنهج يحتاج إلى تدرج في التشريع، ولذلك كان من حكمة نزول القرآن مفرقًا، ووجود الناسخ والمنسوخ، وتدرج التشريع بالنسبة للخمر، وبالنسبة للربا وغيرهما؛ تربية الأمة، وإقامة المجتمع المثالي.

ومع أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة، فإنه بعد تمام نزوله جاء مرتبًا مفصلًا واضحًا، متناسبًا متناسقًا، كأنه نزل جملة واحدة، وقد أُمرنا بقراءته بتمهُّل وتبيُّن وتثبُّت؛ ليقْوى القلب، ويزداد طمأنينة، فأمر الله سبحانه بترتيل القرآن، والترتيل هو التتابع، بعضه يتلو بعضًا، مع التؤدة والتدبر، فقال تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾. وقال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

---

(١) «المستدرك» (٢/ ٢٢٣) صححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٢) وأخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، انظر: عبد الرزاق (٢/ ٦٩) والطبري (١٧/ ٤٤٧) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٩٠).

ومن الترتيل: عدم اللحن في الحركات والحروف والأداء المنقول إلينا بالتواتر عن رسول الله ﷺ بالمد والغنة والإظهار والإدغام وما إلى ذلك، ونحن متعبدون بإقامة الألفاظ وسلامتها كما نحن متعبدون بالتدبر والعمل بما فيه.

واللحن في القرآن محرم وإن لم يغيّر المعنى، لأن الكلمة، في هذه الحالة لا تكون قرآنًا، ويكون فيها تغيير وتحريف وهذا ينافي حفظ الله لكتابه قال تعالى في الرد على أهل الشبه.

٣٣- ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

يخبر - سبحانه - أن الكفار لا يأتون بشبهة يعارضون فيها صاحب الرسالة، إلا جئناك -يا محمد- بالحجة الدامغة، والرد القاطع؛ فأعداء الإسلام في كل زمان ومكان يجادلون بالباطل، والله تعالى يردُّ عليهم باطلهم بالحق الذي يدمغه، وقد طمْأن الله تعالى رسوله ﷺ بإمداده بالحجة البالغة كلما فتحوا بابًا للجدل، وكلما اقترحوا اقتراحًا، أو اعترضوا اعتراضًا.

وقد ذَكرت هذه السورة جملة من شُبههم وشكوكهم في مثل قوله تعالى حكاية عنهم:

(أ) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [٤].

(ب) ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾.

(ج) ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾.

(د) ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [٨].

(هـ) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [٢١].

(و) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [٣٢].

وهكذا قال تعالى لرسوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

وقال في الآية التي معنا: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: بحجة أو شبهة يواجهونك بها على وجه المعارضة منهم مما سبق ذكره ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الذي يُبطل شُبْهتهم ويَدْحضها، وذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [٦].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾[٢٠].

وإبطال حججهم يكون بكشف الحجة، وبيان المعنى بما هو أحق في الاستدلال، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ أي: أفضل بيانًا وتفصيلًا، فمعانيه كلها حق وصدق، لا يشوبها باطل ولا شبهة، وألفاظه واضحة فصيحة، مبينة للمعاني.

سُوءُ مَصِيرِ الْكُفَّارِ

٣٤- ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾﴾

وتنتهي هذه الجولة في السورة ببيان سوء مصير الكفار حين يُحشرون على وجوههم يوم القيامة بسبب أقوالهم الباطلة، وأفعالهم القبيحة، وفي هذا إهانة وتحقير لهم مقابل كِبرهم وإعراضهم عن الحق.

قال - سبحانه - مبيِّنًا مصير أعداء الإسلام في الآخرة: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ في أبشع منظر وأقبح صورة تسحبهم ملائكة العذاب وتجرّهم -نعوذ بالله- ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ أي: شر الناس منزلة ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ وأبعدهم طريقًا عن الحق.

وقد بيَّن النبي ﷺ أن الناس يوم القيامة أصناف ثلاثة: منهم من يحشر راكبًا، وهم وُفود الرحمن، ومنهم من يُحشر ماشيًا، ومنهم من يُحشر على وجهه.

وفي حديث أنس ﷺ: أن رجلًا قال: يا رسول الله ،كيف يُحشر الكافر على وجهه؟ قال عليه الصلاة والسلام: **«أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»**؟[(١)]، زاد في رواية: أما إنه يتقي بوجهه كل حدب وصوب.

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر].

وقال تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩٧].

---

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» رقم (٤٧٦٠، ٦٥٢٣) و«صحيح مسلم» رقم (٢٨٠٦).

وقال سبحانه: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم].

وقال جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤].

وقال ﷻ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ [النمل: ٩٠].

سِتُّ أُمَمٍ أَهْلَكَهَا اللهُ تَعَالَى لِتَكْذِيبِ رُسُلِهِ

أَوَّلًا: فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ

٣٥- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

وبعد بيان مصير المكذبين المعاندين لرسول الله ﷺ يبيِّن ﷻ مصارع المكذبين لرسل الله في الأمم السابقة، والكفار الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ هم: كفار اليوم، وكفار الغد، وكفار الأمس، وهم الذين اقترحوا على النبي ﷺ جملة من الاقتراحات، واعترضوا على أن يكون الرسول من البشر، يأكل الطعام ويأتي النساء، واعترضوا على وضعه المالي، فاقترحوا أن يَنْزِل عليه كنز من السماء؛ حتى لا يحتاج إلى أحد من البشر، وطلبوا أن ينزل عليه ملَك من السماء يصدِّقه في دعواه، أو أن يرَوْا ربهم عيانًا فيخبرهم بصدق رسوله عليه الصلاة والسلام.

وعلى ضوء ما جاء في سورة (الفرقان)، فإن القرآن الكريم يسلك مع الكفار مسلكين:

المسلك الأول: يبيِّن لهم مصارع الأمم التي كذَّبت رسل الله: كالفراعنة، وقوم عاد، وثمود، وقوم نوح، وأصحاب الرس، وقوم لوط؛ كي يعتبروا ويتعظوا، بما حلَّ بهذه الأمم التي كذَّبت رسلها؛ لئلَّا يصيبهم ما أصاب مَنْ قبلهم.

والمسلك الآخر: عليهم أن يُعْمِلُوا العقل والفكر والنظر، ويتأملوا في خالق هذا الكون، ومبدعِه ومدبِّر أموره وأحواله؛ فإن الله ﷻ قد أرسل موسى عليه السلام، وأنزل عليه التوراة، وأيده بتسع آيات بيِّنات، وأرسل معه أخاه هارون وزيرًا ومعينًا ومقوِّيًا له، أرسله إلى فرعون وملئه، فلما كذبوا موسى عليه السلام أغرق الله فرعون ومن معه، كما قال تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨].

وسورة (الفرقان) وهي تعرض لمصير ستٍّ من الأمم الماضية لا تُفصِّل قصتهم تفصيلًا،

وإنما تُعنى فقط بأخذ العبرة والعظة منها، وتُجمل القول فيهم إجمالًا، وتبيِّن في هذه الآية أن الله تعالى أرسل موسى بالوحي المنزل، وأرسل معه أخاه هارون وزيرًا ومعينًا له، كما طلب من ربه. قال تعالى:

٣٦- ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾

أي: فقلنا لموسى وهارون: اذهبا إلى فرعون وقومه الذين كذبوا بدلائل ربوبيتنا وألوهيتنا، وكذبوا بما أيد الله به موسى من المعجزات والآيات التسع، فذهبا إليهم، وبلَّغوهم دعوة الله، فكذبوهما وأعرضوا عن دعوتهما، وتمادوا في طغيانهم، فأهلكهم الله، قال سبحانه: ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾.

وهذا إجمال للقصة؛ لبيان العبرة والعظة، وكان ابتداء القصص في هذه السورة بذكر موسى وقومه؛ لأنه أقرب زمنًا من الذين ذُكروا بعده، ولأن بقايا شرعه وأمته كانت معروفة لدى العرب، ونزول الألواح التي كُتِب فيها التوراة كان قبل ذهاب موسى وهارون إلى فرعون، فالمراد بالكتاب هنا: الوحي الذي يُكتب ويُحفظ.

ثانيًا: قَوْمُ نُوحٍ

٣٧- ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

أما قوم نوح، فقد أرسل الله إليهم نوحًا مدة ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم إلى التوحيد الذي جاء به رسل الله جميعًا، فكذَّبوه ولم يؤمن به بعد هذه المدة الطويلة إلا نحو ثمانين ما بين ذكر وأنثى، فكان عاقبة ذلك أن أغرقهم الله بالطوفان حين كذَّبوه، ومن كذَّب رسولًا فقد كذَّب الرسل جميعًا.

وقوم نوح أول قوم كذبوا رسولهم، فكانوا قدوة لمن كذب الرسل بعدهم، وقدوة لمن اعترض على بشرية الرسول، حيث قالوا: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وقد جعل الله مصيرهم علامة دالة على تكذيبهم، وجعلهم دليلًا على سطوة الله تعالى بكل كافر بأنبيائه، وجَعَل غرقَهم عبرة للناس إلى يوم الساعة.

ثم بيَّن - سبحانه - سوء مصير كل ظالم وكافر بالله ورسله، فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة، فضلًا عما لحق بهم في الدنيا، وهذا العذاب الموجع لكل من سلك طريقهم في الإشراك بالله تعالى وتكذيب رسله.

ثَالِثًا وَرَابِعًا وَخَامِسًا: قَوْمُ عَادٍ وَثَمُودَ وَأَصْحَابُ الرَّسّ

٣٨، ٣٩- ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾

أي: وأهلك الله قوم عاد، ودمرهم تدميرًا كسائر الأمم الذين كذَّبوا رسل الله، وقوم عاد نبيهم هود، وقوم ثمود نبيهم صالح، وأصحاب الرس، وهي البئر المطوية غير المبنية، والقرآن الكريم لم يبيِّن مَن هُم أصحاب الرس، ولذلك فإن المفسرين أكثروا الحديث عنهم، واجتهدوا في بيان مَنْ هُم:

(أ) فمنهم من قال: إنهم أهل أنطاكية، التي تقع على نهر العاصي قُبيل مصبِّه في البحر المتوسط، قُرب اللاذقية بسوريا، وهم الذين قَتلوا حبيبًا النجار، وألقوه في البئر بعد أن بعثه الله إليهم، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس]. إلى آخر الآيات.

(ب) ومنهم من قال: إنهم أصحاب الأخدود، قرب نجران، وهم الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾﴾ [البروج].

(ج) ومن المفسرين من قال: إنهم من بقايا ثمود في مدائن صالح بالحجْر، وهم الذين كانوا يعبدون الأصنام أو الأشجار، وبينما كانوا يجلسون حول هذه البئر إذ انهارت بهم، وخسف الله بهم الأرض فأهلكهم.

(د) ومنهم من قال: إنهم قوم في عدن، كانوا يعبدون الأصنام، وقد أرسل الله فيهم نبيًّا يقال له: حنظلة بن صفوان، فقتلوه وألقوه في هذه البئر، فأهلكهم الله تعالى.

(هـ) ومنهم من قال: إنهم قوم مدين وهي تقع شرق خليج العقبة، كانوا يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم شعيبًا، فبينما هم حول البئر انهارت بهم وخسف الله بهم. فهذه خمسة أقوال في المراد بأصحاب الرس.

وأيّما كان الأمر، فإن الله تعالى قد أهلك أصحاب الرس، والرس هي البئر المطويّة بالحجارة وقيل: إنها بئر معينة كانت لبطن من قبيلة ثمود، فعرفوا بأصحاب الرأس، وقيل: إنهم قوم ألْقوْا نبيهم في رسّ أي في بئر.

وأهلك الله أممًا كثيرة غير هؤلاء، لا يعلمهم إلا هو سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ أي: بين كل أمة وأمة، من قوم: نوح، وعاد، وثمود، وأصحاب الرس، وغيرهم.

ولم يأتِ ذكر لأصحاب الرس بالنص، في آية سورة إبراهيم، من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ [إبراهيم: ٩].

وهم داخلون في عمومها؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

وقد ذكر الله في هذه الآية كثيرًا من الخلق والأمم دون تحديد، قال تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المؤمنون]، وغيرهم.

والقرن: هو الأمة من الناس الذين عاشوا في عصر واحد، وزمن واحد، ويقدر بنحو مئة عام غالبًا، فإذا ذهب هذا الجيل، وجاء جيل آخر فهو قرن آخر، وهكذا.

وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[1].

وجميع الأمم التي كذبت رسلها أهلكها الله تعالى، ولم يخرج من هذا العموم إلا قوم يونس، فقد رفع الله عنهم العذاب بعد أن آمنوا عند رؤيته، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس].

وكل أمة من هذه الأمم ضرب الله لها الأمثال، وبيَّن لها الحجج الدامغة، ووضَّح لها الأدلة، وشبَّه لهم الأمور المعقولة بالأمثلة المحسوسة؛ كي يفهموها، ولا يبقى لهم عذر،

---

(١) من حديث عبد الله بن مسعود في البخاري برقم (٢٦٥٢) ومسلم برقم (٢٥٣٣).

ومع ذلك لم يؤمنوا فأهلكهم الله، وكلٌّ منهم دمَّره الله وأهلكه، كما قال تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

سَادِسًا: قَوْمُ لُوطٍ

٤٠- ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾

والأمة السادسة التي أهلكها الله تعالى: هم قوم لوط الذين كذبوا نبيهم لوطًا، وهم يمرون على ديارهم التي أهلكها الله، أثناء أسفارهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]. وهما قريتان في الأردن، قرية (سدوم وعامورة)، وقد أهلكهما الله تعالى، وهي التي كانت تعمل الخبائث، ومكانها بحيرة لوط أو البحر الميت. والقرية الصغرى الثالثة نجَّاها الله تعالى؛ وهر قرية (صُوغَر) حيث الْتجأ قوم لوط إليها، لأنها لم تفعل فاحشة اللواط، وقد أُمطرت هذه القرى بحجارة متتابعة مُعلَّمة، عليها أسماء مستحقيها، وهي حجارة مطبوخة بالنار.

يقول سبحانه مستنكرًا: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ فيعتبروا بعواقب سخط الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر].

لقد أهلك الله هذه الأمم الست، وهم ليسوا شرًّا ممن يكذبون رسول الله ﷺ في كل عصر ومصر، فهم مستحقون أيضًا لنزول العذاب بهم، فليس كفار اليوم خير من كفار الأمس، وليس كفار العصر النبوي خير من هذه الأمم التي أهلها الله ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ القمر: ٤٣] ولكنه سبحانه يمهل ولا يهمل.

ثم أضرب الله - سبحانه - عن ذلك، وبيّن أن سبب عدم إيمان من لم يؤمن، مع ما شاهد من آيات الله البينات، أنهم كانوا لا يخافون لقاء الله تعالى فقال: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أي: فالسبب في عدم الاعتبار أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث، ولا باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء على الأعمال، ولمَّا لم يؤمنوا بالبعث لم يكن عندهم استعداد للاعتبار؛ لأن الاعتبار ينشأ عن المراقبة ومحاسبة النفس؛ لطلب النجاة، وهم لم

يهتموا إلا بالدنيا وما فيها.

وأصل ذلك هو الضلال الذي قادهم إلى سوء المصير، وهذه عاقبة الذين لا يُعمِلون عقولهم فلا يتّعظون، ولا يعتبرون.

عَاقِبَةُ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ

٤١- ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾

وبعد أن طيَّب الله تعالى خاطر رسوله ﷺ باستعراض سريع لمصارع المكذبين لرسل الله، أعقب ذلك بخبر استهزاء المكذبين بالرسول الخاتم ﷺ، مع أنهم كانوا يلقبونه قبل البعثة بالصادق الأمين.

وغير المسلمين يهزؤون من الإسلام، ومن رسول الإسلام في القديم والحديث، أي: وإذا رآك - يا محمد - المكذبون لك، استهزؤوا بك واحتقروك، وقالوا: هذا الرجل غير مناسب، أما وجد الله غيره يرسله، وهذا القدح في النبي ﷺ لا يقتصر على وقت بعثته، بل قائم إلى قيام الساعة.

وكان النبي ﷺ إذا مرَّ على أبي جهل يقول أبو جهل لمن حوله مستخفًّا ومستهزئًا بالنبي ﷺ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وفي عاقبة المستهزئين برسل الله يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد]. ويقول أيضًا: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام].

ومن ذلك قولهم ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف]

وكان المشركون يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم كذَبة، وأن رسول الله ﷺ صادق، فهو عليه الصلاة والسلام منهم ملء السمع والبصر، يحترمونه ويضعون عنده أماناتهم، ويلقبونه بالصادق الأمين، ولكنه ﷺ لما بُعث رسولا خافوا على مراكزهم الاجتماعية، فلم يؤمنوا به عنادًا وجحودًا وكبرًا وطغيانا. وكانوا يَعْقِدُون المؤتمرات، ويدبِّرون

المؤامرات لوقف مسيرة الدعوة.

ومن ذلك أن الوليد بن المغيرة -وكان رجلًا مسنًّا- جمع نفرًا من قريش قرب موسم الحج وقال لهم: هذا موسم الحج قد حضر، وقد عرف القبائل أَمْرَ محمد ﷺ فأجمعوا رأيكم فيه، ولا تختلفوا فيكذِّب بعضكم بعضًا، قولوا فيه قولة واحدة، قالوا: قل أنت، قال: بل قولوا وأنا أسمع.

قالوا: نقول: إنه كاهن، قال: والله ما هو بكاهن، نحن نعرف الكهنة.

قالوا: نقول: إنه مجنون، قال: والله ما به من جنون، نحن نعرف الجنون ودرُوبه.

قالوا: نقول: إنه شاعر، قال: والله إنه لا يقول الشعر، نحن أرباب الفصاحة والبلاغة، ونعرف الشعر.

قالوا: نقول: إنه ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحر والسحرة، فما هو منهم.

قالوا: فما تقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لطلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لحفاة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرف أنه باطل.

ثم قال: أَقْرَبُ شيء فيه أن نقول: إنه ساحر، يفرِّق بين الرجل وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه.

فلما جاء موسم الحج، جلسوا في مداخل مكة، يحذرون كل من دخل إليها أن يتَّبع محمدًا ﷺ[١].

ومع هذا فهم يعلمون أن محمدًا ﷺ أرجحهم في العقل والعلم والرزانة ومكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، والعفة والشجاعة، والكرم، ولكن القصد من قدحهم هو العناد والمكابرة والحسد أن أعطاه الله الرسالة دونهم، ولهذا قالوا:

٤٢- ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

---

(١) يُنظَر: ابن إسحاق وابن هشام في «السيرة».

أي إن هذا الرجل كاد يضلنا ويجعل الآلهة إلٰهًا واحدًا، فهم يجعلون التوحيد ضلالًا، والشرك هدى، ولهذا تواصوْا بالصبر عليه فقالوا: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ وهذا صبر مذموم، فقد أُمرنا أن نتواصى بالحق - لا بالباطل - ونتواصى بالصبر على الحق - لا على الباطل- وهذا كقوله تعالى عنهم ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٥-٦]

ومع أن أعداء الإسلام ينالون من قدْر الرسول ﷺ، ويُظهرون الاستخفاف به، فإن أقوالهم وأفعالهم تشير إلى ما تكنه نفوسهم من الاعتراف بهذا الرسول الخاتم، وأنهم يكادون يتبعون دعوته، ويتركون ما هم عليه من عدم الإيمان به، فالقرآن يزلزل قلوبهم بأسلوبه المقنع، وهو ملء أسماعهم وأبصارهم، وهم يتأثرون به، ولكنهم يكابرون.

وقد استطاع النبي ﷺ أن يَصْرِف الوثنيين في عصره عن آلهتهم التي ورثوها وعبدوها قرونًا، حتى إنهم يُسمُّون عبادتهم للأوثان (هُدَى) ويُسمُّون التوحيد (ضلالة)، فيقولون: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: إن محمدًا قارب أن يصرفنا عن تمسكنا بعبادة الأصنام، وثباتنا على عبادتها لولا أننا صبرنا وقاومْنا وجالَدْنا في عبادتها، فقد كاد يصرفنا عنها لولا ذلك.

قال سبحانه متوعدًا ومهددًا لهم: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: حين ينزل بهم عذابنا في الدنيا، أو يرون عذاب الآخرة ماثلًا أمام أعينهم ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: من هو أشد ضلالًا من الفريقين؟ هل الذي جاء به محمد هو الهدى، أم هو الضلال؟ وسوف يظهر ذلك في المستقبل، سواء أكان في الدنيا أم في الآخرة.

خَطَرُ اتِّبَاعِ الْهَوَى

٤٣- ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣﴾

أعلم الله رسوله بأن المكذبين لا يُرجى اهتداؤهم؛ لأنهم جعلوا هواهم إلههم، لقد كان الواحد منهم يعبد حجرًا مدة طويلة، فإذا رأى حجرًا أبيض منه، أو أحسن منه منظرًا ترك الإله الأول، وعبد الثاني، فإذا فقد هذا الإلٰه وضاع من صاحبه نادى منادٍ: أيها الناس، إن إلهكم قد ضلَّ فالتمسوه، التمسوا إلهكم! إنهم يعبدون الهوى وما

تأمرهم به نفوسهم من دون الله، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فانظر -يا رسولنا- متعجبًا إلى حال من أطاع هواه كطاعة الله، وانظر إلى ما هو فيه من ضلال، ومع هذا فهو يحكم على نفسه بأنه صاحب منزلة رفيعة، أفأنت تكون عليه حفيظًا، تحفظه وتهديه، وتخرجه مما هو فيه؛ حتى تردَّه إلى الإيمان، بعد أن اتخذ هواه قدوة له في أعماله، فلا يأتي عملًا إلا إذا كان موافقًا لشهوته، فكأنَّ هواه إلهه، وهذا يشمل عبادة الأوثان، ويشمل من كان أسير الفواحش والمنكرات.

لقد قمت - أيها الرسول - بوظيفتك، وحسابك على الله، فلست عليهم بمسيطر.

فيجوز أن يكون المعنى: أرأيت من جعل إلهه الشيء الذي يهوى عبادته، أي: ما يُحِبُّ أن يكون إلهًا لهُ لمجرد الشهوة، وليس لأنه مستحق للعبادة، فالذين عبدوا الأصنام كانت شهوتهم أن يعبدوها، وليس عندهم حجة في أنها تستحق العبادة[١].

وهذا المعنى أشمل في الذم؛ لأنه يشمل عبادة الأصنام، ويشمل حب الفواحش والمنكرات، فكلا المعنيين ينبغي أن يكون مَحْمَلًا للآية.

والناس بالنسبة لاتباع الهوى على **ثلاثة أصناف**:

الصنف الأول: منهم من تغلَّب عقله على هواه، فليس للهوى عليه سبيل، وهذا النوع من الناس شبيه بالملائكة؛ حيث ركَّب الله فيهم عقولًا، وليست لهم شهوة.

ومن هذا الصنف: رسول الله ﷺ، كما جاء في الحديث عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: : **«ما منكم من أحد إلا وقد وُكل به قرينُه من الجن، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسْلَمُ، فلا يأمرني إلا بخير»**.

(١) قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره: وهذا المعنى منقول عن سعيد بن جبير، واختاره ابن عرفة وابن عطية والزمخشري، وجزم بأنه الصواب (١٩/ ٣٥).

وفي لفظ **وقد وُكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة»**[١].

وقوله **«فأسلمُ»** أي أجد السلامة منه.

وورد **«فاسلَمَ»** من الإسلام، أي أنه دخل في الإسلام.

وصاحب الإيمان القوي لا يستطيع الشيطان أن يضله أو يغويه، ومنهم عمر ﵁، كما قال ﷺ: **«والذي نفسي بيده، ما سلك عمر فجًّا إلا وسلك الشيطان فجًّا سواه»**[٢].

وهؤلاء هم من قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

وهم من استثناهم الشيطان بقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر].

والصنف الثاني: قوم تغلبت شهواتهم على عقولهم، فتحكَّم فيهم الهوى والشيطان والنفس الأمَّارة، وهؤلاء أشبه ما يكونون بالبهائم، فقد ركَّب الله فيهم شهوة وليست لهم عقول، وهذا الصنف هم الذين تنطبق عليهم الآية: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.

والصنف الثالث: قوم في جهاد مستمر بين العقل والشهوة، فتارة تتغلب عقولهم، وتارة تغلبهم شهواتهم، وهؤلاء إن ماتوا على ذلك فهم مجاهدون لهواهم، وقد جاء في الأثر: جاهدوا أهواءكم كما تجاهدوا أعداءكم.

وقال بعض الصحابة بعد عودتهم من ساحة الجهاد: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.

وجهاد العدوِّ هو ذروة سنام الإسلام، وإذا لم يهضم الإنسان نفسه، ويتغلَّب على هواه، فلن يستطيع جهاد عدوه.

---

(١) يُنظَر حديث ابن مسعود في صحيح مسلم (٢٨١٤) و«المسند» (٤٣٩٢) قال محققوه: حديث صحيح بإسناد حسن لأن فيه زياد بن عبدالله البكائي، مختلف فيه، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وهو في المسند أيضًا (٣٦٤٨،٣٧٧٩) وغيرهما بإسناد صحيح على شرط مسلم وعند أبي يعلى (٥١٤٣) وابن حبان (٦٤١٧) والطبراني في الكبير (١٠٥٢٢) والطحاوي في شرح المشكل (١/ ٢٩).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣١٩٩٩) وهو في صحيح البخاري عن محمد بن سعد بن أبي وقاص برقم (٦٠٨٥، ٣٢٩٤، ٣٦٨٣،) ومسلم (٢٣٩٦) ولفظ البخاري «إيه يا ابن الخطاب، ما لقيك الشيطان سالكًا فجًّا إلا سلك فجًا غير فجك».

والصنف الأول هم أصحاب النفس المطمئنة، والصنف الثاني هم أصحاب النفس الأمَّارة، والصنف الثالث هم أصحاب النفس اللوَّامة، وهم أكثر الخلق.

الْكَافِرُ لَا يَنْتَفِعُ بِمَا يَسْمَعُ أَوْ يَقْرَأُ

٤٤- ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

بيَّن - سبحانه - في هذه الآية أن أكثر الكفار لا يسمعون الحق سماع تعقل وتدبر، ولذا فهم لا ينتفعون بما يسمعون ولا يتأثرون به، إنهم لا يسمعون سماع قبول، ولا يتدبرون فيما يسمعون من الحجج والبراهين الدالة على وحدانية الله تعالى.

ثم بيَّن سبحانه أنهم أبشع حالًا، وأسوأ مآلًا من الأنعام في عدم انتفاعهم بما يسمعون، بل هم أشد ضلالًا من الأنعام؛ فالأنعام من الإبل والبقر والغنم تؤدي الوظيفة التي خُلقت من أجلها، وتسجد لله تعالى، وتسبِّح بحمده كما في آية سورة الحج [١٨]، وآية سورة الإسراء [٤٤]، وغيرهما.

والكافر خُلق للعبادة، فهو من الإنس الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]. ولكنه لا يؤدي هذه الوظيفة التي خُلق من أجلها، ولذلك كانت الأنعام خيرًا منه؛ لأنها تستجيب لصاحبها وراعيها حين يناديها، وهؤلاء لا يستجيبون لداعي الحق.

والأنعام تعرف مرعاها ومشربها، وتعرف ما يضرها فتجتنبه، وتتعرف على من يُحسن إليها فتنقاد إليه، وهؤلاء لا يفعلون ذلك فهم أضل سبيلًا من الأنعام.

ولمَّا قابل الكفار نعمة الله تعالى بالكفر والجحود، شبههم الله بالأنعام السائمة التي لا تسمع إلا دعاء ونداء، صم بكم عمي، فهم لا يعقلون، بل هم أضل من الأنعام، لأن الأنعام يهديها راعيها فتهتدي، وتعرف طريق هلاكها فتجتنبه، وهؤلاء لا يتعظون لأنهم لا يتدبرون ما يسمعون، ولا ينتفعون به، كما قال تعالى عنهم: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال].

وقال سبحانه عنهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف].

سِتَّةُ أَدِلَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ

٤٥، ٤٦ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

يسلك القرآن الكريم مع الكفار مسلكًا آخر رجاء إيمانهم، فيذكر أدلة ستة من هذا الكون الفسيح على بطلان شركهم، وإثبات الوحدانية لله تعالى وكمال قدرته.

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: مَشْهَدُ الظِّلِ الْوَارِفِ

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، أي لقد رأيتَ بعينيك -أيها المخاطب- وتأملتَ بعقلك وبصيرتك، كيف بسط الله الظل على العباد قبل طلوع الشمس، وأثناء دورانها، وجعله واسعًا متحركًا مع حركة الأرض في مواجهة الشمس، وجعله مكانًا يستظل فيه الناس من وهَج الشمس، ولولا الظل في وقت النهار لكدَّرت الشمس حياة الإنسان، ولولا وجود الشمس لَمَا عُرف الظل، فإن الضد بالضد يُعرف،ألم تشاهد بعينيك كمال قدرة الله وسعة رحمته، فتستدل بها على وحدانية الخالق واستحقاقه للعبادة دون سواه.

وهذا الظل يكون من طلوع الفجر الصادق إلى طلوع الشمس، ثم يقل مع طلوع الشمس، وكلما ارتفعت يتقلص الظل وينكمش، فإذا كانت الشمس في كبد السماء صار ظلُّ كل شيء تحته، فإذا زالت الشمس عن وسط السماء فإن هذا الظل يتحرك حتى يصير ظلُّ كل شيء مثلَيْه -أي: ضعفه مرتين- وكلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل.

والظل الممدود، هو ما يكون من أول الإسفار إلى بزوغ الشمس، وبعد مغيب الشمس مدة يسيرة، ففي هذين الوقتين يكون الظل على الأرض كلها على أنها نهار، ولعل هذا الظل هو ظل الجنة الوارد في قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقعة]؛ لأن الآخرة لا شمس فيها، فيكون ظلها ممدودًا.

أما الظل الذي يكون من طلوع الشمس إلى غروبها فهو ظل متقطع، والمد والقبض فيه مطرد[1].

قال أبو عبيدة: كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وظل، وما لم تكن عليه

(١) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٤/ ٢١٢).

الشمس فهو ظل[١].

ويحصل الظل من حيلولة جسم بين شعاع الشمس وبين المكان أو الشيء الذي يقع عليه الشعاع، ويكون قدر هذا الظل على قدر الجسم الحائل بين الشعاع والمكان الذي وقع عليه، وتكون هيئة هذا الظل واتجاهه وتفاوته وفق هيئة الجسم الحائل، ثم تنسخه الشمس شيئًا فشيئًا إلى الزوال، ثم ينسخ الظل ضوء الشمس من وقت الزوال إلى الغروب[٢] فمن الذي حرَّكه؟ ومن الذي جعله يسير بهذا الشكل، وبهذا النظام، وبهذه السرعة، بحيث لا يتخلَّف ولا يختلف؟!

ثم إن ظل الطائرة يسبقها وهي تطير، وظل الشمس والقمر في دورتهما، هو الكسوف والخسوف، وينظر الإنسان إلى ظله أحيانًا فيجده ضعف قامته، وينكمش أحيانًا فيجده تحت قدميه، وكل ذلك آية من آيات الله، ولو شاء الله لجعل الظل ثابتًا لا يزول ولا يحول ولا يتغير، ولكنه يتنقل بقدرة الله تعالى من مكان إلى مكان، ومن جهة إلى جهة، شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا. ووجود الشمس هو علة وجود الظل للأجسام التي على الأرض.

فالشمس مُبيِّنة لوجود الظل ولوجه العبرة فيه، ولولا الشمس ما عُرِف الظل المتقطع؛ فإن الضد يعرف بضده، والله تعالى مدَّ الظل، بأن جعل الشمس دليلًا على مقدار امتداده، فتحرُّك الظل وتغيُّره وتقلُّبه من مكان إلى مكان دليل على تحرك الشمس وتنقلها، وقبْض الظل من آثار جعل الشمس دليلًا على الظل.

ثم إن الظل ينكمش شيئًا فشيئًا، ولو قبضه الله دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعًا، وفي مدِّ الظل وقبْضه معرفة أوقات النهار للصلوات، والأعمال اليومية، وانتفاع الناس بشعاع الشمس وفَيْئه.

وحركة الأرض حول الشمس يترتب عليها الظلمة والنور، فالظلمة هي الأصل، ثم انبثق النور بالشمس.

ونشأ عن الظلمة والنور: الليل والنهار، وفصول السنة: الصيف، والشتاء، والربيع،

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٦).

(٢) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٩/ ٤٠).

والخريف، وخطوط العرض والطول للكرة الأرضية، وبها عُرفت مناطق الحرارة والبرودة.

وفي هذا إشارة إلى أصل المخلوقات، كيف طرأ عليها الوجود بعد أن كانت عدمًا؟! وكيف امتد وجودها وتطور نماؤها؟! ثم كيف تعُود تدريجيًّا إلى العدم؟!

وكما مدَّ الله الظل، ثم قبضه إليه قبضًا يسيرًا، فالإنسان يكون طفلًا ثم شابًّا ثم شيخًا، ثم يموت، ثم يعود إلى البعث والنشور، فكانت أحوال الظل وقبضه مثلًا مضروبًا لمصير الناس وعودتهم إلى ربهم حين يحشرهم إليه حشرًا يسيرًا.

وفي الآية إشارة أخرى، حيث تُشبَّه حالة الناس في الضلال قبل نزول القرآن بامتداد ظُلْمة الظل.

ونزول القرآن يشبه ظهور الشمس في أماكن الظل، وتنزيل القرآن منجَّمًا شبيه بهيئة مدِّ الظل تدرُّجًا.

ففيه تشبيه الهداية بنور الشمس، وتقلُّص ضلال الكفر بانقباض الظل، بعد أن كان ممتدًّا قبل طلوع الشمس.

هذا هو الدليل الأول في هذا السياق؛ لبيان عظيم صنع الله تعالى في هذا الكون ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص].

ووجه الاستدلال بالظل على وجود الخالق - سبحانه - أن وجود الظل بعد العدم، وعدمه بعد الوجود، وتغيُّر أحواله بالزيادة والنقصان، والانبساط والتقلُّص، على الوجه النافع للعباد، لابدَّ له من صانع قادر، مدبر حكيم، يحرك الأجرام العُلْوية، ويدبر الأجسام الفلكية، ويرتِّبها على أكمل وجه وأفضل وصف، وهو رب العالمين[1]. المستحق للعبادة دون سواه.

---

(١) يُنظَر: «تفسير الفخر الرازي» (٢٤/ ٨٨).

الدَّلِيلُ الثَّانِي: تَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

٤٧- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾

يتنقل القرآن الكريم من الظل إلى حركة الليل والنهار، فقد جعل الله لكم الليل لباسًا يستركم بظلامه، كما يُستَر الإنسان في ثيابه، وجعل النوم فيه راحة لأبدانكم، وفي النوم يموت الإنسان موتة صغرى، ويكون في نومه كالجُثة الهامدة، ولكن القلب ينبض ويدُق، وصاحبه في غفلة لا يدري مَنْ حوله، وصدْر الإنسان يعلو ويهبط، وجهاز الهضم مستمر، في شغل متواصل، وهو في نوم وسبات عميق، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

ولولا الليل لما سكن العباد، ولتعطلت مصالحهم ومعايشهم، هذا هو الأصل، وقد يتطلب الأمر، العمل ليلًا على ضوء التيار الكهربائي، وينبغي أن يكون هذا بمقدار الضرورة، ولا يعمم في اللهو والسمر، فيصبح النهار لباسًا والليل معاشًا ولعبًا ولهوًا، قال تعالى ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾.

أي: فإذا جاء النهار ابتعثك الله - أيها الإنسان - من الموت؛ لتنتشر في هذه الحياة، ولتسعى على رزقك، وقُوتِك وقُوتِ أولادك.

وتقديم الليل على النهار هنا؛ لمناسبة الظل قبله، وفي موضع آخر قدم النوم على الليل؛ لأن نعمة النوم أهم من نعمة الستر: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ]. ولأن المناسبة بين خلق الأزواج والنوم أشد.

وقد جمعت الآية بين الاستدلال على عظيم قدرة الخالق - سبحانه- ، والامتنان والتذكير بنعمة الله تعالى في اختلاف الليل والنهار، وما يترتب على ذلك من فوائد نور الشمس بتجدد نشاط الإنسان للعمل في ميدان الحياة، ومن فوائد الظلمة: التستر، وحدوث النوم.

والسُّبات: هو الانقطاع عن الحركة مع وجود الروح في البدن.

والنشور: هو الانتشار والحركة والسير في مناكب الأرض، سعيًا على طلب الرزق، وهو نشور من الموت الصغير، وهناك نشور آخر حين البعث من القبور، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: نِعْمَةُ الرِّيَاحِ الْمُبَشِّرَةِ بِالْمَطَرِ

٤٨- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ(١) بُشْرًۢا(٢) بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾

ومن نعمة الله تعالى على خلقه أن أرسل الرياح مبشِّرة بنزول الغيث والمطر، فتلقِّح السحب، ثم يتجمّع ويصير كسفًا، ثم ينزل المطر بإذن الله تعالى، قال سبحانه ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور]

وقال أيضًا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم].

وماء المطر يبلغ منتهى الطهارة إذ لم يختلط به شيء يُكدِّره، وهو أنقى المياه لخُلوه من الجراثيم، وقد وصفه الله تعالى بالطَّهور -بفتح الطاء- أي: إنه بالغ نهاية الطهارة، فهو طاهر في ذاته مطهر لغيره.

والرياح هي المبشرات، وتسمى الصَّبا، وتأتي من جهة مطلع الشمس، ومن الجنوب والشمال، والدَّبور تأتي من جهة مغرب الشمس.

ومتى جاءت الريح مفردة فهي للعذاب، كما قال تعالى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

---

(١) قرأ ابن كثير بالإفراد في (الرياح)، والباقون بالجمع نظرًا لاختلاف أنواع الرياح في هبوبها جنوبًا وشمالًا، وصبًا ودبورًا، وفي أوصافها حارة وباردة.

(٢) قرأ عاصم (بشرا) بالباء جمع بشير، وقرأ حمزة والكسائي وخلف (نَشْرا) بنون مفتوحة وشين ساكنة، بمعنى: منشورة، وقرأ ابن عامر بضم النون والشين معًا. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بنون مضمومة وشين ساكنة.

[الأحقاف: ٢٤]. ومتى جاءت مجموعة فهي للمطر والرحمة؛ لأن ريح المطر تتشعب وتتفرق، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦]. وريح العذاب تأتي جسدًا واحدًا؛ لأنها تحطم وتهدم، ولا تلقح الشجر ولا النبات، وتسمى الدَّبور.

أما رياح الرحمة فهي ثلاثة: الجنوب، والصبا، والشمال.

و من الدعاء المأثور إذا هبت الريح: **«اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا»**[1].

وقد تُقرَأ الرياح المبشرة بالإفراد، ويراد بها - حينئذ -: جنس الريح، واختلاف أنواعها وأصنافها.

أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن السُّدِّي قال: الله ﷻ يرسل الرياح فتأتي بالسحاب من بين الخافقين ـ طرفا السماء والأرض ـ حيث يلتقيان، فيخرجه من ثَمَّ وينشره، فيبسطه في السماء كيف يشاء، ثم يفتح أبواب السماء؛ ليسيل الماء على السحاب، ثم تمطر السحاب بعد ذلك.

والرياح منها ما يسوق السحاب، ومنها ما يلقِّح السحاب، ومنها ما يحمل المطر، ومنها ما يبشر بنزوله، وهكذا أنواع كثيرة، وكلها مسخرة بإرادة الله تعالى وقدرته.

وتشير الآية إلى أن الله تعالى هو الذي أرسل الرياح التي تحمل السحاب، وتبشر الناس بنزول المطر، وهو نوع من أنواع الرياح، يرسله الله تعالى قبل نزول الغيث مبشرًا به.

وهذا الماء الذي هو في جوف الأرض، أنزله الله من السماء ماء طهورًا طاهرًا في نفسه، مطهرًا لغيره، كمياه الأنهار والعيون والآبار، وهو سائغ في شربه، نافع للإنسان والحيوان، والنبات والطيور، وسائر الكائنات الحية.

فالحياة التي على سطح الأرض، كلها تعيش على ماء المطر إما مباشرة، وإما من المياه الجوفية المتسربة في جوف الأرض، ولكن الذين يعيشون على ماء المطر مباشرة هم الذين يشعرون بالحاجة إليه عند انقطاعه، ويستشعرون رحمة الله تعالى بنزوله فتنشرح صدورهم له ومن تتوافر لديهم المياه الجارية كنهر النيل أو ا لمياه المخزنة في صهاريج وخزانات كبيرة أو صغيرة، لا يستشعرون هذه النعمة العظيمة، ولذا فإن صلاة الاستسقاء تكثر في البلاد التي

---

(١) حديث ضعيف كما قال الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٤٤٦١).

تعيش بواديها على المطر، أما البلاد الأخرى فقد لا يعرف عامة أهلها، صلاة الاستسقاء.

قال تعالى مبينا آثار المطر:

٤٩- ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا[1] وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾

في هذه الآية بيان ما يترتب على الرياح من نزول المطر، وهو حياة النبات والحيوان والإنسان.

فالله تعالى يسوق هذا الماء إلى الأرض الجدباء، التي لا نبات فيها، فتخرج النبات بإذن الله تعالى؛ ليُحيِي بهذه المياه أرضًا ميتة لا نبات فيها، فتحيا الأرض الجدباء بعد موات، وكذلك يُحيي الله الخلق بعد موتهم، حين يسقى بهذا الماء البهائم والبشر، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى].

وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم].

وقال تعالى: وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الروم].

وقال سبحانه ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق]

فهو رزق للإنسان ورزق للحيوانات والنبات والشجر، أنزله الذي يستحق العبادة دون سواه، ومع ذلك فإن كثيرا من الناس يكفرون بنعم الله عليهم، قال تعالى:

---

(١) قرأ أبو جعفر بتشديد الياء من (ميتا) مع كسرها، وقرأ غيره بتخفيفها ساكنة.

٥٠- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا[١] فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾

الضمير في ﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾ يعود على المطر على الأرجح، وليس عائدًا على السحاب، أو القرآن، كما قال بعضهم.

أي: ولقد أنزلنا هذا المطر في بلد دون بلد؛ ليذكُر الذين أنزلنا عليهم المطر نعمة الله عليهم فيشكروه، وليعتبر الذين مُنِعوا منه فيسارعوا بالتوبة إلى الله تعالى؛ ليرحمهم ويسقيهم.

عن ابن مسعود ﷺ قال: ما من سَنة بأمْطَر من سنة أخرى، ولكن الله ﷻ قسَّم الأرزاق، فجعلها في السماء الدنيا، وفي هذا القطْر يَنزل منه كل سَنة بكيل معلوم ووزن معلوم، وإذا عمل قوم بالمعاصي حوَّل الله ذلك إلى غيرِهم، وإذا عصوْا جميعًا صرَف الله ذلك المطر إلى الفيافي والقفار[٢].

وقال ابن عباس ﷺ: ما من عام أقل مطرًا من عام، ولكن الله يصرِّفه حيث يشاء، وقرأ الآية[٣].

وهذا المطر الذي ينزل من السماء لا ينقطع، ولكنه ينزل في مكان دون غيره، ويقل في مكان ويكثر في غيره، ولقد صرَّفنا هذه المياه التي تنزل من السماء بقدرة الله - سبحانه -، وحوَّلنا المطر هنا أو هناك، وهو هنا كثرة وهناك قلَّة؛ ليشكروا فضل الله عليهم، ويسألوه من فضله، وليعتبروا ويدركوا أن من يُحيي الأرض بعد موتها يحيي الناس بعد موتهم، ولكن أكثرهم يجحدون نعمة الله عليهم، وينسبون المطر إلى العوامل الجوية ونحوها، فمنهم من قال: مُطرْنا بفضل الله ورحمته، ومنهم من يقول: مطرنا بِنَوْءِ كذا وكذا، أي: بالنجم الفلاني، ونحو ذلك، وكله من مظاهر الكفر.

في الحديث: عن زيد بن خالد الجهني ﷺ أنه قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: **«هل تدرون ماذا قال**

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بإسكان الذال وضم الكاف مخففة، في (ليذكروا) من الذكر ضد النسيان، وقرأ الباقون بفتح الذال والكاف مع تشديدهما من تذكر، أي: انتبه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٠٨) والبيهقي في «السنن» (٣/ ٣٦٣) موقوفًا على ابن مسعود.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح ورجاله ثقات عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في التفسير (١٩/ ٢٢) وصححه الحاكم والذهبي في «المستدرك» (٢/ ٤٠٣) والبيهقي في سننه (٣/ ٣٦٣).

ربكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطِرْنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مُطِرْنا بنوْء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب**»[1].

وكما صرَّف الله الماء النازل من السماء صرَّف القول، وضرب المثل وكرره ونوَّعه في إنشاء السحاب ونزول المطر.

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: عُمُومُ الرِّسَالَةِ الْخَاتَمَةِ

٥١، ٥٢- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

والله ﷻ في ثنايا هذه الآيات يبين لرسوله ﷺ أنه - جلَّ شأنه - لو أراد أن يبعث في كل قرية رسولًا في هذه الأمة يخفف أعباء الرسالة عن محمد ﷺ لفعل، ولكنه سبحانه قَصَر الأمر عليه تعظيمًا له؛ ليكون رسولًا إلى الناس كافة، وليكون هو النبيَّ الخاتم إلى يوم القيامة الذي خُتم به الرسل، وخُتمت به النبوة، وخُتم بكتابه الكتب، ولو أن الله تعالى بعث في كل قرية رسولًا لقال المكذبون: لو أن الله تعالى أرسل رسولًا واحدًا إلى الناس كافة لكان ذلك أولى! فإن مطاعنهم لا تقف عند حد.

وما دام الأمر كذلك فلا تطع الكافرين فيما يطلبونه منك، ويَدْعونك إليه، وجاهدهم بهذا القرآن وهذه الرسالة، وقاومهم بصبرك وعزمك ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾[التوبة، والتحريم: ٩].

فابذل جهدك في نصرة الحق وقمع الباطل، ولو رأيت منهم من التكذيب ما رأيت، ولا تيأس من هدايتهم، فلعل الله أن يهديهم.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٧١) والبخاري بأرقام: (٨٤٦، ١٠٣٨، ٤١٤٧، ٧٥٠٣).

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: مَشْهَدُ الْمِيَاهِ الْعَذْبَةِ وَالْمَالِحَةِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ حَاجِزٍ

٥٣- ﴿وَهُوَ[1] ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾

أي: وهو تعالى بقدرته خلَط البحرين -البحر والنهر-: العذب السائغ الشراب، والمِلح الشديد الملوحة، وجعل بينهما حاجزًا بمنع كل واحد منهما من إفساد الآخر، ومانعًا من أن يصل أحدهما إلى الآخر، فلا يختلطان ولا يمتزجان، والنهر العذب يصبُّ في البحر المِلح، ومع أن البحر أضخم وأغزر، فهو لا يطغى على النهر الذي منه حياة الناس والحيوان والنبات، فالبحر المحيط، والبحر الأحمر، وبحر الصين والهند، وبحر العرب، وغيرها من البحار والمحيطات لا تطغى على الأنهار وهي صغيرة وقليلة بالنسبة لها، حتى في حالات المد وارتفاع المياه ارتفاعًا عظيمًا في النصف الأول من الشهر القمري، وكذا حالات الجزر، ونقص المياه في النصف الثاني من الشهر القمري.

ومن آيات الله - سبحانه - أنه خلط الماء المِلح بالماء العذب.

لقد جعل الله بينهما حاجزًا حصينًا، وهذا الحاجز من الأرض اليابسة، أو هو من قدرة الله - سبحانه -، بحيث لا تراه العين ، فماء الأنهار يسير جنبًا إلى جنب إلى ماء البحار والمحيطات، ويختلط كل منهما بالآخر، وبينهما فاصل وحاجز من قدرة الله - سبحانه - ، كما قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن] أي: لا يبغي أحدهما على الآخر.

ويقال للنهر بحرًا، كما يقال للشروق والغروب: مشرقان أو مغربان، من باب التغليب، وقد سمى الله تعالى البحر والنهر: بحرين، في كثير من آياته، منها هذه الآية وآية سورة الرحمن ١٩ وفاطر ١٢ وغيرها.

يذكر الشيخ الشنقيطي رحمه الله في (أضواء البيان) أنه زار مدينة (سانلويس) سنة ست وستين وثلاث مئة وألف هجرية، واغتسل في نهر السنغال، وفي المحيط الأطلسي، ثم حدثه رجل ثقة أنه وصل إلى نقطة التقاء بين مياه المحيط الأطلسي وبين نهر السنغال، وأخذ

---

(١) قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإسكان هاء (وهو)، والباقون بضمها.

يغرف بإحدى يديه من المحيط الأطلسي ماء مِلحًا أجاجًا، ويغرف باليد الأخرى من نهر السنغال ماء عذبًا فراتًا، هذا إلى جوار هذا، والجميع في مجرى واحد، لا يختلط أحدهما بالآخر!

والحاجز بينهما لا يراه أحد، ولا ينهار، ولا يقلّ مفعوله، بل كما وصفه ربنا بقوله: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: حرام محرَّم أن يختلط أحدهما بالآخر، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١]. سبحان الخلاق العليم!

قال الرازي: ووجه الاستدلال هنا بيِّن؛ لأن الحلاوة والملوحة إن كانت بسبب طبيعة الأرض أو الماء فلابد من الاستواء، وإن لم يكن كذلك فلابد من قادر حكيم يخص كل واحد بصفة معينة[١].

وقال مجاهد في البرزخ الحاجز: هو حاجز لا يراه أحد، لا يختلط العذب بالبحر، ولا يختلط بحر الروم وفارس، وبحر الروم مِلح.

وقال ابن جريج: فلم أجد بحرًا عذبًا إلا الأنهار العِذاب؛ فإن دِجلة تقع في البحر، فلا تمور فيه، ويَجْعَلُ فيه بينهما مثل الخيط الأبيض، فإذا رجعتْ لم يرجع في طريقها من البحر شيء، والنيل زَعموا أنه ينصَبُّ في البحر[٢].

وقال قتادة: إن الله حجز المِلح عن العذب، والعذب عن المِلح أن يختلط بلطفه وقدرته[٣].

وكما أن الله تعالى جعل بين البحرين حاجزًا يحفظ به الماء العذب أن يكدِّر صفوه الماء الأجاج.

كذلك حجز الله بين المسلمين والمشركين، فلا يستطيع المشركون أن يدسُّوا كفرهم بين المسلمين.

---

(١) «التفسير الكبير» (٢٤/ ١٠١).

(٢) «تفسير الطبري» (١٧/ ٤٧٤) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٠٩).

(٣) ابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٠٩) معلقًا.

وفي هذا تثبيت للمسلمين بأن يحجز الله عنهم ضُرَّ المشركين، كما قال تعالى:

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١].

وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى ناصر دينه من أن يكدره الشرك وأهله.

الدَّلِيلُ السَّادِسُ: مَاءُ النُّطْفَةِ الَّذِي تَنْشَأُ مِنْهُ الْحَيَاةُ الْبَشَرِيَّةُ

٥٤- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤﴾

أي: خَلَقَ الله - سبحانه - من منيِّ الرجل والمرأة ذكورًا وإناثًا، فنطفة الإنسان هي سبب تكوين النسل البشري، أشرف المخلوقات على الأرض، وقد خلق الله من هذه النطفة إنسانًا فجعله سميعًا بصيرًا، ونشأ منه قَرابة النسب وقَرابة المصاهرة، فبالنسب يتعارفون ويتواصلون، وبالمصاهرة تكون المحبة والمودة، واجتماع الغريب بالقريب، والنسب ما لا يحل نكاحه، والصهر ما يحل نكاحه.

وقد خلق الله الإنسان من ماء مهين، ثم نشر منه ذرية كثيرة، وجعلهم أنسابًا وأصهارًا، متفرقين ومجتمعين، وفي هذا دلالة على عظيم قدرة الله تعالى.

وفي الحديث: عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**»[1].

وقد حرم الله تعالى سبعًا من النسب جاءت في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء: ٢٣]. ومثلهن سبع من الرضاعة جاءت في تتمة الآية: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

ثم ذكر المحْصنات في أول الآية التالية، والمراد زوجة الآخر

والنسب: يشمل الآباء، والأبناء، والإخوة، وأصولهم، وفروعهم، وحواشيهم.

(١) من حديث ابن عباس في «صحيح البخاري» برقم (٢٦٤٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٤٧).

والصهر: اسم لما بين الرجل وأقارب زوجه وأقاربه من العلاقة الأسرية.

والمصاهرة: تكون من الجهتين، فصهر الرجل قرابة امرأته، وصهر المرأة قرابة زوجها، ولكنه يطلق في الأكثر على أقارب امرأة الرجل، أما أقارب الزوج بالنسبة للمرأة فيقال لهم: خِتْن، أو حَمٌ.

وسمى ابن عباس ﷺ، الرضاع صهرًا، وهم هؤلاء السبع، ومن قال: إن الصهر خمس أسقط منه الجمع بين الأختين، والمحصنات ذوات الأزواج.

وكان ربك قديرًا على خلْق ما يشاء؛ حيث خلق من النطفة ذكرًا وأنثى، وجعل منه قرابة ومصاهرة.

أخرج الإمام أحمد وغيره: أن مبارك الخياط سأل ثمامة بن عبد الله بن أنس عن العزل، فقال: سمعت أنس بن مالك يقول: لو أن الماء الذي يكون منه الولد أهرقته على صخرة لأخرج الله ﷻ منها، أو لخرج منها -الشك من الراوي- ولَدًا وليخلقن الله نفْسًا هو خالقها[1].

على أن الماء المذكور في الآية إما أن يراد به: النطفة، وهو الأنسب، وإما أن يراد به: أصل الخلقة باعتبار أن كل حي مخلوق من ماء، والقادر على هذا الخلق هو المستحق للعبادة دون سواه.

عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ هِيَ مَقْصُودُ هَذِهِ الأَدِلَّةِ

٥٥- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

وبعد قيام هذه الأدلة الحسية على وحدانية الله تعالى وقدرته، وهي:

١- الظلال قبضًا وبسطًا. ٢- والليل والنهار راحة ونشورًا.

٣- والرياح بشرًا بين يدي رحمته. ٤- والأمطار حياة للناس والدواب والنبات.

---

(١) «المسند» (٣/ ١٤٠) برقم (١٢٤٢٠) بإسناد ضعيف، لجهالة أبي عمرو والخياط، (محققوه) وأخرجه البزار برقم (٢١٦٣) والضياء في المختارة (١٨٢٠) وابن أبي عاصم في السنة (٣٦٦) وابن أبي حاتم (١٣٣٠) وحسَّن إسناده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٢٩٦) والألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٣٣٣) وصححه السيوطي في «الجامع الصغير» مع «فيض القدير» برقم (٧٤٠٠)، وللحديث طرق وشواهد حسنة.

٥- وعدم خلْط مياه البحر المالح بمياه النهر العذب.

٦- وخلْق الإنسان من ماء مهين، من الذكَر والأنثى.

بعد ذلك بيَّن سبحانه أنه مع كل هذه الدلائل على قدرة الله تعالى، وإنعامه على خلقه، فإن الكفار يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم إن عبدوه، ولا يضرهم إن تركوا عبادته، من أصنام أو أموات أو كائنات أخرى لا تنفع ولا تضر، ولا تملك موتا ولا حياة ولا نشورًا، فموجب العبادة إما رجاء نفع المعبود، وإما اتقاء ضره، وكان الكافر في عبادته لغير الله عونًا للشيطان وحزبه على معصية الله سبحانه، والواجب عليه أن يعبد الله وحده ولا يشرك به أحدًا.

الرَّسُولُ مُبَلِّغٌ عَنْ رَبِّهِ وَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ

٥٦- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾

يبيِّن الله ﷻ في هذه الآية مهمة رسوله ﷺ، فما عليك -يا محمد- إلا البلاغ، ولا تهتم بمن كفر، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حرصًا على هدايتهم، فأنت مبشر للمؤمن بالجنة، ومنذر للكافر بالنار ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. وهذه الآية تجمع بين إبطال المكذبين لدعوة النبي ﷺ في قولهم عن القرآن: ﴿إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، أو ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أو أن الرسول ﷺ ساحر، أو شاعر، أو كاهن، فهي ترد عليهم بأن الله تعالى قد أرسل رسوله مبشرًا لمن أطاعه بدخول الجنة، ونذيرًا لمن عصاه بدخول النار، وفيها مؤانسة له بألَّا يحزن من تكذيبهم، والرسول ﷺ لا يسأل الناس أجرا على تبليغ الرسالة حتى يمنعهم ذلك من اتباعه، لما يتكلفونه من الغرامة:

٥٧- ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

أي: فأنت -يا محمد- لا تسألهم أجرًا على تبليغ الدعوة، ولا تبتغِ إلا مرضاة ربك، فمن أراد أن يهتدي بنفسه باتباع دين الإسلام، ويتخذ طريقًا إلى الله بالإيمان، والعمل الصالح، -فليفعل، ومن أراد أن يُنفق من ماله في سبيل الله من تلقاء نفسه ابتغاء مرضاة

الله، فليفعل؛ فهو خير له، ولستُ أجبره عليه، وهو من الأجر الذي أريده لكم وأثيبكم عليه، وباب الصدقة والإحسان إلى الناس مفتوح، وأنا لا أمنعكم منه.

وقد ذكر الله - سبحانه - أن جميع الأنبياء لا يسألون الناس أجرًا على تبليغ دعوتهم.

قال تعالى عن: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٩﴾ [الشعراء].

وقال تعالى عن محمد ﷺ: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾ [ص].

وقال سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: ٣٣].

شَحْذُ هِمَّةِ الرَّسُولِ ﷺ فِي تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ

٥٨- ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يجتهد في تبليغ الرسالة معتمدًا على الله، ومتوكلًا عليه وحده، فيقول سبحانه لنبيه: امض في سبيل الله على طريق الدعوة إليه، ولا تلتفت إلى دنيا الناس، ولا تتوكل على أحد من خلقه، فهو حسبك، وكافيك، وناصرك، ومظهر دينك على سائر الأديان؛ فإنك إن توكلت على أحد من البشر مات، وتوكُّلك عليه ينتهي بموته، ولكن الباري سبحانه لا يموت، فمن توكل عليه توكل على حيٍّ لا يموت، ولا ينقطع عنه هذا التوكل.

﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ﴾ أي: صلِّ، واذكر اسم الله تعالى في صلاتك، ونزهه عن الإشراك به، وعن كل ما لا يليق بجلاله، واجمع بين حمده وتسبيحه، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ: **«من قال سبحان الله وبحمده في كل يوم مائة مرة، حُطَّت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر»**[١].

وكان ﷺ يقول: **«سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأوَّل القرآن»**[٢].

---

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٦٤٠٥) و«صحيح مسلم» مطولًا برقم (٢٦٩١).

(٢) من حديث عائشة في البخاري برقم (٧٩٤، ٨١٧) ومسلم برقم (٤٨٤).

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»**[(١)].

وفي هذا أمر للأمة بالتخلية قبل التحلية، ومن أراد الإصلاح فليبدأ بإزالة النقص، قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهو سبحانه مطلع على أسرار خلقه، وخبير بأحوالهم، وقادر على مجازاتهم، يحاسبهم ويجازيهم يوم القيامة على ذنوبهم، والشرك في مقدمة الذنوب، قال تعالى:

٥٩- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ[(٢)] بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية، صفة الإله الذي ينبغي التوكل عليه في سعة علمه، وآثار قدرته، وعظيم مجده، وأنه وحده الجدير بأن يُتوكَّل عليه، ويُفوَّض الأمر إليه، فهو سبحانه خلق هذا الكون، وقدَّر في الأرض أقواتها، وخلق ما فيهما وما بينهما من العوالم والمخلوقات في ستة أيام، أي: في مقدار هذا العدد من أيام الدنيا؛ لأنه لم يكن ثَمَّ ليل ولا نهار.

وجاء عن مجاهد: أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، وهو سبحانه قادر على أن يخلقها في لحظة، ولكنه - جلَّ شأنه - يعلِّم خلْقه الرفق والتثبت.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: علا وارتفع على عرشه، - وهو سقف المخلوقات وأعلاها وأوسعها - استواء يليق بجلاله، بلا كيف، ولا تشبيه، ولا تمثيل، والاستواء على العرش معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه فوق العقول.

ولا ترجع في طلب العلم إلا إلى الله تعالى، مع بذل الأسباب وعوامل التحصيل،

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٩٤) و«صحيح البخاري» برقم (٦٤٠٦) وانظر (٦٦٨٢، ٧٥٦٣).

(٢) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف العاشر بنقل حركة الهمزة إلى السين في (فسأل) وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة وقفًا، والباقون بالتحقيق.

وهو سبحان ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ يعرفه.

فإذا أخبرتُك -أيها الرسول- بشيء، فاعلم أنه كما أخبرتك؛ فأنا الخبير العالم بصفاتي وعظمتي وجلالي، وإذا سألتَ الله شيئًا فإنك تسأل خبيرًا لا يخفى عليه شيء، وما أخبر به فهو حق وصدق.

وهو سبحانه الحكم، أي: المحكِّم الذي يرجع الخلق إليه عند تنازعهم ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]. صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأوامر والنواهي، وهو سبحانه الخبير بخلق هذا العالم.

وقد أثبت الله في هذه الآية خلقه للمخلوقات، وعُلُوَّه فوق عرشه، واطلاعه على ظواهر الخلق وبواطنهم.

ذَاتُ اللَّهِ وَاحِدَةٌ وَأَسْمَاؤُهُ مُتَعَدِّدَةٌ

٦٠- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا[(١)] وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ (٦٠)﴾

أي: وإذا طُلب من غير المسلم أن يسجد للرحمن، نفر واستكبر، وازداد هربًا من الحق إلى الباطل، وازداد كفرا وشقاءً، وأنكر لفظ الرحمن وقال: إنه لا يعرفه، وأنتم تُعدِّدون الآلهة فتقولون: الله والرحمن ، فلا نسجد لمجرد أمرك لنا بالسجود.

هذا: ولما وصف الله نفسه بالرحمن في الآية السابقة، بيَّن سبحانه في هذه الآية، كُفْر المشركين بهذا الوصف، فوصْفُ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ من وضع القرآن، ولم يكن معهودًا عند العرب، ولما سمعوه من القرآن أنكروه، وقالوا: نحن لا نعرف إلا رحمن اليمامة: أي: مُسَيْلِمَة الكذَّاب، بزعمهم.

ولما أملى النبي ﷺ في صلح الحديبية: «**باسم الله الرحمن الرحيم**» أنكروا ذلك، وقالوا: اكتب اسمك واسم أبيك.

ولما طلب منهم النبي ﷺ السجود للرحمن بتوحيده، وترك عبادة الأوثان، قالوا:

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بياء الغيبة في (تأمرنا)، والباقون بالتاء، والفعل مسند إلى الرسول ﷺ على القراءتين.

أنسجد لما تأمرنا بالسجود له وهو الرحمن؟ فكانوا يقولون: انظروا إلى هذا الصابئ، لقد نهانا أن ندعو إلهين، وهو يدعو الله ويدعو الرحمن، وزادهم هذا القول نفورًا وإعراضًا، وفي هذا قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وكان المشركون يطوفون بالكعبة، ولما أُمروا بإفراد الله تعالى بالعبادة دون غيره أبوْا وازدادوا بُعدا عن الإيمان!

والسجود الذي أُمر به المشركون هو شعار الإسلام بالاعتراف له سبحانه بالتوحيد؛ إذ لا فائدة من تكليفهم بسجود الصلاة قبل أن يُسلموا.

ويوم القيامة يُطلب ممن امتنع من السجود لله تعالى في الدنيا أن يسجد في الآخرة، فلا تطاوعه فقرات ظهره، ولا يمكنه السجود؛ حيث يصير ظهره طبقًا واحدًا كصياصي البقر، وهذا من مظاهر عقابه تعالى لهم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم].

وفي حديث معاذ ﷺ لما أرسله النبي ﷺ إلى اليمن قال له: «.. **فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله**»، ثم قال: «**فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة**...» الحديث.[1]

وسجود المسلم للتلاوة عند هذه الآية، فيه إظهار المخالفة للمشركين حين أبوا السجود للرحمن.

خَمْسَةٌ مِنْ آثَارِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْكَوْنِ

٦١- ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا[2] وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾

هذه خمسة براهين على كمال قدرة الله تعالى في العالميْن: العلوي، والسفلي، وهي:

---

(١) الحديث في البخاري (١٣٩٥، ١٤٩٦) ومسلم (١٩، ٣١) وهو في البخاري أيضًا عن معاذ (١٤٥٨) عن ابن عباس في صحيح سنن أبي داود (١٥٨٤) ومسلم (١٩).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بجمع (سراجا)، أي: بضم السين والراء من غير ألف، والمراد بها: الشمس والنجوم، والباقون بكسر السين وفتح الراء بعد ألف على الإفراد، والمراد به: الشمس.

البروج الاثنا عشر، والشمس والقمر، والليل والنهار، اشتملت عليها الدعامة الأخيرة من الدعائم الثلاث التي قامت عليها السورة، وافتتح كل منها بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾.

وقد ذكرتُ في مقدمة السورة أنها تقوم على ثلاثة دعائم أو عناصر:

الأولى: تتعلّق بالوحي والرسالة في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ أول السورة.

والدعامة الثانية تتعلق بالبعث والحساب في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾.

ومُحصَّل الدعامة الثالثة هي أوصاف عباد الرحمن، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ وافتتح القرآن ذلك بالثناء على الله تعالى بالخير والبركة؛ لِمَا جعله لخلقه من المنافع في العالم العلوي، والعالم السفلي.

جلَّ خير الله، وعظمت بركاته، فهو سبحانه الذي جعل في السماء بروجًا هي: البروج الاثنا عشر التي هي منازل الكواكب السبعة السيارة، ومداراتها الفلكية.

قال ابن عباس ﷺ في الآية: هذه الاثنا عشر بُرْجًا أولها: الْحَمَلُ، ثم الثَّوْرُ، ثم الْجَوْزاء، ثم السَّرَطانُ، ثم الأسَدُ، ثم السُّنْبُلَةُ، ثم الميزانُ، ثم العقْربُ، ثم القَوْسُ، ثم الْجَدْيُ، ثم الدَّلْوُ، ثم الحوتُ[1].

وجعل فيها سراجًا هو الشمس، وقمرًا منيرًا، فالبروج هي الكواكب العظام، والسراج هو الشمس المتوهجة في النهار، والقمر هو المضيء بالليل، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح]. ولكل كوكب بيتان يَقْوَى حاله فيهما:

١- فبيت الحمل والعقرب: المريخ ٢- وبيت الثور والميزان: الزهرة.

٣- وبيت الجوزاء والسنبلة: عطارد ٤- وبيت القوس والحوت: المشتَرَى.

٥- وبيت الجدي والدلو: زُحل ٦- وللشمس بيت واحد: هو الأسد.

---

(١) أخرجه الخطيب في كتاب «النجوم» ص ١٤٠ .

٧- وللقمر بيت واحد: هو السرطان. **والطبائع الأربع مقسومة على هذه البروج:**

فالأسد، والحمل، والقوس: نارية - والثور، والسنبلة، والجدي: ترابيَّة.

والجوزاء، والميزان، والدلو: هوائية - والسرطان، والعقرب، والحوت: مائية[١].

٦٢- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

وهو سبحانه جعل كُلًّا من الليل والنهار يخلُف الآخر، فلا يجتمعان ولا يرتفعان، وقد جعل الله ذلك لمن أراد أن يتذكر ويعتبر، فيشكر الله تعالى أن جعل له الليل لباسًا والنهار معاشًا، ليسكنوا في الليل وليبتغوا من فضله في النهار.

هذا هو مشهد تعاقب الليل والنهار، وهما آيتان ينساهما الناس؛ لتكررهما كل يوم، وفيهما الكفاية لمن أراد أن يتذكر ويَعْتَبِر، أو أراد أن يشكر الله تعالى على نعمه وآلائه، ولولا الليل والنهار، ما أمكنت الحياة على وجه هذه الأرض للإنسان، والحيوان، والنبات.

والكرة الأرضية تدور حول محورها في كل أربع وعشرين ساعة، ولو اختلف تعاقب الليل والنهار، أو زاد طولهما لتعذرت الحياة فوق هذه الأرض، فهو سبحانه جعل كلًّا منهما يخلُف الآخر، ويكون عِوضًا عنه، وفي تعاقبهما تأتي الظلمة والنور، والزيادة والنقصان.

قال شقيق: جاء رجل إلى عمر ﷺ قال: فاتتني الصلاة الليلة، قال: أدرِكْ ما فاتك من ليلتك في نهارك؛ فإن الله تعالى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذَّكر.

فالمعنى: ليتدارك الناس ما فاتهم في الليل؛ بسبب غلبة النوم، أو التعب بالنهار، أو يقضيه بالليل إن شغله عنه شاغل بالنهار.

ورد أن عمر ﷺ أطال صلاة الضحى يومًا، فقيل له: صنعت شيئًا لم تكن تصنعه؟ فقال: إنه بقى عليَّ من وِرْدي شيء فأحببت أن أُتِمَّه، أو قال: أقضيه، وتلا الآية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾[٢]

أي: كل منهما يخلف الآخر، فهما يتعاقبان في الظلمة والنور، والزيادة والنقصان،

---

(١) من «تفسير النسفي» للآية بتصرف.

(٢) «مسند الطيالسي»، وابن أبي حاتم (٨/ ٢٧١٨).

ومن فاته شيء من عمل النهار عمله بالليل، والعكس صحيح، وفي ذلك عبرة وعظة لمن أراد أن يشكر الله سبحانه، ويتقرب إليه بصلاة أو صيام، فيسعد الليل بعمل النهار، ويسعد النهار بعمل الليل.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم].

وقال ﷺ في حديث أبي موسى ﷺ: **«إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»**[1].

ثم امتنّ الله على عباده الصالحين، فذكر لهم ثلاثة عشر وصفًا، خصّهم بها ووفقهم إليها، وهي التي أكسبتهم المنازل العالية في غرف الجنات:

صِفَاتُ عِبَادِ الرَّحْمَنِ الثَّلَاثَةَ عَشَرَ

٦٣- ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾

ذكرت السورة في الآيات التالية خصال مَن يريد أن يذَّكَّر، فيعتبر ويتعظ من عباد الله المؤمنين، وهم عباد الرحمن، وفي مقدمتهم أصحاب رسول الله ﷺ.

والعبودية لله - سبحانه - **على نوعين:**

عبودية الربوبية: بمعنى أن جميع الخلق مسلمهم وكافرهم، برَّهم وفاجرهم، مربوب لله سبحانه -أي: مخلوق له جلَّ شأنه- وأن الله سبحانه يرزقه ويدبر أمره، فجميع الخلق في هذه العبودية يستوون. ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

وعبودية الإلهية: بمعنى إفراد العبادة لله وحده، وهي عبودية الأنبياء والأولياء والصالحين من عباد الله.

ومن العبادة: الدعاء، والاستعانة، والاستغاثة، والاستجارة، والذبح، والنذر، وطلب المَدد، واعتقاد النفع والضر، وغير ذلك.

وقد شرَّف الله المؤمنين بأن أضافهم إليه وجعلهم عباده، واختار سبحانه لهم اسم

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ الذي قال عنه المشركون: وما الرحمن؟ فذكر سبحانه عباد الرحمن، ثم عطف أوصافهم وصفًا بعد وصف، على الابتداء، وجاء الخبر بعد استكمال هذه الأوصاف قرب نهاية السورة، في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [٧٥]. وهذه الصفات جاءت على **أربعة أقسام**:

(أ) قسم من **التحلِّي** بالكمالات الدينية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾.

(ب) وقسم من **الاستقامة** على شرائع الإسلام، وهو قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤﴾. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ [٦٧].

(ج) وقسم من **التخلِّي** عن ضلالات أهل الشرك، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [٦٨].

(د) وقسم من **طلب الزيادة** في هذه الدنيا، وذلك في قوله تعالى:
﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ [٧٤].

وسورة (الفرقان) ذكرت في أولها شُبه المشركين على القرآن الكريم، وعلى صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه، وأعقبت ذلك بأمثلة من مصارع المكذبين.

وفي نهاية السورة ذكرت أوصاف عباد الرحمن، في ثلاث عشرة صفة:

الصفة الأولى: التواضع:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾

أي: إنهم متواضعون لله ولخلقه، فهم أهل وقار وسكينة، غير متكبرين، يمشون على الأرض، أو في مراكبهم التي يركبونها من مختلف وسائل المواصلات: سيارات أو قطارات أو دراجات أو غير ذلك، فهم يمشون على الأرض في رفق ولين، من غير تكبر، ومن غير تكلّف ولا تصنع، ولا فخر، ولا خيلاء، ويمشون في قوة من غير صلَف ولا تبختُر، فقد كان النبي ﷺ يمشي كأنه ينحطّ من صبَب، أي ينحدر من مكان مرتفع، وكان عليه الصلاة والسلام يمشي في سرعة، كأن الأرض تُطوى له - صلوات الله وسلامه عليه - وقد رأى عمر ﷺ رجلًا يتبختر في مشيته فقال: إن البَخترة مِشْية تُكْره إلا في سبيل الله.

وقال لقمان لابنه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٨،١٩]

كن متوسطا سواء أكنت على قدميك أم في سيارة أم على دراجة أو دابة ونحو ذلك.

والمشي الهون هو الذي ليس فيه ضرب بالأقدام، أو خفْق بالنعال، فهو مخالف لمشي الجبارين المعجَبين بأنفسهم وقوتهم، وهذا الهون ناشئ عن التواضع وحسن الخلقُ، والحلم والوقار، ليس فيه تثاقل أو تصنّع كالمرضى، وذلك بالنسبة للشخص العادي، وليس فيه إسراع حثيث يُخل بالوقار، ويُذهب بهاء الوجه، بل يكون رفقا وقصْدًا، من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر

وقد كره الإسلام الإسراع في المشي حتى لمن أقدم على صلاة الجماعة، ففي الحديث عن أبي قتادة عن أبيه قال: بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ إذ سمع جلَبة رجال، فلما صلى قال: **«ما شأنكم»**؟ قالوا: استعجلنا إلى الصلاة، قال: **«فلا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة فعليكم بالسكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتمّوا»**[١]

والتحلي بخلُق التواضع في المشي مظهر من مظاهر التخلق بالرحمة؛ لأن الرحمة ضد الشدة، والهوْن يناسب عباد الرحمن من غير تباطؤ أو تمارض.

رأى عمر ﷺ رجلًا، أو شابًا يمشي رويدًا، أي: قليلًا بطيئًا، فسأله: أأنت مريض؟ قال: لا، فعلاه بالدرة، وقال له: امشِ بقوة، أي: في رفق ولين من غير تكبر.

وفي الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«بينما رجل يمشي في حلة، تعجبه نفسه، مرجِّل جُمَّته؛ إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة»**[٢].

فلا تضرب الأرض بقدميك إن كنت راجلًا، ولا (تُفحِّط) بسيارتك إن كنت راكبًا ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء].

ولا تخرق صفوف الناس، ولا تتقدم على مَن هو أكبر منك سنًّا، سيما والدك ومعلمك، وراعي العجزة والمرضى، ولا تغتر بشبابك وقوتك وصحتك، فالأيام دول.

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٥) ومسلم برقم (٦٠٣).
(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري (٥٧٨٩) ومسلم (٢٠٨٨).

الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ: الْحِلْمُ

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾

أي: إنهم إذا جَهِل عليهم سفيه أو جاهل لا يُقابلون السيئة بمثلها، وإنما يقابلونها بالإحسان والمعروف من القول، ويردُّون عليها بقول لا إثم فيه، فهم لا يجهلون على أحد، وإن جهل عليهم أحد لا يجهلون عليه، ويقولون له قولًا يَسْلَمُون فيه من الإثم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص].

والجهل هنا: ضد الحلم، وعدم التطاول على الناس، فإن كان الذي يسبُّه أو يشتمُه غير سفيه، أو غير جاهل، أو غير ضعيف، وكان يفعل ذلك من منطلق القوة، فإن الإسلام لا يؤاخذه في هذه الحالة أن ينتصر لنفسه، قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الشورى].

فالإسلام لا يرضى قبول الضيم أو الذل من الآخرين، وإنما يشرع للمسلم أن يدفع هذا الذل وهذا الضيم عن نفسه، وقد بيَّن النبي ﷺ أن الملَك يردُّ على من شَتم قائلًا: «**بل أنت، وأنت أحق به**»[1]، فإذا ردَّ عليه المظلومُ تخلَّى عنه الملَك.

والرجل المسبوب هو أبو بكر ﷺ.

كما جاء في مصنف عبدالرزاق (٢٠٢٥٥) وفي مسند أحمد (٩٦٢٤) عن أبي هريرة ﷺ وفيه أن رجلًا شتم أبا بكر ﷺ والنبي ﷺ جالس، فجعل النبي ﷺ يعجب ويبتسم، فلما أكثر، رد عليه بعض قوله، فغضب النبي ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر وسأله، فقال له: «إنه كان معك ملَك يردّ عليه، فلما رددتَ عليه وقع الشيطان، فلم أكن لأقعُد مع الشيطان» وهو حديث حسن لغيره.

وفي كلام جميل للحسن البصري: إن المؤمنين قوم ذلَّتْ منهم الأسماع والأبصار

---

(١) راجع الحديث في «المسند» عن النعمان بن مقرّن المُزني قال: قال رسول الله ﷺ وسبّ رجل رجلان عنده ... الحديث (٥/ ٤٤٥) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٧٥): رجاله رجال الصحيح غير أبي خالد الوالي وهو ثقة، وقال محققو «المسند» (٢٣٧٤٥): حسن لغيره، وحسنه ابن كثير في تفسيره (٦/ ١٣٢).

والجوارح، تحسبهم مرضى وهم أصحاء، ولكن الخوف من الله قد دخل قلوبهم، ومنَعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: الحمد الله الذي أذهب عنا الحَزَن، والذي أحزنهم هو ما تعاظم في نفوسهم من طلب الجنة، والبكاء من خوف النار، فإن من لم يتعزَّ بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، ومن لم يعرف نعمة الله إلا في مطعمه وشرابه فقد قل علمه، وحضر عذابه[1].

فعباد الرحمن يخاطبون غيرهم بخطاب يَسْلَمون فيه من الإثم، ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله، ويقابلون القول السيء بالقول الحسن.

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: قِيَامُ اللَّيْلِ

٦٤- ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾

وعباد الرحمن لا يقضون ليلهم في سمَر ولغو وعبث، إنما يقضونه سُجَّدًا وقيامًا لله ﷻ في ذكر وتسبيح وعبادة ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات].

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ يخاف من عذاب الله، ويرجو رحمة ربه، هل يستوي هذا مع غيره؟ ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

ذكر ابن عباس ﷺ أن المرء إذا صلى ركعتين فأكثر، بعد العشاء، فقد بات ساجدًا قائمًا لله تعالى، ومن قرأ شيئًا من القرآن في صلاة وإن قل، فقد بات ساجدًا قائمًا، سواء أ نام قبل الصلاة أم لا.

وجاء في صحيح مسلم، وغيره: عن عثمان بن عفان ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله»**[2].

---

(١) يُنظَر هذا المعنى في: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٢٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٦٥٦) وعبد بن حميد (٥٠) والترمذي (٢٢١) والبزار (٤٠٣) وابن خزيمة (١٤٧٣) و«المسند» (٤٠٨) وإسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات. (محققوه).

فالذي يصلي العشاء والفجر في جماعة كأنما قام الليل كله، ومن صلى الصبح في جماعة فهو في ذمة الله حتى يُمسي.

وفي حديث جُنْدب بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من صلى الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء، فيُدركه، فيكبه في نار جهنم»**[١].

والمراد: صلى الصبح في وقتها مع الجماعة.

قال الحسن: لما فرغ من وصْفِ نهارهم، وصَفَ في هذه الآية ليلهم.

وقال الفخر الرازي: لما ذكر سيرتهم في النهار من وجهين: ترْك الإيذاء، وتحمُّل الأذى، بيَّن هنا سيرتهم في الليل، وهو اشتغالهم بخدمة الخالق[٢].

والخلاصة: أن من صلى العشاء، والشفع، والوتر، فهو داخل في عموم الآية.

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ: **«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء»**[٣].

الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ: الْخَوْفُ مِنَ النَّارِ

٦٥، ٦٦- ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾

وعباد الرحمن مع كثرة عبادتهم وقيامهم الليل، فإنهم يخافون عذاب الآخرة، ويسألون ربهم أن يصرف عنهم عذابها، ويدفعه عنهم بالعصمة من أسبابه، ومغفرة ما وقع منهم مما يقتضي العذاب، ويدعونه تضرعا وخفية أن يبعدهم عنها، فهم -مع طاعتهم- خائفون من عذابها ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: ملازمًا للإنسان الكافر، مهلكًا له، وهو شر قرار وشر إقامة؛ لأنه يلازم صاحبه، ولا ينفك عنه، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٦٥٧).

(٢) «التفسير الكبير» (٢٤/١٠٨).

(٣) «صحيح مسلم» (٤٨٢) وأبو داود (٨٧٥) و«المسند» (٩٤٦١) إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات، وابن حبان (١٩٢٨) و«السنن الكبرى» للنسائي (٧٢٧)، والطبراني في الدعاء (٦١٣) والبغوي (٦٥٨).

وقال: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ]. والمراد بصرف العذاب عنهم: إنجاؤهم منه بتوفيقهم للعمل الصالح، وتوفير أسبابه، واجتناب السيئات، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

قال محمد بن كعب القرظي: إن الله تعالى سأل الكفار ثمن نعمته فلم يؤدوه، فأغرمهم الله بالبقاء في النار.

وعقب التشهد في كل صلاة يسأل المسلم ربه، ويدعوه مبتهلًا إليه أن يصرف عنه عذاب جهنم، وعذاب القبر: **«اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا-وفتنة الممات، وفتنة المسيح الدجال»**[1].

قال الحسن: خشعوا بالنهار، وتعبوا بالليل فرَقًا -أي: خوفًا- من عذاب جهنم، لقد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم.

ثم ذمَّ الله تعالى جهنم بأنها بئْسَتْ مقامًا ومستقرًّا لمن يقيم فيها، من المكذبين لرسل الله، ويحتمل أن يكون هذا من كلامهم، وهو تعليل آخر من عباد الرحمن في دعائهم، وفي تضرعهم لله تعالى أن يصرف عنهم عذاب جهنم، لأنه ليس في طاقتهم تحمُّل عذابها، وهل هناك أسوأ من جهنم مكانًا يقيم فيه الإنسان، ثم أين الإقامة، وأين الاستقرار، وهو يتقلب في نار جهنم ليل نهار؟! ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. وقال تعالى: ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى].

وصرف هذا العذاب عن عباد الرحمن، فيه منة من الله تعالى عليهم ورحمة بهم.

الصِّفَةُ الْخَامِسَةُ مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ الْقَصْدُ وَالاعْتِدَالُ فِي النَّفَقَةِ

٦٧- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا[2] وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾

---

(١) ينظر حديث ابن عباس في سنن أبي داود (١٥٤٢) وهو في صحيح مسلم (٥٩٠) والترمذي (٣٤٩٤) والنسائي (٤/ ١٠٤) وابن حبان (٩٩٩) وابن ماجه (٣٨٤٠) والمسند (٢١٦٨) بإسناد صحيح على شرط مسلم. (محققوه).

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بضم الياء وكسر التاء من (يقتروا) مضارع أقتر، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بفتح الياء وضم التاء، مضارع قتر، وقرأ الباقون وهم ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بفتح الياء وكسر التاء.

من أوصاف عباد الرحمن: أنهم لا يتجاوزون في النفقة الواجبة والمستحبة، فيكونون من أهل التبذير والإسراف، ولا يبخلون فيها فيكونون من أهل التقتير والشح، وخير الأمور الوسط.

وذلك أن النفقة في الأمور المحرمة مذمومة مطلقًا، ولو كانت قرشًا واحدًا، ومن ذلك التدخين ونحوه. أمَّا النفقة الواجبة على: الأهل، والأبناء، والآباء، والضيوف، ومنها النفقة الواجبة في الزكاة والكفارات والنذور ونحوها، وكذا النفقة المستحبة في أبواب البر والخير، فالمطلوب فيها هو: الاعتدال والتوسط، فلا يزيد المسلم عن مستواه الاجتماعي، ودخْله الذي يتملكه، فلا يكن شحيحًا بخيلًا مقترًا على نفسه وأهل بيته، ولا مسرفًا مبذِّرًا زائدا عن الحد.

فعباد الرحمن يضعون النفقات في مواضعها الصالحة، كما أمرهم ربهم؛ حتى يدوم حاله ومستواه.

فالإسراف: هو تجاوز الحد في النفقة، ولو في وجوه الحلال، بحسب حال المنفِق إنفاقهم، فخير الأمور أدومها وإن قل، وتوسُّط كل إنسان في النفقة بحسب وحال المنفَق عليه.

قال عمر ﷺ: كفى بالمرء سرفًا أن يأكل كل ما يشتهي.

وكان أصحاب النبي ﷺ يأكلون لسدِّ جوْعتهم، ويلْبسُون لسَتْر عوْرتهم، ولا يأكلون تلذُّذًا وتنعُّمًا، ولا يلبسون تجمُّلًا وتزيُّنًا، مع وجود الإمكانات، وحُسْن الحال عند كثير منهم.

ولَمَّا سأل عبد الملك بن مروان، عمر بن عبد العزيز - رحمهما الله - وهو يزوِّجه ابنته، سأله عن نفقته -أي: كيف يُنفق- فقال: السيئة بين الحسنتَيْن، يعني: أنه متوسط، فعرف عبد الملك أنَّ عمر أراد معنى هذه الآية ﴿لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ وكان الإنفاق بين ذلك حدًّا وسطًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء].

والتقتير: هو التضييق في النفقة الواجبة، كالذي يُضيِّق على نفسه وعلى أهله في الضرورات، وهذا الإنفاق يختلف باختلاف أحوال الناس، كما قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أي: كُلٌّ على قدْر ما أعطاه الله وقال سبحانه: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ

مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [الطلاق: ٧].

وخص بعضهم الإسراف بالنفقة في المعصية، والتقتير بمنع حق الله في الزكاة والصدقة.

قال مجاهد: لو أنفقتَ مثل جبل - أبي قبيس - ذهبًا في طاعة الله ما كان سرفًا، ولو أنفقتَ صاعًا في معصية الله كان سرفًا[1].

وقال قتادة: الإسراف: النفقة في معصية الله، والإقتار: الإمساك عن حق الله. وأظهر الأقوال في ذلك أن عباد الرحمن ليسوا بمبذرين في إنفاقهم، فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم، فيقصِّرون في حقهم، فلا يَكْفُونهم، بل عدْلًا خيارًا، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا[2].

والإنفاق الواجب، لا يُذم التوسع فيه، والإنفاق الحرام، لا يُحمد مطلقًا. فالمسلم متوسط في النفقة المشروعة، لا يُسْرِف ويتجاوز، ولا يَبْخَل ويقتِّر، بل يكون وسطًا بينهما، وهذا في نفقة الطاعات والمباحات، أما نفقة المعاصي فقد حظر الشرع قليلها وكثيرها.

الصِّفَةُ السَّادِسَةُ: حِفْظُ الدِّينِ

٦٨، ٦٩- ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ[3] لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ[4] مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾

بيَّن سبحانه أن من شأن عباد الرحمن التخلي عن المعاصي والمفاسد التي هي ملازمة

(١) «تفسير الطبري» (١٩/ ٢٣).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٢٣).

(٣) قرأ ابن عامر وشعبة برفع الفاء من (يضاعفُ) والدال من (يخلدُ) على الاستئناف أو الحال من فاعل (يلق)، وقرأ الباقون بالجزم فيهما، على أن (يضاعف) بدل اشتمال من (يلق) و(يخلد) معطوف عليه، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (يضعَّف) بتشديد العين وحذف الألف، وقرأ الباقون بتخفيف العين وإثبات الألف.

(٤) قرأ ابن كثير وحفص بصلة هاء الضمير من (فيه مهانا) وقد خالف حفص أصله في هذا الموضع فقط في القرآن، حيث يقرأ بعدم الصلة فيما سواه كبقية القراء عدا ابن كثير.

لأهل الكفر، ولمَّا كان الشرك بالله تعالى، وقتل النفس، والزنى أقبح خصال الناس، فقد تخلَّى عنها أهل الإيمان كما تحلَّوْا بالطاعات.

وفي هذه الآية إخراج لعباد الرحمن من صفات الكَفرة، في عبادتهم للأوثان، وقتل النفس، والزنى، ويدخل فيها عصاة المؤمنين الذين يرتكبون بعض الكبائر، ثم يتوبون.

ومن صفات عباد الرحمن: أنهم يتوجهون إلى الله وحده بالعبادة، ولا يشركون معه غيره، ولا يتوسطون إليه بأحد من خلقه حيًّا أو ميتًا، فهم يوحدون الله تعالى، ولا يعبدون إلهًا غيره، ويُسْلِمون وجوههم إليه سبحانه في عقيدتهم وعبادتهم.

الصِّفَةُ السَّابِعَةُ: حِفْظُ النَّفْسِ

﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾

إن عباد الرحمن يجتنبون كبائر الذنوب، وفي مقدمتها قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وهذا الحق يبيِّنه النبي ﷺ في الحديث الصحيح: عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيّب الزاني**» وهو الذي زنى بعد أن سبق له الزواج، سواء أكان متزوجًا حال الزنى أم لا، أي: زنى بعد زواج وإحصان «**والنفس بالنفس**» أي: الذي قتل غيره متعمدًا فإنه يُقتَل قصاصًا «**والتارك لدينه**» وهو المرتد «**المفارق للجماعة**»[1].

والقصاص في هذه الأحوال وغيرها يكون لوليِّ الأمر، وليس لأفراد الناس، ولا لصاحب الحق، إنما وليُّ الأمر، أو من ينيبه، هو الذي يتولى التنفيذ، فالحق الموجب للقتل هو: كفر بعد إيمان، أو زنى بعد زواج، أو قتل نفس عدوانًا، أو سعى في الأرض بالفساد بالنسبة لحد الحرابة.

وصحَّ عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عبد الله بن مسعود ﷺ أنه سُئل: أي الذنب أكبر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك**»، قيل: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك**» ومنه تحديد النسل، أو تنظيمه خوف الفقر، قيل: ثم أي؟

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٦٧٦) و«صحيح البخاري» برقم (٦٨٧٨).

قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»[١] أي: زوجة جارك، ونزلت هذه الآية تصديقًا لقول الرسول ﷺ.

الصِّفَةُ الثَّامِنَةُ: حِفْظُ النَّسْلِ

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾

ومن أوصاف عباد الرحمن أنهم يحفظون فروجهم من الزنى إلا من أزواجهم، أو ما ملكت أيمانهم، ولا يرتكبون جريمة الزنى؛ فإن من أفحش الذنوب أن يستحل العبد فرجًا حرَّمه الله عليه، ونهاه عنه، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢]. فهم يحفظون فروجهم إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم.

عن سلمة بن قيس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «**ألا إنما هُنَّ أربع: أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا**»[٢]. فما أنا اليوم بأشح مني يوم سمعتُهن من رسول الله ﷺ.

وجاء في الأثر: إن الله ينهاك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق، وينهاك أن تقتل ولدك وتغذو كلبك، وينهاك أن تزني بحليلة جارك. قال سفيان: وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾[٣].

والزنى ذنب عظيم، ولكنه يكون أعظم إذا كان بزوجة الجار، أو الصديق، أو المؤتمن على بيته.

فقد سأل النبي ﷺ أصحابه يومًا كما جاء في حديث المقداد بن الأسود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ماذا تقولون في الزنى**»؟ قالوا: حرَّمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر من أن يزني بامرأة**

---

(١) انظر: البخاري برقم (٤٤٧٧، ٤٧٦١، ٦٨١١) ومسلم برقم (٨٦) و«المسند»(١/ ٣٨٠) ورقم (٣٦١٢، في المحقق، بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٣٦٨) ٤١٣١) والترمذي (٣١٨٣). وسعيد بن منصور في سننه (٢٣٠٢).

(٢) النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٣٠٩) وابن أبي عاصم في السنة (٩٧٠) والطبراني (٦٣١٦، ٦٣١٧) والحاكم (٤/ ٣٥١) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، و«المسند» (١٨٩٨٩، ١٨٩٩٠) إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٣) ذكره ابن أبي حاتم عن أبي فاختة، وفي بعض النسخ عن أبي قتادة، وقد رُوي مرفوعًا ومرسلًا (٨/ ٢٧٢٨).

جاره»، قال: «ما تقولون في السرقة»، قالوا: حرمها الله ورسوله، فهي حرام، قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق جاره»[(١)].

وتعظيم حرمة الجار لأنه مؤتمن على جاره، قال الشاعر العربي:

وأغضُّ طرفي إنْ بدتْ لي جارتي حتى يواريَ جارتي مأواها

وهذا لا يغض طرفه، وإنما يعتدي على محارم الله، وعلى زوجة جاره.

جاء في **أسباب النزول**: عن ابن عباس ﷺ: أن ناسًا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم جاؤوا لرسول الله ﷺ قالوا له: يا محمد، إن ما تقوله وتدعو إليه لَحسن، أي: إن هذه الدعوة وهذه الرسالة والوحي الذي تدعوّ إليه أمر حَسَن، لو كان لِمَا فعلْناه في الماضي من القتل والزنى كفارة؟ فأنزل الله الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى آخرها، ونزل: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

وبعد ذكر هذه القبائح الثلاث، قال تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾.

أي: ومن يرتكب شيئًا من هذه الكبائر الثلاث يلق في الآخرة عقابًا مناسبًا له.

جاء في الأثر: إن الغيَّ والآثام بئران في جهنم، يسيل فيهما قيح وصديد أهل النار[(٢)].

والمشار إليه في الآية: مَنْ يفعل مجموع هذه الثلاثة، وهي: الشرك، والقتل، والزنى ومات دون توبة.

ثم فسر سبحانه هذه العقوبة، وبيَّن أن سبب تضعيف العذاب أنه تعالى يعاقب على الشرك، ويعاقب على ارتكاب القتل، وعلى ارتكاب الزنى، فهو عذاب مضاعف؛ لأنه يُعذب على كل ذنب.

---

(١) «المسند» (٦/٨) عن المقداد بن الأسود، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/١٦٨): رجاله ثقات ورقمه في المسند (٢٣٨٥) بإسناد جيد، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٣) وفي التاريخ الكبير (٨/٥٤) والطبراني في الكبير ٢٠ (٦٠٥) وفي الأوسط (٦٣٢٩) واستدل به الحافظ في الفتح، وقد صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٤٠٤).

(٢) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٧/٥١٣).

أما الخلود في جهنم فهو خاص بمن مات على الشرك، وهذا الخلود مصحوب بالذل والهوان، وما عدا الكفر من المعاصي لا يوجب الخلود في النار؛ وهذا ما يدل عليه النصوص القرآنية والسنة النبوية، وأن جميع المؤمنين يخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن، مهما فعل من المعاصي، فالمشرك يعذَّب على شركه، ويُعذَّب على كل ذنب آخر اقترفه عذابًا يناسب ذنبه، ولا يكتفي بالعذاب الأكبر؛ لأن الإسلام يدعو الناس إلى الإقلاع عن الشرك، وعن جميع المعاصي، وهذا معنى أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، أي: معاقبون على ما ارتكبوه من النواهي، وعلى القول بأنهم غير مخاطبين بفروع الشريعة، فإن من مات منهم على الكفر يخلد في النار لكفره.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: من يفعل هذه الثلاث: الشرك، والقتل، والزنى، وهي أمهات الكبائر، فإنه يلقى عقوبة صارمة.

وقيل: إن (آثام) اسم لوادٍ في جهنم يضاعف له العذاب فيه يوم القيامة.

وكانت مضاعفة العذاب لأنه ضمَّ إلى الشرك: القتل، أو الزنى، أو كليهما، ولكل منهما عقوبة مستقلة، ويخلّد في العذاب، لأنه مشرك، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] إذا مات على شركه، فإذا تاب من شركه قبل الموت فإن الله يتوب عليه ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقد خصت هذه الثلاث بالذكر، لأن في الشرك فساد الأديان، وفي القتل فساد الأبدان، وفي الزنى فساد الأعراض.

التَّوْبَةُ مِنَ الْكَبَائِرِ

٧٠- ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

استثنى الله - سبحانه - من مضاعفة العذاب، ومن الخلود في نار جهنم، مَنْ تاب إلى الله تعالى قبل موته، وآمن بالله سبحانه، وأكثر من العمل الصالح، فهؤلاء الذين اجتمع فيهم هذه الصفات يبدل الله سيئاتهم حسنات.

قال ابن عباس ﷺ: قرأنا هذه الآية سنين، يعني: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ حتى نزل بعد مدة طويلة: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾.

قال ابن عباس ﷺ: فما رأيتُ رسول الله ﷺ فرح بشيء كفرحه بها، وفرحه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾[1] [الفتح].

فالله سبحانه يقبل التوبة حتى من الكافر، قال تعالى عمن أشركوا بالله، فقالوا: عزير ابن الله، ومن قالوا: المسيح ابن الله، حاثًّا لهم على التوبة: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ [المائدة: ٧٤].

عن سعيد بن جبير قال: قال ابن أبْزى: سَلِ ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ﴾ حتى بلغ ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ فقال: لما نزلت، قال أهل مكة: فقد عدلْنا بالله -أي: أشركنا به- وقتلْنا النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأتينا الفواحش، فأنزل الله ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾[2].

أما المؤمن الذي مات على الإسلام والإيمان وهو مرتكب لبعض الكبائر، فإنه يُعذَّب بكبيرته، ثم يكون مصيره إلى الجنة.

في صحيح مسلم وغيره: عن أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولًا، وآخر أهل النار خروجًا منها: رجل يؤتى به يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كِبارها، فتُعرض عليه صغارها، فيقال له: عملتَ يوم كذا: كذا وكذا، وعملت يوم كذا: كذا وكذا، فيقول: نعم -لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئًا- وهو مشفق من كبائر ذنوبه أن تُعرض عليه، فيقال: إن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: يارب، قد عملتُ أشياء، لا أراها هاهنا»**، قال: فلقد ضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه[3].

---

(١) الطبراني في «الكبير» (١٢٩٣٥) وفي «الأوسط» (٥٥٧٩) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٧٤): رواه الطبراني من رواية علي بن زيد عن يوسف بن مهران، وقد وُثِّقا، وفيهما ضعف، وبقية رجاله ثقات.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٦٥)، وصحيح مسلم (١٢٢، ٣٠٢٣).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٩٠) و(٣١٥) و«المسند» (٥/ ١٧٠) برقم (٢١٣٩٣، ٢١٤٩٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين والترمذي (٢٥٩٦) وفي الشمائل (٢٢٩) وأبو عوانة (٤٣٤) والبيهقي في السنن (١٠/ ١٩٠) وفي البعث والنشور (٩٨) وفي الأسماء والصفات ص(٥٤).

وتبديل السيئات حسنات يكون **في الدنيا** بمعنى: أن الله - سبحانه - يغيِّر أحواله ويبدِّلها، فيبدِّل الشرك إيمانًا، ويبدِّل النفاق إخلاصًا، ويبدِّل الزنى عفة وإحصانًا، ويبدِّل المعصية طاعة.

أو يكون **في الآخرة** بأن يبدِّل الله سيئاتهم حسنات، أي: أن يجعل مكان كل سيئة حسنة حين يغفرها له، ويثيبه على السيئة بالجزاء الحسن؛ بسبب توبته النصوح، فيمحو السيئات ويبدلها حسنات، ويعفيهم من عذاب الذنوب التي تابوا منها؛ فالإسلام يجبُّ ما قبله، والتوبة تجبُّ ما قبلها.

وعطْفُ العمل الصالح على الإيمان، إشارة إلى أنه لا يعتدُّ بالأعمال الصالحة إلا مع الإيمان.

وكان الله غفورًا لمن تاب وأناب، رحيمًا بعباده، حيث دعاهم إلى التوبة بعد أن بارزوه بأكبر المعاصي.

جاء شيخ هرم قد سقط حاجباه على عينيه فقال: يا رسول الله، رجل غدر وفجر، لم يَدَعْ حاجة ولا دَاجة، إلا اقتطعها بيمينه -أي: أنه لم يترك ذنبًا من الذنوب إلا اقترفه- ثم قال: لو قُسمتْ خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتْهم، فهل له من توبة؟ قال ﷺ **«أأسلمت»**؟ قال: أمَّا أنا، فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، قال ﷺ: **«فإن الله غافر لك ما كنتَ كذلك، ومبدل سيئاتك حسنات»** قال الرجل: وغدراتي وفجراتي يا رسول الله؟ قال ﷺ: **«وغدراتك وفجراتك»** فولَّى الرجل وهو يهلل ويكبر[(١)] وفي رواية: فلم يزل يهلل ويكبر حتى توارى[(٢)].

قال ابن كثير: ولا تعارض بين هذه الآية وبين آية سورة النساء: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء]. فإن آية سورة (النساء) وإن كانت مدنية، إلا أنها مطلقة، فتُحمل على من لم يتب؛ لأن هذه مقيَّدة بالتوبة، ثم قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ

(١) رواه الإمام أحمد عن مكحول عن عمرو بن عبسة بسند فيه مقال، «المسند» (٤/ ٣٨٤) «مجمع الزوائد» (١/ ٣٢). وقد حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣١٦٤).

(٢) وهي في «المعجم الكبير» للطبراني (٧/ ٣١٤) برقم (٦٣٦١) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٣٥).

مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

وقد ثبت بالسُّنة الصحيحة صحة توبة القاتل، كما جاء في قصة الرجل الذي قتل مئة نفس ثم تاب، وقبل الله توبته، وغيرها من الأحاديث[1].

قلت: ويراد بآية سورة النساء: ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا مستحلًّا للقتل، فهو يخلد في النار لاستحلاله القتل، وكل من استحل ما هو معلوم من الدين بالضرورة فهو كافر، والكافر يخلد في النار إن مات على كفره.

وقد دلَّت هذه الآية على أن التوبة تمحو آثام كل ذنب من الذنوب المعدودة فيها، ومنها من قتلَ مؤمنًا متعمدًا ثم تاب، وليست منسوخة على الصحيح.

ومن أهل العلم من قال: إن هذه الآية من سورة الفرقان، نزلت بالمدينة، فعن سعيد بن جبير قال: نزلت آية من ﴿تَبَارَكَ﴾ بالمدينة في شأن قاتل حمزة (وحشيٍّ) وأصحابه، كانوا يقولون: إنا لنعرف الإسلام وفضله، فكيف لنا بالتوبة وقد عبدْنا الأوثان، وقتلْنا أصحاب محمد، وشربنا الخمور، ونكحنا المشركات؟! فأنزل الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾، ثم أُنزلت توبتهم في ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ فأبدلهم الله بقتال المسلمين قتال المشركين، وبنكاح المشركات نكاح المؤمنات، وبعبادة الأوثان عبادة الله[2]. قال تعالى:

٧١- ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

أي: ومن تاب من الشرك وآمن، وأدى الفرائض والنوافل، وداوم على العمل الصالح لتدارُك ما فاته، وكانت توبته توبة صادقة، خالصة، نصوحًا، فإن هذه التوبة الكاملة المقبولة التي ازدان فيها الإيمان بالعمل الصالح، يقبلها الله تعالى ويرضى عن صاحبها، ويكفِّر عنه ذنوبه، وهي توبة في غاية الكمال، لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله تعالى وهكذا فإن رحمة الله تعالى تحيط بالعبد من كل جانب؛ لتحمله على التوبة والطاعة. قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٢٦). والحديث في صحيح مسلم عن أبي سعيد برقم (٢٧٦٦) وصحيح البخاري (٣٤٧٠).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٧/ ٥١٧) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٣١) وغيرهما.

والمقصود من الآية: الحث على التوبة النصوح، والإتيان بها على أكمل الوجوه.

الصِّفَةُ التَّاسِعَةُ مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ: أَنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ

٧٢- ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾

أي: إن الله تعالى بعد أن بيَّن أن من قِوام الإيمان عدم الشرك بالله تعالى، وترك القتل، والزنى، أتبع ذلك بذكر خصال أخرى بها يكمُل الإيمان، ويكون التحلي بمكارم الأخلاق، ومنها: عدم حضور مجالس الباطل.

وبيان ذلك: أنَّ (شَهِدَ) تأتي بمعنى: حضر، كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وتأتي (شَهِدَ) بمعنى: الشهادة، كقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف: ٢٦].

والزور: هو الباطل من الأقوال والأفعال، ويغلب استعماله في الكذب، والآية تشمل المعنيين معًا.

وعباد الرحمن لا يكْذِبون، ولا يشهدون شهادة الكذب، ولا يشهدون شهادة مبنية على كذب الآخرين، ويجتنبون مجالس الخوض في آيات الله، والتنقيص من شأن رسوله ﷺ والجدال بالباطل ولا يحضرون الأقوال والأفعال المحرمة، وهم أيضًا لا يحضرون مجالس الزور وما فيها: من لغو، وباطل، وسبٍّ، وغيبة، ونميمة، ومن ذلك مجالس: الغناء والموسيقى واللهو، ولا يحضرون أعياد المشركين؛ لأن في ذلك اعترافًا بباطلهم وإقرارًا له، فضلًا عن تهنئتهم، والإهداء إليهم، وفيه مساعدة لأهل الباطل على باطلهم، ولا يحضرون المجالس التي يُعصى فيها رب العالمين، كما في الحديث عن جابر ﷺ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر»**[(١)]

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا

---

(١) رواه الترمذي في «السنن» برقم (٢٨٠١) عن جابر بسند حسن لغيره، وعند الحاكم (٤/ ٢٨٨) وهو في مسند أحمد ١٤٦٥١ وعن عمر برقم (١٢٥) بلفظ (يدار عليها) وهو حديث حسن لغيره، لجهالة قاص الأجناد، وبقية رجاله ثقات (محققوه)، وأخرجه أبو يعلى (٢٥١) والبيهقي (٧/ ٢٦٦) وعن ابن عمر عند أبي داود (٣٧٧٥).

يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام].

وجملة: ﴿لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ تختلف عن جملة: لا يشهدون بالزور؛ فالأول بمعنى: الحضور، والثاني بمعنى: الشهادة بالكذب، فهم لا يحضرون المجالس التي فيها أفعال الزور، ولا شهادة الزور.

وعلى القول بأن المراد: شهادة الزور (الكذب) فقد أخبر النبي ﷺ أنها من أكبر الكبائر، كما جاء في حديث أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»**؟ ثلاثًا. قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: **«الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»**، وكان متكئًا فجلس، فقال: **«ألا وقول الزور، وشهادة الزور»**، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[1].

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويُسخِّم وجهه، ويطوف به في الأسواق.

وأصل **الزور**: تحسين الشيء، ووصفه بغير صفته، ووضعه في غير موضعه.

الصِّفَةُ الْعَاشِرَةُ: الْإِعْرَاضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ

أي: إن عباد الرحمن إذا مروا بأهل الباطل، واللغو من الأقوال والأفعال، كان مرورهم عليهم مصادفة من غير قصد، فهم لا يركنون إليهم، ولا يخالطونهم، ولا يجالسونهم، إكرامًا لأنفسهم، وصَوْنًا لكرامتهم، وحفاظًا على دينهم ومروءتهم، إنهم لا يقصدون هذه المجالس ويغشَوْنها، بل يُعرضون عنها، ويُنكرون قولهم أو فعلهم، ويتنزهون عن مجالستهم، ولا يرضوْنه لغيرهم إلا إذا نصحوهم فأمروهم بالمعروف، ونهوهم عن المنكر.

واللغو: هو كل كلام أو فعل لا خير فيه ولا فائدة منه، فهو وإن كان لا إثم فيه، إلا أنه سفه ونقص وإخلال بالمروءة، فضلًا عن الخوض في كل قبيح، مثل: الشتم، والأذى، ومجالس اللهو، والمعاصي، والباطل.

وعباد الرحمن لا يركنون إلى الظَّلَمة، ولا إلى أهل المعصية إلا وهم مسرعون معرضون

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٦٥٤) و«صحيح مسلم» برقم (٨٧).

عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام: ٧٠].

الصِّفَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: التَّأَثُّرُ بِالْقُرْآنِ

٧٣- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣)﴾

أي: إن عباد الرحمن إذا سمعوا القرآن تدبروه، وعملوا به، وأثَّر في نفوسهم بما فيه من مواعظ وعبر، وهدايات، وأحكام، وقصص، وتشريع، وإيمان بالغيب، وثواب وعقاب، وغيَّر من أحوالهم، وخرُّوا لآياته سجَّدًا وبكيًّا، فهم لم يتغافلوا أو يعرضوا عما فيه من دلائل التوحيد، والوعظ، والتذكير بآيات القرآن، كأنهم صمٌّ لم يسمعوها، وعُمْيٌ لم يبصروها كالكفار، بل وعتْها قلوبهم، وتفتحتْ لها بصائرهم، فَخَرُّوا لله ساجدين مطيعين، ولم يكونوا ممن قال الله فيهم: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية].

وإنما كانوا ممن قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾ [التوبة].

فهذه الآية تمدح المؤمنين، وتذم الكافرين، وحال المؤمنين أنهم يقابلون آيات الله بالقبول والافتقار إليها، والانقياد والتسليم، فتجد منهم آذانًا سامعة وقلوبًا واعية، فيزداد إيمانهم ويقْوي يقينهم، كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥]

وقال سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء]

وقال أيضًا ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]

الصِّفَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: سُؤَالُ الذُّرِّيَّةِ الصَّالِحَةِ وَ الزَّوْجَةِ الصَّالِحَةِ

٧٤- ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا[1] قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾

أي: إن عباد الرحمن يسألون الله تعالى أن يرزقهم ذرية صالحة، وزوجة صالحة تقرُّ بهما أعينهم، وأفضل ما تقرُّ به العين بعد توحيد الله تعالى وطاعته، أن يرزق الله المسلم زوجة صالحة مطيعة، وذرية مطيعة لله ورسوله.

وإذا كانت الذرية صالحة فإنهم لا يعقُّون آباءهم، ولا يعصونهم، ما داموا مطيعين لأمر الله سبحانه.

وعندما تكون المرأة صالحة، فإنها تحفظ دينها وعرضها، وشرف زوجها وماله، وليس أقرَّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله ورسوله، وفي هذا انتشارللإسلام، وتكثير من أتباعه.

على أن المسلم لن ينال شيئًا من أبنائه بعد موته إلا دعوة صالحة إن كانوا صالحين.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**[2].

ولما سُئِل الحسن عن هذه الآية: هل قرة عين في الدنيا أم الآخرة؟ قال: ما من شيء أحب إلى المرء المسلم من أن يرى والدًا، أو ولدًا، أو حميمًا، أو أخًا مطيعًا لله[3].

ومن ذلك أن رجلًا مرَّ بالمقداد بن الأسود ﷺ فقال: «طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ، والله لودِدْنا أنّا رأينا ما رأيتَ، وشهدنا ما شهدتَ...» ثم ذكر أن الله تعالى

---

(١) قرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي وخلف بحذف ألف (وذرياتنا)، على الإفراد؛ لإرادة الجنس، وقرأ الباقون بالجمع.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٦٣١)، ومسند أحمد (٨٨٤٤) بإسناد صحيح، والدارمي (٥٥٩) والبخاري في الأدب المفرد (٣٨) والترمذي (١٣٧٣) وأبو يعلى (٦٤٥٧) وابن خزيمة (٢٤٩٤) وابن حبان (٣٠١٦) والبغوي (١٣٩).

(٣) يُنظَر: «فتح الباري» (٨/ ٤٩١) والطبري (١٧/ ٥٣٠) والبيهقي (٨٦٦٨) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٤٢).

بعث محمدًا ﷺ إلى قوم كانوا يروْن أن عبادة الأوثان أفضل دين، فجاء الله بهذا القرآن، فرَّق فيه بين الحق والباطل، وفرَّق بين الوالد وولده الكافر، وقد فتح الله به قلوبًا غُلفًا.

ولما كان المسلم يعلم أنه لن تقر عينه إذا كان حبيبه في النار، سأل ربه أن يهب له أزواجًا، وذرية تقرُّ بهم عينه في الجنة[1].

الصِّفَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: الْقُدْوَةُ الْحَسَنَةُ

إن عباد الرحمن يسألون ربهم أن يجعلهم قدوة حسنة، وأئمة يُهتدى بهم، ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ وذلك أنهم لما سألوا الخير والتوفيق لأزواجهم وذرياتهم، سألوا لأنفسهم أن يجعلهم الله قدوة يَقتدي بهم المتقون، فهم يسألون لأنفسهم بلوغ الدرجة العالية من التقوى؛ فإنه لا يصلح للقدوة إلا مَنْ بلَغ الغاية في الكمال، وهم يسألون الله تعالى أن يجعلهم دعاة للإسلام، يهتدي الناس عن طريقهم إلى الله تعالى، وأن يجعلهم هداة مهتدين، دعاة إلى الخير، وأئمة يُقتدى بهم أينما حلُّوا، وأينما ساروا، وألا يجعلهم من دعاة الضلال الذين قال فيهم: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]. ويجعلهم ممن قال فيهم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ [السجدة: ٢٤]. فأوصلْنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين والصالحين من عباد الله، وهي درجة الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم، فيُهتدى بهديهم، ودرجة الإمامة في الدين لا تحصل إلا بالصبر واليقين، كما في آية سورة السجدة السابقة، فهم يصبرون على طاعة الله، ويصبرون عن معاصي الله، وعلى أقداره المؤلمة، وعندهم من العلم التام الذي يوصل إلى درجة اليقين، وأهل الهمم العالية يكون جزاؤهم من جنس العمل، فهم في المنازل الرفيعة والدرجات العالية.

---

(١) انظر هذا المعنى في: البخاري في الأدب المفرد برقم (٨٧) وهو في «صحيح الأدب المفرد» (٦٤) وفي «المسند» برقم (٢٣٨١٠) قال محققوه: إسناده صحيح ورجاله ثقات، والطبراني (٦٠٠) وابن حبان (٤٩٠) الإحسان، وغيرهم.

جَزَاءُ عِبَادِ الرَّحْمَنِ

٧٥، ٧٦- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ[1] فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾

وبعد أن ذكر - سبحانه - أوصاف عباد الرحمن الثلاثة عشر، وهي:

١- السكينة والوقار والتواضع.

٢- والحِلم، وحسن الأدب، وسعة الخلُق، والعفو عن الجاهلين، والإعراض عنهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان.

٣- والتهجُّد. ٤- والخوف من النار، والتضرع إلى الله تعالى أن ينجيهم منها.

٥- وإخراج الواجب والمستحب في النفقات، وحسن الاقتصاد بعدم الإفراط أو التفريط، وترك الإسراف، وترك الإقتار.

٦- والتنزه عن الشرك. ٧- وترك قتل النفس.

٨- وترك الزنى، والسلامة من كبائر الذنوب عمومًا، ومنها العفة عن الدماء والأعراض، وإخلاص التوحيد لله تعالى، والتوبة. ٩- وترك الكذب.

١٠- والعفو عن المسيء. ١١- وقبول دعوة الحق والمواعظ.

١٢- وإظهار الحاجة إلى الله تعالى بسؤال الزوجة الصالحة والذرية الصالحة.

١٣- وأن يجعلهم أئمة يُقتَدى بهم.

بعد ذلك بيّن سبحانه أنهم يُجزون في الآخرة نعيمًا لا ينفذ، ومنزلة عالية، وأمنًا واستقرارًا.

وقد ابتدأت هذه الصفات بقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وهنا - في هذه الآية - يأتي الخبر بالإشارة إلى أن من اتصفوا بهذه الصفات، يُثابون يوم القيامة بأعلى منازل الجنة، فضلًا من الله وكرمًا، وكان ذلك بسبب صبرهم على مشقة الطاعات، وترك المعاصي، وكبح الشهوات، ومغريات الحياة.

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب بضم الياء وفتح اللام من (يلقون) مبنيًا للمجهول من لقّى، وقرأ الباقون بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف من يلقى.

والغرفة: هي الدرجة العالية الرفيعة في الجنة. قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]. وقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: ٢٠].

عن مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن في الجنة غرفة يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلَّى والناس نيام»**[1].

وهؤلاء الذين وُصفوا بالأوصاف السابقة يُجزوْن يوم القيامة الغرفْة في الجنة، فيتبوَّؤون المكان الخاص والمنزلة العالية، ويَلْقوْن التحية في الجنة، وتُسلِّم عليهم الملائكة، حين يدخلون عليهم من كل باب قائلين: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد]. ويسلِّم بعضهم على بعض فيها، وهم مع ذلك سالمون من الآفات والعلل، يَحيْون في الجنة حياة طيبة، ليس فيها ما يكدِّر الصَّفو، أو يُنغِّص الحياة.

وعباد الرحمن يُخلَّدون في الجنة خلودًا أبديًّا من غير مرض ولا موت، لا يرْحلون منها، ولا يزُولون عنها، ولا يبغون عنها حولًا، كما قال تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود] أي: غير مقطوع ولا ممنوع، وقد حسُن مكانهم في الجنة، وحسُنت إقامتهم ومستقرهم فيها، فلا يرضَوْن بها بديلًا، وهذا في مقابل سوء مصير أهل النار، وهم يسألون الله أن يصرفهم عنها: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾.

فاللهم لا تكلْنا إلى أنفسنا طرفة عين، واصرف عنا جميع النقم، وارحمنا رحمة تغنينا عمن سواك، فلا حول ولا قوة إلا بك.

خِتَامُ السُّورَةِ

٧٧- ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾

وفي ختام السورة التي ذَكَرت شُبُهات المشركين وأبطلتْها، وبشَّرتْ عباد الرحمن بأرفع المنازل، يوجه الله - سبحانه - للناس جميعًا خلاصة شافية للسورة، يوضح فيها هوان

---

(١) «المسند» برقم (٢٢٩٠٥) قال محققوه: إسناده حسن إن كان ابن معانق سمعه من أبي مالك، وهو في مصنف عبدالرزاق (٢٠٨٨٣) وابن خزيمة (٢١٣٧) وابن حبان (٥٠٩) والطبراني (٣٤٦٦) والبغوي (٩٢٧).

البشرية على الله تعالى لولا عبادة العابدين، وطاعتهم لرب العالمين، أما المكذبون بدعوة الرسل فإن العذاب حتمٌ لازمٌ بالنسبة لهم.

وقد جاء هذا البلاغ عن طريق الرسول ﷺ موجَّهًا إلى الناس جميعًا الذين شملتهم السورة -مؤمنهم وكافرهم- فالله تعالى لا يكترث ولا يبالي بالناس لولا دعاؤهم إياه، دعاء العبادة ودعاء المسألة، ولولا استجابتهم له، كما في هذه الصفات لعباد الرحمن، ولولا امتثالهم أمر الله تعالى في دعائهم وعبادتهم له؛ لأن الله تعالى خلق الخلْق لوظيفة معينة، هي أداء العبادة، فإن لم يؤدوا هذه المهمة فإن الله تعالى لا يبالي بهم، ولا يعبأ بهم ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ أي: لولا إجابتكم لدعوة الإسلام، ولولا إيمانكم به سبحانه، ولولا سؤالكم له وإظهار الحاجة والتذلل له، وأنكم تعبدون الله بما افترضه عليكم، وتسألونه كشف الضر عنكم، وتؤدون المهمة المنوطة بكم في دعائكم وعبادتكم له، لولا ذلك فإنكم لا تَهُمُّون الله تعالى في شيء؛ فالله تعالى لا ينتفع بعبادتكم له، ولا تزيد العبادة في ملكه شيئًا، ولا ترفع من شأنه؛ لأنه تعالى لم يخلقنا لحاجة له فينا، وإنما خلقنَا لنعبده ونسأله، فيغفر لنا ويعطينا، فإذا كذَّبتم الرسل فإن العذاب يكون ملازمًا لكم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء].

وقد اكترث الله بعباد الرحمن فأعلى ذكْرهم بسبب عبادتهم، ودعائهم لربهم، وأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يصرح بذلك للناس جميعًا، ويجزم لهم بأنه أعلى قَدْرَهُم عند الله بسبب عبادتهم له.

وإذا علمتم ذلك فسوف يلزمكم -يا من كفرتم بالله ورسوله- أَثَرُ تكذيبكم، وعدم طاعتكم له حتى يكبكم الله في النار، فيكون تكذيبكم للداعي وهو محمد ﷺ مُفْضيًا لعذابكم، يلزمُكُم هذا العذاب لُزُوم الغريم لغريمه، ويهلككم الله به في الدنيا والآخرة، فاللهم حبِّبْ إلينا الإيمان، وزيِّنْه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

تم تفسير (**سورة الفرقان**) ولله الحمد والمنة

فهرس الموضوعات

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة